

عصارة فكر وتجربة حياة

مقالات بقلم

الأستاذ سعيد الأفغاني

حررها وعلق عليها وقدم لها

حسن إسماعيل مروة

دار البشائر



مقالات بقلم

الأستاذ سعيد الأفغاني

حرّرها وعلّق عليها وقدّم لها

حسن إسماعيل مروة

دار البشائر



بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان : عصارة فكر وتجربة حياة

مقالات بقلم الأستاذ سعيد الأفغاني

حررها وعلّق عليها وقدّم لها :

حسن إسماعيل مروه

عدد الصفحات: ٨٤٨ صفحة

قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤سم

عدد النسخ : ٥٠٠ نسخة

تنضيد وإخراج : زياد ديب السروجي

I S B N 978 - 9933 - 406 - 27 - 1

دَارُالبَشَائِر

للطباعَةِ وَالنشْرِ وَالتَّوزيع

دمشق ــ شارع ٢٩ أيار ــ جادة كرجية حداد

هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ ــ ٢٣١٦٦٦٩

ص. ب ٤٩٢٦ سورية ــ فاكس ٢٣١٦١٩٦

الموقع : www.daralbashaer.net

البريد الإلكتروني : info@daralbashaer.net

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ = ٢٠١٠م



الأستاذ سعيد الأفغاني



الإهداء

إلى من لم يخفْ في الله لومة لائم ، ولا عَرف المجاملة في الحق ، إلى من قال يوماً : « في طبعي هُيامٌ بالحرية والصّراحة ، وكثيراً ما أَنكُبُ الطريقَ الأَسْلمَ في سبيل الجهر بما أرىٰ أنّه الحقُّ في العقائد والأشخاص ، متحمّلاً بصبرٍ وطمأنينة ما أجرُّ على نفسي من عَناءٍ وعِداء ، وهذا بلاءٌ حتمٌ ، لا مفرَّ منه ، لمن خُلق صريحاً ، ولو حاول غير ذلك ما استطاع » . إليه ، وقد طوى الثَّرى جسدَه ، وما انفكت روحه منارةَ خيرٍ وحقٍّ وصدق .

إلى الأستاذ سعيد الأفغاني نقدّم هذا الجهد البسيط ، وفاءً وعرفاناً .

حسن

تقديم

بقلم : أ . د . مازن المبارك

الحمد لله والصلاة والسلام على سيّدنا محمد رسول الله . وبعد ، فلقد قضى الأستاذ الأفغاني ـ رحمه الله ـ أكثر من خمسين سنة من حياته في التدريس والكتابة والتأليف والتحقيق . وعرف الناس كتبه المؤلفة والمحقَّقة ؛ قرؤوها وانتفعوا بها ، وكانت مراجع لهم في موضوعاتها ، وما زال بعضها ككتاب (أسواق العرب) ، محافظاً على قيمته العلمية إلى اليوم ، وقد مضى على تأليفه سبعون عاماً .

لكن ما يقال في الكتب المطبوعة لا ينطبق على المقالات والبحوث المنشورة في الصحف والمجلاّت ، فالكتب تبقى في المكتبات وفي معارض الكتب والأسواق منذ زمن طباعتها ، وإذا نفدت طبعة واحد منها جدّدت طبعته فتتوالى طبعات الكتاب الواحد ليبقى مواكباً للزمان طافياً فوق أعناق السنين ، وأما المقالة فبنت ساعتها لأنها تنشر في صحيفة أو مجلّة مؤرخة بزمان لا تبقى لغيره ، ولا تكاد تنتشر حتى (تُطوىٰ) فأعدادها تتوالى ، يكرّ الجديد على القديم أو اللاحق على السابق فينسيه ، وبذلك يضيع علم كثير فيما تنشره الصحف والمجلاّت في مشرق الوطن العربي ومغربه .

ما زلت أذكر وصيّة الأستاذ محمد كرد علي ـ رحمه الله ـ أول رئيس لمجمع اللغة العربية بدمشق في آخر مرّة رأيته فيها ، إذ كنت في زيارته في داره بصحبة أخي الأستاذ محمد المبارك فقال : ينبغي للكاتب أن يحرص على جمع مقالاته المنشورة والموزّعة بين الصحف والمجلاّت في كتاب يضمّها ، وقال : إنه كان يحثّ أصحابه وأصدقاءه ومعارفه من العلماء والأدباء والكتّاب على جمع مقالاتهم لئلا تنسى أو تضيع .

وقد كان من نعمة الله تعالى على أستاذنا الأفغاني أن رزقه بابنة واعية بارّة قامت

بعد وفاته بواجب الوفاء نحو آثاره فاتصلت بالمكتبات ودور النشر لتعرف ما بقي من كتبه وما نفد ، فتجدّد طباعة ما نفد منها برّاً بأبيها ونشراً لعلمه ونفعاً لطلاب العلم . وقد رأت اليوم ـ جزاها الله خيراً ـ أن تجمع مقالات أبيها وبحوثه ومحاضراته وتوكل إلى الأستاذ حسن إسماعيل مروة أمر تصنيفها والإشراف على طباعتها وإخراجها ، وليس ذلك بالأمر اليسير فقد توزّعت مقالات أستاذنا ـ رحمه الله ـ بين الشام والعراق ومصر والمملكة العربية السعودية وتونس والمغرب وليبية . . . وتباعدت تواريخ نشرها ، وتوقّفت بعض المجلاّت التي نشر فيها عن الصدور ، وقام الأستاذ حسن بجمع ما أمكنه جمعه وإن كان من العسير الحكم بأن الجمع قد أحاط بها جميعاً ، على أني أقدّر بأنه جمع معظم ما عُرف منها وما نشر ، وأنه سعى جاهداً في الوصول إلى مقالات أستاذنا وبحوثه ومحاضراته وتعقيباته وتقاريظه ، وأنه وضع بين أيدي القرّاء كل ما وقف عليه بجهده ، وكل ما أشارت إليه المصادر التي ذكرت آثار أستاذنا وعدّدتها سواء في ذلك كتابي (سعيد الأفغاني ، حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها) أو كتابات من تعقّبني أو استدرك ما فاتني ذكره كالدكتور يوسف عبد الله الجوارنة ـ جزاه الله خيراً ـ في (سعيد الأفغاني ـ وجهوده في علم العربية) أو غيرهما ، وإذا كان الأستاذ حسن مروة قد فاته بعد ذلك شيء من آثار أستاذنا فما ذلك إلاّ لبعد المدى الذي انتشرت فيه تلك الآثار واتساعه زماناً ومكاناً ، ولكن حسبه أنه بذل جهده ، وحسب ابنة أستاذنا أنها واصلت رسالة أبيها ـ رحمه الله ـ فجزاها الله عن أبيها وعن العلم خيراً ، وحسب هذا الكتاب أنه إذا لم يحط بجميع آثار الأستاذ الأفغاني من مقالات وبحوث وتعليقات فقد أحاط بمعظمها ، وحسب القلادة إن لم تحط بالعنق كلّه أن تحيط بجلّه .

حسب هذا الكتاب أنه سيذيع مجدّداً كثيراً من آراء الأستاذ الأفغاني في اللغة والنحو وأصوله ، وفي الرجال والتاريخ والاجتماع ، ومنها الكثير مما لم يذكر في كتبه .

ومقالات أستاذنا لم تأت كالمقالات التي تشعر وأنت تقرؤها أنها كتبت شهوة في الكتابة ، بل جاءت معبّرة عن آرائه في كثير من الموضوعات ، وفيها الكثير من النافع

المفيد ، فلقد كان ـ رحمه الله ـ صاحب نظرات في النحو ومسائله ، وفي كثير من الرجال والشخصيات التاريخية التي عاصرها وعرفها ، وفي الحياة الاجتماعية . . . ولقد قرأت فيها ما لم أقرأه في كتبه ! وقرأت فيها بعض ما كان يشير إليه في دروسه إشارات عابرة وكأنه لا يرى أن الدرس يتّسع وقته وجوّه لذلك ، لقد كان من منهجه حين درّسنا النحو في الجامعة ألاّ يلقّننا آراءه الخاصة ، وكأنه لا يجيز لنفسه أن يعلم طلابه رأياً يراه هو لنفسه ، ولكن حسبه أن يشير أو يلمح إليه تلميحاً تاركاً للمستزيد من طلابه أن يستزيد ، لقد سألته مرّة عن وجهٍ إعرابيّ لم يذكره في مناقشة أحد الشواهد فقال لي : أنا معك ، ولكني لا ألقّن طلابي آرائي الخاصة . ولم أتبيّن هذه الصفة من صفات أستاذنا بوضوح إلا بعد أن زاملته ودرّست معه في كلية الآداب ، وعرفت آراءه وعرفت كرهه للذين يعرضون عضلاتهم على الطلاب ـ وفيهم من فيهم ـ وكأنهم هم وحدهم مصادر العلم ! قال ـ رحمه الله ـ : الآراء الخاصة تعرض على الزملاء للمذاكرة والمناقشة ، ولا تعطى للطلاب على أنها هي العلم الصحيح !! وحين بلغه أن زميلاً لنا عرض على الطلاب رأياً خاصاً زعم أنه رأي جديد لم يقل به أحد من قبل ، وأنه يرجح سائر الآراء ، أظهر انزعاجه وقال : ما شاء الله لقد وصل صاحبك إلى درجة أو إلى مرتبة الاجتهاد ، فقلت له : وأنت ألم تبلغ في النحو مرتبة الاجتهاد وأنت أستاذنا جميعاً ؟! فتبسّم وقال : أنا اجتهادي أحتفظ به لنفسي ، وإذا أذعته أذيعه بين زملائي للمناقشة أو أكتبه في مقالة تعرض على المختصين ليقولوا فيه آراءهم .

ثم عقّب : الاجتهاد الفردي لا يجوز أن يعلّم للطلاب .

رحم الله أستاذنا الأفغاني وجزاه عن العربيّة وأهلها خير الجزاء .

دمشق ٢٠/ ١٠/ ١٤٢٩هـ

الموافق ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٨م

الدكتور مازن المبارك



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى أنبياء الله المرسلين بالحقّ والتوحيد والنور المبين ، وعلىٰ آله وأصحابه وتابعيه ، ومن اهتدىٰ بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد . فهذه إضمامة من مقالات وبحوث وتعقيبات وتقاريظ لشيخ العربية ، وأستاذ أساتيذها الأستاذ محمد سعيد الأفغاني . حرصت دار البشائر بدمشق ـ عمّرها الله ـ على إخراجها وفاءً للأستاذ العالم ، وعرفاناً بفضله على العربية وأهلها في شامنا المحروسة .

وكان من حسن طالعي أن أُوكلت إليّ مهمة ترتيب هذه المقالات والبحوث ، وتحريرها ، والتعليق عليها ، والتقديم لها ، وذلك حسنُ ظنٍّ بي ، أرجو أن أكون له أهلاً .

فرحت أقدِّم رجلاً وأؤخر أخرى ، وأنا في كلا الحالتين خاضع لتأثيرات ودوافع تشدُّني تارة ، وتدفعني تارة ، في مدٍّ وجزر .

● أذكر أستاذنا الفاضل بقامته الرّبعة ، المحاطة بهالة من الوقار والصّرامة ، وهو يقف على منبر الدرس أمام اللوحة ، وقد سبقه طالب إليها وكتب شواهد الدرس المراد إعطاؤه حرصاً منه على الوقت المخصص للمحاضرة ، ولك أن تتخيل بعدها كيف يتدفق نهر العلم الغزير ، كأنه ينبع من البحر .

وأذكر مرة ـ وقد أجبته عن مسألة ـ أنه سألني : هل تأخذ النحو على أحدٍ من الرجال ؟ فأجبته على استحياء ووجل : نعم . أدرسه على الشيخ عبد الحفيظ

الحافظ[1] ، فربت على كتفي بلطف وقال : سلم على الشيخ وقل له : « شجرتك أثمرت » .

أجل أذكر كل هذا فأُقْدِم ، وأعقد العزم على الانطلاق .

● أذكر علمه وفضله ، وعلوّ كعبه في العربية ، أذكر جدّيته وصرامته ووقاره ، أذكر صلابته ومواقفه التي لم تتبدل مع الأيام ، ومقارعته الباطل دون خوف أو تردّد ، أذكر الأجيال التي تعاقبت بين يديه ، تمتح من نبعه الفياض . فأتساءل لماذا أنا من بين هذه الجموع أتصدّى لهذا العمل الجليل ، بل لهذا الأمر الجَلَل فأتأخَّر ، وأعقد العزم على الاعتذار والانسحاب . . .

وأخيراً استخرت الله سبحانه ، وقلت في نفسي : لعلّها هبةٌ من الله ، خصّني بها واختارني لها ، ليرى سبحانه : أأشكر وأُخلص ؟!

فأسأله سبحانه السَّداد والرّشاد ، وأن يعينني على ذكر فضله وإنعامه ، وعلى شكر توفيقه وإحسانه .

أما الآن فهذه المقالات والبحوث والتعقيبات والاستدراكات ، والأنّات ـ إن جاز لي ـ هي ثمرةُ فكر أستاذنا ، ونبضُ قلبه ، وخلاصةُ تجربته عبر مسيرة حياته الطويلة ، مبثوثة هنا وهناك ، على صدر جريدة ، أو في صفحات مجلة ، أو في

---

(١) الشيخ الحافظ عبد الحفيظ الحافظ ولد في مدينة التل من ريف دمشق في أواخر القرن التاسع عشر ، حاز على الإجازة في اللغة العربية وعلومها من كلية دار العلوم بالقاهرة عام ١٩٣٦م ، وعلى إجازة في القضاء الشرعي عام ١٩٤٧م من جامعة القدس ـ ردّها الله على المسلمين ـ درّس اللغة العربية في ثانويات دمشق إلى أن تقاعد في الستينيات من القرن الماضي . انقطع بعدها للتعليم والعبادة في صومعة له على تلّة في بلدة معربا من ريف دمشق يعرفها أهل القرية باسم (الشعباني) حتى وافاه الأجل سنة ١٩٧٢م .

كان حافظاً ، عالماً باللغة والقراءات والألحان ، وعلى سعة علمه كان مغموراً لم يحصّل شهرةَ مَنْ هم أقل منه من معاصريه . ترك على ما أعلم كتاباً واحداً هو (الأَمان) مشاركة مع الأستاذ مأمون ياسين ـ فيه أبحاث تساعد الطالب في اجتياز الامتحان .

وقد حاولت أن أجمع له ترجمة فلم أجد المسعف من أهل أو ولد . رحم الله شيخي ونضّر في الجنة وجهه .

بطن كتاب ، وبعضها طار على موجات الأثير عبر إذاعة دمشق . وسوف أعمل جاهداً على ردّ كلّ نصٍّ إلى أصله ، موضحاً نوعه ، ومكان نشره ، وزمانه . ولتقديم هذه الثمار الطيّبة في إطار جميل ، رأيت جعلها في كُتُبٍ ، كلٌّ كتاب يشتمل على ما جاء من مقالات تسلك في فن واحد .

فكان الكتاب الأول ـ في اللغة والنحو

الكتاب الثاني ـ أدب وأدباء

الكتاب الثالث ـ شخصيات لها تاريخ

الكتاب الرابع ـ كتاب في سطور

الكتاب الخامس ـ قضايا ومشكلات

الكتاب السادس ـ بَوْح الوجدان

الكتاب السابع ـ تعقيبات وتقاريظ

وقبل هذا قدمت بين يدي الكتاب بمقدمة ، أتبعتها بنبذة من حياة الأستاذ وآثاره ، وكذلك أفردت حيّزاً لمقالة للكاتب والباحث الأستاذ يوسف الصيداوي في أستاذنا الأفغاني ، وكانت آخر ما كتبه في هذه الحياة الدنيا ، ولم يتمّها تغمّده الله برحمته الواسعة .

ثم ختمت هذا العمل بخاتمة ، أودّع فيها أستاذنا الجليل .

فإن كنت قد وفّقت فيما رتبت وحررت وعلقت فذلك بتوفيق من الله ، أسأله سبحانه أن يجعل ذلك في صحائفنا وصحائف من علّمنا ، ومن له فضل علينا .

وإن قصّرت دون الغاية ، فهذا وُسعي وهذه طاقتي .

وحسبي أنّي عبّرت عن محبّتي ووفائي لأستاذي وأستاذ أساتذتي .

وإني لأشكر دار البشائر التي أسهمت في إخراج هذه الدُّرر المكنونة والكنوز المدفونة عرفاناً ووفاءً لعلَمٍ من أعلام العربية والإسلام ، وهذا دأبها .

والشكر الموصول الذي لا ينقطع مدى الأيام لأستاذي الفاضل ، الأستاذ الدكتور

مازن المبارك ـ حفظه الله ـ الذي كنا ومازلنا نمتح من آبار علمه ، ونترسم هَدْي خُلُقه وفضله ، فقد قام بتقديم الكتاب بمقدمة لطيفة ، كانت منه وفاءً لأُستاذه ، وحدباً على تلميذه في الوقت نفسه ، فجزاه الله عن العربية وشداتها خير الجزاء .

وفي الختام لا بد من شكر ذلك الجندي الرائع ، الذي رعى الكتاب تنضيداً وإخراجاً ـ السيد أبو طارق السروجي ـ فلولا صبره وأناته لما كانت هذه التحفة .

نضّر الله في الجنة وجه أستاذنا سعيد ، وأكرم جواره ، ورفعه مكاناً عليّاً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

معربا ـ دمشق الشام **حسن إسماعيل مروة**

١ رمضان المبارك ١٤٢٨هـ

١٣ أيلول ٢٠٠٧م

الأفغاني ـ حياته وآثاره[1]

ـ ولادته ونشأته

هو محمد سعيد بن الحاج محمد جان الأفغاني ، هاجر والده من كشمير وهو في العشرين من عمره ، ونزل في دمشق ، واشتغل في حيّ (البزورية) وسكن في حيٍّ من أحياء دمشق القديمة ، هو حي العمارة الجوّانية ، وتزوج من أسرة شامية من بيت (الأبيض) ، ورزق بابنه (محمد سعيد) الذي ولد في عام ١٩٠٩م ، ثم رزق بعد سنتين بابنة توفيت أمها بعد ولادتها .

وقام الأب على تربية ولديه ، وكان متديناً صالحاً ، يتردّد على بعض الدروس في الجامع الأموي القريب من مكان عمله ، ويحضُرُ دروس الشيخ (بدر الدين الحسني) تحت قبة النَّسر في المسجد الجامع ،

وقد ذكره الشيخ علي الطنطاوي في (الذكريات ١/ ١١٣) فقال :

« إنّه كان على صلاحه وتقواه لا يُحسِن العربية »

وقال مرة أخرى في حديثه عن الأستاذ الأفغاني في (المصدر نفسه ٥/ ١٢) : « كان أبوه الرجل الصالح العابد من كشمير لا يكادُ يُحسن العربية ، وصار هو اليوم المرجعَ في علوم العربية ، والحجّةَ فيها » .

---

(١) غرر الشام ٢/ ٩٢٥ ـ ٩٢٦ . وفيه أن ولادته ١٩٠٨ ، ومعجم المؤلفين السوريين ٣٧ ـ ٣٨ والفيصل العدد ٢٤٦ : ص٩٨ ـ ٩٩ ، والموسوعة العربية ٢/ ٩٢٤ .
ولأستاذنا الفاضل الدكتور مازن المبارك ـ حفظه الله ـ كتاب في سيرته وآثاره : (سعيد الأفغاني ـ حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها) صدر عن دار القلم بدمشق . أفدت منه في مواضع شتّى .
وكذلك صدر في هذه الأيام الأخيرة كتاب تحت عنوان (سعيد الأفغاني وجهوده في علم العربية) للدكتور يوسف الجوارنة . اطلعت عليه ، وأنا أصحح التجربة الأخيرة قبل الطبع .

وكان الطفل ـ محمد سعيد ـ كثيراً ما يذهب إلى الجامع الأموي ، إمّا برفقة والده ، وإمّا حين يقطعه من بابه الشمالي إلى بابه الجنوبي أو العكس ؛ لأن بيته في حيّ العمارة ـ زقاق السبع طوالع ـ شمالي المسجد ، ومكان عمل والده في حيّ البزورية جنوبي الجامع .

رحلته العلمية

في هذه البيئة الشامية الإسلامية ، في أحياء البزورية والنَّوْفَرة والقَيْمرية والعمارة ، المحيطة بالجامع الأموي ، نشأ الطفل محمد سعيد الأفغاني ، وتفتّحت عيونه على الكتاتيب المنتشرة في تلك الأحياء .

كما تفتحت عيونه على ما كان يشاهد في الجامع الأموي من دروس لا تنقطع طوال النهار .

في هذه الدروس المسجدية عرف أستاذه الشيخ أحمد النّويلاتي ، وفي حلقة هذا الشيخ عرف صديقه الشيخ علي الطنطاوي .

أما الشيخ النويلاتي فعالم دمشقي عامل ، ومصلح فاضل ، توفي سنة ١٩٣٨م[(١)] قرأ على الشيخ طاهر الجزائري ، وتأثر بآرائه الإصلاحية في نقد المجتمع ، ومحاربة الفساد في جميع ميادينه الاجتماعية والفكرية والثقافية والدينية ، وهو ما نشأ عليه تلميذه الأفغاني ، وبدا واضحاً في فكره وسلوكه ، وقد جاء في ترجمة الشيخ النويلاتي : « أنّ تلاميذه كثرٌ ، ومنهم سعيد الأفغاني ، قرأ عليه العربية وعلوم الدين ، وأفاد منه فائدة لا تقدّر »[(٢)]

وبدأ محمد سعيد الأفغاني رحلته في التعلم الرسمي منذ طفولته ، حيث سجله والده في مدرسة الإسعاف الخيري ، وهو يذكر تلك المرحلة المبكرة من حياته فيقول :

---

(١) انظر تاريخ علماء دمشق . لمطيع الحافظ ونزار أباظة ١/ ٥١١ ـ ٥١٤ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٥١٢ .

« وكنت طفلاً في السابعة من عمري في مدرسة الأمينية والإسعاف الخيري (كانتا مندمجتين آنذاك) آخر العهد التركي ، فأذكر أن المدير وبعض المدرسين يلتزمون الفصحى دأباً في حوارهم معنا ، وفي إلقاء الدروس ، وفي التنبيهات العامة حين يجمعون الطلاب صباحاً وقبل الانصراف مساءً ، وحين يقرأ التفقد صباحاً كان المقروء اسمُه يجيب بـ (لبَّيْك) ، وحين يجيب الداخلون حديثاً في المدرسة بما ألفوا في مدارس الحكومة وهي كلمة (أفندم) يصرُخُ بهم المدير ، وينظر إليهم الطلاب شَزْراً ، كأنّهم كفروا بالله ، فسرعان ما يستدركون بـ (لبَّيْك) وتمرّ العاصفة »[1]

ودخل مدرسة التطبيقات ، حيث أتمّ دراسته الابتدائية ، ثم تابع دراسته الإعدادية والثانوية بعد ذلك في مدرسة التجهيز ودار المعلمين ، وكانت إذ ذاك تحمل اسم (مكتب عنبر) وقال ذاكراً تلك المرحلة من حياته :

« دخلت مدرسة التجهيز ودار المعلمين تلميذاً بعد الاحتلال بعامين ، وقد جُمع طلابُ الثانوية وطلاب دار المعلمين على منهجٍ واحد »

وقال : « إنّه وجد في المدرسة ثلاثةً من أعلام اللغة هم : الشيخ عبد الرحمن سلام ، والشيخ محمد سليم الجندي ، والشيخ محمد الداوودي ، ثم أضيف إليهم الأستاذ محمد البزم »[2]

وتخرج في شهر أيار من عام ١٩٢٨م ، والتحق بمدرسة الآداب العليا في الجامعة السورية ، وكان مديرها آنذاك الأستاذ شفيق جبري ، ومن أساتذتها : الأستاذ سليم الجندي ، والشيخ عبد القادر المبارك .

وفي شهر تشرين الأول من العام نفسه عينه الأستاذ محمد كرد علي ، وكان وزيراً للمعارف ، معلماً في مدرسة منين[3] الابتدائية ، وظلّ بعد ذلك يتنقل بين مدرسة الملك الظاهر ومدرسة البحصة ، والمدرسة الأموية ، ومدرسة الصنائع والتجارة ،

---

(١) حاضر اللغة العربية في بلاد الشام ، الحاشية (١) من ص٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ص٨٢ .

(٣) بلدة من ريف دمشق تبعد عنها ٢١ كم شمالاً .

حتى استقر عام ١٩٤١م مدرساً في مدرسة التجهيز الأولى بدمشق ، وهي جودة الهاشمي اليوم .

ولمّا أنشئت كلية الآداب في جملة ما أُنشئ من كليات الجامعة السورية عُيّن فيها أستاذاً مساعداً ، ثم أُرسل في تشرين الثاني من عام ١٩٤٦م إلى القاهرة للتحضير لدرجة الدكتوراه ، موفداً من وزارة المعارف[1] ، وسجّل موضوعَ : « أدبِ الشام السياسي في عصر الأمويين » . للتحضير لنيل درجة الدكتوراه كما أسلفت . ولكنه لم يتابعِ العمل فيه ، وعاد إلى دمشق منقطعاً لتدريس اللغة العربية في كلية الآداب ، التي أُنشئت آنذاك .

وتدرَّج في وظائفها :

- أستاذاً مساعداً منذ عام ١٩٤٧م
- أستاذاً بلا كرسي من عام ١٩٥٠م
- أستاذَ كرسيِّ العربية منذ عام ١٩٥٧م
- عميداً لكلية الآداب من عام ١٩٦١ إلى ١٨/ ١٢/ ١٩٦٣م
- أحيل على التقاعد بتاريخ ٣١/ ١٢/ ١٩٦٨م

دعته الجامعة اللبنانية أستاذاً محاضراً ، فاستجاب لدعوتها ، ووضع لطلابها كتباً في قواعد اللغة موافقة لمنهاجهم .

ثم تعاقدت معه الجامعة الليبية في بنغاري حيث بقي عدة سنوات أستاذاً ورئيساً للقسم .

وأخيراً كانت آخر أعماله التدريسية في جامعة الملك سعود بالرياض ، حيث بقي يدرس حتى بلغ الخامسة والسبعين ، فعاد إلى دمشق ، وخلد إلى الراحة ، وقد كلّ سمعه وبصره وضعفا ، وظهرت عليه آثار الشيخوخة ، ولا سيما بعد فقد زوجته .

---

(١) لم تكن وزارة التعليم العالي قد استحدثت آنذاك .

اصطحبته ابنته الوحيدة المقيمة مع زوجها في المملكة العربية السعودية إلى هناك .

وفاته

قضىٰ في المملكة العربية السعودية في ١١ شوال سنة ١٤١٧هـ ـ ١٨ من شباط سنة ١٩٩٧م . عن عمر قارب ثمانياً وثمانين سنة .

آثاره

بجانب هذا النشاط الجم في التدريس فقد كان له نشاط وافر في التأليف والتحقيق .

أ ـ التأليف : ـ حاضر اللغة العربية في الشام

ـ نظرات في اللغة عند ابن حزم

ـ مذكرات في قواعد اللغة العربية

ـ في أصول النحو

ـ الموجز في قواعد اللغة العربية وشواهدها

ـ من تاريخ النحو

ـ وله مقالات وبحوث كثيرة . وهي هذه التي نحاول مخلصين أن نقدّمها وفاءً وعرفاناً . جمعناها من مواطن مختلفة .

ب ـ التحقيق : ـ الإجابة لما استدركته السيدة عائشة على الصحابة للزركشي

ـ المفاضلة بين الصحابة لابن حزم

ـ جزء من سير النبلاء ، خاص بترجمة السيدة عائشة

ـ جزء من سير النبلاء ، خاص بترجمة ابن حزم

ـ تاريخ داريا لعبد الجبار الخولاني

ـ الإغراب في جدل الإعراب لابن الأنباري

- لمع الأدلة لابن الأنباري
- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب للفارقي
- ملخص إبطال القياس لابن حزم
- حجَّة القراءات لابن زَنْجلة
- مغني اللبيب لابن هشام (مشاركة)[١]

* * *

---

(١) حيث قام بتحقيقه أستاذنا الدكتور مازن المبارك والأستاذ محمد علي حمد الله ، وقام الأستاذ الجليل بمراجعته .

الأستاذ سعيد الأفغاني[1]

ما امتاز عَلَمٌ من الأعلام ، ثم لاقى وجه ربه ، إلاّ نهض ـ غالباً ـ عارفو فضله فأبّنوه في حفل ، أو كتبوا عنه في مجلة أو صحيفة . يريدون بذلك نشر فضائله ، وتوفيته بعض حقه على أمته ، أن عَمِل فعُرِف له فضله . فإن كان موسيقياً عُزِف شيء من ألحانه ، أو تشكيلياً عُرِض شيء من لوحاته ، أو شاعراً أُلقي شيء من شعره ، أو ألقى بعض الشعراء قصائد تمجّده .

ويبقى أن يكون الفقيد أديباً ناثراً : كاتب مسرحية أو كاتب قصة أو ناقداً أو كاتب مقالة . أو يكون من أعلام اللغة أو مؤرخاً أو متفلسفاً . هؤلاء لا سبيل إلى إسماع الناس روائعهم كما يُسمع اللحن الموسيقي ، أو وضعِها تحت أبصارهم ، كما توضع اللوحة مثلاً . فإذا أُبنوا لم يكن عند من يؤبّنهم إلاّ أن يذكر متى حازوا شهاداتهم . ثم يذكر أسماء كتبهم ، ثم تاريخ وفياتهم . ثم من بعد ذلك شيئاً عاماً من الأخلاق التي تحلّوا بها ، كالتواضع والأمانة والاستقامة إلخ . . .

وما سمعت يوماً في هذه المناسبة ، ولا قرأت مقالةً ، زاد ما فيهما شيئاً ذا بال على هذا الذي ذكرتُه . وبتعبير آخر أقول : إنّ الذي يقال في العادة ، لا يكشف عن شخصية الفقيد بل لا يدنو منها ، لا بالمسّ ولا بالتقرّي . ولا يقدّر الخسارة حقّ قدرها في هذه الحال ، إلاّ مَن يصحّ عنده أنّ الإنسان هو الإنسان ، كان وما يزال وسيظلّ : لابدّ من أن يغضب وأن يرضى ، وأن يشتدّ به الانفعال فيبكي ، أو يضحك فيستغرق في الضحك ، وأن يكون بخيلاً أو كريماً ، وأن يقسو أو يلين ، الإنسان هو الإنسان ، ومن نفى عنه ذلك فقد نفى عنه إنسانيته ، ورقي به إلى مراتب الملائكة .

---

(١) هذه آخر مقالة كتبها الأستاذ المرحوم يوسف الصيداوي ، وقد وافته المنية قبل إتمامها ، سنة ٢٠٠٣ . في دمشق ، وهو باحث نحوي من أهلها . انظر إتمام الأعلام ٢/ ١٨٧ .

ومن قرأ السيرة النبوية عرف ذلك وانحنى له . فصحيح أن رسول الله ﷺ كان لا يقول إلا حقّاً ، ولكنه كان يمزح . وصحيح أنه كان يحْلُم ، ولكنّ الغضب كان يُعرف في وجهه ، وصحيح أنه كان يعصب بطنه بالحجر من الجوع ، ولكنه كان يستطيب فخذ[1] الشاة ، وإنه ليحار ويظل في حيرته ، حتى يبيّن له الله الحقيقة ، وإنه ليرتئي ، ويكون الصواب في رأي غيره من ذوي المعرفة والتجربة . الإنسان هو الإنسان ، ومن أبى قولنا فنفى عنه المزاح والحلم والغضب والجوع والعطش والحيرة وأكل الطعام والمشي في الأسواق ، فقد خالف القرآن ، وأبى قول الله تعالى في وصفه له على لسانه ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف : ١٨/ ١٠٠] .

ولقد يُظَنّ أنني أريد ذكر ما لا يُستحبّ ذكره من سيرة الفقيد ، فأقول : « لا ، ما إلى هذا قصدت » . فلقد لام الناس يوماً صديقاً للفقيد أحمد راتب النفاخ أشدّ اللوم ، وأنكروا عليه أعظم الإنكار ، أن وقف يؤبّنه فذكر أن الفقيد صرّح له بأنه يهوى فلانة ويعشقها . فهذا ونحوُه لا يكشف عن شخصية الفقيد ، ولو كان يكشف عنها أو عن جانب منها ، لما لامه على ما قاله أحد ، ولا أنكر ذلك عليه أحد . فالعشق والهوى مغروس في أفئدة جميع البشر ، ومَن ذا الذي استعصى على الحبّ والهوى ؟! ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ [يوسف : ١٢/ ٣٣] .

من أجل ذلك كنت وما أزال ـ إذا دعيت لتأبين عَلَم ـ تركت لغيري أن يقول ما يشاء ، وصرفت وجهي إلى شخصية الفقيد ، فذكرت ما أعرف من صفاته الذاتية ، من خلال حديث أدرته معه ، أو نكتة نقلها إليّ عنه مَن أثق بصدقه ، أو رأي كان يراه ، إلخ . . .

في عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م كنت ناظراً ومحاسباً في المدرسة المحسنية . فخَصّصت لي إدارة المدرسة غرفة أستقلّ بها . فكان بعض الأساتذة ولا سيما مدرّسو اللغة العربية ، يُريحون عندي بين الحصّتين ، فيكون احتساء القهوة والتدخين وتداول الأحاديث .

---

(١) هكذا في الأصل . والصّواب : ذراع الشاة .

منذ تلك الأيام عرفت أن في الجامعة أستاذاً من أساتذة اللغة العربية اسمه سعيد الأفغاني . فإذا ذكره ضيوفي ، صحب اسمَه صفتان : عِلمه ومهابته .

وتمرّ الأيام ، وأدخل الجامعة ، وما في ذهني شيء أخطر من أن أرى ذلك الأستاذ وأسمعه . فلما كان يومُ حصته الأولى ، حضرت مبكّراً ، ودخلت المدرّج من الخلف وجلست في الصفّ الأخير ، أرى الأستاذ والطلاّب ، فلا تفوتني فائتة من قولهم أو فعلهم .

وعجبت يومها أن رأيت شواهد الدرس مكتوبة على السبورة ، ثم عرفت بعدُ أن الأستاذ يكلّف أحد الطلاب أن يكتبها كسباً للوقت ، ولتكون تحت أبصارهم عند الحديث عنها والبحث فيها .

كنت حضّرت الدرس الأول أحسن ما يكون التحضير . ومع ذلك كنت متهيّباً ، أخاف أن أُسأل فلا أعرف الجواب ، أو أجيب فأخطئ .

ويدخل الأستاذ بعد لأي : رَبْعة ، إلى القصر أقرب ، قد تجاوز الخمسين وداني الستين ، قصير شعر الرأس ، أشيبه عند الصدغين . في حلّة بنّيّة ، قد استغنى عن ربطة العنق . ولقد رأيته مِن بعدُ في الصيف يجتزئ بالقميص والبنطال .

ويقف على المنصّة كأنه النسر ، ويلتفت إلى اليسار فيرى في الصفّ الأول من المقاعد ثلاث فتيات وزميلاً لهنّ ، فيأمر الفتى أن يرجع إلى المقاعد الخلفية فيجلسَ مع الذكور ، ويرجع الطالب إلى الوراء معجلاً يكاد يتعثّر . ويظلّ الأستاذ صامتاً يتابعه بنظره ، إلى أن يراه استقرّ في مجلسه الجديد . وأما الفتيات فيقول لإحداهنّ وقد لبست ثوباً بلا كمّين : أليس مع والدك ثمن متر من القماش فتخيطي لثوبك كمّين ؟!

بعد هذا يبدأ الدرسَ ، وقد سُنَّت فيه سُنتان : ينقلها مِن بعدُ لاحقٌ عن سابق : انفصال الذكور عن الإناث ، ولبس الفتيات أثواباً بأكمام .

يشرح خطّة الدراسة خلال السنة ويبيّن منهاجها . ثم يوجز الكلام على أسماء الأفعال ـ وهي البحث الأول من برنامج السنة الأولى ـ فإذا تمّ له ذلك شرع يحلّل

شواهدها : يبدأ بما يُحتجّ به فيبيّن مواضع الاحتجاج ، ثم ينتقل إلى ما لا يُحتجّ به ، فيبيّن أسباب عدم الاحتجاج ، وينتهي الدرس ، فيغادر المدرج أول المغادرين ، يخرج كما دخل : كأنه الرمح استقامةً وانتصاباً ، لا يلتفت يميناً ولا يساراً ، وجهه مرتفع ، وصدره متقدّم شيئاً ، كأنه يقول للسخف والتفاهة : « لا » .

ويتحلّق الطلاب في الممرّ حلقات ، يتداولون ما رأوا وما سمعوا من الأستاذ ، ويعلّقون على ذلك !! أما الطالبات فمتأففات جميعاً من أستاذٍ لا يعرف وجهه الابتسام ولا اللين ، وأما الطلاّب فقليل راضٍ ولا يُعلن رضاه ، وكثير ساخط يصرّح بسخطه . على أنّ الذكور والإناث جميعاً ، قد أنكروا على الأستاذ أن يأمر الطالب بمغادرة مكانه ليجلس مع الذكور بعيداً عن الفتيات .

هكذا كانت دروسه تمضي رحمه الله : جِدّاً لا هزل معه ، وإحكاماً لا يمازجه تضييع . على أنني أجانب الحقيقة إن اجتزأت من وصف دروسه بما قدّمت آنفاً . ولا أراني أستكملها إلاّ بالتعريج على ومضات من سيرته في أثناء تلك الدروس :

كان إذا ألقى نكتة على الطلاّب ، فضجّوا بالضحك دفعة واحدة ، ظلّ ساكن التقاطيع كأنه يقرأ عليهم شاهداً نحوياً حتى ينتهي ضحكهم !! فإذا كان من يلقي النكتة طالباً ـ ولا بدّ في هذه الحال من أن يتلبّس لبوس الجدّ ـ علّق الأستاذ على ذلك كأنه يعلّق على رأي لسيبويه أو المبرّد . . . ولقد أنعمت النظر في نكته وملحه ، فرأيتها تقام على تعظيم صغير أو تصغير عظيم .

يقف يوماً عند قول الشاعر : « بين مُدَعَّسٍ ومُكَرْدَسٍ » فيذكر أنّ الدّعس هو شدّة الوطْء ، وهو الطعن بالرمح أيضاً ، والمكردَس مَن صُرع وأوثِق . فيقول أحد الطلاب : إذن قول العامّة : « أبو دعّاس » فصيح ، فيقول الأستاذ : نعم . فيقول الطالب : لماذا إذن ينفر الناس من هذه الكنية اليوم ، وكانوا من قبل يكنون بها ؟ فيقول الأستاذ : كانوا يكنون بها يوم كان الرجال يدعسون !! وأما اليوم فمِن أين ؟!!

وقد يتغافل فيأخذ زمام المبادرة ـ كما يقال ـ فيقف الطالب مكتوفاً لا يستطيع تقدماً ولا تأخراً . يقف يوماً يقرر بحث « رُبّ وما تدخل عليه » ، فيقول :

« لا تدخل ربَّ إلا على نكرة . . . » . ثم يعالج دخولها على « مَن » في قول سويد اليشكري :

ربّ مَـن أنضجـت غيظـاً قلبـه ... قـد تمنّـى لـي مـوتـاً لـم يُطَـعْ

فيقول له طالب !! « لكنْ أنا . . . » فلا يُمهله الأستاذ حتى يُتِمّ عبارته ، بل يقطعها عليه فيقول له : « لكنْ أنت لا يُستشهد بكلامك » !! ويمضي يتابع تقرير الدرس .

وكان له بأسماء الطلاّب عناية .

يلقي يوماً على الطلاّب سؤالاً ، فلا يجد عندهم جواباً ، ويظلّون صامتين لا يجيبون ، ما عدا طالباً يرفع إصبعه مستأذناً . ويأذن له الأستاذ فيحسن الجواب . فيسأله ما اسمك ؟ فيجيب الطالب : « . . . . بلبل » . وتمضي الأيام ، فيجيب الطالب نفسه فيخطئ . فيقول له الأستاذ : يبدو أنك فقدت صوتك !!

في أواخر الخمسينيات ، تنتسب إلى كلية الآداب طالبة من مدينة حمص ، اسمها : « ميجيت : Muguette وهو بالفرنسية اسمُ صنفٍ من الزهور » . فإذا ذكر الأستاذ اسمَها لسبب من الأسباب جعله عربياً : (آنسة مكِّيَّة !!) اقرئي ، (آنسة مكِّيَّة !!) أحسنت ، (آنسة مكِّيَّة !! لا تقولي كذا وكذا) الخ . . . ، فكانت صديقاتها يتندّرن فينادينها باسمها الجديد !! مزاحاً واستطرافاً .

كان ديكران بورسليان ـ أبو سمير ـ صديقاً لي . وكان عميق العروبة حتى نقْي عظامه ، شهماً في الرجال مخلصاً صادقاً أميناً ، يندر أن تجتمع صفاته في رجل . وكانت ابنته « دعد » يوماً تلميذتي . وقد وجد في تسميته أبناءَه تعبيراً عن انتمائه القومي « سمير ـ دعد . . . » . وقد غرس في نفوسهم حبَّ العربية ، حتى لقد انتسبت دعد من بعد إلى قسم اللغة العربية ، وغدت بعد تخرّجها مدرّسة لهذه اللغة . ويبدو أن الأستاذ رضي رضاً عميقاً عن اقتران (دعد) بـ (بورسليان) فقال لها يبدي إعجابه بذلك : ما أحسنَ أبوك إليك بشيء ، إحسانَه إليك بتسميتك (دعد) .

وكان إذا أحسّ رغبة في النكتة ، ورآها واقعة موقعها ، لم يثنه عن إيرادها شيء :

فلقد كان أصدر كتابه البديع المتميّز (في أصول النحو) ، ونقل فيه عن كتاب (القراءات واللهجات) فقال : « كان أهل الشام يقرؤون (إبراهام) بألف في مواضع دون مواضع (وهي قراءة أهل الشام قديماً) ثم تركوا القراءة بالألف وقرؤوا جميع القرآن بالياء . . . فرووا أنّه قيل لمالك بن أنس : إنّ أهل دمشق يقرؤون (إبراهام) فقال : « أهل دمشق بأكل البطيخ أبصر منهم بالقراءة » ، فقيل : « إنهم يدّعون قراءة عثمان » فقال مالك : « هامصحف عثمان عندي » ثم دعا به فإذا فيه كما قرأ أهل دمشق . . . وفي سائر المصاحف (إبراهيم) مكتوب بالياء في جميع القرآن إلاّ في البقرة فإنه بغير ياء » . [في أصول النحو/٣٧ ـ ٣٨] . وقد علّق على ذلك في الحاشية فقال : « فثبت أنّ بصر أهل دمشق بالقراءة لا يقلّ عن بصرهم بأكل البطيخ » .

كان كبت الحريات وكمّ الأفواه في بعض السنوات من الخمسينيات ، قد بلغ أن يُحاسَب المُواطنُ على اللفظة المهموسة ، والكلمة المكتوبة ، وكان من الملاحظ أنّ المسؤولين آنذاك ـ على كثرة ما كانوا يخطبون ـ ليسوا على شيء مذكور من التثقّف ، يستطيعون معه أن يقرؤوا أو يكتبوا أو يخطبوا ، بلغة صحيحة . ويطلب الأستاذ يوماً من أحد الطلاّب أن يقرأ نصّاً لغوياً . فينهض واقفاً ـ لسوء حظّه ـ فيقرأ قراءةً مملوءة بالأخطاء . فيزعق به الأستاذ زعقة تصخّ الآذان : « ما هذه القراءة المخزية ؟؟ أأنت وزير ؟! أأنت رئيس مجلس الوزراء ؟!! اِهبطْ » .

في عام ١٩٤٦ كان صديقنا الدكتور مكّي الحسني تلميذاً في الحلقة « المتوسّطة = الإعدادية » . وكان الأستاذ الأفغاني آنذاك ، معلّماً للغة العربية في مدرسة « التجهيز الأولى = جودة الهاشمي اليوم » . فيكلّف الطلاّب أن يستظهروا عشرين بيتاً من الشعر من قصيدة عدّة أبياتها أربعون بيتاً . وقد أتقن صديقنا العشرين بيتاً إتقاناً حسناً ـ ولكن لسوء حظّه ـ لم يطلب إليه الأستاذ إلقاءها . ثم يكلّف طلاّبه استظهار العشرين بيتاً الباقية من القصيدة . فإذا جاء موعد الدرس الثاني طلب من صديقنا أن يسمعه ما حفظ . فيبدأ بإلقاء العشرين بيتاً الثانية . فيقول له الأستاذ : بل ابدأ من البيت الأول . فيحاول فتخونه ذاكرته . فيدافع عن نفسه بأنّ القسم الأول للأسبوع الماضي والقسم الثاني لهذا الأسبوع . فيأبى الأستاذ إلاّ أن يلقي الطالب

القسمين جميعاً ، فيخفق . ويسأله : ما علامتي . فيقول له : « صفر » . ويرى الطالب أنه مظلوم ، فيحتج بأنه يتقن حفظ القسم الأخير أحسن الإتقان . فيقول له الأستاذ : أراك تظنّ أنّ الصفر قليل !! وهل كلّ طالب يستحقّ أن ينال الصفر ؟! وهل يتاح الصفر لكل أحد كل يوم ؟!! ويرجع صديقنا إلى مقعده مبتهجاً متهلّل الوجه !! يحمد الله على ما أنعم ، وأنه نال ما لا يناله كل أحد !!

ولقد يظنّ ظانٌّ أنّ الأستاذ حين قال ذلك قد كان ينكّت !! ونقول لمن يظنّ ذلك : كلاّ فقد يجدّ كل الجدّ ، وطلاّب الجامعة يعلمون أن الأستاذ لا يقف بالعلامة عند الصفر ، بل يهبط بها إلى ـ١ ، ثم ـ٢ ، ثم ـ٣ وهكذا . . . . . فالإنصاف يقضي بأن يحاسب الطالب على جهله ، كما يُحاسَب على علمه !!



الكتاب الأول
في اللغة والنحو

أ ـ في اللغة

استدراكان لغويان

تعليق على كتاب (الإمتاع والمؤانسة) للتوحيدي
الذي نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في
مجلة المجمع العلمي العربي في المجلد
١٧/١ ـ ٢/ ١٩٠ ـ ١٩١
كانون الثاني وشباط ١٩٤٢م

في تصحيحات العلامة المحقق الأب الكرملي للجزء الثاني من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) مواضع تحتاج إلى بيان ، أعرض على الأب الفاضل منها موضعين في العدد (٤٧٥) من الرسالة الغراء :

١ ـ قال : وفي ص١١٠ ويجعلها (أي الأحجار) ملساء ، وضبطت كحمراء ؛ الصواب مُلساً بضم الميم . . . (راجع فساد قول القائل صخور ملساء في مجلة المجمع العلمي العربي ١٧ : ٢٣٣ و٢٣٤) . اهـ .

وقد رجعنا إلى الموضع المذكور فلم نجد للأب مستنداً في إنكاره ، لأن نص سيبويه قاصر على بيان أن جمع التكسير لأفعل فعلاء هو فُعُل بضم العين ، وما أظن أن كيفية تكسير هذه الصيغة كانت محل خلاف ، وليس فيها شاهد على خطأ قولهم : صخور ملساء .

وإنما كان الأب بحاجة إلى نص صريح يستثني فيه هذه الصيغة من القاعدة العامة التي جرى عليها كلام العرب وذكرها النحاة وهي : أن نعت جمع التكسير يكون بالمفرد المؤنث وبالجمع على السواء ، فلك أن تقول : أشهر محرمة وأشهر محرمات ، و« أياماً معدودة » و« أياماً معدودات » كما في القرآن الكريم وغيره ، فما الذي يفرد صيغة واحدة بين جميع صيغ النعت بحكم خاص ؟ هذا ما يحوج الأب الإبراء عليه . أما استقراؤه الشخصي وطلبه من مخالفه الإتيان بشاهد فلا يردان حجة ؛ لأن المقيس لا يلزم له شاهد .

٢ ـ وقال : ومن الأغلاط الشائعة في مصر وتستحق أن يشار إليها إشارة خصوصية ما يأتي : ص٢٣ س١٨ أصواب هو أم خطأ . . . أم خطاء وزان سحاب

لضد الصواب ، على ما في كتب اللغة . اهـ .

وقد كتب الجملة الأولى بخط عريض مذيل بخط أفقي زيادة في لفت الأنظار . ولم يبين أي كتب اللغة هذه التي حرمت أن يقال : خطأ لضد الصواب ؛ وقد تصفّحت بعض كتب اللغة فإذا هي تتفق جميعاً على أن الأب المفضال مخطئ كل المخطئ في ذلك ، وإليك الشواهد :

في لسان العرب : الخطأ والخطاء ضد الصواب .

تاج العروس : الخطء والخطأ والخطاء ضد الصواب .

المصباح المنير : والخطأ مهموز بفتحتين ضد الصواب ، ويقصر ويمد .

الصحاح : الخطأ نقيض الصواب وقد يمد . . . إلخ .

فأنت ترى أن الخطأ قدمت على الخطاء في جميع هذه النقول ، وأن أعلى هذه المصادر وهو الصحاح ضعّف الحرف الذي ذكر الأب أنه هو الصواب دون غيره .

هذا ما أحببت عرضه على العلاّمة المحقق المفضال ، وله إعجابي وتحيتي .

ملاحظات لغوية

ملاحظات على مقال للأب الكرملي ، نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٧ ، الجزء ١ ـ ٢ لعام ١٩٤٢ ، ص٣٨١ ـ ٣٨٢

للأب العلامة المحقق الكرملي همة بعيدة ، ودُؤوب عجيب في خدمة لغتنا الكريمة ، وقد بدت لي في مقاله الأخير (الأوهام العاثرة) ملاحظات أنا عارضها عليه :

١ ـ ذكر في ختام مقاله قوله : « وأما إذا ثنيت المضاف فهذا معناه أن للمضاف المثنى مضافين إليه لا مضافاً واحداً . فقولك : كتابا الملك والأمير معناه أن للملك كتابين وللأمير كتابين ، وأنت لا تريد هذا » . اهـ .

والمعروف أن الأمر أوسع من ذلك ، فلك أن تقول : كتابا الملك والأمير أو (كتاب الملك والأمير) فإذا خفت اللبس غيرت في بناء الجملة حتى ينكشف . والله تعالى يقول : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ [التحريم : ٦٦/ ٤] وهو لا يعني أن لكل منهما عدة قلوب . بل قلب واحد كما هو ظاهر . والعرب تتوسع في هذا الباب وتعتمد فيه على القرائن .

وفي كتاب (الصاحبي) للإمام الكبير أحمد بن فارس أبواب عقدها : للواحد يراد به الجمع ، والجمع يراد به واحد أو اثنان ، والجمع الذي يراد به الاثنان إلخ (ص١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ طبعة السلفية ١٣٢٨) فالأمر كما ترى أوسع من أن نضيّقه .

٢ ـ في أول المقال (ص١٠٦ س٥) قوله « نفس هذا البحث » وتقديم ألفاظ التوكيد المعنوي (نفس ، عين ، جميع إلخ) على المؤكد من أساليب الفرنجة ، والعرب تقول : « في هذا البحث نفسه » فهل للأب المحترم أن يدلنا على حجة إن لم يكن الأمر سهواً .

٣ ـ ذكر في (ص١٠٩ س١١) أن : « الاسم المضاف عندهم دون المضاف إليه شرفاً وقدراً ، فقولهم كتاب الملك مثلاً ، يدل على أن الكتاب دون الملك قدراً وشرفاً » . وهذا غير مطرد ، ألا ترانا نقول : إله الناس ، نبي الأمة ، وأُستاذ فلان ، وشيخه ، وأميره إلخ . والمضاف في كل ذلك أشرف من المضاف إليه وأجلّ قدراً . فليس هناك قاعدة ، وإنما الأمر يختلف باختلاف المقامات .

تصحيح بعض سقطات الكرملي

نشر في مجلة الرسالة العدد ٤٩١ لعام ١٩٤٢

أنا أعلم أني إن طلبت إلى الأب أنستاس الكرملي أن يكون دقيقاً أميناً واعياً . . . أكون قد كلفته ما ليس من عادته ، بل فوق ما يطيق . ولذا فغرضي من كلمتي ليس الأب نفسه ، وإنما أكتب تحذيراً لبعض من يقرأ كلامه من ضعاف الطلاب حذراً أن ينخدع به ويعتمده من غير تحقيق .

ادّعى الأب في العدد (٤٧٥) من الرسالة الغراء أن استعمال خطأ لضد الصواب (من الأغلاط الشائعة في مصر) . ثم قال : (على ما في كتب اللغة) فنبهنا في العدد (٤٧٩) إلى أن هذا الرأي ليس في كتاب من كتب اللغة ، ونقلنا له نقولاً أجمعت كلها ـ بلا استثناء ـ على أن (الخطأ) كلمة صحيحة وبعضها ذكر (الخطاء) بعد (الخطأ) وبعضها لم يذكر ، وبعضها وهّاها وهو صاحب (الصحاح) . فسبب وهيها إذن عدم ذكرها في بعض المعاجم ونصَّ بعضها على توهيتها .

فلما صرعه الحق حاول أن يبتعد عنه فكان مما قال في العدد (٤٨٧) من الرسالة : « خذ بيدك أي معجم شئت . . . تر أن الكلمة القليلة الأحرف مقدمة على غيرها » .

وهذا ـ وإن وقع كثيراً ـ إلا أنه لا يطرد . وعلى ذلك تكون كلمة الأب تخرصاً ، فقد فتحنا القاموس المحيط كما اتفق فرأيناه يقول : « خنز اللحم خنوزاً وخَنزاً » فأطبقناه ، وكتبنا الكلمة منبهين على عدم تدقيق الأمر ، وأمانته .

أنا أريد أن (أفترض جدلاً) أنّ (الخطاء) قد تسمو في بعض الأحيان إلى درجة (الخطأ) وإذن يكون الأب قد جهل بديهة من البدائه اللغوية التي يتعلمها شادي العربية .

اعلم أيهذا الأب أنه إذا أتتك كلمتان فصيحتان من مادة واحدة فقدم الأخف حروفاً فإنها أفصح . وهل أنت بحاجة إلى ردك إلى مصدر ما ؟ نعم فراجع إذن كتاباً

صغيراً لأحد المتأخرين هو (البلغة لحسني صديق خان)[1] ثم الفهم والأناة الأناة ، وللك عطفي الخالص .

---

(١) البلغة في أصول اللغة لمحمد صديق حسن خان القنوجي ، تح أ . نذير محمد مكتبي ، دار البشائر الإسلامية - بيروت ، ١٩٨٨ .

الكرملي في قبضة الحق

نشرت في مجلة الرسالة العدد ٤٨٦ لعام ١٩٤٢

١ ـ كان الأب أنستاس ماري الكرملي قد تعرّض لتصحيح بعض الخطأ في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) الذي صححه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين ، ولم يشركا الأب في التصحيح ولا الربح . وكان في جملة ما خطّأ : قول القائل : « ويحملها (أي الأحجار) ملساء » فقال حضرته مصححاً : « والصواب مُلْساً بضم الميم . . . إلخ » فصححنا له فهمه في العدد (٤٧٩) من (الرسالة) ، وكان قد استند إلى كلام لسيبويه فأوضحنا له ـ برفق وعطف ـ أن كلام سيبويه ليس فيه ما زعم حضرته . ثم شرحنا له القاعدة العامة (التي اعترف بصحتها واطّرادها) في العدد (٤٨٦) من هذه المجلة . وقلنا له : « إنّ نعت جمع التكسير يكون بالمفرد والمؤنث وبالجمع على السواء ، فلك أن تقول : أشهر محرمة ، وأشهر محرمات ، و« أياماً معدودة » و« أياماً معدودات » كما في القرآن الكريم وغيره ، فما الذي يفرد صيغة واحدة بين جميع صيغ النعت بحكم خاص ؟ هذا ما يحوج الأب الإبراء[1] عليه . أما استقراؤه الشخصي وطلبه من مخالفه الإتيان بشاهد فلا يردان حجة ، لأن المقيس لا يلزم له شاهد » .

فلما ألجأه الحق إلى أضيق من جحر الضّب ، انبرى يرد علينا وعلى غيرنا ممن صحّحوا له تهافته في ثلاث مقالات طوال ، نسي فيها الموضوع والزمان ، وخلت من شيء واحد هو المطلوب كله وهو مدار البحث وحده ، فلم يأتنا بالنص المطلوب ، ولن يأتينا به ولو دخل بعضه في بعض غيظاً وكمداً .

فعلى هذا يبقى قولهم : (صخورٌ ملساء وذكرياتٌ بيضاء) مما لا يجوز لصحيح الفهم أن يخطئه . وإنّ مما يعلمه بالضرورة من له أدنى إلمام بلغة العرب أن الموافق

---

(١) علق الأب على هذه الكلمة جملة ناقض آخرها أولها ، وكذلك هو في كل تعقيباته وكذكذاته ولعلعاته .

للقاعدة المطردة غير محتاج إلى شاهد وكل جائز له شاهد مدون .

٢ ـ وقال حضرته : (ومن الأغلاط الشائعة في مصر وتستحق أن يشار إليها إشارة خصوصية (كذا) ما يأتي : ص٢٣ س١٨ أصواب هو أم خطأ . . . أم خطاء وزان سحاب لضد الصواب على ما في كتب اللغة) اهـ .

وهذا زعم غير صحيح ؛ وقد نقلت له من الكتب نصوصاً لقفت كل ما أفك ، وأفهمته أن الخطأ هنا هو الأفصح والأشهر . والغريب المضحك حقاً أن يحتج الأب بما هو حجة عليه واضحة وهو الكلام الذي نشرته الرسالة لأبي هلال العسكري وفيه « أن الخطأ هو أن تقصد الشي فتصيب غيره . . . والخطاء تعمد الخطأ » . وبعد أن عاب هذا الأب سيبويه والخليل . . . أنكر علينا احتجاجنا بمؤلف (الصحاح) ، وذكر أن العسكري أعلى مقاماً !! فيا أيها الأب إن الجوهري والعسكري متفقان ، ولكنك لم تدرك لا كلام الجوهري ولا كلام العسكري . والبلاء الأكبر في أن يأتي متحذلق في آخر الزمان يوازن بين إمامين ثم لا يستطيع أن يفهم كلامهما .

أما بعد أيها الأب أنستاس ماري الكرملي ، إن فيما نسبت قوله إليّ ما هو إلاّ كذب وافتراء . فأنا لم أقل : سيبويه غير موثوق به . ولم أقل : نص جمع التكسير ، وإنما قلت : نعت جمع التكسير . ولم أقل . . . ولم أقل . . . مما يملّ بيانه القارئ .

فإذا كان هذا شأنك مع حيّ يملك أن يدفع عن نفسه ، فكيف نثق بما تنقل عن أولئك الأئمة المساكين الناعمين في عالم الخلود ؟

وأدهى من ذلك أنك كنت ادعيت أنه لا يقال : خطأ ، بل خطاء ، وامتلأت زهواً إذ زعمت أن هذا غلط شائع في مصر ، فلما بينا لك أنك أنت المخطئ ، تواريت خجلاً ثم انبريت تدعي أنما أردت أن خطاء أحسن من خطأ موازنة لصواب ؛ وبين كلمتك الأولى المنشورة في العدد (٤٧٥) من الرسالة ، والثانية المنشورة في العدد (٤٨٧) مدى قليل جداً ، فما أسرع ما يفضح الباطل والادعاء الأجوف صاحبهما ! وأمر آخر : متى عهدك ، عافاك الله بالذوق الموسيقي ؟ أحين احتشدت فلم تجد أحلى وقعاً من (ليس المزكزك بأنيئهن) فإن يكن لك ـ وأنت عجوز ـ عذر من هرمك

ومرض أذنك فاعلم أن الله لم يخلق رجلاً صحيح الذوق سليم الأذن يستسيغ (الخطاء والصواب) أكثر من (الخطأ والصواب) ، ورحم الله أمرأً صيّرك ـ وأنت تريد الكلام في اللغة ـ إلى الجرس والموسيقا .

ولست أوفي (الرسالة) ما يجب لها من شكري وشكر العلم والأدب على نشرها مقالاتك كما هي : فقد رأيتك يا سيدي تدعي ـ بعد كلامك في الموسيقا ـ أن نسبك ينتهي إلى بني مراد !! (تشرفنا) ؛ ولقد تواضعت جداً إذ لم تنتسب في بني هاشم وأنت تشعر في صميمك شعوراً غالباً عليك بالحاجة الماسة إلى نسبٍ ما بعد هذا التخبط .

أتسمح لي بطلب متواضع جداً ؟ إنك ستفعل مشكوراً :

١ ـ كن أميناً فيما تنقل عن الأحياء والأموات .

٢ ـ احتط فيما تكتب في اللغة العربية ، فإن عارفيها كثيرون ، وليست كذلك السريانية والآشورية . فلك في هؤلاء الأخريات ميدان تصول فيه وحدك .

٣ ـ وإن أبيت إلا الخوض فاسلك المسائل ما كان (آلياً) بحتاً وتجنب ما يحتاج إلى ذوق وعلم وحسن فهم ، وإلا وقعت في مثل ما وقعت فيه حين زعمت أن قولك : لا يقال كريات بيضاء مستنداً إلى قول سيبويه .

٤ ـ إنك لا تستطيع نقد كلام حتى تفهمه ، ولن تفهمه حتى تحسن قراءته ، ولن تحسن قراءته حتى تتخلّق بأخلاق المتعلمين .

٥ ـ لقد غبر زمان ـ لا رده الله ـ كانت الشهرة فيه من طريق الدعوى والتحرش بمن لا يبلغ المتحرش أن يكون أصغر تلاميذهم ، وأصبح يقاس فضل المرء بقوة حجته وتحسن خلقه لا بسلاطته وتلبيسه . هذا وللأب المفضال أنستاس ماري الكرملي جزيل احترامي .

في النقد اللغوي
(مسائل ثلاث)

ردّ فيها الأستاذ على أجوبة الكرملي ونشرت في مجلة المجمع ، المجلد ١٥٦/١/١٦ ، كانون الثاني ١٩٥١م

لعل من السداد ألا يتعرض ناقد لنقد مسألة حتى يقتلها درساً وتمحيصاً ، ثم لا يصدر في نقده إلا عن أصول مسلمة واضحة ؛ وإلا كان قراؤه منه في أمر مضطرب ، وأنكر اليوم ما كان قرر بالأمس ، وكان متخبطاً في إنكاره وتقريره على السواء . والناس على حق في أن يطالبوا الناقد بنصيب من الفهم والوعي والتثبت أوفى مما يطلب من المتكلم ابتداء .

كنا أخذنا على الأب المحترم أنستاس الكرملي مسائل ثلاثاً أخطأ في منعها أشد الخطأ ، فطلع علينا بأجوبة في بعضها التراجع غير الصريح ، وفي بعضها محاولة دعم الخطأ بخطأ آخر . وها نحن أولاء نزيد هذه المسائل بياناً دون تعرض لما تخلل مقاله من جدليات لا طائل تحتها :

١ ـ فأما أولاهن فقد كان الكرملي منع أن يقال : « ذكرت (دولتا) ألمانية وإيطالية ، أن في (شهري) شباط وآذار يعقد في (مدينتي) برلين ورومة مؤتمر يذكر فيه (قانونا) سنتي كذا وكذا » إلى ما أشبه هذا التعبير المولد الممقوت (كذا) اهـ[1] .

وعلل هذا المنع بقوله : « وأما إذا ثنيت المضاف فهذا معناه أن للمضاف المثنى مضافين إليه لا مضافاً واحداً . فقولك : كتابا الملك والأمير معناه أن للملك كتابين وللأمير كتابين[2] . هذا ما كان قرره . فنبهناه برفق في المجلد الثامن عشر (ص٤٢٨) إلى أن هذا المنع غير وارد ، وأن الأمر في الإضافة أوسع مما توهم ،

(١) المجلد السابع عشر من هذه المجلة ص٣٨ (٣) ١٧ ـ ص١١١ .

(٢) ص١١٢ المجلد ١٧ .

وأن قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : ٦٦/ ٤] لا يعني أن لكل شخص عدة قلوب ، ونقلنا له النص والشاهد ؛ فلما انهارت قاعدته تراجع يقول : « ونحن لا ننكر هذا التركيب المولد ، إنما نرمي في كلامنا إلى الأصح والأفصح » وحسن أن يرمي المرء إلى ما يراه أصح وأفصح على شرط ألا يعد الأمر الواحد مولداً ممقوتاً في مقالة وصحيحاً فصيحاً في مقالة . وسترى أن ترجيحه هذا لا يسلم له أيضاً . وأراد الأب استبعاد الآية ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ من ميدان البحث لقوة حجتها فقال : « أما ملاحظته فيما يتعلق بهذه الآية : ﴿ إِن تَتُوبَآ . . ﴾ فغير داخل[1] في موضوع بحثنا » اهـ . مع أنها نص قاطع في صميم الموضوع لمن تبصَّر .

ومن الخير أن ننقل هنا نصاً موجزاً في هذا الباب زيادة على ما كنا نقلناه : « وقد صرح النحاة بأن كل مثنى في المعنى مضاف إلى متضمنه يجوز فيه الجمع والإفراد والتثنية ؛ والمختار الجمع نحو ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ويترجح الإفراد على التثنية عند الناظم ، وعند غيره بالعكس ، وكلاهما مسموع (يعني يا حضرة الأب غير مولد ممقوت) كقوله :

حمامةَ بطنِ الواديين ترنَّمي ... سقاك من الغُرِّ الغوادي مطيرُها

وكقوله : مَهْمَهَيْن قَذَفين مَرْتَين ... ظَهْراهُما مثلُ ظُهُور التَّرَسَيْنْ اهـ[2]

٢ ـ وأما المسألة الثانية فالتوكيد بالنفس قبل ذكر المؤكَّد كقول الأب : (في نفس هذا البحث) فنبهناه إلى أن الصواب أن يقول : (في هذا البحث نفسه) لأَن كلاً من (نفس وعين) إذا كانت للتوكيد المعنوي تلحق المؤكَّد ولا تسبقه ، وأشرنا إلى أن مثل قول الأب هذا ، من رطانات الأعاجم التي طغت على الفصحى من طريق

---

(١) كذا قال في م١٨ ص٤٧٦ وظاهر أن هذا خطأ والصواب أن يقول : فغير داخلة . . . كما لا يخفى على المتأمل أدنى تأمل .

(٢) الصبان على الأشموني ٣/ ٥٦ المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩هـ
قلت : البيت الأول من الطويل ، وهو للشماخ في ملحق ديوانه ١١٣ ، وينسب إلى غيره ، والبيت الثاني : من الرجز لخطام المجاشعي في خزانة الأدب ٢/ ٣١٤ .

الترجمة عن الفرنسية وأشباهها فالفرنجة تقول : (même chose) فزعم الأب أن العرب سبقوا إلى هذا الاستعمال ، واستشهد بكلام عادي لعلماء نبتوا في عصور العجمة حين فسدت اللغة . فهل حضرته في حاجة إلى من يذكره في هذه المجلة بقاعدة معروفة مسلَّمة عند من له أدنى اطّلاع على علوم اللغة العربية : وهي أن أمثال سيبويه وابن منظور والفيروزأبادي والزبيدي . . وغيرهم من علماء العربية يحتج بنقلهم لا باستعمالهم ؟؟ وبعد ، فليعلم حضرته أن كلاً من (نفس) و(عين) له معان خاصة غير التوكيد ، لذلك حتموا تأخيرهما عن المؤكد ، ليكون فرق بين قولهم (ذهبَتْ عينُ زيدٍ) و(ذهب زيدٌ عينُه) وإن كان يطيب لك النقل عن الصبان فاقرأ :

« إنهما [يعني كلاً من نفس ، وعين] يستعملان في غير التوكيد كثيراً نحو : علمت ما في نفسك ، وعين زيدٍ حسنة . بخلاف بقية الألفاظ فلم يكن لها من قوة الاستقلال ما للنفس والعين » الصبان على الأشموني ٣/ ٦٠ ثم قال :

« لا يلي العامل شيء من ألفاظ التوكيد ، وهو على حالته في التوكيد إلا جميعاً من عامة إلخ » ومعنى (على حالته في التوكيد) يا حضرة الأب كما في الحاشية « أي من إفادة التقوية ورفع الاحتمال . واحترز بذلك من نحو : طابت نفسُ زيد ، وفقأْتُ عين عمرو ، فإن المراد بالنفس الروح ، وبالعين الباصرة ، فليسا (إذن) على حالهما في التوكيد . » اهـ ٣/ ٦٣ .

أما الآية يا حضرة الأب ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام : ٦/ ١٢] فليست (نفس) فيها للتوكيد كما لا يخفى ، فلا يصح إيرادها .

* *

٣ ـ كان الأب الكرملي قرر في المجلد السابع عشر ص١٠٩ : « أن الاسم المضاف عندهم دون المضاف إليه شرفاً وقدراً » فرددناه عن ذلك بشواهد تثبت بطلان قاعدته فقلنا (م١٧ ص٣٨٢) : « هذا غير مطّرد ، ألا ترانا نقول : إله الناس ، نبي الأُمة ، أُستاذ فلان وشيخه وأميره إلخ ، والمضاف في كل ذلك أشرف من المضاف إليه وأجل قدراً » . فرجع هذه المرة والحمد لله فقال في الجواب : « فاتنا أن ننبه على أن المضاف على ثلاثة أنواع : وهي إضافة تشريف وإضافة

تعريف[1] إلخ » ومن يقابل بين جملته هذه وجملته تلك يحمد الله معي ، أما شكر الذي رده إلى الصواب فليس بالأمر المهم .

بقي ادعاء الأب ص٤٧٨ أنه لم يقل حرفاً واحداً في خصوص (مهما) وأحكامها ، وهذا ادعاء صحيح ، ولم ينسب إليه ذلك أحد قط . ومع ذلك فقد وسعه أن يدعي أن الكلام موجه إليه ، والكلام بلسان عربي مبين .

ولكنْ تأخذُ الآذانُ منه على قَدْرِ القرائحِ والفُهومِ

* *

أما بعد ، فحبذا لو ساير الناقدون اللغويون روح العصر ، فهجروا الأقوال الضعيفة واللُغيَّات الرديئة مهما كان فيها من نصرة لأنفسهم وأهوائهم وأخطائهم ، إذن لحفظوا على أنفسهم وعلى القراء وقتاً ثميناً يحسن أن ينفق في جهود تناصر اطراد القواعد وتخفيف الشذوذ . فاللغة متجهة هذا الاتجاه أحبوا أم كرهوا .

---

(١) المجلد ١٨ ص٤٧٦ .

تقرير عن أضرار
المنجد والمنجد الأبجدي

تقرير أعده أستاذنا ورفعه إلى رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكيل جامعة دمشق . قياماً بالواجب نحو سلامة لغتنا وتاريخنا وقوميتنا . في ١٤/ ٢/ ١٩٦٨م .

صدر للمنجد طبعة حديثة في آخرها ملحق للآداب والعلوم[1] هي المملوءة بالأخطاء العلمية واللغوية والتاريخية ، هذا إذا أُحسن الظن بنية القائمين عليها ، وطبعة أخرى سمَّوْها المنجد الأبجدي .

ـ ١ ـ

فأما الكتاب الأول فآخر ما اطلعت عليه بشأنه نقد في (مجلة اللسان العربي) التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية (الرباط) للأستاذ عبد الله كنون ، قرر فيه أن جميع المصادر التي اعتمد عليها غير أصيلة ، ثم عدّد ما وقع عليه من أخطاء في مطالعته (٤٠) صفحة فقط . ونقد آخر ظهر في (مجلة مجمع اللغة العربية) بدمشق للأستاذ منير العمادي ظهر في ثلاث مقالات (ص ٦٣٣/ ٤٠ ، ١٥٦/ ٤١) ، ننتقي من النقدين على سبيل المثال ما يلي :

في الأعلام الجغرافية :

صفحات المنجد (الأدب والعلوم) .

ص

٢ ـ أسْفي ضبطها بسكون السين ، والصواب آسفي .

١٦ ازمور ، فيه قبة سيدي شعوب ، الصواب سيدي بو شعيب .

---

(١) من عمل الأب فرديناند توتل الجزويتي المقيم في بيروت .

١٠ البلي صوابها ولبلي .

١٧ ملقة : مالقة .

ولد في سبتة (الأندلس) وظاهر أن سبتة ليست في الأندلس .

١٨ ورد في مادة (قيروان) . . حمل في الحرب على صقليه ، وتوفي في حصار سرقسطة ، وكل ذلك خطأ والصواب : (القيروان وسرقوسة) لأن سرقسطة في الأندلس لا في صقلية .

٢١ الإسكندرون : والصواب (الإسكندرونة) .

٢٦ الأغواط : واحة في الجزائر ، (الصواب مدينة لا واحة) .

وفي جزيرة العرب هذه الأخطاء مع تصويبها :

٢٠٨ ظفر : ظفار ٢٧١ دَومة جندل : دَومة الجندل .

المحمدية : المهدية ٣٢٩ الأقحاف الأحقاف .

في ترجمة أحمد ميمون (من أصل بربري . . . كان أميراً على بني رشيد . .) قال الناقد : الصواب علي لا أحمد ، والأدارسة أشراف حسنيون لا برابرة ، ولم يكن أميراً ولا هناك بنو رشيد . إنما كان قاضياً في أيام أميرها علي بن راشد .

وظاهر أن تاريخاً كثيراً ولد من مثل هذا التحريف وقصور الفهم للعبارة لعربية عند واضع المنجد .

٤٩٢ الحسا : الأحساء .

أبو طي : أبو ظبي .

سحار : صحار .

سيبام : شبام .

جبل سمر : جبل شمّر .

في خريطة العراق : هور الحمار : خور الحمار .

ومن الأعلام الجغرافية في سورية :

الرمادية : الرمادي ٢٣٧ زُور : زَوْر

عين ديدار : عين ديوار ٣٩٤ أنطاكيا : أنطاكية

القامشلية : القامشلي ، الشهباء شهبة

نهر بليخ : البليخ أما سورية فيرسمها خطأ بالألف في كل المواضع

ساجور : الساجور

بحيرة عموق : العمق

الأعلام التاريخية وأحداثها :

ص

١٥ الأرموي أمين مكتبة المعتصم . . . دخل في خدمة هولاكو (أي بعد أكثر من ٤٠٠ سنة على وفاة المعتصم) .

٣٢ ألف ليلة (شهرزاد تحكيها على أمير المؤمنين) القصة من أساطير الفرس قبل الإسلام فوضع أمير المؤمنين هنا تزوير تاريخي .

١٧٧ الخضر . . « أحد أولياء المسلمين رفعه القرآن فوق الأنبياء » تزوير كالسابق فلا ذكر للخضر في القرآن ، والضبط خطأ صوابه الخَضِر بفتح فكسر .

١٣٤ (قاتلها خالد ثأراً بعمه الفاكهة بن المفيرق) يريد الفاكه بن المغيرة وهو مشهور .

٢٥٦ (أبو سفيان . . . قاد جيشاً . . لحصار المدينة في وقعة مؤتة) ثم اعتزل الحرب وصالح محمداً في معاهدة الحديبية !! وسلمه مكة !!) وهذا تخليط وجهل في سرد الحوادث لو تعمده مجنون لكان غريباً .

٣١٣ الضحاك بن قيس الخارجي من المقربين إلى معاوية ، أودعه الخليفة المحتضر وصيته لابنه يزيد) !!! لم يكن الضحاك ولد بعد .

٣٤٣ عثمان بن فرعون . . إلخ قرأها في دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية Maz'un فكتبها بالعربية مزعون ، فتقدمت النقطة فصارت (فرعون) ، وإنما هي

(مظعون) . وهذا شأنه في كثير من الأعلام .

٤٣٩ (الكعكة بن عمرو من مشاهير قواد العرب) !! وإنما هو القعقاع بن عمرو القائد المشهور في حرب اليرموك .

٤٤٣ (كليبر قتله أمين الحلبي) ، إنما هو سليمان الحلبي لا أمين .

٤٦٦ (أبو لؤلؤة المجوسي . . . شكا إلى عمر فنقم عليه الخليفة . .) كان ـ كما في الطبري ـ نصرانياً لا مجوسياً ، ولم ينقم عليه الخليفة ، وإنما هو هدد الخليفة .

٤٧٥ (يحي بن مبارك بن المعرة المقري العدوى) وكل ذلك تحريف صوابه (يحيى بن المبارك بن المغيرة القرشي العدوي) .

٤٩١ « المراد بن سعيد شاعر الدولة الأموية وكان لصاً » لم يكن شاعر الدولة الأموية قط ، فما الغاية من هذا الافتراء ؟

٤٩٢ مرواس بن ودية : مرداس بن أدية .

٥٠٧ (قرمط البحرين نقلوا إلى الحسا الحجرة السوداء) والصواب ، قرامطة ، الأحساء ، الحجر الأسود .

* *

٢١ « إسكندرون ميناء في تركيا » هذا ما يريد (المنجد) أن يتعلمه ناشئتنا على حين إسكندرونة ميناء عربي في أرض عربية ، ولم يكن يوماً تركياً ولكن سلمته ـ كما قال الناقد بحق ـ فرنسة لتركية .

١٢١ عند ذكر الثورات ، ذكر ثورة (المنيطرة) في لبنان ؟ وثورة مكاريوس شاهين على الأتراك ؟ أما الثورات العربية التي شغلت الأنباء العالمية سنين طوالاً كثورة عرابي ، وثورات سورية والعراق وفلسطين ، وثورة عبد الكريم الخطابي على إسبانية فرنسة وثورة عمر المختار على إيطالية ، ومن قبله ثورة السنوسيين . . . إلخ فلا ذكر لها في هذه المادة .

ومع هذا يراد منا فرض هذه الأخطاء المتراكمة التزوير التاريخي التوجيه المسمم على طلابنا ومعاهدنا . أما ملاحظات الناقدين على ما امتلأت به صحف قليلة من

الأخطاء فلا سبيل إلى حصرها هنا ، وحسبنا أخطاء الضبط والتحريف في الأعلام ، وهذه جمل كما وردت مما يصححه معلمو المدارس الابتدائية لتلامذتهم :

٢١٩ حماية الفتاة من النخاسة التي **يتعاطى بها أصحابها** .

في أول يوم من ربيع الأول . . . جمادى **أول** . . . جمادى **ثاني**

٢٨٨ (اسم يطلق على جماعة **المرابيط**) يريد المرابطين

٢٠٨ ذو الكَفَل : (ذو الكِفْل)

٢٤٠ زينب بنت **جهش** (جحش)

٣١٨ طبقات الشعراء . . . اشتغل عليه الكثير

٣٥٤ علق على أشعار العرب **الشروحات**

٣٩٤ الملسوعون بالحيات يزورون كنيسته في أنطاكيا (كذا فيشفون)

٤٢١ عرضت كيلوباترة نفسها للذعة ، والصواب في كليهما (لدغة) فاللسع لما يضرب بذنبه ، واللذع للنار .

٣٦٦ (غانم بو سمرا ولد في بطاسين ، جندي لبناني خدم في جيش الأمير بشير الشهابي) تعجب الناقد من ذكر هذا الرجل في معجم ، فلم يذكر له مزية ولا حادثة مع إهماله الكثير الكثير من أعلام العرب الفحول من غير طائفته ومن غير اللبنانيين .

١٥٨ (شيخة الخانقتين !!) يريد الخانقاهين

٢٢ (وعدم تبليتهم عموم المسلمين) غير مفهوم

٢٣ (إشبيلية . . **وأخذها عليهم فرديناند**) . .

إلى عشرات من أمثال ذلك من التحريف وسوء القراءة وعدم فهم النصوص العربية ، مما لا يعذر فيه أحد ، ولو كان كمؤلف الملحق لكثرة من يستطيع إصلاح قراءاته وفهمه وإرشاده إلى المصادر الأصلية سمن التلامذة اللبنانيين ، كان عليه أن يتعلم ذلك قبل أن يتصدى لغزو ملايين الناشئة بمعجمه المزوق الذي يهدم كل أتعاب مدرسي اللغة والتاريخ والجغرافية في العمل على سلامة لغتهم ومعارفهم القومية .

أما « المنجد الأبجدي » فهو (المنجد) الأصلي خالياً من الملحق الذي صنعه الأب (توتال) ، هو المنجد السابق نفسه بمزاياه الشكلية وعيوبه الجوهرية وهذه بعضها :

١ ـ خطأ في رسم كثير من الأعلام على طريقة العرب ، وباكتفائنا بما وقع من ذلك في الصور فقط نجد افريقيا ، استراليا ، أمريكا ، روما ، إيطاليا ، انجلترا ، غينيا . . إلخ وكل ذلك يجب رسمه بالتاء المربوطة على طريقة العرب . وفي لوحة (أجناس) أمام ص ٢٨٨ نجد هندوستاني (والصواب هندي) والتيبت ، والعرب تقول : التُبت ، وكل ذلك مما ينبغي فيه التزام نطق العرب .

وقبيلة الطوارق في المغرب ذكرت بالجيم (الطوارج) وهو غريب .

٢ ـ خطأ في رسم غير الأعلام ، ففي ص (د) من المقدمة نجد (في ما) مكررة على هذا الرسم الخطأ سبع مرات ، وقد التزم هذا الخطأ في الكتاب كله ، وظاهر أنه يجب وصلهما (فيما) كا يعرفه تلامذة الابتدائيات . بل إن الخطأ مسحوب حتى على القاعدة الإملائية التي في المقدمة فقد أجاز رسم (بقائي) هكذا : بقاءى كأنها اسم مثنى ، وهو ما لا يقول به أحد اليوم . وكذلك فصل ما ينبغي أن يوصل ففي العمود الأول (ص و) قبل السطر الأخير : (ان لا يكون منفياً) والصواب (ألا يكون) بالوصل وهو خطأ مكرر في الكتاب .

٣ ـ من المسلم به أن عبارات المعاجم يجب أن تكون سليمة من الركاكة والخطأ ومخالفة القواعد ، وهو ما نفقده في كل طبعات المنجد . ففي السطر الثاني من ص ز/ ٢) : « يوجد في اللغة ألفاظ » وإثبات (يوجد) في هذه الجملة خطأ مخالف للقاعدة المنصوص عليها ، وفي الصورة أمام ص ٢٤٢ : بواسطة (والصواب بوساطة) وفيها (وحالما تلتقط الصورة) يريد أن يقول (عندما) . في هذا وأشباهه إفساد لملكة المبتدئين وتلقنهم الخطأ بدل الصواب .

٥ ـ خطة (المنجد) خلط الفصيح بالعامي بالدخيل بالأجنبي ، وهو ما ينبغي تجنبه في غير الضرورة ، أما العامي فهو لا يجوز إدخاله المعجم في حال ، لكثرة هذه العاميات المنتشرة بين إيران والبحر الأطلسي فلا يجوز درج ألفاظ من عامية

بعض قرى لبنان في كتاب يقرؤه طلاب من أقطار مختلفة لهم غير هذه العامية التي تفرض عليهم ، كما أن لهم مصطلحات غير هذه المصطلحات الطائفية التي يريد المنجد فرضها[1] وخطة الجزويت في ذلك ـ وقد أخذها عنهم مقلدون من حيث لا يشعرون ـ تؤدي إلى إضعاف الفصحى هذا الرابط الوحيد الذي يجمعنا ، حتىٰ ييسر للعاميات السيطرة في طبعة للمنجد بعد طبعة ، وحتى تؤدي بلبلة العاميات إلى فصم وحدة اللغة ، فيتيسر لهم وللدول التي من ورائهم ما لم يبلغوه حتى الآن بالطرق الأخرى ، ليس هذا محل بيانه .

أفتح الآن الكتاب كيفما اتفق فأرى في ص ٢١٦ ـ ٢١٧ هذه الكلمات الأجنبية والعامية وكلها لها ما يقابلها في الفصيح المستعمل اليوم :

١ ـ البودرة : مسحوق تستعمله النساء للتبرج (بصرف النظر عن قصور لتعريفه وخصوصيته)

٢ ـ البوري : البوق بالتركية

٣ ـ بوّز : قطب وجهه (عامية لبنانية)

٤ ـ البوزه : البوز فارسية (من ألفاظ المطبخ ؟)

٥ ـ البوسطة : الماشية المطلقة (عامية) يريد المهملة بلا راع

٦ ـ البوصلة : (إيطالية)

٧ ـ البوط : إفرنسية

٨ ـ البوظة :

٩ ـ البوغازج : (بواغيز تركية)

١٠ ـ البوقال : يونانية ؟؟

---

(١) مثلاً العذراء : لقب السيدة مريم والدة الإله المتجسد ، المسيح : لقب الرب يسوع الكلمة المتجسّدة ، الصليب : العود المكرم الذي صلب عليه السيد المسيح ، وهي شروح طائفية خاصة لا يصح أن توضع في كتاب عام ، الكثرة الكاثرة من قرائه بل أغلبهم يقول بعكسها . وهذا نوع من التسلل الطائفي الممقوت لا أقول : إنه يوقظ النعرات الطائفية في الأوطان العربية ، وإنما أقول : إنه سيوجدها ـ بهذا التحدي ـ إن كانت مفقودة . وهو دأب الجزويت في لبنان وغيره مذ حلوا .

١١ ـ البول : الطابع البريدي !!!

١٢ ـ البولاد : الفولاذ

١٣ ـ البولصة

١٤ ـ البوليصة

١٥ ـ البولفار = الشارع

١٦ ـ البوليس !!

١٧ ـ البويا

١٨ ـ البوياجي ماسح الأحذية

١٩ ـ البويه

٢٠ ـ البويجي

٢١ ـ البياده

عشرون كلمة في صفحة واحدة كلها أو أكثرها كان في العامية سنة ١٨٦٠ ، ثم بدأت تضمحل حتى من ألسنة العوام ، فلا أحد من الأميين يقول اليوم (بوري) للبوق ، ولا بوغاز ، سولا بول للطوابع ، ولا بولفار للشارع ، ولا بوليس ولا إلخ . ومع هذا يحرص أصحاب المنجد على صك سمع الناشئة العرب بها بعد أن تعب العلماء الغير من أهل اللغة على استبدال الفصيح الصحيح بها منذ عشرات السنين ، فماذا وراء هذا التهديم والرجعية الذميمة إلى عهد الإقطاع في لبنان سنة ١٨٦٠ ؟

ما تقدم من أخطاء الشرح والتعبير مسحوب حتى على العنوان نفسه (المنجد الأبجدي) فليس ترتيبه أبجدياً على حروف (أبجد هوز . .) وإنما هو ألفبائي عادي ، ومن يخطئ حتى في العنوان لا يجوز أن يتعاطى تعليم الناشئة بكتابه قبل أن يتعلم هو التعبير الدقيق .

لذلك كله رأيت واجباً لفت نظر السلطات المسؤولة عن طريق الجامعة لحماية

وطننا من إفساد لغته وتاريخه وتماسك مجتمعه ، ومن تسرب السموم الفكرية والغزو[1] الهدام لكل مقوماتنا ، ومن دسائس التعصيب الطائفي الذميم يزجى باسم خدمة علمية ما فيها من العلمية شيء .

---

(١) أهملت للاختصار التحريف والتشويه المتعلقين بالإسلام والمسلمين ، والإهمال والغموض في المصطلحات الإسلامية مع التفصيل والتوضيح في المصطلحات الكنيسية ، إن ذلك شيء عرفوا به في كل منشوراتهم .

النهضة اللغوية في سورية

هذه المقالة هي الباب الثاني من كتاب (من حاضر اللغة العربية) ص٥٧ ، والفصل الخامس من الباب الثالث من الكتاب نفسه ص١٤٧ .
الكتاب الذي أصدرت دار الفكر طبعته الثانية في بيروت عام ١٩٧١

هذا العرض التاريخي الذي سأحاوله في شرح النهضة العربية في سورية يشمل أدواراً ثلاثة : العهد العربي الفيصلي ، وعهد الاحتلال الأجنبي ، وما بعد الاحتلال .

١ ـ وإليكم بيان الدور الأول وهو ما اصطلحوا على تسميته باسم العهد العربي الفيصلي بين ٢/ ١٠/ ١٩١٨ و٢٤/ ٧/ ١٩٢٠ .

أما في حساب الزمن فقد كان كالحُلُم الخاطف ، لم يعمَّر سنتين ، نعمت فيه البلاد بالسيادة والسعادة ، ساعة ساعة ، بل لحظة لحظة ، إنه عهد إحياء ونشور ، كان فيه الأفراد والجماعات تتضافر في بناء حياة ، وبعث لغة ، وتأسيس كيان ؛ وأما في حساب النتائج والثمرات ، فما أُسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار إلى أيامنا هذه ، وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة ، نتقدم على رغم ما عرا السير من توقّف حيناً ونكسة حيناً . ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أنه تأبَّت على الحديد والنار وكل ما تمخض عنه الخبث الاستعماري الفرنسي من خطط ماكرة ؛ حلوة المظهر ، فتاكة المخبر ، مدة خمس وعشرين سنة من الاحتلال العسكري الأسود ، وستأتي بعون الله على ما بقي من الاحتلال (ثقافياً ونفسياً وخلقياً) ، الاحتلال الذي جلا مادياً منذ (٣٣) عاماً ولبثَتْ خلاياه الخفية الخبيثة حتى الآن حيّة تسعىٰ .

ولا يقدر لها ـ إن استعدنا روح البناء بقوته الأولى ـ حتى تضعف فتحتضر فتموت أكثر من ثلاثين سنة ، وإذا رحل الاحتلال عن بلد وأبقى فيها ثقافته ونفسيته وأخلاقه والأدمغة التي غسلها ثم عبأها فما غاب منه إذن إلا أشباح لا وزن لها في موازين الاستقلال الحقيقي .

التركة التركية

كانت التركة التي على العهد الجديد تصفيتها ثقيلة معجزة ، لكن الله آتى القائمين على الأمور حينئذ ، من حافز الإيمان وصدق العزم وقوة الغَيْرة ، وإخلاص العمل ، ما طهر البلاد منها تطهيراً دخل في نطاق الخوارق ، وكيف لا يكون كذلك وقد أتى في أقل من سنتين على آفات ورواسب ورواسخ بقيت تتوطد مئات السنين ؟!

أعلن الأمير فيصل تأسيس حكومة عربية في سورية في (٥/ ١٠/ ١٩١٨) ، ودواوين الحكومة والجيش كلها تركية اللغة وبالية الأجهزة ، أفسدها الرشوة والفوضى والاتكالية ، والمدارس لغتها وكتبها وتدريسها بالتركية ، وقد حشيت هذه المؤسسات بكثير من موظفين أتراك ما لبث أغلبهم أن رحل إلى بلاده .

أما الجمهور فقد خلق خلقاً جديداً بالفرحة المفاجئة ، فهب يعلن عنها بالمظاهرات والحفلات والأناشيد وتزيين الأسواق ، وقل أن مر أسبوع في هاتين السنتين دون شيء من هذا ، وتبادر المتعلمون من الأحرار يعبئون الأرواح بالمعاني العربية وبالاستقلال وتاريخ الأمجاد ولغة الأجداد ، حتى حفظ العامة هذه الدروس يُسهم في إلقائها رجال الدين من كل الطوائف ، فبدت البلاد صفاً متراصاً لا ثغرة فيه . وألِفَ الأميون في هذه الأفراح والاحتفالات المتواصلة اللغة الفصحى يفهمونها ويزداد فهمهم لها مع الأيام ، حتى ليصحَّ أن يقال : إن هذه المهرجانات كانت مدرسة أدبية للأميين والعامة ، كما كانت مزودة لمن كانوا في سن الطفولة بشحنات روحية قوية ، بقوا يعملون بطاقاتها في شبابهم أيام الاحتلال الفرنسي ، وحين اكتهلوا من بعد ، إذ نشؤوا عرباً في لغتهم وروحهم وعقائدهم وأخلاقهم وأمزجتهم .

التخطيط الناجح

كانت حماسة الرعيل الأول لدرء الخطر عن لغة البلاد عظيمة في عهد الأتراك ، فلما آلت السلطة إليهم ضحى الاستقلال وهالتهم التركة التركية ، لم يتسرب إلى نفوسهم المؤمنة يأس ، فرسموا لإحياء العربية منهجاً عاماً في ميادين ثلاثة :

أما الميدان الأول : فما قدمت الإشارة إليه من تغذية الجماهير ـ ومعظمهم أميون وعامة ـ بالروح العربية في كل مناسبة ، وما أكثر المناسبات حينئذ ، يقود الشعب في مظاهراته شبان يلقّنونه الهتاف بالفصحى ، ويسمعونه الأناشيد الوطنية الشجية بها ، حتى إذا تجمعت المظاهرات من طرقها المختلفة في الساحة العامة ، سمعوا خطباً وقصائد حماسية بالفصحى تسير عدواها إلى نفوسهم ، فيمتلئون بشعور التمجيد للعرب وأمجادهم ، والتفاؤل في مستقبلهم ، وكان أشد ما يثير حماستهم أناشيد الصغار وألبستهم العربية ، ثم خطبهم في الجماهير .

٢ ـ **وأما الميدان الثاني** : ففي إدارات الحكومة والجيش ، وهي مصالح يغشاها الناس في حاجاتهم كل يوم ، ولا يستغني عن معاملتها أحد . كانت لغتها التركية ، وكان على المسؤولين تعريبها تعريباً شاملاً لا يقتصر أثره على موظفي الإدارات نفسها ، ولكن يتعداها إلى الناس كافة . فرسمت الخطط لذلك العمل في ناحيتين معاً : ناحية عامة تتكفل بإمداد الحكومة بكل ما تحتاج إليه من مصطلحات عربية تقوم مقام المصطلحات التركية ، وبمصطلحات مستجدة توضع وضعاً ، وناحية خاصة تكفل الارتفاع بلغة الموظفين إذا كان أكثرهم درس بالتركية :

(أ) **في الناحية العامة** : مسّت الحاجة لإصلاح لغة الدواوين بإيجاد المصطلحات العربية ترجمة ووضعاً ، فتألفت لجنة خاصة بالجيش برياسة المرحوم ياسين الهاشمي وعضوية رشيد بقدونس ومراد الاختيار ، وهم من كبار الضباط ، والشيخ عبد القادر المبارك لوضع جميع ما يحتاج إليه الجيش من إيعازات ومصطلحات فنية ، فقامت بعملها خير قيام ، وما لبث الناس أن ألفوا الأوضاع الجديدة ، واستعملوها .

وألّف الحاكم العسكري المرحوم علي رضا الركابي في ١٩١٨/١١/٢٨ أي في الشهر الثاني لجلاء الأتراك ، شعباً إدارية وفنية لإنجاز أعمال الدولة الجديدة ، فكانت الشعبة الأولى للترجمة والتأليف ، لتعريب الدواوين ، ونشر العربية بين الموظفين ، وسميت هذه الشعبة بعد أن ضُمَّ إليها شؤون المعارف بـ(ديوان المعارف) وأسندت رياسته إلى محمد كرد علي في ١٩١٩/٢/١٢ وكانت لجنة

المصطلحات فيها برياسة ساطع الحصري وعضوية عز الدين التنوخي وحبيب اصطفان، ثم فصلت الشعبة الأولى عن ديوان المعارف واستقلت باسم المجمع العلمي في ٨/ ٦/ ١٩١٩ ثم شرح المجمع خطته في بيان بعنوان (إصلاح لغة الدواوين):

لما تأسست الحكومة العربية ، وتألّفت دواوينها ومصالحها المختلفة ، أحس رؤساء الدواوين وكتابها بشديد الحاجة إلى كلمات وأساليب إدارية عربية جديدة تخلُفُ تلك الأخرى القديمة الأعجمية في مادتها وأسلوبها ، وأحبوا أن ينزعوا عن لغتهم التي اشتهرت باسم (لغة الدواوين) عجمتها وركاكتها ، ثم يحِلُّونها من الكلم والأساليب بما يكون في العروبة أعرق ، وبالفصاحة أعلق .

وقد صادف اهتمامهم هذا إنشاء المجمع العلمي العربي ، فأخذوا يرسلون إليه جرائد (قوائم) تتضمن ما يدور في معاملاتهم وعلى أسلات أقلامهم من الكلمات والأساليب ، ويرغبون إلى المجمع في النظر فيها واستبدال غيرها بها . فوافى المجمع رغبتهم في هذا الاقتراح النافع ، ونظر في كلمات وتعابير كثيرة وردت إليه من (إدارات) المعارف والأوقاف ، والشرطة ، والمجلس البلدي ، والصحة ، والمصرف الزراعي ، فأبقى بعضها على حاله لصحته وعروبته ، وبدل بعضها كل التبديل ، وعدل الآخر تعديلاً قليلاً أو كثيراً ، حتى اجتمع لديه من ذلك ما يحسن نشره وعرضه على رؤساء الدواوين ورجال الصحافة فيرون رأيهم فيه »[1] .

ومضى المجمع على خطته التي وصفت ، ينجز في كل جلسة عدداً غير قليل مما تحتاج إليه مصالح الحكومة من أوضاع وتراكيب . وقد طبع من أجل ذلك على نفقة ديوان المعارف سنة ١٩١٩ (رسالة لغوية في الرتب والألقاب وما يقابلها من العربي الفصيح مبنيّة على الرتب والألقاب في مصر) لأحمد تيمور باشا . وقد أشار إلى ما كان يكلفه وضع المصطلحات من مراجعات في الكتب القديمة ، ثم مداولات فيها بقوله يعدد أعماله في دوره الأول : « ومنها البحث في عشرات من الألفاظ المتداولة في أكثر دوائر الحكومة وتقرير الفصيح منها اعتماداً على أمهات الكتب القديمة مما استغرق النظر فيها جلسات عديدة للمراجعة والمفاوضة

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ١/ ٤٣ .

والتحقيق »[1] و« ترجمَ وصحَّح ونقَّح بعض القوانين كقانون التعليم الابتدائي، وقانون الصحة العامة، وقانون الحجر الصحي، وبعض القوانين المالية »[2].

ويجب ألا نُغْفل من الحساب الدروس الدينية في المساجد والمحاضرات العامة في مختلف الموضوعات لتثقيف الشعب في تاريخه وآدابه، وفي المعارف الثانية كالطبيعة والصحة والأخلاق والدين .. تلقى في قاعة العادلية الكبرى بلغة فصحى سهلة سليمة، وكان لهذا وذلك الأثر الطيب في رفع مستوى العامة. أما حفلات النادي العربي وما يلقى فيها من خطب وقصائد ومحاضرات أغلبها في باب الحماسة أدخل، فأثرها في تعزيز الفصحى ورفع الشعب إليها لا يحتاج إلى بيان.

(ب) **في الناحية الخاصة**: كان كثير من الشباب يترددون إلى غرف القراءة التي أنشأتها جمعية النهضة أيام الحكم التركي لنشر اللغة العربية وتثقيف الأمة بها، وكانت تلقى فيها دروس في اللغة العربية، يلقيها عليهم أحد علماء الشام الشيخ أحمد النويلاتي، وكان ذا طريقة ناجحة في تلقين اللغة وتحبيبها، والحق أن كثيراً من الشباب أخذوا أنفسهم بتعلم لغتهم بولوع غريب، حتى بلغوا فيها قراءة وفهماً وتعبيراً شأواً بعيداً؛ وكان من هؤلاء عدد صالح عهد إليهم بأعمال حكومية في الدواوين، لكن أكثر الموظفين فاتهم هذا التعليم لنشأتهم في المدارس التركية، لذلك أنشأت الحكومة العربية دروساً لهؤلاء الموظفين وأمثالهم هدفها تقوية لغتهم العربية، والارتفاع ببيانهم، وعهدت بهذه الدروس في اللغة والإنشاء إلى أساتذة أكفياء معروفين كمحمد الداوودي وسليم الجندي وأنيس سلوم وغيرهم، وعجل بإثمار هذه الدروس ثمرتها أشياء ثلاثة: رغبة شديدة في نفوس الدارسين، والجاه الذي ينتظر متقن اللغة في الحكومة الناشئة، والتخلص من معرة الخطأ الذي كان المسؤولون الكبار لا يعفون مرتكبه من تقريع.

وحسبك أن تعلم أن الحاكم العسكري رضا باشا الركابي أحد الأفذاذ بين رجالات الدولة الذين أنجبتهم الأقطار العربية انتقى لديوانه ثلاثة أقوياء في اللغة

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٢٩.

(٢) تاريخ المجمع العلمي ص١٧.

العربية ؛ هم الأساتذة سليم الجندي ، وشاكر الحنبلي ، وسعيد المسوتي ، وكان الأول من أعلام العربية في ديار الشام ، وقد وقف الحاكم العسكري كثيراً من جهوده ووفق على خطا التعريب يسهر عليها بنفسه ، وكان إذا أراد أمراً بلغه مهما عسرت الشقة إليه ، وكان من لطف نظر الله لهذا العهد أن كان حاكمه العسكري وقد قبض على الأمر بيد من حديد حزماً ومضاء حتى لقبه بعض الناس بهند نبرغ العرب .

٣ ـ **وأما الميدان الثالث** : فميدان التعليم ، وله أوسع الآثار التي بقيت تنمو بعد هذا العهد . ويحسن أن نقسم هذا التعليم تسهيلاً للعرض إلى قسمين : عام وهو التعليم الابتدائي والثانوي ، وخاص هو التعليم العالي لا نعرض له الآن :

التعليم العام : انصرف معلمو المدارس الابتدائية والثانوية ، وكلهم تخرج في المدارس التركية ، إلى ترجمة الكتب المدرسية إلى العربية بإلحاح حثيث من مديرية المعارف العربية ، وألفت لذلك (لجنة الاصطلاحات العلمية المستعملة في كتب المدارس) كما سبق برياسة مدير المعارف ساطع الحصري وعضوية رشيد بقدونس ، وعز الدين التنوخي ، وعبد الرحمن شهبندر ، وعبد القادر المغربي ، وكان يضاف إلى اللجنة حين البحث في مصطلحات فن أو علم ، مختص فيه لتوضيح معنى المصطلح بالدقة ومذاكرته فيما يلائمه من مصطلح عربي .

ولضعف أكثر المعلمين في العربية آنئذٍ ، كانت تعرض كتبهم المترجمة على أستاذ ضليع في العربية لينظر في سلامة لغته ، حتى لا ينشأ الناشئ على غلط أو ركة ، ولم يكن يجوز مطلقاً طبع كتاب لم يُنظر في سلامة لغته .

كان الجو العام في البلاد بالغ الحماسة للغة العربية وللتاريخ العربي ، ولاستعادة المكانة الأولى للعرب في ظل السيادة والاستقلال ، فكانت العناية في الاستجابة للأحوال المحيطة تشغل كثيراً من وقت الطلاب والمعلمين ، وقد نالت الأناشيد الوطنية والقصائد والخطب التي كان البلغاء المتحمسون يذكون بها الروح العامة كقصائد الثورة لفؤاد الخطيب ذروة الاهتمام في المدارس ، فما أكثر ما كانت تخرج في الشهر تغذي المظاهرات ، وهي تنشد الأناشيد الحماسية ويتبعها الناس ، وما أكثر ما حفظ الطلاب من خطب وقصائد لتلقى في الجماهير . ولا يخفى ما عاد

من هذا كله على ذوق الطالب وملكته وروحه بحيث صار شديد الإحساس والاستجابة للبلاغة العربية .

نتيجة التخطيط

هذه هي أهم دعائم النهضة اللغوية التي قامت على أسسها دولة عربية أرادت لأمتها الحياة ، ولئن لم تنجح سياسياً لما أقام في طريقها العدو الطامع من عراقيل وعقبات ؛ فإنها انتصرت أعظم الانتصار في ميدان الدعاية الحق لإنشاء أمة عربية واحدة ، حتى صار هذا هدف كل الواعين اليوم من المحيط إلى الخليج ، وسيتحقق يوماً قريباً بإذن الله ، وانتصرت في ميدان الكفاح اللغوي ، فما بذر في هاتين السنتين في المدارس والمعاهد بقي ينمو على رغم المعاكسات ، ويؤتي ثمره مدى السبعة والأربعين عاماً الماضية .

احتل الفرنسيون ساحل الشام وحكموه حكماً مباشراً ، واحتل الإنكليز فلسطين فحكموها حكماً مباشراً أيضاً لكن أقل بروزاً، وكان تأثر هذين الجزأين بالإحياء اللغوي الذي قام به الحكم العربي في العهد الفيصلي غير واضح ، إذ انصرف الفرنسيون في هذه الأشهر إلى توطيد حكمهم المباشر، والتمهيد للإجهاز على الحكم العربي بدمشق ، فبقي حال اللغة العربية في الساحل على ما كان عليه أيام الأتراك .

أما فلسطين فقد قضى التخطيط البريطاني فيها بالتمهيد لإحياء اللغة العبرية تمهيداً ظهر أثره بعد سنة ١٩٢٠ ، ومع هذا فتكاد فلسطين تكون أشد تأثراً بنهضة دمشق ، ولم يصرح بانفصالها عنها في الأشهر التي نؤرخ لها ، بل كان كثير من أدبائها أو علمائها وساستها مندمجين في الحكم العربي بدمشق قد وكل إليهم تبعات وأعباء لا تقل عما لأبناء دمشق ، ويجب ألا ننسى إسهامهم في المؤتمر السوري الفلسطيني الذي أعلن بيعة فيصل بن الحسين ملكاً على الشام بحدودها الطبيعية . أما الأردن فلم تكن قد انفصلت بعد ، وقد شملها الروح التي عمت بقية أجزاء الشام ، ولقد كانت الأردن وما زالت إلى الآن في حياتها الاقتصادية والروحية هي وما يسمى (في التقسيم الإداري) بسورية بلداً واحداً متشابك المصالح .

ولا أختم الكلام على هذا الدور قبل الإشارة إلى أمرين :

١ ـ الأول أن هذا العمل الواسع المتين في أقل من سنتين والذي أربك خطط الاحتلال الفرنسي ودهاء رجاله خمساً وعشرين سنة ، لم يستقل به السوريون وحدهم ، بل تجمع في دمشق في العهد الفيصلي كفايات عربية من كل الأقطار من كل من أسهم في عمل عام عسكري أو مدني أو علمي أيام الأتراك ، فكنت ترى إلى جانب السوريين (من بيروت وطرابلس وحلب ودمشق ولبنان وفلسطين والأردن) عراقيين وحجازيين ومصريين ، اندمجوا جميعاً في العمل الحكومي الرسمي ، وقام البناء على أكتافهم متراصين ، وفي هذا تفسير المعجزة التي خلقت حكومة عربية بكل معنى الكلمة بسرعة فائقة لا تكاد تصدق .

٢ ـ والثاني أن هذا التخطيط الذي رأيت في قلب أوضاع تركية إلى أوضاع عربية صرف ، على سداده وإحكامه والحماسة في إنفاذه ، لم يكن ليؤتي ثمره ، لولا حمية قوية في نفوس الأفراد أنفسهم ـ موظفين وغير موظفين ـ على أخذ أنفسهم في تعلم اللغة العربية ، فأقبلوا على الدروس الليلية والنهارية التي أتاحتها لهم الدولة فأتقنوها ، ثم أخذوا أنفسهم بدروس خاصة مكملة ، ثم صاروا يستفتون المعجمات ويرجعون إلى كتب الأدب القديمة يقوون بها ملكاتهم ، حتى صرت ترى أكثر حديث موظفي الوزارات في مكاتبهم حول صحة كلمة أو فصاحة تركيب ، فكان هذا ممن نشؤوا على الدراسة التركية من أقوى ما أعان على نجاح التخطيط نجاحاً سريعاً راسخ الأصول ، وإليه يعزى تمتع لغة الدواوين في سورية ـ بين بقية الأقطار العربية ـ بأصح بيان وأعربه وأسلمه ، ويليها في ذلك العراق ، إذ كان بين الذين بنوا دولتها العربية عراقيون وسوريون من رجال العهد الفيصلي ، نزحوا إليها جميعاً من الشام على إثر الاحتلال الفرنسي .

الدور الثاني[1]

تغلبت قوى الجيش الفرنسي على المجاهدين السوريين حين هبوا لصدها متطوعين ، وانكشفت معركة ميسلون في ٢٤/ ٧/ ١٩٢٠ عن الاحتلال الذي امتد

(١) نشرت هذه الفصلة من الكتاب دار الفكر تحت عنوان (اللغة العربية وتحديات العصر) بمناسبة إعلان دمشق عاصمة الثقافة وحاضنة اللغة العربية عام ٢٠٠٨م

حتى عام ١٩٤٥ ، لقد خسرت فيه البلاد سيادة الحكم فما حال سيادة اللغة ؟

تلقت اللغة العربية في هذه الأعوام هجمات عنيفة ، ظاهرة وخافية ، سهِر على إعداد خططها مستعمرون أذكياء دهاة ، عملوا في الخفاء كثيراً وفي العلن قليلاً ، وكان أملهم أن تثمر في الشام ما أثمرت في الجزائر ، حيث قضت على اللغة العربية فيها قضاء شمل أغلب الميادين ، حتى صار المتجول فيها يشك في أنها كانت عربية يوماً من الأيام .

لكن الفارق بين حالي البلدين كان أكبر من طاقة المستعمرين ، فسلموا بالأمر الواقع ، واكتفوا برسم خطط أخفى وأبعد مدى وأبطأ ثمرة ، تنفذ على مراحل ، فمن إضعافها في المدرسين والمدارس إلى شَوْبها بالعامية ، إلى إحلال العامية مكانها ، ثم يعاودون أمرهم الأول في إحلال الفرنسية محلها . ولقد قطعوا شوطاً بعيداً في تنفيذ خطة الإضعاف ، فحال يوم الجلاء عام ١٩٤٦ دون تنفيذ الباقي من خططهم الماكرة ، فسلم الله الأصل ، لكنا بقينا نعيش في عقابيل من الضعف .

ذلك أن الأجنبي الذي كسب معركة ميسلون بالعدد والعُدد ولم يلق قوة ركينة تثبت له ، جابه حين تصدى لمقومات السيادة في الأمة ، قلاعاً حصينة سخرت بخططه وثبتت لقواه حتى راغت هذه القوى ثم اندحرت ، وانتصرت اللغة العربية .

لقد كان حال اللغة الفصحى في المدارس والصحف والنوادي من القوة بحيث لم تكتف برد الهجمات ، بل زادت إلى ذلك نمواً في قوتها وانتشارها وتمكنها في النفوس تمكناً ما يزال يقوى على رغم التشكيك والعراقيل والمكايد والأحابيل ، وهذا ما لم يجده الفرنسيون في الجزائر غداة احتلالها سنة ١٨٣٠ لاختلاف الزمانين .

إن التعبئة العامة التي عُبِّئتها النفوس في العهد العربي الفيصلي على قصره ، أورثت الأمة أفراداً وجماعات اندفاعاً وحماسة في الإقبال على الفصحى تعلماً وتعليماً ونشراً كانا كالنار في الهشيم لا يقفه شيء ، وإن وقفه قليلاً فليرتدَّ أضرىٰ ضراوة ، وأشد اندفاعاً ، ولقد استطاع الاحتلال إغراء النفوس الضعيفة لتخدم مآربه في السياسة بمناصب ورواتب ، ولم يستطع قط أن يظفر بين جميع حكوماته التي

نصبها بحكومة تتكفل بالعدوان على اللغة العربية كما ضمنت له الحد من روح الوطنية المفعمة بها أجواء الشام ، فانقلب الاحتلال صاغراً وتظاهر بتشجيعه لغة البلاد .

إن الذي يرصد تياراً من التيارات في مجتمع ما ستعاظمه تعدد الميادين التي عليه أن يلجها ليسبر فيها عمل التيار سطحاً وعمقاً ؛ فماذا ننتقي من هذه الميادين لحديثنا هذا القصير ؟ أما منا بيئة الفلاحين مثلاً ، وبيئة العمال في المدن ، وبيئة كل حرفة على حدة ، وبيئة الأسواق . . . هذا من نحو ، ومن نحو آخر دور الحكومة ومصالحها وما يرد عليها من قضايا الناس تبت فيها على مختلف أحوالها ، ثم المدارس والبيئات العلمية كالنوادي الأدبية والجمعيات والمجامع والجامعات ، ثم دور اللهو وأماكن الحفلات ، ثم الصحف والمجلات والكتب والنشرات إلخ . . . وكل من هذه موضوع صالح للدرس بأناة وسبر .

ولاشك أن أبعدها مدىً وأرسخها أثراً على الإطلاق دور العلم ، حيث تطبع أجيال الأمة بطابعها فتخرجها إلى المجتمع رجالاً عاملين ، لتستقبل من بعدهم ناشئة تعدها لتتوزعها ميادين النشاط العام . وهكذا تمد البلاد بدفعة بعد دفعة حتى تطبع المجتمع بطابعها العام . سنتكلم إذن على معركة اللغة العربية في المدارس الابتدائية عامة ، لعدم اتساع المجال للكلام على التعليم الثانوي ، أما التعليم الجامعي فربما أفردنا له كلمة خاصة .

عرفت أن الانبعاث اللغوي في الحكم التركي وفي العهد الفيصلي واكب انبعاث الروح الوطنية العربية والاعتداد بالعرب أمة وتاريخاً وأمجاداً ، وبقي الأمر كذلك في عهد الاحتلال الفرنسي مع إضافة أمر ثالث هام جداً هو النضال القومي المرير الذي عاش فيه الناشئة والشبان والكهول بكل طاقاتهم ، وأوسع وعيهم وهو ما لم يكن في العهد التركي ، إذ قام بالنضال فيه فئات غير كثيرة ، ولا في العهد الفيصلي إذ كان الناس مطمئنين إلى مستقبلهم الذي انصرف المسؤولون إلى بنائه ، والاطمئنان قلّما أذكى همةً وبعث نضالاً .

احتل الفرنسيون الشام ، ووجدوا بناء راسخاً مكيناً للغة الفصحى في النفوس ،

وفكروا طويلاً وقدروا فانجلى تفكيرهم عن الخطوة الآتية في مرحلتين :

فأما المرحلة الأولى فلم يعرضوا فيها للغة العربية وجهاً لوجه ، وإنما أرادوا شلها من وراء وراء بما يلي :

أولاً : ضاموها بفرض اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية من سنتها الأولى ، فاستبدت بقدر غير قليل من جهود الأطفال وأوقاتهم ، واحتجزت من ساعات التعليم سدسها لهذا الهدف وهو كثير ، وبذلك خسرت اللغة العربية من طاقاتهم ما غصبته اللغة الفرنسية .

ثانياً : أخذوا المدارس الأهلية (غير الحكومية) بسياسة الترغيب والترهيب ، فكانوا يرسلون عليها المفتشين يأخذونها في صرامة بشكليات كثيرة فوق قدرتها وإمكانها ، يتوسلون بذلك إلى إغلاقها ، ويمدون من جهة ثانية أيديهم بمساعدات مالية لتعليم اللغة الفرنسية حتى إذا استنامت إلىٰ هذا الإغراء تذرعوا بذلك إلى الدخول في شؤونها وتوجيهها الوجهة التي يريدون ، وبذلك ينتزعون منها الصبغة الوطنية الاستقلالية فيأمنون جانبها . والمعروف أن هذه المدارس صبغتها عربية إسلامية ، وهو ما أرادوا القضاء عليه . وأذكر أن مدرسة فقيرة الموارد تعيش على التبرعات رفضت بإباء قبول المساعدة وصابرت فقرها إخلاصاً لأغراضها السامية ، هي مدرسة الإسعاف الخيري في البزورية ، وعلى مقربة منها مدرسة كبرى تبتز المال ابتزازاً من الطلاب سارعت إلى قبول المساعدة والتطوع لخدمة مآرب الاحتلال واستزادت من ذلك ، ثم جعلت لغة التعليم فيها فرنسية .

ثالثاً : أكثرت السلطة الفرنسية من مد المدارس الأجنبية وبعض المدارس الطائفية بالمعونات المادية والمعنوية ، وصارت تتعمد إعطاء خريجيها الوظائف في الدولة لقوتهم في الفرنسية ، وتحرم خريجي المدارس الوطنية الأهلية ، وتلقي إلى خريجي المدارس الرسمية ببعض الوظائف الثانوية ، فأنتج ذلك بعد سنوات كثرة الإقبال على المدارس الأجنبية وبعض المدارس الطائفية حتى أتخمت طلاباً وأموالاً ونفوذاً في الدولة ، وأغلق بسبب الحرمان عدد من المدارس الوطنية التي لم تساوم على مثلها العليا ، وفي طليعتها المدرسة الكاملية ، وهي التي لها الفضل الأكبر في

النضال ، وفي مد البلاد بخير الرجال أخلاقاً وعلماً ووطنية أيام الأتراك .

رابعاً : حرمان خير المعلمين الذين أبلوا البلاء الحسن في بث روح العربية في الناشئة أيام الأتراك وفي العهد العربي ، لأنهم اشتغلوا في السياسة ، وأنهم فيصليون ، وأنهم يناوئون الانتداب الفرنسي ، وتذرعوا إلى ذلك بشكليات الشهادة وما إليها ، فعهد بتدريس العربية إلى من لا يحسنه .

خامساً : فضّلوا معلمي اللغة الفرنسية في المدارس الرسمية في رواتبهم ومراتبهم على أمثالهم من المعلمين ، فكانوا طبقة متميزة ، فعكف فريق من المعلمين على تعليم الفرنسية للتقدم إلى امتحانات معلميها ، وتركوا تعليم اللغة العربية وغيرها من الدروس ليحظوا بهذه الدرجة الإضافية ، وقد كانت الرواتب ضئيلة في الجملة .

سادساً : عرفت أن الروح الوطنية المتأججة في نفوس المعلمين والطلاب في المدارس الرسمية تكفّلت بحفظ اللغة العربية ، ولم ينِ المعلمون في تحديث طلابهم عن العهد الفيصلي السعيد ، وعن تاريخه المجيد وعن الاحتلال والاستقلال بما تعيه مداركهم ، وكانوا يغضون النظر كثيراً حين يفلت من ألسنة الطلاب وحركاتهم عداءً للفرنسيين ولمن اصطنعوهم من الحكام والوزراء ، فإذا تظاهروا بالزجر قالوا : لا تخرجوا عن الموضوع . ونمي الأمر إلى سلطة الاحتلال ، فعالجت ذلك علاجاً خبيثاً خفياً ، وذلك بأن جعلت في كل مدرسة ابتدائية ، معلماً للغة الفرنسية من خريجي المدارس الأجنبية وأمثالها ، يقوم بالتجسس على الطلاب والمعلمين . ونُقل على أثر تقارير هؤلاء ووشاياتهم عدد من المعلمين ، وسرّح عدد ، وعم أجواء المدارس إرهاب غير خفي برهة من الزمن ، فلما عرف المعلمون من أين أُتي زملاؤهم المظلومون تجنبوا الكلام أمام أكثر معلمي الفرنسية .

هذا بعض ما صنعه الاحتلال ، فماذا كان الأثر العام ؟

أما في المدارس الرسمية فقد قاومت نفوس الأطفال التعليم الفرنسي مقاومة مكبوتة ، حتى كانوا يعيبون المجدّ فيه بنقص في وطنيته ، وازداد معلمو اللغة العربية عناية بتعليمها ، وبات رد الفعل واضحاً يبشر بخير ، وبذلك لم تتوقف تلك

الدّفقة الخيرة في الغَيْرة على اللغة العربية التي شملت المجتمع أيام العهد العربي ، بل تابعت طريقها بنشاط .

وكان من حمق الاحتلال أن منع أناشيد وقصائد وطنية راجت أيام العهد العربي ، فأقبل الصغار يستظهرونها وينشدونها في الفرص ، فيزجرهم معلموهم فينزجرون ، ثم يعودون لما نهوا عنه ، وكل ممنوع مرغوب فيه . سنة الله في النفوس .

وبذلك جعلوا الأطفال يحسون منذ نعومة أظفارهم بمرارة النضال الذي عليهم أن يناضلوه غداً ، ولبثوا سنين طويلة ينظرون إلى اللغة الفرنسية نظرهم إلى لص غريب في عقر دارهم ، يغصبهم طعامهم وشرابهم ولباسهم ونفقتهم ، واحتاج تأليفهم على تعلمها إلى أكثر من خمس عشرة سنة حتى تغيرت النظرة مع الإدمان ، وقنع الكثيرون بأن تعلمها نافع .

في عوامل أخرى

إلى جانب الآثار المجيدة التي مرت بك في إحياء الفصحى حتى الآن ، ينبغي ألا نغفل عوامل جانبية كانت تدعم الروح العربية القوية ، وتمكن لها في نفوس الجماهير بعد أن تربعت الفصحى متمكنة في دور الحكومة والمؤسسات العلمية والنّدوات السياسية نذكر منها :

١ ـ الحفلات العامة والمظاهرات التي يدعىٰ إليها الجمهور أو يحضرها بحافز وجداني ، فقد كان يستمع في الأولى إلى خطباء أبيناء ، أو شعراء مطبوعين ، يثيرون النفوس ويحمسونها ويشحنونها تمجيداً للعرب ، أو إضراماً للنضال سلباً وإيجاباً ، وما أكثر هذه المواسم تقيمها الحكومة أو يتداعى إليها الناس في الأحياء عند الأزمات السياسية أو أيام الانتخاب أو المقاطعات إذن فقد ألف العامة حتى الأميون سماع الفصحى وفهمها ، بل تذوقها .

ولا أنسى حفلة أقيمت في ساحة الشهداء بدمشق ذكرى لمن أعدمهم جمال باشا السفاح في ٦ أيار ، وكان ذلك قبيل الثورة السورية كان من خطبائها عبد الرحمن الشهبندر وزكي الخطيب ومن شعرائها فارس الخوري ، وكنت أنظر وأنا فتى إلى العامة من مرتدي الأزياء البلدية وإلى القرويين ، فما يكاد الخطيب يحط على جملة

حماسية تمجيداً للوطن أو حملة على المحتل حتى تراهم يغلون تأثراً وهتافاً وتصفيقاً . أما المواسم الدينية فمن فضول القول الإشارة إلى التزام الفصحى فيها ، وتتبع الجمهور بقلوبهم كل ما يقال . هذا وذاك مهّدا للفصحىٰ في أسماع العامة والأميين ، حتى ألفوها وصار بعضهم يتكلم بها محسناً إلى حدٍّ ما في المحافل وإن جهل القراءة والكتابة .

ويلحق بذلك المؤتمرات العامة التي يتنادى إليها المحامون والأطباء والمهندسون ، فهي ـ وإن كانت خاصة بهم ـ يعرض فيها عادة موضوعات ميسرة للجمهور ، كما أنهم يعنون بتعريب كل مصطلحاتهم ويدعون إلى توحيدها في أقطار العربية . ولا ننسى أثر حفلات التأبين للمشهورين ومواسم الشعر وما إليها ، حيث يستمتع عامة الناس بتذوق الكلام البليغ .

٢ ـ أثر الصحافة في نشر الفصحى ، وهو أثر ملموس ، فإن الصحف اليومية السياسية يقرؤها عامة الناس ، ويفهمها كل من استمع إلى قارئها من الأميين دون شرح . بل إن أثر الصحافة لم يقتصر على تأليف الناس على الفصحى بل ارتفع بهم إلى مستوى أدبي إن صح التعبير . فجريدة (المقتبس) للمرحوم محمد كرد علي كانت أيام الأتراك مدرسة موجهة موعية منوّرة للعامة والخاصة ، خلف عليها أخوه المرحوم أحمد كرد علي ثم نجيب الريس ، وكان كاتباً شاباً حماسياً يشفي صدور العامة والخاصة في حملاته على الفرنسيين ومواليهم ؛ واسم عارف النكدي في فترة إشرافه على جريدة (الأيام) ملء الأسماع ، ولا ينسىٰ أحد ازدحام العامة والخاصة والشبان والطلاب على باب (جريدة الأيام) في انتظار إنجاز الطبع حتى إذا صدرت الباعة تخاطف الناس النسخ ليقرؤوا افتتاحية عارف النكدي .

كل ذلك كان له أثر سريع في غرس الملكة العربية في نفوس الناس عامة ، ولقيمة هذا الأثر عُنِيَ بعض العلماء اللغويين بتتبع الأخطاء التي تكثر في الصحف وبإصلاحها فأصدر قديماً إبراهيم اليازجي (لغة الجرائد) واستدرك عليه سليم الجندي في كتابه (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد) ، وصدر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مقالات متسلسلة بعنوان (عثرات الأقلام) . . فعاذ ذلك على اللغة

الصحيحة بخير .

كان لما تقدم أثر سريع في غرس الملكة العربية في نفوس الناس عامة . أما المجلات الرفيعة الهدف (الميزان) و(مجلة المجمع العربي) ، و(التمدن الإسلامي) ، و(الرابطة الأدبية) في دمشق فقد انحصر أثرها في البيئات الخاصة ، وعنيت جميعاً بتهذيب اللغة ونقدها مما عاد بالخير على مستواها عند المتعلمين على اختلاف آثارها سعة وعمقاً .

٣ ـ سهر الحكومة أحياناً على المظهر العربي في البلاد تلبية لإلحاح الجماهير ، فعلى إثر فورة من فورات النضال حطم الأهلون كل اللافتات المكتوبة بالفرنسية على بعض المخازن والدكاكين والمصارف (البنوك) وسائر المؤسسات الأجنبية ، فاضطر ذلك إلى تشريع يوجب أن تكون كل لافتة مكتوبةً بالعربية ، وإن كتب فيها شيء بالفرنسية فينبغي ألا يزيد حجمه على الكتابة العربية في اللوحة نفسها[١] . وعمم السيد حسن الحكيم أحد رؤساء الوزارات بلاغاً بوجوب البدء بالتاريخ العربي (الهجري) في جميع الأوراق الرسمية والإذاعات .

واستجابةُ الحكومة لما يلحُّ عليه الأهلون أسفرت عن إجبار المدارس الأجنبية على تدريس العربية في أول الأمر ، وبعد فترة ألزمت بمناهج التدريس الحكومية كاملة ، كما أسفرت عن تعريب لغة المصارف والشركات الأجنبية .

ويذكر هنا افتتان المعلنين في إعلاناتهم جلباً للأنظار والتزامهم الفصحى فيها مما يثبت عند العامة الجمل الصحيحة .

٤ ـ الإذاعات العربية على اختلاف محطاتها ومصادرها : أسهمت في نشر الفصحى وتمكينها في النفوس مكملة عمل الصحف ، بل إن تأثير هذه أوسع لوجودها في كل دار يستمع إليها الذكور والإناث ، الصغار والكبار كل يوم أكثر من مرة . وأكثر إذاعاتها كانت بلغة سليمة في الجملة ، وبعضها القليل يسمو بالسامعين إلى مستوى رفيع على حين كان بعضها ينحط بضعف لغته أو لحن تلاوته . لكن

---

(١) تقوم محافظة مدينة دمشق في هذه الأيام ـ عام ٢٠٠٨ ـ بإحياء هذا المظهر بتشريعات مناسبة .

آثارها على العموم واسعة في خدمة اللغة العربية . وقد لمس المعلمون الابتدائيون ذلك فقد انخفض عناؤهم في إفهام الصغار معاني النصوص لمبادرة أذهانهم إلى المقصود ، وذلك دون شك من فضل العناية بلغة الإذاعة .

وبعد فهذه وقفات وئيدة على أهم العوامل في نهضة اللغة العربية الحاضرة في بلاد الشام ، ولئن كان حظ (سورية) من التفاصيل أكثر من حظ بقية أجزاء الشام الإدارية (لبنان ، الأردن فلسطين وإسكندرون) إن ذلك لا يغير شيئاً من الحكم العام الذي ينتظم لهذه الأجزاء جميعاً ، ولعل كون (سورية) قلب العالم العربي بحق من جهة ، وعيشي في هذه التفاصيل بحيث كانت مراحلها المتسلسلة مراحل حياتي ، شاهدتها وعشت فيها جزءاً جزءاً أوجبا علي أن أنحو هذا النحو الذي رأيت ، وحق على كل من عايش طوراً أن يؤرخ له كما عاينه ، ومن تمحيص هذه المعاينات على اختلافها يسهل الوصول إلى الحق ، ولولاها لضاع كثير من التاريخ الصحيح .

في سبيل اللغة العربية

واحد من مجموعة بحوث . نشر في مجلة (دعوة الحق) العددان التاسع والعاشر ، السنة ١٣ عام ١٩٧٠

« هذا حديث كنت كتبته قبل سنتين مع بعض البحوث ، يوم كلفتني جامعة دمشق للاشتراك باسمها في الموسم الثقافي الذي أقامه « المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي » ثم عاقت مصيبة عامة دون الاشتراك .

وزارني هذا الصيف زائر عربي كريم من الشمال الإفريقي ، ودار الحديث حول من فجعت أمتنا بفقده من قادتنا المخلصين الواعين الأعلام . . حتى ذكر لي الفقيد الكبير السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلتي (الفتح) و(الزهراء) أحد الصابرين الصادقين في رفع راية العربية بدأب وصمت وثبات ، فأثار ذكره شجناً كامناً في القلب منذ نعاه إلي الأستاذ الكبير السيد خير الدين الزركلي ، وكان زاره في المستشفى قبل وفاته بأيام[1] . فأذكرني كلام الزائر حديثاً كان السيد الخطيب حدثني قبل ثماني سنوات ، كنت أودعته أوراقاً عزمت على اصطحابها لذلك الموسم الثقافي في المغرب العزيز ، فاستخرجتها ، فلما أعدت قراءتها آثرت أن أنشرها كما قد كتبت في حياة الأستاذ الخطيب رحمه الله ، في مجلة أثق أنها تقع من قلبه ـ وهو في عليين إن شاء الله . . موقعاً كريماً . . »

كان لنا في (ثانوية دمشق) مدرس فاضل ، قوي المشاركة في فنون مختلفة ولغات عدة ، ذكي . ما أظن أني ورفاقي رأينا مثله قوة بديهة وسرعة خاطر . مع مزاج حساس سريع التأثر ، منه كان يدخل الخلل على ضبطه للصف ، ويلح أولو الشغب من الطلاب لإثارته .

---

(١) محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح الخطيب . من كبار الكتاب الإسلاميين ، ولد في دمشق عام ١٨٨٦م ومات في القاهرة سنة ١٩٦٩ . بعد نضال سياسي وثقافي مرير . الأعلام ٥/ ٢٨٢ .

دخل مرة فرأى أشياء في غير مواضعها ، فسأل عن الفاعل فأجيب : « هكذا وجدناها » فقال :

« هذا غير صحيح ، تريدون أن أصدق أن عامل مطبعة قبض قبضة من حروف فرماها على الناضدة كيفما اتفق ، فاستوت منها قصيدة عامرة لا عيب فيها . . . هذا لا يكون ، إن قصيدة عامرة تعني أن شاعراً قضى زمناً في غيبوبة شعورية ناضجة فتمخض عنها نظم قصيدة ، ثم أرسلها إلى ناشر ، فأرسلها إلى المطبعة ، فانهمك في تنضيد كلماتها عمال ساعات ، ثم طبعت ثم وزعت . .

وهذا المثل ينطبق تمام الانطباق على كل ثمرة من ثمار المعارك الظافرة ، فلابد من إعداد سابق وتدريب طويل يسبقها تخطيط ، وقبل التخطيط اختمار فكرة النضال التي لا تكون إلا بعد ظلم واضطهاد أو غصب حق . .

* *

نحن اليوم في إذاعاتنا وحفلاتنا ومحاضراتنا ونوادينا وصحفنا ومجلاتنا وبياناتنا ونشراتنا وحتى في خطب وزرائنا وارتجال زعمائنا . . . نحن في كل ذلك ننعم ببيان مشرق ولغة سلسلة ، وشعر جيد ، ونثر رفيع ، وحياة أدبية ، وسبل ممهدة ، ومناهج مطروقة . . . فنغبط بكل ذلك ، وينسى أكثرنا عرق الكادحين الذين مهدوا السبل وتحملوا المشاق ، وأوذوا في أموالهم أبدانهم وأعراضهم لتكون للعربية حياة في بلادنا تحيا أمة العرب بحياتها في جميع أقطارها ، ينسى أكثرنا ذلك إلا قليلاً من العارفين الأقليين يقولون : « ليت الرعيل الأول من شهدائنا عاشوا في هذه الأيام ليروا راية لغتهم مرفوعة ، وسيادة أمتهم حقيقة ، فينعموا بثمرات ما تعبوا في غرسه » . أفلا يكون من الحق علينا أن نرجع البصر إلى العصر الذي شقّ الطريق فنذكر المجاهدين الأولين وما لقوا من عوائق ومشاق ، قابلوها بالإيمان والصبر حتى سلمت البذرة وانطوت عليها التربة ، ورعاها الله فأنبتت هذا النبات الحسن .

* *

« يوم[١] أذن الله لنهضة العرب الانبعاث قبل ستين سنة ، آمن الطليعة من جنودها أن أولى مقومات الأمة لغتها ، فهي السلك الناظم لكل ما به حياتها . وحمل هذه الرسالة في الشام[٢] حفنة خيرة من شبانها توزعهم دور العلم في الأستانة وبعض عواصم الغرب ، فرأوا ما للغة القومية ـ مهما يضؤل شأنها ـ من تقديس ورعاية عند الأمم الراقية والشعوب الناهضة ثم رجعوا البصر إلى لغتهم العربية وما أدت إلى الحضارة الإنسانية من خدمات ، وما حفلت به بين اللغات من أمجاد ، فرأوا لغة في الأوج، ورعاية في الحضيض، وأدركوا منذ يومئذ ما عليهم نحوها من واجب جسيم .

أداروا أبصارهم فرأوا بلادهم تغط في نوم عميق أسلمها إليه الحكم التركي ، الحكم الذي لم يكن فيه في عهده الأخير (عهد حزب الاتحاد والترقي العنصري المتعصب) خير للأتراك أنفسهم فكيف يرجى منه خير لغيرهم ؟ ، فلما أعلنت الحرية والدستور عام ١٩٠٨م واستبشر العرب خيراً ، وتسلمت الأحزاب الحكم ، تبين أن الخطة الخفية لتلك الحرية وهذا الدستور هي تتريك العناصر بالحديد والنار ، فهبوا للعمل في أعصب الأوقات وأحلكها ، فأسسوا الجمعيات في عاصمة الخلافة العثمانية على حذر من السلطان ، وعوز من المال ، وافتقار إلى النصير .

لكن الإيمان إذا ملأ القلب فكل عسير يهون ، فما كاد هؤلاء الأخيار من الشبان يجتمعون حتى رأيناهم يأخذون أنفسهم بإصرار المؤمن المنافح ، ألا يتكلموا في اجتماعاتهم إلا بالعربية الفصحى على قدر وسعهم ، وراح كل إلى بيته يختلس الوقت ليعكف على دراسة لغة حرمة الظلم والجهل تعلمها في المدارس ، ودوّت هذه الخلايا في الأستانة تؤدي رسالتها السياسية والعلمية والقومية بلغة عربية ، فكانت مناقشات الأحزاب ، وخطب الحفلات ، ونشرات الجمعيات في قلب العاصمة الطورانية . برهاناً ساطعاً على ما للإيمان والحب المخلص من معجزات .

وخطا الزمان خطوة في امتحان هؤلاء الأخيار المؤمنين ، فكان عهد الإرهاب

---

(١) من كتابنا (من حاضر اللغة العربية) ـ المدخل .

(٢) يشمل (الشام) ما يطلق عليه اليوم في التقسيمات الإدارية : كليكية وسورية ولبنان وفلسطين والأردن .

والأحكام العرفية في الحرب العالمية الأولى ، وامتلأت بهم السجون أيام جمال باشا (السفاح) . فاهتزت بكثير منهم أعواد المشانق ، وغاب في الصحاري من نجا منهم بعنقه وشبع الدهر من صهر هذه العزائم . . . فلما وضعت الحرب أوزارها ، وقام في الشام أول حكم عربي قبل خمسين سنة ، واضطلع به هؤلاء الصابرون من بقايا السيوف ، كان ما أدوا إلى العربية عجباً من العجب :

شبان تعلموا باللغة التركية منذ نعومة أظفارهم ، واستمروا عليها حتى تخاطفتهم المناصب في الجيش التركي والإدارة التركية (شأن أكثر المسؤولين اليوم في المغرب العربي والجزائر وتونس وليبيا) ، فظلوا بحكم بيئاتهم ومناصبهم لا يتكلمون ولا يقرؤون غير التركية ، ثم تنتهي الحرب العالمية الأولى ويكون الاستقلال ويتسلمون الأعباء ، فهل سمعتم بدولة ولدت فغيرت اللغة السابقة المفروضة وأوضاعها بجرة قلم ؟

هذا ما جرى في الشام أيام العهد العربي الفيصلي : وهو ما نتوقعه اليوم من المغرب الكبير الصابر المناضل .

گ لا يتسع المقام لتفصيل الخط العريض الذي أوجزت الكلام عليه ، ولكني سأسجل للتاريخ ، النقطة التي ولدت هذا الخط ، فكان منها كل الخير الذي يغمرنا اليوم ، أسجلها كما حدثني بها ناقطها الذي نقطها ، والذي لا يجد اليوم أحداً أسعد منه ، إذ امتد به العمر ، فرأى بذرته الصغيرة دوحة سامقة ترتد عنها اليوم هوج الرياح منهزمة صاغرة .

أما المحدث فهو الرائد المجهول عند فتيان هذا الجيل ، الغني عن كل تعريف عند العلماء والمتتبعين من شيوخ الجيل الماضي أمثال الأمير شكيب أرسلان ، ومحمد كرد علي ، وعزيز علي المصري ، والشيخ محمد رضا ، وعبد العزيز الثعالبي ، والإمام السنوسي ، ومحمد الخضر حسين وغيرهم ممن استأثرت بهم رحمة الله ، وعند أتباعه أهل الرعيل الأول من بلاد الشام الذين انصرف أكثرهم إلى الرياسات والوزارات والنيابات منذ أربعين سنة أمثال شكري القوتلي ، وسعد الله الجابري ، ولطفي الحفار وغيرهم ، وبقي أقلهم يرعى الغراس صادقاً ما عاهد الله

عليه . . . وكل أولئك وهؤلاء معترفون للأستاذ الجليل السيد محب الدين الخطيب بمقام الريادة والفضل ، كما يقر العلماء بأنه الحجة القوية الواسعة الاطلاع في كل ما خص تاريخ العرب في هذه الأعوام السبعين الأخيرة . ومجاهدونا في هذا المغرب العربي الكبير لا يمكن أن ينسوا المعركة التي دارت رحاها على رؤوس المحتلين أصحاب الظهير البربري والتي أطلقت نيرانها من جريدة محب الدين الخطيب (الفتح) فهزت العالم الإسلامي بأسره ، إن جريدة (الفتح) ـ أيها القراء المؤمنون ـ سجل الجهاد الخالد تقرؤون فيها الصفحات البيض لنضال هذه الأمة الواحدة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب[١] ، في غوطة دمشق ومشارف الشام إلى العراق إلى ثورة عمر المختار إلى جهاد تونس والمغرب والجزائر . وتذكرون أياماً كان فيها جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فبارك الله في حياته وزاده سعادة وغبطة بعزة الأمة ولغتها المقدسة .

هذا هو المحدث ، فأما الحديث فقد اغتبطت به كل الاغتباط سنداً ومتناً ، وأنا مع أسفي على تأخر هذا اللقاء وأني لم أطلع عليه في لقاءاتي السابقة الكثيرة لأودعه مكانه من كتابي (من حاضر اللغة العربية) ، مع هذا أنا سعيد أن أحدث به الآن ؛ كان هذا اللقاء عشية الأربعاء في ٢١/ ٣/ ١٩٦٢ في مكتب الأستاذ محب الدين في المكتبة السلفية بجزيرة الروضة بالقاهرة .

* *

نزل السيد محب الدين الخطيب في إستانبول سنة ١٩٠٥ أيام السلطان الداهية عبد الحميد الثاني ، فوجد أكثر الطلاب العرب يتتركون غير شاعرين بعروبتهم قط ، إذ لم يشعرهم بها أحد في المدارس التركية ولا في الدور ، فالعصر عصر ظلمة وجهل وغفلة ، وجدهم يتكلمون التركية ويتعلمونها ويكتبونها ، ويتباهون كلما

---

(١) كان احتجاب (الفتح) لضيق حال صاحبها يومئذ ، ولتقصير المشتركين في أداء ما عليهم ، دليلاً على أن العالم الإسلامي كان يغط في نوم عميق . لقد سبق السيد محب الدين الخطيب ـ في وعيه الواسع وحدسه العميق ـ زمنه مئة سنة ، فلما بدأ النائم يستيقظ استبدل الدهر برجالنا العاملين المجاهدين الواعين ، دمًى وألاعيب يحركها اللاعبون من وراء الحدود .

تقدموا فيها خطوة ، ويجهلون لغتهم العربية إلا بعض الجمل السوقية الرديئة نصفها مخلوط بالكلمات الأجنبية . أما تاريخ أمتهم وجغرافية بلادهم وسجل حضارتهم . . فشيء لم يسمعوا به قط ؛ وجد ابن عمه السيد زكياً الخطيب الوطني المناضل فيما بعد ورفاقه لا يختلف حالهم عن حال غيرهم ، ووجد أكثر العراقيين المتعلمين يتراسلون بالتركية ، وكأنهم لا يمتون إلى العربية بصلة ، ووجد ، ووجد . . . فهاله الأمر وتذاكر هو والشهيد المرحوم عارف الشهابي وشكري الجندي وبقية الرعيل ، الخطر المشرفين عليه فرسموا ما يلي :

١ ـ يتقاسم محب الدين وعارف الشهابي بعض الرفاق حاثين إياهم على التكلم بالفصحى والكتابة بها ومدارستها بالتدريج : يطالبونهم أولاً بالاقتصار على رفع الفاعل أينما ورد ، فإذا تدربوا التدرب الكافي أفهماهم معنى المفعول به ، وأضافوا إلى التدريب على رفع الفاعل نصب المفعول به فقط ، ثم تدرجوا خطوة خطوة على هذا النسق العملي في إحياء الفصحى بينهم .

٢ ـ أكثر الطلاب العرب كانوا ينزلون في الأستانة خانات ذات غرف معدة للإيجار ، وأكثر ما يجتمعون ، في غرفة زكي الخطيب ، واتفقوا على أن يجعلوا إحدى هذه الغرف غرفة قراءة لهم ، وكتبوا إلى المرحوم الأستاذ محمد كرد علي في مصر ليمدهم بما تصل إليه يده من كتب ومجلات وصحف يستغني هو عنها فيتبادلها الطلاب العرب ، فينموا صلتهم بلغتهم وأمتهم وتاريخهم . ولبى الأستاذ الرغبة فكان الطلاب يتخاطفون ما يصل منه ، ويلتهمون ما فيه . وبهذا قويت رغبتهم في تعلم العربية وتاريخها وبدؤوا يعرفون من أي أمة هم ؟

٣ ـ لاحظ السيد محب الدين أن أكثر العرب يسكنون حي (شمبرلي طاش) ولا سيما شارع (ديوان يوغلي : شارع الدواوين) حيث كثير من الإدارات الرسمية ، واكتشف فيه مقهى مهملاً له (روش) على الطريق واسم المقهى (روش قهوة) قل من يدخله إذ لا أثاث فيه ولا رواء ، وهو يدل على فقر صاحبه الأرنؤوطي ، فبرقت في رأس السيد محب الدين فكرة : أن يشتروا لهذا المقهى كراسي ومناضد ، ويعنوا به ليكون مرتاداً لأبناء العرب ، وعرض الفكرة على شكري الجندي قائلاً : « إذا تم

ذلك استطعنا اجتذاب عدد كبير إلى تعلم العربية بحمل صاحب المقهى على إذاعة أسطوانات عربية مقابل هذه المعونة » ثم فاوضوا صاحب المقهى وعرضوا عليه المعونة فقبل ، وهو لا يكاد يصدق ، واشترك الرجلان في النفقة ، وحملا إلى المقهى مناضد وكراسي وبعض أثاث ، ورتبا ذلك في ذوق ، واشتريا مجموعة من الأسطوانات بالعربية الفصحى ، صارت تذاع من حاكي المقهى (الفونوغراف) من مثل أغنية الشيخ سلامة حجازي :

إن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم   فـإنـنـي فـي غـرامـي صـاحـب الألـم

وعجب صاحب المقهى الفقير من هذه الأريحية التي لم يعرف الحافز عليها ، ولو عرف لقدس هذين المؤمنين ، فالشعب التركي تنطوي جوانحه على أقوى مشاعر التعظيم للغة القرآن الكريم .

لفتت هذه الأسطوانات انتباه المارة من العرب . فصاروا يرودون المقهى فرادى ثم كثروا ، ثم صار بعضهم يغري بعضاً في ارتياده . وكان السيد محب الدين كأنه أجير في المقهى يبادر إلى استقبالهم ببشاشة ويؤانسهم ويحدثهم ، ويشرح لهم ما قد يخفى عليهم من معاني الأشعار التي يُغنَّىٰ بها ، وينتقل إلى تحديثهم عن أمتهم ولغتهم ، ويعرض عليهم صحفاً ومجلات وكتباً يستعيرونها ويعيدونها ؛ ووقع كثير في هذا الشرك النبيل ، فتلقوا حب العربية وتاريخ العرب من محب الدين ، ونفذوا ما كان يرسم لهم من خطط ووصايا في مدارستها ، وكان هذا هو (التكتل) الأول الذي نجح فيه المخلصون في إرساء أول حجر في نهضة الشام العربية الحاضرة .

* *

كان هؤلاء الشبان يرجعون إلى بلادهم العربية في العطل الصيفية ، لا للراحة والاستجمام ، لكن ليواصلوا جهادهم في ميدان آخر ، فأسسوا جمعيات ثقافية ، وجمعوا التبرعات لإنشاء غرف قراءة في أحياء المدن ليقبل العامة على القراءة ويحبوها يوم كان غير الأميين في الحي يعدّون على الأصابع .

إن هؤلاء المؤمنين المناضلين كانوا يعملون والاضطهاد منيخ على البلاد

بكلكله ، والجواسيس والسجون والإعدام سياط مسلطة ، والحذر والخوف مالئان الأفئدة . ولا تظن أن طريقهم ممهدة ، لقد كانوا يتحملون فوق ما تقدم نظرات السخرية والارتياب بعقولهم من أقرب الناس إليهم ؛ لكنها الرسالة العظيمة التي ملكت نفوسهم جعلتهم لا يبالون ما يجري عليهم ، وحسبك أن تعلم أن أحدهم إذا جلس مع رفاقه في ملهى بدمشق مثلاً ووقف عليهم سائل ـ وما أكثر السائلين يومئذ ـ يستجدي قال له : « استجد بالفصحى وأنا أعطيك » ويعلمه جملة صحيحة معربة ، فإذا قالها بإتقان أعطاه ، وطفق السائلون يدل بعضهم بعضاً على هؤلاء (المجانين) ويعلمه ما يقول لهم ، ويبادر السائل يستجدي بالجملة المعربة فسرعان ما تنهال عليه (المتاليك = الفلوس) من أهل الحلقة في المقهى ، ويظن المستجدون أنهم خدعوهم وما عرفوا أنهم هم أنفسهم الذين وقعوا في الأحبولة الخيرة ، وأن أولئك الدعاة المؤمنين يقومون برسالتهم في نشر الفصحى الجامعة في كل بيئة حتى بين المستجدين .

* *

هذا رعيلنا الأول الذي أسس وتحمل ما يتحمله أصحاب الرسالات الكبرى من أذى وسخرية وحرمان واضطهاد ، أسسوا فاستطاع أتباعهم سنة ١٩٢٠ حين قامت الدولة العربية في المشرق أن يعربوا كل شيء بجرة قلم كما يقولون ، زرعوا فحصدنا نحن ونعمنا بالخصب والخير العميم ، فهل سرنا على الطريق ورفعنا من بنائهم الذي شادوا ، ووسعنا الرقعة التي فيها زرعوا ، وهل نحن على العهد والأمانة مثلهم ماضون ؟

هذا صنيع أهل العربية في المشرق . . .

حياة كلمة
(زَلّة العالِم زَلّة العالَم)

بحث ألقي في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ونشر في مجلة المجمع نفسه ، الجزء ٧٤ ، جمادى الآخرة ١٤١٤هـ/ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٣م

في قول سائر بين المحصّلين : « **زلَّة العالِم زلَّة العالَم** » .

وعلوم اللغة العربية لكل منها منهج خاص . متعارف بين المتخصصين ، لا يجوز فيه الخلط بين أحدها والآخر : فطريق البلاغة ، غير طريق العروض . . إلخ . وعمدته النقل الصحيح عن أهل اللسان المتفق على فصاحتهم ، والاحتجاج بأقوالهم ، والقياس على ما ثبت منها واطرد ولم يشذّ .

وهذا ما حفظ على اللغة سلامتها ورواءها ، فإن خالف شيء من ذلك القواعد المطردة ، وثبت سماعه عن أهله سماعاً صحيحاً لا شائبة فيه ، حُفظ ولم يقس عليه كبعض الضرورات الشعرية وما إليها . والهادي إلى ذلك إمعانٌ متروٍ فيما في المعجمات وكتب اللغة الموثوق بها عند علمائها وفقهائها ، وتجنُب ما عُرف بوهْي الثقة ، وتسقُّط الشوارد والنوادر ، والتهاون بالرواية ، ككتب المحاضرات والقصص والأخبار ، وليس كل قارئ في معجم أن يبادر إلى الحكم بما فهم . فإن قراءة سريعة في معجم ، لمدة لم يعرف شأن صاحبه في الثقة به ، ومبلغ اعتماد المحققين كلامه ، مورّط في زلل هو أحياناً فضيحة .

وأول متبادر إلى الذهن في هذا الباب كلمة **(إخصائي)** بمعنى **اختصاصي** ، وهي مثار لغط بين الحين والحين . فلأَتتبع تاريخها الحديث . منذ شاعت أول هذا القرن الميلادي الذي شهد الخلاف حولها غير مرة : أنكرها بعضٌ كلَّ الإنكار ، وتهاون في استعمالها بعض محبي التفاصح بالغريب في الحديث ، وصارت تظهر في بعض الجرائد والمجلات .

في سنة ١٩٠٨ نشرت مجلة (المقتبس) التي أصدرها في القاهرة الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله . في عددها الثالث ص٩٠ ـ وكان يُعنى بالموضوعات الاجتماعية عنايته بالموضوعات العلمية والأدبية ، نشرت مقالاً عنوانه (الإخصاءُ في العلوم) بدأه بتعريف المصطلح بقوله :

« المُخْصي » هو الذي ينفرد بدراسة فن واحد . من « **أخصى الرجل إذا تعلم علماً واحداً** » . وهذه الكلمات الست بين القوسين . منقولة بنصها من (القاموس/ المحيط) للفيروزأبادي . في مادة (خ ص ي) . لا في مادة (خ ص ص) حيث يجب أن تكون في محلها الطبيعي : وكما شرح الزبيدي القاموس استراب فأراد إبراء ذمة صاحب القاموس بقوله : « نقله الصغّاني وهو مجاز » وهذا الشارح ـ رحمه الله ـ أهمل مصدر الصغّاني من الذكر كما لم يبين طريق هذا المجاز .

وظل هذا النقل موضع ريبة . مجهول القائل مغمضاً لا نور بين يديه ولا من خلفه ، وبقيت التبعة معلقة بعنق الصغّاني رحمه الله .

وقصته أنه أراد الاستدراك على الجوهري ما فاته في كتابه العظيم (تاج اللغة وصحاح العربية) المشهور اختصاراً بـ (الصحاح) . فألف الصغّاني في ذلك كتابه (التكملة والذيل والصلة) . وفي هذا الكتاب أثبت الكلمات الست كما نقلها القاموس المحيط : « أخصى الرجل إذا تعلم علماً واحداً » فعلمنا أنه أول من أخطأ فوضع هذه الكلمات في غير موضعها الطبيعي ، وأن موضعها الطبيعي (خصّ) ، لا(أخصى) . ولا تعنينا الاحتمالات التي يمكن أن تورد هنا متعددة كلها ممكن ، تشابههما في الرسم (أخصى) و(أخصّ) ، خطأ الناسخ . . ولكن الذي يتصدر السؤال أفلم يتساءل الفيروزابادي أو شارح كتابه : ما علاقة هذا المعنى بما قبله ؟ أفلم يلفت الانتباه هذا الانبتات بين المعنيين ؟

أم هو درس للمتأمل أن لو كان أحدٌ ينجو من سهوٍ أو غفلة وهو مكبٌّ على عمله ، لكان هؤلاء الفضلاء . هل عدّ محققو العلماء (الصغّاني) مع نقوله الواسعة من الضابطين ؟ هو مكثر في التأليف اللغوي . وعني خاصة بالنوادر والشوارد والشواذ . فجمع منها مالم يجمع غيره . وهو كثير الترحال ولقاء الرجال

والاستيضاح من الرواة والمصادر : إلا أن شأنه شأن المكثرين غالباً يتسرعون بالنقل والإثبات تسرعاً لا يجنبهم الزلل . وقد عرفوا ذلك من أمره ، وأتوقع ـ إذا طبع للصغّاني كتاب جديد طبعة محققة ـ أن نرى فيها من حواشي المحقق ما يشير إلى مادة في غير موضعها ، أو كلمة مصحفة أو ضبط غلط ، الشي الكثير دون أن استكثره عليه .

صدرت للصغّاني طبعة جديدة محققة أخرجها المجمع العلمي العراقي في سنة ١٩٧٨ من كتابه (العُباب) بتحقيق الأستاذ ڤير محمد حسن ، وقد عدَّد المحقق في تقديمه لهذه الطبعة المآخذ على الصغّاني فيه ثم قال : « . . ولا يُوجب ما ذكرنا فوقُ من أخطاء قليلة في العباب ، وأنه كان ينتحل أقوال العلماء ، ولا ينبه عليها إذا أخذها منهم . . النقص في كتابه الجليل . . إلخ »[١] .

وكذلك أخذ عليه محقق كتابه (الشوارد في اللغات) ـ الأستاذ مصطفى حجازي ـ في مقدمته الوافية أنه لم يراع « الترتيب الداخلي للكلمة ، وربما أدخل في بعض الحروف كلمات ليست منها »[٢] . وهذا ما فعله في حرف الخاء من (التكملة والذيل والصلة) . حين أنزل معنى (الإخصاص) في مادة (الإخصاء) ، وورّط الفيروزأبادي صاحب القاموس ، وشارحه الزبيدي من بعده ، وخلقاً كثيراً آخر المئة التاسعة عشرة للميلاد ، وإلى اليوم .

وأما الفيروزأبادي الذي نشر هذه الزلَّة وشهرها حتى احتج بها غير متثبتين ، فتآليفه في اللغة كثيرة ، وعني بكتب الصغّاني ، واهتم بها ، وأراد أن يجمع بين (المحكم) لابن سيده ، و(العباب) للصغّاني ، فألف (العجب العجاب ، للجمع بين المحكم والعباب) ، وتوقف العلماء في قبول بعض دعاويه ، قال ابن حجر :

« كان الفيروزأبادي يرفع نسبه إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، وكان الناس يضعفونه في ذلك مستندين إلى أن الشيخ الشيرازي لم يعقب ، ثم ارتقى ـ بعد أن ولي قضاء اليمن ـ أنه من ذرية أبي بكر الصديق » . وعقَّب ابن حجر : ولم يكن مدفوعاً في معرفة ، إلا أن النفس تأبى قبول ذلك . . وسافر إلى أقاليم عدة ، وسمع

---

(١) العباب تحقيق ڤير محمد حسن طبعة المجمع العلمي العراقي صفحة ج١ ق١ .

(٢) ص٣٤ طبعة مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٨٣ .

بها ، وجال فيما بين الأناضول إلى اليمن والهند . وحظي عند ملوكها ، وولي القضاء في بلاد عدة . . » .

ألف في الحديث كتابه (السَّيحُ الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري) الذي قال فيه ابن حجر : « ملأه بغرائب النقول ، ولما اشتهرت مقالة ابن عربي في اليمن ، صار يدخل منها فيه ، فشانه . . » . وعلى هذه الشاكلة من عدم الثبوت ، نجعل نقله الساهي عن الصغّاني تلك الكلمات الست (أخصى الرجل إذا تعلَّم علماً واحداً) في غير موضعها الصحيح ، وبذلك عُرف الصغّاني نفسه من قبل .

* * *

هذا في زمن (الصغاني ـ ٦٥٠هـ) و(الفيروزأبادي ـ ٨١٦هـ) و(الزبيدي ـ ١٢٠٥هـ). فلماذا في زماننا الذي عشناه حتى اليوم وهذه الكلمة (الإخصاء) ؟

سأقصر الكلام على عملين :

معجم ، وكتاب . تصدى صاحبه لتصحيح أخطاء دارجة :

١ ـ المعجمات التي أصدرتها الشام ومصر وغيرهما كثيرة بين مختصرة ومتوسطة ومطولة ، وغالبها قام بها أفراد ، فهي أعمال شخصية لا تلزم لا أصحابها ، الذين هم بين متعلم وعالم وجاهل مركب الجهل(١) . يتسم كثير منها بالجرأة والاقتحام حيث يتجنب أولو الفضل ويتخوف العلماء مزالقها . وغالبها تعرض للملام والذم ، وكان ضررها محققاً ، ونفعها موضع ارتياب .

اخترت من هذه الأعمال اللغوية معجماً اراد صاحبه الفاضل ، أن يحمل ما ينوء بالعصبة أولي القوة فرزح تحته . ولم يستطع الوفاء بما عزم عليه ، وعذره عندي أن ما خطط له فوق طاقة الفرد بأضعاف ، فكان من الطبيعي أن يقف ، على رغم ما بذل من مجهود وأنفق من مال وسنين عدة ذلك هو (المرجع) للأستاذ الشيخ عبد الله العلايلي أحسن الله إليه ، فقد أراده « معجماً وسيطاً علمياً لغوياً فنياً مرتباً وفق المفرد بحسب لفظه » ، وألزم نفسه ذكر المقابل بالإنكليزية وبالفرنسية . فحوى جزؤه الأول المواد اللغوية بين حرف الألف وكلمة (جدا) في ٧٣٦ صفحة بالحرف الصغير

---

(١) لا يدري ولا يدري أنه لا يدري .

الذي لا يكاد يتبيّنه سليم العين ـ هذا عدا قسم بالفرنسية .

ويعنينا منه الآن تناوله كلمة (الإخصاء) التي نحاول التأريخ لها . كنت أقدر أنه سيمر بها غير عابئ البتة ـ وكان من وراء تقديري القدر ـ فانجرَّ إلى المزلق وزاده توسيعاً ، إذ كانت عبارة الصغّاني في ست كلمات ، فزادها شرحاً ، ومكن لها بزوائد طفيلية عن يمين وشمال حتى صارت أسطراً . وجعل لها المكان الأول في التعريف قائلاً :

« الإخصاء مصدر من (خصي) الاقتصار على فرع واحد من فروع المعرفة والعلم أي أفرده ، ولم يعدّد . . . ومن (المنسوب) الإخصائي بإزاء « انج Speciaist » و« فر T » المستحكم العلم في شيء ما . وله أيضاً متخصص وهو أصحُّه . وقوله : « وهو أصح » غير دقيق ، والصواب أن يقول : « وهو الصحيح » .

هذا المعجم (المرجع) عدد المعنى المزعوم الذي أدّاه الصغّاني في ست كلمات ، وجعل له إضافات حتى كأنه هو المعنى الأساسي في الكلمة ، على غير ما يسوغ في المعجمات الأصولية ذوات المنهج الملتزم . بينما لم يحظ المعنى الأساسي إلا بكلمتين . وفي هذا بعض الإخلال في التوازن الواجب ، الذي يفرق بين المعنى الأساسي والمعاني الفرعية .

إن سعة الميدان الذي أخذ المؤلف نفسه بالجولان فيه لا تُدرك ، وأنَّى لفرد واحد ، مهما يؤت من بسطة في الإمكانات العلمية والمادية ، أن يملك قدرات متخصصين متعددين في تخصصاتهم ليكون له معجم متعدد الأهداف (وسيط علمي لغوي فني مرتب وفق المفرد وحسب لفظه) وإزاء كل مادة فيه مقابل إنكليزي ومقابل فرنسي » .

أرجو ألا يكون أمثال هذا المأخذ كثيرة في معجم (المرجع) فإني أعرف صاحبه الصديق بكثرة الاطلاع وسداد الإدراك للغة لكن طموحه فاق قدراته ، وجاوز بعيداً المدى الذي ظنه كافياً لهذا العمل ، وإن هدفاً واحداً منها لخليق باستنزاف سنوات من أعمار المجدين[١] .

* * *

---

(١) كتب الأستاذ فؤاد أفرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية سنة صدور معجم (المرجع) صفحتين لتكونا

٢ ـ أما العمل الثاني من أعمال العصريين . فكتاب (قل . . ولا تقل) للأستاذ مصطفى جواد العراقي ، فقد عرض لكلمة (إخصاء) بقوله ص٩٧ .

« قل متخصص بالعلم ، ولا تقل إخصائي » ولو اقتصر على هذا لكفي ووفَّى وأوجز ، لكنه أراد شاهداً عليه . وتوسعاً وتعليلاً له فحاد عن سواء السبيل :

أولاً : أما شاهده فقوله : قال جار الله الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) وهو كتاب مشهور : « إن من لا يعلم إلا فناً واحداً من العلم ، ينبغي أن يسمى خصيّ العلماء »[1] .

يفهم من قوله : (ينبغي أن يسمّى) أنه لم يقع ، ولم يسمّ ، والزمخشري يقترح أن يسمّى بذلك ، أما الأستاذ جواد ففهم العكس ، ومضى يعلل قائلاً : « والسبب في ذلك أن الوقوف على علم واحد عند القدماء كان عجزاً وعيباً ، ومن لفظ الخصيِّ المذكور في ذلك ، أخذوا الفعل (أخصى يخصي) ، والمصدر (الإخصاء) . فمعنى (أخصى فلان) صار خصياً (كذا) في العلم مثل أثرى صار ثرياً ، وأفصح صار فصيحاً (كذلك أيضاً) . قلت : لا يلزم من كلام الزمخشري شيء مما فهمه الأستاذ .

= كالتمهيد له فلم تمهدا لشيء ، بل كانتا فرصة اهتبلها للدعاية لمطبوعات بلده للمعاجم ، ولا بأس في دعاية إنسان لمطبوعات بلده ولو خرج عن مراعاة الموضوع ، لكن القول قد اشتط به إلى الغلو بقوله : « . . حتى غدا كل متمرس بالعربية في مشارق الأرض ومغاربها ، إذا اعتاص عليه تعبير لجأ إلى معجم لبناني ـ ص ج » اهـ . وكان الله للمتمرسين بالعربية في مشارق الأرض ومغاربها ، وحماهم من الأسوأ .

(١) المجاز الذي استعمله العرب في (الخصاء) هو النقص والذل ، وهو ما وافق استعمال العرب . جاء في (لسان العرب) : قال أبو المهوس الأسدي :

خصيتك يابن حمزة بالقوافي ... كما يُخصى من الحلق الحمار

قال الشيخ : الشعراء يجعلون الهجاء والغلبة خصاءً ، كأنه خرج من الفحول ، ومنه قول جرير :

خُصي الفرزدق والخِصاء مذلة ... يرجو مخاطرة القروم البُزَّل

قلت : هذا كل ما في « لسان العرب » لا شيء مما نقل القاموس المحيط عن الصغاني ، ولا ما زعم المتأخرون من بعده حتى اليوم .

ثانياً : وتابع الأستاذ جواد تعليله مازجاً به استنباطاً آخر غير صحيح بقوله :

قال صاحب القاموس المحيط : « وأخصى تعلم علماً واحداً » ، فاستنبط منه ما لا يدل عليه ، قال : وفي قوله إشارة إلى أنه لم يتقن العلم الواحد (؟!) ، ولو كان فيه دلالة على الإتقان لقال : علم علماً واحداً وأتقنه ، وبرع فيه وتبحر فيه . . وما إلى ذلك (أيضاً) . فالإخصاء أقرب إلى الذم من التصريح به (كذا) . ثم إن قباحة اللفظ تدل على قبح معناه » وقد أحسَّ بذلك من اختاره لتأدية معنى (سبسيا لِسْت) الفرنسية .

وختم المؤلف كلامه بحكم سديد صحيح بقوله : « فأنت ترى أن الإخصائي قبيح في المعنى وغلط في الوضع » .

قلت : ليته أراح القارئ من تعليلاته واستنباطاته ، واقتصر على السطر الأول والسطر الأخير .

* * *

مولد هذه الزَّلّة إذن ، المئة السابعة للهجرة ، ولم تعرف ـ في علمي ـ من قبلُ . أما المعنى فاطلبه في مادته الخاصة من المعجمات ، حيث تجد في مادة (خصّ) : خصّه بالشيء وخصّصه واختصه : أفرده به دون غيره . ويقال : اختصّ فلان بالأمر ، وتخصص له إذا انفرد به، ويقال: فلان مُخَصّ بفلان أي: خاص به»[1] .

فالكلمة إذن (أخصّ إخصاصاً) لا (أخصي إخصاء) . وعلى هذا فالكلمات (اختصاصيٌّ ، ومختصٌّ ، ومتخصِّصٌ ، ومُخِصٌّ ، ومُخَصٌّ ، وإِخصاصيٌّ) كل أولئك صحيح فصيح ، أما إخصائي فخطأ فاحش قبيح .

* * *

زلة الصغّاني تلك في المئة السابعة للهجرة ، هي التي أزلَّت صاحب القاموس المحيط في المئة التاسعة، وأزلّت من تبعه تقليداً دون انتباه إلى قبح معنى الإخصاء ،

---

(١) لسان العرب . مادة (خ ص ص) .

حتى يومنا هذا في المئة الخامسة عشرة .

وهذا هو الذي ينعته أهل العلم قديماً بـ (الصحفية) فإذا قالوا : « فلان صُحُفي » ، عَنوا أنه يأخذ علمه من الصُّحف بغير أستاذ ، فيزلّ بما تحوي من خطأ وتصحيف ، زيادةٍ ونقصان . أما الأخذ عن شيوخ العلم المختصين ، فهم يبصرونه بخللها فيصححه . وبصوابها فينشره ويعلمه . جنبنا الله الزّلل ، وهدانا إلى السداد .

تصحيح الأصول

بحث ألقاه الأستاذ في الجلسة السادسة لمؤتمر الدورة الأربعين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في ٣/ ٣/ ١٩٧٤م ، ونشر في مجموعة بحوث المؤتمر

من كلام الجاحظ في نعت أستاذه إبراهيم بن سيّار النظام قوله :

« كان إبراهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب . . . وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العرض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه كان أمرّه على الخلاص . ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن أمره كان ظناً »[١] .

ونحن إذا وضعنا (الشواهد غير المحررة) مكان كلمة (الظن) الواردة في نعت الجاحظ لأستاذه صدق الحكم كل الصدق على عدد غير قليل من القواعد النحوية . ولا يرد على هذا أن أكثر الروايات الضعيفة والمحرفة التي بنيت عليها هذه القواعد رواها كوفيون ، وذلك لأن التباهي بكثرة الرواية وندرة المروي كان كما يقولون بدعة العصر في المئة الثانية فما بعدها ، وكلما أغرب الراوي كان أدل على سعة محفوظه ، وكان كثير منهم يسجل ما يسمع مهما تكن اللغة ضعيفة أو رديئة أو لغة قوم خالطوا أجانب ، ففسدت سلائقهم فلم يعتد بكلامهم ، فكثرت الوجوه في المسألة الواحدة من غير تمييز بين ما عليه أكثر العرب المحتج بهم وما انفرد به بعضهم ، ولم تقتصر القواعد المستنبطة من هذه الشواهد على الكوفيين ، بل تسربت

---

(١) يتابع الجاحظ صفة أستاذه قائلاً : فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه لا يقول : (سمعت) ، ولا (رأيت) ، وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة بهرته . انظر الحيوان ٢/ ٨٣ .

إلى كتب غيرهم حتى شاعت (مدرستها) شبه الرسمية ، وأصبحنا في حاجة إلى دراسة علمية لهذه الشواهد تستتبع حذف كل قاعدة لا مؤيد لها إلا الشاهد المصنوع أو المحرّف أو النادر .

والمنهج السليم للقواعد أن تبنى على الأكثر الأشيع من الفصيح . ومع أن الخليل بن أحمد ـ رحمه الله ـ وضع بما أوتي من ذهن رياضي منظم خطة قريبة التناول ، إن الذين أتوا من بعده انحرفوا كثيراً عن منهجه ، وحشروا في بحوثهم ما قرب وما بعد ، ما صحَّ وما لم يصحَّ ، إرادة المكاثرة والمفاخرة في العلم .

قال رجل للخليل : « أخبرني عما وضعت مما سمّيت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فقال : « لا » : فقال : « كيف نصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجّة ؟ « فقال : » أحمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات » .

وعلى قصور هذه الخطة شيئاً ما كان الخير في اتباعها وتعاهدها بالإحكام مع الزمن ؛ فمنهاج قريب يتبع بأمانة وإصلاح خير من سير على غير منهاج ، وهذا ما لم يكن ـ مع الأسف ـ لسببين على الأقل .

١ ـ الأول أنهم لم يدرسوا الرواة وأحوالهم ومن منهم الثقة الضابط ، ومن الوضاع والمخلّط دراسة كافية ، فلم نعرف عن طبقات رواة اللغة بقدر ما عرفنا عن طبقات المحدثين ، ولاحظي فن الرواية اللغوية ببعض ما حظي به فن رواية الحديث ، ومع أن بعضهم حاول تقليد المحدثين في الجرح والتعديل ، فكان ينص في ترجمة الخليل وأبي عمرو بن العلاء مثلاً على ـ أمانتهما ، وينصّ في ترجمة قطرب بما يشعر بكذبه ، ويشير إلى تزيد ـ في زعمه ـ عند الأصمعي . إن صنيعهم أشبه بمحاكاة ابتدائية لا علمية فيها .

٢ ـ والثاني أنهم لم يحققوا كثيراً من النصوص التي بنوا عليها ، لا سنداً ولا متناً ، أما السند فكثيراً ما تجد الشاهد في كتبهم منسوباً إلى غير قائله أو إلى مجهول ، مكتفين بـ (قال الشاعر) ، وأما المتن فقد تجده مروياً على غير الصحيح ، ويبنون قاعدتهم على موضع الخطأ منه . وكان عليهم أن يتقصَّوا الروايات المختلفة في مظانها . ويحققوها متحرين صحيحها من زائفها ، وإذن يستطيعون الاطمئنان

إلى ما يبنون عليها من قواعد[١] .

وحسبي أن أذكر مثالاً لا يغيب عن علمكم ويكون سبيلاً إلى استحضار أمثاله ، ولم أخصه بالذكر إلا لأنه كان أول ما لفت نظري بعنف منذ خمس وعشرين سنة[٢] وأنا أقوم بتدريس كتاب (مغني اللبيب)[٣] .

مما تناقله مؤلفون في النحو عصراً بعد عصر ، زعم بأن من شأن (أن) الناصبة للمضارع أن تجزمه أيضاً : ومن شأنها أن تزاد بعد (كي) . . حتى وجد ابن مالك في المئة السابعة (٦٧٢م) من الضرورة أن يقول في كتابه الموجز (التسهيل): « ولا يجزم بها خلافاً لبعض الكوفيين »[٤] ويتبع ابن مالك في هذا ولده المشهور بابن المصنّف . ثم يجيء في المئة الثامنة أبو حيان فيشرح كتاب (التسهيل) هذا ويعقب على عبارة ابن مالك الآنفة بنقل غريب جداً هو قول الرؤاسي (ـ نحو ١٩٠هـ) : ـ

« فصحاء العرب ينصبون بـ (أن) وأخواتها الفعل ، ودونهم قوم يرفعون بها ، ودونهم قوم يجزمون بها » .

ثم يدلي برأيه المشروط : (إذا كان قد حكى الجزم بها الكوفيون ، ومن البصريين اللحياني وأبو عبيدة ، كان الأصح جواز ذلك لكنه قليل[٥] . فانتهى إلى مخالفة ابن مالك صاحب التسهيل الذي تصدى لشرحه ، وأترك بيان شكي بل نفيي القاطع لصحة قول الرؤاسي الآن .

٣ ـ ثم يأتي ابن هشام (ـ ٧٦١هـ) فيذكر في أحكام (أن) الناصبة للمضارع أن بعض الكوفيين وأبا عبيدة يزعمون أن بعض العرب يجزم بها المضارع « ونقله اللحياني عن بعض بني صُبَاح من ضبة[٦] » وأنشدوا عليه قول امرئ القيس :

---

(١) من كتاب في أصول النحو ـ الطبعة الثالثة ص٧٢ فما بعدها .

(٢) انظر مقدمة المصدر السابق .

(٣) لابن هشام الأنصاري ، وقد راجع أستاذنا تحقيقه .

(٤) انظر التسهيل لابن مالك ٢٢٩ ، وهو في مغني اللبيب ١/ ٣٠ .

(٥) شرح أبيات مغني اللبيب لعبد القادر البغدادي ١/ ١٣١ ـ ١٣٢ طبعة دمشق ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

(٦) مغني اللبيب ص٢٧ (طبعة دار الفكر في بيروت سنة ١٩٦٩) والرواية في الديوان : =

إذا مـا غَـدَوْنَـا قـالَ ولـدانُ أهلنـا تعالَوْا إِلى أنْ يأْتِنا الصَّيدُ نحطِبِ[1]

وقول جميل بثينة :

أحـاذر أن تعلـمْ بهـا فتـردَّهـا فتتـركَهـا ثِقْـلاً علـيَّ كمـا هيـا[2]

وعلق ابن هشام على بيت جميل بقوله : « وفي هذا نظر ، لأن عطف المنصوب عليه يدل على أنه مسكَّن للضرورة لا للجزم . وكنا نحب من ابن هشام ـ رحمه الله ـ[3] غير هذا . لكن اهتمام القوم بالنحو الصناعي ، وتخريج الروايات أغفلهم عن الأحق بالاهتمام ، وهو تصحيح الشاهد قبل تخريجه أو البناء عليه .

٤ ـ وبعد نحو من مئتي سنة ألف السيوطي شرحه لشواهد (مغني اللبيب) فلم يعجبه تخريج ابن هشام لهذا البيت بالضرورة الشعرية وغاص غائصاً ثم طلع علينا وفي يده تخريج غريب أنجده به علم القراءات ، فقال بعد ملاحظته إن تجاوز الميم والباء في البيت بشبه ما ورد في قراءته لآية فيقول :

« أنشده الكوفيون ، واستشهد به المصنف على الجزم بـ « أن » وقد خرج على أن سكونه لأجل الإدغام الجائز في الكلام كما قرأ أبو عمرو بن العلاء في : ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [النساء ٤/ ١٤١] ونحوه وبعد هذا الكلام ختم السيوطي بما كان يجب أن يبدأ به وهو قوله : « ثم رأيت البيت في ديوان جميل وفيه تغيير » . . .

ألا طـال كتمـانـي بثينـة حـاجـة مـن الحـاج مـا تـدري بثينـة مـا هيـا

أخـافُ إذا أنبـأتهـا أن تضيعهـا فتتـركهـا ثقـلاً علـيَّ كمـا هيـا

ونلاحظ أن حكايته عن ابن هشام غير دقيقة ، فلم يستشهد ابن هشام بهذا

= (إذا ما ركبنا) ، هذا و(صباح) بضم الصاد وتخفيف الباء ، وما ذكره الدماميني في شرحه لمغني اللبيب من فتح الصاد وتشديد الباء عليه سائر الشراح ، فليس بموجود في أسماء البطون والقبائل . انظر شرح أبيات معني اللبيب للبغدادي ١ ـ ٣٠ طبعة دمشق ١٣٩٣هـ .

(١) شرح ديوان امرئ القيس للسندوبي ٥٣ . وفيه : « إلى أن يأتيَ الصيدُ » .

(٢) ديوانه ص٢٢٤ .

(٣) شرح شواهد المغني للسيوطي ص٣٦ ـ المطبعة البهية .

البيت[1] ، بل نقل إنشاد غيره ، ونفى في تعليقه أن يكون في البيت جزم ، بل هو إسكان للضرورة .

٥ ـ وبعد وفاة السيوطي بنحو من مئة سنة أيضاً ألف عبد القادر البغدادي (١٠٣٠ ـ ١٠٩٣هـ) شرحاً لأبيات مغني اللبيب أيضاً فلم يزد على أن نقل كلام أبي حيان الذي مر بك من شرحه للتسهيل .

أما شاهدهم الأول على زعم الجزم بـ (أن) فقول امرئ القيس في روايتهم :

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا   تعالوا إلى أن يأتِنا الصَّيدُ نَحْطِبِ

فقد قال السيوطي في شرح شواهده : (أورده المصنف مستشهداً) به على (أن) قد تجزم المضارع . وقد أنكر ذلك الفارسي وقال : « الرواية : (إلى أن يأتي) . وكذا أورده صاحب (منتهى الطلب) ، وكان بحسب السيوطي هذا فهو كاف بالغ . لكنه عقب عليه بسرده الرواية الضعيفة والتكلف غير الموفق في تخريجها قال :

« وأورده ابن الأنباري في شرح المفضليات بلفظ (إلى ما يأتنا الصيد) وقال : يجوز أن تجعل (تعالَوْا) مكتفية ، وتجعل (ما) شرطاً والفعل مجزوماً بها (ونحطبِ) جوابها[2] وفي هذا السرد خروج على الطريقة المرضية في التآليف . إذ في إثبات الرواية الصحيحة مندوحة عن ختم الكلام بالرواية الخطأ ثم تخريجها حتى يتوهّم غير المتمكن قوتها . فإن كان هذا قد يقبل ـ على تردد ـ عند بعض الجماعين فهو مردود عند المؤلفين المصنفين .

ولقد كان عبد القادر البغدادي الذي أتى بعد السيوطي بمئتي سنة أكثر توفيقاً وأسدَّ نهجاً . فقد عزا هذه الرواية الضعيفة إلى صاحبها ، وذكر إنكار الفارسي لها بالنص والعلة ، وسند القراءة السليمة للبيت معزوة إلى الثقة الخبير قال :

وقال أبو علي الفارسي في (المسائل البصرية) : أنشد الفراء هذا البيت :

إذا ما خرجنا قالَ وِلدانُ أهلنا   تعالَوا إلى أن يأتنا الصيدُ نحطبِ

---

(١) عرفت قبل أسطر أن المصنف لم يستشهد به .

(٢) شرح شواهد المغني للسيوطي ص٣٥ .

وإنشاد الفراء خطأ فاحش لأنه جزم بـ (أن) انتهى[1] .

* *

أما شأن (أنْ) الثاني الذي زعمه بعضهم فهو زيادتها بعد زميلتها (كي) الناصبة للمضارع مثلها ، وجرّهم إلى هذا بيت متهافت مجهول الصانع ، وبيت آخر محرّف ، موضع احتجاجهم منه هو موضع التحريف نفسه ، فالأول :

أَرَدْتَ لكيمـــا أن تطيـــرَ بِقِـــرْبتـــي فتتـــركَهـــا شنّـــاً ببيـــداءَ بَلْقَـــعِ[2]

والثاني قول جميل :

فقالَتْ : أكلَّ النّاس أصبحتَ مانحاً لســانَـك كَيْمــا أن تغُـرَّ وتخـدعــا[3]

وحاروا في : أيّ الأداتين تعمل ؟ (أن) أم (كي) فاختلفوا ، فاستنجدوا صناعهم فأنجدت كلاً بما عودته ، وهاكم عرض ابن هشام نفسه لأصل القضية ، ثم خلافهم في الشاهدين الآنفين :

قرر ابن هشام أن من معاني (كي) : أن تكون بمنزلة (أن) المصدرية معنى وعملاً[4] وهذا حقّ لا غبار عليه ، ولكنه قيد الحكم بنحو قوله تعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ [الحديد ٥٧/ ٢٣] فكأنه يريد أن يشير إلى أن بعضهم جعلها تعليلية بمنزلة لام التعليل ، والنصب بعدها بـ (أَنْ) مقدرة ، وبعضهم جعلها مصدرية وحرف التعليل محذوف جوازاً ، وهو ما تؤيده النصوص والقياس ، ثم تابع كلامه قائلاً : (ويؤيده صحة حلول (أنْ) محلها ، ولأنها لو كانت حرف تعليل لم يدخل عليها حرف تعليل . ومن ذلك : جئتك كي تكرمني ، وقوله تعالى : ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ ﴾ [الحشر ٥٩/ ٧] إذا قدرت اللام قبلها ، فإن لم تقدر فهي تعليلية جارة ، ويجب حينئذ إضمار

---

(١) شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ١/ ١٢٩ .
(٢) البيت بلا نسبة .
(٣) ديوانه ص١٠٨ .
(٤) مغني اللبيب ص١٩٩ طبعة دار الفكر في بيروت (١٩٦٩) .

(أنْ) بعدها ، ومثله في الاحتمالين قوله :

أَرَدْتَ لكيمــا أَنْ تطيــرَ بقِــربَتــي ....

(كي) إما تعليلية مؤكدة اللام ، وإما مصدرية مؤكدة بـ (أن) ، ولا تظهر (أن) بعد (كي) إلا في الضرورة كقوله :

فقالـت أكـلَّ النـاسِ أصبحتَ مـانحاً لســانَـك كيمــا أن تَغُــرَّ وتخـدعـا

وعن الأخفش : « أن (كي) جارّة دائماً ، وأنّ النصب بعدها ؛ (أنْ) ظاهرة أو مضمرة ؛ ويردُّه نحو ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ فإن زعم أن (كي) تأكيد للام كقوله :

.... ولا لِلِمــا بهـــم أبـــداً دواءُ[1]

رد بأنّ الفصيح المقيس لا يخرَّج على الشاذ .

وقد أُتي السابقون ، ـ رحمهم الله ـ في ترددهم في (كي) بين المصدرية والتعليل من قلّة توقفهم عند النصوص الصحيحة ، بل من تسويتهم بين الصحيح الفصيح ، والمتهافت المحرف ، فمال بعضهم إلى هذا تارة وإلى ذاك تارة ، ولو نقدوا النصوص فمازوا صحيحها وطرحوا زائفها لم يبق بين أيديهم إلا مصدرية كي . فأما التعليل السابق إلى الذهن كما ذكرت فمن اللام التي تصاحبها كثيراً . وتبقى معناها عليها ولو حذفت لفظاً حيث ساغ التعبير أنها مصحوبة بها دائماً لفظاً أو تقديراً ، ولقد أغرب الأخفش جداً حين جعلها تعليلية جارة فقط ، وحسبك في وَهْي دفعهم اعتراض مجيء تعليلين متعاقبين على قولهم في قوله تعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ استنجادهم برواية لبيت محرف (ولا لَلِما بهم)[2] وكلنا يعرف أن الحرف الذي لا يستقل بالنطق لا يكرر فلا يقال (تتالله) ولا (كتبت ببالقلم) لكن كتب النحو تناقلت

---

(١) أكّد اللام الجارة باللام الجارة أيضاً توكيداً لفظياً دونما فاصل .

(٢) كذا يرويه ثعلب من الكوفيين ، ولا صحة لذلك ، والبيت لمسلم بن معبد الأسدي ، وقد أورده صاحب مغني اللبيب والسيوطي :

فــلا والله لا يُلفــىٰ لمــا بــي ومــا بهــم مــن البلــوىٰ دواء

فلا شاهد إذن لما زعموا .

انظر شرح شواهد السيوطي ص١٧٢ .

(ولا للما بهم) وكل هذا التخبط سببه عدم الصبر عند الخطوة الأولى ، فالبيت الأول (أردت لكيما أن تطير بقربتي) مجهول الأصل يجب طرحه منذ البداية ، وبيت جميل محرف وصوابه : . . . . . لسانك هذا كي تغرَّ وتخدعا .

فلا أصل لـ (كيما أن) البتة ، السيوطي نفسه بعد أن أثبت التحريف وأثبت القاعدة المبينة عليه اعترف فقال : ثم رأيت البيت في ديوان جميل بلفظ (لسانك هذا كي تغر وتخدعا) فلا ضرورة فيه . ونتساءل اليوم : فلم ـ رحمك الله ـ لم تمح التحريف السابق والقاعدة المبنيّة عليه بعد أن عرفت الحق الصراح ؟

جمع بعضهم علماً جمّاً يبهرنا بغزارته ، ولكنه لم يتلبث ليهز المنخل هزاً جاداً . وإذن لاستراح من كثير مما عنَّى به نفسه وعنَّى طلاب العلم من بعده ، من كثير كثير لا طائل تحته . بل تحته كل الصوارف عن الوصول السريع إلى الحق الواضح السهل .

إنه لا تعليل ولا تخريج ولا قياس قبل تصحيح الأساس .

* * *

وبعد فهذا واحد من أمثلة غير قليلة في كتاب واحد هو مغني اللبيب ، يضيق بها وينبه عليها كل من كتب الله له دراسة هذه الكنوز الثمينة وتدريسها ، بأناة فهل من هذا التشتت من خلاص وهل إلى خروج من سبيل .؟

نعم إنه عند عباقرة النقد في تراثنا لحضاري : عند علماء الحديث . فقواعدهم في نقد الحديث وتحقيقه متناً وسنداً خير ما وضع نقاد النصوص إلى اليوم . وأذكر أن كتاباً لأستاذ تاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت حوَّل إليّ قبل ثلاثين عاماً لأكتب عنه . كله من فاتحته إلى خاتمته دعوة حارة مدعمة بالحجج تهيب بنقاد التاريخ أن يفيدوا من قواعد المحدّثين في نقد النصوص التاريخية لما فيها من نهج علمي سديد ، وكان عنوان الكتاب نامّاً على الدعوة ، إذ سماه صاحبه (مصطلح التاريخ)[1] اقتداء بـ (مصطلح الحديث) .

---

(١) للدكتور أسد رستم، وهو أحد أساتذة التاريخ بالجامعات اللبنانية صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٣٩م.

ونحن ـ خدمة لهذه اللغة الكريمة ـ أحق بهذا الخير . فلنحاول الاستفادة من قواعد المحدثين في تحرير نصوصنا اللغوية . وسيقودنا ذلك إلى طرح نتوءات ودمامل وانتفاخات وأورام تعبث هنا وهناك في قواعدنا . لتصبح أرشق قواماً وأجمل هنداماً وأقوى إحكاماً وانسجاماً . وأحرى أن تتعشقه الملكات المتفتحة . ويعرف الذين أطالوا الاستمتاع بتراثنا أنه يجلو بعضه بعضاً ، ويكمل بعضه بعضاً ، ويحكم بعضه بعضاً ، وقد بدأت فعلاً علوم اللغة في نشأتها تقفو خطوات علوم الحديث فما وقفها في نصف الطريق ؟ ولو فعلنا بعض ما فعل المحدّثون لعلمهم لم يكن في كتب نحونا اليوم (اجتماع كي وأن) ولا الجزم بـ (أن) ولا أمثالهما ، ولغاب عن أنظارنا هذا التشويه في وجه اللغة .

ليس العلم بكثرة ما تجمع من هنا وهناك ، ولكن العلم أن تخرج حقيقة واضحة صادقة مما جمعت من هنا وهناك ، فلا تبني على أساس واه ، ولا (تقعِّد) أو تقيس إلا على الشاهد الصحيح الأصيل .

ولقد استفرغ علماؤنا ـ رحمهم الله ـ جهودهم الخيِّرة ، وإن ما بقي علينا من جهد طفيف في نقد النصوص وتنسيق ما بني عليها ، سنقوم به على التمام متى أحكمنا الخطة وتحلينا بالصبر والإخلاص . وسنكون حتى في هذا مؤتمّين بهم مفيدين من فضلهم ، فقد تركوا لنا الكثير الطيب أثابهم الله وجزاهم عن العلم وأهل اللغة ومحبيها خير الجزاء .

مداخلات حول (تصحيح الأصول)[1]

الأستاذ أحمد توفيق المدني رئيس الجلسة : في جدول أعمال جلسة اليوم بحث للأستاذ سعيد الأفغاني بعنوان (تصحيح الأصول) .

وبعد أن ألقى سيادته البحث دارت حوله المناقشات على النحو الآتي :

الأستاذ أحمد توفيق المدني : شكراً جزيلاً للأستاذ الكبير (سعيد الأفغاني) على هذا البحث القيم الجليل ، وما ورد فيه يزيدني إيماناً بما اقترحه وما سيتلى عليكم

---

(١) البحث مثبت بالقسم الثاني من هذه المجموعة .

في الجلسة الأخيرة ، إن شاء الله ، من وجوب تكوين نحو جديد لمجمع اللغة العربية .

الأستاذ محمد بهجة الأثري : ليس لي ما أقوله عن هذا الحديث العلمي الرصين الممتع إلا كلمة ثناء وتقدير أوجهها إلى العالم الباحث المحقق ، الذي يريد منا جميعاً أن نسير بلغتنا في الطريق السَّوي اللاحب ، للتخلص من هذه الأقاويل ، بل هذه الأباطيل التي شاعت ووضعت في طيات كتب النحو ، التي أفسدت أصولها ومقاييسها ، وجعلتها شيئاً مملاً مكروهاً من كل شاب متعلم ، وإنه لحق علينا جميعاً أن نسير معه في هذا السبيل .

ونشكره شكراً جزيلاً على ما قدم ، ولا غبار على شيء مما قال إطلاقاً .

الأستاذ عباس حسن : أزجي الثناء الوافي للسيد الأستاذ المحاضر ، وأقدره حق التقدير لما قال مرتباً مصنفاً ، وأتوقف عند ما قاله من ناحية الحقائق العلمية ، ولذا أرجو أن يتسع صدره لما أقول ، فإني في موقف يحتاج إلى إبانة من السيد الأستاذ المحاضر وزملائه .

فقد يكون من العجيب أن أسمع أربع محاضرات في أسبوع واحد في ذم النحو والنحاة .

الدكتور إبراهيم مدكور : هل سمعتها في مجمع اللغة العربية ؟

الأستاذ عباس حسن : لم أقل في مجمع اللغة العربية ، فقد سمعت بالأمس محاضرة في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وأول من أمس في جامعة عين شمس ، وقبل ذلك ببضعة أيام في جامعة الأزهر ، واليوم في مجمع اللغة العربية ، ليس هذا هو الموضوع الذي ينبغي تناوله بالتعقيب .

أعود مرة أخرى لأثني على الأستاذ المحاضر ، وأردف الثناء بالتصريح : بأن جميع ما قاله وما عرضه مما يشرّف النحو والنحاة ، ليس فيه مطلقاً ما يؤخذ على النحاة ، لا لأنهم مبرؤون من الخطأ ، ولكن لأني لم أسمع مثالاً واحداً أو ضابطاً أو قاعدة معينة تدل على وقوعهم في الخطأ ، والآن سمعت الأستاذ يعرض لقضايا خطيرة ، بتصريحات تهدِّد النحو منها نظرية الأكثر والأقل ، فقد قال كلاماً غريباً عليّ

في تحديد الأكثر والأقل ، فلم يقل اللغويون ومعهم النحويون : إن الأقل يُرفض والأكثر يؤخذ به على إطلاقه ، ودون تحديد للمراد منهما ، فما الأقل وما الأكثر ؟

في استطاعة السيد الأستاذ أن يرشدني مشكوراً مأجوراً على من قال ذلك الحكم المبهم بغير تحديد وتدقيق ، ولكني أذكر أن صاحب الخصائص عقد باباً عنوانه : (في اللهجات واللغات) وكلها حجة ، وكذلك في الجزء الثاني من المزهر للسيوطي فلم يقل أحد : إن القليل على إطلاقه يُهمل . وإن الكثير يؤخذ به . ما حدود القلة ؟ وما حدود الكثرة ؟

البصريون لا يرتضون من الكثير بما دون العشرة ، وفريق منهم لا يرتضي بما دون الخمسة عشر ، أما الكوفيون ، فيعتبرون الثلاثة كثرة ويرتضونها ، وفريق منهم يرى المثال الواحد مقبولاً يصح القياس عليه ، ولكل حجته ودليله .

إن كان هذا الحكم بالقلّة هو بالنسبة للقبائل الأخرى فلا عيب فيه ولا غبار ، فجميع اللهجات العربية يصدق عليها هذا القليل فكلمات كثيرة وأساليب متعددة في الحجاز تكاد تكون من الندرة في مكان كاليمن أو الشام أو غيرهما من البقاع الأخرى ، والبقاع العربية ليست متساوية في أمر الكثرة والقلة ، فهل تقول : إن هذه الأساليب ليست عربية ، كيف يقال في كلام عربي إنه لا يعتد به ، أو لا يعتمد عليه ؟ والقرآن جاء بلغات مما يسمونها لغات الأقلية ، ومما يؤسف له أن ترى بعض الباحثين يقول : إن هذه اللغات القليلة في غير القرآن لا يؤخذ بها وأما ما ورد في القرآن فيُحفظ إجلالاً للقرآن ، وهذا عجيب إذا كان قد ورد في القرآن فكيف نقول : إنه ورد في القرآن وإنه مقصور على القرآن ، وتحرّم على الناس أن يستعملوه في غير القرآن ؟

في كتاب سيبويه أمثلة وشواهد تزيد على العشرين ، مجهولة القائل ، ولم يمنعه ذلك من الاستشهاد بها .

إن البيت لا ينظر إليه من وجهة قائله ، وإنما من وجهة العصر الذي قيل فيه ، أهو عصر احتجاج أم لا ؟!

فأحتجُّ به إن كان من عصور الاحتجاج ، ولا يعنيني أن يكون القائل (امرؤ القيس) أو (طرفة بن العبد) وسيبويه لم يكن غافلاً أو جاهلاً حينما استشهد لهذا بالأمثلة المجهولة القائل :

نفرض أن الكلمة العربية : « كتب محمد بالقلم » حرّفها الراوي وقال : (كبت محمد بالقلم) يتساوى أن يقول كتب أو كبت فلا قداسة لها ، ما دام الراوي عربيّاً يحتج بكلامه ، فهذه الكلمة الجديدة صدرت ممن يملكها ويملك أن يفرض علينا استعمالها .

وفيما يتعلق بالتقديم والتأخير مثلاً « جلس ولجس » : ما الفرق بين أن يقول العربي جلس ولجس ما دامت من رجل عربي ، فالعربي هو العربي ، لماذا قدّسنا جلس وأهملنا لجس ، والقائل واحد في المنزلة والدرجة ؟

الدكتور حسين محفوظ : وإن كنت قد فاتتني المحاضرة إلا أنني أدركت شيئاً من مسك ختامها . ولا شك أن هناك كثيراً من المحدِّثين وعلماء الحديث ، أخذوا يهتمون به ويضبطون قواعده . ويعنون بتحقيقه ، والرجوع إليه في ضبط اللغة أمر جيد جداً ، وأحب أن أضيف شيئاً واحداً ، هو أن أحد علماء العراق من أوائل هذا القرن واسمه « محمد بن عبد الوهاب بن داوود الهمذاني » المتوفى ١٣٠٥هـ ألّف كتاباً منظوماً سماه (الزهرة البارقة في علم اللغة) ، وحاول أن يضبط قواعدها وفق مصطلحات الحديث .

الأستاذ سعيد الأفغاني : أشكر الأساتذة الأجلاء الذين أسبغوا عليَّ من حسن ظنهم ما لا أستحقه . ولي تعليق على كلمة الزميل الكريم الأستاذ عباس حسن ، حيث ذكر أني بنيت بحثي على كلمة الأكثر والأقل .

فكلمة الأكثر والأقل وردت في خطة الخليل ، حين أملى ما أملى في اللغة .

أما بحثي فهو منصب على نقطتين : الأولى : عدم اعتماد المحرّف ، ووجوب البحث عن الرواية الصحيحة لنعتمدها ، والثانية : أن المجهول القائل لا نعول عليه ، وبخاصة فيما خالف اللغة الفصيحة الصحيحة الشائعة .

وإنني أرجو خدمةً للنحو أن يُصفَّى من الشوائب والفوضى ومن غير الصحيح والمحرف ، ومن اللهجات التي لم تصحّ ، أما متى صح له سند من اللهجات بطريقة نطمئن إليها ، فنبني عليها وكثير من الذي أتيت به من الذي استشهدوا به لا أصل له ، وقد حكَّمتُ قواعدهم نفسها ، هم يقولون : المجهول لا يحتج به ، وأئمة اللغة يذكرون أن في شواهد سيبويه البالغة ألفاً وخمسين شاهداً خمسين ليست مصنوعة ، لكنها لم تُعْزَ إلى قائلها ، وأرى أنها لو كانت مصنوعة ما ذكرها سيبويه في كتابه ، فهو أحذق من أن يقع في هذا ، وأنا أجعل رواية سيبويه لشاهد بمثابة السند ، لأني أثق به ، أما أن يكون مصنوع في كتاب سيبويه فإني أستغرب ذلك جداً .

وللزملاء المعقبين شكري ، والسلام عليكم ورحمة الله .

محنة إلى زوال

بحث ألقاه الأستاذ في الدورة الثالثة والأربعين لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في ٢٥/ ٢/ ١٩٧٧م

تجريد الشعوب من مقوماتها الأساسية ، هدف موحد للطامعين فيها ، وأول ما يحاول المفترس من فريسته المشتهاة شلّ قواها النفسية ، حتى إذا انبهرت بقوته فقدت إيمانها بنفسها ، فارتبكت فأجهز عليها ونال منها ما أراد . ومقومات القوىٰ في تماسك كل أمة : عقيدتها الجامعة ، ولغتها الواحدة ، وثقافتها الأصيلة .

وحق للأمة على كل من نجاه الله من عمى البصيرة ، أن يوجه الأضواء ، ويرفع إشارات الخير على مكامن الشر المتربصة بهذه المقومات من حيثما تبدَّت له ، ليجنب ذوي البصر الارتطام فيها .

مما أشكر الله عليه أعظم الشكر ، أني نشأت أول ما وعيت ، عقب الحرب العامة الأولى ، في جو لا يشغله إلا عروبةٌ وحماسة لها وإيمان بها ، وهمم تتصارع في البناء لها ، تسابق الزمن وتسدّ المنافذ على الأحداث ، تجمع في هذه الدولة العربية الناشئة رعيل مؤمن من الشام ولبنان وفلسطين والعراق والحجاز ومصر والمغرب ، كلهم متفان في رفع لواء العروبة ، تلمس هذا الوعي في العاقل والشيخ ، والعالم والجاهل ، والرجال والنساء ، وكان يصور هذه الإرادة المصمّمة أصدق تمثيل ما كنا ننشده كل صباح في صفوفنا الابتدائية ، ويردده تلاميذ الثانويات وطلاب الجامعات والجند في الثكنات ، والعامة في المظاهرات ، بل كان نشيد الساعة في كل مكان :

بــلادُ العــرب أوطــانــي   مــن الشَّــامِ لبغــدانِ
ومــن نجــدٍ إلــى يمــنٍ   إلــى مصــرَ فتطــوانِ

وبعد سنتين عاشهما هذا العهد العربي الجياش كالحلم ، زحفت جيوش الاحتلال فقوضت الاستقلال ، ونحن لا نزال في الدراسة الابتدائية سنة ١٩٢٠م

فحملنا همّ العدوان صغاراً واكتوينا بشراسته كباراً ، ولم يبق في أيدينا ـ على رغمه ـ إلا إسلامنا وعروبتنا العزيزة ، مضينا في إعزازها وتمكينها ، حتى اطمأننّا عليها ، وكانت هي النار المقدسة التي أججّت النضال خمساً وعشرين سنة حتى أزال الله الاحتلال .

أفيكون عجيباً أن نكون شديدي (الحساسية) لكل ما يكيد لهذه اللغة ، وأن تكون أبصارنا حادة نافذة تبصر السم ولو تحت سبعين حجاباً من المكر والتمويه ؟ كيف نغفل عن حقها وقد حفظتنا في المحن وأعادت إلينا الاستقلال ، وهي اليوم موحّدتُنا من المحيط إلى الخليج .

* *

علمنا التاريخ الحديث أن كل احتلال تسبقه قبل الغزو بسنوات ، طلائع في ثياب مبشرين وأطباء وتجار ومهندسين . . . تدرس وتفحص وتتحرى بعيون مفتوحة وأنوف حادة الشم ، تغوص على كل ما لهذه الشعوب من لغات وأديان وعادات وأعراف ومعايش وخلافات مذهبية وعداوات ومنافسات . . . لتفيد من كل ذلك في رسم خطط التمزيق والتهديم ، وشلّ المقاومة وصولاً إلى الاستيلاء على الخيرات وامتصاص الدماء وابتزاز الأموال ، ثم إبقاءً على تخلفها الحضاري ، واستنزافاً لقواها بشغلها بقشور الحضارة والترف بتعويدها السكر والعهر والقمار وسائر الموبقات على أنها من علائم التحضر ، زيادةً في تفشي الأوباء الاجتماعية والصحية واستصفاء الأموال[١] .

اتفقت نتائج الدراسة على أن ما يجب استهدافه هو مقومات الأمة الأساسية : دينها ولغتها وثقافتها ، فعملت بخبث وذكاء ودهاء على نصب الفخاخ لهذه المقومات كلها . وأنا عارضٌ لشيء من هذا الغزو في ميدان اللغة خاصة سواءٌ منه ما أدركته بنفسي ، وما اطلعت عليه من تسجيل من وثقت برصده للحوادث من العصريين المبصرين :

---

(١) رحم الله أستاذنا ، كأني به حيٌّ يصور ما يجري في بغداد السلام .

« العربية الفصحى لغة جامعة يقرؤها اليوم ويكتبها ويستمع إليها ملايين من خليج البصرة إلى المحيط الأطلسي ، يصغي الكويتي في أقصى الشرق العربي إلى إذاعة (الرباط) في أقصى المغرب ، كما يصغي إلى إذاعة بلده الكويت ، ويفهم الرباطي المغربي إذاعة الكويت الشرقية فهمه لإذاعته المغربية ، بل إن المسلم الصيني المثقف دينياً أو البخاري العالم ليدخل المغرب العربي فيفهم عن علمائه ويفهمون عنه بهذه الفصحى الواحدة التي اتسع انتشارها ـ في الزمان والمكان ـ منذ ثلاثة عشر قرناً إلى اليوم فكانت أقرب إلى لغة عالمية ، وهي اليوم فعلاً إحدى اللغات العالمية .

هذا الواقع الملموس هو الذي كان شجىً في حلوق الدول الطامعة منذ مئة عام ، فحرصت على إضعافه ، وأعدت العدة لزلزلة عقائد أهله فيه بالدعوة إلى حركة انحطاطية رجعية ، هي إحياء العاميات المحلية في كل بلد وقرية ، والكتابةُ بها ، وإيجادُ نحوٍ لها ، وإهمال الفصحى الجامعة مرةً واحدة إذ كان في تعلمها جهد وليس في العامية جهد ، فإذا نجحت هذه القذيفة المدمرة حلَّ محل اللغة الواحدة عشراتٌ من العاميات الدارجة ، وتبعثرت هذه الأمة الواحدة إلى عشرات الشعوب ، فسهل على الطامعين ازدراد هذه اللقيمات فيما بينها ، وإذن يملكون البلاد بأهلها وخيراتها ، وتدور معاملهم ومصانعهم بمواد الشرق وإفريقية الخامية ، ومُحيَ من الوجود اسم الأمة العربية ليحل محلها عشرات الشعوب وعشرات الألسنة .

وشجع القوم على المضيّ في خططهم وتمويلها أن الجريمة نجحت إلى حدٍّ بعيد في جزيرة (مالطة) حيث نصّرها الاستعمار من أربعة قرون ، ثم حمّل لهجتها الدارجة أحمالاً من اللغة الإيطالية ، وتسلمها الاحتلال الإنكليزي فأتم ما بدأ به زميله ، فقصر أهلها على الكتابة بالأحرف اللاتينية ، فصرت الآن تصغي إلى المالطيين في حوارهم فلا تعرف باديءَ الأمر أنهم عرب ، وتظنهم جيلاً من اللاتين ، فإذا حققت ما ينطقون عرفت أنه عربي الأصل ، وأن عربيتهم بعدت بها الدار والأزمان منذ قطعوا صلاتهم بأصولهم ، فلم يبق منها غير الرائحة ، وبهذا خسر الآن ربع مليون عربي أواصرهم بأمتهم ، وأصبحوا شعباً صغيراً ضائعاً .

ومع أن قياس البلاد العربية المتجاورة على جزيرة صغيرة في عرض البحر قياسٌ

فاسد ، كقياس ربع مليون فريسة للتبشير والاستعمار على ثمانين مليوناً فيهم أشد المناعة على التبشير والاستعمار ، مع هذا لم ييأس الغرب ، ورضي من الغنيمة بالتعويق وشيء من التهديم ، فأفاد من الغفلة المستحكمة في الشعوب العربية ، وبما بث من الشقاق والعداوة والبغضاء ، ففجر بين الفينة والفينة ألغامه في الدعوة إلى العامية ، وتلتين الحرف العربي ، فلم يخل تفجيرها من أضرار[1] » .

تكالب على النفخ في هذه النار ، نار العداء للعربية ، والتهالك على تهديمها ، مبشرون ومستشرقون من جنسيات شتى ، وحاولوا إقناع أهل اللغة بمشكلات زعموا فيها ، وألقوا إلى عملائهم في البلاد العربية ممن ينشرون في بعض الصحف المغمورة غالباً ، وأسبغوا على مزاعمهم شيئاً من شكليات الدراسة ، وفاتهم جميعاً شيء واحد هام ، هو أن ما زعموه مشكلات أبصره متعلمو اللغات الأجنبية هو نفسه في الفرنسية والإنكليزية وغيرهما بادياً بصورة أوسع إشكالاً وأعمق صعوبة ، فإن كانوا يريدون إصلاحاً وتيسيراً على متعلمي العربية من الأجانب فهلا قاموا بذلك في لغاتهم الأجنبية نفسها فأصلحوها ويسّروها وأراحوا من معاناتها ملايين الغرباء عنها ، وهم يفوقون قاصدي تعلم العربية ألوفاً من الأضعاف . وأيٌّ كان فقد حصروا مشكلات لغتنا في ثلاثة مزاعم :

١ ـ الفصحى صعبة والعاميات الدارجات في كل بلد وقرية أسهل على أصحابها ، فلكل جماعة أن يكتبوا بلهجتهم الخاصة[2] .

٢ ـ الحرف العربي صعب ، واللاتيني أهون منه !

---

(١) من حاضر اللغة العربية ص١٥٩ (بيروت ـ دار الفكر سنة ١٩٧١م) ، وتلتين الحرف العربي : رسمه بالشكل اللاتيني .

(٢) جرّؤوا أصحاب المسارح الهزلية في بلد كالقاهرة ـ وأكثرهم طراء غير مصريين ـ فجعلوا الشخصية الهزلية ممثلاً يرتدي الزي الأزهري ويتصنع التشدّق بالفصحى في حواره مع ممثلين يتكلمون العامية المغرقة في (البلدية) ، ويجعلون مظهره رثاً إمعاناً في المفارقة للإضحاك منه . إلا أن الذي لا يعرفه الناس أن (المعتمدية البريطانية) في القاهرة أيام الاحتلال ، كانت تشتري مئة بطاقة من (صالة بديعة مصابني) إذا كانت المسرحية بالعامية وموضع الإضحاك ممثلاً بزي الأزهريين !

٣ ـ القواعد العربية صعبة !

أُعفي نفسي هنا من تفنيد هذه الخرافات فقد عرضت لها في مكان آخر[١] ، وفندها الواقع المحسوس ، وعرض للرد عليها كثيرون ، منهم مستشرقون مسيحيون .

والذي أنبه له أن هذا التخطيط الذي بدأه التبشير والاستعمار منذ مئة عام وأخفق ، لم يوضع بعد الإخفاق على الرف ، بل ما زال يورثه أسلاف لأخلاف ، ويتعاهده جيل بعد جيل ، والقوم لا يملُّون ، فإذا أخفقت خطة غيروها بعد درس أسباب الإخفاق ، وإذا صُدُّوا في قطر أعادوا الكرة في قطر آخر ، ولا ننسى نجاحهم في (نيجريا) فقد حملوهم أيام الاستعمار على الحرف اللاتيني ، وكانوا يكتبون النيجيرية بالحرف العربي ، وتلك أولى الخطوات في فصل هذا القطر عن العالم الإسلامي . وقبل ذلك أغراهم نجاحهم في إبعاد الدين عن الدولة في (تركية) على يد مصطفى كمال الذي ألغى الخلافة ودين الدولة ، وأتبع ذلك نقل كتابة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني بالقوة والإرهاب والإعدام .

وعندي تاريخ كرّةٍ أخرى جريئة هيؤوها للانقضاض على إيران المسلمة :

كان ذلك قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بأيام ، وكنت في جلسة مع الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله في حديقة داره منفردين ، فما راعني إلا نظرته باهتمام نحو باب الحديقة على الطريق العام وقطعه الحديث ، ثم هب بعد لحظة يستقبل باحتفال مرحّباً بصوته الجهوري المعروف مُبَرْنطاً داخلاً ، شيخاً طاعناً في السن ، بطيء الخطا ضعيف الحركة ، فلما قطع الأمتار السبعة إلى حيث كنا ، قدمه إليّ بقوله : « المستشرق العظيم مرغليوث[٢] » وقدمني له فهز رأسه هزّ العارف ، وبعد جمل

---

(١) ص١٥٦ ـ ٢١٠ (من حاضر اللغة العربية) ـ الطبعة الثانية .

(٢) اسمه (دافيد صموئيل ! (تنبه) مرغليوث بن حزقيال(!) الإنكليزي البروتستانتي (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م) ، من كبار المستشرقين . . . زار الشرق الأوسط مراراً . . . وله في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن فيها مخلصاً للعلم ، على الرغم من توسعه في معرفة المسلمين وأدبهم ـ الأعلام للزركلي ٢/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

تقتضيها المجاملة بينهما ، طرق الموضوع الذي أتى من إنكلترا بسببه موجهاً للأستاذ هذه الأسئلة بتتابع وكأنه يؤنبه :

« ما الذي أخّركم إلى الآن عن تغيير حرفكم إلى الحرف اللاتيني ليسهل انتشار لغتكم في أوربة وأمريكة ؟

ألم تروا إصلاح (أتاتورك) البطل ؟ لم لم تقتدوا به وأنتم جيرانه ؟ . . . إلخ ، إن لك زعامة فكرية والناس يتبعونك فما الذي أقعدك ؟» .

شعرت ـ وهو يتكلم ـ كأنه يقلع أضراسه عند لفظ كل كلمة بصعوبة ورطانة ، فتلطف الأستاذ ـ رحمه الله ـ في جوابه وذكر له فروقاً بين التركية والعربية ، وأن ليس للأتراك تراث حضاري قديم يخافون عليه كما للعرب . . . إلخ « ثم حول الحديث يسأله عن صحته وعن وجهة سفره ، فأجاب : « **إني أبيت الليلة في المستشفى الإنكيزي بالقصاع ، وغداً أبيت في القدس ، ثم أطير إلى (طهران) لمقابلة الشاه رضا بهلوي شاه إيران لأحمله على كتابة الفارسية بالحرف اللاتيني بدل الحرف العربي** . « **وظهر من لهجته شكه في نجاحه ، لكنه سافر بعزم**[1] .

كان شكه في محله ، فقد كان الشاه ـ رحمه الله ـ مسلماً صحيح الوطنية ، مخلصاً لأمته ، غيوراً على مقوماتها ، آخذاً بما يقويها ، شديد الارتباط بالعالم الإسلامي ، لم تخدعه أحابيل الاستعمار المزيفة ولا عشق التفرنج .

ما أزال إلى اليوم معجباً بهم هؤلاء اليهود الصليبيين ، ووددت ـ إذ أعرضنا عن الاقتداء بأرباب الهمم من عظمائنا ـ وددت لو بذلنا من الجهد والصبر في بناء أنفسنا بعض ما يبذل أعداؤنا في تهديمنا .

وأية همة أبعد من همة شيخ فانٍ في الحادية والثمانين ضعيف البنية مريض يتحمل مشاق السفر من إنكلترة إلى دمشق إلى القدس إلى طهران ، كل ذلك في ثلاثة أيام متتالية ، وفي ظروف مخوفة مختنقة برائحة الحرب ، لخدمة بلاده وما يظن أنه

---

(١) كان ذلك آخر صيف ١٩٣٩ ، لكنه كان يحمل هذه الشهوة من مطالع القرن ، وحاضر في جامعة لندن في صيف ١٩١١ في مقابلة العربية بالإنكليزية .

خدمة لدينه ؟ إن إخراج أمة من إسلاميتها إلى الانجرار على أذيال الفرنجة ، مقدمةً محتملة لإدخالها في البرتستانتية مثلاً بعد عشرات السنين من الانسلاخ ، فهي إذن تستحق كلّ جهد ومشقة ، إن همّهم جميعاً هو إخراج المسلمين تدريجياً من الأشكال الإسلامية بعد يأسهم من تنصيرهم مباشرة .

****

كانت الثمرات التي حصل عليها الاستعمار من إشاعة مشاكل مزعومة للغة العربية غير مرضية لهم ، إذ لم تتعد مقالات دعائية في بعض الصحف والمجلات وردوداً عليها ، وشغل الناس بها عما ينفعهم فترة من الزمن :

في سنة ١٩٢٢م تولت جريدة (لا سيري) الفرنسية في بيروت أول الاحتلال ، الدعوة إلى الحرف اللاتيني ، وبعد سنتين نشرت مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في الشهر الحادي عشر لسنة ١٩٢٤م[١] مقالاً طيباً لمستشرق فنلندي (لا مبشر ولا مستعمر) هو الأستاذ (يوحنّا أهتنين كرسكو) حوى مقابلة موضوعية بين اللغة العربية واللغات الأوروبية أدباً وصرفاً ونحواً ولغة ونطقاً وكتابة ، أُوصي بقراءته كاملاً لما فيه من سمات الإحاطة وعمق الدروس وجمال الإنصاف عدا علميته ومنهجيته ، جاء فيه :

« وأما تعلم الحروف العربية وكتابتها فأسهل من تعلم الحروف الأوروبية وكتابتها » و« مضى يشرح ذلك ويستدل عليه بما هو محسوس ويحسن الرجوع إليه ، لكني لا أعفي نفسي من إبداء إعجابي بصراحته الفطرية الشجاعة حين كشف عن السر الحقيقي في حملات المبشرين والمستشرقين وأذنابهم في الشرق من إحدى الطوائف على اللغة العربية ، وأن ما يذكرون من أسباب أو مشاكل لا حقيقة لها ، وإنّما هو إثارة الغبار في وجه الحق ، قال في فاتحة مقاله :

« إذا رغبنا في أن تنتشر اللغة العربية الشريفة في أوروبة ، وجب علينا أن ننفي

---

(١) ٤/٤٨٣ . وانظر فصل (الحرف العربي والحرف اللاتيني) ص١٧٥ في كتابي (من حاضر اللغة العربية) .

بعض أوهام الأوروبيين التي تحول بينهم وبين الإقبال على تعلمها ، فأهم هذه الأوهام هو : وهمهم في أن اللغة العربية مرتبطة كل الارتباط بالإسلام حتى إنه لا يليق بالمسيحي أن يتعلمها »[1] .

هذا المفتاح أزال كل عجب وغموض عن سبب تلك الأحقاد الدفينة التي لا تخلو من تخلف ذهن أيضاً ، نشط المبشرون والاستعماريون الفرنسيون في زرع هذه الأحقاد في صدور أتباعهم من إحدى الطوائف في لبنان وغيرهم ، فروّجوا للعاميات وللحرف اللاتيني ، وحملوا على الفصحى والحرف العربي . إنهم ـ وإن كانوا في القرن العشرين ـ يعيشون في صليبية عفنة ، لا في حضارة إنسانية ، لا مجال لكشف الزيف في مزاعمهم فقد عالجت الموضوع في مكان آخر[2] وعالجه غيري كثير . لكني أشير إلى غزوة قادمة أبشركم بها متعجلاً ، ظفرت بطليعتها الصيف الماضي ، وهي دليل جديد على أن الاستشراق التبشيري لا يملُّ ، بل ينسحب بأسلحته المفلولة ليذيبها صانعاً منها أسلحة جديدة ، لعلها تصيب نجاحاً ما بعد إخفاق .

لمّا رأوا أن ترك الفصحى للعاميات ، وهجر الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني لم يظفرا بغير غبار ثار ثم تبدد هباء ، أثمرت لهم الفكرة أن يعودوا من جديد إلى تشتيت وحدة اللغة ، فبعد محاولة التشتيت المكاني بإحياء العاميات الدارجة بين المحيط والخليج ، طلعوا بما أسميه سلاح (التشتيت الزماني) محاولين إقناع أنفسهم أولاً بأن هناك فصحى قديمة وفصحى حديثة ، وأن لكل منهما نحوها وصرفها ، وما بأيدي الناس اليوم هو نحو اللغة القديمة ، فلنصنع لهم (نحو اللغة العربية الحديثة) .

صدرت محاولات عدة في كتب نشرها مستشرقون روس وإنكليز وفرنسيون وغيرهم عن (أدب حديث) له مقومات الأدب العربي المعروف ، وله قواعده الخاصة . وأعرف أنهم اصطنعوا في بعض الجامعات الأمريكية بعض المنتسبين إلى

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ٤/ ١٨٦ .

(٢) كتاب (من حاضر اللغة العربية) الباب الرابع : مشكلات مزعومة ص١٥٦ ـ ٢١٠ .

العرب ، ليؤلفوا لهم شبه نحو حديث للغة اليوم كما زعموا ، أملاً أن تنسخ ما سموه لغة الأمس بتراثها الحضاري الواسع ، كما اطلعت على مشروعات استفتوا فيها عدداً من الأساتذة ، ثم انساق في تيارهم بعض المؤسسات الرسمية في جامعة الدول العربية ، فعممت هذا الاستفتاء المترجم ، وشغلت به نفسها وغيرها بمشاكل لا وجود لها ، وبطرق لحلها . . . وكل ذلك لا يعدو أن يكون نوعاً من التحصين النفسي لعل الناس يعتقدون أن لغتهم مشكلة .

آخر ما اطلعت عليه مقال لكاتب فاضل يصف أحدث هذه الكتب[1] أخرجه باللغة الإنكليزية مستشرق أمريكي الجنسية إيطالي الأصل عنوانه (نحو النثر العربي الحديث !) . لقد انتهى الرجل وأقنع نفسه بلغة جديدة ، فجمع ـ لغيره ـ دليلاً على دعواه آثاراً مطبوعة لبعض أهل العصر ، فيهم الأديب الأصيل ، وفيهم من يحتاج إلى التأديب والعودة إلى (الكتّاب) ليتعلم الكتابة العربية . قرأ في بعض هذه المطبوعات جملة (ليس هناك خيلٌ ولا خيالةٌ) مكتوبةً بأسلوب بعض العامة الذين يكررون أداة النفي (لا) هكذا : (ليس هناك لا خيل ولا خيالة) فعدّ هذا تطوراً في اللغة ، إذ دخلها نفيٌ مزدوج ، فوضع قاعدة النفي المزدوج ، وسجل هذا أثراً من آثار الإنكليزية في العربية الحديثة ، ولو عرف الواقع وأراد الصدق لضحك من نفسه لأن الكاتب ضعيف في العربية والإنكليزية معاً كما بيّن صاحب المقال . ووجد في كتاب الأستاذ توفيق الحكيم (شهرزاد) في طبعة سنة ١٩٣٤ هذه الجملة : (من أدراك أن ما تطلب موجوداً ؟) فهلل (كانتارينو) ـ وهذا هو اسمه ـ مصفّقاً على تعبير الناقد « لأنه وجد قاعدة لغوية جديدة في الأدب العربي الحديث هي نصب (أنّ) لخبرها ، ولم يفطن إلى أنها غلطة مطبعية ليس غير ، وأنها غير موجودة في طبعة أخرى »[2] .

فلنتوقع في هذه السنين تعبئة استشراقية تبشيرية في سلسلة حملات الغزو الثقافي ، حملة تطل من بؤر في جامعات أجنبية ، تتصيد أغلاط الطباعة ولحنات بعض المذيعين الجاهلين ، ورطانات بعض مخبري الصحف غير المؤهلين . . .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٥٠ ص٢٦٢ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٥٠ ص٦٧١ .

لتصوغ منها جميعاً قواعد جديدة لشيء يسمونه هم (العربية الحديثة) وإن لم توجد في الواقع ، على رغم يقين القاصي والداني أن العربية الفصحى واحدة من العصر الجاهلي إلى اليوم ، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

وبعد فخير ما يصور نكبة العربية بهذه الإرساليات والمؤسسات وببعض أفراد من بعوثنا العائدة من أوروبة وأمريكة متشبّعة بسموم الاستشراق التبشيري الاستعماري ، فقرةٌ وردت في مذكرة رفعها رئيس جامعة الإسكندرية[1] عام (١٩٧٥) بنتائج دراسة العوامل في ضعف الإقبال على أقسام اللغة العربية جاء فيها :

« العامل الثاني . . . عامل قديم وافد مع الاستعمار ومحاولاته في الفصل بين العربي وتراثه القديم ، فلقد نجح الاستعمار على مدى فترة طويلة في إشاعة روح النفور من اللغة العربية ، مستعيناً في ذلك بعدد غير قليل ممن تأثروا بالثقافات الأجنبية أو ممن استهوتهم الأرستقراطية الأوروبية ، أو أثرت فيهم النعرة التركية (يريد : الأتاتركية) ، أو ممن تعلموا في مدارس تبشيرية ، وأصبحوا يتكلمون بلغة إنكليزية أو فرنسية . . .

لقد تكونت من هؤلاء طائفة تستنكر اللغة العربية ، وتأنف من لفظ (عرب) أو عربي ، وليس من شك أن إهمال لغتنا العربية واستبدال لغات أجنبية بها فترة طويلة من حكم الاستعمار الأجنبي ، قد كان له أعمق الأثر في خلق هذه الهوة بين أبناء الوطن العربي ممن سلكوا هذا السبيل ، وبين تراثهم وحضارتهم .

وهاهي أجهزة الإعلام ما تزال حتى الآن تسلك سلوكاً معيباً حين تعرض علينا الصورة المشوهة للمدرس بعامة ومدرس اللغة العربية بخاصة ، حين تظهره محملاً بكل أوزار الفقر والإهمال كأنه القطعة المتلكئة من الزمن الغابر . ويكفينا أن ننظر إلى (تمثيليات) (الأستاذ حمام) و(كان وأخواتها) و(ما انفك وما انخلع) و(السكرتير الفني) وغير ذلك من عبارات وشخصيات يعرضها علينا المسرح أحياناً والتلفاز

---

(١) الظاهر أنه عممها على جامعات الأقطار العربية ، وحولت نسخة منها إليّ من الأخ رئيس جامعة بنغازي .

أحياناً أخرى لشخصية مدرس اللغة العربية ، ثم انظر إلى ما يمكن أن يستقر في أذهان الناشئة حين يرون القائم بتدريس اللغة العربية وهو موضع السخرية والفكاهة والاستخفاف على هذا النحو . . . »[1] اهـ .

هذه فقرة ينبغي لنا ـ إذا أردنا الحياة السليمة ـ أن نمعن فيها الإمعان كله لنعلم ما يجب علينا في ميادين عدة ، من تطهير أجهزتنا[2] وجامعتنا من مروجي سموم التبشير والاستعمار ، ضحايا كانوا أم عملاء .

ومن مقترحات المذكرة : « إعادة النظر فيما يقدمه المسرح والسينما والصحافة والإذاعة والتلفاز من مواد ، وتوجيهها توجيهاً جاداً يفتح الأعين على آفاق جديدة (شريفة) ويكسب حياتهم عمقاً واكتمالاً ، ويعينهم على الدخول في حوار حضاريّ مع العالم[3] . » ومعنى هذا تغيير القائمين على تلك الأجهزة في كل العالم العربي ،

---

(١) ص ٧و٨ من المذكرة .

(٢) كانت هذه الأجهزة مظنّة أن تصلح كل ما أفسدته الإرساليات الأجنبية من سلامة لغتنا وثقافتنا ، لكن بلاءها عمّ حتى ترحم الناس على عهود الاحتلال حين كانت مناعتنا قوية ونظرة واحدة إلى ما تزخر به برامج الإذاعة اليومية من تفاهات وابتذال باللهجات المحلية في كل قطر ، كافٍ ليتساءل المرء : هل الأصابع التي تنسّق البرامج وتحقن الإذاعات بمذيعين من لون خاص يحركها جهازٌ دولي تهديمي ؟ وإلا فهل مصادفة أن يطغى نصيب ما يذاع باللهجات العامية أو الأجنبية (سنة ١٩٧٨ لا سنة ١٩٠٠ عهد أمية شعوبنا) في كل قطر على معظم الوقت ؟

إن كل ما تبذله الدول العربية من أموال وإمكانات على وزارات التربية والثقافة لترفع مستوى المواطن ثقافياً وعربياً ، وما يشقى المصلحون فيه من جهود مضنية لتعليم الأجيال وتهذيبها ، تهدمه الإذاعات هدماً . وعهدي قبل ثلاثين سنة فقط بإذاعة دمشق مثلاً أنها من أرفع الإذاعات العربية مستوى عربياً وثقافياً ، فإذا هي اليوم وكأنها إذاعة مالطية ، وقل نحواً من هذا في بقية الإذاعات ، ولعل الإذاعة المصرية ـ وقد غلب عليها التفاهة والعامية ـ لا تقل انحداراً عن إذاعة دمشق . أفهم أن تكثر (إسرائيل) من إذاعاتها باللهجات العامية (السورية والعراقية والفلسطينية واللبنانية والمصرية والسودانية والحجازية . . . إلخ لأن في ذلك موتنا نحن وحياتها هي ، لكني لا أستسيغ البتة هذه الرجعية المنحدرة ، وهذا الانتحار والتهديم في إذاعاتنا نصنعه بأيدينا .

أعود فأؤكد : إن يداً خفيّةً تعمل لتخريبنا بجد ووعي ، فهل من منقذ ؟

رحم الله أستاذنا ماذا سيقول اليوم والفضائيات تمطرنا بوابلها . . . ؟

(٣) ص١٦ من المذكرة .

واعتماد آخرين لهم من المؤهلات ما يفي بأغراض الاقتراح السامية ، وأول ذلك الحصانة من الانحطاط السوقي في لغة الأداء ، والترفع عن الابتذال في الشكل والمضمون .

لعل لفتة إلى ما يأخذ عدونا به نفسه في الحرص على مقوماته تقف الواعي على مفارقة هامة ذات شقين :

الأول : إضعاف اللغة العربية دعائياً وعملياً يقابله تقوية اللغات الأجنبية ، وإحياء لغة ميتة (هي العبرية) حتى درس بها الطب والعلوم في الجامعات والثانويات من أول إنشائها ، يقابله إثقال لغتنا الحية بمشاكل مزعومة ومحاولة إبادتها في العاميات الدارجة .

والثاني : إلهاؤنا وإغراؤنا بالفولكلورات التافهة التي تكلف الأموال والجهود في غير طائل إلا صرفنا بها عن كل نافع . . . يقابله حصرُ اهتمامهم وإمكاناتهم المادية والفكرية فيما يعود عليهم بالنفع المحقق .

هذه المفارقة الصارخة بدأت تلفت النظر وتنبه الغافل ، وبدأنا نلمس وعياً في صحف ومجلات وكتب يصدرها مسؤولون واعون في ديار الشام ، ويطيب لي عرض شكوى لباحث من الجيل الأحدث (لا جيلي أنا) اطلعت على وصف لكتابه ونماذج منه في مجلة سيارة ، جاء فيها هذه الجمل :

« باعدت الصهيونية العالمية[١] ـ بإغراء شبابنا ـ . . . بينهم وبين أن يكونوا قادرين على الاهتداء إلى الحكمة ، فقد تمكنت من أن تنشر بينهم نظريات . . . من مذاهب يهود أو شبههم .

استطاعت أجهزة الإعلام الفضفاضة المترهلة بتوجيه الصهيونية العالمية أن تخرج شباباً هشاً فارغاً هائماً على وجهه دونما وعي أو أصالة أو انتماء . . . إن التلفاز العابث والمجلة الهابطة والكتاب المسف ، والإذاعة الماجنة هي وسائل هدم وتخريب تحقق أهداف اليهودية المتمثلة في إشاعة الفساد والمجون والإباحية في أوساط الشباب لتظل اهتماماتهم هابطة أسباب أزمة الشباب الخلقية : عوامل مباشرة

---

(١) فأين أوروبة وأمريكة ؟

هي الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام . . . كيف يمكن لهذا الشباب أن ينتمي إلى مجتمع كل ما عرفوه عنه أنه مجتمع متخلف بكل ما فيه من ماض وقيم وتراث . . . إننا بحاجة إلى أن نبني تفكيرنا من جديد، ونتحلى عن كثير من الأفكار التي ظنناها من البدهيات واستسلمنا لها، ورُبينا عليها في تعليمنا الابتدائي والثانوي والجامعي . . . »[1] .

هذا نوع من الوعي والالتفات للنفس يبشر بخير ، ويدل على أن الضحية أخذت تتأبى على مفترسها ، والشعور بالألم أول طريق العافية . إن الخلاص من المحنة في أن نعي ذواتنا ونلتفت إلى المقومات التي لا نكون أمة إلا بها : لغتنا وفضائِلنا التي زهدونا فيها غشاً ومكراً ، فنعضَّ عليها بالنواجذ ، ونطوّع لها سلوكنا في الحياة ، نابذين ما فرض عليها من تشكيك فيها شاعرين أو غافلين مختارين أو مسوقين .

أما الذي قطعناه في طريقنا إلى العافية فغير قليل في الشام وفي جميع الوطن العربي ، وآخره ذلك الاهتمام الجادّ الذي نقرأ عنه في تعريب التعليم في القطر الجزائري الشقيق وفي المملكة المغربية ، ثم هذه المعجمات الفنية تجد فيها ما يغنيك عن الكلمة السوقيّة والمصطلح الأجنبي ، فبعد عشرات الكتب العلمية في فروع الطب والعلوم التي طبعتها الجامعة السورية من أكثر من خمسين سنة في ذيل كل منها معجم خاص للمصطلحات العربية في مقابلة المصطلحات الأجنبية في هذا الفرع ، يرد الآن من المغرب من فرع جامعة الدول العربية للتعريب سيل من مسارد المصطلحات في الحِرف والصناعات إلى ما أخرجته المجامع العربية من آلاف المصطلحات حتى في الآثار والفنون ، وآخر ما أصدرته الشام العام الماضي : (المعجم الكهربائي الإلكتروني) يحوي ستة آلاف مصطلح عربي وما يقابل كلاً منها في ثلاث لغات أجنبية : الانكليزية والفرنسية والروسية ، صنعته لجنة من الخبراء ألفها سلاح الإشارة في الجيش العربي السوري واستغرق العمل سنوات .

لعل ما سجلت عن الشام يصدق على غير قطر عربي ، فآلامنا واحدة ، والمحن التي أصبنا بها واحدة ، ونظرة عدونا إلينا واحدة ، وطريق خلاصنا واحدة ، وقد وضعنا أقدامنا على الطريق السليم فالمحنة ـ بعون الله ـ إلى زوال .

---

(١) مجلة هدي الإسلام ، تصدرها وزارة الأوقاف الأردنية ص٨٩ (العدد ٧ر٨ سنة ١٩٧٥م) .

جهود المجمع العلمي الأول[1]
في خدمة اللغة العربية في الشام[2]
(١٩١٩ ـ ١٩٣٤)

نشرت في مجلة مجمع القاهرة المجلد ٣٩
(١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ص٢٧

نحن اليوم ـ بل إلى عهد قريب على الأصح ـ ننعم في إذاعاتنا وحفلاتنا ، ومحاضراتنا ونوادينا ، وصحفنا ومجلاتنا ، وبياناتنا ونشراتنا ، وحتى في خطب بعض وزرائنا وارتجال بعض زعمائنا ، نحن في كل ذلك ننعم ببيان مشرق ولغة سلسلة ، وشعر جيد ، ونثر رفيع ، وحياة أدبية وسبل ممهدة ومناهج مطروقة . . . فنغبط بكل ذلك ، وينسى أكثرنا عرق الكادحين الذين أنضَوْا أجسامهم ، وأعشَوْا أبصارهم ومهدوا السبل وتحملوا المشاق ، وأُوذوا في أموالهم وأبدانهم وسيرتهم

---

(١) في البدء ، لابد من تحديد المراد بالمجمع الأول ، لأن الغريب عن هذه المؤسسة يخلط بين مؤسسات ثلاث تعاقبت ، وكل منها احتل المدرسة العادلية الكبرى تجاه دار الكتب الظاهرية بدمشق وحمل اسم المجمع .
فالأول هو المعروف في البيئات العلمية والمبادر إلى الذهن حين يطلق (اسم المجمع العلمي العربي) وقد عاش خمس عشرة سنة (١٩١٩ ـ ١٩٣٤م) حياة حميدة كلها إنتاج وخير ، ثم أُلغي زمن الاحتلال لأسباب ـ زعموا ـ مالية .
والثاني يبدأ سنة ١٩٤١م حين اقتضت سياسة المحتلين الدعائية في الحرب الثانية إعادته على شكل يلائمهم .
والثالث يبدأ ـ في الحقيقة ـ بعد وفاة مؤسس المجمع الأول محمد كرد علي رحمه الله سنة ١٩٥٣م ثم يصبح فرعاً لمجمع اللغة العربية في القاهرة ويحمل اسمه منذ سنة ١٩٦٠م ، وهو مغاير كل المغايرة للمجمع الأول .
وكلمتنا هذه خاصة بالمجمع الأول الذي ألغي سنة ١٩٣٤م . وليس من شأننا الكلام عما حصل بعده .

(٢) ألقي في ملتقى ابن منظور في قفصة (تونس) ، انعقد بين ٣٠/ ٣ ـ ٢/ ٤/ ١٩٧٨ .

لتكون للغة العربية حياة في بلادها فيحيا بحياتها العرب . ينسى ذلك أكثرنا إلا قليلاً من العارفين المعمَّرين الذين يقولون : « ليت الرعيل الأول من مناضلينا امتدت حياتهم إلى هذه الأيام ليَرَوْا راية لغتهم مرفوعة ، وسيادة أمتهم حقيقة فينعموا بثمرات ما تعبوا في غرسه » .

* *

لما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ونشأ في الشام أول حكم عربي جديد ، واضطلع به أولئك الصابرون من بقايا السيوف ، كان ما أدَّوْا إلى العربية في الشام عجباً من العجب : شبان تعلم أكثرهم باللغة التركية في غير بلادهم ، فظلوا بحكم بيئاتهم ومناصبهم لا يتكلمون غيرها ، ثم يتسلمون الأعباء ؛ فهل سمعتم بدولة ولدت فغيرت اللغة المفروضة على البلاد بجرة قلم ؟!

هذا ما جرى بالشام أيام الحكم الفيصلي : حرّمت التركية بمصطلحاتها ومواضعاتها جميعاً ، ثم عبئت الكفايات في لجانٍ لتعريب مصطلحات الجيش وإدارات الدولة وكتب المدارس . . . يتولّى ذلك كله بدأب لا يمل علماء بالعربية ، حتى الطلاب في المدارس فرضوا على أنفسهم عقوبات إن هم تكلموا في الفرص بين الدروس بغير الفصحى ، بل كان جو الشام كله حينئذ (سنة ١٩١٩) لا يشغله إلا عروبة وحماسة وإيمان بها ، وهمم تتسارع في البناء ، تسابق الزمن وتسد المنافذ على الأحداث .

تلمس هذا الوعي في الشيخ والطفل والشاب ، والعالم والجاهل ، والرجال والنساء ، وكان يصور هذه الإرادة أصدق تمثيل ما كنا ننشده كل صباح في صفوفنا الأولية والابتدائية ، ويردده تلاميذ الثانويات وطلاب الجامعات ، والجنود في الثكنات ، والعامة في المظاهرات ، النشيد الذي شرّق وغرب :

بـلادُ العـرب أوطـانـي   مـن الشـام لبغـدان
ومـن نجـدٍ إلـى يمـنٍ   إلـى مصـرَ فَتطْـوان

وبعد سنتين ، رفرف فيهما هذا العهد العربي كالحلم الجميل ، زحفت جيوش الاحتلال الفرنسي من بيروت ، فخف المجاهدون من الجند والمتطوعة إلى

(ميسلون) لصد الزحف مع عدم التكافؤ بين المجاهدين والمحتلين لا في العَدد ولا في العُدد ، فثبت المجاهدون ساعة استشهد فيها أكثرهم واستشهد قائدهم ، فتقوض الاستقلال ونحن لا نزال في الدراسة الأولية سنة ١٩٢٠ ، فحملنا قهر العدوان وهمّه صغاراً ثم اكتوينا بشراسته وجحيمه كباراً ، ولم يبق بأيدينا ـ على رغمه ـ إلا عقيدتنا ولغتنا . . مضينا في إعزازهما وتمكينهما حتى اطمأننا عليهما ، وكانتا هما النار المقدسة التي أججت النضال خمساً وعشرين سنة حتى أزال الله الاحتلال فماذا كان عمل المجمع العلمي الأول يومئذ ؟

أُعلن الحكم العربي المستقل ـ والتركية لغة إدارات الحكومة والجيش وسائر المصالح التي يغشاها الناس في حاجاتهم كل يوم ، ولا يستغني عن معاملتها أحد ـ فكان على المسؤولين تعريبها تعريباً شاملاً لا يقتصر أثره على موظفي الإدارات نفسها ، ولكن يتعداها إلى الناس كافة ، فبدئ بسرعة بإصلاح لغة الدواوين بإمداد الحكومة بكل ما تحتاج إليه من مصطلحات تقوم مقام المصطلحات التركية ، وبمصطلحات مستجدة توضع وضعاً ، فتألفت لذلك لجنتان :

١ ـ لجنة عربية خاصة بالجيش برياسة المرحوم ياسين باشا الهاشمي[(١)] لوضع جميع ما يحتاج إليه الجيش من إيعازات ومصطلحات فنية ، فقامت بعملها خير قيام ، وقدمت نتائج جهودها فوضعت موضع الاستعمال من غير إبطاء . وما لبث الناس أن ألفوا الأوضاع الجديدة واستعملوها[(٢)] .

٢ ـ واللجنة الثانية عامة ، ألفها الحاكم العسكري علي رضا باشا الركابي ـ وهو أحد الرجالات العظام ـ في ١٩١٨/١١/٢٨ أي في الشهر الثاني لجلاء الأتراك ،

---

(١) سوف يقع القارئ على بعض التكرار والتشابه بين هذه المقالة والمقالة التي سبقت تحت عنوان (النهضة اللغوية في سورية) . وياسين حلمي بن سلمان الهاشمي ، ضابط أركان حرب . مات سنة ١٩٣٧م انظر الأعلام ١٢٨/٨ .

(٢) وعضوية رشيد بقدونس ومراد الاختيار ، وهما من كبار الضباط ، والشيخ عبد القادر المبارك من علماء العربية رحم الله الجميع . وتجب الإشارة هنا إلى أن العهد الفيصلي في سورية قام على سواعد أعلام شاميين من سورية والأردن وفلسطين ولبنان وعراقيين وحجازيين ، ولم تكن يومئذ هذه الجنسيات التي ابتدعت فيما بعد .

ألفها بين ما ألف من شعب إدارية وفنية لإنجاز أعمال الدولة الجديدة ، وسماها (الشعبة الأولى للترجمة والتأليف) ، مهمتها تعريب الدواوين ونشر العربية بين الموظفين ، ثم سميت هذه الشعبة بعد أن ضُم إليها شؤون المعارف بـ (ديوان المعارف) ، وأسندت رياسته إلى العلم المشهور محمد كرد علي في ١٢/٢/١٩١٩م ، وكانت لجنة المصطلحات فيها برياسة الأستاذ ساطع الحصري وعضوية الأستاذين عز الدين التنوخي وحبيب إصطفان . ثم فصلت الشعبة الأولى عن ديوان المعارف واستقلت باسم (المجمع العلمي العربي) في ٨/٦/١٩١٩ ، ومارس المجمع أعماله مستقلاً ثم شرح خطته في بيان بعنوان (إصلاح لغة الدواوين) جاء فيه :

« لما تأسست الحكومة العربية وتألفت دواوينها ومصالحها المختلفة ، أحسّ رؤساء الدواوين وكتابها بشديد الحاجة إلى كلمات وأساليب إدارية عربية جديدة تخلف تلك الأخرى القديمة الأعجمية في مادتها وأسلوبها ، وأحبوا أن ينزعوا عن لغتهم التي اشتهرت باسم (لغة الدواوين) عجمتها وركتها ، ثم يحلوها من الكلم والأساليب بما يكون في العروبة أعرق وبالفصاحة أعلق .

وقد صادف اهتمامهم هذا إنشاء المجمع العلمي العربي ، فأخذوا يرسلون إليه جرائد (قوائم) تتضمن ما يدور في معاملاتهم وعلى أسلات أقلامهم من الكلمات والأساليب ، ويرغبون إلى المجمع في النظر فيها واستبدال غيرها بها . فوافى المجمع رغبتهم في هذا الاقتراح النافع ، ونظر في كلمات وتعابير كثيرة وردت إليه من [إدارات] المعارف ، والأوقاف ، والشرطة ، والمجلس البلدي ، والصحة ، والمصرف الزراعي ؛ فأبقى بعضها على حاله لصحته وعروبته ، وبدل بعضها كل التبديل ، وعدل الآخر تعديلاً قليلاً أو كثيراً حتى اجتمع لديه من ذلك ما يحسن نشره وعرضه على رؤساء الدواوين ورجال الصحافة فيرون رأيهم فيه »[1] .

ومضى المجمع على خطته التي وصفت ، ينجز في كل جلسة عدداً غير قليل مما تحتاج إليه مصالح الحكومة من أوضاع وتراكيب . وقد طبع من أجل ذلك على نفقة

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ١/٤٣ .

(ديوان المعارف) سنة ١٩١٩م (رسالة لغوية في الرتب والألقاب وما يقابلها من العربي الفصيح مبنية على الرتب والألقاب في مصر) لأحمد تيمور باشا . وقد أشار المجمع إلى ما كان يكلفه وضع المصطلحات من مراجعات في الكتب القديمة ثم مداولاتٍ فيها بقوله يعدد أعماله في دوره الأول :

« ومنها البحث في عشرات من الألفاظ المتداولة في أكثر دوائر الحكومة ، وتقرير الفصيح منها اعتماداً على أمهات الكتب القديمة مما استغرق النظر فيه جلسات عديدة للمراجعة والمفاوضة والتحقيق »[١] .

« وترجم ونقح بعض القوانين كقانون التعليم الابتدائي ، وقانون الصحة ، وقانون الحجر الصحي وبعض القوانين المالية »[٢] .

ويشير الأستاذ ساطع الحصري إلى هذه الفترة بقوله : « واستحدثت الحكومة دروساً خاصة بالموظفين تستهدف تعليم الإنشاء العربي ، وأخذ عدد غير قليل من الأدباء والموظفين يراجعون الكتب العربية القديمة بغية إيجاد المصطلحات وتقرير أفصح الأساليب التي تليق بحكومة عربية حديثة ، وتألفت لهذا الغرض لجان عديدة سعت وراء تنسيق هذه الجهود وتعجيل ثمراتها ، وأصبحت بذلك الدولة السورية تستحق اسم الدولة العربية بصورة فعلية » . وأكثر الذين أشار إليهم الحصري هم من أعضاء هذا المجمع القديم .

حدد المجمع العلمي أهدافه في منشور عام وزعه رئيسه في الشهر التاسع لسنة ١٩١٩ باللغتين العربية والفرنسية على مجلاتٍ ومجامع ودور نشر في الشرق والغرب ، يعنينا منه قوله :

« وقد وكل إلى المجمع النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ، ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها ، وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون من اللغات الأوروبية ، وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع على نمط

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ١/ ٢٩ .
(٢) تاريخ المجمع العلمي العربي لأحمد الفتيح ص ١٧ .

جديد . . كما عني بجمع المخطوطات القديمة الشرقية والمطبوعات العربية والإفرنجية على اختلاف موضوعاتها . . . وعني بالمكتبة الظاهرية وكان فيها نحو أربعة آلاف مجلد معظمها مخطوط ، فأضاف إليها نوادر المخطوطات والمطبوعات من شرقية وغربية ، فابتاع لها أكثر من ألفي مجلد حتى بلغ عدد مخطوطاتها زهاء ثلاثة آلاف مجلد بينها أمهات الكتب المفيدة في التاريخ والأدب والفنون المختلفة بخطوط قديمة ، كثير منها بيد مؤلفيها ، ونسخ مضبوطة بقراءتها على كبار العلماء . . . ذلك فضلاً عن عناية هذا المجمع بوضع بعض التواريخ ، وتعريب بعض الكتب المفيدة ، وطبع الرسائل العلمية اللغوية في الأوضاع المدنية وغيرها »[1] .

والحق أن المجمع جال في غير ميدان واحد ، ولا أعرض هنا لبيان جهوده في ميادين مختلفة كالبحوث اللغوية الفنية التي حوتها مجلته مما لا يعني إلا أهل الاختصاص إذ لي في كثير منها رأي خاص ليس هذا مجال إيراده ، وإنما مجالنا ما قدم المجمع للجماهير من خير غير قليل وخدمات عامة أسداها العارفون من أعضائه القدامى إلى اللغة العربية ، وأستطيع تنسيق ذلك في أمور خمسة : تعريب المصطلحات ، والنظر في لغة الكتب المدرسية ، والمحاضرات العامة الميسرة للجمهور ، وتصحيح الأخطاء الشائعة في الصحف وغيرها ، والإعداد لمعجمات فنية خاصة .

١ ـ تعريب المصطلحات التي طلبتها مصالح الحكومة أو الأفراد :

رفع المجمع إلى الحاكم العسكري في هذا الشأن قراره الآتي المتخذ في ١٤/ ١٠/ ١٩١٩ وفيه بيان خطته ؛ جاء فيه :

« لما كانت الحكومات المختلفة قد تعاقبت على هذه البلاد بعد الفتح العربي ، وغيرت كثيراً من الأوضاع التي اصطلح عليها كتاب الدواوين ، وشوهت محاسنها ولا سيما في عهد دول التتر والترك ؛ مست الحاجة إلى تجديد الأوضاع الأولى

---

(١) يوم ميسلون لساطع الحصري ص ٢٣٠ ـ بيروت (مكتبة الكشاف) .

وتعريب الأخرى منها ، ووضع ألفاظ جديدة لمعانٍ لم تكن قبلاً ، وإلغاء ألفاظ لا توجد [مسمياتها] اليوم ، فأجلنا النظر في كثير من كتب الخطط والأحكام السلطانية والدواوين والترسل والوثائق وما شاكل ، أهمها :

كتاب الخراج لأبي يوسف ، والخراج لقدامة بن جعفر ، وكتب الفتوح وأشباهها مثل مقدمة ابن خلدون وبعض التواريخ المشهورة ، وكتاب الطرد للصلاح الصفدي ، والأحكام السلطانية للماوردي ، والأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي ، وسلوك المالك لابن أبي الربيع[1] ، وقوانين الدواوين لابن مماتي ، وكنز الكتاب لكشاجم الرملي ، والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ، ومعالم الكتابة لابن شيث القرشي ، وصبح الأعشى للقلقشندي . . . إلى كثير من أشباه هذه الكتب من مطبوعة ومخطوطة [وهي] معتمدة عند أرباب اللغة والتاريخ ، وبعضها ـ إن لم نقل كلها ـ من النوادر المحفوظة في بعض المكاتب .

وبعد أن اخترنا من هذه الألفاظ ما رأيناه من حاجات دوائرنا اليوم ، أخذنا مصطلحات الدوائر الملكية المدنية والعسكرية ، وبدأنا في اختيار ما يناسبها ووضع ما لم نجده ، أو تغييره لتغيير مفاده اليوم ؛ فاخترنا لها هذه الأوضاع بعد تمحيصها والمذاكرة فيها راجين أن يعم استعمال هذه المصطلحات الفصيحة ، إحياءً للغة العربية ، ورجوعاً إلى نضرتها الأولى » .

وكأن المجمع تنبأ بأن بعض مصطلحاته سيخدش الأسماع أول الأمر لعدم إلفه ، وأنها ستصقل ـ بمرور الزمن ـ فنبه المواطنين بقوله : « لا يخفى أن مجرد وضع المجمع لهذه الكلمات لا يفيد الفائدة المرغوبة ما لم يتناولها الأفاضل رؤساء الدواوين ورجال الصحافة فيستعملوها في كتاباتهم ويزيلوا خشونتها وغرابتها بالتداول والتخاطب والتراسل بينهم » ، وأوصى « إذا استعمل أحدهم هذه الأوضاع الجديدة حسن أولاً أن يتبعه بأصله القديم فيزيد بذلك وضوحاً وشيوعاً بين الناس ، فإذا استعمل كلمة (حاشية) مثلاً اتبعها [بالمصطلح الشائع سابقاً] بكلمة (دركنار)

---

(١) في تدبير المماليك . ألفه للخليفة المعتصم العباسي . انظر كشف الظنون ٢/ ١٠٠٠ .

واضعاً لها بين هلالين »[1] .

ومع ما كلفهم ذلك من جهود لم يمُنُّوا ولم يتبجحوا ، بل تحلَّوْا بالتواضع حلية العلماء ، شاعرين أنهم يؤدون بعض ما عليهم لأمتهم ، جاعلين في الوقت نفسه لعامل الزمن والذوق العام حساباً حين قالوا :

« ونحن على يقين من أن ما اخترناه للكتّاب الأفاضل من هذه الأوضاع والتعابير الجديدة لم يكن خير ما يقال وأفضل ما يُعوّل عليه ، إذ قد يتفق لبعضهم أن يخطُر له كلمة أو تعبير خيرٌ مما وضعنا واخترنا ، فله أن يستعمل ما ارتآه ، كما أن لغيره أن يستعمل ما ارتأينا نحن فتحيا الكلمتان معاً أو إحداهما التي تكون أفصح وأصلح . . . وبعض الكلمات التي جددناها مقتبس من أوضاع الدول العربية القديمة كديوان الخراج وديوان العمائر »[2] .

بعد هذا البيان بدأ المجمع ينشر في الصحف قوائم في ثلاثة أصناف :

١ ـ صنف حوى كلمات عرّبت أو حوّلت عن أصلها ، فالمعرب مثل كلمة (الطابو) عربوها بـ (التمليك) ، و(سرقوميسيير) عربوه بـ (مفوض أول) ، و(سيقيل قوميسيير) عربوه بـ (مفوض التحري) ، و(نوبتجي) عربوه بـ (آذن أو بواب) ، (أوده جي) بـ (فراش) ، و(ذمت وإيليشك) بـ (الدين والعلاقة) و(قاصه دفتري) بـ (دفتر الخزانة) ، و(خرجراه) بـ (نفقة السفر) . . . إلى آخر الكلمات التركية أو الفرنسية المشتركة .

وما حُوّل عن أصله مثل (دائرة الهندسة) حول إلى (لجنة التخطيط) ، و(المأمور الصحي) حول إلى (الملقِّح) ، و(الهيئة الفنية لإنشاءات الأوقاف) جعلوه (لجنة العمائر في الأوقاف) وهكذا ، مما وضّح المدلول وأزال عمومه أو اختصر اسمه .

٢ ـ وصنف عدلوه بعض التعديل مثل (مدير التحريرات) جعلوه (مدير

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ١/ ٦ .

(٢) وثيقة صادرة إلى الحاكم العسكري برقم ٢٥٨ وتاريخ ١٤/ ١/ ١٩١٩ ، وانظر تاريخ المجمع العلمي ص ١٧ .

الرسائل) ، و(القائمقام) جعلوه (القيم) ، و(أوراق موروودة) جعلوه (الرسائل الواردة) . . وهكذا[1] .

٣ ـ وصنف ثالث حوى كلمات مختلفة تدل على أثاث أو معلقات أو غيرها مما يستعمله الناس ، فكلمة (ماصه) التركية مثلاً عربوها بـ (مكتب) و(ڤولتق) عربوها (متكأ) ، و(دوسه) عربوها بـ (إضبارة أو ملف) فراجت الإضبارة في الشام وراج (الملف) في مصر وليبية ، و(روزنامه) عربوها بـ (تقويم) وهي الرائجة اليوم في الشام . وتتابعت هذه القوائم حتى سدت حاجة المصالح الحكومية يومئذ .

إضافةً إلى ما تقدم كانت ترد على المجمع طلبات كثيرة من الأفراد تطلب مقابلاً لكلماتٍ أجنبية تركية وفرنسية وإيطالية يستعملها الناس مما يسميه زملاؤنا في مصر (ألفاظ الحضارة) ، فكانت تنشر في الصحف اليومية الطلبات وتلبياتها ، بل تأتي المجمع طلبات من خارج سورية (المختصرة في عهد الاحتلال) ، فهذا الأستاذ بولس الخوري من بيروت قدم إلى المجمع اقتراحاً « يطلب فيه وضع أسماء للرتب العلمية والألقاب التي تمنحها الجامعات لطلابها ، فأحيل اقتراحه على الأستاذ أنيس سلوم فأجاب عليه »[2] .

لم يقتصر هذا التشوف إلى التعريب السريع على أجزاء الشام (سورية المختصرة ولبنان المكبر والأردن وفلسطين وإسكندرونة) ، بل جاوزها إلى العراق ، ويجب ألا ننسى أن الشام والعراق عمتهما حماسة شديدة للعروبة منذ العهد العثماني ، يدلك على ذلك تضافر أعلام من العراق ومصر إلى جانب السوريين في إذكاء هذه الروح في مجلة المجمع ، والوقوف بالمرصاد للمشككين من المشتركين في الداخل أو المتفرنسين في الساحل ، فهذا الأب أنستاس الكرملي من العراق ينشر في المجلة بحثاً حوى الملاحظات الآتية التي تصور في تعبيرها جو التبرم بهؤلاء المشككين :

« أولاً ـ على كل عربي متفرنج ألا يقطع بعجز اللغة أو ضعفها إن لم يكن له وقوف على أسرارها وألفاظها ودقائق معانيها ومبانيها .

---

(١) تاريخ المجمع العلمي ص ٢٣ فما بعد .

(٢) من حاضر اللغة العربية لسعيد الأفغاني ص ١٠٢ ـ الطبعة الثانية : دار الفكر ببيروت سنة ١٩٧١م .

ثانياً ـ يحسن به أن يستفتي أحد الأدباء أو يستشيره أو يبحث هو بنفسه عما ينشده من أمر ضالته .

ثالثاً ـ إن لم يفز بطائل فلينسب العجز إلى نفسه أو إلى من أراد أن يغترف من بحار أفكارهم ، ولا ينسب شيئاً إلى اللغة ، فاللغة كنز مدفون أو كالمدفون ؛ فإذا كان لا يوجد من يدلك عليه فهذا لا ينفي وجوده »[١] .

كان ذلك قبل ٥٧ سنة إثر الاحتلال الفرنسي والإنكليزي ، وقد رحل الاحتلالان ، رسمياً على الأقل ، وقامت في عقر دارنا جامعة أجنبية صهيونية (الجامعة العبرية) منذ أربعين عاماً ، تدرس العلوم وأحدث الاكتشافات بلغة ميتة حقاً لكنها لغة أجدادهم وتوراتهم على كل حال ، أحيوها ليحيوا ؛ ونحن ما يزال فينا ، من جُنِّد ليردنا مئة عام إلى الوراء فيتساءل توانياً وكسلاً وكعاعة ولكاعة : (أتصلح العربية لتدريس العلوم) ؟!

هذا الأمر الأول أمر المصطلحات فلنتابع الحديث بإيجاز عن بقية الأمور الخمسة :

٢ ـ الأمر الثاني : الكتب المدرسية :

صدرت الأوامر إلى المعلمين في المدارس الابتدائية والثانوية بترجمة الكتب المدرسية من التركية إلى العربية بالسرعة القصوى ، ثم ينظر في لغة كل كتاب مترجم أو مؤلف أحد أعضاء المجمع أو أحد المختصين باللغة العربية ، فيصلح لغتها ويشارك صاحب الاختصاص في ترجمة المصطلحات ، وكنت ترى على غلاف كل كتاب ، تحت اسم المؤلف أو المترجم هذه الجملة : (نظر في أسلوب إنشائه فلان عضو المجمع العلمي العربي) ، وأذكر أن كل الكتب التي درست فيها بالمدرسة الأولية تحمل هذه الجملة . ولا يحتاج أثر هذه الخطة في سرعة قلب الأوضاع إلى بيان . ثم كثر في المعلمين أرباب السلائق السليمة في اللغة ، فخف العبء عن أعضاء المجمع . وظاهر أن ميدان المدارس أوسع مجالاً من إدارات الحكومة ، إذ بعد خمس سنين من الحكم العربي صار أكثر طبقة الموظفين ممن يحسنون لغتهم إنشاء وقراءة وذوقاً .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ١/ ٢٣٩ سنة ١٩٢١ .

٣ ـ الأمر الثالث المحاضرات :

نشط الأعضاء إلى تثقيف الشعب عامة : الطلاب والأميين والعلماء والعامة ، فكانت محاضراتهم في ميادين الأدب واللغة والاجتماع والأخلاق والصحة والعلوم والدين . . تعرض ميسّرة المعلومات ، واضحة البيان ، بحيث يفيد منها العالم والعامي كل بحسب استعداده ، وقل أن خرج العامي بغير فائدة .

ومما يسّر الأمر على عامة الناس أن دار المجمع في المدرسة العادلية هي في لب البلدة القديمة ، ليس بينها وبين الجامع الأموي الكبير إلا خطوات .

كان أثر المحاضرات هذه غير ضئيل في تأليف الآذان على الأنس بالفصحى والنطق السليم ، وزيادة في التشويق كان المجمع يضمن الإعلان عن المحاضرات في الصحف : أن قصيدة للشاعر فلان ستلقى عقب المحاضرة ، وأغلب هذه القصائد وطنية تندد بالظلم وتغري بمقاومته ، فيقبل الناس لينفثوا عن صدورهم غيظها وضيقها بالمحتلين وليؤمنوا أن القمع مهما يشتد لا يكمّ الأفواه الحرة الذكية . فكانت تغص قاعة المحاضرات عقب صلاة العصر كل يوم جمعة بالمستمعين ولا سيما في الشتاء . ولقد أحصيت في حياة هذا المجمع البالغة خمس عشرة سنة (١٩١٩ ـ ١٩٣٤) (٢٥٦) مئتين وستاً وخمسين محاضرة عامة .

٤ ـ الأمر الرابع : تصحيح الأخطاء الشائعة :

وهو ما كان ينشره المجمع في الصحف اليومية بعنوان (عثرات الأقلام) وهي سلسلة مقالات بلغت الثلاثين ، يعاد نشرها في المجلة بعد أن تنشرها الصحف ، وقد بينوا خطتهم في المقالة الأولى بقولهم :

« رأى المجمع أن ينشر في مجلته وفي الصحف المحلية من وقت إلى آخر نبذة لا تتجاوز العمودين في نقد ما تهفو به أقلام بعض الكتّاب فيما يكتبونه ويحبرونه . وسنجتهد في الاقتصار على ما نظنه خطأ من القول مما لا يحتاج الأمر فيه إلى الرد والمناقشة . . . وندع التصريح باسم الكاتب الذي نؤاخذه والصحيفة التي كتب فيها ، فعسى أن يقع عملنا لهذا من أهل الفضل موقع الرضا والقبول ، فيتدبروا ملاحظاتنا ، ويراعوا العمل بها كلما سنحت في كتاباتهم أو دارت على أسلات

أقلامهم »[1] وإليكم بعض الأمثلة مما نشروا :

« فمن عثرات الأقلام قولهم : (عدم اعتياد الموظفين على كذا) صوابه (عدم اعتيادهم كذا) . . . وقولهم : (أجمعت الصحف على حياد إنكلترا وعدم مداخلتها مع اليونان) وإذا لم يكن بد من استعمال (مداخلة) فالأصح أن يقال : (وعدم مداخلتها اليونان) . . . وقولهم : (وصل البلد عصارى يوم الجمعة) صوابه (عصر يوم الجمعة) لأن (عصارى) ليست في كتب اللغة . . . وقولهم : (استفسروا من بعضهم بعضاً) وقولهم (ينظرون إلى بعضهم البعض) صوابه (استفسر بعضهم بعضاً) و(ينظر بعضهم إلى بعض) [قالوا] وهو غلط فاحش فليتنبه إليه . وقولهم (فلان كفؤ لوظيفة كذا) و(فلان من الأكفاء لكذا) وصوابه : (فلان كفيّ . . وهو من الأكفياء) أي ذو كفاية ومقدرة على العمل ، أما (الكفؤ) بالهمزة فهو بمعنى المثل واستعماله بمعنى (الكفيّ) بالياء خطأ ينبغي التفطن له . . . وقولهم (جاء القوم بما فيهم العلماء) صوابه أن يقال : (جاؤوا وفيهم العلماء) . . . إلخ »[2] .

ولم يكتفوا بالنشر ، بل كانوا يتابعون آثار تصحيحاتهم ، فحين يرون الخطأ يتكرر ينبهون أصحاب الصحف تنبيه المسيطر المؤاخذ ، فقد جاء في مجلتهم : « إننا عجبنا لأغلاط ننبه إليها ونشير إلى الصواب أو الأصوب ، ثم نراها أحياناً في الصحف ، بل أعجب من ذلك أنه نرى الأغلاط تعاد وتكرر في الصحيفة التي تنشر (العثرات) ، فنرجو حضرات مصححي الصحف أن يلاحظوا ذلك ؛ وإلا لم يكن لنشر (العثرات) في صحفهم معنىً ولا قيمة ، وصحَّ أن يخاطبوا بقول الشاعر :

يا أيُّها الرَّجلُ المعلِّمُ غيره ... هلاّ لنفسك كان ذا التعليمُ
لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ[3]

كانت استجابة الناس لهذه التصحيحات استجابة عمل بها في الجملة ، وقد عاد

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ١/ ١٧٣ فما بعد .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ٢/ ٨٨ .

(٣) هما من قصيدة لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص٤٠٤ ، ومنهم من ينسبها إلى المتوكل الليثي . انظر الخزانة ٨/ ٥٦٦ .

هذا الإصلاح المتسلسل على كتّاب الصحف والقرّاء والطّلاب بكل خير في تقويم أساليبهم .

٥ ـ الشروع في بعض أعمال معجمية :

أما هذا الأمر الخامس فيختلف ، إذ إن الأمور الأربعة السابقة كانت ميادينها عامة للجماهير ، أما هذا فميدانه علمي خاص ، عنيت بذلك الألفاظ التي يجمعها المختصون في اختصاصاتهم ليكون لهم منها شبه المعجمات الفنية الخاصة ، فبعض أعضاء المجمع أساتيذ في مواد علمية يدرسونها في كلية الطب ، وقد ذيل أكثر هؤلاء كتبهم العلمية ـ وهي في اللغة العربية طبعاً ـ ذيلوها بمعجم ملحق في المصطلحات التي وضعوها إزاء المصطلحات الفرنسية ، وذلك أعلق بموضوع الجامعة لا المجمع .

أما شبه المعجمات التي قام بها أعضاء المجمع من غير الأطباء « فبحوث[1] جزئية في اللغة قدموها للخاصة من المتعلّمين ، يحتاج إليها ذوو الاختصاص الضيق ، ولا يستغني عنها غيرهم من المثقفين . سهر أصحابها ليالي طوالاً يسردون المعجمات المختلفة مستخرجين منها ما تمس الضرورة حديثاً إلى استعماله ، وقد أحيوا بعملهم هذا مئات من الكلمات كانت غريبة أو ميتة ، فسالت على ألسنة المتعلمين ، وطردت مرادفاتها الأعجميات . وإليكم عمل أستاذين من الأعضاء :

الأول الأمير مصطفى الشهابي ـ رحمه الله ، فقد بدأ سنة ١٩٢٢ في نشر بحوث متسلسلة عنوانها (ألفاظ عربية لمعانٍ زراعية) في تسع حلقات آخرها نشر سنة ١٩٣٠[2] .

وقد كان مطلع أولى المقالات نشر آخر عام ١٩٢٥ في المجلد ٥/ ٥٥٨ :

« رغب إليّ بعض خريجي المدارس الزراعية أن أستخرج لهم من المعاجم العربية أو من كتب السلف الغنية ألفاظاً زراعية صحيحة يمكن الرجوع إليها إما في

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ٥/ ٥٥٨ ـ ١٠/ ٧٧٦ .

(٢) النص في ص ١١٨ من حاضر اللغة العربية .

ترجمة ألفاظ أعجمية وإما في الدلالة على معانٍ لكلمات زراعية ، فنزلت عند رغبتهم واستخلصت إلى اليوم بضع مئات من كلمات لا تخرج في معناها عن أغراض الفنون الزراعية ، وعقدت النية متى تمَّت على صوغها رسالة مرتبة على حروف المعجم . . . :

إذا طال الزرع واستأسد من فرط العناصر الغذائية في التراب ولا سيما (النيتروجين) منها يقول فلاحو بلادنا : إنه (هاف) ويقول الفرنسيون (il a versé) ، واستعمل المصريون كلمة (ترقيد) لمصدر هذا الفعل . . . والصحيح هو أن نستعمل كلمة (قصف الزرع قصفاً) ، إذ جاء في كتب اللغة أن معناه (طال حتى انحنى من طوله) . ودواء الزرع الذي يستأسد أي يطول على هذا الشكل : قطع رؤوسه ، (وهو بالفرنسية Essimage وبالعربية : شرنف الزرعَ وشرْيَفه) أي قطع شرنافه وهو ورقه إذا طال وصار مضراً به .

ويطلق بساتنة الغوطتين كلمة (عدان) على حظِّ بُقولهم أو أشجارهم من الشرب ، وهو بالعربية (السِّقْي ، والقِلْد) يقال : (كم سِقْي أرضك ؟ وهل استوفت أرضك قِلدها من الماء ؟) ، و(القَلْد) مصدر (تقالدوا الماء) أي تناوبوه ، يقال : (كم قَلْد شجركم ؟) فيقال : (يشرب في كل عشرٍ مرة) .

وآخر فقرة من المقالة التاسعة المنشورة في المجلد ١٠/ ٧٦٦ الصادر في كانون الأول سنة ١٩٣٠ :

« وفي شمالي الشام صنف من الضأن يسمونه (العوسي والعواسي) وهو أكثر الأصناف انتشاراً ، ويظهر أنه قديم ، فقد ورد في الأمهات أن (العوس) ضرب من الغنم وأنها الكباش البيض ، وأن الكبش العوسي منسوب إليها .

وأشهر عروق الضأن في العالم الصنف المسمى (márinos) وشهرته منبعثة من جودة صوفه وغزارته ، وهو يغطي حتى جبين النعجة وخديها ويبلغ رأس منخرها أحياناً . والصوفة مرنة جداً وربما دقت فلم يزد ثخنها على ١٠ ـ ١٥/ ١٠٠ من المليمتر .

والذي يهمنا ذكره مما يكاد يكون مجهولاً لا يعرفه إلا نفر قليلون من علماء

الدواجن ، أن هذا العرق من الضأن ينسب إلى بني مرّين المغاربة المشهورين . ذلك أنه عرق المغرب الأصلي ، جوّده العرب بعد نقله إلى الأندلس منذ سطعت أنوار مدنيتهم فيها ، واستعملوا صوفه في صناعة المنسوجات الصوفية الدقيقة التي استفاضت شهرتها في أنحاء أوروبة وإفريقية والشرق العربي ، ثم احتفظ به الإسبانيون بعد العرب فسموه (مرينوس) نسبة إلى بني مرّين . وهو اليوم أكثر عروق الضأن انتشاراً ، ولا تكاد دولة من الدول المهمة تخلو منه ، وهو يعد بالملايين في كل منها . ومن صوفه تصنع نسج الجوخ الدقيقة الحوك » .

وللأمير جولات كثيرة في هذا الميدان فنجد له بحثاً في (ألفاظ التصنيف في الفقاريات)[1] كما نجد سلسلة في (أسماء نباتات مشهورة)[2] ، ولا يكاد يخلو مجلد من مجلدات مجلة المجمع من تتبعاته وتحقيقاته على مدى سنين طويلة ، أرفد فيها اللغة الزراعية بثمرات جده حتى استوى له فيما بعد معجمه الثمين (معجم الألفاظ الزراعية بالعربية والفرنسية) ، فأسدى إلى أمته وإلى علوم الزراعة أجل الخدمات . ولو كان لنا في كل ميدان من ميادين العلوم والفنون والصناعات مثل الأمير لكان بناء نهضتنا اللغوية العلمية يناطح السحاب منذ أمد طويل .

والأستاذ الثاني محمد سليم الجندي رحمه الله ، فقد جمع كل ما يخص الكرمة من مصطلحات منذ تكون بذرة إلى تساقط أوراقها ، وما يخصها من عناية زراعية ، وما يعتريها من أحوال وأزمان مع ذكر أسماء مواضعها . . الخ ، ونشر ما جمعه من دواوين اللغة وكتب التراث متسلسلاً في مجلة المجمع بعنوان (رسالة الكرم)[3] ، فما يخطر بالبال مسمًّى لبعض ذلك إلا كان مشروحاً في بابه .

وقد مهّد الأستاذ سليم الجندي لرسالته بسبب تأليفها وخطته في جمعها قال :

« سألني بعض الأدباء في دمشق عما يرادف كلمة (يبرق)[4] التركية ، من العربي

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ٢٠/ ٣٩٩ و٤٨٨ .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ١٨/ ٤٩٣ .

(٣) من حاضر اللغة العربية ص ١٢٠ .

(٤) من أطعمة الشام والأناضول ، وهو ورق العنب يلف على حشو من الأرز واللحم المفروم الرقيق .

الفصيح ، وكنت لا أعرف لها مرادفاً ، فرغبت إليه أن يمهلني في الجواب . . ثم طفقت أتصفح كتاب القاموس المحيط للفيروزأبادي حتى ظفرت بضالتي التي أنشدها وأعلمت السائل بها :

وقد عثرت خلال البحث عنها على كلمات فصيحة تتعلق بالكرم يتداول الناس غيرها من عامي ودخيل ، فارتاحت نفسي إلى متابعة البحث والاستقراء وتدوين ما يقع إلي في هذا النوع في رسالة مستقلة تقرب على الباحث كل قصيّ وتذلل كل أبيّ . . فاطلعت على نسخة من (البلغة في شذور اللغة) [وفيها كتاب النخل والكرم المنسوب للأصمعي] فألفيتها غزيرة المادة لكنها مشتتة المباحث خالية من الترتيب الذي يقرب الوقوف على مسائلها . . فعارضتها بما جمعه واصطفيت منها ما لم أعثر عليه من قبل ، ثم استصفيت ما في المخصص لابن سيده ، وأضفت ذلك كله إلى الرسالة حتى اشتملت على كثير من المباحث الطريفة والأسماء النادرة ، وأفردت لكل نوع من أجزاء الكرم مبحثاً مستقلاً أثبت فيه ما وقع لي من الأقسام والأسماء والأوصاف التي تتعلق به وتلائمه . . إلخ[1] .

موضع الكرم

الفِردوس : الموضع تكون فيه الكروم ، مذكر وقد يؤنث ، قال في اللسان : (العرب تسمي الموضع الذي فيه الكرم فردوساً ، وأهل الشام يقولون للكروم والبساتين : الفراديس . ويقال : كرم مفردس أي معرّش .

الجنة : الحديقة ذات الشجر والنخل . . . قال أبو علي في التذكرة : « لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب ؛ فإن لم يكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فحديقة وليست بجنة . . إلخ »[2] .

الوشيع والحظيرة

الوشيع : حظيرة الشجر حول الكرم والبستان ، الجمع وشائع . . يقال وشّعوا على كرمهم توشيعاً : حظروا عليها بالشجر ، ووشع كرمه : جعل له وشيعاً وهو أن

---

(١) ٩/ ٢٨٠ ـ ١٠/ ٧٦٢ .
(٢) مجلة المجمع ١٠/ ٤٦٦ .

يبني جداره بقصب أو سعف يشبك الجدار به وهو التوشيع . . .

. . الحفر والركايا

الشرَبة بالتحريك : كالحويص يحفر حول الشجرة ويملأ ماء . . . فتتروى منه . . . وشرَّب الأرض والنخل جعل له شربات .

الفُقُر : ركايا محفورة بعضها إلى جنب بعض وينفذ بعضها إلى بعض ، واحدها فقير . . إلخ(١) .

وله أيضاً (رسالة الطرق)(٢) جمع فيها الألفاظ المتعلقة بالطرق وأنواعها وتمهيدها وأحوالها ، فأحيا عشرات الألفاظ المحتاج إليها اليوم ، ورتبها على حروف المعجم فجاءت معجماً وافياً فيما يتعلق بالطرق .

ويلحق بعمل هذين الأستاذين ما صنعه الأستاذ عز الدين التنوخي رحمه الله بناء على طلب قدم إليه ، حين حصر كل أجزاء الآلة الكاتبة فصورها ورقم أجزاءها ودرس عملها ثم وضع لها المصطلحات المقابلة لمصطلحاتها الفرنسية الرائجة ، ونشرها في المجلة ، ثم طبعت في كراسة تخاطفها طلاب مدرسة التجارة ومعلمو الآلة الكاتبة والضاربون عليها . وفعل مثل ذلك بالدراجة (البسكليت)(٣) ، وراجت هذه المصطلحات ، وخطته في ذلك سليمة المنهج .

وحسبنا أعمال الشهابي والجندي والتنوخي نماذج جيدة لما صدر عن المجمع في هذا الباب .

* *

أما بعد ، فهذه جهود المجمع الأول ، المباركة البناءة في عمره الذي لم يجاوز خمس عشرة سنة ، وهذا ما قدم أفاضله لأمتهم . ولقد مضى على إلغائه ٤٤ سنة خطا الزمان فيهن خطاً فساحاً ، ومضى بالعربية قدماً إلى الأمام . فما صنعه من بعده

(١) المصدر نفسه ١٠/٤٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ١٨/٤١١ ـ ٢٠/٣٣١ .
(٣) المصدر نفسه ١٣/٣٦٣ .

الحاذقون من أساتذة الطب والعلوم في الشام ـ وهم كثر ـ أدق وأغزر ، والزمن بنا ماض لا يتوقف : كثر عندنا المختصون في علوم وفنون ، ولم يعد أكثرهم بحاجة إلى استنجادٍ بمن يضع له مصطلحاً أو ينظر له في أسلوب إنشائه ، إلا استشارات بين الحين والحين لمن عرف بالقوة والذوق وسعة الأفق في العربية خاصة والثقافة عامة ، يعرض عليه عمله ليفيد من نظره وملاحظاته ، والأساتذة من المختصين ماضون في سد حاجة طلابهم من التأليف ووضع المصطلحات التي تستعمل وتعيش من ساعة طرحها ، فيتلقفها الطلاب متابعين مع مدرسيهم سير العلم .

فإن سألتم : ما الذي أسعفهم بحاجاتهم أجبتكم بما أعرف عن بعضهم : إنهم حازوا ثلاث خصال :

١ ـ قوةً وتمكناً في اختصاصهم ومتابعةً له وشغفاً به حتى العشق .

٢ ـ إدامة النظر في مؤلفات في فنونهم نفسها ، فجنوا ربحاً مزدوجاً : عثورهم غالباً على مصطلحات موائمة لما يبتغون ، واطلاعهم على صفحات من تاريخ العلم الذي اختصوا به .

٣ ـ أنسهم الشديد بصحبة المعجمات التي حفظت لنا عبقرية لغتنا وأمتنا ، يستنطقونها بصبر وأناة ومنهجية .

وقلّ فيهم من لم يسرد القاموس المحيط بأجزائه الأربعة من الغلاف إلى الغلاف ، بل منهم من طالع مخصص ابن سيده بأناة ومصابرة للزمن مهما يطل ، يجدون في ذلك لذتهم . إن ظفرهم من المعجمات بما يبتغون أنساهم تعبهم وسهرهم في الغوص والبحث ، وجنوا إلى جانب ذلك ، من الفرائد والفوائد ما لم يكونوا يحتسبون ؛ حتى لكأن (أناتول فرنس) إياهم وصف في مقال له عن معجمات اللغة ، وبلسان حالهم قال :

« إني أحب معجمات اللغة ، فأنا لا أحبها لمجرد فائدتها العظيمة ، ولكني أحبها لأنها تحتوي على شيء فخم ، انظر إلى معجم (غازيه) أو إلى غيره من المعجمات ، وتصور أنك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم ، ليتصور ذهنك أن في هذه الصفحات التي يبلغ عددها ألف صفحة أو (١٢٠٠) صفحة : عبقرية فرنسة

وطبيعتها . ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار أجدادنا ، وأفراحنا وأفراحهم ، وأعمالنا وأعمالهم ، وآلامنا وآلامهم ؛ ليخطر ببالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة ، وآثار الدور والمنازل ، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح ، وشموا النسيم العليل الذي نشمه اليوم ، ليخطر ببالك أن كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفة من البشر لا يُعلم عددهم ، وكلَّ عاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم ، ليهجس في صدرك أن كل هذه الكلمات المجموعة إنما هي لحم الوطن والبشر ، ودمهما ، وروحهما »[1] .

أيها الإخوة الكرام ! هذا هو الطريق .

---

(١) من محاضرة (في الأدب) ألقاها علينا الأستاذ شفيق جبري في كلية الآداب قبل خمسين سنة ، ونشرها المجمع العلمي في مجلة ١٠/ ٣٧١ .

من قصة العامية في الشام

ألقي البحث في مؤتمر الدورة الرابعة والأربعين المنعقد في القاهرة (جلسة الثلاثاء ٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٨هـ = ١٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٧٨م) .
ونشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء٤١ ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

يعتري بعض الكلمات ما يتعري حياة الأحياء : ميلاد فترعرع فتقلبات في أطوار بعد أطوار ، ثم تضاؤل أحياناً فممات ، وهو ما يعبر عنه بـ (حياة الألفاظ) . وما أرى أن كلمة (حياة) وافية ؛ لأن الحياة تنقضي بممات ، وقلما ماتت الكلمات على مدى الأزمان ، إنها تهمل فتنسى فترقد في المعجمات أو الكتب ثم يجدّ من الحاجة ما يبعثها من مرقدها ، وأوفى من كلمة (حياة) عندي أن نقول : (تاريخ الألفاظ) ، فلكثير من الكلم سجل حافل لا يبدو للعيان ، ويحظى المتتبع بصبر ودأب على اكتشاف أكثره .

وما استمتع باحث لغوي استمتاعه ببحث وفق صاحبه إلى بعث ما خطت الأزمان في هذا السجل من تحولات .

١ـ قدمت هذا . . لأقول : إن ما صحّ في الكلمات يصحُّ في اللهجات المحليات ألفاظاً وأصواتاً ومركبات ، وإذا رجع أحدنا بذاكرته إلى عهد صباه يعرض لهجات الباعة حينئذ : من جزار وبقال وخضار وبزاز وخياط ونجار وحداد من مستقر في دكانه وجوال ، ويقابلها بلهجات أمثالهم لعجب كيف تقلبت هذه اللهجات في السنين القلائل على ألسنة الصغار والكبار .

أذكر أني منذ ثلاثين عاماً كنت في زيارة الأستاذ الفقيد محب الدين الخطيب في مكتبة السلفية المعروفة ، وكان فارق الشام[1] سنة ١٩٢٠ محكوماً عليه غيابياً

---

(١) الشام عند العرب يشمل الأجزاء الآتية (طبقاً للتقسيمات الإدارية اليوم تقسيمات « سايكس بيكو ») : لواء إسكندرونة ، وسورية ، ولبنان ، والأردن ، وفلسطين ، أي من جبال طوروس شمالاً إلى سيناء والبحر الأحمر جنوباً ، ومن العراق شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً .

بالإعدام من المجلس الحربي الفرنسي لإسهامه في حرب ميسلون ، ثم استوطن مصر ، وأنشأ مجلة (الزهراء) الشهرية ، ومجلة (الفتح) الأسبوعية ـ زرناه فطفق يحدثنا عن بعض تاريخ القضية العربية (وقد ذهب معه كثير من تاريخها الصحيح) ثم جره الحديث إلى ذكرياته في دمشق وإلى قصة جرت فيها قديماً وهو صبي ، فجرى على لسانه تعبير لم أفهمه ، وكان عنده ابن أخته الكاتب الأديب المعروف الأستاذ علي الطنطاوي ، فسألته بعد خروجنا : « هل سمعت هذا التعبير ؟ وما معناه ؟ » فقال : « لقد سبقتني ، أنا نويت أن أسألك » . وحاولنا التذكر فأخفقنا ، ثم قلنا : هو ممّا مات من العامية الشامية لا يعرفه إلا المعمَّرون ، واليوم نسيت أنا هذا التعبير ، ولما يمض عليه الثلاثون من الأعوام .

* *

نشر التعليم في الشام وغيره أول هذا العصر تكفل بأمرين : أولهما الارتفاع بتلك اللهجات في هذه السنوات الستين ، وثانيهما تقريبها من الفصحى المألوفة ، حتى صار البون شاسعاً بين العامية القديمة والعامية الحديثة ، وبان على هذه أثر الثِّقاف والتطويع ، وحلت الفصاح على ألسنة العوام محل الكلمات العاميات بالمئات ، فإذا حدثك اليوم جزار أمي حديثاً ما ، أمكنك بشيء من اللمس الخفيف من إعراب وتبديل بعض كلمات أن تنشره في جريدة أو مجلة ، وكنت قبل ستين عاماً تترجم مثله إلى لغة الكتابة ترجمة .

هذا عمل الزمن من حيث لا نشعر ، ولكن ماذا عن الفئة الواعية الرائدة من الجيل الماضي الذي فتح عينيه على عصر جهل وظلام ؟

إن بحثاً جرى بتحرٍّ وأناة أرشد إلى أنهم كانوا والنهضة في كل ميدان على قدر ، لقد أوتوا من العزائم ما ألحقهم بأصحاب الرسالات في أممهم ، ولم يكن يرضيهم في ميدان اللغة إلا أن تعم الفصحى الأصيلة المدارس والدور والأسواق ، أو كما يعبر بعض إخواننا من مصر : كانوا « حماميز فتح الله » في الشام والآستانة معاً ، ألفوا الجمعيات وأقاموا النوادي ، ونشروا غرف القراءة في الأحياء مطلع هذا القرن ، وحرموا في مجالسهم الكلام بغير الفصحى ، بل إن أحدهم وهو الأستاذ

محب الدين الخطيب أراد للفصحى أن تحتل مقاهي الآستانة التي يرتادها العرب ، فحث رفاقه الشبان على هجر المصطلحات التركية والفارسية حين يلعبون النرد ، وأن يقولوا مثلاً : (ستة خمسة) بدل (شيش بيش) ، فاستجابوا له وصاروا ملفت الأنظار والأسماع في المقهى ، بل إن بعضهم يأتيه السائل في مقهى بدمشق يستجدي فيعلمه ما يقابل جملته بالفصحى ، فإن أداها سليمة أعطاه ، فصار المستَجْدُون يلقن بعضهم بعضاً ماذا يقول لهؤلاء الأفندية حتى يحظى بـ (المتليك)[1] .

حمل جو الشام طابع هؤلاء الرواد المتحمسين ، وما أزال أذكر كيف كنا ـ ونحن أطفال ـ في مدرسة أولية خاصة لا نتكلم في الفسح بين الدروس إلا بالفصحى التي نستطيعها ، وأشد ما يحاذر أحدنا أن تنتهي الفسحة وخشبة الرصد (السينال) في حوزته فيسجل عليه الرقيب حينئذ درجة في سوء السلوك . وكان إشفاقنا بالغاً على الأطفال الذين نقلهم أولياؤهم من مدارس الحكومة البعيدة إلى مدرستنا الخاصة هذه ، وذلك في سنة ١٩١٨م آخر العهد العثماني في الشام ، إنهم في أيامهم الأولى كثيراً ما تسبقهم ألسنتهم حين يُنَادَوْن في التفقد الصباحي فيجيبون بكلمة (أفندم) المألوفة في المدارس الرسمية ، فيخرجون إلى وسط الباحة يتلقون على أكفهم المبسوطة الضربات المقررة من عصا الرقيب ، إذ كلمة الجواب الواجبة في مدرستنا هي (لبيك) .

وما ننسى لا ننسى التمثيليات التي تعدها المدرسة للاحتفالات السنوية يدعى إليها أولياء الطلاب وفريق من الوجهاء وهي في جملتها تاريخية أو اجتماعية ، وفيها دور قصير يؤدى بالعامية البلدية ، هو مجلبة الترفيه والضحك من النظارة ، ولاسيما الأميين منهم لنشازه البارز .

حتى الصحافة ، غالى بعض أولئك الرعيل فأراد للغتها أن تكون مسجوعة من النمط العالي في رأيه يومئذ ، فهذه جريدة (لسان الحال) الصادرة في بيروت ، من ساحل الشام سنة ١٨٧٧م ، التزمت في افتتاحيتها الفصحى المسجعة ، بدأها

---

(١) انظر كتاب (من حاضر اللغة العربية) ص٣٧ (الطبعة الثانية ١٩٧١م) .
المتليك : نقد تركي معدني يعادل قرشين ونصف قرش .

صاحبها خليل سركيس بقوله : « الحمد لله الذي يُسبِّح بحمده في الغدو والآصال ، وينطق مفصحاً بتعداد آلائه (لسان الحال) . . . حمداً يدوم آناء الليل وأطراف النهار ، ما غرد قمري وترنم هزار . . . »[١] .

وأعجب مما تقدم محاولة قام بها المرحوم أمين آل ناصر الدين لإصدار جريدته كلها نظماً ، وقد جاءت الأخبار فيها منظومة نظماً فيه رشاقة وإصابة محزّ ، وخفة روح أحياناً : اجتاحت عاصفة ناحية (جِزّين) وسببت خسائر قدرت بمليون قرش فقالت الجريدة تصف حوادث العاصفة :

عصفت بجزين العواصف حيث أقـ ... تلعت بها الأشجار من جوف الثرى
ولقد غدا شجر الصنوبر مائلاً ... تلك الربوع ، وبالألوف تقدرا
والجوز والزيتون خرّ كذا الآجـ ... ـرُّ عن سقف المنازل طُيِّرا
أما الخسائر فهي بالغة بها ... مليون قرش ، إن ذا قدر جرى
وديار (تيما) لم يعد لسقوفها ... أثر وقد أوت الوحش إلى القرىٰ
والثلج قد غطى الديار جميعها ... وانسدت الطرقات حتى لا ترى
وقضى مكار في الطريق لعظم ما ... قاسىٰ ، وآخر في الثلوج تعفرا

وزارت مدرعة ميناء بيروت فورد خبرها هكذا :

أرست بميناء بيروت مدرعةٌ ... لها لواء على (توفنل) معقود
ومذ رست أطلقت حالاً مدافعها ... تحيّةً ، إن هذا الأمر معهود
وقلعةُ الثغر قد ردّت تحيتها ... إنَّ السلام لمن أداه مردود[٢]

وكلنا يذكر انتفاضات شعب (البوير) على الاستعمار البريطاني في جنوب إفريقية ، والحرب التي شنها في الترنسفال فكانت الخاتمة الحزينة لعهد الملكة فيكتوريا ، إذ كانت عواطف الجماهير مع شعب (البوير) .

وتموت الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١ ويؤبنها رئيس مجلس النواب النمسوي بكلمة مجاملة مثنياً عليها ، فيثور المعارضون في المجلس وتقوم الضجة ، وهذا

---

(١) مجلة الجندي الدمشقية الصادرة في (٦/ ٢/ ١٩٦٢) ، العدد (٥٤٢) تحقيق السيد أديب باقي .
(٢) المصدر السابق .

نص الخبر في الجريدة :

جرى في مجلس النواب شيءٌ … يدلُّ على التعصب في الأمور
فإنّ رئيسه أسدى مديحاً … إلى فيكتوريا ذات السرير
ترحَّم في مقالته عليها … وأتبع ذاك بالأسف الكثير
فحزب (الرادكال) استاءَ منه … وأصبحَ منه في غيظٍ كبير
فصاحوا كلهم غيظاً وحقداً … ليحييَ مظفراً شعب (البوير)[1]

نشرت الافتتاحية المسجعة سنة ١٨٧٧م قبل مئة عام كاملة ، وكانت الأخبار المنظومة شعراً سنة ١٩٠٩م أي قبل ثمانين عاماً ، في عنفوان عهد التتريك الذي مارسه حزب الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبد الحميد ، وأظن هذا كافياً في الدلالة على روح الشام الأصيلة في تشرب الفصحى وجريان حبها في أهله مجرى الدم من العروق ، وعلى أن كل نزعة مخالفة هي نزعة مزورة أجنبية ، وستبقى مهما يطل الزمن بها ومهما يطل إلف محترفيها لها ، أجنبية عن الشام وسائر الأقطار العربية[2] .

* *

هذا قبل مئة عام ، واستمرت الجهود في بعث الفصحى تترى ، ومن كثرة ما كنا نسمع في صبانا من تنفير من العامية وتحبيب بالفصحى ، انتقل التشاؤم بالعامية إلى القرويين وتحفظ ذاكرتي نزهة ربيعية قمت بها مع أبي ـ رحمه الله ـ في غوطة دمشق يوم جمعة ، فلما حانت الصلاة قصدنا مسجد قرية قريبة ، وكان الخطيب يقرأ من كتاب ، شأن أكثر خطباء القرى يومئذ ، إلا أنه قبل أن يجلس بين الخطبتين توجه إلى القرويين يحذرهم بلهجتهم الدارجة من أمر فشا بينهم ، فلما قضيت الصلاة واتجهنا نحو الباب إذا أحدهم يسأل جاره بصوت مسموع : (ألم تفسد صلاة الجمعة بقطع الخطيب الخطبة والتكلم بالعامية ؟) فكان الجواب : (إنا لله! نعيد الصلاة والله يعفو ويسامح)!

---

(١) المصدر السابق .
(٢) من حاضر اللغة العربية ص١٦٦ .

صار من دأب المتعلمين والطلبة عيب من يسبق لسانه بكلمة عامية ، وكنت قد ظفرت قبل سنوات ببعض قصيدة تعكس الروح السائدة قبل سبعين سنة لم تنشر ، واحتفظ بها أحد معارفي ، نظمها صاحبها الشيخ أبو السعود مراد سنة ١٩٠٨م أيام العهد العثماني منفراً من العاميات الدارجة ، وضارباً على قبحها الأمثلة ، ومن أبياتها :

أسفاً لغة العرب الفصحى ... قد ضاعت منا بالعمد
واليوم تداولنا لغة ... عوجاء مذبذبة القصد
ملئت ألفاظاً موحشة ... ما فيها من معنى يجدي
والعالم لا يتحاشاها ... فضلاً عن ذي الجهل الضد
فاسمع بعضاً منها فيما ... ألقيه إليك وما أبدي
زعوط نطنط أه يا مبطبط ... حاجة تعطعط احفظ عهدي
إيوا إيوا ، لك لك هي هي ... أه أه شوشو ؟ دس دس خدي
وطلع من طيز الصبح ومن ... علبكرا في وأت البرد
أرجيني ، يا روح ، يصطفلو ... ضهرك بالك ، أوعا ، دي دي
مأمأ مأمأ ، سفَّأ لحّأ ... بَلأْ شلأْ فايت يحدي[1]

وبعض هذه الكلمات لم أسمعه ولا عرفت معناه فقد مات ، وعلى هذا تكون الصرخة في تنقية اللغة من العامية قديمة في الشام .

* *

ثم وقع الاحتلال ، وبرزت مراكز أجنبية تغذي الدعوة إلى العاميات المحلية ، وتهيئ لها المال والمنابر والعملاء والنشرات ، وعمل لها المحتلون في الخفاء . وأذكر أن أحد رؤساء بلدية دمشق أيام الاحتلال ـ وكان على مجاملته للمحتلين صادق الوطنية ـ جاء على لسانه خطأ من حيث لا يشعر كلمة (اللغة السورية والشعب السوري) من كثرة ما سمعها من هؤلاء العملاء ، فأوسعته الصحف الفكاهية

---

(١) المصدر السابق ص١٦٥ .

المصورة تهكماً وتنكيتاً ، وتصدت له الصحف اليومية ، فلم تنبس شفتاه بعدها بـ(السورية) البتة .

ظهر للمحتلين تجاه هذه الوطنية العنيفة عقم محاولتهم ، فطووها من داخل الشام (حكومة سورية حينئذ) بعد أن ضُحك عليها ، وركزوا جهودهم في الساحل (حكومة لبنان الكبير يومئذ) حيث كانت لهم فيه قبل الاحتلال بأكثر من ثمانين سنة مراكز وجهود سابقة في خلق تكتلات ونزعات طائفية ، وأذكوا بين الطوائف العداوة حتى عم الجو الكراهية يتعامل بها بعض الطوائف ، والتزموا من بينها طائفة واحدة يقوونها في مجتمع الكراهية هذا ، ويوجهون عملاءها وإمعاتها في كل دعوة إلى تفرقة أو تمييز أو انفصال ، ومن ذلك التشكيك في أصلهم العربي ، وصلاح لغتهم الفصحى ، والحرف العربي ، والثقافة العربية جملة مما عرضت له في غير هذه الكلمة .

ثم استرحنا من ذلك كله في داخل الشام ، وخفّت مع الزمن ـ بعد الجلاء ـ دعاية الشر هذه في ساحل الشام ، وإن كانت تطل من جحورها الباقية بين الفينة والفينة تزعج الآمنين المطمئنين على أوطانهم ومقوماتهم واستقلالهم . وقد انبرى لهؤلاء الكارهين المكروهين ، أفاضل من كرام اللبنانيين ذوي الأصالة[١] ، أوضحوا للناس زيف دعاواهم ، فاضحين ما وراءها من سموم التبشير والاستعمار . وكنت أحب ألا يعرضوا لهم ، فإن ما قطر من دعايتهم من لؤم الطائفية وخبث الأجنبية كاف لتزييفها حتى في أعين العوام .

إني لا أرى لأحد من أهل الفضل والغيرة أن يشتغل بالرد على كل ناعق ، فإن ذلك يثبت لهم وجوداً ، وهذا كل ما يبتغونه ؛ إذ هو المسوغ الوحيد لإدرار الأموال الأجنبية عليهم ، فلندعهم وما اختاروا من معاش ، ولنمض قدماً في حُجتنا البيضاء النقية لا يلهينا عنها معوقون نصبوا ذات اليمين أو ذات الشمال ، نبني متممين ما بدأته الأجيال الصالحة من قبلنا ، وممهدين لأجيال بعدنا نرجو أن تكون أصلح بعون الله .

---

(١) أذكر منهم الآن على سبيل المثال : الأستاذ عمر فروخ عضو هذا المجمع الكريم وكتابه (القومية الفصحى) ، والدكتور سعيد شهاب الدين ورسالته (دعاة العامية هم أعداء القومية العربية) .

من غرائب الأساليب

مقالة نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة
الجزء ٤٧ رجب ١٤١١هـ/ مايو (أيار) ١٩٨١م
تعقب فيه الأستاذ عبد الحكيم مراد صاحب كتاب
(جبر القيمة) استخدم فيه أسلوباً غريباً في
التعبير .

إن علمنا اليوم أجنبي والجهود في استيعابه مستمرة ، ونرجو أن يكون في طريقه إلى التوطن فالتصدير بإذن الله ، وإن في العالم العربي من أوتوا (لغة العلم) ، فكانوا وهم يلقون محاضراتهم أو يؤلفون في موضوعاتها أو ييسرونها للجماهير في الصحف والمجلات والرسائل ـ كانوا يعلِّمون العلم والأسلوب السوي في أدائه معاً ، تمكنوا في علمهم حتى ملكوه ، وتمكنوا في العربية تمكنهم في اللغة التي ينقلون عنها ، وتلك هي الشروط الثلاثة التي لا بد منها لمؤدي العلم تدريساً أو تأليفاً أو ترجمة ، ثم يتفاضلون بعد ذلك في الموهبة ودرجات التوفيق . إنهم بناة برَّأهم الله من عقوق الوطن ، وعداوة لغته ، وكره التحرر ، على خلاف قَعَديين[1] كسالى سوغوا تقاعسهم وعجزهم بخرافة (أن العربية ليست لغة علم) فجمعوا إلى تخلّفهم جهالة بليت بكثرة تردادها ، زعمٌ ألقاه قدماء الأجانب أول العهد بالاستعمار ، فتلقف إمَّعات عن إمَّعات ، تقليداً أعمى كما ينساق العبيد ، وما زالت بقاياهم في غير قطر عربي حيَّة تسعى .

وإن كان لي أن أدلي برأيي في (لغة العلم) قبل شروعي بحديثي ، فهو ما استقر في نفسي أن سَمْتَها التعبير الطبيعي الواضح ، وبلاغته في أنه كالخط المستقيم بين الخطوط في قصره وسرعة بلوغ الهدف عليه ، ولا أشكّ في أن هذا الموضوع سيحظى بالعناية البالغة من الزملاء الكرام من المختصين ، فلأقصد إلى ما أردت الحديث عنه من غرائب الأساليب .

* *

---

(١) القَعَدِيُّون : الخاملون الراضون بالتخلف .

يلاحظ الراصد أن التأليف بعد المئة السادسة للهجرة انحرف عن نهجه السويّ . وكان الانحراف قبل ذلك لا يُشعَر به ، إذ لا يعدو كونه شذوذاً في أفراد ، وحيناً في جماعات قليلة قصدت إلى الغموض قصداً . لكن هذه الانحرافات اتسع انتشارها بعد المئة السادسة حتى كاد يكون ظاهرة لم يشذ عنها إلا أعلام مشهورون ، وصرت لا تعدم في أكثر ما أُلّف في هذه العصور سقماً وركة واستغلاقاً متعمداً في العبارة ، آفةً عم بلاؤها ، ثم أخذ في الانحسار البطيء بعد النهضة الحديثة ، وما زال لها مخلّفات تطل برؤوسها بين الحين والحين إلى يوم الناس هذا ، على اختلاف في حدتها وأسبابها بين عصر وعصر .

والظاهر أن بعض المؤلفين في العلم كانوا يُغمضون ويعقّدون تعمداً ، صوناً للعلم عن غير أهله بزعمهم ، أو إشعاراً لعشاق المعرفة بالحاجة إليهم لشرح المغلق من مسائل العلم فيضطر الناس إلى قصدهم والجلوس بين أيديهم ، وأول من سجل هذه الظاهرة ـ فيما أحفظ ـ أبو عثمان الجاحظ في المئة الثالثة ، حين توجه بالسؤال إلى أبي الحسن الأخفش قائلاً :

« أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومةً كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدّم بعض العويص وتؤخِّر بعض المفهوم ؟ »

فأجابه الأخفش : « أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني إليه قلَّت حاجاتهم إليّ فيها ، وإنما غايتي المنالة ، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما كسبت في هذا التدبير ، إذ كنت إلى التكسب ذهبت ، ولكن ما بال إبراهيم النظّام وفلان وفلان[1] يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم أكثرها ؟! » .

ومن بعد زمن الجاحظ لاحظت ميلاً إلى ما أسميه (أرستقراطية العلم) يرمي إلى تضييق نشره وتعقيد عرضه ، فقد ذكر ابن النديم في سبب إملاء الفراء كتابه

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ١/ ٦٤ طبعة بيروت ١٩٦٨م .

(الحدود) في النحو « أن جماعة من أصحاب الكسائي صاروا إلى الفراء بعد موت الكسائي وسألوه أن يملي عليهم أبيات النحو ، ففعل ، فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض : « إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان ، والوجه أن يُقْعَدَ عنه ، فقعدوا ، فغضب الفراء وقال : « سألوني القعود فلما قعدت تأخروا . والله لأملينّ النحو ما اجتمع اثنان ، فأملى ذلك ست عشرة سنة »[١] .

وابن النديم أقدم من ترجم للفراء فيما أعلم . وكنت قد سجلت ـ قبل ثلاثين سنة ـ حَيْرتي[٢] في التوفيق بين نزعته إلى التيسير هذه وقولهم في ترجمته : « كان يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته ، يعني يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة »[٣] ويبدو لي الآن أنَّ التوفيق بينهما ممكن . فقد كان قعود أولئك النفر عن حلقته ـ استنكاراً لمذهبه في التسهيل ولمعارضته التيار ـ درساً قاسياً لا ينساه ، فمال إلى السلامة ، وأذعن لنزعة التعقيد فنثر في مصنفاته ألفاظ الفلاسفة .

ثم جاء الصاحب بن عباد ، فاطّلع على (كتاب الألفاظ) الميسر للهمذاني فقال : « لو أدركت مؤلفه لأمرت بقطع يده ولسانه ، لأنه جمع شذور العربية الجزلة المعروفة في أوراق يسيرة . فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب . ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ والمطالعة »[٤] .

كان طبيعياً ـ بعد هذا أن يتدنى أسلوب التأليف قليلاً قليلاً حتى وصلنا إلى بدعة المتون ، يكثف الماتن كلامه إلى درجة الإخلال أحياناً لييسر ـ بزعمه ـ استظهاره على الناشئين ، فإذا حفظوه عن ظهر قلب وضع بين أيديهم شرحاً لمتنه الذي يشبه رص الرموز بعضها إلى بعض ، فمتن للنحو ، وآخر للصرف ، وثالث للفرائض ، ورابع لمصطلح الحديث ، وخامس للفقه . . . ثم صار للحساب متن وللفلك متن . إلخ ، ولم يكف ذلك ، بل راحوا ينظمون هذه المتون على بحر الرجز أو غيره

---

(١) الفهرست لابن النديم ص٩٦ طبعة مصطفى محمد (المطبعة الرحمانية) .

(٢) في أصول النحو ص٩٩ (طبعة ثالثة سنة ١٩٦٤م) .

(٣) الفهرست لابن النديم .

(٤) إنباه الرواة ٢/ ١٦٦ وانظر الحاشية .

في (ألفيات) وغير ألفيات ، واضطرهم الوزن إلى تقديم وتأخير وحشو في العبارة فزاد ذلك في عسر الفهم .

لقد صدئت الملكات بعد فُشُوِّ هذا الأسلوب في كل علم ، ولم تكن الشريعة نفسها بمعزل عن هذا الداء ، وإلا فما بالنا اليوم نقرأ الشريعة في كتب محمد بن الحسن الشيباني والإمام مالك والشافعي وابن حزم وابن عبد البر والغزالي وابن تيمية وابن القيم والنووي وابن حجر . أولئك الرعيل ، فلا نجد عسراً ، بل لذة ويسراً ، فإذا انتقلنا إلى الحلقات الرسمية لتدريس الشريعة وجدنا المتون والحواشي والشروح والتقارير ، ومعظم كلامها في حل عبارة الماتن أو الشارح واعتراضات المحشي عليهما ، وبقي نصيب مسائل العلم ضائعاً في هذا الجدل العقيم ، وحين يضطر أحدنا إل (حاشية ابن عابدين) أو (متن سيدي خليل) (في الفقه المالكي) يستنجد بقرص الأسبيرين .

* *

كان المنتظر أن يُقضىٰ على هذه الأساليب في مطلع النهضة الحديثة إذ كان تثقيف الجماهير في أول مقاصد الدول ، وهذا يوجب نشر أصح التعابير وأشيعها وأقربها للأفهام وقد كان بعض ذلك ، لكننا ما نبرح إلى اليوم نرى في أكثر بلاد العرب أخذ طلاب العلوم الشرعية بتلك المتون وما عليها من شروح وحواش . ومن رحمة الله بطلاب العلم اليوم أن صار مدرسوهم يطمحون إلى التأليف وتدريس مؤلفاتهم ، وهذا مبشر بانحسار بلوى المتون في المشرق بالتدريج ، أما في المغرب فما زال متن (سيدي خليل) في الفقه المالكي وما عليه من شروح وحواش هو العمدة ، ولعل أطرف حكم يصدق على هذه المتون ما حدثني به الشيخ العربي العلوي رحمه الله ، وهو أحد كبار علماء المغرب ، ويعده المثقفون هناك شبيه الشيخ محمد عبده في نزعة الإصلاح والتحرر . قال : زار المغرب أستاذ من جامعة أجنبية ، فلما أنهى جولته في جامع القرويين توجه إليّ بأسئلة كان من بينها « أتدرسون اللاتينية أم اليونانية » ؟ فأجبته : لا حاجة بنا إليهما ، عندنا سيدي خليل .

* *

تلك إلمامة بِبَلْوى أعْصُرٍ خَلَتْ ، رَشَحَ منها إلى أيامنا رواسب أسلوبية هي في طريقها إلى الفناء بحول الله . ولكن ما حديث الأساليب في عصرنا الحاضر ؟ ما جناية التراجمة منذ القرن التاسع عشر ؟ ما أضرار وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة في إشاعة اللحن والركّة ؟ ما أثر الكتب المدرسية تقوم بتأليفها زمر ارتزاق ضعَفةٌ في اللغة والعلم ؟ بل ما عواقب ما ينشر في صحف ومجلات من أسطر عليها عناوين (قصيدة) أو قصة أو شعر منثور أو نثر مشعور في تراكيب متنافرة لا تحس لها طعماً ولا مغزى ولا معنى من قريب ولا من بعيد ، تقدم على أنها أدب حديث . . ميادين شتى لا أعرض لها الآن ولا شأن لي بها لأن ما ليس كلاماً ليس أدباً أو علماً بطبيعة الحال .

المثال الذي أعرضه اليوم كتاب فريد في غرائبه ، عرف في الشام معرفة محدودة قبل ثلاثين عاماً حين أُهدي إلى أفراد ، ثم نُسي ، ولم يعرف في غير الشام فيما أعلم :

في سنة ١٩٤٩م أهدى إليّ صديق علم أديبٌ شاعرٌ خطيبٌ فقيرٌ مغمورٌ ، كتاباً في آخره ما يشعر أن صاحبه ـ رحمه الله ـ زعيم فئة أنشأها باسم (صدى يعرب) هي التي أنفقت على طبع الكتاب ليعرف بمبادئها ، ويجب أن أبادر بالإشارة إلى أن المؤلف قوي في ملكته العربية ، وبذلك يباين كل الأمثلة التي نعرفها .

أما العنوان فهو (جبر القيمة) وعلى الحازرين أن يحزروا موضوعه ، وقد استبدل بكلمة (تأليف) المعروفة قوله : « تأدَّى من واضع الأخطاء » فلان .

وأما الإهداء فكان إلى المرحوم والده وكان زعيماً روحياً لطائفة قليلة العدد في الشام في أربع صفحات مطلعها[1] :

« أي أبي ، إن حنيني إليك لا ينتهي .

إنّي من أبره ، عرفت صاحب الأبد . . وعرفت كيف خلق الحنين . . . وأودعه وأوحاه في الجسد . . . فكرة ذات جدد ، أحد . .

---

(١) كل النصوص المقتبسة منقطة بتنقيط المؤلف نفسه .

وما صبرت عنك ، من بعد . . بعد أن أعياني الوجد . . . وأتعبتني ، أنت أن أجد بالجد . . . إلا لأني رحت في الاضطرار ، وفي إغلاق الحصار ، أعتمدك وأتئد وأعتقد . . . وأبصر في أعماقي كيف نتحد . . ـ ثم إذا أنت . . أصالة ذات . . . وكل صفات لا نقلاً ولا تقليداً ولا صناعة ذات وصفات . . .

وبذلك أكون أن تكون . . . فوجدتك من نقطة الفقد ، وحين البأس . . لحظة هي الظنون . . تهتف من عمق الوهد ، وغمر اليأس : إنني رجعت منك بالمنون . .

ولكن ماذا عسى أن أصنع . . وأنا ما أزال أهوي إليك . . آخر مني . . ـ أنا منه ـ وكلاً عني ، أنا عنه . . . آخر ما تزال له ذات . . . تحوم حولك وحولي ، أن تكون وأن لا تكون . . . إلخ » . وربما عللنا لنفسنا قائلين وما لنا ؟ إنها لغة بينه وبين أبيه .

فإذا قرأنا ما جعله مقدمة وجدناه توجّها بهذا العنوان :

المدّ الأعلى

كتاب المعرفة

الرفع الأعلى لثنائية كسر المعرفة البشرية

تحت جذر العرفان

وحاولت الوقوف على ما يريد من (المعرفة) و(العرفان) و(الرفع الأعلى) و(ثنائية الكسر) و(الجذر) فما أفلحت ، إذ وجدته يتكلم عن (الديالكتيك) ناقلاً قولاً مفهوماً لـ (ستالين) ثم مناقشاً له في غوص عميق ما استطعت إلا متابعة تعابيره دون إدراك كلي لفقراته . لكن انتهيت إلى أن الكتاب في الجملة يناقش آراء ستالين ومذهبه في أسلوب يزخر بمصطلحات لعل أكثرها من وضعه ، ونُقُول عن فلاسفة غربيين واضحة المراد ، ثم يلفها الغموض بمناقشته لها بأسلوب يوقع قارئه في دُوَار فغيبوبة[1] .

---

(١) بعد سنوات من عجزي عن فهم الكتاب ، كلفت طالباً واعياً قراءته بتأن ، ثم الاتصال بمؤلفه لسؤاله عن كل ما أشكل عليه ، ثم تقديم دراسة عن سبب غموضه واعتياص فهمه ، أهو كثرة المصطلحات=

ومن أقرب فقره إلى الوضوح ما بدأ به فصلاً عنوانه (سباق المآل) قال : « إن الجبرية ، من أنها جبرية عموم ، أو ناموس ، تعم طرائق الحول والطول يتوزع بينها الاختيار (الاختصاص) على أفراد النوع . . . فهي في جبريتها على النوع ، تتفرع حريات انتفاء واختيار ، يسلك الفرد ، من النوع ، منها ما يشاء . . .

نحن الآن ما نزال في مسألة المعرفة . . ونتعمد جهدنا أن نمسك ونكف عن تشعب مسألة الوجود . . .

فلا ضير من الصبر . . . ففيه كل الخير . . . وإنه لمن الجبر . . . إن هذا التعمد منا . . يمنعنا ، ما وسعنا الامتناع ، من بحث المضارعات والمصاحبات . . ولولا التعمد والصبر عليه . . لانقطع الكلام ، ورحنا نخاطب بالصمت من أعماق التأمل في المعجزة الواحدة . . . أم كل المعجزات . . من الإحاطة المبدعة . لقد رحمنا بالعقل ، ولكن أين الرحمة به من سعة الرحمة بما هو الجنون!!! »[1] .

وبعد ، فأينا لا يذكر ـ مع الفارق طبعاً ـ بعد سماعه هذه الصفحة ، شكوى ابن

= الشخصية أم شدة الإيجاز أم لشيء في ترتيب جمله أم ماذا ؟ فعاد الطالب بعد أسبوعين يخبرني أنه أجابه بعد ما عرف غرضه : يا بني ! كلفك أستاذك شططاً ، ولعله أراد عقوبتك على شيء من غرور ، إن الذين فهموا كتابي في العالم العربي كله لم يبلغوا سبعة أشخاص .

(١) ص٥١ . وهنا علق المؤلف على كلمة (العقل) بقوله في الحاشية : ونحن لا ولع لنا بالعقل . . فهو ، عندنا ، ضرورة للبشرية ابتدائية . . إنه اللجام مع الجماع . . في الحيوانية . . والبشرية الابتدائية . . أما في الانعتاق . . ومرقئ الحرية . . فالعقل تخلف وانطراح إنه القيد الذي يدول ويحول .

وأشير هنا أن أسلوبه في حواشيه واضح ، حتى لتقول : إن المحشى غير الماتن ، أو إن المؤلف حواشيه سوى الأداء غير غائب عن نفسه ، علق في أول كلامه في فصل (القضاء والقدر) ص١٧١ على كلمة (انتحال) بقوله في الحاشية : « إن المادية الديالكتية والمادية التاريخية قد ابتلعتا الإسلام انتحالاً كما ابتلعتا كل معرفة بالانتحال . . فعادت المعارف كما آمن الإسلام خطأ بالانتحار والانقلاب به إلى مادية أي ترسيب . . بمجرد نكران صاحب التعليم . . انظر الفهم المادي كيف هو في ضلال الانتحار ، يتوهم افتراق المسيحية عن الإسلام . . فالإسلام عنده ثورة مسلحة تنشد الحكم والسلطان (فهم المادية للجهاد) ، والمسيحية عنده استكانة وجماع مذلات . . .

قتيبة منذ ألف ومئتي سنة في مقدمته لـ (أدب الكاتب) حين وصف بعض متحذلقة عصره :

« له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ، فإذا سمع الغمر والحدث ألغز قوله (الكون والفساد) وسمع (الكيان) و(الأسماء المفردة) و(الكيفية) و(الكمية) و(الزمان) و(الدليل) و(الأخبار المؤلفة) راعه ما سمع ، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يَحُلْ منها بطائل . . . » .

ولكن على رِسْلِنا ، فلا شك أن في نفس الرجل معاني جساماً يريد بيانها ، ولا يكفي أن نقول : إن نفسه في ساعات تأليفه لم تكن في حال سوية ، فإن هذا لن يفسر لنا شيئاً ، وإذا كنت أنا لم أرجع من قراءتي كتابه بطائل فلا يمنع هذا أن يكون الكتاب ذاته حافلاً بما في نفس صاحبه . إن هذا المؤلف عينه رشح نفسه للنيابة قبل طبع كتابه هذا بست سنوات وطبع له مريدوه بيانه للمنتخبين ، وقالوا في تقديمهم له :

« انتخبوا من إذا رفع يمناه لباه وتنادى له ستون ألفاً من جميع هذه الأصقاع السورية » .

أما البيان ففي غاية من البلاغة والوضوح ، تقرؤه فتظن أنك تسمع صاحب (نهج البلاغة) في أسمى ساعات قريحته إشراقاً وروحانية يخاطب الناس من عل :

« بسم الله رب العالمين »

لقد رشحت نفسي للنيابة ، وإن ترشيحي لحجة لي عليكم لا أخلّيها من عنق أحدكم حتى يصير إلى الله فيحكم بيني وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

وبعد ، فلا منَّ لكم عليّ إن انتخبتم واخترتم ، ولكن الله يمن عليكم أن هداكم ، ولا عارفة منكم في عنقي فإنما صنيعكم لله الحق .

إني والله لمن خيار خياركم في الله الواسع الحق ، وإني والله لخير لكم من أموالكم وأولادكم وأنفسكم . ما قلت كذباً ولا منت ميناً .

ولقد تخلقت بأخلاق الله بعد أن بلوت ما أنعم الله به عليّ من الألم والعذاب في الحق ، يصيران إليكم علماً ورحمة ـ إن شاء الله ـ . . .

. . . لقد ـ والله ـ عشت منذ طفولتي وأنا أنكر بينكم ذاتي حتى ما عادت لي ذات ، إلا تلك التي غابت في الله خالصة إليه ، أمَّا ما كان من الشيطان فرددته عليه .

ولقد ـ والله ـ أدبني ربي بالتجربة والألم واعتراك الباطن ، وأدبني أبي بالنصيحة وبالحرمان والعقوبة فحسن ما شاء الله بأدبي ، حتى ما عادت لي حاجة بدنياكم فلا رآني الله أملك لنفسي داراً أو عقاراً أو شيئاً مما يملك الله سبحانه إلا احتسبته ذنباً لا ألقى الله به ولكن جهنم ، ولا ألقى به أحدكم ولكن اللعنة والعار . . .

. . . ولطالما خفضت جناح الذل لصغيركم ولفقيركم ووضيعكم ، ولطالما والله كنت أهبُّ واقفاً قائماً خادماً بين يدي ضعيفكم ـ على ضعفي وسقمي ـ حتى يرجع عني راضياً من الله حقّ الرضا .

تلكم بعض مناقبي وصفاتي ، شهادة ما تركت غيري يشهدها لي ، وشهدت بها لنفسي لتكون في عنقي إلى يوم القيامة . . . إلخ[١] .

أما بعد فمما شاع وقوبل بالتسليم أن الرجل يعرف من أسلوبه ، وأسلوبه هو الذي يترجمه للناس حتى قيل : « الرجل هو الأسلوب » والمسألة التي أطرحها :

أيمكن أن يكون قائل هذا البيان الانتخابي ومؤلف ذلك الكتاب الديالكتيكي رجلاً واحداً ؟

فإن كان ـ وقد كان ـ حقاً قول محلّلي النصوص المستنبطين منها ما شاؤوا من صفات أصحابها ونفسياتهم ، فما تفسير علم النفس الأدبي لهذا التباين في الفكر والروح والأسلوب ؟

ورحم الله امرءاً بدد الحيرة وكشف السر .

---

(١) في أول الكتاب اقتباس من البيان الانتخابي ، أرخه المؤلف بسنة ١٩٤٣ أي قبل تأليف الكتاب بست سنوات .

لغة الخبر الصحفي

مقالة نشرت ضمن بحوث مؤتمر الدورة التاسعة والأربعين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء ٥١ شعبان ١٤٠٣هـ/ مايو (أيار) ١٩٨٣
تحدث فيها عن لغة الأخبار في الصحافة متناولاً بالتصحيح والنقد بعض الأخطاء .

تنفق وزارات التربية والتعليم في العالم العربي مئات الملايين سنوياً ، لتزود الناشئين بعربية سليمة ، بها يكتبون ويقرؤون ويتحدثون بطلاقة . ومتى صاروا في سن المراهقة انضم إلى آثار المدرسين فيهم أثر الصحافة ؛ فإما نهضت بلاغتها بمستواهم وإما انحطت به فيما تنشر من ركاكات وأخطاء . . . ثم جاء أخيراً الجهاز الإعلامي الجديد : الإذاعة . فصرنا نلمس في غير ما قطر عربي ضعف بعض المذيعين في ثقافتهم عامة ، وفي لغتهم العربية خاصة ، شأنهم في ذلك شأن بعض الصحفيين ، حتى صارت الصحافة والإذاعة في بعض الأحيان أداة هدم ، تهدم بالليل كل ما تعب في بنائه المدرسون في النهار ، وطفقت الدول تنفق على الإذاعات والصحافة عشرات الملايين فهدم ما أنفقت في بنائه مئات الملايين .

من هنا كان خطر هذه الأجهزة عظيماً في الخير وفي الشر ، ولقد تصدى عدد من أولي الغيرة على اللغة للتنبيه على أخطاء شائعة منذ مطلع هذا القرن في مقالات متسلسلة في الصحف والمجلات ، نفعت في وقتها ثم جدت غيرها بتأثير الترجمة الحرفية والضعف بالعربية ، حتى لقد يئس بعض الغُير ، وقالوا : لا علاج على الأرض لهذا الوباء بعد أن قدموا خططاً مختلفة للإصلاح لم يستجب لها . أقول هذا وأنا أعلم صحفاً عدة في العالم العربي تولاها بلغاء ، وقاموا على سلامة لغتها ، فصارت مضرب المثل في نشر الفصحى بين العامة والارتفاع بمستواهم .

إن الصحافة وكل جهاز إعلامي سلاح ذو حدين منه النفع ومنه الضرر ، وأرى أن الإصلاح ممكن وأن العلاج في (ضمير) الصحفي والمذيع ، فهو الذي يسوق

صاحبه إلى أن يأخذ نفسه بإتقان لغته وتوخي السلامة لها ، وأن يقوي فيها بيانه وأداءه ، ولا حافز على الأرض أقوى من (الضمير) .

بهذا التفاؤل أبدأ حديثي عن لغة الصحافة خاصاً منها لغة الخبر[١] فقط .

الخبر أول ما يقصده قارئ الصحيفة أو المستمع إلى الإذاعة ، فوجب أن تكون العناية به صوغاً وأداء بالغة ، من حيث سلامة لغته وجودة أدائه ، وإذا كان لكل فن بلاغته فبلاغة الخبر هي في سرعة وعي القارئ أو السامع له دون عناء ، باللفظ السهل الموجز الخالي من التزويق أو التفخيم خلوه من الابتذال ، وألا يثقل الخبر بالعواطف السلبية ولا الإيجابية . وبعبارة ثانية أن يكون كالخط المستقيم : أقصر مسافة بين نقطتين : مراد الكاتب ووعي السامع أو القارئ . ولهذا أمور تعين عليه وأمور تعيقه .

فمما يعين عليه في رأيي أمران : قصر الجمل ، ومراعاة فعلية الجملة العربية :

١ـ قصر الجمل :

الجمل القصيرة أدعى إلى متابعة الذهن لها بيسر وراحة ، أما الجمل الطويلة فإما أن يضيع المقصود منها على القارئ أو المستمع وإما أن تسبب له ـ إذا اهتم بالموضوع ـ شيئاً من الإرهاق . وإذا كان الضرر من طول الجملة يسيراً على القارئ في صحيفة لإمكان إعادته القراءة والإمعان فيها ، فإن المستمع لا سبيل له إلى استعادة الخبر . هاكم مثلاً على خبر أذيع ونشر الشهر الماضي :

دعا وزير الخارجية الإيراني في تصريح أدلى به خلال توقفه في مدريد وهو في طريقه إلى نيكاراغوا ـ المشاركين في اجتماعات مكتب التنسيق التابع لمنظمة دول عدم الانحياز ـ إلى تأييد النضال الشعبي الذي تخوضه نيكارغوا ضد الاعتداءات السياسية والعسكرية والاقتصادية الذي (كذا) تقوم به الولايات المتحدة ضد نيكاراغوا[٢] .

---

(١) استعرت خمساً من نشرات الأخبار من مصلحة الإذاعة بدمشق لتكون الأمثلة منقولة بالحرف .

(٢) النشرة الثالثة في ظهيرة ١٠/ ١/ ١٩٨٢ .

هذا الخبر جملة واحدة بدأت بـ(دعا) ، ثم ترتبط بعضهاببعض بظروف وحروف جر حتى انتهت . وربما يخفف من حدتها إعادة الفعل (دعا) قبل قوله (إلى تأييد) الذي فصله عن الفعل (دعا) ٢٢ كلمة ، ومع هذا تظل الجملة غير مستساغة الطول .

٢ـ فعلية الجملة الخبرية :

تعنى الجملة العربية بالحدث قبل المحدث ، لذلك كثيراً ما يتصدرها الفعل . وحين تقوم أغراض بلاغية تدعو إلى العناية بالمحدث أولاً يقدمونه ، وهذا طبعاً غير وارد في الأخبار ؛ لأن الهدف منها إطلاع القراء أو المستمعين على الأحداث الجارية . وقد كثر الخروج على هذه البديهية في الأخبار وأكثر ما تشيع في موجزات الأنباء فقد جاء في النشرة السابقة : « الرفيق فلان . . . (وبعد ثماني كلمات) يقول في جريدة النهار . . . » ولو بدأ بالفعل (قال الرفيق : في جريدة النهار) كان أقرب إلى طبع العربية ، ولعل إلف الترجمة الحرفية السريعة مسؤول إلى حد عن تجاوز السليقة السليمة في مثل هذا .

ذلك بعض ما يعين على بلاغة الخبر ، أوحت به قراءتي لخمس نشرات حديثة ، ما تراكم في ذاكرتي من أمثال لها في غير قطر عربي . وأما ما يعيق هذه البلاغة ـ بلاغة الخبر ـ فأمور منها :

١ـ التلوث بآثار الترجمة الحرفية السريعة :

منذ القديم تسرب بين محرري الصحف ضعفاء بالعربية أقوياء في لغة أجنبية ، وتحرير الصحف ـ كإعداد الإذاعات ـ تلاحقه السرعة باستمرار ، فتقذف الجرائد إلى السوق كل يوم كلمات وتراكيب ركيكة ، ويتلقفها القراء المحدودو الثقافة ، فتشيع حتى ليقع فيها البلغاء من حيث لا يشعرون ، ثم يتصدى لها المطلعون الغُيُرُ على لغتهم بالتخطئة والإصلاح ، ولو استشار المحررون معجماً موثوقاً به ، أو أحد العلماء أو رجعوا إلى مصحح متمكن في صحيفتهم لخف الضرر .

لكن هذا أيضاً لا يقوم به إلا متعلم . ولكل زمان أخطاؤه وانحرافاته ، وأنا أعرض إلى ما وجدته من ذلك في نشرات الأخبار المذكورة ، ناظماً ما تشابه منها

تحت عنوان واحد .

٢ـ اضطراب الأزمان في الخبر الإعلامي الواحد :

الغفلة عن دقة المدلول الزمني للأفعال في اللغة العربية تربك قارئ الصحيفة .

وفي حيز نقل الخبر إلى الجمهور ، على الكاتب التزام صحة التعبير في أسهل أسلوب ، إذ لا مجال فيه للاستعارة والمجاز والأغراض البلاغية ، فلهذا مقامات أخرى .

إنك لتضحك إذا قيل لك : « أمس سيزورك فلان » . وقد تألف هذا من بعض الأروام الذين ينطقون كلمات بالعربية ، فنستعيدهم الكلام لنفهم ما يريدون ، لكننا لا نستسيغ أن نقرأ في صحيفة أو نسمع من إذاعة في بلد عربية مثل هذا الخبر :

« السيد الرئيس يتلقى اليوم مكالمة هاتفية من الرئيس اللبناني »[١] وكانت المكالمة قد تمت قبل كتابة النشرة بساعات فما معنى (يتلقى) هذه ، أو هذاالخبر « قوات الاحتلال الصهيوني تمنع قافلة للجيش اللبناني من العبور »[٢] . ويكون المنع حصل قبل يوم على الأقل . أو تسمع مثلاً في إذاعة مسائية : (في الساعة العاشرة من صباح اليوم يستقبل وزير الداخلية وفود المحافظات) . فتتبسَّم عجباً من الفوضى في استعمال الأفعال .

٣ـ الفصل بين المتضايفين :

المضاف والمضاف إليه بمنزلة الكلمة الواحدة[٣] ، فلا يفصل بينهما بالمعطوف

---

(١) النشرة الرابعة المسائية في ١٤/ ١/ ١٩٨٣ .

(٢) النشرة الثالثة في ظهيرة ٧/ ١/ ١٩٨٣ .

(٣) لدلالتهما على شيء واحد ، وقد أوقعت ضرورة الوزن بعض الشعراء قديماً فعطف على المضاف قبل مجيء المضاف إليه للضرورة ولا يقاس عليها .

وقع ذلك للأعشى في قوله :

إلاّ عــــلالَــــةَ أو بُــــدَا ... هَــةَ ســابــحٍ نَهْــدِ الجُــزَارَهْ

ولأبي زبيد الطائي في قوله :

يـا مَـنْ رأىٰ عــارضـاً أُسرُّ بِـهِ ... بيـــنَ ذراعَــيْ وجبهــةِ الأســدِ

وحرف العطف ؛ فمن الخطأ الذي تروجه الصحف والإذاعات أمثال قولنا : (على مديري ومعلمي المدارس الحضور . .) أو (رفع مديرو وموظفو وعمال شركة كذا مطالبهم إلى وزارتهم . . .) والصواب أن يقال : « على مديري المدارس ومعلميها » أو « رفع مديرو شركة كذا وموظفوها وعمالها مطالبهم » من ذلك ما جاء في خبر « تشكل خطورة على ما أسماه أمن ووجود إسرائيل »[1] . وفي خبر آخر (ومناقشة وتقويم الأحداث)[2] وظاهر أن الصواب « ما أسماه أمن إسرائيل ووجودها » و« مناقشة الأحداث وتقويمها » إن الصحف والإذاعة مسؤولتان عن شيوع هذه الركاكة حتى فسدت تعابير الناشئة والكبار من كثرة التكرار ، فمهما ينبه المدرسون إلى الخطأ صباحاً ، تعقبهم في المساء المذيعة أو الصحيفة بالخطأ نفسه فيرسخ الخطأ وينسى الصواب ، وما أشك في أن أول من أذاع هذا الخطأ صحفي أو مذيع اشتغل بالترجمة الحرفية عن الفرنسية مثلاً .

٤ـ تتابع الإضافات :

تستسيغ العربية تتابع إضافتين مثل : « خالدٌ تلميذُ مدرسةِ الميدانِ » وإن كان قولك : « تلميذٌ في مدرسة الميدان » أسوغ وأخف ، فإن زدت إضافة ثالثة (كتاب تلميذِ مدرسةِ الميدان) وقع الثقل ، فإن زدت إضافة رابعة فأنت في بحبوحة الثقل وغايته . كما جاء في خبر « إنَّ وزراء دفاع دول معاهدة وارسو سيعقدون اجتماعهم »[3] وزاد كرم محرر الخبر فأتحفنا بخامسة حين قال : « لجنة وزراء دفاع دول معاهدة وارسو تتابع اجتماعاتها في براغ » .

ولو فصل هذه القناني الخمس المركوز بعضها فوق بعض عمودياً فقال (لجنة وزراء الدفاع لدول معاهدة وارسو) لزال المحذور ، فإذا كانت الترجمة الحرفية هي التي جنت على المحرر لأن الخبر مترجم فما عذره في قوله (. . . يصدر مرسوماً

---

(١) النشرة الثالثة في ظهيرة ١٠/ ١/ ١٩٨٣ .
(٢) النشرة الثالثة في ظهيرة ٧/ ١/ ١٩٨٣ .
(٣) النشرة الثالثة في ظهيرة ٧/ ١/ ١٩٨٣ .

بتحديد موعد إجراء انتخابات مجالس المحافظات . . .)[1] . فهل هذا مترجم أيضاً ؟ للترجمة الحرفية بلاء على ملكة المترجم بحيث لا تمضي على معاناته لها مدة حتى تفسد ملكته ويقضي على أصالتها . وله أن يستغني عن كلمة (إجراء) لعدم ضرورتها فيقول (. . مرسوماً بتحديد موعد لانتخابات مجالس المحافظات) إذن لأراح واستراح وعافى الناس من الركاكة . ومثل ذلك ما جاء في خبر « أمين سر منظمة طلائع حرب التحرير »[2] .

٥ـ عدوى الخطأ :

مضى على بعض الأقطار العربية عشرات السنين تتداول مصطلحات عربية صحيحة لمقابلاتها الأجنبية ، ثم سرت إليها عدوى من غيرها الذي ما يزال مبقياً على ركاكات المترجمين :

من ذلك قولهم أمين عام التنظيم، مدير عام السكك الحديدية، وهذا أنفع تركيباً من تتابع الإضافات ؛ إذ ليس في التركيب إلا إضافتان وهذا ليس بمستنكر ، إنما المستنكر إضافة كلمة (عام) النكرة إلى (التنظيم) وإلى (السكك) إذ ما معنى (عام التنظيم) و(عام السكك) ؟ إن الإضافة تكون لمعنى وهذه لا معنى لها، فليس شيء اسمه (عام التنظيم) ولا (عام السكك) فحين تقول (أمين وزارة الداخلية) مثلاً تدرك أن لكل من الإضافتين معنى مفهوماً فـ (وزارة الداخلية) واضحة المعنى ، وكذلك (أمين وزارة الداخلية) ، أما حين تقحم بينهما كلمة (عام) فيسقط التعبير لأن (عام وزارة الداخلية) لا مفهوم له ولا يدل على شيء . وهذا لحن وركة تسربا إلى بعض الأقطار حديثاً ، مع أن الصواب ما كانت درجت عليه من قولها (الأمين العام لوزارة الداخلية) وهو التركيب العربي السائغ الواضح الدلالة الذي كنا نستعمله منذ أزمان في عدد من الأقطار . وما أظن أني سمعت مثل هذه الهجنة النابية إلا من قريب في إذاعة الأردن وسورية . والأمل أن نلتزم السلامة التي كنا عليها فنقول: « الأمين العام لوزارة الداخلية » و« المدير العام للسكك الحديدية » :

---

(١) موجز النشرة الأولى في صباح ١٠/ ١/ ١٩٨٣ .

(٢) النشرة الرابعة في ١١/ ١/ ١٩٨٣ .

ومما وقع فيه العدوى أيضاً كلمة (كادر وكوادر) ، فمنذ أكثر من أربعين عاماً استعمل كلمة (ملاك وملاكات) لأجهزة الدولة والمؤسسات ، فملاك وزارة أو شركة مجموع الدرجات فيها لموظفيها ولعددهم فنقول مثلاً : « ملاك وزارة العدل مئتا قاضي صلح ، ومئتا قاضي بداية واستئناف وتمييزه وخمسون مفتشاً وخمسمئة كاتب من درجة كذا و . . . » ووقعت النكسة من سنوات قريبة فصرنا نسمع من بعض الصحفيين والإذاعات بـ (كادر وكوادر) الفرنسية بينما لا يزال الاسم الرسمي كلمة (ملاك) ، جاهلين ما قطعته بلادهم من خطوات ، كذلك عاد إلى الظهور ـ بدل الاتفاقات ـ الكلمة الأجنبية (بروتوكولات) على سماجة اللفظة وثقلها . وكنت لا تقرأ في الصحف إلا (مديرين) جمع المدير ، فأخذ بعضهم في الصحف والإذاعات يقول (مدراء) وهو جمع خطأ جداً ، إذ لا نقول في جمع مشير : مشراء ولا في جمع معيد : معداء ، وسألنا صاحب الجريدة مرة عمن كتبها في جريدته فامتعض وقال : هو مسجل ويتطوع أحياناً في إعانة بعض المحررين . . . وكانت إذاعة دمشق وصحفها منذ إنشائها ، حتى الآن تقول (سينشأ الضباب صباحاً) ، ثم تتسرب إليها في فترة قصيرة كلمة (الشبورة) بدل (الضباب) وهي من دارجة بعض قرى لبنان ثم رجعت كلمة (الضباب) بفضل يقظة مسؤول فيما أقدر . أكتب الله علينا أن يقود مخطئنا المصيب ؟

وجاء في نشرة واحدة مرة (أذاع راديو بيروت) وفي نشرات بعدها (قالت إذاعة بيروت) أهناك اتجاهان في إذاعة واحدة ؟ أحدهما يقول : إذاعة بيروت . والآخر يقول : راديو بيروت ؟ .

ما زلت أقول : إن (الضمير) أشد ما نحتاج إليه في أعمالنا .

٦ـ كلمات تدل على غير المقصود منها :

جاء في نشرة صباحية في ١٩٨٣/١/٩ (ليقوموا بواجباتهم) والكاتب يريد (بالواجب عليهم) ، واجبي ما يجب لي عليك ، والواجب عليّ ما ينبغي عليّ القيام به تجاه غيري والفرق بينهما جلي .

وجاء في نشرة أخرى ، ما سبق للعرب أن أقروه في سابق اجتماعاتهم[1] ، اللفظ يدل على ما سبق اجتماعاتهم ، وهم لا يريدون هذا ، بل يريدون ما قرروه في اجتماعاتهم السابقة . وفرق ظاهر بين التركيبين .

وجاء فيها أيضاً ، وقد فشلت سلطات الحكم العسكري الصهيوني في مساومته . وهم يريدون (وقد أخفقت) ، لأن معنى الفشل : الضعف ، ومعنى الإخفاق الخيبة وعدم النجاح . والفرق بينهما واضح .

وجاء في خبر آخر قولهم : « إن التضخم المالي سيرتفع بمعدل ١,٤ بالمئة عن نفس المعدل في التضخم خلال العام الفائت »[2] .

كلمة نفس لها معنيان : الأول واحدة من النفوس ، والثاني : التوكيد ، فأما المعنى الأول فتقدم فيه كلمة (نفس) تقول : « نفسُ الرجل طيبة » وفي المعنى الثاني : التوكيد ، يجب أن تتأخر (نفس) حتماً . تقول (رأيتُ الرجلَ نفسَه) ، وفرق كبير بين (نفس الرجل) و(الرجل نفسه) وتقديم المؤكِّد على المؤكَّد لحن تسرب من الترجمة الحرفية وعدم الانتباه إلى اختلاف اللغات في استعمالاتها ، والصواب أن يقال (سيرتفع بمعدل ١,٤ في المئة على المعدل نفسه خلال العام الفائت .

أما قولهم : وهذا إن دل على شيء فهو يدل على اهتمامنا : فهو تركيب درج منذ سنوات وهو مترجم حرفياً عن تركيب أجنبي يوردون مثاله خطأ في مقام تقوية الدلالة على شيء ما وهو هنا الاهتمام . والذي ينعم النظر في التركيب يجده على العكس ، فهو يعني أن هذا لا يدل على شيء ؛ فإن كان فيه دلالة على شيء ما ؛ فرضاً ـ فهو يدل على الاهتمام . وهذا مع ركته مضعف للمعنى المراد ، والصواب إسقاط الجمل الشرطية كلها بحيث يبقى « وهذا يدل على اهتمامنا » . فإن أردنا الحصر قلنا : « وهذا إنما يدل على اهتمامنا » .

---

(١) النشرة الثالثة في ١٠/ ١/ ١٩٨٣ .

(٢) النشرة الأولى في ٧/ ١/ ١٩٨٣ .

٧ـ متفرقات مما يشيع الآن في الصحف والإذاعة :

أتكلم هنا على خمس كلمات لا يجوز إغفال التنبيه عليها لتسربها إلى الخاصة أيضاً فهي من الخطأ الحديث :

يتمركزون ويتمحورون : « يتمركزون[١] فيها في العربية (يركزون) ولا داعي إلى إقحام الميم ثم الاشتقاق منها فليست من أصل الكلمة .

وفي خبر[٢] : « دعا إلى نبذ التمحور حول الأنباء القطرية » هذه أبشع من الأولى ومعناها غير صحيح : هم يريدون معنى (يدورون حول الأنباء القطرية) وأتوقع أن يتجنب الإعلاميون هذه الركة ؛ حفاظاً على لغة الصغار والكبار حتى العلماء منهم ، فإن التكرار الكثير للفظ الهجين على السمع يزلقه على ألسنتهم من حيث لا يشعرون ولا يريدون .

أكد على :

وجاء في خبر واحد « . . التي أكدت عليها المؤتمرات . . . يؤكد يومياً على التزامه »[٣] يتكرر هذا اللحن في كل صحيفة ونشرة تقريباً فيصعب إحصاؤه ، والجملتان السابقتان من خبر واحد وقد ملَّ المصلحون من الإشارة إلى هذا اللحن . في كل صحيفة ونشرة تقريباً فيصعب إحصاؤه، فالفعل (أكد) ينصب مفعوله بنفسه ، وإقحام (على) بعده هجنة قبيحة، وتكرارها هو الذي أشاعها، والصواب أن نقول : « أكدتها المؤتمرات » و« يؤكد يومياً التزامه » أي بإسقاط (على) بعد (يؤكد) .

أي :

في خبر « لم يتقرر بعد عقد أي قمة »[٤] منعت دخول أي طالب[٥] « تعارض أي

---

(١) النشرة الأولى في ١٠/ ١/ ١٩٨٣ .

(٢) النشرة الرابعة في ١١/ ١/ ١٩٨٣ .

(٣) النشرة الأولى في ٢٠/ ١/ ١٩٨٣ .

(٤) النشرة الثالثة في ٧/ ١/ ١٩٨٣ .

(٥) النشرة الرابعة في ١١/ ١/ ١٩٨٣ .

علاقة مع الكيان الصهيوني »[1] هذه الاستعمالات لم تقتصر على الصحف والإذاعة ، بل عمت بها البلوى حتى تسربت إلى الكتب المدرسية والثقافية ، بل إلى اللغة الدارجة ، التي يتفاصح بها ، وصارت كالوباء الذي عم وطم ، وأصلها الترجمة الحرفية الخاطئة (Any) الإنكليزية . وهذا المعنى لا ينطبق على (أي) العربية التي حصر استعمالها في الاستفهام والشرط والموصولية والكمالية . والكلمة الصحيحة التي يجب أن تحل مكانها هي كلمة (كل) قبل المضاف إليها أو كلمة (ما) الدالة على التنكير بعدها فنقول : « لم يتقرر بعد عقد قمة ما » ، « منعت دخول كل طالب » : « تعارض كل علاقة مع الكيان الصهيوني » .

مع :

كلمة (مع) تأتي بعد جملة تامة الدلالة ، وتعني مصاحبة ما قبلها لما بعدها ، فمجيئها قبل أن تتم الجملة هو محط الإنكار . وفي العربية أفعال تدل بطبيعتها على المشاركة ولا يأتي فاعلها واحداً ، بل متعدداً مثل (اجتمع ، اتفق ، تشارك) تقول : اتفق سليم وخالد . واجتمع البائع والسمسار . تشارك المجتمعون . فإن قلت (اتفق سليم) كان قولك غير جملة . لأن الفاعل لم يستوفَ بعد ، ولا تأتي هنا كلمة (مع) البتة بل لا بد من معطوف بالواو فنقول (اتفق سليم وخالد) . وعلى هذا فقول بعضهم (اتفق سليم مع خالد) لحن غير جائز . جاء في الأخبار هذه الجمل (وكان قد اجتمع مساء أمس مع السفير الأمريكي)[2] والصواب اجتمع هو والسفير) أو (اجتمع بالسفير) وجاء أيضاً : « للالتقاء مع المسؤولين . . . لعقد اجتماعات مع المسؤولين »[3] والصواب (للقاء المسؤولين . . . لعقد اجتماعات بهم) . وأعجب مما تقدم خبر جاء فيه « قال وزير الخارجية الإيراني : إن حرب بلاده مع العراق هي حرب دفاعية » أكانت إيران والعراق تحاربان معاً في صف

---

(١) النشرة الرابعة في ١١/ ١/ ١٩٨٣ .

(٢) النشرة الثالثة في ١٠/ ١/ ١٩٨٣ .

(٣) النشرة الثالثة في ١٠/ ١/ ١٩٨٣ .

واحد حتى نقول (مع) ؟ هذا ما يفيده الخبر عربياً . إن المكان هنا لحرف (اللام) لا لـ (مع) التي عكست المعنى . والصواب : « إن حرب بلاده للعراق هي حرب دفاعية » . كذلك قولهم : « اتفقت إنكلترة مع فرنسة) خطأ لأن (اتفقت إنكلترة) ليست جملة فلا تأتي بعدها (مع) ، و(اتفق) فعل مشاركة ينبغي أن يكون فاعله متعدداً ، والصواب (اتفقت إنكلترة وفرنسة) .

هذا :

تكثر كلمة هذا في الأخبار والإذاعات والبيانات ، مفردة مبتدأ لا خبر له ، بل لا معنى للكلمة البتة ، وحتى الآن لا نعلم المراد منها ، ولا خبر لها قد يفهم من قرينة أو كلام سابق . فمن عرف خبرها ومعناها فليفدنا أفاده الله ، هي كالنقطة بين كلامين ، استحدثت قريباً جداً ، فلتمسوها (هذا الإذاعية) لا معنى ولا إعراب . هي صوت والسلام .

وبعد . فكل منا في مجاله يستطيع إزالة التشويه عن صفحة البيان العربي الناصعة ، وقد أنيط بنا جميعاً ـ صحفيين ومذيعين وجامعيين ومجمعيين ومدرسين ومسؤولين ـ رفع لواء العربية ووقايتها من كل ضعف ، وضمائر المسؤولين عن الصحف وسائر أجهزة الإعلام هي التي تجعل منها أداة هدم أو أداة بناء .

ثلاث كلمات للاستعمال العام

مقالة نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة
الجزء ٥٤ شعبان ١٤٠٤/ مايو (أيار) ١٩٨٤ .

قبل ثلاث سنين ، كنت أستمع إلى أخبار لبنان في إذاعة مسائية تنقل خطاباً مسجلاً لرئيس لبنان آنذاك الأستاذ سركيس . يحذر فيه شعبه من أسواء (التشرذم) وهو يعني تبعثر الشعب في أحزاب وشيع وطوائف وآراء بعضها محلي وبعض وافد ، وكل ينتمي إلى جهة غير جهات الآخرين ، ولهجة الخطاب لا تخفي ألماً مريراً شعر به كل ذي قلب نبيل .

تتابعت أحداث لبنان ، كل حدث يُنسي بفداحته ما قبله ، ونُسي خطاب الرئيس فيما نسي ، لكن كلمة علقت بذاكرتي لقوة تصويرها محنة لبنان ، ولإيحائها بالعيش الضنك المنتظر ، تلك هي كلمة (التشرذم) ، ولدتها المحنة نفسها ، لا تجدها في معجمات اللغة ، بل لم أسمع بها قط قبل المحنة ، فهي (مولدة) بل (محدثة) ، لكنها في صميم العربي الصحيح الفصيح ، وأكاد أقول العربي العريق وإن تأخر زمنه : رجعت إلى المعجمات فوجدت كلمة واحدة هي (الشرذمة) لها معنى واحد عام هو (القطعة من الشي) فقالوا لـ « ثوب شراذم » أي قطع . و« ثياب شراذم » أي ممزقة خلقة ، وأنشدوا لساعدة بن جؤية :

فخرت وألقَتْ كلَّ فعلٍ شراذما   يلوح بضاحي الجلد منها حدورها[1]

وأنشد ابن بري لراجز لم يسمه :

جاءَ الشتاءُ وقميصي أخلاق   شراذمَ يضحكُ مني التَّوّاق[2]

« والتَّواق ابنه » .

ثم صارت الكلمة تطلق على الناس لتدل على جماعة قليلة منهم ، لأن معناها من

---

(١) ديوان الهذليين ٢/ ٢١٨ الحدور جمع حدر وهو الورم .
(٢) لسان العرب (شرذم) .

الأصل يدل على القليل ، ونزل القرآن المجيد معبراً بها عن جماعة المؤمنين مع موسى ، وأكد دلالتها على القلة في الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٦/ ٥٤] .

ومضى أكثر من أربعة عشر قرناً لم يشتق منها ، بل لم يضف إليها استعمال جديد فيما أعلم ، حتى أحوجت حال لبنان اليوم إلى تعبير عنها جاءت به سليقة عربية سليمة ، فكان (التشرذم) وضعاً موفقاً وتوليداً سليماً ، لا شائبة فيه ، وعلى زعم تقرير بعض الصرفيين عدم الاشتقاق من الجامد ، درج العرب منذ صدر الإسلام على الاشتقاق منه فقالوا[1] (تَزَنْدَقَ مِنْ زِنْدِيْق) و(مُدَرْهَمٌ من الدِّرهم) . وقالوا (دوَّن تدويناً) من كلمة ديوان . ومن الجورب قالوا : (جَوْرَبَهُ فتَجَوْرَبَ) وفي تاريخ الطبري « مَرْزَبَ بهرا مسيس على مرو »[2] أي صار مرزباناً عليها . وقالوا من المنجنيق : (جنق جناح الكعبة) ، وكلمة علي بن أبي طالب المشهورة « مهرجونا كل يوم » « ونيرزونا كل يوم » لما قدموا إليه حلوى يوم المهرجان ثم يوم النيروز . . إلخ . كل ذلك كان صدر الإسلام في المئة الأولى في أعرب عصور الاحتجاج . فالتشرذم ـ على هذا ـ تدخل المعجم العربي من أوسع أبوابه ، وتحوج الحالة اليوم إلى الاشتقاق منها فنقول : « شرذمهم البلاء فتشرذموا » (شرذم) الفعل المتعدي و(تشرذم) مطاوعه اللازم .

ما أردت مما تقدّم ترحيباً بالمولد ، فالمولد لم ينقطع منذ نشأة اللغة ، والكلمات تتوالد كلَّ يوم ، وعلى كل لسان ، تلبية لحاجة التعبير عما يجد ويجد ، والتراث حافل بما أضاف المتكلمون إلى اللغة ، لكن ذلك كله صادر عن سلائق سليمة ، فكان من صميم اللغة ، وسجلوه لأنه خليق بالتسجيل . ومنذ مئة سنة والنهضة في حداثتها يضيف المؤلفون كل يوم مصطلحات في ميادين مختلفة من العلوم والآداب والفنون وكل ما يترجمون ، مصطلحات حازت القبول لأنها قيست على كلام العرب بسليقة عربية ، فهي من كلام العرب .

---

(١) انظر كتابي (في أصول النحو) ص٤٨ من بحث الاشتقاق .

(٢) تاريخ الطبري ٢/١٢٩٨ طبعة ليدن .

أسوق هذا بين يدي كلمات ثلاث ، معانيها المعجمية متقاربات ، حتى ليظن - لأول وهلة - أنهن مترادفات ، وبنا اليوم افتقار إليهن جميعاً للتعبير عن أحوال اجتماعية نعانيها بعد أن عجبنا منها بادي الرأي ، اثنتان منها وضعتا في الأصل للدلالة على طوائف من الحيوان ، ثم أطلقت على طوائف من البشر ، لضرب من الشبه . وإحداهن تداولها الناس حديثاً في لغتهم إذ رأَوْها معبرة عن بعض حالاتهم الاجتماعية اليوم .

تلك الكلمات هي : (الغَوْغاء) و(الطَّغام) و(الرّعاع) ، نحتاج إليها لنصل إلى مصادرها الصناعية : الغوغائية ، والطغامية والرعاعية .

والأولى طرحت نفسها للاستعمال في كلام الناس والصحف ، وعبر بها بعض المثقفين عن أفعال المتزعمين في الشرق والغرب الذين يتملقون العامة في خطبهم أو أحاديثهم ، فيقولون ما لا يعتقدون ، استغلالاً لهم ووصولاً إلى مآرب نفعية ، وليغرُوا السفهاء بخصومهم المصلحين الذي يجاهدون الجمهور بأخطائه وانحرافاته وغفلته ، كما عبروا بها عن زملاء لهم باعوا أنفسهم من المتزعمين ، فسخّروا ذممهم وأقلامهم ومواهبهم لتهدم ما بنت أمتهم من قيم تضبط السلوك العام .

فلننظر إلى هذه الكلمات واحدة واحدة .

١ـ أما الغوغاء فأول ما وضعت ـ فيما أرى ـ للجراد « بعد أن ينبت جناحه ويخف للطيران »[١] أو هي « لشيء يشبه البعوض ولا يعض ولا يؤذي لضعفه[٢] ثم استعملت إضافة لذلك لما يصدر عن هذه الحيوانات « من صوت وجلبة » قالت المعجمات : « وبه سمي الغوغاء من الناس وهو مجاز[٣] ، إما تشبيهاً لهم بهذه الأجناس من الحيوان لضعفهم ، وإما من الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم .

وفي سجعات الزمخشري في (أساس البلاغة) : « غمار الغوغاء غبار البوغاء » .

---

(١) تاج العروس ولسان العرب .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

وجرى الاستعمال في إطلاق : (الغوغاء) على السفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر كما قال ابن الأثير عند تفسيره قول عبد الرحمن بن عوف لعمر بن الخطاب : « يحضرك غَوْغَاءُ النّاسِ »[1] وفي خطبة السيدة عائشة في حجر مكة عقب قتل الخليفة الشهيد عثمان بن عفان : « أيها الناس إنَّ الغَوْغَاء من أهل الأمصار وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة ، اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس . . . إلخ »[2] فعبرت عن الجماعات التي ألَّبها عبد الله بن سبأ اليهودي ، (الغوغاء) وبقي هذا المعنى متداولاً حتّى اليوم[3] .

٢ـ وأما كلمة « الطَّغام » فتدرجت في الاستعمال كما تدرجت كلمة (غوغاء) ؛ أطلقت على ضعاف الطّير والسِّباع ، ثم أطلقت على ضعاف البشر . وعبارة المعجمات : « الطَّغام أوغاد الناس وأرذالهم »[4] فإذا رجعت إلى كلمة (الرذل) فسروها لك بالدُّون والخَسيس والرديء ، والوَغْد فسَّره الصحاح « بالدنيء الذي يخدم بطعام بطنه » فتلاحظ أن قصدهم مال إلى ناحية خاصة من الضعف هي في المكانة والخلق .

وسمع الأزهري العرب تقول للرجل الأحمق : (طِغَامَة) والجمع طَغام مثل : (نِعَامة ونَعَام)[5] . وأقدم ما استشهدوا به كلمة علي بن أبي طالب في إحدى خطبه « يا طغام الأحلام » ، وذلك أن الطّغام لما كان ضعيفاً استجازوا أن يصفهم به كأنه قال : « يا ضعاف الأحلام ، يا طاشة الأحلام ، معناه من لا عقل له ولا معرفة »[6] . هذا في المئة الأولى للهجرة ، وأنشد أبو العباس فيما نقل اللسان

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٦٨ مطبعة الاستقامة سنة ١٩٣٩م . وانظر (عائشة والسياسة) ص٨٥ طبعة ثانية دار الفكر ـ بيروت .

(٣) آخره ما قرأته في هذه السنين ما قاله الأستاذ مصطفى مرعي في حفل استقباله عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٩م .

(٤) التاج .

(٥) لسان العرب .

(٦) النهاية لابن الأثير .

والصحاح قول الشاعر :

إذا كانَ اللبيبُ كذا جهولاً فما فضلُ اللَّبيبِ على الطَّغامِ ؟

كما أنشدوا لشاعر آخر :

وكنتُ إذا هَمَمْتُ بفعلِ أمرٍ يعارضني الطَّغامة والطَّغامُ

وقال ذو الرمة :

كأنَّ صياحَ الكُدرِ ينظرنَ عقبنا تراطن أنباطٍ عليه طَغَام[1]

والطريف أن أصحاب الصحاح واللسان والتاج جميعهم سجلوا كلمة « يعقوب »يحظِّر على الناس اشتقاق فعل أو اسم من هذه المادة في قوله : ولا ينطق منه (من الطغام) بفعل ولا يعرف له اشتقاق ، ثم تقرأ بعد ذلك في تاج العروس مثلاً « والطغومة الدناءة . . . يقال تطغَّم عليه إذا تجاهل ، كأنَّهُ فَعلَ فِعْلَ الطغّام » ثم استدرك الزبيدي على صاحب القاموس قائلاً : « ومما يستدرك عليه هو من طغام الكلام » فإذا صح أن الطغومة هي الدناءة وما إليها ، وأن « تطغَّم عليه » معناه تجاهل ، فقد أُفرد له فعل وعُرف له اشتقاق ، وكان كلام يعقوب[2] في عدم معرفة فعل له ولا اشتقاق ـ مقصوراً على نفسه ومن حفظَ حجةٌ على من لم يحفظ .

٣ـ أما (الرَّعاع) فلا تبعد عن زميلتها (الطَّغام) في الدلالة على الضعف ، بل إن مصدرها (الرّعْ) معناه السكون ، وإذا كان في (الطَّغام) يلاحظ الضعف دائماً فالرعاع أضعف منها ، إذ هي في الأصل تدل على السكون .

لم تذكر المعجمات إطلاق هذه المادة على الحيوان كما في أختها ، غير ما قرأت في مادة (همج) في مختار الصحاح : الهَمَجُ بفتحتين جمع همجة ، وهي ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها .

---

(١) هذه إحدى روايتين ، والذي في الديوان : « عليه قيام » والأولى أجود ، وإياها روى ابن منظور في لسان العرب . الكَدَرَ : القطافي لونها غبرة ، العقب : ما يبقى من الماء ـ ديوان ذي الرمة ص٦٨٨ ـ نشر المكتب الإسلامي ١٩٦٤م .

(٢) يعني ابن السكيت . نقله الجوهري في الصحاح (طغم) .

ويقال للرُّعاع الحَمْقَى إنما هم « هَمَجٌ » ، أما المعنى الذي نصت عليه دواوين اللغة كالصحاح ومختاره فهو « الرُّعاع الأحداث الطَّغام » ، وفي أساس البلاغة : « فلان رَعاعةٌ من الرّعاع وفي اللسان « الرَّعاع الأحداث ، ورَعاعُ الناس سُقّاطهم وسفلتهم » ، وفي تاج العروس : « هم الرذّال الضعفاء » . لكن اللسان والتاج يزيدان على ما تقدم من تعريف قولهما : « وهم الذين إذا فزعوا طاروا » وهذا يحقق أنهم أحطُّ من الطَّغام ، إذ لم أجد هذا الوصف (وهم الذين إذا فزعوا طاروا) في (الطَّغام) ولا في (الغوغاء) ، ولا ننسى إضافةً إلى هذا أن اللسان والصحاح زادا كلمة (الأحداث) في أول التعريف ، فتميزت الرُّعاع بانفرادها بهذين الوصفين : الحداثة والفزع .

فلننظر في الشواهد التي ساقها أصحاب المعجمات وهي لا تعدو أربعة : فأولها في السبق الزمني ما رواه الزمخشري في أساسه : فلان رعاعة في الرَّعاع ، وفي الحديث : « إنِّي أخاف عليكم رُعاعَ الناس » وقدجهدت في البحث عن مصدر هذا الحديث في دواوين الحديث فلم أنجح ، ومعناه صحيح ، فأشقى البلاد ما تسلَّط فيها رعاعها .

وثاني الشواهد ما رواه اللسان من قول عمر : « إنَّ الموسم يجمعُ رَعاعَ النَّاسِ . . » وعقَّب شارحاً ؛ أي : غوغاءهم وسقّاطهم وأخلاطهم ، والواحدُ رُعاعة .

وثالثها ما قاله عثمان حين تنكَّر له الناس وهو يقصد الجموع التي ألَّبها عليه ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودي : « إن هؤلاء النفر رُعاعٌ غثرة » والغثرة : السَّفَلَة .

والشاهد الرابع قول علي بن أبي طالب : « وسائر الناس همج » .

وبعد : فلعلي قريب من الصواب حين أجعل الغوغاء أقوى الأصناف الثلاثة في الشر ، يليها الطَّغام ، وأضعفها الرعاع ، وزعماء الشر والفتن والفساد من محترفي السياسة وغيرهم لا يستغنون عن واحد منها ، يجندون الأصناف الثلاثة معاً ، الأول لقوته في الشر ، والثاني لضعف عقله فهو أسهل في الانقياد ، والثالث أتباع كل ناعق يجرون وراءه بملء بطونهم ، والاستعمال الحديث وسع مدلول (الغوغاء) فاحتوى

الثلاثة معاً ، والصَّواب التفريق بينها .

**

شهدت بلادنا العربية في الأعوام السبعين الماضية أنواعاً من الانتفاضات والتظاهرات والهياجات ، أكثرها انفعالي جهادي ، وبعضها افتعالي سياسي ، فأما الأولى فتكاد ـ لسمو الحافز عليها ـ تكون نضالية طبيعية شنت على الأجنبي المحتل ، استجاب لها أكثر طبقات الشعب ، عدا قلة ممن يحومون حول رأس الهرم ، وأما الثانية الافتعالية فهي الوصوليون من محترفي السياسة ، إما قلقلة لفئة متسلطة يريدون الحلول محلها ، وإما تثبيتاً لأنفسهم في مراكز وثبوا عليها يخافون أن يزيلهم عنها منافسوهم في التقرب إلى المحتلين ، يثيرون العامة على خصومهم الذين لا يفتؤون يكرهونهم إلى الأمة ، فتشرذم فئات من الشعب شراذم ، وراء كل متزعم شرذمة ، وتفتح خزائن الأموال العامة لتهدر على الأتباع تألفاً لهم ، وليتقووا بهم على المنافسين وأحزابهم . هيجاتٌ أنواع ، وتجمعات زاحفة لا يعقل أكثرها ما يدفعون إليه ، لا ينفع معهم وعظ ولا توعية ولا منطق ، والنافخون في النار يستغلون ـ أكثر ما يستغلون ـ هذه الغفلة والسذاجة في الجماهير ، فيتلعبون بهم متملقين أهواءهم وجهالاتهم في لقاءاتهم لهم وخطبهم وإذاعاتهم . . . أحوال جديدة تقتضي أسماء ومطابقة لها ، لذا جاؤوا إلى المصادر الصناعية فقالوا (غوغائية) تعبيراً عن أحوال عدة في التصرف والفكر والعقلية ، من جملتها تملّق العامة في أفكارهم وأهوائهم وحتى معتقداتهم . ومنها إسفاف بعض المثقفين وهبوطهم إلى مستوى السَّفلة في نظمهم أو كتابتهم أو خطبهم فهذا ينظم أو يكتب للمراهقين مدغدغاً الغرائز في الأحداث لتروج بضاعته فينتفع بالكسبِ الحرامِ فيقول الناس : أديب غوغائي أو طَغامي أو رُعاعي : بقدر الدركة التي انحطَّ إليها ، وذاك متى حانت الانتخابات أخذ يطوف في الأحياء متقرباً من شطارها ، وأولي الزعامة فيها ، مستجدياً عونهم باذلاً ما يرضيهم من ماله وذمته وأمانته وسائر قيمه . . . وهناك أصناف أخرى من هذا الطراز في كل مجال يقابل اليوم بكلمة (الغوغائية) نظراً لاتساع المدلولات في صيغة النسبة عندنا ما يقال له بالفرنسية مثلاً la demagogic ثم

الرَّعاعية لأحطّ الدركات ، ندل بهذه الكلمات اليوم على استعداد أو اتجاه أو تفكير أو تصرف ما ، مما يتسم بالغوغائية ، لا على طبقة خاصة كما كان في القدم إذ نجد اليوم عالماً يتصرف تصرف الغوغاء وأستاذ جامعة واتجاهه ـ في كسب شعبية رخيصة عند طلابه ـ غوغائي ، بل لا أجد توافقاً حتمياً بين العقلية والعلم ، فالعقلية مزاج أو طبيعة واستعداد ، والعلم اكتساب ، وتميز .

هناك إذن سياسة غوغائية ، وتفكير غوغائي ، وتصرف طَغامي ، ومنطق وأخلاق وما إلى ذلك توصف بإحدى تلك الكلمات .

كلمة (الغوغائية) في سبيلها إلى الترعرع وأختاها مطروحتان للاستعمال ، ولكل مقام تعبيره الخاص ، ولا يجوز بحال أن يكون نظرنا إلى تظاهرة طلاب أو موظفين محدودة الهدف كنظرنا إلى تجمعات تساق من وراء ، لا تعرف لماذا تُساق ؟ ولا إلى أين ؟ غير هتافات وشتائم لقنتها تلقيناً بليل .

هذه الكلمات من حقها النزول إلى الاستعمال العام ، وإذا احتيج إلى إحداها في فن أو علم حدد المقصود منها فصارت مصطلحاً خاصاً دون المساس بمعناها العام في بيئة . وللمعجميين تسجيل المعنيين فيقال مثلاً : « الغوغائية لغة أو استعمالاً معناها كذا ، وهي في مصطلح علم الاجتماع مثلاً كذا » ، جرياً على السُّنَّة المألوفة في كل علم عند تعريف مصطلحاته .

خطأ مشهور وصواب مهجور

بحث ينتصر فيه الأستاذ للغة العربية الأصيلة ، مؤكداً على أن الحقّ أولى أن يتّبع ، ولو كثر أنصار الباطل .

لم يشر إلى مكان أو زمان نشره

لعل من أغلى الحكم التي يتناقلها العامة في مجالسهم وأشباههم في بعض الوجوه قولهم : « خطأ مشهور خيرٌ من صوابٍ مهجورٍ » ، يواجهون به من يتصدّى لإصلاح غلط شائع بين الناس في فعل أو قول أو تصرف ما ؛ فيبوء المصلح الناصح المتحمس الغيور بالاستنكار والخجل ، ويفوز مرتكب الخطأ بنعت الحكمة والتعقّل . وأمثل بأربع كلمات مما يشيع اليوم :

١ـ نشر قبل سنوات الشيخ محمد هاشم رشيد الخطيب رسالة في منكر كان شاع جديداً مدة بدمشق وأنهى جملته بقوله : « . . فلا حَوْلَ ولا قوّة إلا بالله » على ما يشيع عادة عند أكثر الناس . فعلق الشيخ محمد الكافي من العلماء المقيمين بالشام وبها توفي وكان تونسي الأصل :

« قوله هنا : لا حول ولا قوة إلا بالله » خطأ ، والصواب أن يقول : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون » فقوبل قول الناقد بالاستغراب من الجمهور مع أنه هو الصواب لكنَّ الشيوع جرى بالخطأ .

٢ـ كلما ذكر ذاكر القطر السوري مال لسانه غالباً إلى الخطأ ، فشدّد الياء ولفظها بالألف المصورة (سوريّا) ، فإذا نُبّه إلى الصواب في نطقها بالتخفيف وإبدال التاء بالألف هكذا (سورية) استغرب قولنا .

٣ـ كانت وسائل الإعلام في الشام تقول (ميزانية الدولة) أو (ميزانية المؤسسة) بهذين المصطلحين الواضحين العربيين ، فغابا هذه الأيام في بعض المناطق العربية ، وحل محلها (كادر وكوادر) الفرنسيتان حين كثر في موظفيها خريجو المدارس الأجنبية .

٤ـ كانت بعض الصحف تحذّر الكتاب من استعمال كلمة (أخِصّائي) بدل (اختصاصي في جراحة القلب مثلاً) أو (في الهندسة) . . إلخ لأن معناها شنيع رديء فزادت لوحات المكاتب من هذا الغلط ، كأن الدعوة كانت إلى استبدال الأدنى بالذي هو خير ، ظناً أنهم يتفاصحون . . . إلخ ما هنالك .

* *

ليست كلمتي اليوم في شيء من هذا ، بل في زلَّة سها فيها رواة قدماء فضلاء حين أثبتوا في تآليفهم لكتب النصوص الأدبية المختارة ، أخطاء ، نقلها خالف عن سالف ، صارت هي التي تأخذ تلاميذنا باستظهارها على خطئها ، ونُبه بعضهم إلى خطئها فأخذته العزة بالإثم ، فافتعل تعليلات صناعية لا أساس صحيحاً لها ، ولو اعترف بخطئه وبادر إلى التصحيح كان أفضل اعترافاً بالحق وحماية للغة من الإفساد .

تلك التي في أكثر طبعات ديوان امرئ القيس ، حيث ضبطَتْ مطلعها بالفاء ، وهو خطأ فاضح :

قِفَا نَبْكِ من ذكرىٰ حبيبٍ ومنزلِ　　بسِقْطِ اللِّوىٰ بين الدَّخولِ فحوْملِ

وجمهرة المشتغلين بالأدب حتى اليوم يَروونها بالفاء خطأ : (بَينَ الدَّخُول فحومَلِ) التي لقنونها في الحداثة كما في أكثر النسخ المطبوعة منذ حياة الشيخين الإمام الشِّنْقيطي والزَّوْزني ، أولَ من عُني بطبع شروح المعلقات فيما أعلم .
والظاهر أن ما آمن به الاقتصاديون اليوم ، أن (البضاعة الرديئة تطرد من الأسواق البضاعة الجيدة) ليس قاصراً على الاقتصاد ، بل تسرَّب إلى ميادين شتى . ومسألتنا اليوم من أشهرها عند أهل اللغة .

* *

معروف عن الأصمعي ـ رحمه الله ـ أنه يتحرى في السَّماع ، ولا يعتمد من الروايات إلا ما خلص عنده من الشوائب ، ووثق بضبط راويه وعدالته . وهنا نراه مستمسكاً بعلمه وملكته في العربية ؛ فقد ابتدأ أولاً بمخطوطه بشأن (بين) ، ما

طبيعتها اللغوية ؟ ما استعمالاتها المختلفة في كلام العرب ؟ فلما لم يظفر بشاهد صحيح عنده عن العرب يشبه ما ورد في رواية الفاء لم يقف عندها قط .

أرجع إلى شروح المعلقات ، فأبدأ بشرح المعلقات وأخبار شعرائها للشنقيطي ، فقد جاء فيه :

(. . . وقوله « بين الدخول فحومل » على رواية الفاء أنكره الأصمعي ، لأنه لا يقال (هذا بين زيد فعمرو) (وقد صحت الرواية(!) بالفاء وإن كانت رواية الواو أشهر .

قال ابن السكيت : إن رواية الفاء على حذف مضاف ، والتقدير (بين أهل الدخول فحومل) وقال خطاب : إنه على اعتبار التعدد حكماً والتقدير [بين أماكن الدخول فحومل] ، وهما موضعان .

والذين نصروا هذا القول اصطادوا له علة (مفتعلة) لا أساس لها ، فزعموا أن (الدخول) مواضع عدة ولا بأس بالبدء بنظرة الأصمعي في ردّ رواية الفاء :

١ـ المعروف المألوف من كلام العرب أن (بين) تفصل بين شيئين أو أشياء متجاورة ، وهذه المتعاطفات في هذه الأبيات الثلاثة بالفاء بالترتيب المذكور أسماء لأعلام أماكن معروفة .

٢ـ ومعناها نص على الترتيب المتتابع ، والمعطوف بالواو نص على وجود مصحوبها في هذا الموضع فقط .

٣ـ والعطف بالواو نص على وجود مصحوبها في هذا الموضع فقط .

فظهر أن رواية الفاء لا تصح إلا على تأويل المفرد بالجمع . وأزيد : أنه لا بد ليصح هذا الاحتمال الضعيف أن يكون بيدنا مصور يبين أماكن المواضع التي إلى يمين (سقط اللوى) وأخرى إلى شماله ، وهو ما لا سبيل إليه .

ولأذكر كلمة الأصمعي بحروفها :

قال الأصمعي في كتاب (التصحيف) :

« . . . تكلَّم الناس في قوله « بين الدخول وحومل » ، ولا يكون (فحومل)

لأنك لا تقول : (بين زيد فعمرو) وهذا سمعه الزيادي من الأصمعي ، فسألت ابن دريد عن الرواة فحكى ما قال الأصمعي ولم يزد عليه ، فسألت أبا بكر محمد بن علي ابن إسماعيل فقلت: قال الأصمعي : لا يجوز أن يقول : (رأيته بين زيد فعمرو) ، وكان ينكر (بين الدخول فحومل) ، فأملى عليّ الجواب فقال : « إن لكل حرف من حروف العطف معنى ، قالوا وتجمع بين الشيئين نحو (قام زيد وعمرو) فجائز أن يكون كلاهما قاما في حالة واحدة ، وأن يكون قام الأول بعد الثاني ، وبالعكس . والفاء إنما هي دالة على أن الثاني بعد الأول ولا مهلة بينهما ، فقال الأصمعي ـ وكان ضعيفاً في النحو ، وقد أجاب فطنة ـ لأنه كان ذا فطنة[١] . انتهى .

ثم جاء شارح آخر للقصائد العشر (المعلقات) للتبريزي[٢] ممن اختار رواية الفاء في مطلع قصيدة امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فحوملِ

ومشى على أذيال من قبله فقال :

اعتراض الأصمعي على رواية الفاءِ يمكن أن يجاب عليه بأن (الدَّخول) هو عدة مواضع ، فسِقْطُ[٣] اللِّوى هو هذه المواضع ، وبذلك حُلَّ الإشكال!!

وقد رُدَّ هذا الجواب آنفاً ولم يحلّ . ثم جاء شارح آخر فلم يزد شيئاً على أنصار رواية الفاء فعلق على هذا الموضع محاولاً ما حاولوا فقال :

« مبنى اعتراض على شيئين : الأول أن (بَيْنَ لا يُضاف إلاّ إلى متعدد ، وهذا التعدد إما أن يكون بالتثنية ، نحو : « جلستُ بين الرجلين » أو بعطف مفرد على مفرد ، بحرف يقتضي مصاحبة أولهما لثانيهما أو ثانيهما لأولهما نحو : « جلست بين زيد وعمرو » .

الثاني أن واو العطف قد تقتضي مصاحبة المعطوف للمعطوف عليه ، وفاء

---

(١) شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ط دمشق ٤/ ٢١ .
(٢) شرح المعلقات العشر ص٢٤ ، ط دار الفكر بدمشق ١٩٩٧م .
(٣) لعله يريد (الدَّخول) فسها .

العطف لا تقتضي ذلك .

الجواب عن هذا الاعتراض التأويل في (الدخول) أي . . . إلخ بجعله مواضع متعددة ، فبقي الإشكال حيث هو .

ولأذكّرْ بشيءٍ من مكانة الأصمعي وقيمة حفظه وأمانته عند أهل الحديث خاصة ، فقد عرف عنه امتناعه عن تفسير ما يتعلّق بهما تورعاً ، فلذلك ضرورة في مثل بحثنا :

سأل أبو قلابة الأصمعي عن كلمة (سَقَب) في قول رسول الله : « الجارُ أَحَقُّ بسَقَبِ جاره » فقال : « أنا لا أفسر حديث رسول الله » ، ولكن العرب تقول : « السَّقب : اللزيق » .

وسئل عن قول النبي ﷺ « جاءكم أهل اليمن وهم أَبْخَعُ نفساً » قال : يعني « أقتل نفساً » ثم أقبل على نفسه كاللائم لها : ومن أخذني بهذا ؟ وما علمي به ؟ »

وكان يتقي أن يفسر القرآن على طريق أهل اللغة[١] .

وأكثر سماعه من الأعراب وأهل البادية . . » .

وكان المبرد يقول : كان الأصمعي أسد الشعر والغريب والمعاني[٢] .

أما المحدثون فقد قال التَّوْزيّ : كنا عند الأصمعي وعنده قوم قصدوه من خراسان ، وأقاموا على بابه ، فقال له قائل منهم : « يا أبا سعيد إن خراسان ترجف بعلم البصرة ، وعليك خاصة ، وما رأينا أصح من علمك » .

فقال الأصمعي : « لا عذر لي إن لم يصحّ علمي ، دع من لقيت من العلماء والفقهاء والرواة للحديث والمحدثين ، لقيت من الشعراء الفصحاء (فعدّهم . . .) ثم قال : وأولاد الفصحاء فعدّهم . . ثم قال : وما عرف هؤلاء غير الصواب ، فمن أين لا يصحّ علمي ؟ وهل يعرفون أحداً له مثل هذه الرواية ؟ » .

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ١٥/ ٢١١ ، ط١ دار الفكر بدمشق ١٩٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ١٥/ ٢٠٥ .

وكان الأصمعي صدوقاً في الحديث . عنده ابن عون وحماد بن سلمة ، وحماد ابن زيد وغيرهم ، وعنده القراءات عن أبي عمرو بن العلاء ونافع و . . . و . . . إلخ .

وسئل عنه أبو داوود فقال : « صدوق » . بل مذهبه « أن من روى حديثاً فيه لحن فقد كذب لأن الرسول لم يكن يلحن » .

ومن قول الشافعي فيه : « ما رأيت في ذلك العسكر أصدق لهجة من الأصمعي » وما عبَّر أحد عن العرب بأحسن من قتادة والأصمعي »[1] .

أخبر أبو أمية الطرسوسي : سمعت أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يثنيان على الأصمعي في السُّنَّة ، ويروون قولته المشهورة ، « من روى لحناً في حديثٍ فقد كذب » وليس بعد هذا التوثق والتشدّد احتياط . وزُكِّي الأصمعي من أعلام المحدّثين خاصة الأكابر .

* *

وبعد ، فقد كان هدف هذا البحث الوصول إلى طمأنينة في جزئية ضئيلة :

هل قال امرؤ القيس في مطلع معلقته (بين الدَّخول وَحَوْمَلِ) أو (بين الدَّخول فحومل) كما يرويه خطأً ناشرو الأخطاء والمتسرعون ؟

---

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٠٦/١٦ .

كلمة حياد

مقالة يرد الأستاذ فيها على ما كتبه مارون غصن عن (النحت وسيلة لتوسيع اللغة)

ويعلّق كذلك على ردِّ كلٍّ من الأستاذين سليم الجندي ، والمستشرق كرنكو على المقالة نفسها

نشرها المجمع العلمي بدمشق ، المجلد ١٤/ الجزء الأول/ كانون الثاني وشباط لعام ١٩٣٦ ص١٤٧

سبق لهذه المجلة أن نشرت مقالاً للخور أسقف مارون غصن بعنوان (النحت وسيلة لتوسيع اللغة) « ص٣٠٠ من المجلد الثالث عشر » غفلاً من التعليق والرد ؛ ثم نشرت رداً لأحد أعضائها الأستاذ سليم الجندي ، ورداً آخر للمستشرق الفاضل كرنكو (انظرهما في ص٣٥٩ ، ٤٢٩ من هذا المجلد أيضاً) . ثم عاد صاحب المقال الأول فرد على الأستاذ الجندي رداً[1] وددنا لو ظفر بنظر أعضاء المجمع قبل النشر .

وما كان للأستاذ الجندي ولا للمستشرق الفاضل ـ وهما ما هما علماً وفضلاً ـ أن يردا على المقال المذكور لولا أن مهد له المكان في مجلة المجمع العلمي . وفي نظر الناس : أن ما ينشر فيها ، يُتلقّى على أنه أصل يحتذى في البلاغة والضبط والتحقيق ، وقد غاب كل هؤلاء عن مقال الأب الفاضل ، ولم يمنع ذلك أولياء المجلة من نشره .

فلا عجب إذن ، إن نحن خاطبنا القائمين بالمجلة لا صاحب المقال . ولنا من سعة صدورهم وبعد مداركهم ألا يضيقوا بكلمة الحق ذرعاً ، وأن يكونوا ـ حيث هم في أنفسنا ـ حراساً أمناء على الحق ، وعلى سلامة هذه اللغة الكريمة .

* *

---

(١) انظر ص٤٥٨ من المجلد الثالث عشر .

(١) ـ أشار الأب الفاضل على الأستاذ الجندي أن يقرأ مقال الأستاذ التنوخي المنشور بعد مقاله حيث يقول : « وعجيب أن تنتقد هذه الأوضاع بقسوة وتعقب بضيقِ صدر . . . إلخ » وأنا أود أن يقرأه الأب الفاضل نفسه ـ لا الأستاذ الجندي ـ من أوله بإمعان ، فهو عليه لا له ، وهو في الانتصار للفصيح ، بل للفصيح المهجور أيضاً . وكل القراء عجبوا من إشارة الأب إليه : فهو يندد بمن انتقدوا لفظة (طِربال) لناطحات السحاب وكلمة (إرزيز) للتلفون ، وهما من الفصيح المتروك ، اقتُرحتا لتحلا محل كلمتين دخيلتين الأولى مترجمة والثانية أعجمية .

أفمن ينتصر لحلول الفصيح الممات محل المعرب والدخيل المألوفين ، يصح أن يشد كلامه أزر رجل يقول : تماثيلخانات ؟

أيها المنكحُ الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان ؟

أم إذا أقرّ الأستاذ الجندي باستخدام العرب للنحت في مواضع قليلة ، كان من ذلك إلزام له بجميع ما طلع علينا به الأب الفاضل ؟

إن العرب نحتوا كلمات عربية لتراكيب عربية ، ولم يخلطوا فارسية بكردية ، ولا تركية بيونانية . ولو فعلوا لما بقيت بهجة لغتهم إلى الآن على ما يسوء كل عدو ، ولما ادخرت في طبيعتها من القوة والجمال ما يسخر بكل دعوة هدامة ، ويصمد لكل مصيبة باطنة وظاهرة ، وإذن لاستحالت إلى ما يشبه رطانات المالطيين .

(٢) ـ توسع صاحب المقال في اللغات التي غير أهلها أبجديتها كالرومانية والأرمنية والمالطية ولغة المصريين القدماء! ـ رجوع حتى إلى العهد الهيروغليفي ـ والأتراك والأكراد وأمثالهم .

وقد استعصت هذه الفقرة ـ بحمد الله ـ على الإبهام ولعلها هي المقصودة من كل ما كتب الأب الفاضل ، ولعلها هي المقصودة أيضاً في كل ما سيكتب : غير الأتراك والأكراد والمالطيون أبجديتهم العربية ؛ فتعالوا أيها العرب فاصنعوا صنيعهم . هذه هي الدعاية التي أشفق القراء على المجلة أن تكون مصدرها ، وعلى أعضاء المجمع أن يغفلوا عنها فيكونوا إليها جسراً من حيث لا يشعرون ولا يريدون .

وإلا فأي علاقة لكلام في النحت بتغيير الأبجديات ؟ ولقد صنع هؤلاء الأقوام بلغاتهم هذا الصنيع تعصباً على العربية ، واستجابة للجامعة الآرية التي تربطهم بالأقوام اللاتينية . أيلجأ الأقوام إلى رابطة عفت عليها آلاف السنين فيبعثونها ، ونعطي نحن بأيدينا فنلقح جسم لغتنا القوي بأفتك الأمراض ؟

وهذه اللغات لغات لا ماضي لها في تاريخ الحضارة ، أعرقها في القدم لا يمتد وراء بضعة قرون . وهي بعدُ ضئيلة الشأن لا تذكر إلى جانب لغتنا ؛ ولو أن لها بعض ما للغة العرب من التاريخ المجيد لعضت عليه بالنواجذ ، ولشحت به شح الكريم بعرضه .

فشا في هذا العصر التعصب الأعمى للقوميات ، وصار أرباب كل لغة ـ مهما انحطت ـ يرونها في السماك وينقونها من الدخيل مهما عز عليهم . ولقد فرط الأتراك والفرس في كثير من جمال لغتهم ورونقها ليحفظوا عليها خلاصها من الدخيل ، فكيف يستساغ لأصحاب اللغة العربية ألا يتعصبوا لها ؟ بل كيف لا يضيقون بكل دخيل أياً كان نوعه ، وفي قديمهم ما لو نبشوا عنه لخلصت لغة اليوم من كل كلمة أجنبية . والأمل معقود بمجمع مصر ودمشق وغيرهما من المجامع أن تضطلع جميعاً بهذا الأمر إن شاء الله .

(٣) ـ كذلك الفقرات التي عنون لها بقوله : (إدخال آلاف من الكلمات المنحوتة في لغات كانت في نشأتها خالية منها) . ص٤٦٠ وفيها من التهويل ما فيه : إذ إن أمثلته كلها للغات في دور النشأة ، ولا كذلك اللغة العربية : فإن لها خمسة عشر قرناً تفيض بأقوى عناصر الحياة والاستغناء ، فما بها من حاجة لكلمات مركبة من ضمائر فارسية ومشتقات تركية أو لاتينية . وقد كان المستشرق الفاضل الأستاذ كرنكو قال للأب غصن : « إن مثل هذه المركبات المنحوتة لا تأتلف مع روح اللغات السامية عامة واللغة العربية خاصة . ثم إنه لا حاجة إلى إدخال أمثال هذه المنحوتات . إن الطلاب الذين أتاحت لهم الفرص أن يدرسوا المؤلفات العلمية القديمة في اللغة العربية قد عجبوا كل العجب كيف استطاع المؤلفون من العرب أن يضعوا المصطلحات الفنية للألفاظ الإغريقية في كتب الرياضيات والعلوم

الأخرى . . . إلخ »[1] .

(٤) ـ وهنا أكثر من القياس مع الفارق في القسم الذي توجّه بهذا الإرهاص : « تحويلات جوهرية فجائية في معجم بعض اللغات . . . » فقد قال الأب الفاضل :

« إن المجمع الملكي المصري قد تجرأ كل التجرؤ لإغناء اللغة العربية ، ولاسيما أنه (كذا) عمد إلى عدة صيغ كانت سماعية من عهد العرب الأقدمين إلى أيامنا فجعلها قياسية (أقول : ما دخل العرب الأقدمين بالسماع والقياس ؟ هذا شيء كان بعد في عصر التدوين) مثلاً صيغة فِعالة للدلالة على الحِرَفِ ، حكم في صوغها صوغاً قياسياً من كل فعل ثلاثي ـ وصيغة فَعَلان للدلالة على التقلب والاضطراب ، حكم في صوغها من كل فعل لازم مفتوح العين . . إلخ . . فهل خشي المجمع غضب العرب الأقدمين . . أليس تحويل صيغة واحدة من السماع إلى القياس أشبه بإدخال مئات من الكلمات الجديدة التي لم ينطق بها العرب في المعجم العربي فجأة ؟ » اهـ

وجوابنا على سؤاله هذا : لا ، ليسا سواء :

إن المجمع الملكي لم يأت بجديد فجأة ، بل هو عمل ونبش وحقق واستقصى ، فوجد قواعد جعلها جمهور النحاة سماعية وعدها بعضهم قياسية ؛ فرأى الرخصة ، وأخذ بقول القياسيين منهم مع علمه علم اليقين أنه لم يتحكم في اللغة أحد ، لا من هؤلاء ولا من أولئك ، بل كل الأمر أن بعض الكلمات لم يصل إليهم كل من الصيغ مطردة فيها من السماع ، فمن هنا قصروا الأمر على السماع ، وآخرون وصلت إليهم أو اعتقدوا بوجودها وإن لم تصلهم ولم يقم مانع عندهم من اطرادها فترخصوا واتسعوا بالقاعدة . وهي بعدُ ، مبنية على الكلام العربي الفصيح ، مستوحاة من روح العربية الواضحة .

فأين منك عمل المجمع ـ ولأكثر أعضائه عمر طويل قضوه في التبحر في أسرار هذه اللغة حتى امتزجت روحها بروحهم ـ حين بحث طويلاً ثم نظَّم بحثه ، ثم أتى ببراهين ، ثم خرج بالنتيجة على الناس فإذا بها حارس جديد يحفظ سلامة اللغة ، وإذا بها دليل واضح على أن باللغة من الغنى والخصب ما يتسع لحاجات كل زمن .

---

(١) ص٤٢٩ من المجلد المذكور .

بشرط أن يلي منها هذا الأمر العالمون المخلصون . نعم لو لم يكن أكثر أعضاء المجمع وخاصة الذين اضطلعوا بهذه الأبحاث على ما وصفت لأُبنا منهم بسفسطة باطنها التخبط وظاهرها التبحر في اللغات قديمها وحديثها من لاتينية ورومانية ومالطية ويونانية . . شأن كل عمل يليه غير أربابه ويدعيه غير أهله .

(٥) ـ وقال حضرته ما نصه : « بعد كل هذه المقدمات يجرؤ وينكر إمكان إغناء اللغة العربية بمئات ، بل بآلاف من الكلمات المنحوتة من جذور عربية مثل : أربيد وأبربرجل بل من جذور أعجمية مثل فسيولوجية . . أو من جذرين عربي وأعجمي مثل نفسولوجية ؟ . . . » .

وما لنا لا نتعصب للغة حافلة بخير الآداب في خمسة عشر قرناً فنطهرها من الأسواء والمشوهات ونحفظ عليها رواءها وسلاستها ، وقد رأينا من الأقوام من لا يحسب شيئاً في تاريخ الحضارة ، قد فرّط بجمال لغته لينفي عنها الدخيل .

هذا وقول الأب عن المجمع الملكي : « جعل كثيراً من الصيغ السماعية قياسية ، وبهذه الواسطة إغناء اللغة بغتة بآلاف من الكلمات الجديدة . . إلخ غير صحيح . فليست الكلمات جديدة بل هي في المعاجم وإن لم نكن نستعملها نحن ، والفقرة الأخيرة « من الجملة » أعني « بهذه الواسطة إغناء اللغة بغتة بآلاف من الكلمات الجديدة من جذور اللغة نفسها أو من لغات أجنبية » ليست من عمل المجمع في شيء وهو منها بريء وما كان ليفكر فيها وأولى مواد قانونه تقول : « على المجمع الملكي أن يحافظ على سلامة اللغة العربية » .

(٦) لقد جهدنا أن نعرف الألفاظ التي قال صاحب المقال إنها دخلت في عصر المأمون والأمويين في الأندلس ألفاظاً دخيلة في الإدارة والفن والعلم . . فما رأينا فيها جميعاً أشباهاً (للتماثيلخانات) بل رأينا الأمر على العكس : رأينا عرب الأندلس عربوا فيها حتى الأعلام من أنهار وجبال ووديان ومدن وهو غاية ما يظهر به الكريم من اعتزاز بأصله ولغته .

أما تحدي الأب للأستاذ الجندي ليأتيه بتعريب أخصر وأدل وأفصح من (اربرجل إلخ) ففي غير موضعه ، إذ لا لزوم له فلغة العلم في مدارسنا منذ عشرين سنة

استساغت أن تقول : ذوات الأربع ، ذوات الأثداء) وهما لدلالتهما على أصل المراد ـ خير من مسخهما في كلمة منحوتة . وإن ثلاث كلمات عربية بهذه الرشاقة لأسهل ألف مرة على اللسان العربي من كلمة اربرجل وتماثيلخانات . وإن الأب ليعلم ـ وهو المتبحر باللغات ـ أنه ليس كل اصطلاح في لغة ينقل إلى لغة أخرى كلمة واحدة دائماً ، وقليل من إنصافه كاف ليريه آلافاً من تعابير مركبة لكلمة واحدة أجنبية .

* *

كم كان خليقاً بالأب الفاضل ـ إذا كان لا بد أن يدعونا إلى التقليد ـ أن يعمد إلى وسائل القوة ومظاهر الكرامة والاعتداد بالنفس ، فيضرب لنا من تركية وألمانية وإيطالية وفرنسة والفرس مثلاً في تعصبهم للغاتهم وقومياتهم . وفي تنقية ألسنتهم وتطهيرها من الدخيل مهما راق وحسن .

إن ما يدعونا إليه (غصن) هو الموت لا يخفى على أحد ، ولقد تبرم بنشر هذه الدعاية في مجلة المجمع العلمي كثير من الفضلاء الغُير وتناولوا أعضاءه باللوم بل لقد أبعد بعضهم في إساءة الظن ، وقد كانوا يرونه أبعد عن إسفاف أو ريبة . وقد وقع الآن ما وقع ، إن عمداً وإن خطأ ، فللمجمع أن يدفع عن نفسه[1] ما لصق بسمعته لأنه يقوم من الناطقين بالضاد مقام الإمام من المصلين ، فعليه ـ في سبيل حماية اللغة ـ ألا يخرج على خطة هو سنها وهو أول من دعا إليها .

ولا يرضينَّ لنفسه أن يكون دون بعض المستشرقين ذوداً عن لغة القرآن وأن يكون فيهم من هو أحمى منه أنفاً وأخلص قلباً وأشد استماتة .

---

(١) إن مجلة المجمع العلمي حلبة رحبة للبحث الحر والمناظرة العلمية الخالصة ، ولا تخشى المجلة على اللغة العربية الحصينة باتساعها واشتقاقها من آراء الكتاب ، فإن الآراء تتمحص بنار البحث ، فالزبد منها يذهب جفاء ، وما ينفع الناس يمكث في الأرض .
وبما أن حضرة الأب مارون غصن قد استشهد بالأستاذ التنوخي في مقاله الذي فتح باب البحث والجدل ، ويرى كاتب هذا المقال أن لا حقَّ لحضرة الأب بهذا الاستشهاد ، أشير على الأستاذ التنوخي أن يبدي في موضوع النحت رأيه في مقال خاص سينشر في العدد التالي .

ب ـ في النحو

هل في النحو مذهب أندلسي ؟

شكك الأستاذ في أن يكون هناك مذهب أو مدرسة
بصرية أو كوفية أو بغدادية ، فكيف أندلسية ؟
بحث نشره معهد الدراسات الإسلامية في مدريد
عام ١٩٥٩م .
ومنه أفكارٌ في كتابه (من تاريخ النحو)

إذا وجدَ المختصون في علمٍ ما فائدةً ومتعة حين يخلون بأنفسهم إلى تراجم من سبقهم في هذا العلم ، فإنَّ متعتهم بتاريخ العلم نفسه أحفل وأعظم .

إننا نثني عادة على من يؤلف لنا في حياة عالم إذ يتيح لنا أن نعايشه فنعاين جده ودأبه ، ونلذُّ نضاله لكشف الغامض ودفع العلم إلى الأمام ولو خطوة ، ونجد الأسوة في استهانته بالعراقيل والمعوقات ، ووقوفه للزمان والحساد والخصوم والجاهلين ، وإن في حياة كل عالم من هذا لنصيباً ، لذلك نشكر لهذا المؤلف ما يسَّر لنا من لذائذ سامية .

لكن المُسهم في تاريخ العلم لا يحصل على الشكر والثناء في وقت قصير ، وقد يقتضيه سطر واحد يخطه في تاريخ العلم من الجهد وطول العمل ما لم يعانه المؤلف الأول في مجلد . ومن ظنّ أن حياة باحث تفي بتاريخ علم فقد ظن باطلاً ، إنما يتم ذلك بتضافر جهود الباحثين في أجيال متلاحقة : يتسلم كل جيل تراث من قبله ، ويعمل في دأبٍ وروية ليتقدم به قليلاً أو كثيراً . وسؤالنا اليوم يمت إلى تاريخ النحو .

وبعد ، فماذا يراد من كلمة (مذهب) أو (مدرسة) حين يقال في النحو واللغة : مذهب البصريين أو مدرسة الكوفيين ؟

إن نظرة فاحصة في دراسات المحدثين تقودنا إلى الشك في بعض ما عدّوه من

المسلمات ، انسحاباً على أذيال القدماء ممن تكلم على النحو والنحاة . لقد أدار هؤلاء التصنيف على البلدان فقالوا : « نحاة الكوفة » و« نحاة البصرة » و« نحاة بغداد » حين ألفوا في الطبقات ، فساق هذا ـ مع تساهل كبير ـ إلى أن قيل فيما بعد : « مذهب البصريين » و« مذهب الكوفيين » و« مذهب البغداديين » .

وقد حان الوقت لتصحيح هذه التسمية ، فالأقدمون ومن تأثر بنظرتهم من المحدثين جعلوا البصريين أهل القياس ؛ لأن من ضبطه منهم كثير جداً ، ولهم فيه عناية بالغة ، على حين عدوا الكوفيين أهل سماع لأنهم سجلوا كل ما سمعوا وأراغوا القياس عليه فلم يحكموه إحكام الأولين وإن أربَوْا عليهم في السماع مقداراً لا ضبطاً وجودة[1] . وكنت ناقشت هذه الأحكام بتفصيل وتحرٍّ لا محل لهما هنا ، وانتهيت إلى أنه :

« ليس من الدقة ـ في رأيي ـ إطلاق النزعة السماعية على المذهب الكوفي والنزعة القياسية على المذهب البصري ، والدقة التي يؤيدها التاريخ والإمعان فيه وفي أقوال الكوفيين والبصريين ألا يكون مذهب بصري يقابله مذهب كوفي ، بل نزعة سماعية يقابلها نزعة قياسية يختلف حظ كل منهما صحة وحالاً ومقداراً بين البلدين ، بل بين نحاة كل بلد على حدة . على ذلك الأساس يصح أن نعيد النظر في النحو وتاريخه ورجاله بهذا التصنيف الجديد ، بعد أن علمنا أن النزعتين تتمثلان على حقهما بالبصرة لا بالكوفة »[2] .

* *

---

(١) ومن أهل بغداد من أخذ من هنا ومن هنا ، فقيل : « إن المذهب البغدادي خليط من المذهبين » وإن كان الطابع الغالب عليه بصرياً . وأدق من تعبيرهم ما عبر به ابن النديم عنهم حين قال : « جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين » ـ الفهرست ص١١٥ (المطبعة الرحمانية بمصر . دون تاريخ) .

(٢) ص٢٠٢ من كتابي « في أصول النحو » ـ مطبعة الجامعة السورية بدمشق ـ طبعة ثانية . ومن المفيد الرجوع إلى باب الخلاف فيه ص١٥١ فما بعد ، وبصورة خاصة فصل (الفروق بين المذهبين) ١٨٨ـ٢٠٢ .

بعد هذا الاحتياط ، وبما لدينا من معارف نقطع أنها غير كافية ، يكون سؤالنا على الوجه الآتي :

« هل نزعة الأندلسيين سماعيةٌ أو قياسيةٌ ؟ »

كنت رأيت قبل عشر سنين أنَّ النحو الأندلسي مر بشبه الخطوات التي سارها في المشرق ، وأن طابعه الغالب الذي استقر طابع القياس الذي شرعه نحاة البصرة ، وأن الأندلسيين أشبهوا في هذا أيضاً الشاميين حين أضافوا إلى ذلك عناية بالغة بالسماع[1] . وأحب اليوم أن أتساءل : أليس هناك جديد أضيفه إلى ما تقدم عن نحو الأندلس ؟ .

إن رحلة قمت بها سنة ١٩٥٦م باحثاً في نفائس المخطوطات بالأسكوريال ومكتبات المغرب العامة والخاصة جعلتني أتهيب الجواب . وأنا موقن أنه لن نصل إلى ما تطمئن إليه النفس حتى ينشر قدرٌ كافٍ من هذه النفائس المضنون حتى بأسمائها ، وحتى يسهم في التعاون على ذلك أفاضل المغاربة وهم ـ على ما تحققت بنفسي ـ غير قليل ، فيبحث كل فيما تصل إليه يده من كتب الفن يصفها ويصنفها وينشر ذلك مع ما ينتهي إليه من رأي في هذه المسألة ، فإذا شاعت هذه الآراء رجوت أن تضيء الذاكرة حولها نواحي مظلمة في تاريخ النحو . ولأحاول الآن قول شيء في الموضوع مع خفوت الشعاع وضياع المعلوم النزر في المجهول الغزير ، ولا جود إلا بالموجود كما يقولون .

* *

يعرف المطّلعون عناية الأندلسيين بعلم النحو منذ الزمن الأقدم ، ويحفظون كلمة ابن سعيد : « النحوُ عندَهم في نهايةٍ من علوِّ الطبقة »[2] وليس في هذا مبالغة قط . ولقد حلا لي استشارة الأرقام فعمدت إلى (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) للسيوطي ، فأحصيت ما فيه من تراجم فإذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة لعلماء من

---

(١) المصدر نفسه ص١٨٢ من الطبعة الأولى (الجامعة السورية ١٩٥١) .

(٢) نفح الطيب ٢٠٦/١ (مطبة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ بتصحيح محمد محيي الدين عبد الحميد) . وابن سعيد هو نور الدين علي بن موسى بن عبد الملك العنسي ، صاحب (المغرب في حلى المغرب) مات سنة ٦٨٥هـ .

جميع الأقطار الإسلامية بين الصين وبحر الظلمات ، ووجدت للأندلسيين بينها نحواً من (٧١٢) ترجمة ، وهذه نسبة عالية جداً أن يبلغ في هذا المصدر علماء هذا القطر القليل المساحة قريباً من ثلث علماء العالم الإسلامي كله .

وما أكثر ما تتكرر هذه المدن والقرى الأندلسية في تراجمهم ونسبهم : باجه ، شريش ، بلنسية ، جيان ، مالقة ، سرقسطة ، دانية ، بياسة ، المرية ، قلعة رباح ، لبلة ، لوشة ، موررور ، إستجة ، الجزيرة ، شلب ، شذونة ، وادي الحجارة ، أشونة ، بطليوس ، رية . . . إلخ . أما الحواضر الكبرى كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة فحدث عن كثرة ورودها ولا حرج .

فإذا ألم بخاطرك ما لكل من هؤلاء العلماء الـ (٧١٢) من تواليف ، دار رأسك من كثرتها ، وعرفت لم يتهيب الباحث من إطلاق حكم في تراث لم يطلع منه على عشرة كتب من عدة آلاف . ومع هذا فإلقاء لمحات جزئية هنا وهناك في الموضوع لا يضر ، بل هو تمهيد للوصول إلى النظرة المحيطة الشاملة على قدر الإمكان ، وتجنيب لما يمكن أن يقع فيه الباحث من أخطاء شائعة .

لا يخطىء دارس مطولات النحو أن يقع على آراء الأندلسيين في جزئيات نحوية ، فأسماء ابن خروف (ـ٦٠٩هـ) وابن عصفور (٥٩٧ـ٦٦٣هـ) والشَّلوبيني (٥٦٢ـ٦٤٥هـ) وابن الضائع (ـ٦٨٠) وغيرهم تذكر بين أسماء النحاة المشارقة حين عرض الآراء في الخلاف ، إلا أن متصفحها لا يجد فيها ما يميزها من غيرها من التخريجات المختلفة المعروضة في القضية الواحدة أو بعبارة أخرى : ليس لآراء الأندلسيين هؤلاء سمات مدرسة خاصة .

ويريد بعض الناس أن يذكر ابن مالك (٦٠٠ـ٦٧٢هـ) وأبا حيّان (٦٥٤ـ٧٤٥هـ) علمين بارزين لمدرسة أندلسية كان لها أثر واسع في النحو وتعليمه في المشرق ، وهذا ظن يروج ابتداء ، لكنه لا يثبت عند النظرة الفاحصة الأولى :

فابن مالك خرج من الأندلس إلى المشرق صغيراً ، ولم يذكروا له شيخاً في النحو غير الشَّلوبيني ، قالوا : إنه قرأ عليه نحواً من ثلاثة عشر يوماً ، فلما حل الشام سمع من بعض شيوخها ، ولم يجد له أبو حيان بعد البحث « شيخاً مشهوراً يعتمد

عليه . . . لأنه إنما أخذ هذا العلم من خاصة نفسه »[1] ، « وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية »[2] .

وأمر أبي حيان قريب من أمر ابن مالك : خرج من الأندلس هارباً في شبيبته ، وكان قرأ على بعض شيوخها ، ثم أتم قراءته وزاول الإقراء في المغرب والمشرق . فإن اعتبرنا الشكل الصوري كان أثر التعليم الأندلسي في أبي حيان قليلاً وفي ابن مالك أقل بكثير ؛ وإن اعتبرنا الجوهر ـ وحق اعتباره ـ وجدنا نحو هذين الرجلين في تواليفهما مشرقياً محضاً . أما كونهما ذوي أثر واسع في النحو وتعليمه في الشرق فهذا صحيح ومرده إلى شخصيتهما لا إلى أندلسيتهما ، فأسلوب ابن مالك في نظم مسائل العلم وشرحها وغَيْرته المخلصة الحارة في نشره وإقرائه أغريا عصرييه ، وكان لهما أكبر الأثر في حياته ، فانتفع الناس بعلمه ، وما زال الله ينفع به إلى يوم الناس هذا . أما أبو حيان فآثار حواضر المشرق العلمية في كتبه أظهر من أن تخفى .

والشيء الذي يجوز أن يناقش هنا ما ذكروا من أن ابن مالك وابن خروف شرعا الاستشهاد بالحديث الشريف والاحتجاج به في قضايا اللغة والنحو ، فخالفا بذلك ـ زعموا ـ سنَّة من قبلهم من النحاة ، وإذ كانا أندلسيين جعل بعضهم هذا الاحتجاج مذهباً أندلسياً .

وكل ذلك وهم لا يقره تاريخ الفن ، ولعل الذي حداهم عليه كلمة أبي حيان في (شرح التسهيل) : « إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائي والفراء وعلي بن مبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك» اهـ.

والتحقيق غير هذا : فالجوهري ، وابن سيده ، وابن فارس ، وابن جني ، وابن بري ، ومن بعدهم من أصحاب المعجمات وكتب النحو ، كلهم احتج بالحديث ، بل قال السهيلي : « لا نعلم أحداً من علماء العربية خالف في هذه المسألة إلا ما أبداه

---

(١) بغية الوعاة ١/ ٢٨١ . تح أبي الفضل إبراهيم .

(٢) المصدر نفسه .

الشيخ أبو حيان في (شرح التسهيل) وأبو الحسن الضائع في (شرح الجمل) وتابعهما على ذلك الجلال السيوطي »[١] .

فنزعة الاحتجاج بالحديث إذن مشرقية قديمة ، وإنما سار ابن مالك وابن خروف سيرة من قبلهما من الأئمة المتبوعين في المشرق . ومع جزئية هذه القضية ليس فيها مذهب أندلسي . وبذلك ننتهي من نقاش كل ما قيل في الموضوع لأقف وقفة جديدة مع ابن حزم في كتاب عرفه الباحثون العام الفائت .

* *

أرقى صعداً في تاريخ النحو مئتي سنة قبل وفاة ابن مالك لأمعن في نص لابن حزم ، وهو إمام أندلسي ما رأى المشرق قط ، بل ما جاوز (الزقاق)[٢] إلى عدوة المغرب ـ فيما أذكر الآن ـ وهي منه على قاب قوس ، فهو خالص الأندلسية .

ولا تعجب من وقوفي على ابن حزم ولم يذكر له كتاب في النحو ، ولا عرف بإمامة فيه ، لأنه لا يلزم من اهتمامه بعلوم الشريعة وتركه فيها المؤلفات الجليلة الحسان التي سارت بذكرها الركبان ألا يكون من أولي الشأن في النحو بل من أهل الرأي في أصوله ، ومن غير البعيد لو تركت له الشريعة فراغاً أن يترك في النحو آثاراً أصيلة مبتكرة أيضاً .

وأي كان فقد عرج عرضاً في كتابه (التقريب لحد المنطق) على أحد الآساس التي بنى عليها النحو فوضع تحته المتفجرة الصغيرة[٣] .

---

(١) دراسات في العربية وتاريخها للعلامة المرحوم السيد محمد الخضر حسين ص١٦٨ (طبع دمشق ١٩٦٠م) وانظر فصل الاحتجاج بالحديث الشريف مستوفى في كتابي (في أصول النحو) ص٤١ـ٤٥ ؛ طبعة ثانية .

(٢) يعني مضيق طارق .

(٣) نقلت هذا من مخطوطة فريدة رقمها (٦٨١٤) بالمكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة بتونس ، حين زيارتي لها سنة ١٩٥٦م ، واصطحبت معي صورة كاملة عن الكتاب بمعونة الأستاذ الجليل السيد حسن حسني عبد الوهاب . وكان العزم أن أقوم بنشره ، فسبقت إلى ذلك مكتبة الحياة في بيروت فنشرته العام الفائت ١٩٥٩ بتحقيق الدكتور إحسان عباس . والنص المنقول هنا من الورقة (٩٠) من المخطوطة بترقيمي ، وفي ص٢٠٢ من الطبعة الآنفة الذكر .

« وأما علم النحو ؛ فـ[يرجع] إلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين نريد[1] معرفة تفهمهم للمعاني بلغتهم ، وأما العلل فيه ففاسدة جداً » .

وهذا إبطال للقياس جملة ، لأن القياس « حمل غير المنقول على المنقول في حكم لعلّةٍ جامعة بينهما »[2] فإذا كانت العلل فاسدة فسد القياس حتماً ؛ إذ عليها بني . وقولة ابن حزم هذه تشريع لنحو جديد لو وجد له منظمون .

ومع أني لا أعقل أبداً نحواً لا قياس فيه ، وددت لو تضافر بعد ابن حزم نحاة حاولوا أن يتركوا لنا مخططاً كاملاً لنحو (ظاهري) لا قياس فيه ولا تعليل ، كما فعل هو حين استطاع أن ينفي عن الشريعة القياس والتعليل فترك تراثاً ضخماً لمذهب متماسك متين وفق فيه إلى حد بعيد .

وهذا من طبيعة الأشياء ، للفارق العظيم بين الشريعة واللغة : فالله قد أكمل الدين ، ولم ينتقل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الرفيق الأعلى حتى بيَّن للناس كل ما يجب أن يعرفوه من حلال وحرام ؛ أما اللغة فلا سبيل إلى حصرها في جمل لا يتعداها الناس إلى يوم القيامة ، بل هي متجددة متوالدة كل لحظة منذ المتكلم الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولو حاول أحد من الأندلسيين البناء على الأساس الذي ألقاه ابن حزم لصح ـ مع شيء غير قليل من التسامح والتجوز ـ أن يكون من ذلك مذهب أندلسي إلى حد ما ، أما رسالة ابن مضاء فليست هناك[3] .

---

(١) الكلمة غير ظاهرة النقط في الأصل المصور ، وهي في المطبوعة (تزيد) ولا معنى لها هنا .

(٢) « في أصول النحو » ٦٨ .

(٣) وفاة ابن حزم سنة (٤٥٦هـ) ووفاة ابن مضاء تتأخر (١٣٦) سنة ورسالته في (الرد على النحاة) نشرها الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٤٧م . عمد فيها إلى ما وضعه الأقدمون من صيغ للتقريب على المتعلمين فجعل يدقق فيها تدقيقاً حرفياً حين يرد عليهم قولهم مثلاً : إن العامل في رفع (زيد) من قولنا : (ضرب زيد) هو فعل (ضرب) بأن هذا غير صحيح والذي رفع (زيد) هو المتكلم ، وأن القول : إن الألفاظ يحدث بعضهابعضاً باطل عقلاً وشرعاً لا يقول به أحد من العقلاء!! (ص٨٧) ، وأفاض في فلسفة هذه البديهية بما لا طائل تحته ، وإلا فهل يغيب على أحد أن المتكلم هو الذي يرفع وينصب على الحقيقة وأن إسناد ذلك إلى العامل اللفظي مجاز وتقريب على المتعلمين ، وهذا=

قلت : « مع شيء غير قليل من التسامح والتجوز » و« إلى حد ما » لأن القول بضعف بعض العلل النحوية قديم متعارف في المشرق حتى جرى به المثل فقيل : « أضعفُ من حجّة نحوي » على ما في هذا القول من مبالغة وخطأ في التعميم . وعلماء هذا الشأن أحاطوا بذلك وأشاروا إليه وعلموه ، وصرح الخليل بن أحمد (ـ١٧٥م) قبل ابن حزم بنحو ثلاثة قرون أنك لا تصل إلى ما تحتاج إليه من النحو حتى تتعلم ما لا تحتاج إليه ، فاستضعاف العلل النحوية قال به كثيرون قبل ابن حزم فليس فيه بسابق ، وإنما بالغ ابن حزم حين جعلها « فاسدة جداً » فعمم واشتط . والحقيقة الهادئة هي عند الذين صنفوا هذه العلل فجعلوا منها المقبول ومنها الضعيف ومنها الخيالي[1] . وفرق كبير بين إطلاق ابن حزم ومن قلّده كابن مضاء ، ومن تجرد للبحث والاستقراء بأناة وصبر فجمع الأمثلة والشواهد بين يديه يمعن فيها ويفلسفها حتى انتهى إلى « أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وما حملناه عليها »[2] .

فالشك في العلل النحوية إذن ليس من صادرات الأندلس ، بل تعاوره في أسلوب علمي جهابذة مشارقة منذ عهد الخليل ، فليس فيه ما يسمى مذهباً أندلسياً من قريب ولا بعيد .

**

أما بعد ، فأنا لا أقول بالإقليمية بالأدب فكيف تخطر لي في العلم ، وهو الذي لا وطن له! ؟ وإنما تتعاون على إنمائه جماهير من كل جنس وبلد ، ولعل المسألة

= أسلوب شائع في جميع العلوم لا في النحو فقط . وهذه البديهية ذكرها عرضاً ابن جني ونقلها عنه ابن مضاء نفسه في الصفحة المذكورة . بل تلك بديهة لكل مزاولي النحو تعلماً وتعليماً .
وفي الرسالة بعدُ ، نظرات جزئية في مسائل بعضها سائغ ، لكنه انتهى به الأمر إلى أن ناقض نفسه وإمامه ابن حزم فقال بالعلل الأولى ، ونفى العلل الثواني والثوالث ، وليس هذا مقام التفصيل في نقد كتابه .

(١) انظر في العلل ص١٠١ من كتاب « في أصول النحو » .

(٢) كلمة ابن جني ـ الخصائص ١/ ٢٥٠ وما بعدها (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢ بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار) .

من مسائله بُذلت في كشفها جهود كثيرة ضخمة من معلومين ومجهولين ، بل ما أكثر الجنود المجهولين في العلم ، وإنه ليقع في حدسي أنهم أكثر من المعروفين بما لا يخطر على بال . وهذه الآراء الجزئية التي عرضت لها قامت على ما وصل إلى علمي من آثار ، وليست كلمة أخيرة ، ومتى كان في العلم كلمة أخيرة ؟ وهل سكوت المصادر عن كتاب مطول لابن حزم في النحو قاطع على أنه لم يوجد ؟ وهل جهلي أنا بما في خبايا المكتبات في الأندلس والمغرب وحتى المشرق من آثار نحوية يقنعني بأنه ليس هناك مذهب أندلسي في النحو ؟ .

إن الوصول إلى شيء جديد تركن إليه موقوف على ظهور آثار جديدة ، وما قدمت من أحكام شخصية ، صحيح اعتماداً على ما وصل إلى اطلاعي وما أقله ، وكل مخطوط جديد ينشر حافز على إعادة النظر واستئناف « المحاكمة » .

فهل لإخواننا فضلاء المغاربة عامة ومغربهم ـ كما تحققت في رحلتي القصيرة ـ متحف مجهول ، أن يواصلوا السعي فرادى وجماعات في الكشف عن مخبآتهم والتعريف بها ؟ وهل لدارسي النحو منهم خاصة أن يعكفوا على نشر النافع من آثاره فيملؤوا ثغراً في ميادين البحث ما زالت خالية ؟ .

ومن يدري ؟! فلعلنا في المستقبل لا نكتفي بالقول : « إن النحو الأندلسي قياسي مع نزعة سماعية » كما هو في المشرق ، بل نؤكد واثقين بما سيظهر من خصائص وسمات تنتزع من مخطوطات يكشف عنها أن هناك في النحو « مذهباً أندلسياً حقاً » بكل ما في كلمة (مذهب) من مقومات .

نظرات في مشروع : « تيسير النحو »

محاضرة ألقيت في مؤتمر (تيسير النحو) المعقود في كلية دار العلوم في القاهرة بين (١٨ و٢٣ شعبان) ، (٤ـ٩ فبراير (شباط) ١٩٦١ .
وهو منشور في كتاب (من حاضر اللغة العربية) ط دار الفكر ص٢٠٢ـ٢١١

كانت تصل إلينا ونحن في الشام في الثلاثين سنة الماضية ، بين الفينة والفينة ، ضجات مصطنعة وأصوات مريبة ، تجتمع على التشكيك في صلاح اللغة العربية لحياتنا الحاضرة ، وعلى الشكوى من صعوبتها . وكأنَّ جهازاً مسيراً يبعث هذه الأصوات في كل قطر على ميعاد ، وبقدر معلوم يناسبه ، ثم يرصد صداها بدقة ، استعداداً لجولة ثانية يصلح فيها من خططه ومظاهر دعايته ، على هدى ما رصد في الجولة السابقة .

قالوا : « إن في برامج مدارسنا حصصاً للغة العربية وحصصاً للغة الأجنبية ، وإن النتائج كانت تثبت دائماً أن نسبة إتقان الطلاب للغة الأجنبية تفوق نسبة إتقانهم اللغة العربية إذا راعينا عدد الحصص لكل من اللغتين » .

وانجلت موجات التشكيك والشكوى التي كانت ترسل من أطراف متباعدة لا يخطر على البال تأثرها بمحرك واحد ؛ انجلت مع مقابلتهم تعلم اللغة الأجنبية بتعلم اللغة العربية عن الزعم الآتي :

« إن الصعوبة كامنة في اللغة العربية نفسها » ثم تراجعوا فقالوا : « إنها في نحوها وفي أحرفها وفي إعرابها » .

وكان محل هذه الدعاية صحف ومجلات ، وأساتيذ وأعضاء في مؤسسات ، يعزفون نغمة واحدة أراد ملحنها الإفادة من ظاهرة اجتماعية نفسية هي أن من طبيعة الجماهير وأغلب الأفراد ، الاطمئنان إلى ما يكرر على الأسماع وما يروج بكثرة ، وأن الذين يعتمدون المنطق ويحررون خطواته قلة لا يستمع إليهم أحد في ضجة الدعاية المدروسة ؛ فكان أن خامر بعض النفوس المخلصة أن « آفة اللغة هذا النحو » .

وأقف هنا عند المقدمة التي أسلمت إلى هذه النتيجة أمتحنها بشيئين: بواقع نعرفه كلنا، وببديهة سلم بها أهل الاختصاص وغيرهم ، وأيدتها التجارب المتواترة المستمرة .

أما البديهة فهي أن اللغات تكتسب ممارسة ومرانة ، بسماعها دأباً ، وقراءتها وكتابتها والتعبير بها دأباً متصلاً أيضاً ، وهنا نحتكم إلى الواقع فنتساءل :

١ـ هل كان طفلنا في مدارسه الابتدائية والثانوية يتلقى دروسه باللغة العربية ويناقش مدرسه بها ؟ الواقع : لا .

٢ـ في مقابل ذلك : هل كان يسمع دروسه الإنكليزية والفرنسية ويحدثه مدرسه بهما ؟ الواقع : نعم .

فأي عجب في أن يوصل طريقان متضادان إلى هدفين متعاكسين ؟ وما علاقة النحو بضعف طالب نكَّبوه الطريق الصحيح فلم يمارس لغته قط ؟ إن على من أراد الطب لدائه ألا يكتم من أعراضه شيئاً ، وداؤنا أتى من جريمة إهمال اللغة العربية عملاً في تدريسنا لا من نحوها . ويوم تدرس الدروس كلها بالفصحى السليمة السهلة المتدرجة منذ السنة الأولى الابتدائية ، تجدون النحو أصبح كمالياً لا ضرورياً .

ولنكن أصرح فنعترف أن دروس اللغة العربية نفسها ـ لا الحساب ولا الجغرافية ـ لا تدرس غالباً باللغة العربية ، لا في التعليم الابتدائي ولا في التعليم الثانوي ، وأخشى أن أقول : ولا في التعليم الجامعي .

سقى الله أياماً عشناها كان فيها طابع القوة يزين أغلب المتخرجين من ثانويات الشام ومعاهدها العالية في مختلف الاختصاصات ، وظللنا ننعم بثمراتها حتى منتصف العقد الخامس من هذا القرن ، أيام كان التشكيك في شيء من مقومات الأمة ديناً أو لغة أو تاريخاً علامة على انتظام صاحبه في الاستخبارات الأجنبية[1] . ثم صار الضعف في هذه المقومات عينها يسم فيما بعد ، خريجي تلكم المؤسسات نفسها ، حين تسربت إلى الشام أوبئة التشكيك تشغل الناس عن الانصراف إلى النافع من أمور العلم والتعليم ، وحين أولع بعض المستشارين بتغيير البرامج والمناهج

(١) أثبتت التجارب والمشاهدة على مدى الزمن صحة هذه العلامة .

والكتب المدرسية ونظم الامتحانات ، إشعاراً بعهده الجديد وإرضاءاً لهواه في أن يترك أثراً يذكر ؛ وقد ـ والله ـ ترك أثراً لا ننساه : انحطاطاً في مستوى التعليم والامتحانات والمدرسين وإفساداً لضمائر كثيرة أطغاها الاتجار بالكتب المدرسية .

* *

كان النحو في مدارس الشام بخير ولمصر في ذلك فضل ، ولقد تلقيته طفلاً في المرحلة الابتدائية ، في سلسلة (الدروس النحوية) للمرحوم حفني ناصف ورفاقه ، وأنهيتها في أول المرحلة الإعدادية ، ولا يحتاج من درس جزأها الأخير (قواعد اللغة العربية) إلى زيادة في نحو ولا صرف ولا بلاغة ؛ ما عليه إلا الانصراف إلى أدبنا الصافي وتاريخنا الرائع يعبُّ منهما ما وسعه العب ، ويتذوق عبقرية لغته ما أمكنه التذوق . رحم الله هؤلاء المؤلفين ، لقد خطَوْا بالنحو المدرسي الخطوة المباركة في غير دعوى ولا ضجيج ، فقدموا لبابه المحتاج إليه في ورقات قليلة ، وانتفع بعلمهم أجيال كثيرة . لقد أرادوا الله بعلمهم فنفع بهم ، وكانوا في أخلاق العلماء لم ينحطُّوا بعلمهم إلى استغلال ، وبقي على المدرسين الخطوة التالية ، وهي عرض هذه المادة القليلة في دروسهم عرضاً منهجياً شائقاً متئداً ، يشركون فيه تلاميذهم معظم الوقت في الأمثلة والتداريب والحديث والمناقشة ، وبكلمة واحدة : إحسان أساليب التدريس . وهذا شيء ظرفه وقت الدرس لا صفحات الكتب المدرسية . إن المثل الصالح لكتاب النحو المدرسي أن يكون مذكرات لما قرر المدرس ووقر في صدر الطالب .

* *

وبعد ، لا مانع عندي البتة ، لا في العقل ولا في الإمكان ، أن يوفق امرؤ إلى خطوة تدفع عمل المرحومين (حفني ناصف) ورفاقه خطوة إلى الأمام ويفيد الناس منها خيراً ؛ بل لا أستبعد أبداً أن يأتي أحد بنحو لا يمت إلى النحو الحاضر بصلة ، ويؤدي المقصود منه كاملاً ، ثم لا يكون فيه من نحو البصرة ولا الكوفة ولا بغداد ولا الشام ولا مصر ولا المغرب ولا الأندلس رائحة ما . وإني ـ كما قال الأول ـ لا أتعبد بمذهب البصرة ولا بمذهب الكوفة ، والنحو وسيلة لا غاية ، فكل ما اختصر الطريق قبلته ودعوت إليه .

بهذه الروح أمعنت في مشروع الأساتذة الفضلاء أصحاب (تيسير النحو) منذ صدر ، فحمدت فيهم حسن النية وبذل الجهد ، وأشياء اختصروها ينفع اختصارها في بعض الميادين كتعليم الأميين الكبار مثلاً . وودت لو بقي الباب مفتوحاً في المعاهد الاختصاصية لكل رأي جديد ومشروع آخر ، حتى إذا اجتمع في السنوات العديدة مشروعات صالحة بادي الرأي ، عكف أهل الشأن على دراستها والمقابلة بينها واستخلاص ما ينفع منها . ولأمر لا أدريه أعجل بمشروع (تيسير النحو) هذا وطرح التطبيق في قطر عربي ، وسرعان ما ألفت فيه الكتب المدرسية وأخذ به جيل من الطلاب المساكين ، وكان لذلك نتائج لا يحتاج التنبؤ بها إلى مزيد من ذكاء ، ثم تصدى بعض الأساتيذ لرصد هذه النتائج بعد أن وقعت ، وامتحانها في بيئة الطلاب الذين كانوا موضع تجربتها ثلاث سنين ، ومن حق هؤلاء الفضلاء أن يحدثونا بما رأوا ولمسوا[1] .

أما كلمتي في المشروع فمجالها المادة الأولى من قرارات مؤتمر مجمع اللغة العربية ، والتوصية الأولى من توصيات الندوة المعقودة بوزارة التربية والتعليم المركزية في شعبان ١٣٧٩هـ (فبراير ١٩٦٠م) .

(أ) تنص المادة الأولى من قرارات مؤتمر المجمع على أن :

« كل رأي يؤدي إلى تغيير في جوهر اللغة وأوضاعها العامة لا تنظر إليه اللجنة » .

(ب) وتشترط التوصية الأولى للندوة على هذا المشروع شرطين :

١ـ ألا يمس أصلاً من أصول اللغة العربية .

٢ـ وألا يقطع صلة الطالب العربي بتراثه القديم .

على ضوء هاتين المادتين أمعنت ثانية في المشروع كما هو في كتابيه الشارحين (تحرير النحو العربي ـ دار المعارف ١٩٥٨) و(النحو المنهجي ـ طبعة ثانية ١٩٥٩) ، فتبين لي أن فيه ـ مع تقديري له ـ أموراً ثلاثة :

---

(١) فعل ذلك بعضهم في المؤتمر فعرض واقعاً شراً من كل ما طَفَرَتْ إليه ظنون المتشائمين قبل التطبيق.

١ـ إهداراً لبعض اللغة من جهة ، وتغييراً خفيفاً لبعض معالمها من جهة .

٢ـ وولوعاً بتعديل المصطلحات يؤدي إلى شيء من فوضى وقطع صلة بالتراث القديم، مع إخلال بالاختصار الذي كان الداعي الأول إلى هذا المشروع فيما أحسب.

٣ـ وخللاً في القواعد نفسها من ناحية الإحكام .

وأنا عارض لهذه الأمور الثلاثة ببعض الإشارة والتفصيل :

(١) أما الإهدار وتغيير المعالم فكلنا يعلم أن النهج الصحيح المسلم به منذ زمن الخليل بن أحمد إلى يوم الناس هذا أن القواعد تستنبط وتؤسس على الأكثر الأشيع من اللهجات ، وما سجّل من غير الشائع حُفظ ولم يتداول ؛ فحشر قواعد تتعلق بلغيات متروكة مُهدرة تفسد المنهج وتضعف المخطط ؛ أما إذا استبدلنا هذه اللُغيّات بالفصيح الشائع المتداول فقد غيرنا المعالم وأتينا بمجموعة لم ينطق بها عربي قط .

إذا صح هذا كان تجويز قول الأخفش (المشار إليه في حاشية بالصفحة ٣٦ من تحرير النحو العربي) منع كل علم من الصرف ، بلبلة وفوضى وتسوية الفصحى الشائعة المستفيضة المتواترة بلغية إن ثبت لها وجود فقد عوملت بما يجب لوجودها المتعتع من إهدار واستنكار ، وكان إحياؤها ـ في غير الضرورات الشعرية ـ تغييراً لمعالم الفصحى الحية إلى الآن ؛ وكان ما ذكر في أسلوبها (لا سيّما) (ص١٩٧ من تحرير النحو العربي) تغييراً للمعالم في الأحكام والاستعمال معاً : أما الأحكام فقد رجّح المشروع نصب الاسم بعدها ، وهو أقل الحالات وروداً ، حتى لقد منعه بعضهم ، والأسلوب المرضي الشائع جرُّهُ كثيراً ورفعه قليلاً ؛ وأما الاستعمال فلا يلي (لا سيما) في كل ما اطّلعت عليه إلا الاسم ، ولذا استغربت ما ذكره المشروع من أن « الجملة الحالية والجملة الشرطية قد تليانها ـ ١٩٧ تحرير » ، وهذا شيء نراه اليوم في الدارج من كلام غير المتمكنين ، ولم أر مثل هذا الاستعمال لكنه مشهور ، فإن لم تخني الذاكرة كان هذا أيضاً تغييراً للمعالم ، وتقويلاً للعرب ما لم يقولوا ، وإتياناً بتخريج لا يصح لغة ولا استعمالاً في معنى (سيّ) .

وجمع المشروع في باب (المسند والمسند إليه) أبواب (الفاعل ونائبه والمبتدأ والخبر والفعل ـ ٥٩ النحو المنهجي ، وقرارات المجمع) اختصاراً ـ كما قيل ـ

وتيسيراً على الطالب ؛ ومعلوم أن لكل من هذه الأبواب أحكاماً واستعمالات وأحوالاً موصوفة مفصلة في التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والمطابقة وعدمها ، أحوالاً يجب معرفتها لفهم كلام العرب وللصيانة عن اللحن ، ولإحلال المعاني محالّها بإعطائها ما يجب لها من الألفاظ والتراكيب ، ولم تذكر كل هذه الأحكام في المشروع وكتابيه ؛ فإن كان في النية إصدار ملاحق تفي ببيان ذلك وأشباهه كان تغيير التقسيمات المألوفة ومصطلحاتها تعسيراً لا تيسيراً ، ولغواً من العمل ، وقطعاً للصلة بالتراث القديم ؛ وإن كان المقصود إلغاء هذه الأحكام والاستعمالات فقد ألغينا شطراً صالحاً من سنن كلام العرب لنحل محله شيئاً مجهولاً لا ندري ما يكون على مدى السنين .

ومنع المشروع دخول (لا) الناهية على صيغة مضارع المتكلم (٦٣ تحرير) ، وكلنا يعلم أن قولهم : « لا أرينَك هاهنا » أسلوب عربي من أفصح الكلم وأوجزه ، ومعناه : (لا تكنْ ها هنا حتى لا أراك) وعليه شواهد محفوظة .

٢ـ أما المصطلحات والتقسيمات الجديدة فليس فيها ـ إن كانت موفقة محكمة ميسرة ـ غير قطع الصلة بتراثنا العلمي مع الزمن ؛ لكنني فاتني إدراك اليسر والتوفيق والإحكام في مثل ما يأتي :

(أولاً) سمى المشروع الجملة الشرطية بـ (أسلوب الشرط) ثم اضطر إلى التفريق بين الأدوات الجازمة وغير الجازمة ، وحالات المضارع معها جزماً وغير جزم ، فلم يختصر أصحابه شيئاً ، بل خرجوا على أصل التزموه هم في الأساليب حين خصوها بما لا يتغير ، فألغوا إعرابها المعروف . ولا شك أن التعبير بجملة الشرط أدنى من التعبير بـ (أسلوب الشرط) حتى على مصطلح أصحاب المشروع .

(ثانياً) المسلك المألوف فيما ينوب عن الحركات في المثنى « الجمع السالم والممنوع من الصرف» أيسر بكثير من تقسيم المشروع للاسم المعرب إلى سبعة أقسام[1] :

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٦/ ١٨٧ هذا وهي ثمانية كما سيتضح من التقسيم . وظاهر أن قسم الممنوع من الصرف فيه إخلال إذ هو يكسر حين الإضافة والتعريف ، والارتجال جعل هذا التقسيم أعقد من الأصل بكثير مع إخلاله المتقدم أيضاً .

١ـ اسم يعرب بالحركات الثلاث .

٢ـ واسم يرفع بالضمة وينصب ويجر بالكسرة وهو جمع المؤنث السالم .

٣ـ واسم يرفع بالضمة وينصب ويجر بالفتحة وهو الممنوع من الصرف .

٤ـ واسم يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء وهو المثنى .

٥ـ واسم يرفع بالواو وينصب ويجر بالياء وهو جمع المذكر السالم .

٦ـ واسم ينصب بالفتحة ولا تظهر عليه الضمة والكسرة وهو الاسم المنقوص .

٧ـ واسم لا تظهر عليه حركة وهو المقصور .

٨ـ واسم يلازم الكسر وهو المضاف إلى ياء المتكلم .

وبهذا يحار الطالب في توابع بعض هذه الأسماء كالمقصور والمضاف إلى ياء المتكلم كيف يحركها ، ونحن قد ألغينا له الإعراب التقديري والمحلّي المتكلّفين بتجلية المعنى الملازم دائماً لحركات الإعراب .

(ثالثاً) لا شك في أن التعبير بالمفعول المطلق والمفعول لأجله والمفعول فيه والحال أوجز من المصطلحات الجديدة التي أضافت إلى ما تقدم كلمة (تكملة) المترجمة فقالت : تكملة بالمصدر لتأكيد الفعل (٧٥ تحرير) وتكملة لبيان سبب الفعل ، وتكملة لبيان الزمان أو المكان وتكملة بالحال .

ومتى عرف الطالب ركني الجملة أدرك بطبيعة الحال أن الباقي زيادات . وكلمة (تكملة) مشعرة بأن الجملة ناقصة ، وهي غير ناقصة باستيفائها الركنين ؛ أفلم يكن الأولون أدق اصطلاحاً حين عبروا عنها بالفَضْلة .

(رابعاً) مع مللنا مدرسين من كثرة ما تردد كلمات (فعل وفاعل ومفعول به) في إعراب مثل (ألقى الطفلُ ورقةً) تجدها أسوغ وأخصر وأحكم وأوضح للصغار والكبار من قولنا : (مسند ومسند عليه[1] وتكملة بالمفعول به) .

٣ـ وأما الخلل في القواعد نفسها فقد تقدم أن الطريق الصحيح في وضع قاعدة ما

---

(١) نظرة الإسناد في هذا المشروع لا تقف على رجليها لخروجها عن السداد ، وخروج كثير من كلام العرب عليها ، وليست هذه الكلمة تتسع لبسط التفاصيل والجزئيات .

مراعاة الغالب في اللغة بحيث تصدق القاعدة على الأشيع من الفصيح ، ولا يذكر وجهان فيها إلا حين يتساويان في الشيوع أو يتقاربان . أما ما ورد لمجهول أو روي من شذوذ أو انفردت به جماعة من قبيلة على رواية الله أعلم بها فيحفظ في المطولات ولا يقاس عليه ، ولا يذكر في المراجع المتوسطة فما بالك في كتب مدرسية للناشئين لا يجوز أن تحتوي إلا المجمع عليه . والاستنصار بمثل هذه اللغيات الضعيفة بل المنكرة لتسلم لهم قاعدة ارتجلوها مخالف للنهج المنطقي في وضع قواعد لتعلم لغة ، بل هو تأسيس للغة جديدة ينكرها الاستعمال كل الإنكار .

من ذلك تصغير أصحاب المشروع كلمتي (شيخ وعين) على (شويخ وعوينة ١٠١ تحرير) وهو مخالف للسماع والقياس معاً ، ولم أدر مستندهم في ذلك[١] ، والمجمع عليه : (شييخ وعيينة) .

ومنه نصهم على (بحريني) نسبة إلى (البحرين) والمجمع عليه في ذلك (بحراني) كما هو معلوم . ومنه درجهم في كتب مدرسية إضافة (حيث) إلى الأسماء الظاهرة (١٣٠ تحرير) ، من أجل شاهدين لم تسلم روايتهما ، وإنما يؤتى بهما لتثبيت القاعدة بالشذوذ ، و(حيث) لا تضاف إلا إلى الجمل ، والاسم بعدها مرفوع على الابتداء كما هو معلوم .

ومن ذلك نصهم على مجيء (من) بعد (نعم وبئس ـ ١٨٠ تحرير) ثم اكتفاؤهم في الاسم المعرب بعدهما « أن يكون معرفة فيرفع أو نكرة فينصب » والمعروف المشهور أن يكون محلى بـ (أل) أو مضافاً إلى محلى بها أو كلمة (ما) ، وليس في النصوص الموثوقة الواردة عن العرب غير ذلك فيدرج في كتاب مدرسي للمبتدئين .

وأشد من ذلك كله في رأيي نصهم على مجيء لغة (أكلوني البراغيث) في كلام العرب قليلاً (١٠٠ تحرير) والاستشهاد له بشواهد قليلة أكثرها غير مسلّم وغير

---

(١) اعترض برواية الأشموني عن الكوفيين تجويز ذلك قياساً على قول بعض العرب (بويضة) ، وهذا متهافت لأن مثل هذا السماع ـ إن صحّ ـ نادرٌ لا يجوز القياس عليه بحال ، ومن أصول الكوفيين ألا يكون لهم أصل .

محقق ، ولا يخرج على ما خرجوه ليسلم لهم[1] إلغاء الضمائر من الأفعال المتصلة بها وجعلها حروفاً دالة تيسيراً ـ قالوا ـ على الطلاب وما هو بالتيسير . واستنصروا لذلك برأي المازني وما قال المازني ما قالوا ، إنه لم يلغ الضمائر كما فعلوا مسكنة في الأفعال وجعل هذه الحروف إشارات إلى الضمائر المستكنة حتى ينسجم كلامه في مذهبه على الأقل ، ومع هذا طرح العلماء مذهبه لتكلفه وعسره ، لقد ظلم والله المازني حين أخلوا نصف كلامه الموافق لنظرتهم المرتجلة وطرحوا نصفه الآخر المناهض لها وهذا أبلغ الظلم .

ومن ذلك إشارتهم في حاشية (النحو المنهجي ص٦) أن رفع خبر (ليس) لغة تميم ، وتميم مظلومة في هذا كالإمام المازني المسكين ، والأمر ليس على ما قالوا بهذا الإطلاق ، فتميم كسائر العرب تنصب خبر ليس دائماً ولا ترفعه إلا حين يبطل نفيها بـ (إلا) في مثل (ليس الطيب إلا المسك) وشتان ما الأمران .

---

(١) ما ورد في ذلك من شواهد قليلة خرجوه على البدلية وهو أسلوب معروف له معنى . أما استشهادهم بالآية ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فاستشهاد أبتر وكذلك الاستشهاد بحديث « يتعاقبون فيكم ملائكة » وأصل ذلك سهو وقع في بعض كلام الأقدمين ، فنقله غفلة لا بصيرة فيها . وبيان ذلك أن الآية لها أول فيه مرجع الضمير وهذه تلاوتها : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٢١ـ١ـ٣] وظاهر ما ذهب إليه أهل الحذق من أن (الذين) بدل من الضمير في (وأسروا) . وخير من ذلك إضمار (قال) قبل (الذين) ، تمشياً مع الأسلوب القرآني في الاكتفاء بالقول نفسه عن فعل (قال) قبله ، وذلك ظاهر في مثل ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد : ١٣/ ٢٣ ـ ٢٤] والمعنى : (يقولون : سلام عليكم) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣/ ١٠٦] والمعنى : (فيقال لهم : أكفرتم . .) .
وأما الحديث فله أول : « الملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » رواه البخاري بهذا اللفظ رقم ٣٠٥١ في بدء الخلق ، ومسلم رقم ٦٣٢ في المساجد ومواضع الصلاة ، وما استشهدوا به رواية مختصرة في الموطأ رقم ٤١٣ في قصر الصلاة في السفر .
فرواية هذه الشواهد مبتورة في مثل زمننا الذي أمكن فيه التحقق كل الإمكان وتوافرت فيه المراجع المطبوعة من الكسل التقليدي أو التزييف الرخيص . ولتفصيل الأمر في بقية الشواهد القليلة مكان غير هذا .

ومما يقف عنده المرء في كتاب نحو حديث يوضع للمدارس إهمال العناية بالمعنى ، والمعنى هو الذي يعطي القاعدة روحها وبرهانها وصحة التطبيق عليها في نفوس المبتدئين بداهة دون تكلف مثل :

١ـ إهمال النص على معنى (ما) التي تتقدم (دام) الاستمرارية (١٢٠ تحرير) .

٢ـ وإهمال معنى (أو) التي ينتصب بعدها المضارع (٦٠ تحرير) .

٣ـ وكقولهم : « إذا نون المنادى نصب وإذا منع التنوين رفع ـ ١٨٩ تحرير) دون بيان متى يكون هذا ومتى يكون ذاك ؟ وفي أي معنى تنصب وفي أي معنى ترفع ؟ . . وهذا مع إضاعته المعنى فيه تحيير للمتعلم الذي يلقى إليه هذا القول على إخلاله ونقصه .

٤ـ وكذلك إهمالهم الفرق المعنوي بين (قبل) المضمومة و(قبل) المنونة وهو مهم جداً .

ومما ينافي الإحكام نَصُّهم على تنوين الثلاثي الساكن الوسط في أعلام الإناث (٣٦تحرير) وهو أمر جائز وإهمالهم النص على تنوين الأعلام الأعجمية المماثلة لها ، وهو أمر واجب . ولو عملوا فأهملوا ما ذكروا وذكروا ما أهملوا ما كان منكراً . وكذلك اكتفاؤهم في بيان ما لا يصاغ منه اسم التفضيل بدلالة الوصف على لون أو عيب ظاهر (٨٣ تحرير) وأهملوا ما يدل على حلية ظاهرة ، وهو قسيم الأول تماماً .

واقتصر المشروع على أحد وجهين في النسبة إلى سماء وهو (سمائي ـ ٩١ تحرير) ، فأهدر المشهور المستعمل إلى اليوم من ردّ همزتها إلى أصلها ، فكل الناس يقولون : (سماوي وسماوات) ، فإن كان لا بد من الاقتصار على وجه واحد فعلى المستعمل المشهور إن أردنا التيسير .

ووددت لو عرفوا المتعدي بغير قولهم : « ما يحتاج إلى تكملة بمفعول به ـ ٥٢ تحرير » لعدم إحكامه ، إذ كثيراً ما يترك متكلم ذكر المفعول به لإرادة التعميم أو لعدم تعلّق غرضه بمفعول ، كما وددت لو أَتَوْا بأدق من قولهم : « يجوز التعجب من

الفعل مباشرة بشروط ـ ١٨٦ تحرير » وهم يريدون اشتقاق صيغة التعجب من الفعل .

هذا ما أردت أن أعرض له ، وبه تظهر حاجة المشروع وما نجم عنه إلى منهج شامل يحكمه في تقعيد القواعد وصوغها ، وحاجته إلى الاعتماد على الإحصاء في الإثبات والإهمال . وقبل ذلك كله ـ في رأيي ـ كان يجب إعداد العدة لوضع خطة شاملة في امتحان الشواهد التي اعتمدها النحاة وإخضاعها لنقد علمي يستبعد به كل اللُّغيَّات والنادر والقليل ، ويحرر ما سلم على الامتحان من الشواهد ليصبح هيكل النحو متماسكاً لا رقع فيه ولا ثغرات ، فذلك أجدى على العربية وعلى علومها .

* *

إن هذا المشروع ـ ردَّ الله غربته ـ كان يجب ألا يخرج من مجمع اللغة العربية ، بل يبقى هناك على الرف في انتظار أمثال له لا يستحيل أن ينجم عنها شيء نافع في جزئية ما . وقد وقع ما وقع ، وتعرض جيل من أبنائنا إلى ما تعرضوا ، وشعرنا جميعاً بالحسرة لهم إذ كانوا ضحايا نزوة أسلمت إلى نكبة أصابت غير الذين ظلموا ، وأوجع من ذلك أنه لم تحدد مسؤولية ولا مسؤولون! فإن أورثنا ألمنا لأبنائنا أن نكون في المستقبل أيقظ وأحذر وأشد حساباً بالتبعة وأقل عبثاً بمصالح الناس ، فقد أعقب خيراً ، والندم على التفريط مطهر كما يقولون ، والتدارك ما زال ممكناً .

أما تواصي الندوة فيجب أن يؤخذ بها جميعاً ، فبها يجب أن يبدأ ، هي مسلمات مسلكية ما كان ينبغي أن يغفلها قطر من الأقطار كل هذا الزمن .

وأختم بما بدأت ملحاً على أنه يجب أن تكون لغة المدارس في كل شيء هي العربية الفصحى الجامعة ، فإهمالنا هذه البديهة جر علينا ما جر ، والاشتغال بغير ذلك خبط في ظلام ، وحيد بالقافلة عن الطريق ، وحرام أن نحرم لغتنا ما نمنحه اللغة الأجنبية .

هذه هي السبيل وأنتم بعد والنحو بخير والسلام .

الاحتجاج للقراءات

مقالة تعرض لموضوع الاحتجاج بالقراءات
نشرها في مجلة مجمع القاهرة ، المجلد ٣٤ عام
١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ص٦٥

تضافرت جهود أولي العبقريات النادرة في هذه الأمة العظيمة ، على خدمة اللغة العربية في أنحاء شتى متقاربة ومتباعدة ، من حيث كانت لغة القرآن الكريم مصدر التشريع والتنظيم الكافلين خير الناس قاطبة . ونمت من هذه الجهود ـ فيما نمىٰ ـ علوم اللغة العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأصول فقه . . .

وفن (الاحتجاج للقراءات) الذي أعرض له إحدى هذه الفنون التي اشتغل العلماء بها خدمة للكتاب العظيم ، ولا بد من عرض تاريخي موجز للقراءات يمهد للكلام على الاحتجاج لها والتأليف فيه .

لم يكن كتبة الوحي الذين كان النبي ﷺ يُملي عليهم كلما أوحي إليه شيء ، من قبيلة واحدة بل من قبائل عدة ، أكثرها مضرية ، وكان الناس ـ على اختلاف لهجاتهم ـ في سعة من أمرهم في قراءة القرآن أول الأمر : كلٌّ يقرؤه بلحن قومه (أي لهجتهم) ؛ حتى إذا آنس أحدهم اختلافاً في قراءة سمعها من إنسان عما أقرأه الرسول ، هرع إليه شاكياً ، فسمع الرسول من كلٍّ قراءته فأقره عليها قائلاً : « هكذا أنزلت »[١] .

وكان التغيير تغيير أداء أحياناً من حيث الإمالة أو الترقيق أو التفخيم أو ضبط المضارع الرباعي مثل (نُنْزِلُ) و(ننزِّل) تخفيفاً أو تشديداً ، أو تغاير لفظين والمعنى واحد . . إلى آخر ما أحصَوْا من أحوال أطلقوا عليها خلافاً وما هي

---

(١) انظر مثلاً الجامع الصحيح للبخاري ٦/ ٢٢٧ كيف لبَّبَ عمر بن الخطاب هشام بن حكيم لما سمعه يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرئها الرسول على عمر نفسه . فقاده إلى الرسول فلما سمع من هشام قال : « كذلك أُنزلت » ولما سمعها من عمر قال : « كذلك أُنزلت ، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه » .

بخلاف ، إذ لم تكن تؤدي إلى تغيير معنى ولا حكم ، وكلها مسندة إسناداً صحيحاً إلى رسول الله ﷺ تعدد السامعون منه ، وعرفوا من أمر هذه الرخصة[1] ما لم يكونوا على علم به ، واندرجت هذه الوجوه الكثيرة من القراءة في تعبير (الأحرف السبعة) الواردة في الحديث ، وأريد بالسبعة التعدّد والكثرة لا تحديد العدد بسبعة أحرف .

وكثرت الوجوه المتواترة عن رسول الله في القراءة[2] ، وتفرق الصحابة في الأمصار كلٌّ يقرئ أهل مصره كما سمع ، على لهجته . وتعارف الناس هذه الوجوه واللهجات ولم ينكر أحد على أخيه قراءته . حتى إذا امتد الزمان قليلاً وكثر الآخذون عن الصحابة ، وقع بين أتباعهم شيء من خلاف وإنكار خشي الأجلاء من الصحابة مغبته مع الزمن ، فحملوا الخليفة الثالث عثمان بن عفان على معالجة الأمر ففعل ، وكان من رأيه المبارك كتابة مصحف يجتمع عليه قُرّاء الصحابة وكتبة الوحي . وهؤلاء وأولئك كثير متوافرون . . حتى إذا وقع خلافٌ كتبوه على لغة قريش . وكذلك كان .

استعار عثمان من أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر المصحف الذي كان جمعه زيد بن ثابت بتكليف من الخليفة الأول بناء على رأي عمر بن الخطاب الذي هاله أن استحرَّ القتل يوم اليمامة بالقُرَّاء ، ففزع إلى أبي بكر ليجمع الصحف واللِّخاف والعُسُب التي كتب عليها القرآن . . إلى ما في صدور الرجال ، فيودع ذلك كله بجمع من قراء الصحابة مصحفاً واحداً حتى لا يضيع من القرآن شيء . . فأرسلت السيدة حفصة المصحف ، فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام لينسخوا المصحف في المصاحف ، وقال للرهط من قريش : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما أنزل بلسانهم »[3] ففعلوا ذلك ، حتى إذا نسخ المصحف رد

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٢) قال ابن الجزري (٧٥١ـ٨٣٣هـ) : « وقول من قال (إن القراءات المتواترة لا عد لها) : إن كان أراد في زماننا فغير صحيح ، لأنه لم يوجد اليوم قراءة متواترة وراء العشر ، وإن أراد في الصدر الأول فمحتمل » غيث النفع ص٧ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٣٦ .

عثمان المصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق مصحفاً مما نسخوا ، وأمر بكل ما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يحرق[1] . وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف ، وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعة عليهم ، ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن . وجرّدت هذه المصاحف جميعاً من النقط والشكل ليحتملها ما صح نقله وثبت تلاوته عن النبي ﷺ . فكتبت المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرضة الأخيرة عن رسول الله ﷺ كما صرح به غير واحد من أئمة السلف[2] .

كانت تلك المصاحف التي وزعها عثمان على الأمصار مرجع الناس ، إليها يصيرون في قراءتهم وخلافهم ، وبذلك قضى على احتمالات الفرقة في الأجيال القادمة ، وترك الناس قراءات كثيرة صحيحة لا يحتملها الرسم العثماني[3] إيثاراً للعافية ووحدة الكلمة ، فكان من ذلك بعد التيسير الأول تقريب بين اللهجات ، وبقي الرسم العثماني ضابطاً لمّا اتفق عليه منها ، كما كان خطوة واسعة نحو التوحيد ، ثم تكفّلت الأعصار المتعاقبة بالباقي .

مضت المئة الأولى للهجرة والناس على ما قدّمنا لا يقرؤون المصاحف إلا بما أقرأهم الصحابة والتابعون ، والمقرئون الثقات الذين يرجع إليهم كثيرون مشهورون ، وانحصرت وجوه القراءات بما تواتر موافقاً الرسم العثماني ، ونسيت القراءات الصحيحة التي لا تنطبق على الرسم . إلا أن ناشئة نشأت لم ترجع في قراءتها إلى المقرئين الأئمة الثقات ، وإنما اكتفت بما ينطبق على الرسم فصار أهل البدع والأهواء يقرؤون بما لا يحل تلاوته وفاقاً لبدعتهم ، ولما كثر الاختلاف بفعل

(١) انظر صحيح البخاري ٤/ ٢١٩ والفهرست لابن النديم ص٣٧ .

(٢) النشر في القراءات العشر ص٧ . واللام في قوله (ليحتملها) لام العاقبة لا لام التعليل ، إذ لم يكن يومئذ نَقْطٌ ولا شكل .

(٣) كبعض ما في مصحف ابن مسعود ، وكبعض قراءات أُبي ، وبقي علم هذه القراءات عند المختصين . أصول النحو ص٢٣ و٢٤ .

هؤلاء أجمع رأي المسلمين على أن يتفقوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم فاختاروا من كلّ مصر وُجّه إليه مصحف أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدراية وكمال العلم ، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء ، واشتهر أمرهم وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم ، ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم »[١] . وكانت وجوه قراءتهم ينظمها ضابط صاغه علماء القراءات في شروط ثلاثة :

١ـ صحّة السند بالقراءة إلى رسول الله متواترة من أول السند إلى آخره .

٢ـ موافقة القراءة رسم المصحف العثماني .

٣ـ موافقتها وجهاً من وجوه العربية مجمعاً عليه أو مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله .

والشرط الأساسي كما يظهر للمتأمل هو الأول أما الثاني والثالث فالغالب أنهما أضيفا ليتكون من الثلاثة ما ينطبق تمام الانطباق على القراءات العشر المعروفة ، وليخرج بذلك قراءات متواترة تركها الناس منذ حملهم عثمان على مصحفه ، لمخالفتها رسمه .

انعقد إجماع علماء القراءة على هذه الشروط ، إلا أن بعضهم اكتفى من الشرط الأول بصحة السند إلى رسول الله ولم يشترط التواتر ، ويهمنا ـ هنا ـ بيان ضعف هذا الرأي ونكير العلماء عليه :

أشهر من عرف عنه ذلك في المئة الخامسة للهجرة مكي بن أبي طالب[٢] المقرئ المفسر العالم بالعربية ، فقد قال : القراءة الصحيحة ما صحَّ سندها إلى النبي ﷺ

---

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ص٦ .

(٢) أصله من القيروان ، وسكن قرطبة ، وسمع بمكة ومصر من ابن غلبون ، وقرأ عليه القرآن ، وكان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية ، حسن الفهم ، جيّد الدين والعقل ، كثير التأليف ، مجوّداً للقرآن ، أقرأ بجامع قرطبة ، وخطب به ، وانتفع به جمع وعظم اسمه . بغية الوعاة ص٣٩٦ .
وترك تآليف أكثرها في القرآن وقراءاته وعللها ، انظر أسماءها في الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلي ٨/ ٢١٤ .

وساغ وجهها في العربية ، ووافقت خط المصحف ، وشاع هذا القول بعده حتى تبعه على ذلك بعض المتأخرين ومشى عليه ابن الجزري[1] في (نشره) و(طيبته) . وهما كتابان صارا عمدة في فن القراءة يدرسهما كل من أراد تحصيله وكادت (مدرسيَّتهما) تسبغ عليهما التقديس .

واستنكر الجمهرة ذلك حتى قال الإمام السفاقسي في كتابه المشهور (غيث النفع في القراءات السبع) بعد أن أورده : « وهذا قول محدث لا يعوَّل عليه »[2] بل لقد قرر هذا الإمام أن « مذهب الأصوليين ، وفقهاء المذاهب الأربعة ، والمحدثين ، والقراء أن التواتر شرط في صحة القراءة ، ولا تثبت بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت رسم المصاحف العثمانية والعربية ، وهذا حكم صحيح يقتضيه المنهج السليم في كل ما يرجع إلى النقل . وبذلك تمتاز وجوه القراءات من الأحاديث الصحيحة التي يكتفى في ثبوت صحتها بنقل العدل الضابط عن مثله في سلسلة تنتهي بالصحابي دون اشتراط التواتر .

ويعجبني من السفاقسي استدراكه على ما قد يرد في الخاطر إزاء التواتر فقد لفت الأنظار بقوله :

« ولا يقدح في ثبوت التواتر اختلاف القراء : فقد تتواتر القراءة عند قوم دون قوم ، فكل من القراء إنما لم يقرأ بقراءة غيره ، لأنها لم تبلغه على وجه التواتر .

ولذا لم يعب أحد منهم على غيره قراءته لثبوت شرط صحتها عنده ، وإن كان هو لم يقرأ بها لفقد الشرط عنده » .

---

(١) محمد بن محمد بن محمد الجزري (٧٥١ـ٨٣٣هـ) نسبه إلى جزيرة ابن عمر أبو الخير شمس الدين العمري ولد ونشأ في دمشق ، وابتنى فيها (دار القرآن) ورحل إلى مصر والأناضول وما وراء النهر والحجاز . شيخ الإقراء في زمانه ، وصاحب المصنفات المشهورة في علم القراءات . له (النشر في القراءات العشر) و(تقريب النشر) و(طيبة النشر) و(غاية النهاية في طبقات القراء) وكلها مطبوع ، وكلها مما عظم نفعنا منه في تحقيق هذا الكتاب . انظر النهاية ٢/ ٢٤٧ ، والأعلام للزركلي ٧/ ٢٧٤ .

(٢) غيث النفع ص٧٢٦ . وانظر بحثنا في الاحتجاج من كتابنا (أصول النحو) ص٢٨ـ٣٣ .

أما القراءة الشاذة فهم في تعريفها فريقان :

الأول : جعلها فيما توفر فيه الشرط الأول والثالث وتخلف الشرط الثاني وهو موافقة رسم المصحف الإمام ، وفي هذا التعريف بعض تساهل قياساً إلى تعريف الفريق الثاني الآتي .

الثاني : جعلها فيما فقد التواتر من الشرط الأول ، فمهما تجتمع الشروط الثلاثة في قراءة بسند صحيح غير متواتر فهي ـ عندهم ـ شاذة . وأجمعوا على تحريم (القراءة بها في الصلاة ، كما تحرم في غير الصلاة أيضاً إذا اعتقد قرآنيتها أو أوهم ذلك)[1] .

هذا وقد قرروا أن الشاذّ هو كل ما وراء القراءات العشر المعروفة الآتي بيان أصحابها بعد .

تناقل التابعون قراءات الصحابة بالتواتر ، وذهبت قراءات كثيرة صحيحة بسبب أخذ الناس باتّباع المصاحف العثمانية[2] ، وأخذ عن أعلام التابعين خلقٌ كثير لا يُحصَوْن فذهبت بذلك أيضاً قراءات صحيحة لسبب يسير هو عدم بلوغها بالتواتر إلى التابعي مع صحتها في نفسها ، وهكذا دواليك حتى ساغ لابن الجزري وهو يؤرّخ لحركة التدوين في هذا الفن أن يقول :

« القراءات المشهورة اليوم [يعني الثلث الأول من المئة التاسعة للهجرة] عن

---

(١) ص٧ غيث النفع للسفاقسي ، أما من حيث الاحتجاج بها على اللغة والقواعد العربية فذلك سليم سائغ ، إذا صحت نسبتها إلى صحابي أو عربي سليقي من التابعين انظر كتابي (في أصول النحو) ص٣٠ فما بعد .

(٢) من القراءات الصحيحة التي فُضِّل عليها غيرها ما كان مسموحاً به اتّساعاً ، ورخصة على الناس قبل المصاحف العثمانية من قراءة كل قبيلة بلهجتها ، فكان من تيسير الله تعالىٰ أن أمر نبيه بأن يقرئ كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلي يقرأ (عتّىٰ حين) يريد ﴿حتى حين﴾ . وهكذا يلفظ بها ويستعملها والتميمي يهمز والقرشي لا بهمز والآخر يقرأ : (قيل لهم) ، (وغيض الماء) بإشمام الضم مع الكسر إلخ . قال ابن قتيبة : ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتقاده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد عليه ذلك . النشر ٢٣ و٢٤ .

السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً في الأعصار الأول : قَلّ من كُثرٍ ، ونَزّر من بحرٍ ؛ فإنَّ من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين ، وذلك أن القراء الذين أخذوا عن أولئك الأئمة المتقدمين من السبعة وغيرهم كانوا أمماً لا تحصى وطوائف لا تستقصى . والذين أخذوا عنهم أكثر . . وهلم جراً .

فلما كانت المئة الثالثة واتسع الخرق وقلَّ الضبط ، وكان علم الكتاب والسنة أوفر ما كان ، وفي ذلك العصر ، تصدّى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات ، فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام ، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة وتوفي سنة ٢٢٤هـ . . . إلخ[١] .

ومن قبله ألف في القراءات عدد من العلماء ، من هؤلاء ابن جبير المكي ، وهو قبل ابن مجاهد الآتي ذكره بعد قليل ، فقد صنف « كتاباً في القراءات فاقتصر على خمسة أئمة ، من كل مصر إمام ، وإنما اقتصر على ذلك لأن المصاحف التي أرسلها عثمان إلى الأمصار كانت إلى خمسة أمصار[٢] .

ويمضي الشيخ ابن الجزري يعدد المؤلفين الذين تتابعوا في الإقراء والتأليف ويذكر المؤلفات المشهورة لهم .

ويعنينا منهم الآن أبعدهم أثراً وأوسعهم شهرة : أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المتوفّى سنة ٣٢٤هـ بعد أبي عبيد بمئة عام ، إذ كان أول من اختار سبعة من أئمة القراء الكثيرين فألف في قراءاتهم ، واختار لكل منهم اثنين ممن روى عنه ، على ما سيأتي تفصيله . واشتهر اختياره هذا حتى صارت (القراءات السبع) التي اختارها علماً في القراءة وعناوين لكتب عدة ومنظومات شتى مشهورة ، هي إلى الآن المراجع التي تحفظ وتشرح وتدرس في حلقات الإقراء .

ولد ابن مجاهد بسوق العطش ببغداد سنة ٢٤٥هـ ، قرأ على شيوخ كثيرين عدَّ

---

(١) النشر ص٣٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١/ ٥٣ نقلاً عن السيوطي .

منهم ابن الجزري في كتابه (غاية النهاية في طبقات القراء) نحواً من مئة شيخ قرأ على أحدهم عبد الرحمن بن عبدوسي عشرين ختمة ، ونعته ابن الجزري بـ(شيخ الصنعة وأول من سبَّع السبعة)[1] وهو في شهادة ابن النديم صاحب الفهرست[2] واحد عصره غير مدافع ، وكان مع فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات وعلم القرآن ، حسن الأدب رقيق الخلق كثير المداعبة ، ثاقب الفطنة ، جواداً ، و« بعُد صيته واشتهر أمره وفاق نظراءه مع الدين والحفظ والخير ، ولا أعلم أحداً من شيوخ القراءات أكثر تلاميذ منه ، ولا بلغنا ازدحام الطلبة علىٰ أحد كازدحامهم عليه .

حكى ابن الأخرم أنه وصل إلى بغداد فرأى في حلقة ابن مجاهد نحواً من ثلاثمئة مصدَّر .

وقال علي بن عمر المقرئ : كان ابن مجاهد له في حلقته أربعة وثمانون خليفة يأخذون على الناس »[3] . وعد له ابن النديم الكتب الآتية :

١ـ كتاب القراءات الكبير .

٢ـ كتاب القراءات الصغير .

٣ـ الياءات .

٤ـ الهاءات .

٥ـ قراءة أبي عمرو .

٦ـ قراءة ابن كثير .

٧ـ قراءة عاصم .

٨ـ قراءة نافع .

٩ـ قراءة حمزة .

---

(١) ١/١٣٩ـ١٤٢ .

(٢) ص٤٧ .

(٣) غاية النهاية ١/ ١٤٣ . وذكر ابن النديم أنه توفي في شعبان سنة ٣٢٤ ودفن في تربة في حريم داره بسوق العطش ، ثاني يوم موته . الفهرست ٤٧ .

١٠ـ قراءة الكسائي .

١١ـ قراءة ابن عامر .

١٢ـ قراءة النبي ﷺ .

وعرف هؤلاء الذين ألف فيهم كتبه بالقراء السبعة . ولعله جمع السبعة في كتاب (القراءات السبع) على ما في كشف الظنون ٢/١٤٤٨ .

وينبغي أن نلفت الأنظار هنا إلى أن اختيار ابن مجاهد هذا لا يعني أن هؤلاء السبعة هم أفضل الأئمة ، فقد انتقده غير واحد بذلك ، وإن كثيراً من الأئمة هم أفضل من بعض هؤلاء مثل يعقوب الحضرمي وأبي جعفر يزيد بن القعقاع وعبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي وغيرهم[(١)] .

بل نقدوه لاختياره العدد سبعة لا أقل ولا أكثر . فدخل بذلك على العوام وأشباههم وغيرهم وهمٌ بأن هذه القراءات لهؤلاء السبعة هي المقصودة بالحديث الشريف : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وانبرى النقاد للومه وإزالة هذا الوهم من النفوس ، وصار بعضهم يزيد في تآليفه على السبعة وينقص حتى قال عبد الرحمن الرازي : « إن الناس إنما ثمَّنوا القراءات وعشَّروها وزادوا على عدد السبعة الذين اقتصر عليهم ابن مجاهد لأجل هذه الشبهة . . . وإني لم أقتف أثرهم تثميناً في التصنيف أو تعشيراً أو تفريداً إلا لإزالة هذه الشبهة »[(٢)] .

الاحتجاج للقراءات :

قدمت كل هذا من تاريخ القراءة والمقرئين[(٣)] لأؤيد ما كنت ذهبت إليه منذ سنين

---

(١) قال مكي بن أبي طالب ـ وقد ذكر الأئمة في كتبهم أكثر من سبعين ممن هو أعلى رتبة وأجل قدراً من هؤلاء السبعة ، وقد ترك أبو حاتم وغيره ذكر حمزة والكسائي وابن عامر ، وزاد نحو عشرين ممن فوق هؤلاء. والكسائي إنما ألحق بالسبعة بالأمس في أيام المأمون وغيره، وكان السابع يعقوب الحضرمي وأثبت ابن مجاهد في سنة ٣٠٠هـ أو نحوها الكسائي في موضع يعقوب . النشر ص٣ . قلت : وسترى في أقوال الكسائي التي نقلها مؤلف هذا الكتاب للاحتجاج كثيراً من الوهى وضعف الملكة .

(٢) انظر النشر ص٤٣ .

(٣) جعلتُ الكلام على القراء السبعة والعشرة فالأربعة عشر مع رواتهم في مدخل بعد التمهيد .

طويلة من أن تأليف المؤلفين القدماء يحتجون للقراءات المتواترة بالنحو وشواهده عكس للوضع الصحيح ، وأن السلامة في المنهج والسداد في المنطق العلمي التاريخي يقضيان بأن يحتج للنحو ومذاهبه وشواهده بهذه القراءات المتواترة ، لما توافر لها من الضبط والوثوق والدقة والتحري وهو شيء لم يتوفر بعضه لأوثق شواهد النحو . ولا أفيض هنا في شرح مذهبي فقد كنت شرحته واستدللت له منذ اثنتين وعشرين سنة في كتابي (في أصول النحو)[1] ، ولم أكن بدعاً في ذلك فقد سبقني من العلماء الجهابذة ذوي الفكر الحرّ المستقل عددٌ استشهدت بأقوال بعضهم .

وأيٌّ كان فهذا ما وقع ، وعليَّ الإشارة إلى شيء من تأريخ التأليف في الاحتجاج للقراءات :

بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية ترابط محكم ، فمهما تتقن من علوم العربية وأنت خاوي الوفاض من علوم القرآن فعلمك بها ناقص واهي الأساس . وسبب ذلك واضح لكل من ألم بتاريخ العربية : فهو يعلم حق العلم أنها جميعاً نشأت حول القرآن وخدمةً له ، فمتن اللغة اهتم قبل كل شيء بشرح مفردات القرآن ، والنحو والصرف نشأا[2] لعصمة اللسان من الخطأ في التلاوة أول الأمر ، وعلوم البلاغة همها جلاء روعة البيان القرآني لأذهان الناس ليتذوقوا حلاوته وتتلقح ملكاتهم بفصاحته . لذا كان أمراً طبيعياً قيام أئمة القراء بعلوم العربية ، وكان كبارهم أئمة العربية الفحول كأبي عمرو بن العلاء وحمزة الزيات ، ويعقوب الحضرمي وابن محيص ، واليزيدي ، وحتى الكسائي في كوفته على ضعف ملكته .

وكذلك الرواة عنهم ، وهذا الإمام ابن مجاهد مسبِّع السبعة يقول : « لا يقوم

---

(١) الطبقة الثالثة ص٣٠ـ٤٥ من بحث الاحتجاج ، وقرأت أخيراً لعلامة تونس الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ما يفيد اعتراضه على ذلك التحكيم الخطأ فقد قال في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) يصدر كلامه على القراءات « وأما ما خالف الوجوه الصحيحة في العربية ففيه نظر قوي ؛ لأنا لا ثقة لنابانحصار فصيح كلام العرب فيما صار إلى نحاة البصرة والكوفة ، وبهذا نبطل كثيراً مما زيّفه الزمخشري من القراءات بعلّة أنها جرت على وجوه ضعيفة في العربية ١/ ٥٥ .

(٢) قلت : كان أستاذنا يذهب إلى إدغام ألف الاثنين الضمير مع الألف قبلها بمدّة .

بالتمام إلا نحوي عالم بالقراءات ، عالم بالتفسير ، عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض ، عالم باللغة التي نزل بها القرآن »[1] .

في المئة الثالثة عصر التأليف بالقراءات وما قبلها بقليل كانت قراءات الناس متعددة كثيرة ، وكان كل يفاضل بين القراءة التي تلقاها والقراءات المستفيضة ، وتعدّدت وجوه المفاضلة من حيث التواتر وعدمه ، ومن حيث جلالة الإمام القارئ وقدمه ، ومن حيث البلدة التي استفاضت القراءة فيها مكية أو مدنية ، أو بصرية ، أو كوفية ، أو شامية ، وكان من جملة ما حكموا في المفاضلة الوجوه النحوية التي توافقها القراءة أو تقترب منها . وعلم العربية حينذاك متسع منتشر اتساع القراءات وانتشارها .

تجد الاستشهاد بالقراءات ولهاً مالئاً كتاب سيبويه (١٤٨ـ١٨٠هـ) وتستطيع أن تعدّ ذلك مذهب أستاذه الخليل ، إذ كان كثير النقل عنه والتأثر به . ولو وصل إلينا كتب من قبله لرأينا الأمر مقارباً ، ومن المحتمل أن يكون ألف في المئة الثالثة رسائل في الاحتجاج للقراءات ، وإن لم يصل إلينا علم شيء منها ، حتى إذا أدركنا المئة الرابعة وجدنا ابن النديم يؤكد أن لأبي بكر ابن السراج (ـ٣١٦هـ) كتاب (احتجاج القراءة)[2] . وأن للقارئ النحوي أبي طاهر عبد الواحد البزار (ـ٣٤٩هـ)[3] كتاب الفصل بين أبي عمرو والكسائي ، فيسبق إلى الذهن أنه لا بد أن يستعين في فضله بينهما بالنحو فإذا بلغ ابن مقسم أحد القراء بمدينة السلام (ـ٣٦٢هـ) سرد لنا كتبه في اللغة والنحو والقراءات فكان من بينها (كتاب احتجاج القراءات) وذلك بعد وفاة ابن مجاهد واشتهار تسبيعه . ثم جاء أبو علي الفارسي فألف كتابه المشهور (الحجَّة في علل القراءات السبع)[4] وهو تلميذ ابن مجاهد وعليه قرأ ، وتلميذ ابن السراج سابقه في التأليف في هذا الفن ، وجعل كتابه شرحاً لكتاب القراءات السبع

---

(١) الوقف والابتداء لابن الأنباري ص٢٥ نشر مجمع دمشق ، وتح محيي الدين رمضان .

(٢) ص٩٢ ، وبغية الوعاة ص٤٤ .

(٣) الفهرست ص٤٩ .

(٤) صدر منه الجزء الأول في القاهرة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بغير تاريخ) .

لابن مجاهد على ما قال صاحب كشف الظنون[١] .

وقد كنت عزمت ـ لشهرة الكتاب الواسعة ـ على دراسته ونشره سنة ١٩٤٨م في إحدى سفراتي إلى مصر ، وعكفت في دار الكتب على قراءة أجزائه الستة الضخمة ، ثم عدلت بعزم ، لتطويله الشديد وضعف تأليفه ، ولقد كان ابن جني منصفاً في نعته حين قال : « وقد كان شيخنا أبو علي عمل كتاب الحجة فأغمضه وأطاله حتى منع كثيراً ممن يدعي العربية ـ فضلاً عن القرأة ـ منه وأجفاهم عنه » .

ولا يحظى مطالعه بمادة علمية تعدل ذلك التطويل والاستطراد . وتمنيّت لو أن أحداً عرض المادة التي فيه في جزء لطيف يفي بحاجة أهل العلم وطلابهم ويجنبهم في الوقت نفسه مكارهه .

فلما كانت سنة ١٩٥٦م في شهرها العاشر حللت تونس ورأيت ما كنت أبغي في مخطوطة لكتاب (حجة القراءات) للشيخ أبي زرعة عبد الرحمن ابن زنجلة ، وأوصيت بعد مطالعتي إياه بتصويره ، واصطحبت مصوره معي ، وأبو زرعة من مخضرمي المئتين الثالثة والرابعة وسيأتي الكلام عليه وعلى كتابه بعد قليل ، واطلعت على كتاب (المختار في معاني قراءات أهل الأمصار) لأبي بكر أحمد بن عبيد الله بن إدريس ، فكان حسن التأليف قريب العبارة ، أداره على معاني ما اختلفت فيه القراء الثمانية[٢] (السبعة ويعقوب الحضرمي) في منهج مرضي وصفه بقوله : « اختصرت الترجمة وتنكبت الإطالة ، وملت إلى الإيجاز ، غير مخل بالإفهام ، وذكرت [من ذلك ما] يستعين به المتوسط ، ويتذكر به المتناهي . . »[٣] . ورأيت مؤلفه ـ بعد الإمعان ـ قد وفىٰ بشرطه .

ويأتي في المئة الخامسة مكي بن أبي طالب المغربي الأندلسي (٣٥٥ـ٤٣٧هـ) في كتابه (الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها) يشرح فيه مختصراً كان ألفه في المشرق ، وفي إشارته إلى ذلك ووصفه عمله فيه تأريخ لمرحلة هامة من

---

(١) ١٤٤٨/٢ .

(٢) لا تنسَ ما مرّ بك حول نقدهم ابن مجاهد على جعل العدد سبعة .

(٣) الورقة الأولى من مخطوط مكتبة جاد الله رقم ١٨ وهي في ١٢٤ ورقة كتبت سنة ٥٩٦هـ .

مراحل التصنيف في هذا الفن ، ورد فعل لعمل أبي علي الفارسي الذي طوّل واستطرد وأغمض ، وترك غصة في قلب مطالعه وحسرة حافزة على استئناف تأليف يقرب الفن إلى القارئ ، ويبعد عنه ما تورط فيه أبو علي وإليك جملاً من مقدمة مكي بعبارته : « كنت قد ألفت بالمشرق كتاباً مختصراً في القراءات السبع في سنة ٣٩١هـ وسميته (كتاب التبصرة) فيما اختلف فيه القراء السبعة المشهورون ، وأضربت فيه عن الحجج والعلل ومقاييس النحو في القراءات واللغات ، طلباً للتسهيل وحرصاً على التخفيف . ووعدت في صدره أني سأؤلف كتاباً في علل القراءات التي ذكرتها في ذلك الكتاب (كتاب التبصرة) أذكر فيه حجج القراءات . . ثم إذا صرنا إلى فرش الحروف ذكرنا كل حرف ومن قرأ به ، وعلته وحجة كل فريق ، ثم أذكر اختياري في كل حرف ، وأنبه على علة اختياري لذلك كما فعل من تقدمنا من أئمة المقرئين . . . وذكرت في كتاب (التبصرة) أسماء القراء ورواتهم وأسانيدهم إلى النبي ﷺ . . . فهذا الكتاب كتاب فهم وعلم ودراية ، والكتاب الأول كتاب نقل ورواية » .

ولمكي هذا فضل كبير في توسيع نشر هذا الفن في الأندلس والمغرب ، وقد شاعت مؤلفاته فيهما . وأسلوبه في كتابه سؤال وجواب ، هكذا اختار لنفسه . وقد وجدت كتاب (المختار) الآنف الذكر أقوى طبعاً من كتاب مكي وأمتن تأليفاً وأرضى طريقة ، وهناك كتب أخرى صنفت في العصر نفسه[1] .

---

(١) اطلعت أخيراً على كتاب نشر في بيروت بعنوان (الحجة في القراءات السبع) نسب لابن خالويه ، فلما تصفحته وجدته يعرض قراءات بقوله : « وقرئ كذا » . ولا ينسب القراءة إلى إمام غالباً ، ولا يدعمها بسندها ، وهذا في عمدته النقل والسند .

ثم قرأت عنه في مجلة (اللسان العربي) بحثاً قيماً عنوانه : (نسبة الحجة إلى ابن خالويه لا تصح) للأستاذ العلامة محمد العابد الفاسي ، فنّد فيه هذه النسبة ، وكان محقق الكتاب تقدم به إلى مسابقة المكتب الدائم ، فكان تقرير الأستاذ الفاسي هذا عذراً لعدم قبول اللجنة هذا العمل . (مجلة اللسان العربي ، المجلد الثامن ١/ ٥٢١) .

على أنه ـ ولو صحت النسبة ـ لا يرقىٰ هذا الكتاب إلى مستوى الكتب التي ذكرناها ، لعدم الفائدة من ذكر قراءات غير مسندة ، فالسند والعزو هما دعامتا الوثوق في البحوث النقلية .

وأزمنة تأليف هذه الكتب بدءاً من الفارسي متقاربة ومؤلفوها إلى تحكيم مذاهب النحو في القراءات أقرب منهم إلى العكس ، سمة غلبت على التأليف في العهد العباسي[1] ، وبدعة نسج الآخر فيها على منوال الأول ، وقد عرفت أن المنهج السليم يقضي بتحكيم القراءات في مذاهب النحو ، وتعديل هذه لتساوق تلكَ حين يكون بينها تخالف .

آن بعد هذه الإلمامة بتاريخ التأليف في الاحتجاج للقراءات أن أقدم مثالاً على كلمة مما اختلفوا فيه واحتجوا له ، أنتزعه من (حجة القراءات) كتاب أبي زرعة تلميذ ابن فارس وأحد المؤلفين المجودين في هذا الفن ، وقد طال مكثه بين يدي منذ صورته من المكتبة العبدلية في تونس . وعادته أن يبدأ كلامه بقوله : « قرأ فلان وفلان كذا » وحجتهما كذا ، وقرأ الباقون (يريد بقية القراء السبعة) كذا ، وحجتهم كذا ، فإن كان هناك أكثر من حجة قال : « وحجة أخرى » . وعرّج على سرد حججه معتمداً على المعنى حيناً ، وعلى ورود الكلمة كذلك في موضع آخر من القرآن الكريم حيناً آخر . أو على حجة نحوية أو صرفية أو لغوية أو بيت من الشعر أو جملة من حديث أو كلام من يحتج به ؛ حتى إذا اكتفى انتقل إلى آية أخرى حتى نهاية السورة . وإليكم ما شرح به قوله تعالىٰ في سورة يوسف : ﴿ . . وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : ١٢/٢٣] « . . قالتْ هِيْتَ لك . . ـ٢٣ » .

قرأ أهل العراق : « هيْتَ لك » بفتح الهاء والتاء ؛ أي هلمَّ وتعال وأقبلْ إلى ما أدعوك إليه . وحجتهم قول الشاعر :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أَتَيْتَا
أنَّ العراقَ وأهلَه عُنُقٌ إليك فَهَيْتَ هَيْتَا[2]

---

(١) باستثناء سيبويه الذي كان يستشهد بها ولها معاً .

(٢) في لسان العرب مادة (هيت) في شرح المفصل ٢٣/٤ : (سَلْمٌ) بدل (عنق) يقال جاء القوم عنقاً ، أي طوائف كل جماعة منهم عنق ، يريد أقبلوا إليك بجماعاتهم أما (سَلْمٌ) فمعناها : منقادون إليك . أنشد الفراء محتجاً لهذه القراءة (هَيْتَ) لشاعر لم يسمّه ، يخاطب علي بن أبي طالب . معاني القرآن ٢/ ٤٠ .

قال الزجاج : أما فتح التاء في (هيْت) فلأنها بمنزلة أصوات . وليس منها فعل يتصرّف ، ففتحت التاء لسكونها وسكون الياء واختير الفتح لأنَّ قبل التاء ياء كما قالوا : (كَيْفَ وَأَيْنَ) .

وقرأ أهل المدينة والشام : « هِيْتَ » وهي لغة .

وقرأ ابن كثير : « هَيْتُ » بفتح الهاء وضم التاء ، وحجته قول الشاعر :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قالَ داعٍ من العشيرة هَيْتُ
هم يجيبون ذا (هَلُمَّ) سراعاً كالأبابيل ، لا يغادرُ بيتُ[1]

فأما الضم من (هيْتُ) فلأنها بمعنى الغايات ، كأنها قالت : (دعائي لك) . فلما حذفت الإضافة وتضمنت (هَيْتُ) معناها بُنيت على الضم كما بنيت (حيثُ) .

وقرأ هشام : « هئْتُ » بالهمز من الهيئة كأنّها قالت : تهيّأْتُ لك .

ويشعر القارئ أن المؤلف متمكّن في فنه تمكّنه في علوم اللغة والأدب ورواية الشعر ، موجز في عبارته ، واثق أنه يخاطب محصلاً في هذا الفن مشاركاً في بقية الفنون العربية عامة . ولذلك ترك الإسهاب والتطويل وحتى التقديم للكتاب .

وكان يخلط بين ما نسميه اليوم حركات إعراب ، وما نسميه حركات بناء ؛ فيقول مثلاً في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم ﴾ [آل عمران : ١٨٨/٣] قرئ برفع الباء ونصبها (بدل قولنا اليوم بضم الباء وفتحها) ، وكذلك قوله : (الجزم) بدل السكون ، والظاهر أن هذا كان شأن قوم حتى المئة الخامسة ، أثراً من آثار الكوفيين في عدم الدقة .

وكثيراً ما يعقب بعد إيراد الحجج بالقاعدة يصوغها في إيجاز كقوله (٢/ ص٨٠) في صدد الآية ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف : ٤٧/١٢] : إنها قرئت بفتح الهمزة وإسكانها :

« كل اسم [ثلاثي] ثانيه حرف من حروف الحلق جاز حركته وإسكانه » .

---

(١) أبابيل : جماعات جماعات ، (ذا هلمّ) أي الذي يناديهم بـ (هلمّ) مستغيثاً .

ويغلب إذا كانت الحجة لغيره أن يسميه في مثل قوله في الصفحة نفسها : (وحجته ذكرها اليزيدي) ولا تستغرب كثرة تردد اسم اليزيدي وغيره من النحاة القراء ، فكتابنا مظنة وجود ذلك فيه بكثرة[١] .

وأكرر التنبيه هنا على أن كلمة الحجّة في هذه المؤلفات لا يراد بها الدليل ، لأن دليل القراءة صحة إسنادها وتواترها ، وإنما يراد بها وجه الاختيار : لماذا اختار القارئ قراءته من بين القراءات الصحيحة المتواترة التي أتقنها ؟ يكون هذا الوجه أحياناً تعليلاً نحوياً وأحياناً لغوياً .

وآونة معنوياً وتارة لأخبار أو أحاديث استأنس بها في اختياره . . . فهي تعليل اختيار لا دليل صحة القراءة ، إذ هي صحيحة بنفسها وتواترها لا بأسباب اختيار قارئ لها ، ولا بد من هذا التنبيه لأن عدداً من الباحثين البعيدين عن هذا الفن تورطوا في مزالق ومزلّات حين جهلوا المقصود من هذا المصطلح ، كما انزلق قديماً الزمخشري وهو لا يحسن هذا الفن ولا مصطلحه ، حين ظن أن القارئ حر في قراءته أو أنه أسير رسم المصحف العثماني ، وغاب عنه أن القراءة سنة متبعة .

هذا ، ولا بد أيضاً من لفت النظر إلى أن معنى إسناد كل حرف من حروف الاختلاف إلى صاحبه من الصحابة فمن بعدهم هو في تعبير ابن الجزري : « أنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به ، وملازمة له وميلاً إليه لا غير ذلك . وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراء ورواتهم يراد بها أن ذلك القارئ اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به ، فآثره على غيره وداوم عليه ، ولزمه حتى اشتهر وعرف به ، وقُصِدَ فيه وأُخذ عنه ؛ فلذلك أُضيف إليه دون غيره من القراء . وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد »[٢] .

---

(١) أصدرت الجامعة الليبية في بنغازي هذا الكتاب (حجة القراءات لأبي زرعة) في مطبوعاتها لعام ١٣٩٤هـ .

(٢) النشر في القراءات العشر ص٥١ .

وتشع كلمة (الاختيار) في هذا الضرب من تصانيف المقرئين ، وهذا ابن الجزري نفسه بعد أن نقل عن البغوي صاحب التفسير وشرح السنة قوله في أئمة القراءة : « والتفقت كلمة الأمة على اختيارهم [الذين اختاروه] » يعقب بقوله : « وقد ذكرت في هذا الكتاب (النشر) قراءات من اشتهر منهم بالقراءة واختياراتهم »[1] وفي ترجمته لأبي عمرو ابن العلاء يروي قول شعبة : « انظر ما يقرأ أبو عمرو مما يختار لنفسه فإنه سيصير للناس إسناداً »[2] .

وأضيف إلى ذلك بعد الإمعان في تاريخ الفن وتراجم رجاله أن هذا الاختيار لا يحصل إلا بعد أن يتقن القارئ المختص روايات عدة من القراءات الصحيحة المتواترة عن أئمتها ، فيختار لنفسه من بينها واحدة يثبت عليها وتؤخذ عنه .

إن هذه العناية البالغة في تحري القراءات يحمل اللغويين على العض عليها بالنواجذ والاحتجاج بها ، وتحكيمها في القواعد ؛ إذ أتيح لها من الضبط ما لم يتح للشعر ولا للنثر ، ولئن طرح القراء القراءات الشاذة لمخالفتها الرسم العثماني إنّ على اللغوي أن يتمسك بها كل التمسك متى صحَّ سندها إلى عربي سليم السليقة في عصور الاحتجاج .

---

(١) المصدر السابق ص٣٧ . ويُنقل عن الداني في طبقاته قوله : « وائتم بيعقوب في اختياره عامّةُ البصريين » إلخ ص٤٣ من النشر .

(٢) غاية النهاية ١/ ٢٩٢ .

مع الأخفش الأوسط
في كتابه
(معاني القرآن)

بحثٌ تتبع فيه أستاذنا أقوال الأخفش في مواضع
من كتابه ، وناقشها ، وعلق عليها ، تعليق العالم
المتمكّن الغيور .

نشر في مجلة مجمع القاهرة الجزء ٤٨
عام ١٩٨١م . ص٢١٢

كنت أظن ابن جني هو المدين الأول في ملء كتب النحو مما لا يصح من سماع ولا قياس ، وذلك حين ألف كتابه المشهور (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) وحشر فيه مزاعم لا تُحصىٰ من لهجات نسبت لقبائل على غير تحقيق . كما نثر فيه من أبيات الضرورات الشعرية حشداً غير قليل ، وجعل موطن الضرورة قاعدة يعلل بها ما لم يثبت من شواذ القراءات . . كنت أظن هذا حتى قرأت كتاب (معاني القرآن) للأخفش وقد طبع حديثاً[(١)] .

فصح لي القول (قبل ابن جني كان الأخفش) كما قالوا قديماً « قبل جحا كان أبو دلامة » .

وموضع الخلل في منهج بعض الأقدمين أنهم ـ حباً في التكثر وإظهار سعة الرواية ـ زحموا القواعد المطردة التي لا شك فيها والتي هي قانون العربية الجامع بضرورات لجأ إليها الشعر اضطراراً ، ولُغيّاتٍ زعموا أنها رويت عن (بعض) العرب ؛ فجعلوا منها قواعد وأسّست تعليلات وتأويلات صناعية في صياغتها . حتى ظنَّ من لم يعتدْ إعمال الرويّة وتحكيم المنهج السليم أنها من لغة العرب .

والحقُّ أنها ـ إن صحّ إسنادها إلى عربي معروف ـ من أخطاء بعض العرب .

---

(١) انظر عن هذه الطبعة العدد ١٢ . قلت : وهو مما سيأتي في هذا الكتاب .

وأشد أضرار هذا الخلل حين لن يعين في توضيح قراءات شاذة روَّجها أهل الأهواء بلا سند ، حشيت بها كتب التفسير مع محاولات تسويغها .

للأخفش أن يغلط سيبويه ، وأن يخلط أقوال كوفيين بأقوال بصريين . فلن يضيره ذلك عندي ، بل يزين المؤلف ـ في رأيي ـ أن يكون في العلم (موضوعياً) يأخذ بما أيقن أنه الحق مهما يكن القائلون به . بل ولو لم يقله أحد قبله ـ وعلى هذا سأعرض لبعض ما وقفت عنده من قضايا في كتابه (معاني القرآن) الذي لم يرق قط إلى مستوى كتاب أبي عبيدة (مجاز القرآن) وإن أُلف بعده ، وكان أمام عيني الأخفش حين التأليف .

هذه الكتب وما ألف على طريقتها بعدها ليست تفاسير ، لكنها تعليقات على بعض الغريب وكلام على شيء من النحو بالمناسبة ، واستشهاد على ذلك بشعر كان يجب التحقُّق من صحة روايته وصحة نسبته معاً ، وإليك بعض هذه الوقفات :

١ ـ ص٢٦ : ومنهم (أي العرب) من يسكّن هاء الإضمار للمذكر قال الشاعر :

فظِلْتُ لدي البيت العتيق أخيلُهُ ومِطْواي مشتاقان لَهْ أرِقانِ[(١)]

وهذا في لغة أزد السراة ـ زعموا ـ كثير .

أراد الأخفش الاحتجاج لقراءة من أدغم الهاءين في قوله تعالىٰ ﴿فِيهِ هُدًى﴾[(٢)] ، وهذا شيء آخر غير إسكان الضمير المذكور كما في الشاهد الشعري .

هذا الاحتجاج منقوض من وجهين :

الأول : إذا قرأنا المقطوعة التي منها هذا البيت وهي في خزانة الأدب (٢/ ٤٠٤) وفي الأغاني (١٩/ ١١١)[(٣)] وجدنا ضمائر للمذكرين عدة ، لم يسكّن الشاعر غير كلمة (له) في هذا البيت لضرورة الوزن ، فلو كانت لغته لرأيناها مستفيضة في شعره كله ، فعرف أنّها ضرورة لا يحتج بها .

---

(١) ولا يقولون : (زعموا) كما قال الأخفش .

(٢) البقرة ٢/ ٢ .

(٣) وهي لرجل من الأزد يصف برقاً .

والثاني : أن البيت حُرّف ليصحَّ الاستشهاد به على قضية مزعومة لا تَعْدو الضرورة . أما الرواية الصحيحة للبيت فكما رواه أبو عمر الشيباني أوثق العلماء وأخبرهم بشعر القبائل :

فبــتُّ لــدى البيــت الحــرامِ أشيمــه   ومطــواي مــن شــوق لَــهُ أرِقــانِ

وهي التي اعتمدها أبو الفرج الأصفهاني ، فلا إسكان ضمير ، ولا لهجة لقبيلة الشاعر (يعلى الأزدي) ؛ كل ما في الأمر تحريف متعمد لبيت ينقله لاحق عن سابق وتمتلئ به مصادر متسلسلة حتى يوم الناس هذا[1] وقاعدة توضع لتسويغ تحريف ، ونسبة لقبيلة لم تصح ؛ وكان الله لأزد السراة .

٢ـ ص٤١ « وأما قوله ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة ٢/ ١٣] فقد قرأهما قوم مهموزتين جميعاً ، وقالوا : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة ٢/ ٦] ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر ٣٥/ ٤٣] وقالوا : ﴿ أَإِذَا ﴾ [الواقعة ٥٦/ ٤٧] و﴿ أَإِنَّا ﴾ [الواقعة ٥٦/ ٤٧] كلُّ هذا يهمزون فيه همزتين ، وكل هذا ليس من كلام العرب إلا شاذاً . . . إلخ » .

وهذا عجيب جداً ، وقراءة عاصم في هذا كله بتحقيق الهمزتين رواها عنه حفص وعليها قراءة أهل المشرق اليوم كله ، وهو من القراءات السبعة ، قرأها بسنده المتواتر إلى النبي ﷺ ، فمن أين قطع الأخفش بأنها ليست من كلام العرب وأنها شاذة!

٣ـ ص٤٥ : وقوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ [البقرة ٢/ ١٤] فأذهب الواو ، لأنه كان حرفاً ساكناً لقي اللام وهي ساكنة ، فذهبت لسكونه ولم تحتج إلى حركته » . .

أقول : لم تذهب اللام ، بل الذي ذهب الواو ، سوء عبارته أفهم ضد مراده . وحفظ الترتيب أن يقول : (فذهب لسكونها) ولو أراد إيضاحاً لقال : (فذهبت الواو لسكون اللام) . لكن هنا يفوت عليه التدبير الذي قصد[2] .

---

(١) انظر الخزانة ٥/ ٢٧٥ . ط . هارون .

(٢) إشارة إلى قول الأخفش الذي أورده الجاحظ ، لما عاب عليه بعض الغموص : « لتدعوهم حلاوة ما=

٤ـ ص٩٩ : « فإن قلت : إنما يكون هذا (يريد زيادة حرف الجر من) في النفي والاستفهام) .

(قلت) : فقد جاء في غير ذلك . قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [البقرة ٢/ ٢٧١] فهذا ليس باستفهام ولا نفي ، وتقول : (زيد من أفضلها) تريد : هو أفضلها » . اهـ .

الشطر الأخير من كلامه غير مسلَّم ، إذ فيه (من) تبعيضية ليست زائدة ، معناها : هو أحد أفضلها ، أما (هو أفضلها) فقد فُضّل على جميعها .

أما الآية الكريمة فـ (من) فيها تبعيضية حتماً ، وإنما أوقع الأخفش في هذا ما أوقع الكسائي من بعده . ومن ثم كان ما يسمى المذهب الكوفي الذي لا يشترط في زيادة حرف الجر (من) نفياً ولا استفهاماً ولا غيرهما دعاهم إلى الخطأ في هذا غفلة بعضهم عن حكم الشريعة في الذنوب التي تكفر والتي لا تكفر . ومعلوم بالضرورة أن اثنتين لا تكفران : الشرك بالله والإضرار بالناس ، ومن ثم دخلت (من) في بعض الآيات لتقرر أن بعض الذنوب يغفرها الله وهي ما تعلّق بحقوق الله من تقصير في صلاة أو صوم أو عبادة ، أما ما تعلق بحقوق الناس فلا بد من أدائه إلا أن يعفو صاحب الحق . . وعدد من النحاة أتوا من ضعف ثقافتهم العامة كما نقول اليوم . وأعاد المؤلف قوله في هذه الآية في ص٢٥٤ مع أمثلة أخطأ في أكثرها .

٥ـ ص١٢٠ : (وكذلك : ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ [الحشر ٥٩/ ٧] (أن) مضمرة وقد جَرّتها (كي) . وقالوا : (كيمَهْ) ، فـ (مه) اسم لأنه (ما) التي في الاستفهام ، وأضاف (كي) إليها .

أما كون (كي) في الآية جارة فغير صحيح البتة ، و(أن) لا تضمر بعدها لأن (كي) نفسها هي المصدرية الناصبة للفعل في الآية على عكس ما قرر بعض النحاة[1] .

= فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت » الحيوان للجاحظ ١/ ٩٢ . .

(١) انظر تعليقنا على الشواهد المصنوعة أو المحرفة التي يحتجون بها في طبعتنا لمغني اللبيب ص٢٤٢ =

وأما (كيمهْ) فصحيح أن سيبويه ذكرها في الكتاب ، ولم يعزها إلى عربي فصيح ، لكنه نص بأمانة أن ذلك شأن بعض العرب قال : « وبعض العرب يجعل (كي) بمنزلة حتى ، وذلك أنهم يقولون (كيمهْ) . . لها »[1] .

ولم يسمهم سيبويه ، وأمر هذه يسير ؛ فإن صحّت عن بعض العرب فتقدير الفعل بينها وبين (ما) واجب والمعنى : (كي يفعل ماذا ؟) . وفي جميع الأحوال لا تكون (كي) في الآية جارة أبداً ، ولا تخرج القراءات الصحيحة الثابتة فيه على رواية شاذة ولا مجهولة .

٦ـ ص١٨٩ علق على قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ [البقرة ٢/ ٢٨٢] بقوله : « فأضمر الشاهد وقال : ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ إلى الأجل الذي تجوز فيه شهادته والله أعلم » اهـ .

قلت : الضمير لا يعود إلى الشاهد بل إلى الدَّيْن ، وعليه تدور الآية ، ولم أفهم ماذا يقصد بالأجل الذي تجوز فيه شهادة الشاهد إنما يكتب أجل الدين . وعلى من يتصدى للتفسير أن يعرف الفقه ويفقه النصوص ومراميها حتى لا يزل في مراجع الضمائر ، وذلك من مواد الثقافة العامة في البلاد الإسلامية على مدى العصور .

٧ـ ص١٩٦ علق على قوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [ص ٣٨/ ٤٩ ـ ٥٠] بقوله : « وإن شئت جعلت (جنات) على البدل أيضاً وإن شئت رفعت على خبر إن . . . ولم يقرأه أحد بالرفع) . اهـ .

وظاهرٌ خطؤه في رفعه على خبر (إنّ) لأن خبرها تقدم اسمها ، وهذا سهو منه رحمه الله .

٨ـ ص١٩٧ قال الشاعر :

= (دار الفكر بيروت ١٩٧٢) وانظر في تحقيق هذا بحثنا المنشور في محاضر مؤتمر الدورة الأربعين لمجمع اللغة العربية في القاهرة ص٣٠٥ فما بعد ، وأدرجْتُه في مقتطفاتها مجلة اللسان العربي في الجزء الأول من المجلد السادس عشر ص٢٣٤ .

(١) الكتاب لسيبويه ١/ ٤٠٨ .

إنَّا وجدنا بني جُلاَّن كُلَّهُمُ   كساعدِ الضَّبِّ لا طولٌ ولا عظمُ

على البدل ، أي كـ (لا طول ولا عظم) اهـ .

وأعاد ذلك ص٢٨٤

قلت : البدل غير مفهوم هنا ، وقد قصر اللفظ عن تأدية المعنى . والمعنى أنهم متساوون لا تفاوت بينهم في طول ولا عظم .

الشاعر مجهول ، فإن لم يكن البيت مصنوعاً فهو إقواء[1] وحق المعنى أن يقول : (لا طُولٌ ولا عظمٌ فيها) فاضطر إلى كسر القافية ، والإقواء خير من هذا البدل المتكلف .

٩ـ ص٢١٣ (وقال : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران ٣/ ١١١] استثناء يخرج من أول الكلام ، وهو كما روى يونس[2] عن بعض العرب قال : ما اشتكى شيئاً إلا خيراً) .

قلت : ليسا سواء ، فما قبل (إلا) في الآية وما بعدها من جنس واحد ، أما فيما روى يونس فمختلفان ، وقد خانه التوفيق في غير موضع من الكتاب حين يجمع ما لا يجتمع .

١٠ـ ص٢٥٥ في الآية : ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة ٥/٦] قال : « ويجوز الجرّ على الإتباع . وهو في المعنى : (الغَسْل) . نحو : « هذا جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ » والنصب أسلم وأجود من هذا الاضطرار . ومثله قول العرب : « أكلتُ خبزاً ولبناً » واللّبن لا يؤكل . . . إلخ » اهـ

أما أن الآية مثل : « أكلت خبزاً ولبناً » فغير صحيح ، لأنّ الأرجلَ تُغْسَل وتُمْسح وقراءة الخفض (وأرجلِكم) صحيحة ، على العطف لا على ما زعموا على الإتباع ،

---

(١) أعاد ذكره في ص٢٨٤ مع بيت سابق وهو :

إنّي وجدْتُكَ يا جُرْثُومُ من نفرٍ   جرثومةِ اللؤمِ لا جرثومةِ الكَرَمِ

(٢) هو : يونس بن حبيب الضبيّ النحوي ، روى عن سيبويه فأكثر . وله قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها . مات سنة ١٨٢هـ . بغية الوعاة ٢/ ٣٦٥ .

والجر على الإتباع لم يثبت فيه شيء من كلام عربي ثقة .

١١ـ ص٢٦٢ يجيء أشياء في اللفظ لا تكون في المعاني ، منها قولهم : « جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ » . وكان قال في ص١٥ : وهذا يشبه : « هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ » . وآنفاً شبه بهذا القول الآية : ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ ﴾ في قراءة من قرأها بجر (وأرجلِكم)[1] .

أقول : كثر الاحتجاج والتمثيل بهذه الجملة التي سمعها سيبويه ـ رحمه الله ـ من الخليل ، ولم يذكر أحدهما أنه سمعها من عربي يحتج به ، بل هي مما تنوقل بين نحاة من المئة الثانية مثالاً لوجه إعرابي كيف يخرّج إذا وقع ، وبمرور الزمن صار يحتج به متأخرون حتى صارت شبه شاهد وليست به . فلم تقع في كلام عربي فصيح ، إلا إقواء في ضرورة شعرية مثل التي ارتكبها امرؤ القيس في قوله :

كأنَّ ثبِيراً في عرانين وَبْله كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مزمّلِ

ولولا الضرورة لكان الوجه (مزملُ) لأنه صفة لكبير أناس لا لـ (بجاد) .

ومثله قول العجاج :

ـ كأنَّ غزْل العنكبوت المُرْمَلِ[2] .

وكان عليه أن يقول : (المرملَ) بالنصب نعتاً لـ (غزل) فقد أقوى كما أقوى امرؤ القيس .

وأهملوا تأكيد سيبويه أن «الوجه النصب» وهو كلام أكثر العرب وفصحائهم[3] ، نسوا نص الخليل على أن هذا غلط ، فقد جاء في المسألة نفسها قول الخليل : « . . . وإنما يغلطون إذا كان الآخر بعدة الأول وكان مذكراً مثله . . إلخ »[4] .

---

(١) هي قراءة أبي بكر عن عاصم . انظر السبعة في القراءات ٢٤٣ .

(٢) الكتاب لسيبويه ١/ ٢١٧ وكل ما فعل الخليل وسيبويه محاولة الاعتذار عن هذا الغلط الذي قد يفهم منه وضع قاعدة .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الكتاب لسيبويه ١/ ٢١٧ .

فإذا كان السماع والقياس على خلافه وكان غليظاً في رأي الخليل ، فكيف سوّغ الوهم لمن نقل هذه الجملة من بعدهما حتى يومنا هذا أن يبني عليها حكماً بل قاعدة ؟! غفلة ظاهرة . واعتماد على نصف الكلام دون وعي لآخره ، وبلاء على المحصلين في هذه الكتب إلى اليوم . وأعجب من هذا حملهم قراءة الجر (وأرجلِكم)[1] على جُحْرِ ضبٍّ خربٍ . والقراءة واضحة المعنى . وقد مسَحَ بعض الصحابة إلى أن جاءت السنة مؤكدة الغسل .

١٢ـ ص٢٦٢ في تعليقه على الآية : ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة ٥/٧١] قال : . . . وإن شئت جعلت الفعل للآخر ، فجعلته على لغة الذين يقولون : « أَكلوني البَراغيثُ) » اهـ .

لم يكن لذي ملكة في العربية أن يسوي هذه اللغة الرديئة ـ إن صح ـ أن ناساً من العرب تكلّموا بها ـ واللغة الفصحى النقية ، والذي ثبت أنها وردت في ضرورات شعرية لا يبنىٰ عليها حُكمٌ ، وقد يعتذر عن الشعراء الذين اضطروا إليها أن الضمير يعود إلى شيء في نفوسهم ، فلما نطقوا بالفعل فسروا المضمر وهي على كل حال لا تعدو الضرورة ، ويكفيها نبزاً تسميتها لغة (أَكَلوني البراغيثُ) ، وهي وردت في كلام بعض النحويين في صدد تشقيقاتهم لبعض صيغ افترضوها ولم تكن ، وكل ما ورد في كتاب سيبويه قوله : « وإن سميت رجلاً (ضربوا) فيمن قال : « أكلونيَ البراغيث » ؟! ، قلت : هذا ضربون قد أقبل . . »[2] ونقله عن الخليل : « من قال : « أكلوني البراغيث » أجرى هذا على أوله فقال : مررت برجل حسنين أبواه ومررت بقوم قرشيين آباؤهم . . »[3] .

---

(١) الآية ٦ من سورة المائدة وانظر كلاماً في موضوع الآية في تفسير الكشاف ١/ ٦١١ وتفسير القرطبي ٦/ ٩٢ ، وأتى (المسح) في اللغة يشمل الغَسْل ، ولأبي إسحاق النحوي استنكار لجعل الآية على (جحر ضب خربٍ) أي : زعم الجر على الجوار ، وحصر ذلك في الضرورات الشعرية . اللسان مادة (مسح) .

(٢) الكتاب لسيبويه ٢/ ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٣٧ .

والطريف في الأمر أن هذه الجملة المستذلة (أكلوني البراغيث) فيها رداءة أخرى هي إطلاق واو الجماعة على ما لا يعقل ، ولا تظنن سيبويه والخليل يجوزان ذلك ، ولا يقول هذا عربي عاقل البتة .

ومن أعظم النّكر حمل آية على هذه اللغة بحال من الأحوال .

وفي عصور متأخرة حين أولع بعض أهل الصناعة بتزوير شواهد على اللُّغيَّات الرديئة أو النادرة ، أسقطوا أول الحديث : « إنَّ لله ملائكةً يتعاقبون فيكم ؛ ملائكة بالليل وملائكة بالنّهار » فبدؤوه من قوله : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » ليجعلوه شاهداً على لغة زعموها لغة « أكلوني البراغيث » مما وفيناه حقه في موضع آخر[1] ، بل أبعد بعضهم جداً فأراد حمل آيات من الكتاب الكريم عليها جهلاً بأسلوب القرآن وتجاهلاً للمعنى ، وهي جميعاً إما من باب البدل كما في الآية المتكلم عليها ، وإما من حذف فعل القول كما في « وأسروا النجوى قال : الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم »[2] .

١٣ـ ص٣١٢ في تعليقه على الآية : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ [الأعراف ٧/١٥٥] قال : أي : اختار من قومه ، فلما نزع (من) عمل الفعل . . . وقال النابغة :

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ والسَّفاهةُ كاسمها ... يُهدي إليَّ أوابدَ الأشعار

والبيت لا شاهد فيه على ما قال . ولعل هذا سهو منه .

١٤ـ ص٤١٢ وقال :

أطوفُ بها لا أرىٰ غيرَها ... كما طافَ بالبيعةِ الرَّاهبِ

فجعل الراهب بدلاً من (ما) ، كأنه قال : كالذي طاف » اهـ .

---

(١) تقدّم تخريج الحديث والكلام عليه .

(٢) لا يتسع المقام للتفصيل فارجع إلى بحثنا (البناء على الشاهد الأبتر) المنشور في محاضر مؤتمر الدورة الحادية والأربعين لمجمع اللغة العربية في القاهرة (١٩٧٥) ص٢٤٠ فما بعد . قلت : هو موضوع البحث الآتي .

البيت مجهول القائل ، لا يعرف ما قبله وما بعده حتى نثبت من أن رويّه مكسور ، والأصل فيه (الراهبُ) بالرفع ، فما الذي جعلهم يعدلون عن الأصل ، وهم لا يعرفون القائل ولا سياق البيت ؟ وما الذي صرفهم عن الكلام المطبوع (أطوفُ كطواف الراهب) فتكون (ما) مصدرية ؟ لعل السبب أن البيت يخسر بذلك ما علقوا عليه من صناعتهم وإشكالاتهم ، استعمال (ما) للعاقل ، وتقدير مضاف محذوف : كطواف الذي ، وجعل الراهب (بدلاً) من (ما) المظلومة هذه . ولأمر ما لم يذكره سيبويه ، والله أعلم من الذي وضعه هذا الموضع الشاذ .

١٥ـ في ص٤١٤ : وقال : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ [الحج ٢٢/ ٢٥] معناه : ومن يرد إلحاداً ، فزاد الباء ، كما تزاد في قوله : ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ [المؤمنون ٢٣/ ٢٠] .

وقال الشاعر :

أَلَيْسَ أميريْ في الأمور بأَنْتُما بما لستما أهل الخيانة والغدر » اهـ

أما أن الباء في قوله : ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ زائدة فغير صحيح . فالشجرة لا تنبت الزيت ، ولكنها تنبت ثمرها (الزيتون) حاوياً الزيت فالباء للمصاحبة ، وليست زائدة .

وأما الشعر الذي استشهد به الأخفش فمصنوع رديء الصنعة جداً ، والتكلف فيه ظاهر ، وصانعه لا ملكة له في اللغة .

ونحن نستنكر الاستشهاد بشعر بليغ للدلالة على صحة كلمة في القرآن الكريم ، فكيف بمثل هذا المسخ من الزيف ، وإنما الصواب العكس : أن نستشهد بالقرآن على الشعر وغيره . إنه انحراف ظهر في المئة الثانية للهجرة ولوعاً برواية الشعر ، استشرى وتتابع النحاة فيه إلى اليوم .

١٦ـ ص٤٢٣ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان ٢٥/ ٦٣] فهذا ليس له خبر إلا في المعنى والله أعلم اهـ .

قلت : إن خبره إلى جانبه لفظاً ومعنى وهو (الذين) أو قوله بعد اثنتي عشرة آية : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان ٢٥/ ٧٥] والأول أقرب .

١٧ ـ ص٤٢٣ أيضاً : وقال الشاعر :

يـا عـاذلانـي لا تُـرِدْنَ مـلامتـي   إنَّ العـواذلَ ليـسَ لـي بـأَميـرِ

قلت : بيت مصنوع لا يصحُّ الاحتجاج به .

١٨ ـ ص٤٢٧ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ [الشعراء ٢٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٣] .

قال الأخفش : ليس بمعطوف على (حتى) ، إنما هو جواب لقوله ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ، فلما كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك ﴿ فَيَقُولُوا۟ ﴾ إنما هو جواب النفي . اهـ

قلت : بل الصحيح أنه معطوف على (حتى) وأن هذه الفاء ليست جواب النفي أي إنها ليست السببية بحال ، إنما هي العاطفة ، وأن (فيقولوا) معطوف على (فيأتيهم) وليست جواب النفي . ولا معنى للسببية هنا البتة إنما المعنى : لا يؤمنون به حتى يروا العذاب وحتى يأتيهم بغتة وحتى يقولوا . والفاء رتبت الحوادث : يأتي العذاب ، فيرونه ، فيقولون .

١٩ ـ في ص٤٣٤ : وفي الشعر :

تنوء بها فتثقلها عجيزتها . . .

وليست العجيزة تنوء بها ، ولكنها هي تنوء بالعجيزة ، وقال :

مـا كنـتُ فـي الحـربِ العـوان مُغَمّـراً   إذا شَـبَّ حَـرُّ وَقُـودِهـا أَجْـذالَهـا

قلت : البيت مستوٍ لا قلب فيه . فحَرُّ الوقود هو الذي يضرم أجذال الحطب ، فلا شاهد فيه إذن .

٢٠ ـ ص٤٣٧ وقال : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ [الروم ٣٠/ ١٠] فـ ﴿ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ مصدر هاهنا مثل (التقوى) . اهـ

ليست ﴿ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ هنا ولا غير هنا بمصدر ، هي مؤنث الأسوأ والمراد بها النار كما في المعجمات[1] ويقابلها : الحُسْنىٰ .

---

(١) اللسان (سوأ) .

٢١ـ ص٤٦١ وقال : ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ [غافر ٤٠/٣٦] .

(بعضهم يضمُّ النونَ كأنه أتبعه ضمة النون التي في (هامانُ) ، كما قالوا (مِنْتِن) فكسروا الميم للكسرة التي في التاء ، وبينهما حرف ساكن فلم يحُلْ ، وكذلك لم يحُل الباء في قوله : (ابن لي) . اهـ

أتساءل : ما غناء هذا في بيان معاني القرآن ؟ ثم متى كان انحراف اللسان في كلمة مصدر قاعدة . تؤيد انحرافاً في النطق بآية ؟ وظاهر بعد هذا أن المحتج له كلمتان والمحتج به كلمة واحدة ، وهذا فارق كاف .

وعيب هذا الكتاب عنايته بقراءات لا تُعرف . ومتى جُهل قارئ القراءة لم تجز روايتها بل الاحتجاج بها . وكان عمل الأخفش وأمثاله في عدم التزام منهج سليم قدوة غير صالحة لمن بعدهم حتى كثر في كتبهم الطَّمُّ والرَّمُّ[١] ، وصاروا يحتجون بـ (مِنتِن) و(المغيرة) و(ماأيطبه) وغيرها من سبق اللسان أو انحرافه[٢] .

٢٢ـ ص٤٨٠ قال : « ألا ترى أنهم يقولون : (يدع) ولا يقولون : (ودع) ولا يقولون : (وذر) » اهـ

أقول : بل قالوه في شعرهم ونثرهم ووردت بها قراءة صحيحةْ « ما وَدَعك ربك وما قلى »[٣] وحديث شريف « لينتهينّ قوم عن وَدْعهم الجمعات أو ليختمن على قلوبهم »[٤] وشعر لغير واحد مثل قول أبي الأسود :

ليتَ شعري عن حبيبي ما الذي   غالَهُ في الحبِّ حتى وَدَعَهْ

وقول الآخر :

وثَمَّ وَدَعنا آل عمرو وعامر   فرائس أطرافِ المثقَّفَةِ السُّمرِ

وانجرّ ابن جني على أذيال الأخفش فجعل القراءة شاذة وادّعى أنَّ (وَدَعَ) شاذة

(١) الطمّ والرَّمُّ : الرطب واليابس . يعني المتناقضات . اللسان (رمَّ ، طمّ) .

(٢) انظر مثلاً على ذلك ص(٧٣٧) من كتاب الإنصاف لابن الأنباري .

(٣) الضحى ٩٣/٣ : وهي قراءة النبي ﷺ وعروة بن الزبير . المحتسب لابن جني ٢/ ٣٦٤ .

(٤) رواه مسلم في كتاب الجمعة .

في الاستعمال مماتة . حتى جاء من المتأخرين من أصلح خطأه وخطّأ الأخفش فأثبتها في معجمه كصاحب (المصباح المنير) والمطرزي صاحب (المغرب)[1] .

٢٣ـ في ص٤٩٩ : قال : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف ٦١/٣] أي كبر مقتُكم مقتاً . ثم قال : « أن تقولوا ما لا تفعلون في قولكم » . اهـ

قلت : إذا جعلت هذا الكلام نسقاً أصبح : كبر مقتكم مقتاً قولكم! جعل الأخفش الفاعل محذوفاً . فقدره ، ثم جعل (أن تقولوا) بدلاً من هذا المحذوف . والكلام واضح ولا فاعل (كَبُر) مذكور : كبر مقتاً قولكم . فما الداعي للحذف والتقدير والإبدال والبيان غنيٌّ عن كل هذا الالتواء ؟

٢٤ـ في ص٥٠٥ : قال : ﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم ٦٨/٦] يريد : أيكم المفتون) . اهـ

قصد أن الباء زائدة . وليست بزائدة . والذي حمله على هذا القول ذهاب خاطره إلى أن (المفتون) هنا اسم مفعول . وليس الأمر كذلك . بل (المفتون) مصدر كالفتنة . والمعنى فستبصر ويبصرون بأيكم (تقع) الفتنة أي الابتلاء[2] .

لمن عمل الأخفش كتابه معاني القرآن ؟

لو كان للكتاب مقدمة تبين الغرض من تأليفه ما ورد هذا السؤال الذي بقي في ذهننا ماثلاً حتىٰ آخر صفحة منه ، ومع هذا لا تستطيع إجابة تقنعنا . فبينا نراه في أوله ص(٣ـ٩) يفيض في بيان سقوط ألفات الوصل (الرحمن الرحيم الحمد) في النطق ، بعد إفاضته في أشياء تتعلق بألف (اسم) أكثرها لا يوضح معنى في النص ، ويجب أن يُستغنى عنها في هذا المقام ، ولكنها مما يدرسها المتقدمون في علوم اللغة ، تراه في مواضع أخرىٰ يبسط القول في أن ألف (أفعلُ) لا تسقطُ ، مما يعرفه المبتدئون فيقول في قوله تعالىٰ ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر ٤٠/ ٦٠] .

---

(١) المسألة مستوفاة في كتابي (أصول النحو) ص٣٣ فما بعد ، ومادة (ودع) في المصباح والمغرب .

(٢) مختار الصحاح (فتن) .

فقوله : ﴿أَسْتَجِبْ﴾ إنما هو (أفعل) (كذا!) . وهذه الألف سوى ألف الوصل . ألا ترى أنك تقول : (أبيع) فتجيء فيها ألف لـ (أفعل) . فهي نظير الياء والتاء في (يفعل) و(تفعل) تقطع كل شيء كان على (أفعل) في وصل أو قطع - ص٤٦٣ .

وحيناً يتجاوز السورة لا يعلّق عليها بشيء كسور (الضحى) و(البيّنة) و(ألم نشرح) ، كما لا يعلق على آيات كثيرة بشيء ، بحيث لا تجد السرد متصلاً في أرقام الآيات .

وعلى هذا لا يمكن القطع بمستوى القارئ الذي تصوره الأخفش حين عمل الكتاب .

والاحتمال القريب أنه عمله دون منهج مع أن صناعته الغالبة التعليم ، ومنها مكسبه ، وهو يصرّح بهذا عرضاً حين عرض ص٤٤ إلى اجتماع الهمزتين في مثل قوله تعالىٰ : ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فقال : « إذا خففت الهمزة » الآخرة جعلتها بين بين ، والذي تختاره تخفيف الآخرة . إلا أنا نحقّقها في التعليم كلتيهما . نريد بذلك الاستقصاء) .

* *

وبعد ، فالكتاب في موضوعه غير مُغْنٍ ، وهو إلى الخوض في النحو والصرف أقرب منه إلى شرح المعنىٰ . بل تكاد تكون تعليقات نحوية خطرت له وهو يقرأ ، وكثير مما خاض فيه غير واضح ، وبعضه غير مسلّم . ويستشف الممعن فيه ضعفاً في علوم القرآن واللغة والشريعة أحياناً ، إلا أن استشهاده بالشعر كثير ، وإن كان أحياناً يذكره لمناسبة وهمية .

قيمة الكتاب تاريخية محضة ، فهو دون كتاب أبي عبيدة (مجاز القرآن) الذي ألف قبله ، ودون كتاب الفراء الذي ألف بعده ، إذ هما إلى مطابقة محتوياتهما العنوان (معاني القرآن) أقرب . وهو عن المطابقة أبعد . وفي كل الأحوال لا أسمح لنفسي - مع بعض الخطأ في تفسيره - أن أقول في حقه ما قاله ثعلب ونحن نعلم أن ثعلباً المسكين ليس في حيث يحكم . ولا أن أذهب فيه مذهب أبي حاتم

السجستاني ـ حين قال :

« ولم يدر الأخفش ما معنى نقدر (يعني في قوله تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡـهِ ﴾ [الأنبياء ٢١/ ٨٧] وذهب إلى موضع القُدْرة ، إلى معنى (فظنَّ أن يفوتنا)[1] ولم يعلم كلام العربِ ولغاتها . . . ولو علم أن معنى (نَقْدِر) : نُضيِّق لم يخبط هذا الخبط . قال : ولم يكن عالماً بكلام العرب . . »[2] .

لا هذا ولا ذاك ، لأنَّ الحق وقف بين القولين ، وهو إلى مذهب السجستاني أقرب ، والله أعلم .

وهل من حرج في أن أختم كلمتي بنكتة زل بها لسان الأخفش عفواً ، دلَّت على ظُرفه وكانت أصدق تعليق على ما يتكلّفه بعض الناس ، قديماً وحديثاً في تسويغ الأخطاء . قال ص٣٧٥ :

« وبلغنا عن الأعمش قال : ﴿ بِمُصۡرِخِيِّ ﴾ [إبراهيم ١٤/ ٢٢] فكسره ، وهذه لحن لم يسمع بها من أحد من العرب ولا من أهل النحو » .

لقد ظرف جداً في كلماته الثلاث الأخيرة ، ولم يهجُ أحد أهل النحو بمثل هذا الظرف ، وإن كان الأخفش ذكر أهل النحو ونسي نفسه . رحمه الله وتجاوز عنه .

---

(١) لم يذكر السجستاني كتاب الأخفش الذي نقل منه . أما الذي في (معاني القرآن) هذا فشيء آخر . انظر ص٤١٢ .

(٢) تهذيب اللغة للأزهري ٩/ ١٢ . وقد عقب الأزهري بقوله : « فأما أن يكون قوله : ﴿ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡـهِ ﴾ من القدرة فلا يجوز ، لأن من ظن هذا كفر والشك في قدرة الله كفر ، وقد عصم الله أنبياءه عن مثل ما ذهب إليه هذا المتأول ، ولا يتأول مثله إلاّ الجاهل بكلام العرب ولغاتها اهـ .

البناء على الشاهد الأبتر

بحث ألقاه الأستاذ في المؤتمر الحادي والأربعين لمجمع القاهرة ، ونشر في مجلة كلية الآداب بجامعة بنغازي . العدد ٧ عام ١٩٧٥م

لا يكاد علم من العلوم المستندة إلى الوثائق خطية كانت أم شفهية ـ يمضي في الاستنباط إلا قرُبَ الخلل إلى أحكامه حين تكون تلك الوثائق بتراء ، لذا حرص العلماء على معرفتها كاملة ، فإن عراها نقص من أولها أو وسطها أو آخرها بحثوا عن نسخٍ أخرى من المخطوط ، أو روايات شفوية مشابهة ، وبالغوا في البحث والتحري وبذلِ الوسع قبل أن يطمئنوا إلى الشروع في الاجتهاد واستنباط الأحكام . . يستوي في ذلك الثقات المتورعون من مؤرخين ومحدثين وفقهاء ولغويين وسائر المهتمين بالنصوص .

بل إن عدم الانطلاق من الكلام الناقص جاوز الخاصة إلى العامة ، وصار قانوناً حيوياً يعايش الناس في مهامهم ومباذلهم على السواء ، فكثيراً ما تسمع في هذا الصدد قول العامة : « ما لنصف الكلام جواب » . ويشبهون الباني على بعض الكلام دون بعض بالذي احتجّ لتركه الصلاة بقوله تعالىٰ : ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وسكت عن بقيتها ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء ٤/ ٤٣] ، أو قوله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ وأهمل تتمتها ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون ١٠٧/ ٤ ـ ٥] ، أو قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وترك الكلمة التالية ﴿ لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء ٢١/ ١٦] .

هذه بديهية من المسلّمات تحكم تصرفات الناس في جميع شؤون الحياة ، ولا يلجأ إلى النص الناقص عمداً إلا أولو الأهواء ، لعل السيدة عائشة أم المؤمنين في صدر تاريخنا أول من قدم الأمثلة في تسرب الخطأ إلى الحكم ، حين يعتمد على شاهد أبتر : كان ذلك منها في موضوع الشعر وفي موضوع المرأة :

١ـ قيل لعائشة : إن أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « الشؤم في ثلاثة : في الدار والمرأة والفرس » .

فقالت : « لم يحفظ أبو هريرة ، إنه دخل ورسول الله يقول : « قاتل الله اليهود يقولون : الشؤم في ثلاثة : في الدار والمرأة والفرس » فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله[1] .

٢ـ والحديث الثاني[2] في تحريم رواية الشعر ، فقد روي للسيدة عن أبي هريرة « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً » فقالت : لم يحفظ أبو هريرة الحديث . إنما قال رسول الله : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هُجيتُ به » غاب عن أبي هريرة آخر الحديث . ولولا هذا التصحيح لكانت حلقات الأدب منذ عصر الرسول إلى يومنا هذا في أعظم الحرج ، وإنما الإشارة في الحديث إلى الحرب الكلامية التي كان يضرمها المشركون في أعقاب حربهم للمسلمين يومذاك .

* *

إنَّ استيفاء أجزاء الشاهد وعدم اقتطاعه من علائقه شرط للاطمئنان إلى الاحتجاج به ، والنحاة ـ دون ريب ـ في طليعة من يجب عليهم الأخذ بهذا الأصل . وقد قاموا به في أكثر الأحوال، وندّت حالات قليلة تسارعوا فيها إلى إظهار مهارتهم في التعليل والتخريج والتسويغ . صناعة شغفوا بها شغفاً صرفهم في بعض الأحيان عن امتحان الأساس . فكان بناء الأحكام على الشواهد الناقصة خللاً في العلم والمنهج معاً . وأحب التنبيه هنا إلى أن الظاهرة التي أعالج اليوم قد تلوح هناك وهنالك . و(قد) للتقليل فلا يصح البتة وصف صنيعهم بالنقص وصفاً شاملاً . فليس ذلك أكثر ما نجده عندهم ، ولا نصفه ولا ربعه ، بل هو أقل بكثير . والحق أن نحونا كالبنيان الشامخ المتقن . لا يغيّر من جلالته عثور باحث فاحص على غبار تراكم على باب . أو صدأ على حديد ، لأن التنبيه على ذلك داعية لإزالة العيب وتأكيد لجلال البنيان .

بين يديَّ أمثلة أربعة مما انتزعته من كتاب واحد . أعرضها تباعاً :

---

(١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي ص١١٤ (طبعة المكتب الإسلامي في بيروت ١٩٧١م). وللحديث رواية ثانية فيها: « قاتل الله أهل الجاهلية يقولون . . » بدل (اليهود).

(٢) المصدر نفسه ص١٢٢ ، وهو في البخاري ومسلم .

-١-

أوصل ابن هشام صاحب (مغني اللبيب) الكتاب الذي لا أشبع من اللهج به ، أوصل أقسام الواو إلى خمسة عشر ، بينها واو سماها (واو علامة المذكرين في لغة طيء أو أزد شنوءة أو بلحارث)[١] ، وهو على غير يقين من حقيقة أصحاب هذه اللغة ، التي لم يخطئ من نبزها بلغة (أكلوني البراغيث) . وقد جمع شواهد عليها من الشعر والقرآن والحديث . اتباعاً لمن سلف ممن زعم جواز مطابقة الفعل المتقدم ، للفاعل المتأخرة في التثنية والجمع نحو (جاؤوني المهنئون) ، فأما الشعر ـ مع كون بعضه غير ثابت النسبة ـ فكله يخرَّج على الضرورة ، والضرورة لا (يقعَّد) عليها كما هو معلوم .

وأما الحديث فهو روايتهم « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . . »، استفاضت هذه الرواية في كتب النحو حتى أطلق ابن مالك على تلك اللغة المزعومة لغة : (يتعاقبون) بدل لغة (أكلوني البراغيث) ، ولا غبار البتة على الاحتجاج بالحديث متى صحَّ لفظه عن الرسول أو الصحابي أو التابعي الذي سلمت سليقته ، لكن علينا أن نتحقق أولاً من سلامته من البتر في موضع الاحتجاج على الأقل . وحديثنا هذا ورد في صحيح البخاري أربع مرات : في كتاب مواقيت الصلاة مرة ، وفي كتاب بدء الخلق مرة ، وفي كتاب التوحيد مرتين[٢] . وورد في صحيح مسلم مرتين[٣] ، وفي سنن النسائي[٤] ، ثم هو في موطأ مالك[٥] . وإسناد هذه الروايات كلها تنتهي إلى أبي هريرة .

دققت في هذه الروايات جميعها فوجدتها صنفين : صنفاً ورد الحديث فيه غير

---

(١) مغني اللبيب ص٤٧٨ فما بعد (الطبعة الثالثة : دار الفكر في بيروت ١٩٧٢م) .

(٢) ١/ ١٤٥ و٤/ ١٣٨ و٩/ ١٥٤ و١٧٤ ـ الجامع الصحيح (مطبعة الشعب) .

(٣) صحيح مسلم(كتاب المساجد) و(باب فضل صلاتي الصبح والعصر) .

(٤) ١/ ١٩٤ باب فضل صلاة الجماعة (من كتاب الصلاة) .

(٥) كتاب الصلاة : باب جامع الصلاة ، الحديث ٢١٠ في طبعة فؤاد عبد الباقي (مطبعة الحلبي ـ ١٣٧٠هـ .

مبتور ، وفيه مرجع الضمير ، أوله في (البخاري) « الملائكة يتعاقبون فيكم . ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار . . » وأول سنده : (حدثنا أبو اليمان : أخبرنا شعيب : حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن (أبي هريرة) . وأوله في صحيح مسلم : « والملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . . » وسنده : (حدثنا محمد بن رافع : حدثنا عبد الرزاق : حدثنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة) ، فالرواية كاملة في هذا الصنف ولا شاهد فيها على ما زعموا .

وصنفاً ورد مبتوراً منه الكلمة الأولى (الملائكة) التي هي مرجع الضمير في (يتعاقبون) ، وكل رواياته (عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة) ، فظهر أن المروى عن أبي هريرة كامل في رواية شعيب وفي رواية محمد بن رافع ، ناقص في روايات الناقلين عن مالك . وكان هذا يكفي للأخذ بالرواية الكاملة وردِّ الناقصة إليها إذ لا يعقل تحديث أبي هريرة بالحديث مرة كاملاً ومرة ناقصاً ، والأمر كذلك في الراوي الأول (الأعرج) والراوي الثاني أبي الزناد ، إذ ليست هذه اللغة المزعومة لغة واحد منهم ، وهذا السند (أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة) قوي جداً . لكني أردت النظر في حال الرواة عن مالك من الناحية اللفظية وهي التي تعنينا هنا ، فوجدت العلة فيهم وإليكم البيان :

فأما الأول (عبد الله بن يوسف) فلم أجد في كلام النقاد عنه ما يفيد التزامه اللفظ في روايته مع توثيقهم له ، فلعله ممن يجيزون الرواية بالمعنى ، والمعنى في روايته (يتعاقبون فيكم الملائكة) والرواية الكاملة (الملائكة يتعاقبون فيكم . .) واحد .

وأما الثاني (إسماعيل بن عبد الله الأصبحي) ابن أخت الإمام مالك فقالوا في ترجمته : « صدوق ليس بذاك ، يعني أنه لا يحسن الحديث ولا يعرف أن يؤديه أو يقرأ من غير كتابه . . »[1] .

وأما الثالث (قتيبة بن سعيد) فهو « من الثقات إلا أنهم ذكروا له غلطاً في الإسناد وغلطاً في المتن في حديثه عن معاذ في الجمع بين الصلاتين فقد صرح بجمع التقديم

---

(١) تهذيب التهذيب ١/ ٣١٠ .

في وقت الأولى وليس ذلك في حديث مالك ، وإذا جاز أن يغلط في رجل من الإسناد فجائز أن يغلط في لفظه من المتن » هذا ما أثبته الحافظ ابن حجر[١] .

وأما الرابع يحيى بن يحيى المصمودي ، وهو الذي روى عن مالك الموطأ إلا يسيراً منه ، فقد قال فيه بعض نقاد الحديث : « كان ثقة عاقلاً حسن الهدي والسمت ، ولم يكن له بصر بالحديث . . إلا أن له وهماً وتصحيفاً في مواضع كثيرة »[٢] .

هذا ما أضاء به نقاد الحديث طريقنا ، ومعلوم أن روايات المجيزين نقل الحديث بالمعنى بعد عصر الاحتجاج لا تصلح حجة في متن اللغة ولا في قواعدها ولو سلم رواتها من الوهم والتصحيف والغلط ، فكيف إذا كانوا ممن سجل عليهم وهم أو غلط أو تصحيف .

وأيٌّ كان فقد تناقل بعض النحاة منذ القديم هذا الحديث في روايته الناقصة ، متخذيها حجة وشاهداً على لغة لا يعرف أصحابها على وجه اليقين والتحديد ، ولو عُرفوا ما خرجت عن اللغات الرديئة المجفوّة ، ثم لجؤوا إلى صناعة مرنوا عليها في التماس الأوجه المسوغة لهذه الرواية الناقصة مع خروجها على قاعدتين مطّردتين بديهتين : الأولى (لزوم الفعل المتقدم الإفراد مع فاعله المتأخر ، مثنى كان أم جمعاً) ، والثانية (عدم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة) في غير المواضع القليلة المقررة ، وتخلصوا من هذا الشذوذ بأن أوجدوا واواً أسموها (واو علامة المذكرين في لغة طيئ أو أزد شنوءة أو بلحارث . على ذلك فالحديث مظلوم بينهم قطع رأسه سهواً فنَصر ـ عندهم ـ لغةَ (أكلوني البراغيث) ، وبقيت هذه اللغة المزعومة بحاجة إلى شاهد صحيح لا ضرورة فيه ولا علة .

وأما الآية التي زعموها تؤيد هذه اللغة فأمرها أعجب ، لقد تتابعوا في قطع نصفها الأول ، وغفل بعض عن سابقتها المعطوف عليها ، وأبقوا المعطوف وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ . . ﴾ ليقولوا إن كلمة ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فاعل

---

(١) في كتابه (تهذيب التهذيب) ٨/ ٣٦١ .

(٢) المصدر السابق ١١/ ٣٠٠ .

(أسروا) أما واو الجماعة هذه فليست عندهم الفاعل بل هي (واو علامة المذكرين في لغة طيئ أو أزد شنوءة أو بلحارث) ، وقد علموا أن كتاب الله لم ينزل بلغة هؤلاء على فرض صحة نسبتها إليهم ، وحشروا في تخريج واو (أسروا) أحد عشر قولاً لا أثقل عليكم بسردها فهي في (مغني اللبيب)[1] . ولو أثبتوا الآية المعطوف عليها لوجدوا فيها مرجع الضمير وهو كلمة (الناس) وإليكم التلاوة كاملة :

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . ﴾ [الأنبياء ٢١/ ١ ـ ٣] .

سيقولون : إن لم تجعل ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فاعل (أسروا) كما فعلنا فما محلها ؟ إن محلها فاعل (قال) المحذوفة لمثولها في الذهن . ومن ألف أساليب العرب في مثل هذا وأسلوب القرآن الكريم خاصة ، عرف أن حذف فعل القول قبل المقول طريقة شائعة[2] ومحجة مطروقة ، ويكفي أن تتمثل لذلك بعض الآيات :

١ ـ ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ . . ﴾ [الرعد ١٣/ ٢٣ـ٢٤] أي يقولون : سلام عليكم . . . .

٢ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ . . ﴾ [آل عمران ٣/ ١٠٦] أي : فيقال لهم : أكفرتم . . .

٣ ـ ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ [الواقعة ٥٦/ ٦٥و٦٦] أي تقولون : إنا لمغرمون . .

٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ . . ﴾ [الزمر ٣٩/ ٣] أي يقولون : ما نعبدهم . .

---

(١) ص٤٧٩ والتي بعد . على أن ابن هشام رحمه الله حكم بأن (حمل الآية على غير هذه اللغة الضعيفة أولى) ولو كان الأمر أمر حمل لهان ، ولكنه محاولة إيجاد قاعدة لا سند لها ولا مسوغ .

(٢) قال أبو البركات بن الأنباري : « هذا في كلام الله وكلام العرب كثير جداً ، كثر حذفه كثرة ـ ذكره الإنصاف في مسائل الخلاف (١/ ٧٥ مصر ١٩٤٥ » .

٥ـ ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ . . ﴾ [البقرة ٢/١٢٧] أي يقولان : ربّنا تقبل منا . .

٦ـ ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا . . ﴾ [غافر ٤٠/٧] أي يقولون : ربنا وسعت . .

وهذا في كلام العرب كثير كثير . ويكاد يكون غالباً في الحوار على نحو ما نألف اليوم في القصص الحديث ، يقوم خط صغير أول كل كلام بدلاً من (قال وقالوا وقالت) . ونبرة الكلام ونظمه ينبئان عن فعل القول بداهة .

الصحيح أنه ليست لنا هذه الواو التي زعموها وتكلفوا لها ما لا يصحُّ من الوجوه في غير الضرورات الشعرية بل حتى هذه لو تأملنا معاني الشعر وتمثلنا الحال النفسية لصاحبه لأدركنا أنه يرجع الضمير إلى شيء قائم في نفسه[1] ماثل لعينيه ، بيّنه بعد أن ذكر الفعل .

-٢-

المثال الثاني في معنى (ربَّ) ، قرر ابن هشام أن (ربَّ) « ترد للتكثير كثيراً وللتقليل قليلاً »[2] وساق شاهدين على ورودها (للتقليل قليلاً) : الأول لرجل من أزد السراة أو لعمرو الجنبي هو :

ألاَ رُبَّ مولودٍ وليسَ له أبٌ ... وذي ولدٍ لم يَلْدَهُ أبوان

أراد بالأول عيسى عليه السلام ، وبالثاني آدم عليه السلام ، فكل شطر أريد به

---

(١) سأل الرشيد المفضل الضبّي : « كيف بدأ زهير بقوله :

دع ذا وعد القول في هرم ... خيرُ البداة وسيد الحضر

ولم يتقدم قبل ذلك شيء ينصرف عنه ؟ » فقال المفضل : « قد جرت عادة الشعراء بأن يقدموا قبل المديح نسيباً ووصف إبل وركوب فلوات ونحو ذلك ، فكأن زهيراً هم بذلك ثم قال لنفسه : دع ذا . . » فاستحسن الرشيد قوله . ـ شرح شواهد المغني للسيوطي ص٢٥٦ .

فكما كان في قول زهير (دع ذا) إشارة ولا مشار إليه إلا في نفس الشاعر ، أن هنا (في الشواهد الشعرية) ضميراً لا مرجع له في اللفظ ، بل مرجعه في نفس الشاعر .

(٢) مغني اللبيب ص١٨٠ـ١٨١ .

حالة واحدة فهي هنا إذن للتقليل . لكن وجود رواية للبيت هي الأصح[1] تبدأ بـ (عجبت لمولود) بدل (ألا رب مولود) تحبط الاحتجاج به .

بقي الشاهد الثاني وهو قول أبي طالب في النبي ﷺ :

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهِهِ ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فدخلت واو (ربَّ) هنا عند ابن هشام للتقليل لا للتكثير ، بل للإفراد ، إذ المراد بمجرورها رجل واحد . وهذا الشاهد صحيح الرواية والضبط ، وكان يصلح حجة لابن هشام على ورود (رب) للتقليل قليلاً لولا أنه شاهد أبتر ، وبرجوعنا إلى ما قبله في القصيدة وهو :

وما تركُ قومٍ لا أبا لك سيداً يحوط الذمار في مكَرٍّ ونائل

وأبيضَ يُستسقى . . .

نتبين أن الواو عطفت (أبيض) على (سيداً) في البيت السابق . وإذن هي واو العطف لا واو (ربَّ) ، وبقيت دعوى ورود (ربَّ) للتقليل لا شاهد لها .

-٣-

ذانك مثلان مما عارضوا به القواعد المسلّمة وجاهاً ، فأما ما مسوها به عن عُرضٍ ففي مثل ما فعل ابن هشام - رحمه الله - في صدد تخريجه بعض الشواهد على حذف المضاف قياساً على قولهم : (هَوِّنْ عليك) وهم يريدون (هوّن على نفسك) ، وعلى قوله تعالىٰ : ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص ٢٨/ ٣٢] بمعنى (واضمم إلى نفسك جناحك) . . إلى أن قال ابن هشام « ولا يحسن تخريج ذلك على ظاهره كما قيل في قول النمر بن تولب :

قد بتُّ أحرسني وحدي ويمنعني صوتُ السباع به يضْبَحْن والهامِ

لأن ذلك شعر ، فقد يستسهل فيه مثل هذا »[2] اهـ كلام ابن هشام .

والواقع أن للبيت سابقاً يخرجه من موضوع حذف المضاف ، وأن الرواية

---

(١) انظر شرح شواهد المغني للسيوطي ص١٢٦ (المطبعة البهية - ١٣٢٢هـ) .
(٢) مغني اللبيب ص١٩٥ ، وهو في ديوان النمر ٣٨٨ .

الصحيحة : (قد بتُّ أحرسُه) ، لا (أحرسني) بمعنى (أحرس نفسي) ، ومرجع الضمير كلمة (منهل) الواردة في البيت السابق والرواية :

ومنهلٍ لا ينامُ القومُ حَضْرَتَه ... من المخافة أَجِنٌ ماؤهُ طامِ
قد بتُّ أحرسُهُ وحدي ويمنعني ... صوتُ السِّباع به يضْبَحْنَ والهامِ[1]

وواضح أنه لو خطر لابن هشام حينئذ الرجوع إلى قصيدة النمر ، لرأى الصواب ، ولم يعرض للبيت في هذا الصدد .

-٤-

رابع الشواهد البُتر مما في (مغني اللبيب) حديث استشهد به ابن هشام وهو يناقش ردّ بعضهم مجيء (كي) بمعنى لام الجر في قول العرب : (كيمه ؟) بمعنى (لمه ؟) ، وزعمهم أنّ أصلها : (كي يفعل ماذا ؟) ، فرد ابن هشام زعمهم بقوله : « ويلزمهم كثرة الحذف ، وإخراج (ما) الاستفهامية عن الصدر ، وحذف ألفها في غير الجر ، وحذف الفعل المنصوب مع بقاء عامل النصب ، وكل ذلك لم يثبت »[2] .

وقول ابن هشام هذا صحيح سائغ ، وليته وقف ثمة ولم يعقب ، لكنه عقب على عدم حذف الفعل المنصوب مع بقاء الناصب بقوله :

« نعم ، وقع في صحيح البخاري في تفسير ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة ٧٥/ ٢٢] « فيذهب كيما فيعود ظهره طبقاً واحداً » ، أي (كيما يسجد) وهو غريب لا يحتمل القياس عليه » .

قلت : نعم هو غريب بل غريب جداً ، بل لم يقع قط ، والحديث في صحيح البخاري في (كتاب التوحيد) منه ، والرواية فيه : « . . فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً . . »[3] ، والأمر كما قال ابن حجر : « الثابت في نسخ البخاري

---

(١) شرح شواهد المغني للسيوطي ص٤٧ ـ أجِنٌ : متغير الطعم ، طام : مرتفع ، يضبحن : يصوّتن ، الهام : طير الليل واحده هامة .

(٢) مغني اللبيب ص٢٤٣ .

(٣) تمام الجملة في الحديث : « . . ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة ، فيذهب كيما يسجد فيعود=

التصريح بكلمة (يسجد) ، فلعل ابن هشام وقعت له نسخة بحذف (يسجد) »[1] .

لقد شعر ابن هشام ـ رحمه الله ـ بغرابة حذف الفعل المنصوب وبقاء الناصب فقرر عدم القياس عليه ، وكان خيراً له ولنا لو رجع إلى نسخة أخرى وتحرّى الرواية الكاملة ، وإذن لاهتدى إلى ما سقط من نسخته ، ولم يُظفر الذين يردّ عليهم بحديث هو ـ إن صح ـ حجة عليه .

* *

لقد كان بعض علمائنا منذ المئة الثانية للهجرة إلى الاستنباط والاستنجاد بالصناعة والتخريج والتماس الوجوه وتشقيقها ـ وهو ما برعوا فيه كل البراعة ـ كانوا إلى ذلك كله أسرع منهم أحياناً إلى التثبت من صحة النص وتمامه أولاً ، وهذا التثبت هو الخطوة الأولى قبل الاستنباط من النص والبناء عليه .

وبعد ، فكما كان من الواجب تحرير الشاهد والتوثّق من ضبطه في مظانه الأصيلة قبل الاستناد إليه ، وهو ما كان موضوع كلمة سابقة[2] ، يفيد جداً الرجوع إلى الشاهد في ديوان صاحبه إن كان شعراً ، وإن كان نثراً فإلى مصادره من كتب الأدب ودواوين الحديث وسور القرآن الكريم ، لمعرفة ما قبله وما بعده ، إذ كثيراً ما يكون الشاهد الأبتر داعية الخطأ في المعنى والمبنى وفي الأحكام .

= ظهره طبقاً واحداً . . » ٩/ ١٥٩ (صحيح البخاري ـ مطبعة الشعب) .
وسبق مثله في ٦/ ١٩٨ من الصحيح . « ويبقى من كان يسجدُ في الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب كيما يسجد فيعود طبقاً واحداً . . » .

(١) حاشية الدسوقي على (مغني اللبيب) ١/ ١٩٥ .

(٢) بعنوان « تحرير الأصول » ألقيت في مؤتمر المجمع الأربعين في ٣/ ٣/ ١٩٧٤م ثم نشر في مجموعة بحوثه .

العمل فيما له روايتان من الشواهد اللغوية

بحث ألقاه الأستاذ في الدورة الثانية والأربعين
لمؤتمر مجمع القاهرة في ٢٨/ ٢/ ١٩٧٦
ونشر في مجلة كلية الآداب/ جامعة بنغازي
العدد ٨ عام ١٩٧٦

قال أنس رضي الله عنه : « إذا جاء عن النبي حديثان مختلفان وبلغنا أن أبا بكر وعمر عملا بأحدهما وتركا الآخر ، كان في ذلك دلالة على أنّ الحق فيما عملا به »[1] ولهم في ذلك طرق ومناهج محكمة ومشهورة .

أما في اللغة وقواعدها فالأمر مختلف ، فلا نستشهد بما رُوي بالمعنى ؛ لأن صناعتنا لفظية ، إلا إذا كان الراوي نفسه ممن يحتج به لسلامة بيئته لغوياً وسلامة سليقته هو نفسه . فلا منأى لنا إذن من انتهاج نهج يلائم فنّنا وهدفنا منه .

وظاهر أن الرواية الضعيفة سنداً أو المحرفة ، أو الشاهد الأبتر ، أو المجهول القائل ـ كل ذلك لا يدخل في موضوعنا إذ هو بموضوع (تصحيح الأصول) ألصق ، وسأستبعد كل ما فيه روايتان صحيحتان فأكثر ، ولم يبن على واحدة منها حكم يمس القواعد المطردة .

سنبقى إذن حيال شواهد ذات روايتين لم نجد سبيلاً إلى توهين إحداهما من حيث السند . لكنها تقتضينا إضافة قاعدة أو استثناءً أو تعديلاً لقاعدة . وقبل عرض النماذج ألفت النظر إلى أني لا أحسب حساباً لشهرة الشاهد واستفاضة ذكره في الكتب ، لأن الشهرة واستفاضة الذكر كثيراً ما غرتا باحثين فأوقعتاهم في المزالق ، وكم من وهم وقع من عظيم فدُوّن وتناقلته الأجيال ، وحالت شهرته بين الذهن والالتفات إلى تحقيقه . كلنا يحفظ منذ نعومة أظفاره مطلع المعلقة لامرئ القيس :

قفا نبكِ من ذكرىٰ حبيبٍ ومنزلِ   بسِقْطِ اللّوىٰ بين الدَّخولِ (فحوملِ)

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر ١/ ٢٢١ ـ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (القاهرة ١٣٩١هـ) تحقيق الأستاذ/ علي النجدي ناصف .

كذلك وصل البيت إلى نقلته في المئة الثانية . وكذلك حفظه خالفٌ عن سالفٍ جيلاً بعد جيل . وأسفاراً بعد أسفار ، حتى يومنا هذا ، وضرب باستفاضته المثل حتى قالوا : « أشهر من : قفا نبك » .

والإشكال في هذه الرواية على شهرتها ـ أن كلمة (بين) تضاف إلى متعدد تقول : (جلست بين الرجلين) وحين تضاف إلى متعاطفين ينبغي أن يكون العاطف (الواو) لا (الفاء) ؛ لأن الواو لمطلق الجمع ، والفاء للترتيب مع التعقيب ، وعندما تجلس بين خالد وبكر تقول : (جلست بين خالد وبكر) لا (بين خالد فبكر) . ولكن هذه الرواية المشهورة أضافت (بين) إلى مفرد هو (الدخول) وعطفت عليه بالفاء : (فحومل) ذلك لا يستقيم . وتعب النحاة في إزالة الإشكال ثم استراحوا إلى قولهم مثلاً : « إن التقدير : بين نواحي الدخول ، أو إن الدخول مشتمل على أماكن »[1] فكأنه قال : بين أماكن الدخول فأماكن حومل ، وحفظنا هذا صغاراً شاعرين بالتكلف والاختراع الجغرافي لتسويغ هذه الرواية على رغم البديهة الرياضية في استشكالها ، فلا هي ساغت ولا أنا اهتديت إلى ما يوهنها من حيث السند . . إلى أن ظفرت بتخطئة الأصمعي لها وقوله : « الصواب : بين الدخول وحومل » بالواو لا بالفاء ، فحبط كل ما تكلفوا . والأصمعي ـ كما نعلم على رأس رواتنا الثقات المتثبتين في نقولهم عن العرب . وكان الرشيد على حق حين حذر الكسائي بقوله : « يا علي ، إذا جاء الشعر فإياك والأصمعي »[2] .

* *

بعد هذا الاستدراك والتنبيه على الحذر من الشهرة والاستفاضة ، أشرع في عرض بعض نماذج من ذوات الروايتين اللتين اقتضت إحداهما تعديلاً في حكم أو قاعدة :

١ ـ المثال الأول ما كنا ندرسه في حداثتنا أن حروف الجر عشرون حرفاً كما جاء في ألفية ابن مالك التي كان الشيوخ وما زالوا يأخذون المبتدئين

---

(١) مغني اللبيب ص(٤٦٦) ـ طبعة بيروت (١٩٧٢م) بإشرافي وتحقيق الأستاذين ـ مازن المبارك ومحمد علي حمد الله .

(٢) أخبار النحويين البصريين للسيرافي ص(٥٩) بتحقيق المرحوم الأستاذ كرنكو ـ بيروت (١٩٣٦م) .

باستظهارها[1] . وفي جملتها (كي) و(لعل) و(متى) ، وهذه الثلاثة لا يصحّ أن تدرج في حروف الجر لوَهْي ما استندوا إليه في إدراجها ، وإليك البيان :

أما (كي) الجارة فليس من دليل نقلي عليها إلا جملة (كيمهْ ؟) زعموا أن عربياً ـ ولم يسمّوه فهو مجهول ـ أراد منها معنى (لِمهْ ؟) واستشهدوا بشاهدين محرفين موضع الاستشهاد بهما هو موضع التحريف ، والذين لم يجعلوها جارة قالوا : « إن الأصل : (كي يفعل ماذا) وقد كفانا ابن هشام رد هذا الزعم بقوله : « ويلزمهم كثرة الحذف، وإخراج (ما) الاستفهامية عن الصدر، وحذف ألفها في غير الجر ، وحذف الفعل المنصوب مع بقاء عامل النصب ، وكل ذلك لم يثبت »[2] اهـ . وتكلفوا لزعم الجر بها أعاريب واهيةً لا نعرض لها هنا، لأن أصل الجر بها لا شاهد صحيح يؤيده.

وأما (لعل) فقد قال ابن عقيل في شرحه للألفية : « فالجر[3] بها لغة عُقَيْل ومنه قوله :

. . . . لعلَّ أبي المغوار منك قريبُ[4]

وقوله :

لعلَّ اللهِ فضلكم علينا بشيءٍ أنَّ أُمَّكُمُ شَرِيمُ[5]

فـ « أبي المغوار » والاسم الكريم مبتدآن . و(قريبٌ) و(فضّلكم) خبَرَانِ ولعلَّ حرفُ جرٍّ زائد »[6] اهـ .

---

(١) هاك حروف الجر وهي من إلى حتى ، خلا ، حاشا ، عدا ، في ، عن، على
مذ ، منذ ، رب ، اللام ، كي ، واو ، وتا والكاف ، والبا ، ولعل ، ومتى
(ألفية ابن مالك) . .

(٢) مغني اللبيب ص(٢٤٣) .

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢/ ٤ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ بيروت ١٩٧٢م .

(٤) البيت من الطويل ، وهو لكعب بن سعد الغنوي في الأصمعيات ٩٦ ، وشرح شواهد المغني ص٦٩١ .

(٥) البيت من الوافر ، ولم ينسب إلى قائل ، وهو في الجنى الداني ص٥٨٤ ، وشرح ابن عقيل ٢/ ٤ .

(٦) قلت : ليس بالزائد البتة ، بل له معنى أصيل في الجملة هو إفادة التوقع .

وأيده في هذه النسبة ابن هشام في مغني اللبيب[1] ونقل ذلك غيرهما من قبل ومن بعد . وتوقف الفارسي شاكاً في صحة هذه اللغة ونسبتها ، لكنه لم ينهج النهج السديد فيبحث في توثيق النص أولاً ، بل استعان ـ كعادته ـ بجدله النحوي وتكلف التخريج فقال :

« إنه لا دليل على الجر بها ، لأنه يحتمل أن الأصل : (لعله لأبي المغوار منك جواب قريب) فحذف موصوف (قريب) ، وضمير الشأن ، ولام لعل الثانية تخفيفاً ، وأدْغم الأولى في لام الجر » ولم يبعد ابن هشام حين عقّب على كلام الفارسي بقوله : وهذا تكلّف كثير[2] .

هذا وقد روىٰ كثيرون لهذا البيت روايةً لا شذوذَ فيها . هي :

. . . . لعـلَّ أبـا المغـوارِ منـك قـريـبُ

على القانون المطرد في كلام العرب .

فهاتان روايتان بين يدينا ، إحداهما تقتضينا إثبات حكم جديد لـ (لعل) هو الجر ، وبذلك تشذُّ سماعاً وقياساً ، إذ ليس في العربية أداة تنصب وتجر بمعنى واحد[3] . والصواب أن نستبعد الرواية الشاذة ونعتمد الرواية الموافقة لكلام العرب ، فلا يعقل أن تكون لغةٌ لبني عُقيل ولا شاهد لها إلا هذا البيت في رواية مرجوحة . وفوق ذلك إن هذه القصيدة قرأها أبو علي القالي (ـ٣٥٦هـ) على ابن دريد ، ونقلها في أماليه المشهورة قال : « قال ابن دريد وأملاها علينا أبو الحسن الأخفش » ثم مضى يذكر مواضع خلاف الروايات في القصيدة واحداً واحداً منسوباً كله ، ولما وصل إلى هذا البيت لم يذكر إلا (لعل أبا المغوار) فلو كان هناك خلاف يعتد به لذكره[4] .

---

(١) ص(٢٠٦) ، ص(٣٧٧) .

(٢) مغني اللبيب (ص٣٧٧) .

(٣) أما (عدا وخلا وحاشا) الناصبات فهي أفعال لا أدوات ، وقدروا لها فاعلاً انتزعوه من معنى الفعل المتقدم عليهن .

(٤) أمالي القالي ١/١٤٧ـ١٥٢ طبعة دار الكتب المصرية ـ ١٩٢٦م .

وأما الأداة الثالثة (متى) فقد قال ابن عقيل في شرحه على الألفية[١] :

« فالجر بها لغة هذيل ، ومن كلامهم : (أخرجَها متىٰ كُمِّهِ) يريدون (من كُمِّهِ) ومنه قوله :

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثُمَّ ترفَّعتْ ... متى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهنَّ نئيجُ »[٢]

وعلى فرض صحة روايتهم هذه لا دليل فيها لاحتمال أن تكون (متى) بمعنى (وسَط) كما قال ابن سيده[٣] . وحينئذ يكون الجر بالإضافة لا بالحرف .

إذا طبقت منهجي في مناقشة دعاويهم في هذا الشاهد فالخطوة الأولى عندي هي التثبت من ضبطه في ديوان صاحبه ، ومن حسن الحظ أن ديوان الهذليين مطبوع طبعة محققة مفهرسة . والرواية فيه :

تروَّتْ بماءِ البحرِ ثمَّ ترفعتْ ... على حَبَشيّاتٍ لهنّ نئيجُ[٤]

فلا وجود في البيت لـ (متى) التي زعموها حرف جر .

والذي سمعه أبو زيد الأنصاري من العربي قوله : (وضعته متى كمي) أي في وسط كمي ، لا (أخرجه متى كمه) كما مر عن مجهول ، وعلى هذا المعنى أنشد أبو زيد بيت أبي ذؤيب السابق (في غير رواية الديوان) ثم قال : (أراد وسَط لُجَجٍ) ـ وكونها اسماً بمعنى (وسط) هو الملائم بيت ساعدة بن جؤية في صفة سحاب :

أَخيلُ برقاً متى حابٍ له زَجَلٌ ... إذا تَفَتَّرَ من تَوْمَاضِهِ حَلَجا[٥]

---

(١) شرح ابن عقيل ٢/ ٦ .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي يصف سحباً ، وفيه تصحيف في مكانين منه ، سيمرّ بك تصحيحهما .
نئيج : مر سريع مع صوت .

(٣) مغني اللبيب ص٢٤١ .

(٤) ديوان الهذليين ١/ ٥١ (طبعة دار الكتب المصرية) .
روضة حبشية : خضراء تضرب إلى السواد ـ لسان العرب (حبش) .

(٥) ديوان الهذليين ٢/ ٢٠٩ .
أخالَ البرق : نظرَ إليه أين يمطر . الحابي : السّحاب الثقيل كأنه يحبو . حَلَجَ : مَطَرَ .

أي : أرى برقاً وسط سحاب .

وعلى هذا المعنى أيضاً يحمل بيت في لسان العرب لم ينسب هو :

متى ما تُنْكروها تَعْرِفُوها   متى أقطارِها علق نفيت[1]

ويكون المعنى (وسط أقطارها) لا (من أقطارها) كما نقل صاحب اللسان عن مجهول وفسر (نفيت) بمعنى منفرج . ولا يتضح معنىً إذا جعلنا (متى) بمعنى (من) .

وأغرب مما تقدم شاهد مجهول في (لسان العرب) صدره سليم بليغ ، وعجزه ركيك متهافت ، كأنه مما ينشر اليوم على أنه شعر حديث :

إذا أقولُ صَحَا قلبي أُتيحَ لَهُ   سُكْرٌ متى قهوةٍ سارَت إلى الرَّاسِ

أي من قهوة[2] .

فإذا ذكرنا أنَّ المعنى المعجمي للفعل (متا الحَبْلَ) هو مدَّه أدركنا القرابة بينه وبين (متى) بمعنى (وسَط) ، وأيقنا أنَّ الذين جعلوها حرف جر ، أبعدوا النّجعة شرقاً حتى أصحروا والماء منهم غرباً على خطوات .

حدد أبو البركات بن الأنباري في كتابه (لمع الأدلة في أصول النحو) . حدَّد النقل المحتج به بأنه « الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة »[3] .

وعلى هذا فالواجب حذف هذه الأدوات (كي) و(لعلّ) و(متى) حين نعدد حروف الجر . حذفها من كتب التدريس كلها . بل حتى من المطولات لعدم استنادها إلى أساس . ولعل السيوطي كان ينظر إلى شبه هذا حين قال : « ولما اعتمد

---

(١) كتب مصحح الطبعة البولاقية للسان العرب على هامش هذا البيت ما يصرح باستشكاله إياه ، قال : « قوله : (علق نفيت) كذا في الأصل وشرح القاموس ، ولم نظفر به في غير هذا الموضع ، فحرره إن ظفرت به ـ كتبه مصححه » .

(٢) لسان العرب : مادة (متى) ١٥/ ٤٧٤ـ٤٧٥ .

(٣) رسالتان لابن الأنباري (الإغراب في جدل الإعراب) و(لمع الأدلة في أصول النحو) ص٨١ (طبعة بيروت ـ ١٩٧١م) .

ابن مالك على لغات لخم وجذام وغسان ـ تعقبه باللوم أبو حيان فقال في شرح التسهيل : ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن »[1] .

**

يوم كان ابن مالك ـ رحمه الله ـ يطلب علم الحديث ، ويقرأ صحيح البخاري على شرف الدين اليونيني[2] مرت به تراكيب في نصوص الأحاديث رآها مخالفة قواعد اللغة المرعية ، فجمعها من غير أن يرجع إلى رواياتها المختلفة فيقابل بينها سنداً ومتناً ، ليخرج بما يُطمأن إليه ، بل نزع منزعاً آخر ، فحكّم هذه التراكيب في القواعد المطردة تخريجاً أو استدراكاً أو تذييلاً أو تعديلاً ، في كتاب لطيف سماه (شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح) فخرّق قواعد عدة بتجويزات أو تخريجات على أسلوب سلفٍ له من النحاة ، ولو طبّق عليها ـ وهو يقرأ الحديث ـ قواعد التحديث نفسها لاهتدى إلى صواب الرواية بأيسر سبيل ، وهذان مثلان من صنيعه اخترتهما لقصرهما من أمثال عدة في كتابه ذاك :

١ـ نعرف أنّا إذا حذفنا ضمير الشأن من (أشهد أنّه لا إله إلا الله) وجب تخفيف النون المشددة فتصبح (أشهد أنْ لا إله إلا الله) ، اتباعاً للمأثور المستفيض من كلام العرب ، ولا عبرة هنا بالضرورات الشعرية ، فلما مرت بابن مالك هذه الرواية لحديث :

« إنَّ من أشدِّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

تساءل : كيف رفع اسم (إنَّ) في هذا الحديث ؟ واستشكل ذلك ، ثم أعمل الفكر ، واستنجد التخريجات ، فاطمأن إلى أن يكون اسم (إنّ) ضمير شأن محذوفاً (على غير قياس) ويكون (المصورون) هو الخبر المرفوع . وبذلك ينجو التركيب من اللحن ، وأسعفته الضرورات الشعرية بشواهد ، ثم استشهد بالرواية المتقدّمة للحديث . وهذه عبارته :

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص(٢٤) (مطبعة المعارف بحيدر أباد الدكن ـ ١٣١٠هـ) .

(٢) محمد بن أحمد اليونيني ، الشيخ الحافظ الفقيه ، أحد الأعلام وشيخ الإسلام . مات سنة ٦٥٨هـ ببعلبك ، ودفن فيها . المنهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد ٤/ ٢٨٦ .

ونظيره إن كان المحذوف ضمير الشأن : قوله . . . وقوله ﷺ بنقل من يوثق بنقله[1] : « إن من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون »[2] . وبنى ابن مالك على هذه الرواية رفع ما هو اسم (إنّ) على التحقيق ، وكذلك فعل ابن هشام في غير ما موضع[3] وهذه الرواية التي اعتمداها إحدى روايات خمس في (صحيح مسلم) وفي إسنادها يحيى بن يحيى يروي بالمعنى ، وترجموه بأنه : « كان ثقةً عاقلاً ، ولم يكن له بصر بالحديث . . . وإنّ له وهماً وتصحيفاً في مواضع كثيرة »[4] .

وعجبٌ عنايتهم برواية هذا الراوي ـ وتلك درجة ضبطه ـ وتركهم بقية الروايات في (صحيح مسلم) نفسه[5] وكلها خالية من هذه العلة . كما تركوا نص الحديث في (صحيح البخاري) وفي (مسند أحمد)[6] وليس في شيء منها هذا اللّحن الذي أرادوا تسويغه ، ولعل كل ما في الأمر زيادة (من) سهواً من هذا الراوي أو غلطاً من ذاك .

وإذا أغضينا عن ذكر هذه الرواية المعلولة لغوياً متناً وسنداً في مثل كتاب (شواهد التوضيح) . أفيجوز علمياً وتدريسياً ذكرها في المختصرات وكتب مبادئ النحو ، كما فعل ابن مالك نفسه في كتاب (التسهيل) حيث قال[7] :

---

(١) سترى أنه ممّن لا يوثق بلفظ روايته وإن وثقوا بمعتقده .

(٢) شواهد التوضيح والتصحيح ص١٤٨ .

(٣) مغني اللبيب ص٥٦ ، ٣٧٨ ، ٤٢٨ .

(٤) تهذيب التهذيب ١١/ ٣٠٠ .

(٥) صحيح مسلم ٦/ ١٦١ :
١ ، ٢ـ إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون .
٣ ، ٤ـ إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون .
٥ـ أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون .

(٦) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب اللباس) : أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ـ ٧/ ٢١٥ (مطبعة الشعب بالقاهرة) .
في مسند أحمد : إن من أشد أهل النار عذاباً يوم القيامة المصورين ـ ١/ ٤٢٦ فهذه خمس روايات صحيحة سنداً ومتناً ولفظاً ومعنىً .

(٧) التسهيل لابن مالك (ص٦٢) .

« ولا يخص حذف الاسم المفهوم معناه بالشعر ، وقلّما يكون إلا ضمير الشأن . وعليه يحمل : « إنَّ من أشدِّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

والمسألة ـ كما تقدم ـ باطلة . فما حَشْرُها في مختصر على أنها من المسلّمات ، وفتح الباب لها على مصراعيه حتى في غير الشعر ، كأنها من الأسس التي لا يجوز أن يخلو كتاب للمبتدئين منها ؟ .

ذاك هو المثل الأول من كتاب (شواهد التوضيح) لابن مالك .

فأما المثال الثاني فهذا بيانه :

من القواعد المحْكمة التي يدرسها المبتدئون وجوب اقتران جواب الشرط بالفاء إن دلَّ على طلب مثل : ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة ٥/ ٢] سواء أكان فعل الشرط مثبتاً كالآية الكريمة ، أو محذوفاً كقولك : (إن حضر أخوك معك وإلا فاحضُرْ وحدك) .

وفي كتب السنة حديث اللُّقَطة المشهور مروي بألفاظ مختلفة ومعنى واحد في جميعها أداة الشرط مدغمة بـ (لا) النافية ، وبعدها فاء جواب الشرط على قانون العرب المعلوم ، وإليك هذه الروايات في (صحيح البخاري) :

١ـ فإن جاء صاحبها وإلا فاستمتع بها ٣/ ٢٠ .

٢ـ فإن جاء أحد يخبرك . . . . وإلا فاستنفق بها ١/ ٣٤ ، ٣/ ١٦٥ .

٣ـ فإن جاء أحد يخبرك بها وإلا فاستنفقها ـ ٣/ ١٦٣ .

٤ـ فإن جاء من يعرّفها وإلا فاخلطها بمالك ـ ٧/ ٦٥ .

٥ـ فإن جاء ربها فأدِّها إليه ـ ٧/ ٣٤ .

وكل هذه الروايات سليمة . لكن ابن مالك تمسك برواية سادسة في (صحيح البخاري) نفسه سقطت منها الفاء من سهو الراوي أو غلطه ، وسترى أنه كثير الغلط ، عقد عليها وعلى أمثالٍ لها وضروراتٍ شعرية بحثاً جوز فيه حذف فاء جواب الشرط في غير الشعر ، عنونه بقوله :

في حذف الفاء والمبتدأ من جواب الشرط[1] .

وساق شواهد نقلية فقال : « ومنها قوله ﷺ لأُبيّ بن كعب : « فإن جاء صاحبها وإلا استمتعْ بها » . وكأنه يردُّ على النحويين إيجابهم الفاء هنا ، بل صرح بذلك بعد صفحة فقال :

« والنحويون لا يعترفون بمثل هذا الحذف في غير الشعر ، أعني حذف فاء الجواب إذا كان جملة اسمية أو طلبية ، وقد ثبت ذلك في هذين الحديثين[2] . فبطل تخصيصه بالشعر . لكن الشعر به أولى »[3] .

فإذا رجعنا إلى الروايات الآنفة في صحيح البخاري وجدناها في ثلاثة أسانيد[4] . أقابل بينها كما يلي :

١ـ حدثنا آدم : حدثنا شعبة . . . . إلخ وإلا فاستمتع بها .

٢ـ وحدثني محمد بن بشار : حدثنا غندر : حدثنا شعبة . . . إلخ . . وإلاّ فاستمتع بها .

٣ـ حدثنا سليمان بن حرب : حدثنا شعبة . . . إلخ . . وإلا استمتع بها .

فترى أن طرق الحديث تلتقي عند شعبة ، وقد وصل عن الطريقين الأولين بإثبات

---

(١) شواهد التوضيح والتصحيح ص١٣٣ .

(٢) علمت آنفاً وسترى أنه لم يثبت .

(٣) ص(١٣٦) . ومضى ابن مالك في قياس خاطئ يقول : « وإذا جاز حذف الفاء والمبتدأ معاً فحذفها والمبتدأ غير محذوف أولى بالجواز » . فخالف كلام العرب وما بني عليه من قاعدة ، بل أبعد فقال : « لو قيل في الكلام : (إن استعنت أنت معان) لم أمنعه » . وهذا عجيب منه رحمه الله إذ نقض ما قرر في كتبه من وجوب الفاء في مثل هذا ، ولما أحس أن قياسه ذاك كان مع الفارق ، وأنه لم يستند إلى أساس ، استنجد بضرورة شعرية في بيت مصنوع ظاهر الركة لا يعرف له صاحب ، قال : « ومن ورود الجواب (جواب الشرط) طلباً عارياً من الفاء قول الشاعر :

إن تدع للخير كن إياه متبعاً ... ومن دعاك له أحمد بما فعلا »

ـ ص(١٣٦) .

(٤) صحيح البخاري ، الكتاب (٤٥) .

الفاء على ما ألف العرب في كلامهم وبنيت عليه القاعدة . فانظر إذن في الطريق الثالث رواية سليمان بن حرب الذي انفرد بإسقاط الفاء خلافاً للقاعدة ، فإن كان خلل فمن طرفه :

يحدثنا الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) المشهور أن سليمان بن حرب هذا « كان يحدث بحديث ثم يحدث به كأنه ليس ذاك ، كان يروي الحديث على المعنى فتتغير ألفاظه في روايته »[1] .

وهذا من الخطيب البغدادي رحمه الله تحذيرٌ أن نعتمد ألفاظ سليمان في روايته ، فمنه وقع الخلل الذي أزلق ابن مالك وغيره ، وليت ابن مالك طبق وهو يقرأ (صحيح البخاري) قواعد المحدّثين في كل ما بنىٰ عليه في كتبه إذن لأراح واستراح .

* *

من النماذج المتقدمة وما ينبغي عمله في مثلها ، يتضح الطريق اللاّحب الذي يجب سلوكه قبل العمل بالنصوص التي لها روايتان متكافئتان ، وأقول (متكافئتان) تجوزاً على سبيل الاحتمال النظري ، وإلا فعند التمحيص ستملك الترجيح بينهما بالدليل المقنع ، ويمكن صوغ هذا الأصل بما يلي :

إذا سلمت روايتان فأكثر لنص لغوي ، إحداهما تخالف القانون الأشيع للعرب في كلامها وتقتضي تعديلاً أو استثناءً في القاعدة ، أهملناها وأخذنا بالرواية الموافقة للمطرد من القواعد .

وعلى ما تقدم نشذب ذيولاً واستطالات كثيرة في بحوث النحو ، عرضتُ منها نماذج أربعة فقط ، وخرجت بهذه النتائج :

١ـ لا تقوم الفاء البتة مقام الواو في مثل (بين الدَّخول وحومل) .

٢ـ اسم إن منتصب دائماً ، ولا نتكلف إضمار ضمير الشأن في غير المواضع المشهورة .

---

(١) تاريخ بغداد ٩/ ٣٦ .

٣ـ لكل من (كي ، ولعل ، ومتى) استعمالها الواحد المعروف ، فليست واحدة منها حرف جر .

٤ـ ما في كتب النحو عامة من وجوب اقتران الجملة الطلبية بالفاء إذا وقعت جواب شرط ، محكم لا استثناء فيه .

إن الإصلاح الناتج عن تحكيم هذا الأصل : (العمل في النص قبل العمل به) بعيد الأثر يعود علينا وعلى العربية بخير عميم ، فلا عمل برواية شاهد إلا بعد نقدها نقداً داخلياً وخارجياً ـ كما يقولون اليوم ـ أو نقدها متناً وسنداً ـ كما يقول البلغاء ـ مع مقابلتها بأمثالها . وقد أضعنا نحن وأجيال قبلنا زمناً طويلاً فيما لا طائل تحت أكثره ، وآن أن نشمر لعمل مثمر ، والمستقبل للمتفائلين الجادين .

كلمة (إلاّ) في القرآن الكريم

بحث تتبّع فيه الأستاذ استعمال (إلاّ) في القرآن الكريم ، وناقش النحاة فيما ذهبوا إليه .
نشر في مجلة مجمع القاهرة الجزء ٥٦ ، شعبان ١٤٢٥هـ/ مايو (أيار) ١٩٨٥م

بدأ الالتفات إلى الكلام على معاني الحروف في المئة الثانية للهجرة ، ثم كانت كتبٌ في (اللامات) ، أقدمها فيما أقدّر (كتاب اللامات) لأبي زيد الأنصاري المتوفّىٰ سنة (٢١٥هـ) وكتب في (الألف واللام) وغيرها . وكلّها رسائل في أوراق .

ثم جاء الزجّاجي في المئة الرابعة (٣٤٠هـ) فألف رسالته في الحروف ، وتتابع التأليف وتنامى مع الزمن ، حتى إذا وصلنا إلى المئة الثامنة طالعنا علماء ثلاثة طبعت مؤلفاتهم ؛ فرأينا كيف اتّسع الكلام على الحروف .

أولها : (رصف المباني في حروف المعاني) للمالقي ، المتوفّىٰ سنة (٧٠٢هـ).

وثانيها : (الجنى الداني في حروف المعاني) للمرادي ، المتوفّىٰ سنة (٧٤٩هـ) .

ثم جاء الثالث ، فأنسىٰ ـ في رأيي ـ ما قبله وما بعده ؛ ذلك هو ابن هشام الأنصاري المتوفّىٰ سنة (٧٦١هـ) ، فأخرج مؤلفه الممتع : (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لم يقتصر فيه على معاني الأدوات التي استنبطها من الشواهد في القرآن الكريم ، والحديث الشريف وكلام العرب نثره وشعره ، بل بسط معظم مسائل النحو ، وهو يناقش الشاهد ، وإن كان في كثير مما ذهب إليه نظر .

وبعدُ ، فحداني على بحث معاني (إلاّ) في القرآن الكريم عقدةٌ في نفسي وأنا تلميذ في الصفوف الإعدادية في (مكتب عنبر بدمشق) حين أسمعنا المدرس لأول مرة مصطلح (الاستثناء المنقطع) ومثّل له بالمثال الشائع في كتب المتأخرين كشرح ابن عقيل مثلاً : « قام القوم إلاّ حماراً »[1] فلم يسغ لذهني الناشئ فهم المثال ،

---

(١) قلت : انظر شرح ابن عقيل ١/ ٦٠٠ .

وإن شرح بأن المستثنى فيه ليس من جنس المستثنى منه . وقلت في نفسي : كيف أخرجه من شيء لم يدخل فيه أصلاً ؟!

ثم مضت سنون ، وشرعت في التدريس الابتدائي ، فالثانوي ، فالجامعي إلى اليوم خمس وخمسون سنة ، حُبّب إلي فيها ابتكار ما أقرب به لطلابي النحو ، وأعرض بأسلوبي المادة الدسمة للعلم في مطولاته شروحاً وحواشي وتعليقات وتقارير في القديم والحديث ، آخذاً نفسي بأصولٍ أيقنت بسلامتها ، وبما تعود به على العلم من خير وضبط وإقناع ، مستفيداً من أساليب حديثة في التربية وأصول التدريس ، ومن مناهج في تقرير مسائل العلم .

وانتهيت إلى أن النحو في حقيقته هو ما أسند إلى الموثوق به علمياً من كلام العرب ، بتنحية الضرورات الشعرية عن طريق القواعد ، ورجوت للنحو زيادة في الوضوح ، حتى أُزيل ما بني على غير ذلك ، ونُقِّي من جدلٍ لفظي كثير ومماحكات وتزييف شواهد ، أفسدت العلم ، وأضعفت ملكات ، وأضاعت أوقاتاً ، لو أنفق بعضها على تذوق اللغة وأدبها لعاد على الملكات بأعظم الخير .

أحصيت المواضع التي وردت فيها كلمة (إلاّ) في القرآن الكريم فبلغت (٦٤٣ موضعاً) كثرتها الغالبة طابقت معانيها أعاريبها ، وكانت من الاستثناء حقاً ، و(٣٤ موضعاً) منها لها معنى آخر لا يذكر في كتب النحو المدرسية كشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ، وشرح شذور الذهب لابن هشام الأنصاري ، لكنك حين تقرأ شرح هذه الآيات في التفاسير تجد ذكراً لمعناها الصحيح ، فيقول المفسرون : (إلاّ) هنا معناها (لكن) . وبذلك تتقطع هذه الأداة عن معنى الاستثناء لتؤدّي معنى الاستدراك . ويكون ما بعدها جملة جديدة تدفع ما قد ينشأ من توهم في ذهن السامع ، وهذا هو معنى الاستدراك .

وكالمفسّرين في تجديد هذا المعنى الصحيح لـ (إلاّ) المعجميون ، فنرى الجوهري ينصّ على أنها تكون في (الاستثناء المنقطع) بمعنى (لكن)[1] ، ونقل

---

(١) قلت : انظر الصحاح (ألا) ٦/ ٢٥٤٤ .

قوله هذا ابن منظور في معجمه (لسان العرب)[1] وأيّده .

فلننظر في ثلاث من هذه الآيات محكّمين المعنى المقصود .

١ـ الآية الأولى ، قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية ٨٨/ ٢٢ـ٢٤] .

بوضعنا (لكن) مكان (إلاّ) يحصل في يدنا معنيان :

الأول : لك التذكير لا السيطرة .

الثاني : من تولّى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر .

وبذلك نرد سؤالاً قد ينشأ عن الجملتين الأوليين وهو : (إذ لم يستجيبوا ولا سيطرة لي عليهم فهل يتركوا وشأنهم ؟) .

فكان ما في الآيتين الأخريين الجواب الشافي : (من تولّى عذبه الله) . وهذا هو المعنى المتبادر إلى ذهن العربي السليقي .

لكن موقف الصناعيين يختلف ، وليس فيه هذا اليسر والوضوح في الوصول إلى المعنى . ولأقتصر على اثنين منهما ألّفا في النحو وفي التفسير ؛ وهما الزمخشري (٥٣٤هـ)[2] ، وأبو حيان الغرناطي في المئة الثامنة (٧٥٤هـ)[3] . وكلّ منهما متأثر ـ شعرَ أم لم يشعر ـ بتقاليد صناعته وقيودها .

قال الزمخشري في الكشاف :

« وإلاّ من تولى » استثناء منقطع . أي : لست بمستولٍ عليهم[4] . ا .هـ .

وهذا سهو منه رحمه الله ؛ إذ لو قال : استثناء لأصبح المعنى كما هو واضح من السياق : أنت تستولي على من تولّى وكفر لا على من ذكرته : « لست عليهم بمسيطر

---

(١) قلت : انظر اللسان (إلاّ) ١٥/ ٤٣٢ .

(٢) قلت : هكذا في الأصل . والصواب (٥٣٨هـ) . انظر بغية الوعاة ٢/ ٢٨٠ .

(٣) قلت : هكذا في الأصل . والصواب (٧٤٥هـ) . انظر الذيل التام على دول الإسلام للسخاوي ، تح حسن مروة ط دار العروبة . ١٩٩٢م ـ ١/ ٧٠ .

(٤) انظر الكشاف ٤/ ٢٤٨ .

إلاّ من تولى وكفر فأنت مسيطر عليه » . وهو كما لا يخفى عكس المقصود .

ثم قال : « ولكن من تولّى وكفر فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر الذي هو جهنم » وليته اكتفى بجملة (لكن) التي فرضها عليه المعنى ، وأسقط ما قبلها وما بعدها .

لكنه كرّ عليها بما يضعفها فزاد : « وقيل : استثناء من قوله : (فذكّر) أي : فذكّر إلاّ من انقطع طمعك من إيمانه ، وتولّى فاستحق العذاب الأكبر ، وما يليها اعتراض » يريد قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ وبذلك عاد على قوله : « ولكن من تولى . . . » بالإلغاء ، ونفى بإثباته هذا القول الضعيف بمعنى غريب هو : « فذكر إلاّ من انقطع طمعك من إيمانه » .

ولم يتساءل غفر الله له : كيف يعرف ذلك منه قبل تذكيره ؟ وما الفائدة من تذكيره إذن ؟ كان التالي لهذه الآيات أقربَ إلى فهمها الصحيح قبل أن يفزع إلى هذه البلبلة في تفسير (الكشاف) .

ويأتي بعد الزمخشري بمئتي سنة أبو حيان النحوي المفسّر (٦٥٤ ـ ٧٥٤هـ)[1] ، فيقرر في تفسيره (البحر المحيط) ما يأتي : « (إلاّ) حرف استثناء ، فقيل : متصل ، أي : فأنت مسيطر عليه ، (يريد قوله : إلاّ من تولّى وكفر) . وقيل : متصل من (فذكر) أي : فذكر إلاّ من انقطع طمعك من إيمانه وتولّى فاستحق العذاب الأكبر ، وما بينهما اعتراض ، لم يزد على عبارة الزمخشري الآنفة شيئاً .

ثم قال : « وقيل : منقطع ، وهي آية موادعة نسخت بآية السيف »[2] ا . هـ .

ولم يذكر معنى الاستدراك البتة .

وكذلك فعل مختصر البحر في كتابه (النهر)[3] .

---

(١) قلت : هكذا في الأصل . والصواب (٦٥٤ـ٧٤٥هـ) ، لأنه مات عن تسعين سنة وستة أشهر . انظر الذيل التام على دول الإسلام . مصدر مذكور .

(٢) انظر البحر المحيط ١٠/ ٤٦٥ـ٤٦٦ .

(٣) قلت : يريد (النهر المادّ) وهو مختصر للبحر المحيط ، اختصره أبو حيان فيما بعدُ ، مهذباً بحره ، متراجعاً عن بعض آرائه فيه . انظر كشف الظنون ٢/ ١٩٩٣ . وهو مطبوع بجزأين .

والطريف أن أبا حيان أورد بعد ذلك قراءة ابن عباس ، وزيد بن علي ، وقتادة ، وزيد بن أسلم : « ألا من تولّى وكفر » . و(ألا) فيها حرف تنبيه واستفتاح ، وهي قراءة تؤيد أن الجملة بعد (إلاّ) : « من تولى » كلام جديد لا استثناء فيه . لكنْ أبو حيان غفل عن فقهها الذي يؤيد استدراكية (إلاّ) كل التأييد .

وبعد مئة سنة شفى النفس جلال الدين المحلّي (ـ٨٦٤هـ) في تفسيره المختصر (تفسير الجلالين)[1] وأخذ من كل الأقوال السابقة معنى الاستدراك فقط ، بوضعه إلى جانب (إلاّ) كلمة (لكن) ليصبح الكلام : لكن من تولى وكفر فيعذبه الله . . . إلخ لقد كان محقاً كل الحق في هذه ، وأعرض عن كل ما سبق من أقوال فأحسن .

ثم أكمل السيوطي تفسير المحلّي الذي فسّر النصف الثاني من المصحف فقط ، واجتهد في اتباع منهج المحلّي ، فكان هذا التفسير المسمى بـ (تفسير الجلالين) إشارة إلى الجلال السيوطي . التفسير الذي ـ لولا ما فيه من إسرائيليات ـ لكان أجود مختصر ، وأسرع مسعف في بيان المعنى للعجلان .

٢ـ والآية الثانية : قوله تعالىٰ في اليهود : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة ٢/ ٧٨] .

لم يعرض الزمخشري في تفسيره لمعنى (إلاّ) في هذه الآية ، لكنه قال : « إلاّ أمانِيَّ : إلاّ ما هم عليه من أمانيهم ، وأن الله يعفو عنهم ، ويرحمهم ، ولا يؤاخذهم بخطاياهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم . وما تُمنيهم أحبارهم من أن النار لا تمسّهم إلاّ أياماً معدودة ، وقيل : إلاّ أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم ، فتقبلوها على التقليد .

ثم قال : إلاّ أماني من الاستثناء المنقطع »[2] ا .هـ

أقوال مختلفة ، ولو عرض أولاً لمعنى (إلاّ) فقال : لكن يعلمون أمانيّ لقنّوها

---

(١) قلت : انظر تفسير الجلالين .

(٢) قلت : انظر الكشاف ١/ ٢٩١ـ٢٩٢ .

وأكاذيب لتمكن المعنى في نفس القارئ منذ البدء .

وقريباً من ذلك فعل أبو حيان في تفسيره[1] : عُني بالصناعة قبل تعرضه للمعنى قال : « (إلاّ أمانيَّ) ليست من جنس الكتاب ، ولا مندرجة تحت مدلوله ، وهو أحد قسمي الاستثناء المنقطع ، وهو الذي يتوجّه عليه العامل ، ألا ترى أنه لو قيل : لا يعلمون إلاّ أمانيَّ لكان مستقيماً ؟ . وهذا النوع من الاستثناء يجوز فيه وجهان :

أحدهما : النصب على الاستثناء ، وهي لغة أهل الحجاز .

والوجه الثاني : الإتباع على البدل بشرط التأخر ، وهي لغة تميم . فنصب (أمانيَّ) من الوجهين » ا . هـ

لم أدرِ ما علاقة هذا كله بفهم الآية ؟ .

لكنَّ أبا حيان بعد هذا باشر الموضوع فقال :

« والمعنى : إلاّ ما هم عليه من أمانيهم ، وأمانيهم أن الله يعفو عنهم ، ويرحمهم ، ولا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، أو ما يمنيهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلاّ أياماً معدودة ، أو لا يعلمون إلاّ أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فنقلوها على التقليد » ا . هـ وهذه عبارة الزمخشري نفسها .

« وقيل : معناه (إلاّ تلاوة) أي : لا يعلمون فقه الكتاب ، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يُتلىٰ عليهم » . ا . هـ .

في هذا المثال أيضاً كان تفسير الجلالين الموجز خيراً منهما في جلاء المعنى ، فقد حطّ عليه مباشرة ، واكتفى بقوله :

« ومن اليهود عوام لا يعلمون التوراة (إلاّ أمانيَّ) لكن أكاذيب لقفوها من رؤسائهم فاعتمدوها »[2] .

---

(١) قلت : انظر البحر المحيط ١/ ٤٤٤ـ٤٤٥ .

(٢) قلت : انظر تفسير الجلالين .

وبتفسير (إلاّ) بـ (لكن) وضع المعنى على طرف الثُّمام[1] ، وأضرب عن ذكر الاستثناء المنقطع وتفصيله ، وعن اللغات فيه بين النصب والرفع ، وتوجيه كل منهما .

٣ـ ونأتي إلى الآية الثالثة :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس ١٠/ ٩٨] في (كشاف الزمخشري)[2] :

« إلاّ قوم يونس » استثناء من القرى ، لأن المراد أهاليها ، وهو استثناء منقطع ، بمعنى : (لكن) [قوم يونس لما آمنوا ، ويجوز أن يكون] متصلاً ، والجملة في معنى النفي ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلاّ قوم يونس ، وانتصابه على الاستثناء ، وقرئ بالرفع على البدل[3] . هكذا روي عن الجرمي وسيبويه » ا .هـ

لقد حمدت للزمخشري هنا تصريحه بأن معنى (إلاّ) هو (لكن) وإنّما تمام هذا تصريح في كلامه على الاستثناء المنقطع . وجواز متصل هنا إلى آخر ما قال .

أما أبو حيان فاشتغل عن التفسير بمقالات النحويين في الاستثناء متصلاً ، ومنقطعاً ، ولم يعرض معنى (إلاّ) في الآية البتة . إذ قال :

« إلاّ قومَ يونس ، و(قوم) منصوب على الاستثناء المنقطع ، وهو قول سيبويه والكسائي والفراء والأخفش . إذ ليسوا (يريد قوم يونس) مندرجين تحت لفظ (قرية) » ونقل قول الزمخشري السابق ، ثم عقب بقول ابن عطية :

« هو بحسب اللفظ استثناء منقطع ، وكذلك رسمه النحويون ، وهو بحسب المعنى متصل ، لأن تقديره : ما آمن أهلُ قرية إلاّ قوم يونس . والنصب هو الوجه ، لذلك أدخله سيبويه في باب ما لا يكون فيه إلاّ النصب ، وذلك مع انقطاع

---

(١) قلت : هو مثلٌ يضرب على سهولة الحاجة وقرب النجاح . انظر مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٨ .

(٢) قلت : انظر الكشاف ٢/ ٢٥٤ .

(٣) قلت : يريد قوله : « إلاّ قومُ يونسَ » . وهي قراءة الجرمي . انظر القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي لمحمود أحمد الصغير ص١٦٣ .

الاستثناء . وقالت فرقة : يجوز فيه الرفع ، وهذا مع اتصال الاستثناء . وقال المهدوي : والرفع على البدل من (قرية) وقال الزمخشري : وقرئ بالرفع على البدل . عن الجرمي والكسائي »[1] ا . هـ

سقت هذا والكتب الثلاثة كتب تفسير وشرح معنى ، لا كتب في النحو الصناعي ، أما تفسير الجلالين فقد قال كلمة واحدة أغنت وألغت كل ما تقدم ، وتكفّلت بإصابة الهدف ، قال : « إلاّ قوم يونس » لكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم »[2] .

ومن المفيد الإشارة إلى أن من العلماء قبل أبي حيان من هُدي إلى المعنى الصحيح لـ (إلاّ) فقرره لها محتجاً بآيات كريمة ، وإن لم يكن كتابه كتاب تفسير ، بل كتاب نحو ، عنيت الذي طرى النحو بأسلوبه العذب : أبا البركات بن الأنباري (٥٧٧هـ) في كتابه المستساغ (الإنصاف في مسائل الخلاف) . لقد أقرّ الاستثناء المنقطع ، كما فعل غيره قبله وبعده . لكنه كان محسناً كل الإحسان حين قال في المسألة ٥٣[3] :

« (إلاّ) في قوله تعالىٰ : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة ٢/ ١٥٠] . استثناء منقطع .

والمعنى : لكن الذين ظلموا يحتجون عليكم بغير حجة ، ثم استشهد على هذا المعنى بقوله تعالىٰ : ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء ٤/ ١٥٧] .

قال : معناه : لكن يتبعون الظن .

وبقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الأعلى ٩٢/ ١٩ـ٢٠] معناه : (لكن) .

وبقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ

(١) قلت : انظر البحر المحيط ٦/ ١٠٧ـ١٠٨ .
(٢) قلت : انظر تفسير الجلالين .
(٣) قلت : انظر الإنصاف ١/ ٢٩٩ .

مَمْنُونٍ﴾ [التين ٩٥/ ٥ ـ ٦] .

معناه : (لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) لقد فطن إلى تمام الجملة بعد (إلاّ) كما فطن إلى أن المعنى هنا هو الاستدراك فحسب .

ونتساءل : هل تتابع النحاة بعد أبي حيان على إهمال معنى الاستدراك بـ (إلاّ) في كتبهم ؟ « المؤسف أن ذلك استمر ، ولقد كان من المتوقع أن ينتهي الإهمال ، ويُتلافىٰ بالمشروع الجليل النفع الذي تصدّى له ابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ) صاحب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) أوسع كتاب ألّف في معاني الأدوات في اللغة العربية ، لقد اجتهد في تعيّن معاني كل أداة من قريب ومن بعيد ، فجمع ما في محفوظه ومصادره من شواهد كل أداة من القرآن الكريم ، بقراءاته المتعدّدة ، ومن الحديث الشريف ، ومن كلام العرب نثره وشعره ، حتى إذا أرضاه الجمع كرَّ على شواهده ، يستقصي فيها معاني كل أداة على حدة ، فصبر وصابر ، بل بالغ في إضافة معان لا تحتملها الأداة مفردة . فحمّلها ما أوحى به سياق ما في بحره ، فلما وصل إلى الأداة (إلاّ) ـ والكمال لله ـ حملها معنيين لا أصل لهما ، وفاته معنى أصيل مستفيض ، وهو الاستدراك .

فجعل ابن هشام لـ (إلاّ) أربعة معان[1] :

١ـ الاستثناء ، ٢ـ مرادفة (غير) ، ٣ـ العطف ، ٤ـ الزيادة .

والمعنيان الأخيران لا يصحّان .

أما العطف ، فتبع فيه ابن هشام كوفيين غفلوا عن المعنى الحق للآيات الكريمة ، وقد مرّ بعضها ، وأما الزيادة ، فقد غرره فيها شاهدان ، أحدهما لا دليل فيه ، لاحتماله وجهاً آخر صحيحاً يسقط الاستدلال به على الزيادة ، وأما الآخر فمجهول لا يعرف قائله ، أو صانعه الذي اضطره الوزن إلى إسقاط حرف نفي في أوله ليستقيم له الوزن ، وقد عزاه إلى أحد بني سعد ، وهو :

أرى الدّهرَ إلاّ منجنوناً بأهله ... وما صاحبُ الحاجاتِ إلاّ معذّبا

---

(١) انظر مغني اللبيب ص١٠٢ .

وتمام الكلام : (ما أرى الدهر إلاّ منجوناً بأهله ، وما أرى صاحب الحاجات إلاّ معذباً) والمنجنون هو الدولاب .

فأنشا ابن هشام ـ رحمه الله ـ قسماً خاصاً بسبب هذا البيت هو مجيء (إلاّ) زائدة وما في كلام العرب (إلاّ) زائدة .

لم يسعنا إلاّ التحسّر لهذه الثغرة الواضحة في كتابه العظيم (مغني اللبيب) فقد أورده هو للتفسير أكثر منه للنحو ، وألفه على المعاني أول شيء ، ولما سئل :

(لمَ لا تؤلف تفسيراً للقرآن الكريم ؟) . أجاب : « ألفت المغني . . . » كان بين أيدي الذين أتوا بعد ابن هشام مادة غزيرة جداً في النحو والتفسير حوتها المجلدات التي سلمت مما حاق بالتراث العربي من نكبات ، ومع سقم أساليب التأليف ، ومع الركاكة عند كثير من المتأخرين حتى المئة الثالثة عشرة للهجرة لم يخلِ بعضهم حواشيه المطولة في النحو من الالتفات إلى هذه المعاني .

معنى الاستدراك في (إلاّ) ولو عرضاً .

جاء في حاشية الشيخ محمد الخضري المتوفّى في المئة الثالثة عشرة التي جعلها على (شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك) :

« ومتى كان ما بعد (إلاّ) جملة فهي بمعنى (لكن) ، ولو كان الاستثناء متصلاً ، لكن إذا نصب تالي (إلاّ) و(لكنّ) المشددة كما سيأتي ، أو رفع فكالمخففة (لكنْ) أفاده الصبّان عن الدماميني .

ثم يعمل لنصب (إلاّ) بكونها فيه بمعنى (لكنّ) فعملت عملها ، وخبرها محذوف غالباً .

نحو : « جاء القوم إلاّ حماراً » . أي : لكنّ حماراً لم يجئ . وقد يذكر خبره نحو : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ ﴾[1] » ا . هـ

---

(١) انظر حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١/ ٢٥٤ .

ومع صرف النظر عن ضعف تمثيله بجملة لا تصح عربياً وهي : « جاء القوم إلاّ حماراً »[1] .

حمدنا الله على ذكره المعنى ، وعلى حمله الإعراب على المعنى وتعويله عليه ، ولو في حاشيةٍ على شرح متن .

أعود من هذا العرض الملخص بنتائج أربع هي :

١ـ إلغاء ما سموه (الاستثناء المنقطع) من بحث الاستثناء ، لأنه لا استثناء فيه ، لأنه لا معنى لأن تخرج شيئاً لم تدخله قط .

٢ـ لكلمة (إلاّ) أربعة معان ؛ ثلاثة منها تكثر في الكلام ، وهي :

أ ـ الاستثناء حين يكون في الجملة مستثنى منه .

ب ـ الحصر (وهو ما سموه بالاستثناء المفرغ والخير أن يحذف أيضاً من باب الاستثناء .

ج ـ الاستدراك .

د ـ والمعنى الرابع قليل الاستعمال وهو الوصفية ، أو مرادفة (غير) .

٣ـ إن المعاني الثلاثة الأولى لـ (إلاّ) ، الاستثناء والحصر والاستدراك مما ينبغي بيانه للمبتدئين ، قبل إنهاء دراستهم الابتدائية ، وتدرج أمثلتها من القرآن الكريم وغيره في الكتب المدرسية ، (لمنطقيتها) ولسهولة فهمها .

٤ـ يلي (إلاّ) الاستدراكية جملة تامة ، وقد يحذف خبرها أحياناً ويكون مفهوماً من السياق ، أما الأصل الذي صدرت عنه في كل ما تقدّم فهو النظر في سياق الشاهد بعد الوثوق من صحته ومراعاة معناه ، بل تحكيم المعنى في كل قول يعرض ، فما اطّرد معه كان هو المقبول ، وما خالفه وجب الإغضاء عنه مهما يُحط به من تعليلات صناعية غير مقنعة ، ولو تواردت عليه كتب قديمة وحديثة . ونحن نعرف أن انحرافاً

---

(١) الصواب أن يقال : « جاء القوم إلاّ حمارُهم » أو « إلاّ حماراً لهم » لأن المستثنى يجب أن يكون معرفة أو نكرة مختصة على الأقل .

خفيفاً لمؤلف قديم ينقله خالف عن سالف من دون تبصّر عامل في إفساد الملكة . والمخلص في مثل هذا تحكيم المعنى ، ومع أننا نتناقل ما انعقد عليه الإجماع في القول السليم المشهور : « الإعراب فرع المعنى » مع ذلك فقليلاً ما نعوّل عليه .

إن أربعة وثلاثين شاهداً من القرآن الكريم وحده ، تفهم بيسر ، ويتضح معناها بوضعنا فيها (لكنْ) أو (لكنّ) موضع (إلاّ) كافية لاعتماد قاعدتها ، بل فوق الكافية ، بينما وضع ابن هشام قاعدة لا يسندها إلاّ بيت شعر تطرق إليه الاحتمال . وبيت آخر اضطر الشاعر فيه إلى إسقاط حرف نفي في أوله اعتماداً على قرينة (إلا) فيه ، وعلى شطره الثاني منه ، بله جهالة المؤلف اسم صاحب الشاهد .

واللافت للنظر أن معنى الاستدراك في (إلاّ) أصيل باق إلى اليوم حتى في لهجاتنا المحلية الدارجة ؛ فكثيراً ما يُسمع في الشام ومصر وشمال إفريقية مستمعُ حديثك يعقب بقوله مثلاً : « هذا صحيح إلا أنه كذا » . أو « هذا صحيح لكن كذا . . . » لقد بقي هذا المعنى لـ (إلاّ) حياً طوال هذه الأعصار ، ما نال من حياته إغفال المؤلفين له ، إنّ الاستئناس بما في اللهجات الدارجة من فصاحة في المفردات والأساليب خليق بنظر الباحثين .

النحو العربي

حديث أدلى به الأستاذ لمجلة الفيصل السعودية ، العدد ١١٨
تحدث فيه عن أزمة النحو العربي ، والدعاوى إلى تيسير النحو ، ومدى الحاجة إليها .

تيسير النحو

فيما يتصل بقضية تيسير أو تبسيط النحو العربي[١] من حيث خصومه القدماء والمحدثين ، أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف . . ما رأيكم في هذه القضية ؟

لا أعرف خصومة قديمة حول التيسير ، إنما الذي كان هو اهتمام الأولين بجمع ما يمكن من كلام العرب وتسجيله ، وقد تكفّل بذلك الرواة الأقدمون من حفّاظ الشعر جاهليه وإسلاميه ، والعلماء الذين قصدوا البوادي يسمعون كلام الأعراب الذين لم تفسد سلائقهم باختلاط بأعاجم ، وتدوين ذلك كله ألفاظاً وتراكيب وحواراً وأخباراً ونوادر ، ثم روايته لطلابهم . وقد سلم من هذا التراث قدر غير قليل ، ونظر علماء النحو في هذا كله في المئة الثانية للهجرة ، فبدؤوا تنظيمه في قواعد لم تكن في نفسها منسَّقةً كالتنسيق الذي في أيدينا اليوم ، لكنها كانت جامعة إلى حد بعيد بمثل هذه المرحلة كتاب (سيبويه) العظيم .

كان ذلك على أتمّه في مدينة البصرة ، وطلب العلم على أئمة البصرة فيمن طلبه أناسٌ من الكوفة لم يتقنوا من العلم ما أتقنه البصريون ، فتصدّروا حلقات التعليم في الكوفة ، وعملت العصبية البلدية عملها ، وتوصل بعض الكوفيين إلى بلاط الخليفة وقصور الأمراء يؤدّبون أولادهم ، فصار لهم جاه ونفوذ مع الارتزاق الذي لم يُيَسَّر للمنقطعين للعلم وتعليمه في البصرة ، وكان الانحياز الرسمي للدولة إلى جانب الكوفيين أنصار علي بن أبي طالب والهاشميين ، وغطّى هذا كله على ضعفهم في العلم ، فنصَّبوا أنفسهم مكافئين للبصريين ، وانفردوا بآراء يتميزون بها ، وتعصب

(١) هكذا نص السؤال في الأصل ، والصواب قوله : تيسير النحو العربي أو تبسيطه .

لكل فريق طائفة ، إلا أن أحد الفريقين لم يكن هدفه التيسير ولا التفسير في هذه المرحلة ، مرحلة التأسيس ، بل كان الانصراف كله إلى الجمع .

بعد ذلك صار الظفر بالغلبة في مجالس العلم التي تعقد في القصور هو الهدف لكلا الفريقين ، وتسرب إلى كثير من الكوفيين آفة العجلة والتزييف في إثبات نقول عن العرب فيها الغرابة وفيها غير الصحيح ، يبنون عليها قواعد لا يعرفها غيرهم ، وكان جدل ومكاثرة يجبهون بهما الأثبات من خصومهم في تلك المجالس ، ومن هنا كثر المدخول من الروايات والفاسد من الأحكام في كتب الذين يفتخرون بأن عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم ، وهو علم بث الفوضى في بناء القواعد ، وملأ كتب النحو بركام خلخل البناء ، وأضر بتماسكه ، وكانت الدنيا هدفاً لكثير منهم ، فجعل بعضهم يُعَقِّد المسائل ويحيط كلامه بالغموض في كتبه ليقصده الطلبة حتى يشرح لهم ما عقد ويرتزق بذلك .

الخصومة بدأت عصبية ثم صارت مكاثرة وتنافساً على الرزق والجاه في قصور الأمراء وذوي الجاه ، وصولاً إلى تنصيبهم مؤدّبين لأولاد هؤلاء أو تصدراً في حلقات المساجد ، أو لتدريس الطلبة الذين يقصدون دورهم ، أو يؤلفون الكتب ويدفعونها إلى الوراقين والناسخين فينتفعون بأثمانها . والظاهر أن هذا كثير حتى صار أسلوباً رسمياً للعيش لا يخفونه إذا لم يكن لهم كسب سواه .

وهذا الجاحظ في المئة الثالثة للهجرة يصور لنا من شأنهم في صناعتهم ما يصرّحون به ولا يكتمون من أسراره شيئاً ، قال :

قلت لأبي الحسن الأخفش :

« أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم سائرها ؟ وما بالك تقدّم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ » .

قال :

« أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني إليه قلّت حاجتهم إليّ فيها ، وإنما كانت غايتي

المنالة[1] ، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت .

ولكن ما بال إبراهيم النظام وفلان وفلان ، يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم أكثرهم ؟! »[2] .

ويذكرون عن الفراء وهو من صدور الكوفيين أنه ترك كتاباً كبيراً في النحو سماه (الحدود) يشتمل على ستة وأربعين حداً في الإعراب ، وليس يعنينا الكتاب نفسه في حديثنا هذا ، وإنما تلفتنا قصة الكتاب ، فهي تدل على بدع عجيب عرف به بعض النحاة وأثر أثراً سيئاً في سير هذا العلم ، ذلك هو الإغراب والتعقيد الذي أُولع به فريق النحويين . فقد ذكر ابن النديم في (الفهرست) أنهم قالوا :

« كان السبب في إملائه (الحدود) أن جماعة من أصحاب الكسائي صاروا إلى الفراء [بعد موت الكسائي] وسألوه أن يملي عليهم أبيات النحو ، ففعل ؛ فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض : إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان ، والوجه أن يُقعد عنه ، فقعدوا ، فغضب وقال : « سألوني القعود ، فلما قعدت تأخروا ، والله لأملينّ النحو ما اجتمع اثنان » فأملى ذلك ست عشرة سنة »[3] .

وكنت منذ أكثر من عشرين سنة حائراً بين نزعة التسهيل هذه التي في القصة وقولهم في ترجمته في (الفهرست) نفسه « كان يتفلسف في تأليفه ومصنفاته ، يعني يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة » .

والذي توحيه القصة أن أصحاب الكسائي حين نصبوا الفراء توقعوا أن (يغمض ويعقد) كما ألفوا ، فلما لم يفعل قاطعوه ، وصعب عليهم أن يتيسر النحو حتى على الصبيان .

---

(١) المنالة : النَّيل والعطاء .

(٢) قلت : انظر الحيوان ١/ ٩١ـ٩٢ .

(٣) قلت : انظر الفهرست لابن النديم ١٣٣ ، دار قطري ـ الدوحة .

نخرج من هذا كله أن نزعة التعقيد هي من أهواء مرتزقة النحاة لا من النحو نفسه بشهادة خصوم الفراء أنفسهم للنحو الذي أملاه عليهم ، وهي شهادة لا تشرف ، سجلتها المئة الثالثة للهجرة .

إذن فكيف تحكم على الفراء ومفهوم الفراء يوحي بأنه كان يميل إلى التيسير ؟

أما الحكم على الفراء نفسه هل كان مبسّطاً للتعليم كما تذكر القصة ، أو كان معسراً له كما في ترجمته أنه يتفلسف في كتبه ، فلا يمكن البت فيه حتى يوجد كتابه (الحدود) .

أما الاعتماد على أحد المتناقضين القصة والترجمة ، التيسير أو التعقيد فلا سبيل إليه ، ولا يمكن الاطمئنان تاريخياً إلى أن هناك من تعمدوا التعقيد ليُقْصَدوا ، وتكونَ لهم صدارةٌ ومرتزقٌ في كل عصر ، وكانوا الجناة على العلم والمتعلمين .

كتب النحو

هذا الحشد الهائل من كتب النحو وما لحقها من كتب الشرح والاختصار ، والتوضيح والحواشي وحلّ الحواشي . . . إلخ . هل يعد ذلك من قبيل تيسير النحو أو تعقيده ؟

تكاثرت كتب النحو على مدى الزمن ، وكل من أنس في نفسه قدرة على جمع ما ليس عند غيره من شواهد أو أقوال ، دسّ ذلك في مكانه من أبواب النحو ، وأعقب ذلك أزمنة التقهقر فشرع المتصدرون للإقراء يضعون متوناً مختصرة يستظهرها الصغار ، وهم لا يفهمونها بالطبع ، فيشرحون لهم متونهم ، ويأتي بعد ذلك في عصور ضعف الملكات من يضع على الشرح حاشية تعليقاً على كلام الشارح ، يجادلونه في تركيب استعمله يرونه غير محكم ويتسرب إليه الاعتراض ، فيذكرون الاعتراض يؤيدونه أو يدفعونه بكلام من عندهم ، وربما أتى بعد هؤلاء من يضعون تقارير على الحاشية فيها ما هبّ ودبّ ، وأصبح الذي يريد تخصصاً في النحو يمضي عمره في هذا الركام مما لا يعود على لغته بتسديد ولا إصلاح إلا بعداً عن العربية الناصعة وفساداً في الملكات . لا تيسير ولا إبداع ولا إحكام ولا إصلاح ولا نفع من ذلك كله بتقوية ملكة أو عصمة من خطأ أو سمو في أسلوب . ولم تخل تلك العصور

من علماء موفقين ألفوا ما قرب الطريق إلى حد ما على المتعلمين . لم تكن إذن للقدماء خصومة حول تيسير النحو .

ماذا عن موقف المحدثين من هذه القضية ؟

أما المحدثون فأريد بهم ـ ليكون حكمي محدداً ـ من عاش في بدء القرن العشرين الميلادي حتى اليوم ـ ففريقان :

الفريق الأول : أدرك حاجة طلاب هذا العصر ، ورزق وعياً وإدراكاً لما نسميه (أساليب التدريس) أو أصول النجاح في التدريس فاهتدوا إلى (سلاسل الدروس) ابتداء من الدراسة الابتدائية فقدموا الخطوط العريضة للقواعد على أساليب سهلة متدرجة بعباراتهم الواضحة ، كل حلقة في يد تلميذ تزيد على ما درسه في حلقة سابقة مع تمارين كثيرة ، ونصوص أدبية سهلة يستظهرها كما يستظهر طائفة صالحة من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهو مما يسمعه كثيراً في بيئته ، فلا يُتم مدرسته الابتدائية إلا وقد تخلص من العامية ، وسما على الأميين سمواً ظاهراً ، وكانت المدارس الخاصة حينئذ أصلح من المدارس الرسمية التي لم يكن يغشاها إلا القليل من الأطفال ، وتوّجت هذه السلاسل والتجارب بسلسلة (الدروس النحوية) التي ألّفها في مصر (حفني ناصف وزملاؤه) ، أحكام يسيرة بلغة سليمة واضحة وأمثلة شارحة ، وانتهت السلسلة بـ (قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية) ، وبها درست ابتداء من سنة ١٩٢٠م ، وانتهاء في سنة ١٩٢٤م . والكتاب من القطع الصغير في (١٤١ صفحة) ، مئة منها لأبواب النحو والصرف ، وأربعون لعلوم البلاغة ، ولا يحتاج العربي ليكون مثقفاً في العربية إلى أكثر من ذلك ، لقد جمعوا الصحيح السليم من القواعد بعبارة واضحة وأمثلة شارحة ، جمعوا كل ما لا يجوز لمثقف جهله من علوم العربية كلها ، وهو كالمذكرة في يد المتعلم لا ينساه طوال حياته ، هذا إذا كان معلمه راعى أصول التدريس في الإكثار من الأمثلة التطبيقية ، وحمل طلابه على إنشاء أمثلة على كل جزئية من جزئيات البحث .

مضى على دراستي هذا الكتاب ما نيّف على الستين سنة ، وأنا لا أشبع من الترحم على مؤلفي هذه السلسلة : (حفني ناصف ، ومحمد دياب ، والشيخ

مصطفى طموم ، ومحمود عمر ، ومصطفى محمد) أكرم الله جوارهم وأثابهم على ما نفعوا من أجيال . ولا أنسى أن الذين أوصلوا هذا الخير لنا معلمون أكفياء راقبوا الله في عملهم وأخلصوا فيه النيات رحمهم الله أجمعين ، وما أظن الكتب تنفع حين يتحرر المعلم من مراقبة الله ومن الإخلاص ومن (الضمير) .

أقدر الآن ـ وقد أمضيت في تدريس النحو مختصراته ومتوسطاته ومطولاته خمساً وخمسين سنة ـ أن هؤلاء الأخيار سلخوا في عملهم هذا الكتاب الضئيل الحجم الغزير النفع أوقاتاً مديدة جداً ينخلون ما بأيدهم ويصفونه بين شواهد لا تصح ، وأحكام بنيت عليها لا أساس لها ، وأقوال لنحاة ومؤلفين كثيرين ، أعملوا فيها كلها مبضع الجراح حتى خلص لهم من كل ذلك نحو ميسر سليم ، قدموا ما وصلو إليه جهدهم دون منٍّ ولا تبجح ولا دعاوى ، قدموه بكل تواضع وإخلاص ، وتخرج بجهودهم على عشرات السنين أجيال متلاحقة أدباء وشعراء وبلغاء وكتَّاب مَنَّ الله عليهم بالنشأة العربية القوية ذات الأساس المتين في كل الأقطار العربية .

فروق الأجيال

ما الفرق بين هذا الرعيل وبين التقليديين ؟

إن هذا الرعيل الكريم درس النحو في كتب العصور المتخلفة ذات الشروح والحواشي التي لا يخرج منها الدارس بعد طول عناء بشيء طائل غالباً ، وأرادوا أن يجنبوا الذين من بعدهم العناء والغثاثة وسوء الملكة ، فقدموا إليهم عربية مصفاة من الركاكة في التعبير و(التقعيد) والتعقيد ولا تظننهم يقصرون عن التقليديين في فهم الحواشي وسطورها وما بين سطورها . بل ربما فاقوهم ، لكن أغير على العربية وقانونها وسلامتها من التقليديين . واستطاعوا بأعمالهم أن يذيقوا جمالها وبلاغتها للناشئين . وإني لأذكر حادثاً شهدته في حداثتي وقد مضى عليه ستون عاماً ما زال منظره عالقاً في ذهني : أربعة تلاميذ من ثانوية دمشق (مكتب عنبر) برعوا في العربية ، وكان لهم شيء تنشره الصحف ، وسأل عنهم الأستاذ محمد كرد علي وكان رئيس المجمع العلمي العربي ، فأخبر أنهم ما يزالون على مقاعد الدراسة الثانوية فعقد لهم حفلاً تكريمياً حضره أولو الشأن من كبراء البلد علماً وأدباً ووجاهة ، فقدم

الرئيس الفتية الشعراء الأربعة للحفل ، وألقوا فيه قصائدهم فكانت أحاديث الناس ، ونشرتها الصحف ، وتقرؤها اليوم فلا تكاد تصدق أن حال العربية في قطر عربي كان على هذه الدرجة والسمو ، وليس في الأمر من عجب ، لقد درسوا اللغة العربية في نصوصها البديعة ، وقواعدها في كتاب حفني ناصف الذي تقدم ذكره ، وفي أساليب يسرت لهم تذوق إبداعها ، وكان محفوظ الطالب الثانوي من الكلام الحر البليغ لا يقل عن ألف بيت ونصوص نثرية وخطب بليغة كونت ملكاتهم ، ولم يكن في أيديهم شيء من مخلفات العصور المتخلفة . في وقت كان فيه عدد من صدور التقليديين قضوا عمرهم في كتب الشروح والحواشي وإذا كتب أحدهم رسالة إلى قريب أو صديق في أسطر قليلة لم يخرج فيها عن طبع العامة .

هذا الفريق في غيرته على العربية ، واجتهاده في تيسيرها ونشر إبداعها ، وإبعاده الغثاثة والركاكة والتفاهة عن الناشئة كان أغير على العربية من الذين عكفوا على الكتب السقيمة يدرسونها ويكرهون دارسيها بالعربية ، ثم ما بالنا نعلم أولادنا اللغة الأجنبية بأحدث الأساليب النافعة ، ومن أقصر الطرق ، ونبقي للغتنا أسقم المؤلفات وأبلاها بلىً ؟!

لقد اهتدى ذلك الرعيل إلى الإجادة ، ودعا إلى إصلاح ، وطبّقه بإخلاص متحملاً أذى المعوّقين ، ولم يبال بالمعوقات والمعوّقين ، شأنهم شأن كل مصلح ، وحمل دعوة الإصلاح من بعدهم غُيُرٌ على العربية وسلامتها ، وتحمّلوا في سبيل دعوتهم ما حمل أولئك من أذى وسلاطة . هذا شأن الفريق الأول أبداً .

وأما الفريق الثاني من المحدثين ، فما شئت من تبجح ومكابرة ودعاوٍ فارغة ، صادفهم - لسوء حظهم أول نشأتهم - جوٌّ موبوء شحنه الصليبيون مستعمرين ومبشرين ، بالحملات التشكيكية بالدين واللغة وصلاح العرب ليكونوا أمة ، حملات في ميادين عدة ، يعنينا منها ما خص العربية ، والطريف أنها تبث في أوقات متقاربة في لبنان ومصر والمغرب وبيئات الاستشراق حول اللغة العربية وصعوبتها ومشكلاتها ، استهدفت كل مقومات اللغة ، فكتابة حروفها معقدة ، وقراءة كتبها لا يمكن ضبطها ، ونحوها طلاسم ، وقواعد رسمها كثيرة لا ضابط لها . . . وحمل

هذا الوباء عَددٌ من الإمَّعات باشوات وبكوات بل وذوو عمائم أحياناً يسهمون في نشر هذه الدعاية ، حتى كاد من كثرة ما أعادوا وكرروا يسلم بما يقولون الكثير ، فلما هيؤوا - بحسب زعمهم - تربة صالحة لتقبل تلك المفتريات ، برزوا بالعلاج الذي حضروه لكل من هذه الميادين ، أما صعوبة الحرف فعلاجها الحرف اللاتيني ، وقام (بالتبشير) به باشا في مصر كانوا أدخلوه في مؤسسة قانونها المحافظة على سلامة العربية ، وخوري في لبنان يكره العربية (طائفية) وتديناً بزعمه . وفي ميدان اللغة نفسها طالعوا الناس بهجرها والعكوف على العاميات المحلية يدرسون بها ويكتبون ويخطبون ، فلكل ناحية في مصر لهجة وأسلوب نطق ينبغي اعتمادهما ، وفي كل قرية في لبنان لهجة صالحة للأدب والعلم ، ومثل ذلك في تونس والمغرب والعراق ، وانبرى لهؤلاء من ينافح عن العربية ، واختنقت الأجواء بالأخذ والرد . . . فلما أخفقت هذه المشروعات بعد أن عطلت القوافل عن سيرها السليم سنين عدة ، برز الأعداء بنغمة جديدة : « أصلحوا نحوكم » ، فتلقفها مسؤولون مهيؤون لها ، كانت أدمغتهم عولجت في أوروبة وأمريكة ، أو في البلاد العربية في مؤسسات الإرساليات الطائفية التي تمولها الدول الاستعمارية ، فبثوا أسلحة التشكيك ، وكان لهم عملاء في وزارات المعارف والإذاعات والصحف ، ولم يكن سبيل إلى محاربة العربية كفاحاً وجهاً لوجه ، وكانت بعض الأقطار العربية قد استقلت وسائرها في طريقها إلى الاستقلال ، فتمخض هذا كله عما سمي بمشروعات (تيسير النحو وتبسيط القواعد) ، واضطررت إلى دراسة هذه المشروعات بحكم عملي ثم بحكم اشتراكي في (حلقة تيسير النحو) التي ضمت عدداً من المتخصصين الجامعيين ومفتشي اللغة العربية لدراسة مشروع كانت أعدته وزارة المعارف المصرية سنة (١٩٣٨م) ، وعرض على مؤتمر المجامع العلمية العربية المعقودة في دمشق ١٩٥٦م ، فأوصى المؤتمر أنه محتاج إلى زيادة البحث والتمحيص وتأجيل النظر فيه إلى موعد آخر . وكانت هذه صيغة دمشق الناعمة لردّ المشروع .

لكن أصحاب المشروع ذوو نفوذ بعيد في المعارف المصرية فحملوها على

إقراره ، وأدخل مجمع اللغة العربية في مصر بعض التعديل سنة ١٩٤٥م ، وطلب من الوزارة تأليف كتاب على أساس التعديل ، ثم انقضت سنوات وأصدرت كتب ، وسرعان ما بثت في مدارس مصر وفرضت على التعليم المصري . فلما كانت الوحدة بين مصر والشام رئي إشراك سورية في المشروع ، وانعقد المؤتمر باسم (حلقة تيسير النحو) في دار العلوم في القاهرة بين ٤/١٢/١٩٦١م ، و٩/١٢/١٩٦١ وألقيت كلمة الوفد السوري في المؤتمر وتتابع الاستماع إلى كلمات المؤيدين والمناوئين ، أجمعت الكلمة على إصدار قرار برفض المشروع ، أما كلمتي التي ناقشت فيها المشروع وغيره فقد تم بسطها في آخر كتابي (من حاضر اللغة العربية) ص٢٠٢[1] .

بعد هذه اللمحة نعلم أن خصومات القدماء لا تشبه مزاعم المحدثين ، فالدوافع مختلفة والأهداف لا تتشابه ، وإذا برئت الخصومات القديمة من أصابع خارجية ، فقد غرقت الخصومات الحديثة في أشراك الأعداء إلى الأذقان ، ومعظم الغارقين عملاء للصليبية ، بعضهم يعمل عن إصرار ووعي وكيد ، وبعض عن غفلة وسذاجة من لا يشعرون .

القضية . . والرأي

ما رأيكم الحالي حول القضية بعد العرض الضافي لكل أبعادها ؟

تطلبون رأيي في هذه القضية ؟

الذي أعتنقه ليس رأياً بل عقيدة ، انتهيت إليها بعد عمر طويل أنست فيه إلى القواعد العربية دراسة وتدريساً ونقداً ، بعيداً عما سميتموه خصومات قديمة وحديثة ، عاكفاً على نخل المطولات القديمة والجديدة ، مسلطاً ما ينعم به عصرنا من موضوعية ، محكماً النهج العلمي السوي فيما بين يدي وانتهيت إلى ما عرضته قبل سنوات من خطة لتصفية علم النحو على أساس علمي :

« لا شك في أننا اليوم نصطنع لغة فصحى يفهمها الرجل العادي فيما بين المغرب

---

(١) تقدم البحث في هذا الكتاب تحت عنوان : (نظرات في تيسير النحو) .

الأقصى وخليج البصرة ، بل يفهمها كل من تعلم العربية من الأعاجم ، وأن لنا تراثاً علمياً وتراثاً أدبياً ضخماً ، تحفل به المكتبات الخاصة والعامة في ديار الغرب والشرق ، هذه واحدة . والثانية أن لغة القرآن الكريم والحديث النبوي بوجه خاص ولغة قريش بوجه عام هي الغالبة الشائعة ، نقرؤها في الكتب قديمها وحديثها ، وفي صحف اليوم ومجلاته ، وجميع إذاعاته العربية الصادرة في بلاد العرب وغيرها ، يستوي في ذلك أبناء العروبة والذين شدَوْا شيئاً منه من الأجانب ، وأظن بعد تلك أن الطريق واضح :

علينا إهدار كل لغة لا تستعملها اللغة الشائعة في القرآن الكريم والحديث وكتب الأدب والتاريخ وسائر الفنون الحضارية التي خلفها أسلافنا ، ثم نؤسس قواعدنا على هذا التراث الموثوق به والذي كفلت له أصالته الحياة : نستقصي مفردات القرآن الكريم وتراكيبه ، ونمعن النظر فيما اطمأننا إلى صحة صدوره عن الجاهليين والإسلاميين ، ثم فيما نطمئن إليه من نثر الأقدمين ، فنبني بعد هذا الاستقصاء قواعدنا على ذلك التراث كله متوخين أقصر الطرق وأسهلها ، والأشيع ثم الأقيس فيما فيه لغتان فصيحتان .

أنا واثق بعد ذلك أننا سنهدر ركاماً ضخماً من تفريعات واستثناءات بنيت على شاهد مجهول أو لغيّة محرفة أو لهجة رديئة أو ضرورة شعرية ، ونهدر إزاءه مقداراً ضئيلاً لا يعتد به من خلاف اللهجات . وتكون القواعد هذه أقرب إلى روح العربية من القواعد الحالية التي أفقدها حشر النحاة فيها ما هبّ ودب مما لا يرجع إلى النظام ولا يجمعه نسق .

وأكبر دليل على قولي أنك تجد كثيراً من الأحكام التي ضخمت النحو لم يستعمله أحد منذ دونت تلك الأحكام حتى الآن ، ولم يستعمله أحد قبل ذلك إلا نادراً في الشواهد التي أثبتوها إن صحت .

إعادة نظر في أسس النصوص الشائعة الموثوق بها ، ومنهج علمي سهل في بناء القواعد عليها كفيلان بإبلاغنا الهدف المنشود . وربما أُهدرت في سبيل ذلك بعض لهجات عربية فصيحة هنا وهناك ، إلا أن ذلك إذا قيس إلى ما نستريح منه من أكوام

القواعد القديمة وما حولها من استثناءات وتفريعات واعتراضات بدا غير ذي بال .

هذا ما أقترحه خدمة للفصحىٰ وتيسيراً لنشرها اليوم ، فإذا تم ذلك اقتصرنا أكثر من نصف الوقت الذي يقضيه الطالب في المدارس لدراسة النحو ، وانتفعنا به في الإكثار من دراسة النصوص الأدبية المختارة ، فذلك أعود على إحياء الفصحى وعلى ملكة الطالب اللغوية .

أما النحو الحاضر بمطولاته وشروحه وحواشيه ، بقديمه وحديثه ، بتأريخه وطبقات أهله ، فيبقى موضوع الدرس والتثقف في المعاهد والكليات والمجامع ، وعند أهل الاختصاص ، يدرس مادة وتاريخاً وتطوراً ، على شرط تنسيقه على أساس من النهج العلمي الذي ألمحت إليه آنفاً : تحقق نصوص شواهده ، وتطبق عليها أسس الاحتجاج بدقة وإحكام ، ثم تدرس بعد استقراء الموجود منها وتصنف على ما تقدم ، ثم يبنى عليها من بعد ذلك أحكام صحيحة ، تستند إلى إحصاء الأحوال في هذه النصوص ، فتماز الأحكام المطّردة من الأحكام الغالبة ، والأحوال القليلة من الأحوال النادرة ، وتنسب اللهجات إلى أصحابها ما أمكن ، وتفرد من ذلك كله الأحوال الشاذة ، وما ألجأت إليه الضرورة الشعرية ، فلا يعيث بين الشواهد والأحكام بلبلة واضطراباً ، بل يصنف على حدة ، لتاريخ الفن لا للاستعمال ، فللشعر رخصه الخاصة ، أو بعبارة أدق : نحوه الخاص ، كما له لغته الخاصة ووزنه الخاص » .

ولا يظن أحد أن الطريق طويل والعراقيل دون هذا الإصلاح جمة ، فإن أكثر ما أدعو إليه يسره كتاب (حفني ناصف) وزملاؤه رحمهم الله ، وإن الزمن حذف وشذب كثيراً .

ولست أدري كيف جهل المتصدرون للتيسير ، هذا العمل العظيم الصامت ، وتسارعوا إلى اقتراحات التيسير .

ضعف الطلاب

ما أسباب ضعف مستوى التحصيل عند طلابنا بصفة عامة ، المتخصص منهم وغير المتخصص ؟

فيما يتصل بضعف مستوى التحصيل عند طلابنا بصفة عامة ، المتخصص منهم وغير المتخصص ، ما الذي قاد إليه ؟

١ـ أهو وجود خلل في عملية التعليم ذاتها أي ما يتصل بالمعلم ؟

٢ـ أم وجود خلل في مناهج التعليم وبخاصّة أن بعض الناس يعترضون على وجود أبواب في مناهج التعليم لما قبل الجامعة لا تكاد تستعمل فيما جرى على ألسنة الطلاب ؟

٣ـ أم قلة ممارسة الطالب للفصحى بل انعدامها ، إذ لا يكاد يتصل بها قراءة أو حديثاً أو سماعاً في ظل هيمنة اللجهة العامة ؟

٤ـ أم أسباب أخرى ترونها ؟

٥ـ ما توصون به ؟

هل عليَّ من حرج أن أقول : إن واضع السؤال ـ فيما أظن ـ من المتخصصين الواعين المبصرين بالداء والدواء ، فالأسباب الثلاثة الأولى كلها صحيح واقع وعلاجها بدهي .

فأما السبب الأول وهو الخلل في التعليم والمعلم فيكاد العلاج يكون واضحاً ، إن المعلم الذي يشعر من نفسه ضعف المادة العلمية أو ضعف الإعداد المسلكي يتدارك من نفسه الخلل بدافع من (ضميره) بمذاكرة أعلم منه في صناعة التدريس وأقوى منه في العلم ، فما هي إلا أسابيع أو أشهر حتى يتم له التوفيق في عمله ، هذا إذا أراد حقاً وكان له ضمير . وإلا فالوازع الخارجي الصارم الملاحق هو العلاج .

أما السبب الثاني وهو حشر أبواب في المناهج لا آثار عملية لها فعلاجها حذفها .

والسبب الثالث وهو غياب الفصحى عن أسماع الطلاب فدواؤها أيضاً الاستجابة إلى الضمير ، ومتى أراد المعلم ومن فوقه ذلك بإخلاص وتأكيد سادت الفصحى الحوار والتقرير ، وانحجرت اللهجة السوقية خارج أسوار المدارس والمعاهد والمجالس والإدارات ، فإن لم يكن ضمير فصرامة رجال الإدارات والتفتيش كفيل بحملهم على ذلك ، ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

أما السبب الذي أضيفه فهو تسيب ضوابط الامتحانات التي يتقدم بها الطالب ليرتقي من مقرر إلى مقرر ، أو من صف إلى صف أعلى ، والدليل على ذلك أن مدرساً يشكو أن طلابه لم يهيؤوا للمقرر الذي يدرسه وأن أساسهم ضعيف ، فإذا رجعت إلى درجاتهم التي نجحوا بها وجدتها جميعاً (امتياز) ، (جيد جداً) ، (جيد) ، وقل أن تجد فيها كلمة (ضعيف) ، يعني أن شكلية الامتحانات أدت إلى أن تكون الترقية (ترحيلاً) آلياً لا يدل على حقيقة ، فإن صح هذا العناء أننا لم نراقب الله في الأمانة التي حملناها ، ومعنى هذا في اصطلاح الناس اليوم أن (الضمائر) في واد وأعمالنا في واد .

وما أوصي به بعد ذلك ظاهر ، هو أن يكون التدريس تمليكاً للمادة العلمية بحيث يشعر الطالب أن المقرر ظهرت آثاره عملياً في لغته كلاماً وكتابة وتطبيقاً ، أما حفظ القاعدة كما هي في كتابه ، ووضعها في ورقة الامتحان ، وأخذه عليها درجة الامتياز إذا لم يغادر حرفاً من كتابه ، ثم فقدانها من ذهنه بعد شهر فليس ذلك من التعليم الصحيح في قليل ولا كثير .

أما أسئلة الاختبارات فينبغي أن تكون اختباراً لملكة الطالب في العلم ، لا لذاكرته الآلية ، وأن تكون الدرجات طبيعية تطابق خلق الله ، إن الله لم يجعل الناس كلهم أو أكثرهم بدرجة (الامتياز) أو (الجودة) ، بل فيهم القوي جداً والقوي والمتوسط والقريب منه والضعيف والأضعف ، إننا حين نشهد أن ٩٠٪ من الفصل (الصف الدراسي) بدرجة (امتياز) أو (جيد جداً) نزوّر الطبيعة تزويراً ساذجاً لا يخفى على الطلاب أنفسهم ، بله المسؤولين من رؤساء ومديرين ومفتشين ، بل إن واضع الدرجات نفسه يدرك جيداً ما صنع ، لكنه بعد استمراره في هذا الغش سنين يصدق ـ لكثرة ما تعوّد ـ أن ذلك المقياس الزائف مقياس صحيح ، ويصدق عليه ما يقول علماء النفس ، كرّر ما يوقنه الناس كذبه اليوم مراراً كثيرة ، وعلى فترات ، فلا بد أن يصبح بعد وقت مناسباً صدقاً عند أكثر الناس .

ليجرب المسؤولون ضبط الامتحانات وصدقها سنة واحدة بإحكام ، مهما يقلّ الناجحون ثم ليحصدوا في سنوات قادمة ثمرات هذا الصدق . وإذا ضبط كلال

مدرس أمره بحيث لا يغادر الطالب مقرراً إلى أعلى منه إلا بعد إتقانه أو بلوغه فيه درجة متوسطة (متوسطة بصدق) على أقل تقدير ، فسرعان ما نلمس رقي المستويات في التحصيل .

أما ما أوصي به ، فهو أن الأسباب الواردة في سؤالكم عن الذي قاد إلى ضعف الطلاب في العربية من خلل في أعمال التعليم والمعلم والمناهج فكلها أسباب ثانوية ، والسبب الأساسي من بينها واحد ، هو هيمنة اللهجة العامية المدارس والكليات والمعاهد والجامعات وهو أسهل الأسباب علاجاً ، وعلاجه ضمير سليم وإدارة مخلصة فينبغي ألا تتسلل هذه اللهجة إلى دور العلم والتعليم ، الإعلام بكل أجهزته ، بل تبقى اللهجات والدوارج للأسواق ، وحيئنذ نكون مع الأمم التي أكرمت نفسها وأكرمت قيمها كالألمان والإنكليز والفرنسيين والإسبان وغيرهم .

فهل يستجيب المختصون في العلوم والإنسانيات (وأخجل من قولي) والمختصون بتدريس اللغة العربية وأدبها ، بصون بيئاتهم العلمية والتعليمية عن مبتذلات الأسواق ؟

وهل يكرمون أنفسهم وعلمهم وحقوق اللغة عليهم فيكرمون ألسنتهم عن الانحطاط إلى لغة السوقة والطغام ؟

بهذا يجب أن نبدأ إن أردنا الحياة بكرامة ، في سنة ١٩٢٨م كنت مصطافاً في قرية قريبة من دمشق ، وكانت تكثر فيها إصابات (الملاريا) ويتعاهد المرضى كل أسبوع ، طبيب يغشى القرية صباح الجمعة ، وينزل في دار إمام المسجد ، منادياً في الأزقة والحارات : « إن الطبيب في دار الإمام من الصباح إلى المساء » . ثم يغادر القرية فيأتي إليه المصابون رجالاً ونساءً وأطفالاً ، يصف لهم الأدوية ثم يرجع مع المغرب ، هذا دأب الصيف ، سنة بعد سنة ، في طريقه إلى دار إمام القرية تنحدر عن يمينه حقول غير مستوية ، بمياه ضحلة راكدة غطى سطحها البعوض مرَّ يوماً إلى دار الإمام زائر ، فشكا له استيلاء الملاريا على أهل القرية ، مع أنهم على العلاج بـ (الكينا) و(الإسبرين) وما يوصي به الطبيب ، فقال الزائر وكان مثقفاً : (اردموا المستنقع فهو السبب) ففعلوا وبعد شهر استغنوا عن الطبيب وعلاجه .

اطردوا العامية من مؤسساتكم تصيبوا العلاج الحاسم ، وتصونوا الأوقات والجهود من الضياع ، ذلك هو العلاج ، ذلك هو العلاج .

المنهج والشواهد

يرى بعض الناس أن هناك أبواباً في النحو العربي لا يكاد المرء يجد لها شواهد في كلام الناس ، بل إن وجوده لا يكاد يخرج عما أورده النحاة من شواهد لها . وهي شواهد يثور من حولها الشك ، وبخاصة تلك التي لم تتحقق نسبتها الصحيحة إلى قائليها أو التي وردت مجهولة النسبة ، مما يقود إلى القول بأنها من صنع النحاة . ومع ذلك فإنها وأبوابها ما تزال تدور في مناهج التعليم على اختلاف مستوياتها ؟

قدمت أن كل ما بني على شواهد مجهولة القائل ، أو شواهد محرّفة ، أو شواهد مزوّرة (مفتعلة) ينبغي إطراحه وإطراح ما بني عليه . وأزيد أن الدراسة العالية لمادة (النحو) يجب أن تكون ثقافة شواهد بقدر ما هي ثقافة قواعد ، بحيث لا يتخرج الطالب إلا متقناً لنقد الشواهد عملاً لا نظراً فقط ، فيستبعد كل شاهد لا يعرف قائله ، أو فيه علة من العلل المانعة الاستشهاد به ، جربت هذا مع طلابي في جامعة دمشق وغيرها منذ الخمسينات ، وجعلت مآخذ الشواهد في مقدمة دراستهم النحو في السنة الأولى ، وحشرت لهم في آخر كل بحث شواهد عدة ليطبقوا عليها قواعد الاحتجاج ، حتى صار لبعضهم ملكة لا بأس بها في امتحان الشواهد ، وظهر أثر هذه الطريقة فيما حققوا من آثار السلف وهي غير قليلة .

وحرام في عصر شاع فيه المنهج العلمي ، وتيسر لكل محقق ما يعينه ليكون نقده دقيقاً علمياً ، حرام أن يبقى في كتبنا ما لا يثبت على النقد من شواهد وقواعد ، وإذا عذر الأقدمون في إغفالهم تلك القواعد النقدية ، فنقل خالف عن سالف ما أخطأ فيه حتى تراكم هذا الخطأ فيما ألف في عصور التخلف، من مكدسات الأقوال والشواهد ما هبّ منها ودبّ لا نعذر نحن اليوم . لقد انتشر العلم وانتشر منهجه ، وعلينا أن نطبقه فنوفر على طلابنا أوقاتاً هم أحوج إليها في تذوقهم بلاغة اللغة وعبقريتها .

وكل الذي ورد في سؤالكم من اضطراب الشواهد والقواعد مع بعض الزيف واقع يجب التخلص منه .

* * *

الكتاب الثاني
أدب وأدباء



حافظ الإنسان

مقالة تحدث فيها الأستاذ عن إنسانية حافظ إبراهيم الذي أحبّ شعره منذ صغره
نشرت في كتاب (ذكرى الشاعرين) الذي أصدره الأستاذ أحمد عبيد ـ رحمه الله ـ في عام ١٣٥١هـ .

هِمت بشعر حافظ وأنا طفل لا أبلغ الثالثة عشرة ، وقد أُهديت إليَّ نسخة من ديوانه مكافأة مدرسية ، ولم أدرِ لِمَ حُببَ إلي شعر هذا الرجل في تلك السن ، ألأنّ دأبه تصوير آلام البائسين للناس يعطّف القلوب عليهم ، أم لأنه يحزّ النفوس حين يعرض شكاوي المظلومين ويستنصر لهم الله وملائكته ، أم لأنّ همه تعزية المفجوعين في كل قارعة تنزل بهم ، أم لأنه يصرخ أبداً في وجوه الغاصبين ؛ غاضباً لوطنه أن يحتل ، ولأمته أن تهان ، وعلى هؤلاء الشراذم الذين يكونون في كل بلد شرّاً عليه من عدوه أن يعقوا بلادهم وأُمتهم ، أم لأن الله ألقى في قلبي محبته من أول عهدي بشعره ، لا أدري ! ، ولعل كل أولئك اشترك في التأثير ، فلقد كان ـ رحمه الله ـ إنساناً قويَّ الإنسانية ، لا يسع امرءًا تجاهلها مهما بلغ في قلة الحسّ . وكم من شعراء لا تحصيهم عدّاً : فحول عظماء ، مطبوعون مشهورون ، أرباب جاه وسلطان ، تقرؤهم فيعجبك كلامهم إلا أنك لا تحبهم ، وإذا أحببتهم فلا يبلغون من قلبك ما يبلغ حافظ : الشاعر المسكين .

قد تحصل على الشهرة بالمال فتلقّب بالشاعر وبالمطبوع وبالعبقري ، وقد تحصل عليها بالجاه فتنظم في السنة قصيدة ويسميك أهل البلد شاعر بلدهم غير مدافع ، وقد تمتدّ هذه الشهرة المبهرجة وتتسرب إلى الجماهير في بلاد الله بالعدوى ، وقد يتطوع لك أنصار ينبهون من ذكرك ويعملون على خمول مناوئيك ، نعم قد يكون لك كل ذلك ، إلا أن شيئاً واحداً لن يكون لك بالزُّور ، مهما تنوعت أفانينه ، وهو أن تخدع أهل البصائر حين يخلون إلى أنفسهم فتسلبهم قلوبهم التي

هي وديعة الله . وإلا فما الذي يصرف النفس البيضاء النقية عن الغني المنعم ، الذاهب صيته ، إلى الفقير البائس الذي تحالفت قوى الوجود على حربه ، إن لم يكن ذلك لبقية حق لا تزول حرمتها من النفوس .

وإذا كان شاعر ، اجتمع في جلب الأنظار إليه ، شعره وماله وجاهه ، فحافظ نهض به شعره وحده ، وسما بهذا الشعر إنسانية واضحة ، شديدة الأسر ، تمدّ إليك عنقها ، فيبهرك جلالها سواء في كل ذلك المدح والرثاء والوصف والوطنيات .

* * *

أسعد أوقات الإنسان ساعة تغشاه فيها الرحمة فيحسّ أن خالجة في نفسه تتسع ، ثم تغزرُ ، ثم تترع نفسه ، ثم تبغي لها متنفساً فتفيض على جوارحه . ثم ترى عينيه قد ذبلتا ولمع فيهما الدمع ، ثم ترى الرقة تكاد تتدفق من كل خلية فيه ، فإذا هو في غيبوبة علوية ، وإذا العييُّ في هذه الساعة ينطلق لسانه وتنفرج شفتاه بكل مثير للشعور ، وإذا هو يكاد ـ إن توفر فيه الحسُّ الطاهر ـ يخرج عن ماله ولباسه إن كان فيما حرّكه داعٍ إلى ذلك .

الحياة مفعمة بمشاهد البؤس : في الدور ، في القصور ، في الرياض في القفار ، في الأسواق ، في المهود ، في كل ناحية على هذه الأرض ما يسترقّ أفئدة الجماد ، وما يجعل من نفوس الناس النبلاء مراجل تغلي بأشد الاندفاع ، لا يهدئها إلا أن يزال البؤس عن صاحبه ؛ لكن المسألة ليست في وجدان هذه المشاهد أو فقدانها ، بل في وجدان الحاسة التي بها تبصر النفس .

* *

ليس في ذكر شاعرٍ لعارض محزن وإظهار توجعه له كبيرُ أمر ، يكاد الناس كلهم يكونون كذلك : يرى أحدهم مصيبة في جار أو قريب أو صاحب فيتحسر عليه ، ثم تمضي الأيام وإذا بالقلم قد جف ، وبالحزن قد سُلي . لكن النبل والخلق الكريم أن تعظم الرحمة حتى تستوي منها حظوظ الناس جميعاً ، فلا يكون في ذلك صديق وعدو ، ولا جوارٌ وبعد ، ولا تقف دون هذه الرحمة الحواجز بين الحكومات ، ولا البحار بين بلاد الله ، تطوف كرة الأرض كلها فتبصر آلام الخلق فيكون تأثرها بها

وتأثرها بالمصيبة في النفس سواء ، أصحاب هذه النفوس قليلون بالطبع ، سمت بهم إنسانيتهم فتخطت العرف والتقاليد ، واستوى عندها الناس قاطبةً ، أحمرهم وأسودهم ، موحدهم ومشركهم ، تدين الله بقول رسول الإنسانية ونبي الرحمة ﷺ : « في كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى أَجْرٌ »[1] . أولئك مهبط عناية الله ، وأولئك المثل العليا في البشر ، وأولئك مفزع الناس في مدلهمات أمورهم .

ولقد كان شاعرنا (حافظ) واحداً من هؤلاء : قلب رقيق ، ودمعة ثرّة ، وعاطفة ثائرة ، وموهبة في الشعر معجزة ، وبصيرة نافذة ، وإحساس سامٍ ؛ في زوايا نفسه مكامن للحزن بعيدة الغور ، سيطر حسُّ البؤس العالي على فؤاده وصدره ، فأنت حين تتبصّر في شعره تروعك منه مسحات علويات ، يرتلها فيخيل إليك أَنها وحي الرحمن لهذا العصر ؛ رحمة شاملة لكل ما خلق الله حتى في اللحظات التي تأبى فيها الأثرة القومية والنزعة الدينية على الناس أن يتجلوا بالرحمة .

منذ القرن الثاني عشر للميلاد ودول أوربة تبيّت فيما بينها تقسيم الدولة العثمانية أو الرجل المريض كما أسمَيْنَه . تعاني الدولة معهن حرباً بعد حرب ، وخسارة بعد خسارة ، يقتطعن بلادها وينقصنها من أطرافها . ولم يؤخر في أجلها إلا تنازع الدول وخلافهن على التوزيع . وكان للدولة العثمانية حينئذ صفتان : الواحدة أنها الدولة الشرقية الوحيدة التي تقف للغرب ، والثانية أنها قبلة أنظار المسلمين في أقطار الأرض ، يرونها دولة الخلافة الإسلامية وحامية الشرع الشريف ، ويرون في دول الغرب التي لا تتهيب في سبيل أطماعها الدنيئة ، من إراقة الألوف المؤلفة من دماء الأبرياء ، يرون فيها أعداء ألداء . ففي كل يوم حربٌ مع دولة الخلافة ، وفي كل يوم مجازر وأشلاء قتلى وسيول دماء يعبر الغرب عليها إلى ما يشتهي . وفي كل بلد من البلاد العثمانية أُسَرٌ أرسلت من أفلاذها إلى هذه الحروب . وكانت إيطالية واحدة من هذه الدول ذوات المطامع الواسعة في البلاد العثمانية وخاصة العربية منها[2] . فماذا

---

(١) متفق عليه .

(٢) ظهرت فيما بعد ، نوايا الطليان في بلاد العرب حين انقضوا على برقة وطرابلس الغرب فكان لهم بذلك في تاريخنا الحديث الأيادي الطولى في تمزيق العرب كل ممزق ، وكان لهم الفضل على من=

كان شعور عامة الناس في الشرق يوم وقع الزلزال بـ (مسين) و(رجيو) من الأرض الطليانية ودمر على أهليهما ؟

لم يكن ينتظر أن يكون شأنهم إلا شأن كل موتور ضعيف ، تنزل بواتره الطاغية باقعةٌ من عذاب الله : يتناقلها مستبشراً أن قصم الله من جبروت البغي والعدوان ، معتبراً ، موقناً أن عدل الله يأبى إلا أن يُديل للمظلوم من الظالم .

هذا الشعور حق وعدل لا اعتراض عليه ، وهو أقل ما ينتظر في مثل تلك الأيام السود إلا أن فئةً واحدة ما تستطيع إلا أن تسمو على سائر الناس بقلوبها وشرف حسها النبيل ؛ فترى في الظالم والمظلوم معاً أخوين جديرين بالرحمة .

ثم تعزف هذه النفوس العالية عن أن يكون نظرها نظر عبرة ، فتأبى إلا أن تعم بالرحمة والإحسان ـ على قدر استطاعتها وفي حيز اختصاصها ـ كلَّ كائن على وجه الأرض .

بمثل هذا الحس النبيل يشرع حافظ في قصيدة (زلازل إيطالية) وقد هاله الحادث ينزل بإخوانه من البشر فيحار في السبب :

نبئـــانـــي إن كنتمـــا تعلمـــان ... مـــا دهـــى الكـــون أيهـــا الفـــرقـــدان

غضـــب الله ثـــم تمـــردت الأر ... ض فـــأنحـــت علـــى بنـــي الإنســـان

ثم يأخذ في تصوير المصاب الأليم ويختار لصورته أرهب المشاهد أثراً وأذهبها بالنفس ، ولست أختار من قصيدته هذه ، فكلها مختار ، لا يأتي عليها الإنسان إلا ذاب حسرةً قلبه ، مما يعرض عليه من الفواجع التي نجمت عن القدر الباغت :

خسفـــت ثـــم أغـــرقـــت ثـــم بـــادت ... قضـــي الأمـــر كلـــه فـــي ثـــوان

= حذا حذوهم في الكيد للعرب والدس للإسلام . يفجئوننا كل صباح بالطرق المبتكرة لاستئصالهما ، لا يألون في ذلك جهداً : إجلاء أهل الديار عن ديارهم ، وتشتيتهم في الصحاري يفنون فيها جوعاً وعطشاً ، ثم عمل دائب في البقية الباقية ، يمدون إليها أيديهم في كل ما تملك من عزيز : شرفاً كان أو ديناً أو مالاً . . . إلى غير ذلك ، مما سيضطلع به تاريخ الإنسانية في القرن العشرين الأسود . فخلد الطليان أذى عميقاً في قلب كل عربي وكل مسلم بل كل إنسان في قلبه خالجة رحمة وعاطفة حنان .

ليتها أمهلت فتقضي حقوقاً ... من وداع اللدات والجيران
لمحة يسعد الصديقان فيها ... باجتماعٍ ويلتقي العاشقان

ولا أحب أن تمرَّ دون أن تقف عند حسرة الشاعر على اللدات والجيران الذين اخترمهم قضاء الله وكلٌّ في ناحية ، فإلاَّ يكن مفرٌّ من القضاء فلا أقل من أن يودع بعضهم بعضاً ويسعدوا بلقاءةٍ ، ثم ليفعل الله بعدها ما يشاء . ما نظن أن هذه الأمنية الدقيقة تعني أحداً ـ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾[1] إلا أن يكون ربَّ عيال تتفطر كبده للشوكة تصيبهم .

ثم يأتي الشاعر على وصف غليان الأرض وطغيان البحار ، وقذف الجبال بالحمم والشواظ ، والجو بالصواعق ، حتى انقض الموت على الخلق ألواناً تكاد أنت من براعة حافظ في فنّه تحسها بعينيك . واقرأ الصورة الآتية فليس بها من حاجة إلى كلمة فوق ما فيها :

رب طفل قد ساخ في باطن الأر ... ض ينادي : أُمي! أبي! أدركاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ... ـر تعاني من حره ما تعاني
وأبٍ ذاهلٍ إلى النار يمشي ... مستميتاً تمتدُّ منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه ... مسرعَ الخطو مستطيرَ الجنان
تأكل النار منه لا هو ناجٍ ... من لظاها ولا اللظى عنه واني

ألا تذهلك عن نفسك مستغرقاً في حسرة تكاد تذيبك أسى على هؤلاء الناس ؟

وبعد أن يفيض في الالتياع على مغاني الطليان ويأتيَ على ذكر الفراغ الذي خلفته في الفنون الجميلة العالمية ، مما لا بد لشاعر مثله مذهوب اللب في الجمال أن يفطن له ، يودعها فرادى وجماعات :

فسلام عليك يوم توليـ ... ـت بما فيك من مغان حسان
وسلام عليك يوم تعوديـ ... ـن كما كنت جنة الطليان

---

(1) إشارة إلى قوله تعالىٰ في وصف القيامة﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج ٢٢/ ٢] .

أما المثل الأعلى في النبل والإنسانية البالغة ففي الأبيات الثلاثة الآتية : إن فيها وحدها قرآن الشعر الإنساني الذي سما عن أن يكون شرقياً ، أو غربياً ، مدنياً أو بدوياً ، وأن يكون فيه ظالم ومظلوم :

وسلام من كل حيٍّ على الأر ض على كل هالك فيك فان!
وسلام على امرئ جاد بالدمـ ـع وثنى بالأصفر الرنان
ذاك حق الإنسان عند بني الإنسـ ـان ، لم أدعكم إلى إحسان

وأنا أعدل بهذه الأبيات دواوين بأسرها ، وما يتصور العقل في الشعر الإنساني العالمي ما يدانيها سمواً ورحمة ، فليس بعدها في الشرف والنبل غاية : أُمة الطليان! لها على العرب أن يجودوا حسرة عليها بالدمع ثم عليهم ـ مع فقرهم وعَوزِهم ـ الإِعانة المادية ، ثم بعد ذلك كله ، ماذا يكون ؟ حق أدي والسلام!

* *

هذا في القوارع العالمية ؛ أما ما ينزل بالبلد من مصيبة فلا تسل عن شأن هذا الإنسان فيها ، وليس فيه ـ إذا وعيت ما قدمنا ـ كبير أمر على حافظ . يكاد يكون لأمته وبلاده عند كل داهمة ، « قضيب الصاعقة » لا تمر سحابة فيها مكمن الخطر إلا اجتنبها ثم حتم على البلاء سبيلاً في صميمه يسلكه ولا محيد عنه ، فيقي بنفسه الناس والأنعام والنبات من أن تحطمهم الصواعق وتنثرهم هباءً في الفضاء . كذلك كان حافظ :

يقيم الإنكليز مجزرة بشرية في (دنشواي) وينزلون بأهل القرية الأبرياء أقسى العذاب ، ويتوزعونهم بين المشانق والسياط والسجون بحكمٍ من قاض مصري ، فيحزّ هذا البلاء المزدوج في نفس حافظ حزّاً أليماً عميق الأثر ، كأن هؤلاء المظلومين أطفاله يذبحون على عينٍ منه :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جمادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كيادا
ليت شعري أتلك محكمة التفـ ـتيش عادت أم عهد نيرون عادا

وتأبى المقادير إلا أن يكون مصدر هذا الحكم الوحشي قاض وطني[١] ، ويكون صدى هذه النكاية شديداً على حافظ ، فلا يحجم عن أخذ القاضي بقارص العتاب ، مستفظعاً إمضاء هذه القسوة من إنسان فيه روح تألم وعاطفة تختلج ، ثم مصرية نابهة ؛ وقديماً قال طرَفة :

وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

فلا يمضي حافظ قوله في دنشواي دون أن يواري هذا المصري في خجل مميت وتقريع أليم .

إيهِ يا مدْرَهَ القضاء ويا من   ساد في غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا   قد لبسنا على يديك الحدادا

وهذه وصمة لا يغسلها عن أسرة أن يخرج فيها مئة من مثل (غاندي) .

ولفاجعات القدر نصيب كبير من عطف حافظ وحنانه . فهو لا يني فيهن تصويراً وإعظاماً يؤثران في القاصي والداني ، لا تكاد تأتي على سردها حتى تهزك خوالج الرحمة والإحسان ، ويجعلك تجود من ذات يدك ما يمسك من ذات عينك ، وما يُشيع فيك السرور من علو إلى سفل .

بين كل مدة ومدة يقع حريق في بلد ، وينقض جدار على ناس ، وينهار بناء بأسرة . نصيب هذه الكوارث عند الناس جميعاً أسف على ما حدث وتضرع إلى الله أن يلطف بقضائه ، هنا ينتهي الأمر عند الناس حيث يبدأ عند الشاعر : تتبع نفسه أرباب البناء وأطفالهم ونساءهم وشيوخهم : ماذا جرى بهم ؟ سلموا أم هلكوا ؟ ما شأن الرضيع بعد أُمه التي احترقت ؟ ما حيلة العجوز بعد أولاده ؟ من يعول الأرامل بعد بعولتهن ؟ ما الواجب على الناس إزاء ذلك ؟

إن على الشاعر أن يضع تفاصيل الحادثة في قرارات النفوس ، ثم يذكّر أصحابها

---

(١) هو بطرس باشا ابن غالي نيروز ، وزير مصري من الأقباط الأرثوذكس ، ولي وزارة المالية فالخارجية فرئاسة مجلس الوزراء ، وترأس محكمة دنشواي . قتله شاب من أقباط مصر . انتقاماً لشعب مصر كله عام ١٩١٠ . الأعلام ٢/ ٥٩ .

بما عليهم . هذه كانت مهمة حافظ بعد حريق (ميت غمر) في قصيدته (إلى الأغنياء) يوجز في عرض مشاهد تمرّ أمام العين سراعاً إلا أنها ـ على إيجازها ـ تستثير كوامن الحسرة :

سائلوا الليل عنهم والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم ... م وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى وأسقفٍ تتجارى

ثم يسأل الله اللطف والغيث :

ربِّ إن القضاءَ أنحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومُرِ النَّارَ أن تكف أذاها ... ومُرِ الغيثَ أن يسيل انهمارا

ثم يسائل الأغنياء عن إخوانهم هؤلاء ، الذين سلموا ولا مأوى لهم ولا لباس عليهم ، يهيمون على وجوههم في المنعطفات حفاة عراة . ويؤلم حافظاً ـ إزاء هذا ـ تباهي المثرين وبطرهم فيذكّرهم ويحضهم بلهجة قارعة :

أيها الرافلون في حلل الوشـ ... ـي يجرون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوماً جياعاً ... يتوارون ذلةً وانكسارا!

* *

وتدور عينا حافظ فيما حوله ، فيجد أمور أُمته ملتوية كلها ، دب فيها المرض من سنين طويلة وهي لما تتماثل بعدُ . إن عليه أن ينبهها إلى أمراضها وأن يعجل في دعوة الأُساة ، ولكن فيم يبدأ ؟ فتأخذه حيرة أينما نظر : أيبدأ بمصيبة نصف الأمة وهي الفقر الذي حل بها حين تدافع رجال عظاميون لإنهاض الحال ونعشها فأساؤوا :

أيها المصلحون ضاق بنا العيـ ... ـش ولم تحسنوا عليه القياما

وحين رأى الإنكليز يمنون على المصريين أنهم قاموا بأمرهم وبسطوا العدل والعمران : أما العدل فخذ له مثالاً عند حافظ حادث (دنشواي) ، وأما العمران فماذا يفيد المصريين أن تعمر شوارعهم إذا خربت أبدانهم ؟ على حافظ إذن أن يؤرخ

هذا الإصلاح المعكوس في قصيدته (غلاء الأسعار) :

أيهـا المصلحـون أصلحتـم الأر ض وبتـم عـن النفـوس نيـامـا
أصلحـوا أنفسـاً أضـرَّ بهـا الفقـ ـر وأحيـا بمـوتهـا الآثـامـا
ليس فـي طـوقهـا الـرحيـل ولا الجـ ـد ولا أن تـواصـل الإقـدامـا
تـؤثـر المـوت فـي ربـى النيـل جـوعـاً وتـرى العـار أن تعـاف المقـامـا

ويقول في موضع آخر يخاطب هذه الجماعة :

عملتـم علـى عـز الجمـاد وذلنـا فـأغليتـم مـالاً وأرخصتـم دمـا

أم يشكو الامتيازات التي نخرت في جسم مصر وكل بلد عربي ، أم يصرخ من انحطاط الأخلاق الذي جره التمدن الغربي والجالية الغربية ، والذي سرعان ما فشا في الأحداث وعملوا على نشره عملاً هال حافظاً فقال :

أفـي الأزبكيـة مثـوى البنيـن وبيـن المسـاجـد مثـوى الأب
يقـولـون فـي النـشء خيـر لنـا وللنـشء شـرٌّ مـن الأجنبـي

أم يبدأ بمصيبة هي مما تقدم بسبيل ، وكثيراً ما تتسبب عنها كلها وهي الجهل ؟ كل أولئك سموم تسرع في القضاء على الإنسانية ، وقد أعمل حافظ سلاحه فيها جميعاً . ثم رأى الفقر حاجزاً بين الناس والعلم فعطف على دور الأيتام وجمعية رعاية الأطفال . وهنا روائعه ، وهنا ذوب الرحمة يقسمه على الأطفال اليتامى . انظر قصيدته التي أهداها لجمعية رعاية الأطفال ، وقد استهلها بقصة خلاصتها أنه وجد فتاة هدَّ منها السقام ، مات أبوها وبعلها وهي حامل تشفي على الهلاك ، فحملها إلى دار رعاية الأطفال ، فشاهد من عنايتهم بها ما أنساه ألمها وألهاه عن حزنه . اقرأ القصيدة لترى أي عطف وأي حنان يتدفقان في كل أبياتها الرقيقة ، فهو لا يأتي على سرد قصته التي مهد بها لتحريك النفوس حتى يعترف أن بمصر رجالاً عرفتهم الإنسانية في عداد خدّامها المخلصين ، فيأبى إلا أن يثني عليهم ويكبر فعلهم :

وإذا بـأيـدٍ طـاهـرات عـودت صنـع الجميـل تطـوعـت فـي الحـال
جـاءت يسـابـق فـي المبـرة بعضهـا بعضـاً لـوجـه الله لا للمـال

وتأبى على حافظ إنسانيّته المديدة إلا أن تنبه رقيق حسّه إلى حسنةٍ في هؤلاء الناس ميزتهم بالرقة ودقة الشعور :

وعجزت عن شكر الذين تجردوا ... للباقيات وصالح الأعمال
لم يخجلوها بالسؤال عن اسمها ... تلك المروءة ، والشعور العالي

وأراد حافظ أن يؤصل هذه الرحمة ويمكن لها في النفوس ، فذكر في قصيدة ثانية أن رجلاً سقط من القطار إلى الجسر ، إلى النهر ، ثلاث مرات يقع بين مخالب الموت ، ثم ينتشله سابح من اليم فتأخذ الجموع وجمة لهذه الصدفة الرائعة .

أنجاة من القطار ، من الجسـ ... ـر ، من النهر ، جل رب الأنام

ثم تبدد الوجوم فتاة أحسن إليها هذا الرجل وعجزت عن مكافأته فجزاه الله بدلاً منها :

وإذا صيحة علت من فتاة ... برزت من صفوف ذاك الزحام
وقفت موقف الخطيب ونادت : ... « تلك عقبى رعاية الأيتام
دعوة البائس المعذب سور ... يدفع الشر عن حياض الكرام
إن هذا الكريم قد صان عرضي ... وحماني من عاديات السقام
عال طفلي وعالني وحباني ... بكساء وبدرة وطعام . . إلخ »

وأنا ـ عن عَمْدٍ ـ أكثر هنا من الاستشهاد ، ولا أكتفي بل أحث القارئ على النظر في هذه القصائد العالية برمتها .

ولا يفسر لنا هيام حافظ وولعه بهذه الرحمة التي تؤخذ بها كل نفس حساسة ، كأنه قطع على نفسه عهداً ألا يألو البؤس والشقاء حرباً وضِراماً : يرقق النفوس ويضع أيدي الناس تتقرَّىٰ مكامن التعس والألم في نفوس البشر ، ويفظعها لهم ويكرههم بها ، حتى يجعل منهم جميعاً أعواناً على شدائد الكون ، وكأن عليه استئصالها من صدور الناس ؛ نقول : لا يفسر لنا ذلك كله ويزيل عجبنا من شدة التأثر بكلامه مثل أبيات له أربعة في آخر هذه القصيدة التي نحن بصددها وهي قوله :

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً ... دون شربي قذاه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زماناً ... وتنقلت في الخطوب الجسام

ومشـــى الهــم ثــاقبــاً فــي فــؤادي ومشـى الحزن نـاخـراً فـي عظـامـي
فلهــــذا وقفــــت أستعطـــف النـــا س علـى البـائسيــن فـي كـل عـام

والذي أكبره في حافظ أبلغ الإكبار عدم تخليه عن هذه العاطفة الغالية في المواقف الحرجة ، حين جبه الرأي العام مرتين بشجاعة نادرة ، وتوطينه النفس على تحمل ما يرمى به من السوء ، وذلك ما يعز وجدانه في شاعر . فما زلنا نسمع أن كثيراً من الشعراء ، وخاصة في بلادنا ، وخاصة فيمن يدرجون على الشعر من أحداثنا ، يصانعون الرأي العام ويتملقونه ويحجمون أن يقفوا منه موقف المعلم ، حتى لأستطيع أن أعدّ في بلدٍ واحد عشرات يقولون الشعر ، وما تغني دواوينهم كافة غَناءَ قصيدة واحدة يقولها شاعر عرف الواجب عليه كشاعر أُمة ، مخلص في نفعها متفان في سبيلها ، ولو لاقى إليه الأذى والضر .

جلا كثير من السوريين قبل الحرب العامة إلى مصر ، واشتغلوا في كثير من الأعمال فزاحموا المصريين ، فكان لهم منهم منافسون وخصوم ، ثم استأثروا ببعض الحرف وكادت تصبح الصحافة في وقتٍ صناعةً سورية ، بل لقد صارت بالفعل . هذا إلى فئة قليلة من لبنان والشام عملت في مصلحة الأجانب أعداء مصر والشرق ، فكان منهم مفسدون ، وكان منهم جواسيس . ومنيت مصر بهم وبسوء أفعالهم . لهذا كله ولغيره مما لم نبينه ساءت سمعة السوري في مصر ، ونشأت له في نفوس كثير من المصريين كراهيةٌ شديدة ، أجّج في سعيرها أُناس بإخلاص وأُناس بغير إخلاص لغايات مادية ، وآخرون مسخرون لمأرب .

ثم بعُد ما بين الفريقين وقلّ الذين ينصرون السوري ويذودون عنه ، وهذا أمر معقول وعاقبة منتظرة لا محيد عنها . إذ ذاك ينهض حافظ الإنسان ، ويعز عليه حياة هذه العقارب تنفث سمومها بين الأخوين ، ويعز عليه أن ينقل المصريون حربهم من الإنكليز أعدائهم ، إلى السوريين إخوانهم ، فيرسلها مصلحة جامعة وينبه المصريين إلى ما سيتورطون فيه . ولا يأبه بردٍّ أوصد ، فيصحح للرأي العام خطأه ويعتذر عن هفوته ، مستعملاً أقصى ما وهب الله له من نبل عاطفة ، وقدم في الإنسانية راسخة ؛ كيف يساء إلى أخيه في داره ويحسن إلى عدوه ؟ عقوق بالغ ، وغفلة شائنة في

الفريقين ، فيقوم بالفرض الذي عليه مؤديَه خير أداء ، يلتفت عاتباً إلى مصر :

ماذا جنيت وما جناه بنوك ... أظلمتهم يا مصر أم ظلموك

فبسمت للغرب الطموح وأهله ... ومنحتهم فوق الذي منحوك

وعبست في وجه الشآم وإن عبست ... قطر الشآم وإنما أخوك

ثم ينظم رائعته السائرة (الأمتان تتصافحان) :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلى وهناك المجد والحسب

أيرغبان عن الحسنى وبينهما ... في رائعات المعالي ذلك النسب

ثم يقدم بشجاعة نادرة غير آبهٍ لهؤلاء ولا مكترث لأولئك :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب

وبهذا يقضى على ما كان وإن بقي في مصر من يأخذ عليه هنات في عمله هذا فما الشاعر بالذي يحسن به أن يثنيه عن الشرف شيء ، بل هو يفخر في أن ضم طائفتين فرق بينهما التغالي :

لولا رجال تغالوا في سياستهم ... منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا

إن يكتبوا لي ذنباً في مودتهم ... فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

* *

هذا ، والذي راقني من شجاعة حافظ في مبدئه الإنساني أكثر مما قدمت ؛ قصيدته في عبد الحميد : لا يزال بعلمٍ من الناس عبدُ الحميد وصولته ومظالمه وفظائعه وافتنانه في تصيد الذين على غيرِ هواه ، يقنصهم الواحد إثر الآخر ، وتأتيه بأخبارهم إدارة جاسوسية لا مثيل لها في نظمها . عمت الرهبة منه سائر الناس حتى صار المرء يخاف أخاه وأباه ، وصديقه وولده . خفتت الأصوات ، وحبست الأنفاس ، وسدت في وجوه السالكين السبل ، والويل لمن تحدثه نفسه بكلمة لا يرضاها عبد الحميد . طالت مدة عبد الحميد حتى ألف الناس خنوعهم وموتهم في حياتهم[1] ، ثم عزل وقبض على ناصية الأمور فتية (الاتحاد والترقي) فأعملوا في

---

(١) هذه الآراء كانت في وقت مبكر ، ولما تتوضّح معالم المؤامرة الصهيونية العالمية على الخلافة الإسلامية . ثم لما تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود كتب أُستاذنا مقالاتٍ منها (تاريخ مفترى) و(سبب خلع السلطان عبد الحميد) وهاتان في كتابنا هذا . وهما تحملان رأيه الحقيقي .

حاشية السلطان المعزول ورجاله وأنصاره سلاح السلطان نفسه في أعدائه حتى كادوا يستأصلونهم . فهب الناس وكأنما أفاقوا من حلم مريع ، وكان الخُلُق المتين معدوماً فيهم ، فعم ذم عبد الحميد وزمانه وسياسته جميعَ الناس ، وأسرفوا في الطعن والقدح ، يتقربون بذلك إلى أُولي الأمر ، فيعمون عهد السلطان بكل مستبشع شنيع .

واستفاض في البلاد شمتة بهذا المخلوع حتى لم تبقَ له حسنة ، ولم تمر به لحظة إلا غمر الناس فيها بآلاف الشرور والآثام . فمن إذن يقرع الناس ويعلمهم أن الذي هوى إنسان مثلهم : يحسن ويسيء ، يصيب ويخطئ ، خليق بالرحمة بعد سقوطه ؟ ليس فيهم من يجرؤ على ذلك فيما ملكت الدولة العثمانية من بلاد ، ولا في مصر أيضاً التي كان الخديوي فيها هواه مع الدولة . فما العمل ؟ أيبقي عبد الحميد الإنسان هكذا ، يساء إليه ويجرد من كل خير وتلصق به كل طامة ؟

لا ، إن في مصر (حافظ إبراهيم) الإنسان ، ليأخذ حافظ بناصر هذا الهاوي فهو خليق بعطفه وإن مقته الناس عن استحقاق ، ولكنهم في مقتهم أساؤوا شيئاً إلى المروءة والنبل ، ما ينبغي لهم كل هذا الاندفاع ، فحافظ كان يمقت أفعاله أكثر منهم ، لأنه شاعر في أعصابه مكبرة تنقل ما يحسه الناس أضعافاً مضاعفة ، ولكن موقفه منه اليوم ، بعد سقطه ، غير موقفه منه بالأَمس :

كنت أبكي بالأمس منك فما لي ... بتُّ أبكي عليك عبدَ الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى ... فيك ، قبل الدروز ، قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهمـ ... ـة أن يشمت الورى في طريد

نعم ، ليس من الهمة أن يشمت الورى في طريد . وقف الشاعر يذكر هذا الشعب بواحدة من حسنات عبد الحميد ، صفقت قلوبهم لها طرباً بالأمس ، فليس يجمل بهم أن ينسوها بهذه السرعة : وهي مد الخط الحجازي :

لك في الدهر ـ والكمالُ محالٌ ـ ... صفحات ما بين بيض وسود
حاولوا طمس ما صنعت وودّوا ... لو يطيقون طمس خط الحديد
ذاك عبدَ الحميد ذخرك عند الـ ... ـله باق إن ضاع عند العبيد

وإذن فعلى الناس إذ نقموا عليه أن يكونوا خيراً منه ليكرموا مثواه فقد زال ظله ، وليرحموا شيخوخته ، وليخافوا الله من الإدبار بعد الإقبال ، إن لعبد الحميد من الجلال الذي خلعه عليه هؤلاء الناس أنفسهم بالأمس ما يعنفهم ـ لو أصاخوا إليه ـ أن يعذبوه ويهينوه :

أكرموه وراقبوا الله في الشيـ ـخ ولا ترهقوه بالتهديد
ولي الأمر ثلث قرن ينادي باسمه كلُّ مسلمٍ في الوجود
كلما قامت الصلاة دعا الدا عي لعبد الحميد بالتأييد

ويقوم الشاعر بعزاء السلطان الأسير ويرقّ خطابه معه ، ثم يرى دمعة هذا الرجل العزيز على ملك ذاهب وأيام تدول وصولة تزول وأهل وخدم . ويقرأ فيها حافظ ندم السلطان وتوبته ، وليس أقدر منه على قراءة الدموع . فتهزّ نفسه هذه الدمعة وتعمل فيها أبلغ عمل ، فيجزم الشاعر أنها وحدها كافية لتبييض كل صحفِهِ السود ، ولم لا ؟ عبد الحميد يبكي ، ونحن ناس ، بقلوب ذات شعور ، ما نفوسنا حديد ، سامح الله عبد الحميد :

غسل الدمع عنكَ حوبةَ ماضيـ ـك ووقاك شرَّ يوم الوعيد
دمعك اليوم مثل أمرك بالأمـ ـس مطاعٌ في سيدٍ ومسود

إن العدل حق واجب ، ولكن الرحمة عند النبلاء فوق العدل .

* *

وبعد ، فهذا طرفٌ من نزعة حافظ الإنسانية ، أرجو أن أكون بلغتك ما في نفسي من أثرها ، وأيقنت معي أنها نادرة في الرجال ، ولا غَرْوَ ، فحافظ واحد من العرب وواحد من المسلمين ، الذين خلفوا لنا ـ لشقائنا ـ هذه الأخلاق العلوية فصرنا ونحن على الأرض كأننا نعيش في السماء .

وإن أُعجب بها لنفسي ، فما أريد أن أحبها لأمتنا اليوم ، إذ ماذا جرّ لنا من النفع اليوم هذا الميراث الإنساني ؟ اللهم لا شيء .

خرج العرب من جزيرتهم . لا طمع ولا مكر ولا غُنم ، حنان وبر ورحمة

يوزعونها في خلق الله ، اِستبسلوا في إِنقاذ البشرية من آلامها ، فألقت إليهم الحصون بمقاليدها . وشاع لهم في الناس مآثر خير وحسن معاملة وإرهاق للنفس في سبيل إسعاد الناس ، فدكت لهم هذه الأخلاق ـ على لينها ـ أمنعَ المعاقل ، وسلمتهم أعلى العروش . ثم ساسوا الناس سياسة نقرأ مثلها العليا في تاريخ عمر بن الخطاب ومعاوية وعمر بن عبد العزيز والمأمون وغيرهم ؛ فلم يكونوا ساسة بالمعنى الصحيح اليوم : يعملون على إِفناء الأمم فيهم ، وإِفقارهم ليغنوا ، وإذلالهم ليعزوا ، ولم يعرفوا استعماراً ولا تفريقاً ، نفعوا كل أحد وضمنوا له الخير من بعده إلا أنفسهم وذراريهم ، ثم ذهبوا ودار الزمان دورته ؛ فأدالت منهم الأيام : فإذا بهؤلاء الذين أحسنّا إليهم بالأمس ، لا يألوننا اليوم إساءة وهواناً ، وإذا بهؤلاء الذين علمناهم الحرية وأذقناهم نعمها في أنفسهم وأديانهم وأموالهم بالأمس ، يعملون اليوم على سلبها منا في أنفسنا وأدياننا وأموالنا ، وإذا بالذين استغنوا بنا بالأمس ، يعملون على إفقارنا اليوم ، وإذا بهؤلاء الذين رأبنا صدعهم بالأمس ، يدأبون اليوم على شعبنا ، وإذا وإذا وإذا . . .

رحم الله أجدادنا ، ألم يكن أجدى علينا مادياً لو وطدوا لنا ملكاً على غرار ما توطد عليه الممالك اليوم : ظلم وقسوة وعتو وإهلاك ، في ثياب تثقيف وتعليم وتدريب ، إذنِ لما استنسر في أرضنا البغاث ، ولكانت لنا في الأُمم اليوم كلمةٌ مسموعة .

رحم الله أجدادنا ، لم يكونوا ساسةً يبنون ملكاً ، بل كانوا رسل أخلاق ورحمة .

رحم الله أجدادنا ، لم يخلفوا لنا تراثاً مادياً نستغله ، بل خلفوا تاريخاً وأخلاقاً نشقى بها في زمن المادة رحمهم الله ، لقد غلوا في « إنسانيتهم » ثم كرت سنون فبقيت ذكرى ، ثم بعثها الله بشراً سوياً اسمه : حافظ إبراهيم .

تُرىٰ أنعود كرةً أُخرى في تاريخ الإنسانية المنقطع ، فنبتدئ سلسلة جديدة أولها حافظ إبراهيم ؛ ما أظن أن ذلك لو كان يجدينا .

رحمك الله يا حافظ! لقد رجع بك فقدان الجاه وقلة المال ، وعملت أنت في حياتك على ذلهما وإرخاصهما ، ولقد أغليت من قدر الإنسانية وسمو العاطفة ، فمضى يعلو بك النُبْل والخلق الكريم .

* *

من وطنية حافظ وشوقي
(كيف ودع الشاعران اللورد كرومر ؟)

مقالة عرّف فيها الأستاذ الوطنية ، وعرّف الشاعر ، ثم عرض موقف الشاعرين في وداع اللورد كرومر .

نشرت في كتاب (ذكرى الشاعرين) الذي أصدره الأستاذ أحمد عبيد ـ رحمه الله ـ في عام ١٣٥١هـ

وطنية وشاعر

تنازعني نفسي أن أذكر الرأي مقتضباً في مدلول هاتين الكلمتين ، بعد أن استفاضتا على كل الألسنة ، وبعد أن مسختا في الدلالة أشد مسخ قبل أن أقول عن وطنية الشاعرين ، ليَرْبَعَ على ظلعه[1] من عطّل عقله واندفع وراء الصيت يتملق آراء العوام وأشباههم من المتأدبين .

ما الوطنية ؟ وهل هي من السهولة بحيث يراها عامة الناس ، فيطلقونها على من شاؤوا ؟ هل هي لَوْكُ بعض الألَفاظ من وطن وأمة ومحتل واستعمار ؟ أو هي هتاف بحياة فريق وسقوط فريق ، أو هي تظاهرات وتجمعات وأحزاب ومقالات . . إلى غير هذا وذاك من الأعراض التي شغلت الناس عن الجوهر ؟

كلا ، ليست الوطنية في شيء من ذلك ، وإلا لكان عندنا في كل بلد من هؤلاء الوطنيين جيش لَجِبٌ يزيد عن حاجة الأرض كلها .

الوطنية سهلة التعريف صعبة التحقيق وهي : وقف المرء مواهبه في نفع أمته وبلاده . تستولي عليه هذه العاطفة حتى تتغلغل في أغوار نفسه فيغدو بها شديد التأثر ، عميق الحس . يطالعنا فلا نملك قلوبنا ـ مهما قست ـ من التأثر بما يجيش فيه من شعور حي شريف . وإذن فعلينا أن نتخطى ظواهر الأشياء إلى بواطنها حين نريد

---

(١) الظَّلَعُ : العرج . والمراد هنا : ليرفع بمقدار طاقته . اللسان (ظلع) .

الحكم في وطنية الناس ، وأن نسأل قلوبنا وأقصى ضمائرنا قبل حواسنا ، فإن نفعل فسنرى كثيرين من زعماء وشعراء وخطباء وعلماء حتى منفيين ومسجونين ، مصلوبين على الأَعواد ومقتولين بالرصاص ؛ شغلوا الناس بأمرهم زماناً ثم برح الخفاء فإذا وطنيتهم هباء ، وإذا وطنهم الذي عنه يذودون مآربُ خاصة ومناصب ومغانم : زخرف ومظهر ليس من ورائهما صدق ولا إخلاص .

وإذا تلهفت أن تنعم بطلعة وطني مخلص متفانٍ فأنشده بين العوام وصعاليك الناس الذين ترسلهم كلمة واحدة من الفريق الأول إلى حيث الشهادة والحياة الأبدية . نعم ، ستجدهم في هذه الطبقة كثيرين حيث لا يشغلهم عن الاستماتة في سبيل عقيدتهم مال ولا منصب ولا جاه .

إن كان لم يبلغك فسائل : كم مرة طرقت مسامعنا ـ نحن الشاميين أيام المحن ـ كلمةٌ واحدة يرسلها صعلوك مع آخر رمق من حياته مصاباً برصاصة أو شظية قنبلة قائلاً : ربي بلادي فتهز كلمته الموجزة نفوسنا هزّاً ونرتعش لها ارتعاشة المقرور أرعده البرد ، وما هذا العهد ببعيد فينسى . فبالله والصدق ، أتعرف خطبة لزعيم أو قصيدةً لوطني ـ على كثرة ما تسمع من ذلك ـ فعلت فيك بعض ما تفعل هذه الكلمات يبعثها السُّذّج مع أرواحهم ؟ أو حين كانوا بين أظهرنا يقول واحدهم : « يجب أن أخرج » وقد لمعت عيناه ورجفت أجفانه واضطربت شفتاه على وجوه أطفاله يودعهم وقد باع نفسه في سبيل الله ؛ إن نظرة واحدة إلى هذا العامي الصادق تعدل ملء الأرض خطباً وقصائد . وليت لنا دائماً من هؤلاء بجميع ما في البلاد من زعماء أثِرين[1] ووطنيين مخاتلين .

هذه الوطنية ؛ وأما الشاعر شاعر الأمة بالطبع فهو من عاش في صميم الشعب : من الشعب وحيه ، وفي سبيله شعره ، وبه وجده وكلفه ، ومن أجل الشعب كدُّ ذهنه وتعب خاطره ، ولسعادة الشعب غناؤه ومناجاته وألمه . ولا أطيل هنا ، فإذا كان ذلك العامي الذي قدمت عنه مثل الوطنية المخلصة ، فالشاعر عندي من كان لسان

(١) الأثِرُ : من يؤثر نفسه .

هذا العامي في الشدائد والزعازع يفعل في نفوسنا من الأثر العميق ما فعل الأول وكفى .

ودعك بعدُ ، من قولٍ رصين ، وأسلوبٍ رشيق ، وكلامٍ جزل ، ولغةٍ بليغة ، وتشبيهٍ رائع ، فما نريد أُلهيّة ، وإنما نريد شعراً مجدياً يبعث من في القبور .

* * *

الأمة العربية اليوم ، في العراق والشام ومصر ، في آسية وإفريقية ؛ هي في دور التكوين تؤسس بنيانها ، فلا تتطلب في هذه الظروف شاعراً غَزِلاً منمقاً ، ولا وصافاً للطبيعة ، ولا مترجماً ولا خنثاً ، ولا شيئاً من هذا ، بل تريد رجلاً معجزاً له في أمته مثل أثر الأنبياء في أممهم : همة قعساء لا تني في الاستخلاص والإنقاذ ؛ تريده اليوم حاثّاً محمساً ، منيراً الطريق موقداً بإخلاصه حمية العرب ، لسانهم في السراء والضراء ، يثني على محسنهم ويبكت مسيئهم ، إذا ألمت نازلة صمد لها من دونهم ، وإن أصابهم عدو بمكروه سعى فألَّب عليه ، وقاد البلاء إليه من كل جانب . ثم بكى مصائب قومه واضطلع بأكبر نصيب من حسن العزاء وصادق العطف ليس يجدي أدبنا اليوم ولا شعرنا أن نضطرب بين القصة والغزل والوصف والمدح والأدب المدرسي والأَدب الإِبداعي ، ولا بين اللاتينية والسكسونية . . . ليس لدينا الآن متسع أن نختار ، أدب واحد علينا أن نبدأ به هو أدب القوة . حتمٌ علينا إذا شئنا السؤدد أن نغذيه ونحدب عليه ، فهو المدرسة الأولى لكل شعب يريد كياناً وقوة وحياة .

هذا رأيي ، موجزاً ، في الوطنية وشاعر الأمة تاركاً التفصيل والتحليل لمن سيتفرغون لبحث وطنية أحد الشاعرين . ولم يكن لي مندوحة عن هذا البيان قبل الكلام في المقارنة إذ عليه ستدور .

ـ١ـ

كابدت مصر في عهد اللورد كرومر ألواناً من البلاء ، وعانت مشقات ومصائب في كثير من مناحي حياتها . فقد أصاب هذا الرجل مقاتلها : فصل عنها السودان ، وعبث في معاهد العلم ، وكاد يقضي على اللغة العربية فيها ، وجعلها في حبائلَ

محكمةٍ من الشركات الأجنبية التي هبطت في كنفه تستغلّ موارد الثروة المصرية ، وأرهق الناس والصحف ، ثم كانت حادثة دنشواي فكانت المجزرة المخجلة ، وكانت العار المميت للإنسانية الأوربية ، هذا إلى أنّ اللورد جعل من النُّظُم الشبيهة بالدستورية ألاعيبَ ومهازل ؛ وكان الناس منه في جهدٍ جهيد ، ثم كلل أعماله بتقرير أسود نال فيه من كرامة مصر بالجملة ، ثم رحل عن مصر فجرى فيها النفس ، وأحست برعشة الحياة ، وقالت ـ على حد تعبير شوقي ـ : أشهد أن لا إله إلا الله!

فكيف ودّعت مصر فرعونها في عصر النور ؟ لقد ودعته مرتين : مرة على لسان حافظ ، ومرةً على لسان شوقي ، وليس أحق منهما إفصاحاً عن كلمة مصر .

سأبدأ بما اشترك فيه الشاعران ، ثم أعقب بما انفرد به كلٌّ عن رفيقه ، ثم أُرسل الحكم بينهما :

لقد عرضا معاً لما يمنُّ به كرومر على مصر ، من أَن الناس أصبحوا على عهده في رخاء ويسر ، وأنه كان هو العامل في جلب الغنى . فابتدراه يردان عليه منته ، ردّاً ليّناً في رفق ومواربة عند حافظ حين يسرد حسناته فيقول :

تشعبت الآراء فيك فقائل ... أَفاد الغنى أَهلَ البلاد وأَسعدا
رأى العز كل العز في بسطة الغنى ... فحارب جيش الفقر حتى تبددا

وشديداً في غير محاباة ولا رفق عند شوقي حين يستغرب دعوى كرومر أشد الاستغراب : من أين أتانا بالغنى ؟ أمن بيت أبيه أم من خزانة قومه ؟ هي خيرات مصر تمتع بها أبناءُ مصر ، فما فضل هذا الدعيّ في ذلك ؟ وقد ساءه أن ينال كرومر من إِسماعيل ولي نعمته فرد على كرومر دعواه وانتصر لإِسماعيل قائلاً :

قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى ... جحدوا الإلـه وصنعه والنيلا
وحياةُ مصر على زمان محمدٍ ... ونهوضها من عهد إِسماعيلا
قد مد إسماعيل قبلك في الورى ... ظلَّ الحضارة في البلاد ظليلا
إن قيس في جود وفي سرف إلى ... ما تنفقون اليوم عُدّ بخيلا

إلى آخر ما قال ، وحافظ قد أجمل ذلك كله ببيت واحد :

فما عهد إسماعيل والعيش ضيقٌ ... بأجدب من عهدٍ لكم سال عسجدا

وأشارا إلى تقرير كرومر وما فيه من الغمز واتهام المصريين بالكفران والتعصب والجهل وما أَنذرهم به من احتلال دائم وذلةٍ مستمرةٍ إشارةً تكاد تكون واحدة عند الاثنين فليرجع إليها في القصيدتين .

وذكر (دنشواي)، ذكرها شوقي في معرض الدفاع عن إسماعيل فقال بيتاً واحداً :

أو كـان قـد صـرع المفتـش مـرةً   فلكـم صـرعـت بـدنشـواي قتيـلا

ثم مرَّ مرَّ الكرام على هذه الحادثة . أما حافظ فقد وطد لها في أول قصيدته ومكن فعدد حسنات اللورد التي يجمل بالمصريين أن يحتفوا بوداعه من أجلها لولا دنشواي : المانع القومي الأول دون الاحتفاء . ولحافظ في قصيدته الثانية في وداع اللورد أبيات هن غاية الغايات فيما قيل عن دنشواي وهن مشهورات سائرات أَولهن :

قتيـل الشمـس أورثنـا حيـاة   وأيقظ هاجع القوم الرقود . . إلخ

يقرر حافظ في هذه الأبيات أن دنشواي على فظاعتها وشرها المستطير كانت مبعث حياة لقوم أغرقوا في النوم ، فإن ذمها من كل ناحية فقد أَحْمَدَ أثرها في هذه فقط .

هذا أكثر ما يجتمع به الشاعران . وقد يلاحظ بينهما فرق كبير ، لعل للنشأة أبلغ الأثر فيه ؛ فشوقي لولا معرض مراماته دون حياض إسماعيل ، ولولا أن اللورد كرومر نعت عهد إسماعيل بعهد (الكرباج) ما كان لدنشواي ـ وهي ما هي ألماً بليغاً وفظاعة شنيعة ـ ذكرٌ في قصيدة شوقي . ولنذكر هنا أن شوقياً ليس في ديوانه غير أربعة عشر بيتاً في دنشواي يسترحم فيهن العفو عن المسجونين في هذا الحادث ، بينا حافظ قد أرسلها مدوّية في الفضاء كالعواصف ، فخلد أثر هذه المأساة في قصيدتين كبيرتين تستحقان أن يعنى بهما المؤرخون والأُدباء ، إِذ إنه أقامها مناراً في معالم القضية المصرية . كما أنه كان يذكرها في كل مقام يبكي فيه مصر ، وأين لم يبكها ؟ وهنا في وداع اللورد كرومر لم يقف مسائلاً رسوم دار ولا كلفاً بالغواني ولا طالباً هبة ولا مستنجزاً وعداً :

ولكنّـي وقفـت أنـوح نـوحـاً   علـى قـومـي وأهتـف بـالنشيـد
وأدفـع عنهـم بشبـا يـراعٍ   يصـول بكـل قـافيـة شـرود

وأَرى أَن هذه الناحية من الشاعرين تتطلب درساً خاصاً ، فقد كان شوقي لذاك العهد شاعر أمير وإن توسعنا في التعبير فشاعر طبقة عظامية قلما يتعرض لآلام الشعب يفصّلها ويتوجّع لها . وكان حافظ شاعر الأَلم القومي في مصر أولاً : يعنيه البؤس والفقر وأمر البائسين والفقراء وعامة الناس أكثر من كل هذه العظاميات التي أخذ شوقي نفسه بها في ذلك العهد . وأنا لا ينقضي عجبي ولا استغرابي من خلوّ ديوان شوقي من مأساة دنشواي إلا في طلب العفو عن السجناء . وليس يقوم له عذراً في ذلك أنه شاعر أمير .

-٢-

في قصيدة حافظ محاولة المؤرخ المنصف ، فقد آلى على نفسه التقيد بالصدق ، فهو إذن سيكظم من غيظه المتأجج في صدره من اللورد ، وسيذكر كرومر بما ينسب إليه من حسنات ثم لا يأبى أن يمد إليه يده مودعاً لأنه يراه حقيقاً بتشييع المحبين والعدا . ولا بأس أَيضاً أن يزوده بالكرامة وأن يطلب إلى الأهرام أن تخف وتتحرك لوداعه . لكن الأهرام لم تتحرك ولا قلوب جيرة الأهرام ـ على ما يظهر ـ وليس ذلك من جمود دمعة ولا من قسوة قلب ولكن من أن المرتحل هو (فرعون) ، الشامخ المزبد . ولقد كان الشاعر فطناً لَبِقاً في ذكر السبب :

فـودع لنـا الطـود الـذي كـان شـامخـاً ... وشيـع لنـا البحـر الـذي كـان مـزبـدا
وزوده عنـــا بـــالكـــرامـــة كلهـــا ... وإن لـــم يكـــن بـــالبـــاقيـــات مـــزوّدا
فَلِـمْ لا نـرى الأهـرام يـا نيـل مُيَّـداً ... وفـرعـونُ عـن واديـك مـرتحـلٌ غـدا
كـأنـك لـم تجـزع عليـه ولـم تكـن ... ترى في حمى فرعون أمناً ولا جَدا

يستقصي الشاعر أعمال اللورد فيجد فيها مناقب لا يجمل نكرانها ، وإذا كان من شرع مؤرخي الفرنجة أن يصموا آذانهم عن كل خير لغيرهم فليس من أخلاق العرب كفران الصنيع مهما حقر ، ولو كان من عدو . فاللورد أشاع الأمن في مصر وقضى على الفوضى والاضطراب ، وما هذا بالأَمر الضئيل . واستتباب الأمن قبل كل سعي صالح لا بد منه ولا تقدم إلا به ، واللورد تظاهر بنصرة الضعيف ، فاكتسب محبة في قلوبٍ كسيرة . واللورد بعث النشاط الاقتصادي ، وعلى عهده تعززت موارد الثروة

في البلد ، ونظم الري على ما يقول الناس ، وأطلق من عنان الألسنة الحبيسة ، وعربُ مصرَ أوفياء شكورون ، يغفرون الهفوات إلى جانب الحسنات ، فما لهم جمدت عيونهم عند رحيل هذا الرجل ؟ وما لهم لم يستلّ سخائم صدورهم موقف الوداع ؟ كان يمكن ذلك لولا أن اللورد ضرب العزة المصرية في صميمها . فبم يودعونه ؟ أبالعيون التي أعشاها وزعزع أعصابها منظر الدماء الفائرة من صدور إخوانهم في دنشواي ومرأى السياط الصاعدة الهابطة على أجسامهم ، ومشهد المشانق المنصوبة عُلق عليها الأَبرياء من الضعفاء المساكين ، أم بما وقر في أسماعهم من غمز اللورد من كرامتهم ودينهم ؟

الحق أن دنشواي وحدها حقيقة بتسويد صحف أمة بأسرها وجيل بأسره ، فضلاً عن اللورد العميد . فليس مستغرباً إحجام البلاد عن الوداع ، ولكن المستغرب سكون النفس المصرية حينئذ ، وحصرها جيشانها في صدرها ، والمستغرب أكثر من ذلك أن يحشد لوداع اللورد حفل من الموظفين والممالئين يودِّعونه على عين من الشعب الكليم . ومستغرب أيضاً أشدّ من هذا وذاك ألا يستطيع حافظ المرور على ذكر حسناتٍ للورد قلائل :

ولــولا أســىً فــي دنشــواي ولــوعــةٌ	وفــاجعــة أدمــت قلــوبــاً وأكبــدا
ورميــك شعبــاً بــالتعصــب غــافــلاً	وتصــويــرك الشــرقــيَّ غِــرّاً مجــردا
لــذبنــا أَســى يــوم الــوَداع لأننــا	نــرى فيــك ذاك المصلــح المتــودّدا

في القصيدة بعد هذا سلسلة من البلايا التي صبها اللورد على مصر فليرجع إليها . ولكن ثلاثاً منهن قاصمات أهلكت الحرث والنسل ، وهددت كيان الأمة العربية في كل قطر محتل ، وكادت تدكه من أَساسه وهن : إِفساد التعليم ، وتجزئة البلاد ، والامتيازات الأجنبية .

فأَما الأولى فهي شرهن وأخفاهن ضرراً : إذ قليلاً ما يحاول الأجنبي إِلغاءَ مدارسَ جهاراً . لكنه يعمد إِلى برامج التعليم فيرفع منها كل ما هو مُجْدٍ في نهضة البلاد ويحشوها بالقشور والسفاسف التي تصدع رأس الطالب فيخرج منها وليس فيه أدنى نفع لأمته . جهل تاريخ قومه ، وجُنِّبَ العلوم العملية التي هي دعامة

النهضات ، وملئ دماغه بنظريات فارغة ومعلومات من هنا وهناك لا تفيد معرفتها ولا يضر جهلها . وهكذا تفقد الأمة الأمل في نشئها الذي عليه أن يحمل الأعباء ؛ ثم حربٌ دائمة ضروس للغة العربية ، ما تستريح ولا تني : غضٌّ من شأنها في التدريس وفي الامتحان ، وغضٌّ من شأن معلميها ، يقابل ذلك رفعٌ من خطر اللغة الأجنبية فهي مدار النجاح في المدارس وخارج المدارس . وهي كل ما يؤهل عندهم من الثقافة ، يميزون معلميها ومتعلميها على الأكفياء في كل شيء : في المعاملة والوظيفة والراحة والمنزلة . وهم بعدُ لم يعلنوا على العربية حرباً قط ، ولكنهم يعضدون من وراء حجاب كل فارغ وكل أبله ليتولى شؤونها . وأنت فطن تعرف ما وراء ذلك ، تعرف كيف تتقدم لغة يؤخِّر عنها الأجنبي كلَّ ضليع بها غيور عليها ، ويقحم في إدارتها وتعليمها الشعوبيين والمغفلين الجاهلين . هذه رأس الأَمر وملاكه في تخدير الحركة القومية . فاسمع حافظاً وقد نأَى بجانبه عن الغنى الذي يلوح به اللورد للمصريين ليصرفهم عن لغتهم وعقولهم قال مخاطباً اللورد :

يناديك قد أَزريت بالعلم والحجى ... ولم تبقِ للتعليم يا لورد معهدا
وأنك أخصبتَ البلادَ تعمّداً ... وأَجدبت في مصر العقول تعمّدا
قضيتَ على أُم اللغات وإِنه ... قضاء علينا أو سبيل إِلى الردىٰ

ولست أشرح شيئاً من الأمر الثاني أمر تجزئة البلاد وتفريق الكلمة . فهي سنة المحتلين في كل قطر ومصر . يهبطون بلاداً موحدة الكلمة مجموعة الشمل ، فيخلقون الفساد ويخلقون فروقاً بين طائفة وطائفة وبلدة وبلدة ، ولا يزالون كذلك حتى يصير القطر أقطاراً والأُمة الواحدة شعوباً وأُمماً . هذا ما فعله الإِنكليز لما فصلوا السودان عن مصر ، وهذا ما يفعله غيرهم في غير السودان ومصر[1] .

ووافيت والقطران في ظل راية ... فما زلت بالسودان حتى تمرّدا
فطاح كما طاحت (مصوع) بعده ... وضاعت مساعينا بأَطماعكم سدى

وكذلك الأَمر الثالث أمر الشركات والامتيازات الأجنبية فما به من حاجة إلى بسط ؛ فكلنا يعاني من أمره الإِدَّ في كل بلد ، فهن المعاول دائبة في هدم ثروتنا

---

(١) وهذا ما تفعله ـ اليومَ ـ أمريكة في العراق الشقيق .

وعزتنا ، وهن كفيلات ألاَّ تمضي أزمان حتى يعز الدينار في أيدينا ، ويعز وجود الغني منا ، فنصبح وأرضنا ومساكننا نهباً بين الشركات نأكل مما يمنون :

ألــم يكفنــا أنــا سُلبنــا ضيــاعنــا على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنــا فــي العيــش كــلُّ ممــارسٍ خبيــرٍ وكنّــا جــاهليــن ورُقّــدا
ومـا الشـركـات السُّـودُ فـي كـل بلـدة سـوى شَـرَكٍ يُلقـي بـه مـن تَصيـدا

هذا ما يجيش من الألم في نفس حافظ على مصر من أعمال اللورد فرحم الله حافظاً ، فوالله لكأنه حين يصف آلام مصر ـ في كل قطر من هذا الشرق العربي يرى ما يجري فيه ، ولكأنه بدمعته هذه يمسح قلوب إخوانه العرب[1] . وكأن هذا البيان يغرف من كل نفس عربية وينبض بنبض كل قلب عربي . كل هذا بلهجة لينة مؤلمة ، خفيفة الوقع ـ دون ريب ـ على الإنكليز بل على اللورد نفسه ، الذي أطرى الشاعر حسناته قبل كل شيء ، ثم توارى حياءً في ذكر سيئاته فجعلها على لسان غيره ثم تقدم من اللورد ونسي كل سيئة فقال :

سـلام ولـو أنـا نسـيء إلـى الأُلـى أَسـاؤوا إلينـا مـا مـددنـا لهـم يـدا

ـ٣ـ

أما قصيدة شوقي فآية وُفّق فيها صاحبها إلى ما أراد من جودة اللفظ الرّصين أوّلاً ، وإلى ما أراد من تعنيف اللورد الراحل ثانياً . لكنه لم يبنِ تعنيفه على مثل ما بنى عليه حافظ حين عاتب اللورد متأثراً بالهزاهز الكبرى التي ألمت بمصر . ومع هذا ففي أوائل القصيدة بيت أجاده شوقي أبلغ الإجادة ، وأدقَّ وصفه غاية التدقيق . وكان جدّ موفق في تمثيله عهد اللورد وما عانت مصر من فظائعه ، وفي حسن تعبيره عن عاطفة البلاد حين الوداع ، وعن أي شر تخلصت منه وتنفست ، كلّ ذلك ببيت واحد وأكاد أقول بكلمة واحدة نزلت في البيت أحسن تنزيل وذلك قوله :

لمـا رحلـتَ عـن البـلاد تشهـدت فكـأنـك الـداءُ العيـاءُ رحيـلا

---

(١) سقى الله أيام حافظ إبراهيم ، كان يومها ما زال هناك من يهبّ من الشعب ليمسح دمعةً ، أو يرفع صوتاً . . . !

إن كلمة (تشهدت) هنا من جوامع الكلم . فلنشرع فيما نحن فيه فليس هذا الإِطراء منا بسبيل ، ولكني لم أطب نفساً بإِغفال هذا الإحسان .

خلاصة ما في القصيدة أن شوقي أشار إلى أن اللورد أساء الأدب مع المحتفلين بوداعه ، حين جبههم بشتمهم فلم يجامل ، وقد رد عليه الشاعر قوله في عهد إِسماعيل ، وذهب إلى أَن عهد هذا خيرٌ من عهد اللورد الذي يمنُّ على المصريين أن رفَّه عيشهم . وإذا كان في البلاد مدارس وجمعيات خيرية ومعاقل ومدائن مخططة ، وطرق معبَّدة وقطن مزروع محلوج فالفضل فيه لمحمد علي ولإِسماعيل من بعده ، وليس منه شيء إلى اللورد .

ثم أشار كلمح الطرف إلى صرعى (دنشواي) في صدد الدفاع عن إسماعيل كما مرّ ، ثم وقف شوقي من اللورد موقف اللورد من المصريين فصار يمن عليه أن إِسماعيل بنى المعاقل والحصون التي لولاها لكان مفزع الجيش الإنكليزي إلى الخيام والمضارب ؛ فليشكروا إذن عهد إسماعيل الذي بنى لهم هذه القصور!! ولا أَدري أي معنى هذا ؟ وحين يريد الكلام عن المعارف ـ وقد أَسهبنا عما فعل حافظ ، وأنه جعل لها الشأن الأول ـ لا يخطر بباله إِلا أمر واحد قليل الخطر في نظرنا ونظر الناس فيما أظن قال :

هل من نداكَ على المدارس أنّها تدع العلوم وتأخذ (الفوتبولا) ؟!

قبل الفُوتبول يا شوقي آلاف من الأهوال لا تُقتحم ، فإن كان منها الفوتبول فهو آخرها دون ريب .

ينفرد شوقي عن حافظ بذكر أمر نسيه الثاني وله خطره ، وهو إيصاد الإنكليز باب الترفيع إلى حد محدود في وجه الضباط المصريين وحصرهم بالرتب الصغرى ، مع أنهم ضمنوا النصر للإنكليز ، ووطدوا أقدامهم بالسودان ، وهذا كما لا يخفى مضعف من همم الجيش المصري :

أم هل يُعدُّ لك الإضاعة منةً جيشٌ كجيشِ الهندِ بات ذليلا
حرمْتَهم أن يبلغوا رتبَ العلا ورفعْتَ قومك فوقهم تفضيلا

إلى هنا بيان شوقي مطرد الروعة والرصانة على كثرة ما أهمل ، لكنه بعد هذا يطلع علينا في أبيات أَول كل منها لو كنت لو كنت ، وهو يريد أن يقول : « إن اللورد قد وطد الأمر للأجانب وشركاتهم ومبشريهم والماليين منهم ، وللنزلاء وللسمعة الإنكليزية ؛ فلو كان شوقي واحداً من هؤلاء لمدحه » . وقد استغرق هذا المعنى عشرة أبيات . وهو معنى كما ترى غير طائل ، بَلْهَ ما فيه من حشر أسماء أعجمية ثقيلة عنها كل المندوحة .

شوقي إذن لا تزخر قصيدته بالمعاني الغنية المجدية التي تعبّ وتموج بها قصيدة حافظ .

ـ٤ـ

قد أجملت ما عرض له الشاعران . ولست أراني منصفاً إن لم أُنبّه إلى أن ما قدّمت ليس كل شيء ، فهناك سبب يبدو لي قويّاً في هذا الفارق بين نفسيهما : فشوقي أهمّه أن يشتم اللوردُ الخَديويَ أمام ابنه الأمير حسين وأمام رئيس الحكومة حينئذ ويبهته هذا البهتان ، فأرغى وأزبد وعنّف اللورد والرئيسين معاً ، كذلك أسخطه نيله من إِسماعيل وعهده ، وكلا الأمرين لم يلتفت إليهما حافظ كبير التفات .

كاد يقف حافظ كلّ قصيدته على الأدواء الكبرى التي تعاني آلامها البلاد ، وشوقي شغل عنها بما هو أضأل وأحقر .

حافظ كان ينفس عن قلب الأُمة المضطرم ؛ ببراكين من الكلام تخفف الألم وتعزي بعض العزاء طول عهد اللورد ، فلما ودعه أرقَّ معه الكلام ، وكان نبيلاً غاية النبل ـ من غير تقصير ـ في خطابه وعتابه ، وشوقي سكت طول عهد اللورد كأنه لم يحسّ بفاجعة أليمة قطّ إلا لما كانت حفلة وداعه وكان التقرير ، فانطلق شوقي مندفعاً أشد اندفاع شاتماً صاخباً في وجه اللورد منكراً كل حسنة له ، داعياً ربه عليه ، ولم يُبق في القصيدة كلمة جميلة نحو اللورد . فإن تقل إنه لا يستحقها فقل ما الذي أسكت شوقي هذا العهد الطويل الذي أنطق حجارة مصر بمر الألم والشكوى ؟ السبب الوحيد حينئذ فيما أرى هو ما أسلفت من أن شوقياً كانت نفسه عظامية

وشاعريته وقفاً على الأمير ومن علا علوه من الكبراء . وهؤلاء في الغالب أبعد من أن يشعروا بآلام الشعب وحاجاته . حافظ بدأ قصيدته مخاطباً فتى الشعر : هذا موطن الصدق ، فودع العميد بالكرامة ، وشوقي يصرخ في وجهه مستهل الخطاب :

أيامكم أم عهد إسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم في أرض مصر بأمره ... لا سائلاً أبداً ولا مسؤولا

شوقي أتبع مطلعه هذا شماتة جلية فقد تشهدت مصر لذهاب الداء العياء : اللورد كرومر ، وحافظ كذلك علل إحجام الأهرام عن الوداع بقوله :

كأنك لم تجزع عليه ولم تكن ... ترى في حمى فرعون أمناً ولا جَدا

ولفظة « كأنك » هنا لها ما لكملة « تشهدت » في بيت شوقي من بلاغة ساحرة . وتزيد في الدلالة على لطف حافظ ونبله الزائد .

شوقي لا يعترف للورد بِإحسان مطلقاً ، وحافظ أقرّ له بأيادٍ فأطراها لأن مصر أُمةٌ لا تجحد اليد .

حافظ أشار إلى تعرض اللورد للدين الإسلامي فلطف من التعبير وشرح عاطفة الناس يومئذ :

غمزتَ بها دينَ النبيّ وإننا ... لنغضبُ أن أغضبت في القبر أحمدا

وشوقي لم يصنع شيئاً حين قال :

من سبَّ دين محمدٍ فمحمدٌ ... متمكنٌ عند الإلٰهِ رسولا

وتباين الشاعران في ختام القصيدتين تباينهما في المطلعين فقد أَنهى حافظ كلامه بقول معروف :

فيا أيها الشيخ الجليل تحيةً ... ويا أيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلةٍ ... لقد لبثت آثاره فيك شُهَّدا

وشوقي ما استطاع كتمان اضطغانه وشماتته فقال مبيناً أن رحيل اللورد باستجابة من الله لدعائه :

فارحل بحفظ الله جلّ صنيعه ... مستعفياً إن شئت أو معزولا

إنـــا تمنينـــا علـــى الله المنـــى   والله كـــان بنيلهـــنّ كفيـــلا

وفي الجملة فإنا نجد في قصيدة حافظ صورة واضحة للورد كرومر وأعماله وسياسة حكومته ، فيها ما ظهر وما بطن ، وليس من ذلك كثير عند شوقي .

ولا يفوتنّك أن حافظاً على لين ملامس خطابه وعلى حسن وداعه كرّه الناس بالإنكليز وباللورد ، بل قد نفاه من الإنسانية بسياسة خفية حين عرض لأعماله ، يظهر ذلك حتى في بشاشته في وجه اللورد ، فكلمة (لقد لبثت آثاره فيك شُهَّدا) جمعت كل المغامز . وشوقي على خشونة خطابه ما بلغ مبلغ حافظ . فإن لم يكن بدٌّ من التلخيص ، فحافظ ودع كرومر بلسان مصر المتألمة اليقظة الفطنة ، وشوقي شيعه بلسان الرؤساء ، هذا في الموضوع ، وأما المبنى والرونق اللفظي فنصيب شوقي فيهما كبير غزير ، وإحسانه على قلة معانيه عظيم أيضاً ، فقد وفق في مواضع كثيرة كما وفق صاحبه . وقد تفرد كل منهما بميزات . وكان من الواجب بيان ذلك كله لولا أن الكلام قد طال ، فلتبقَ المقارنة الفنية إلى فرصة أخرى غير هذه ، ولنا على القارئ المعذرة .

* *

تغير الرجلان بعد أن شاخا ، وهذا الفصل مقصور حكمه عليهما حين نظما قصيدتيهما هاتين ، وما من هذا التنبه هنا بدٌّ كما لم يكن بدٌّ من بيان رأيي في الوطنية والشعر أول هذا الفصل ، إذ كثير من الناس من يكتفي من الوطنية بذم العميد ، ومن الشعر بصدوره عن شاعر كبير .

آخر ساجع في الشام

مقالة تحدث فيها الأستاذ عن السجع ومكانته في أذواق الناس قديماً وحديثاً . مع أمثلة طريفة .
نشرت في مجلة مجمع القاهرة الجزء ٤٣/١٣٩٩هـ-١٩٧٩م . ص٩٠

لم أعرف ما السجع في دراستي الابتدائية بدمشق ، لكني كنت أسمعه في خطب الجمعة التي يتلوها بعض الخطباء في رسالة قديمة مطبوعة . فلا أعي منها غير التسبيح والصلاة على النبي ، وإذا كان تنغيم الخطيب لها يأتي على ما بقي فيها من وضوح . ثم صرت أسمعه شائعاً في أسماء الكتب ومقدماتها[١] فعقلت المراد من السجع قبل أن ندرس البديع في الصفوف الثانوية . إلا أن الذي أذكره أني كنت في مطالعتي الكتاب أتجاوز المقدمات المسجوعات بعد ما عانيت في كثير منها الغموض والجفاف . ثم هجر كثير من المؤلفين في الشام سجع العناوين بعد الحرب الأولى إلا في ردود أو رسائل تتعلق بالموضوعات التقليدية وما إليها .

وعندي منها رسالة في الرد على مؤلف طعن في بعض الصحابة طبعت (بدمشق سنة ١٩٣٦م) لم يكتف صاحبها الشيخ محمد التونسي الكافي رحمه الله بعنوان واحد مسجوع ، بل ثلّث فسماها :

السيف اليماني المسلول في عنق من طعن في أصحاب الرسول

أو

سُمّ ساعة في كبد من فارق الجماعة

أو

---

(١) كان السجع لعناوين الكتب تقليداً متبعاً في المئة السادسة وما بعدها ، فلابن مالك مثلاً : (شواهد التصريح والتوضيح لمشكلات الجامع الصحيح) . ولابن هشام الأنصاري : (قطر الندى وبلّ الصدى) إلخ .

الرماح والأسنَّة في فؤاد من لمز أهل السنة

أما في الكتابة والتأليف فقد نُحّي السجع تنحية تامة إلا في نهاية بعض المقدمات أو افتتاحياتها، حيث نجد سجعتين تقليديتين أو أكثر في حمد الله أو سؤاله التوفيق.

وشاع ذم السجع بين المتعلمين والعصريين عامة ، وبقي محنطاً في القسم الأخير من خطب الجمع المخصص للدّعاء ، فغاب من حياة الناس غيبة كاملة حتى كان عام ١٩٣٥م وخرج من السرداب ، حين تجاذب موضوع السجع مدحاً وقدحاً علمان شاميان كبيران فرقا الناس فريقين :

تحيز الفريق الأكبر منهما للأول لمكانته في العالمين العربي والإسلامي ، ونصر الفريق الأقل الثاني منهما لأن الحق معه .

كتب الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله فصلاً في مجلة (الرسالة)[١] ناقداً كتاباً اسمه (قواعد التحديث) للمرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي . ولم يكن في نظر الأستاذ الناقد تأليفاً ، فكان مما قاله :

أحدثت في التأليف طريقة جديدة هي أن المؤلف في فن يقتصر على لباب ما قرأ فيه ، ويدعم أقواله بشواهد من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب خال من الخطابيات والسجع . . . ، بهذا القول بدأت المعركة ، وكان هذا الكتاب قد استكتب له ثلاث مقدمات غير مقدمة المؤلف ، إحداهن للأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، فطلعت مجلة الرسالة بعد خمسة أسابيع على العالم العربي برد مستفيض للأمير شكيب جاء فيه :

. . . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد علي الذي بدأ بهذا الغمز بل كان أحد الأصحاب أطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع واستكباراً لإتيانه ، وهذا باب جديد عجيب ، إذا أردنا أن ندخل فيه يطول الأمر ، فنكتفي بالقول : إن السجع وجد في الجاهلية والإسلام ، وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها . . .

---

(١) العدد ١٠٤ (السنة الثالثة ١/ ٧/ ١٩٣٥م) ص١٠٨٠ .

وأفاض الأمير رحمه الله يجادل مسهباً في شأن السجع إلى أن قال :

. . . ولا يقدر أحد أن يقول : إنني مفرط في هذا المذهب ، لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لي[1] ، ولكني لا أزال أرى السجع حلية للكلام العربي عندما يكون في محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب[2] ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير . . . ، أهكذا قال .

تخاطف الناس أعداد الرسالة هذه انتصاراً للأمير المناضل عن العرب والإسلام والمسلمين من مقره في جنيف ، وشماتة بوزير سابق في وزارة تخضع للأجنبي المحتل ، وقلة منهم فهمت الموضوع وتذوقته واستمتعت بمحاورة الرائدين الكبيرين .

الظاهر أن الأستاذ كرد علي أراد أن يربح الصفقة بحجج لا ترد ، حتى من الأمير نفسه ، فعمد إلى جمل من سجع الأمير في مقدمته للكتاب موضوع النقاش واحتكم إلى القراء . حين قايس بينها وبين كلام الأمير المرسل في تقريظ كتاب آخر فقدم المثال الآتي مخاطباً الأمير[3] : « بالأمس كتبت مقدمة (النقد التحليلي لكتاب « في الأدب الجاهلي ») للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت قد أطلت وتوسعت ، واليوم تكتب ما تكتب لـ (قواعد التحديث) في فن لست منه ولا أنا لا في العير ولا في النفير ، وجئت تغالي بكتاب ليس فيه من حديث ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين ولا يستحق هذه العناية والرعاية وهذه الضجة ، ولكل رأيه واجتهاده . وأكتفي الآن بجملة من مقدمتك وقد بدأتها بقولك :

---

(١) صدق الأمير والله ، فقد جاء في رسالة بعث بها إلى صديقه السيد هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السورية غير مرة عام (١٩٣٥م) أنه أحصى ما كتبه في ذلك العام فكان : ١٧٨١ رسالة خاصة و١٧٦ مقالة في الجرائد و١١٠٠ صفحة كتب طبعت ثم قال : هذا محصول قلمي في كل سنة ، وعرفه خليل مطران بـ (إمام المترسلين) من ترجمته في (الأعلام) للزركلي رحمه الله .

(٢) العدد ١٠٩ في (١٢/٨/١٩٣٥م) ص١٢٨٠ .

(٣) العدد : ١١٠ في (١٩/٨/١٩٣٥م) ص١٣٥٩ .

لا يخفى على أهل الأدب أن الجمال[1] والقسام في العربي واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل . فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمي » الذي جاء اسماً على مسمى ، مع العلم أن الجمال الحقيقي هو الجمال المعنوي لا الجمال الصوري الذي هو جمال زائل . فالجمال المعنوي هو الذي ورد فيه الحديث الشريف : « إن الله جميل يحب الجمال » ، وعلى هذا يمكن أن أقول : إنه لم يعط أحد شطر الجمال بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي . . . بحيث إن كل من كان يدخل دمشق ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لو لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية المتحلية بتلك الشمائل السرية والعلوم العبقرية ، لكان ذلك كافياً في إظهار مزيتها على سائر البلاد وإثبات أن أحاديث مجدها موصولة الإسناد » .

ويعقب الأستاذ على هذا النص بقوله : « بأبي أنت وأمي يا شكيب! أهذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك فلا أحتكم إلا إليك ، أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ، وما هذا القلق من المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا من فتًى يشدو في الأدب ولكن من شيخ كتاب العرب ، لا ثم لا » .

وينتقل الأستاذ كرد علي إلى السجع وإلى كتابين للأمير بعنوانين مسجوعين يقول : « وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز وهو (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أسمى مطاف) ، وقلت لك يومئذ : إن القارئ مهما يبلغ من ثقوب ذهني لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع إلا بكثير من إجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير » .

ويضرب الأستاذ كرد علي الأمثال بالبلغاء المحسنين ولا ينسى أن يقف عند الإمام محمد عبده الذي كما يقول : قضىٰ بقوة حكومته على استعمال السجع في

---

(١) لا تنس أن اسم المؤلف جمال الدين القاسمي .

الصحف والرسائل الرسمية فعُدَّ عمله هذا أكبر حسنة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين » .

وكما احتج الأستاذ بمثال واضح من سجع الأمير في تقريظه جعل القراء يقتنعون بسلامة دعواه ، احتج أيضاً على الأمير في تقديمه ديوان أخيه إذ جعل عنوانه : (روض الشقيق في الجزل الرقيق) . ما قلته في فاتحته :

« . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجمل من نشرها في الأقطار ، وخير وصف الحسناء جلاؤها والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع وأنواع البديع ، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ولا رفعته عن دوحته كثيراً ولا قليلاً ، كما أني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً وأمراً عظيماً وديواناً تتأرج أرجاؤه نداً ولطيماً ، لما خفي أمره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سفه أحد ممن له عينان . . » .

يقول الأستاذ : لو كنت مكانك لقلت وما باليت :

« الذي لا أجد لشعره وصفات أوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع وكان هو في الواقع دون ما أصف ما أغنيته فتيلاً ، ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً وكان هو في نفسه دراً نظيماً لما خفي أمره . . » .

أليس هذا الإيجاز أوقع في النفس وأجمل في أداء المعنى ، وأدعى إلى الإفهام من أسجاع تثقل عن الطباع ، ونحن إنما نكتب لنفهم لا لنعجم ونُبهم .

وختم كلامه بالدعوة إلى أساليب البلغاء يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذلك الضرب المستكره من أنواع البديع .

لم يصنع الأمير شيئاً حين عاد بعد خمسة أسابيع يدافع ـ باختصار ـ عن ثنائه على مؤلف (قواعد التحديث) ويعرف المسجوع ، محتجاً أن (نهج البلاغة) وكثيراً من كلام أفصح العرب من النوع المسجوع ، لكنه خرج عن الصدد في قوله آخر رده :

« . . فإن كانت اللغات الأوروبية ليس فيها سجع إلا ما ندر فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب »[1] .

إذ لم يجر للغات الأوروبية ذكر في كل ما دار في هذا الموضوع .

كان الولوع بالسجع التعويذة الوحيدة من العين في تراث أمير البيان الحافل بصولات وجولات ما أروعها وما أبرعها .

وليست حملة الأستاذ كرد علي على السجع من حيث هو سجع ، والدليل على ذلك أنه نفسه كثيراً ما تتفق له السجعتان والثلاث من حيث لا يشعر هو ولا قراؤه أنه يسجع ، بل سجع هنا وهو يحمل على السجع حين قال آنفاً : « يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ولا ذاك الضرب المستكره من أنواع البديع » وقال : « ونحن إنما نكتب لنفهم لا لنعجم ونبهم » : بل إن السجع ليجري أحياناً في حديثه العادي ، زاره في مجمعه مرة مستشار معروف في العالم العربي بأسره ، ليقترح عليه أموراً في شؤون المجمع ، فتأخر عن موعد بيننا ، واعتذر بتلك الزيارة عن غير موعد ، وكنت أعرف أنه يثقل على قلبه فسألته كيف وجدته ؟ فقال نبراً : أعجم طمطم ، ولا يفهم ولا تفهم .

إن السجع كبقية أقسام الكلام ، إذا صدر عفواً من بليغ مطبوع في مقام يقتضيه فهو حسن وإلا فلا ، وقد نص الأستاذ على أن « الكراهية آتية من التزيد والتكلف » .

وبعد فلا يغني ما اقتطفت من كلامهما عن الرجوع إليه كاملاً حيث أشرت إلى مظانه من مجلة الرسالة ، ففيه دلالة على أدب جم ، واطلاع مستفيض ، وطبع قوي ، وملكة متمكنة رحمها الله .

* *

ظننا بعد هذه المعركة اللطيفة في الشام على الأقل أن أمر السجع مضى ولا

---

(١) مجلة الرسالة ، العدد ١١٦ في (٢٣/٩/١٩٥٣م) ص : ١٥٥ .

عودة ، لكن حدثاً مباركاً أظل الناس في الشام سنة ١٩٥٨م ، وقضوا في فرحته سنين ، وكان أثرها عند العرب المغتربين في الأمريكتين بليغاً عارماً ، فما أبهجنا حينئذ شيء كاعتزام أجلاء من شيوخ الأدب هناك الرجوع إلى الوطن ، وقد تجلت لأبصارهم بشائر وحدة عربية طالما حلموا بها وغنوا لها ، بدأ تحققها بوحدة مصر والشام . فسعدنا برؤية أعلام كنا نعمنا بأدبهم ونضالهم للغتهم وبلادهم . واليوم نراهم بيننا يغنوننا في فرحتنا أعذب الألحان : الشاعر القروي ، والشاعر المدني ، وإلياس فرحات ، وإيليا أبو ماضي وجورج صيدح و . . . إلخ .

ويعنينا منهم في موضوعنا هذا الأستاذ نظير زيتون حامل لواء السجع المطبوع الجميل ، ولو كان بدا للحاملين على السجع لنكسوا أعلام الحمية ، وتركوا لهذا الأسلوب ميادينه يعمرها فرسانه الأصلاء المطبوعون .

كان السجع على لسان نظير زيتون ينثال سهلاً سائغاً عذباً يطرب رنينه ، ويبهر تدفقه ، ولو شاء جعل كلامه كله سجعاً . فهو فيه فريع أبي العتاهية في شعره ، سلاسةً وطبعاً .

إن ما خلفه نظير زيتون هو أدب قبل أن يكون سجعاً أو غير سجع ، وكان كما وصفه صديقه الشاعر جورج صيدح في تقديم قصته (من وراء القبر أو انهيار إمبراطورية وولادة أمة) : سبقته إلى الشام « شهيرة طيرها المهاجرة وتصيّدها الوطن ، لقد عاد من البرازيل بثروة من الآثار القلمية تغنيه عن التماس أثر جديد ، لكنه ظلّ مهاجري الروح مهاجري[١] الطابع ، وظلت الرسالة المهاجرية أمانة في عنقه سواء (توطن) في الغربة أم (تغرب) في الوطن ، وتعود أن يعيش بقلبه وقلمه كل محنة تنزل بأمته كما يعيشها خدينه الشاعر القروي بروحه وبشعره ، وزميله فرحات بثورته »[٢] حسبي هذا تعريفاً بأدبه من زميل له عايشه في الغربة العمر الطويل ، لأبادر بالكلام على سجعه :

---

(١) في الأصل (المهجر) وهو خطأ شائع هناك ثم هنا .
(٢) (من قصة وراء القبر) ص١٦ .

في صيف عام ١٩٦٤ لفت نظري في مجلة تصدر في دمشق تعليق سلبي على مقال عنوانه (نجوى وذكريات من نظير زيتون إلى شفيق معلوف) كان للتعليق رد فعل في نفسي حملني على الإمعان في المقال فطربت لفقرته الأولى وقد قطعت جملاً صغيرة مسجوعة ذات رنين جميل وتصوير أجمل ، فتأنيت في القراءة استلذاذاً بأصالة البيان ، فلم أرفع نظري إلا آتياً على خاتمته ، لم أدر كم استغرق من وقت لكنه إحدى عشرة صفحة ، بالحرف الدقيق ، والرسالة رحلة في الذكريات ، والآمال ، والآلام ، أجاب الكاتب بها صديقه الشاعر شفيق المعلوف[1] سطراها الأولان :

« حبذا الكتاب ونجواه ، والحرف وشذاه ، والقلم في مجراه ومداه ونهاه ، والبحر ودره الزهراه (الصافي) والولاء متجلياً في سناه ، والخلق المعطاء صداحة موسيقاه ، خصباً مجناه ، هطالاً جناه » .

ثم يعرج على ذكرياته في الأمريكتين مع رجال (العصبة الأندلسية) وغيرهم ، ويحن إلى أولئك الأيام : « بين رفاق تألفت قلوبهم ، وتجندت أرواحهم للمروءات والمكرمات ، والذود عن أم اللغات في دنيا غريبة اللغات والعادات ، فكانوا أحنى ضلوعاً على الحرف العربي من المرضعات ، وأوفى بالضاد من شيوخها السادات ، وأكلف بالفصحى من صوفي بالعبادات ، وأغضب للغة القرآن من مضري في حومة المساجلات وعكاظ المفاخرات » .

وتمضي الرحلة في بلدان أمريكة الشمالية والجنوبية حيث العرب المغتربون قد أقاموا للفصحى في كل بلدة نادياً وسوقاً وجريدة ومجلة ، فيستعيد ذكرى المجالس الحافلات بالأدباء والشعراء ، ومهرجاناً أقاموه للمتنبي فيقول :

« ولنعرج على شيخنا المتنبي في ذكراه الألفية ، ولنشنف آذاننا بسماع شعراء العصبة الأندلسية ، ولقد أصغينا إليهم فرأيناهم أمراء ينشدون في حضرة المتنبي صاحب الجلالة الملكية ، كما كان أبو الطيب ينثر درره في ديوان سيف الدولة الحمدانية ، ويقهر خصومه وحساده بالأبيات الخلية العصبية ، ويؤجج في صدورهم

---

(١) مجلة المعرفة ـ دمشق ، العدد ٢٧ مايو ١٩٦٤م ، والتعليق للفقيد الأستاذ فؤاد الشايب ، وكان ملماً بالآداب ، ولم يكن من العرف يومئذ أن يعهد برئاسة تحرير لمن لا إلمام له بأدب ولا معرفة له بأدباء .

نيراناً جهنمية » .

« ولم تكن ذكرى المتنبي في سان باولو حفلة ولا مهرجاناً ، بل رواقاً باذخاً رتلنا فيه صلاة وقدمناه قرباً ، وقرآنا ، وركعنا خشعاً في محراب الفصحى شيوخاً وشبانا ، وبزغت العربية في صدورنا نوراً وإيمانا وحباً وإحسانا ، وفصاحة وبيانا » .

ويختم رحلته قائلاً لمخاطبه : « واكم لعبقر شاعرا، ولآي البيان ناثرا ، وللإخوان صدراً عامرا ، وللفضل بحراً زاخرا » .

شعرت أن الكاتب يغرف من قلبه الطافح بأنبل العواطف ، وأن لغته الساجعة طاوعته بل سابقته إلى هذا الغرف ، وأنت حين تكون حيال أدب مطبوع لا تسأل عن شكله ، فليكن شعراً أو سجعاً أو مرسلاً ، حسبك من قوة الطبع وعدوى الانفعال والتأثر .

ثم عدت إلى نفسي أتساءل : (ألا يمكن أن يكون الأستاذ نظير قد احتفل في هذه الرسالة بأناقة الأسلوب لأنه قدر أنها للنشر ، ولولا ذلك لكان تعبيرها عن طبعه في الصدق والبعد عن التكلف ، . . ولم يطل بي الفكر إذ ذكرت أن عندي رسالة شخصية منه كتبها إلي في ٢٠/ ٧/ ١٩٦٣ فاستخرجتها أقرؤها ، فإذا هي وما تقدم من ينبوع واحد ، وهذه فقرة منها لا أحتشم من ذكرها :

« ورحم الله الأفغاني جمال الدين ، الرئيس الإمام ، وقد كان في الشرق قطب الإصلاح وعلمه المصباح ، وبابه والمفتاح ، فكم نادى في القوم وصاح ، ودعا إلى الفلاح ، وكم شنها غضبة مضرية على السلطان السفاح ، وكم ندد بالجهل والجمود والتخبط والفساد وسائر ما ينتاب العقل من كساح ، وكم أهاب بالعرب ودعا إلى السبيل الوضاح ، والسنن الصحاح ، إلى أن أدركته المنية عملاقاً في الكفاح ، عبقرياً في عظاته الفصاح ، أو ليس بين هذين من قربى الأرواح موصولة بصداقات فكر أصيل لماح ، وقلب خيِّر سماح » .

وعلينا أن نراعي ما بين طبيعتي الموضوعين من تفاوت ، فهذه رسالة شخصية ، وتلك رسالة أدبية تزخر بالمواقف والعواطف ولكنهما سقيتا بماء واحد .

قلت : إن تعليق رئيس التحرير كان سلبياً ، ولكل عصر شعارات خرافية تشيع

حتى ليتعبد بها كثير من الناس ، ومن هذه الخرافات تعابير القديم والحديث ، والسجع الثقيل والشعر الحر وغيره ، والعمودي والخليلي ، والرؤى الرمزية ، ومن ذلك قولهم : أسلوب عفّى عليه الزمان ، وتصاوير الجيل الصاعد والمتحرر . . . إنها شعارات العبودية والانجرار على الذيول يلوكها الخليون من العلم والأناة والتفكير ، وربما تجرف أحياناً من تخطّى المراهقة في الأدب أو السياسة أو الغوغائية ، وقد جرفت فيمن جرفت صاحب التعليق حين قال :

« لولا أنه نظير زيتون ، ولولا حبه العظيم لعربيته وعروبته لقلنا : إنه أسلوب عفَّى عليه الزمان وخلفته وراءها الركبان » .

كان منتظراً بعد هذا التعليق أن يثور جدال كالذي ثار بين الأمير شكيب ، والأستاذ « محمد كرد علي » رحمهما الله ، ولا شك في أنه من آثار حملات « كرد علي » على السجع في نفوس الشباب حينئذ وصاحب التعليق منهم ، ولعله طمع في شيء من مثل ذلك الجدال لمجلته ، لكن شيئاً لم يقع ، إذ فات المعلق أن الأمر مختلف من وجهين :

الأول أن الأستاذ نظير مطمئن إلى أدبه الشهير المكين فلم يعبأ بالتعليق . والثاني أن القراء سحرهم البيان الجميل المطبوع فنسوا ما كان قال رئيس التحرير .

كان آخر ساجع في الشام ظاهرة أدبية فذة في الربع الثالث من هذا القرن[1]

---

(١) ولد الفقيد الأستاذ نظير زيتون في حمص (الشام) سنة ١٨٩٦م ، وفيها تلقى علومه الأولية ، وفي سنة ١٩١٤م أول الحرب العالمية الأولى رحل إلى (سان باولو) في البرازيل مهاجراً يطلب العمل والعيش فيها ، فعالج أبواباً من التجارة فلم تفتح له ، فعدل عنها إلى ميوله الأدبية واللغوية ، وقد وجد في مقاومة الحديد حافزاً يشجعها وبواعث تنشطها ، فانصرف إلى دراسة اللغتين البرتغالية والإسبانية عاملاً على التبحر في آداب العربية وعلومها ، ولم يمض بضع سنوات حتى أصبح واحداً من ألمع قادة الحركة الفكرية العربية في أمريكة الجنوبية . واشترك مع غيره من أدباء المهاجر في حمل رسالة الفكر العربي إليه ، كما اشترك معهم بنثره البليغ وبيانه المشرق في قيام (الحركة الأدبية في المهاجر) ، وقد أسندت إليه سنة ١٩٢٦ رئاسة تحرير جريدة (فتى لبنان) ، وظل يشرف عليها حتى سنة ١٩٤٢ . كان الفقيد خطيب (النادي الحمصي) في (سان باولو) وركناً من أركان (العصبة الأندلسية) ، وقد أسهم في تحرير مجلتها الرفيعة ، فلمع اسمه في مختلف جاليات =

= المهاجر وأرجاء البلاد العربية . نشر كثيراً من المقالات الأدبية والدراسات الاجتماعية في مختلف المجلات والصحف العربية ، وقد جمع بعضها في كتب طبعت ، وظل أكثرها ينتظر من يجمعها لتعم فائدتها . ثم حمله الحنين إلى الوطن إلى سورية (في عهد وحدتها مع مصر) ، فلقي من مواطنيه كل تقدير لأدبه الرفيع وجهوده البالغة في خدمة القضية العربية ، ومنحته الحكومة السورية وسام الاستحقاق السوري . أقام في بلدته (حمص) إلى أن وافته المنية صباح السبت في ٢٢/٧/١٩٦٧م .

[عن مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مع بعض التشذيب ٤٣ـ٢٠٧] .

إنصافاً لطه حسين

دعوة إلى مراجعة كتابَيْ : (حديث الأربعاء)
و(في الشعر الجاهلي)
نشرته مجلة العربي في العدد ٢١٨ لعام ١٩٧٧

في الذكرى الثالثة لوفاة طه حسين تفسح (العربي) المجال لدعوة تلقتها من الباحث الأديب السوري الأستاذ سعيد الأفغاني ، ينادي فيها بإعادة النظر في كتابي (حديث الأربعاء) و . . (في الشعر الجاهلي) . وهو في مقاله هذا يسجل انطباعات شخصية عن فقيد الأدب العربي ، ننشرها كما هي .

يشهد الرعيل الأول من أئمة الأدب في عصرنا : مصطفى صادق الرافعي وأحمد أمين وطبقة كل منهما أن الدكتور طه حسين قوي الأساس في العربية ، سليم النشأة فيها ، مكنته ثقافته الأزهرية وملكته الخاصة أن يتذوق بلاغة أدبها غاية التذوق . حين يملي خواطره حول نص أدبي أو على هامشه يأتي بكل بديع .

وحدثني غير واحد من نابهي طلابه (القدماء) أن دروسه في الأدب أعلى كثيراً من دروسه في تاريخ الأدب ، لافتقار الثانية إلى أدوات لم تتح له ، إذ كان اعتمادها جميعاً على الباصرة ، وهيهات أن يكون المعاونون له (مأجورين أو متطوعين) بديلاً منها في حال من الأحوال .

من هنا كانت كتبه ومقالاته في تاريخ الأدب خالية من الخلق والإضافة الحقة . وبعضها كان أشبه بسنحات الخواطر يزينها بأسلوبه العاطفي ، وبيانه الحلو ، وهي على كل حال بعيدة عن مقومات البحث ومعطيات البراهين .

لذلك لم يكن غريباً أن يقرر الدكتور طه حسين حكماً في يوم ، ثم يحلو له بعد مدة طويلة أو قصيرة ، حكم آخر يبطل به الأول . وكثيراً ما يؤيد اليوم أموراً يرجع عنها غداً في مثل الحرارة التي كان أيدها بها ، وهو في الإقرار والإلغاء حافز سوانح وبدوات ، لا وثائق ولا براهين . أضف إلى ما تقدم المزاج العاطفي المتحول أبداً بين الرضا والغضب . . تدرك ما ينبغي أن يحتاط به القارئ لنفسه حين يطالع آثار

هذا النموذج من الأدباء ، ولاسيما حين يعرضون لنقد آثار غيرهم ، فلا يقبل أحكامهم إلا بعد تجريدها من الآثار العاطفية ، وعرضها على مقاييس موضوعية . وتشتد الحاجة إلى هذا التحرز وتلك المناعة حين يتسلح هذا الناقد الأديب ببيان (أزهري) أصيل رائع مثل بيان طه حسين .

قبيل زيارتي للقاهرة سنة ١٩٤٧ ، كلفني وزير المعارف السورية آنذاك ، « إبلاغ الدكتور طه حسين رغبة الجامعة السورية في استضافته شهراً لإلقاء بعض المحاضرات في كلية الآداب » ، فاتصلت به هاتفياً ، وفي الموعد المتفق عليه استقبلني في داره بالزمالك ، وكان عنده اثنان من الأساتذة أحدهما ـ فيما أذكر ـ المرحوم الشاعر عبد الرحمن صدقي ، ودار الحديث عن سورية فأثنى طه حسين على عنايتها باللغة والأدب . . وقبل أن أشرع في حديث موضوع الزيارة أبدى استغرابه (من تفكير مسؤول سوري في إسناد رئاسة الجامعة السورية إلى المرحوم الدكتور منصور فهمي ، وأن هذا المنصب إداري لا يصلح أن يتولاه غير سوري) . لم أفاجأ بالملاحظة ، لأني كنت أعرف قبل هذا أن الدكتور منصور فهمي لا يخف على قلب طه حسين ، فصرفت الحديث عن الرجل وناقشته في المبدأ قائلاً : « إن العرف السوري يجعل الأقطار العربية في مثل هذا وحدة » وذكرت له أن عدداً كبيراً من العراقيين والأردنيين والفلسطينيين واللبنانيين والتونسيين والجزائريين أُسندت إليهم مهام جسام في أول عهدنا بالاستقلال سنة ١٩٢٠ على عهد الملك فيصل بن الحسين رحمه الله . . » فقاطعني بقوله : « أنتم ـ السوريين ـ معروفون بمثاليتكم في العقيدة العربية وتطبيقكم لها عملاً » .

إلا أنه ـ فيما بدا لي ـ لم يرتح إلى مخالفتي له فيما أرى .

ثم عرضت عليه التكليف (موضوع الزيارة) فسر جداً ، ولم يكتم طربه ، وقال : « إنه سعيد جداً أن تشرفه سورية بهذا التكليف » . ولما ذكرت له أن المحاضرات المطلوبة لا تقل عن العشر ، ويرجى إعلامنا بموضوعاتها قال : « إن الموضوع مختمر جاهز وسيدور على ما يلي » :

كنت قررت في كتابي (حديث الأربعاء) أن الحجاز كان يصدر المجون إلى

البلاد العربية على عهد الدولة الأموية ، وأنه كان يعج بشعراء المجون ، وبالقيان والمغنيات والمتماجنين والمخنثين والرقيق ، وما إلى ذلك ، وأن القيان المحسنات كن يتعلمن الغناء والضرب بالعود على أساتذة الغناء والعزف المشهورين بالحجاز ، حتى إذا أتقن الصنعة تغالى الأمراء والأثرياء من جميع الأقطار في شرائهن من النخاسين وحملوهن إلى أوطانهم . . وأن كتاب الأغاني تكفل بتصوير ذلك كله . . أما الآن[1] فقد تبين لي أن ذلك كله (كلام فارغ) وأن مصدر المجون الحقيقي حينئذ كان بلاط الأمويين في دمشق لا حواضر الحجاز . . إلخ » .

لم أستغرب رجوع طه حسين عن رأي له مشهور مسجل في كتاب واسع الذيوع ، متعدد الطبقات ، فذلك شأن المنصفين ، لكني كنت أحب ـ كما كان قد سجل هذا الخطأ حتّى أخذ به كثير من السطحيين ـ أن يسجل رجوعه عنه في كتاب أو صحيفة ذائعة ، فذلك أحوط لبراءة ذمته وأقوم لحق العلم عليه .

في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في دورته الحادية والأربعين (عام ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م) استمعنا إلى بحث رصين عن المرحوم الدكتور طه حسين وقد مضى على وفاته عام كامل ، ألقاه الدكتور محمد أحمد خلف الله ، وعقب عليه عدد من الزملاء الأعضاء ، منهم الأستاذ محمد أحمد الحوفي ، وكان تعقيبه شهادة أداها بأن طه حسين رجع عن نظريته في انتحال الشعر الجاهلي . وهو الزعم الذي أدار كتابه (في الأدب الجاهلي) على تأييده . وسمع منه هذا الرجوع غير واحد من الأساتذة ، ثم جاء دوري في إبراء ذمتي من أمانة في عنقي ، فأخبرتهم برجوعه أيضاً عن حكمه السابق (في حديث الأربعاء) كما قلت . وعلى هذا لم يعد يصح في شرع الأمانة والعلم الاعتماد عليهما ، ولا أن ننسب إليه ما فيهما من أحكام على أنها آراؤه ، بعد أن رجع عنها .

لئن تخلى طه حسين عن خطأ الأحكام في كتابيه (حديث الأربعاء) و(في الشعر الجاهلي) ، إن ما فيهما من عذوبة البيان والحماسة لانتهاج منهج ما في البحث ،

---

(١) كان مضى على صدور الطبعة الأولى من (حديث الأربعاء) عشر سنين كاملة إذ صدرت عن مكتبة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٣٧م .

مستمر الأثر ـ فيما أقدر ـ حتى سنوات قادمات إلى أن يقل في القراء ـ لا سمح الله ـ متذوقو بلاغة العرب من ذوي النشأة اللغوية الأصيلة وعشاق البيان الصافي الجميل .

شعرت بعد كتابة ما تقدم بحافز ملح في الرجوع ثانية ـ بعد أعوام طويلة جاوزت الأربعين ـ إلى مقدمتي الكتابين ، فظهر لي أن الرجل ـ رحمه الله ـ كان أميناً غاية الأمانة في أداء ما في نفسه إلى الناس . لكن كثيراً من الناس يقرؤون في غير أناة ولا روية . لقد حذرهم هو نفسه من الاعتماد على ما أصدر من أحكام ، واعترف لهم ـ في غير غمغمة ـ بحاجة بحوثه إلى إعادة النظر . لكن الببغاوين أتباع كل جديد رائج في غير تبصر ولا إعمال عقل ، لا يتلبثون في قراءة ، ولا يتوقفون لتفهم ، بل يمضون في اتخاذ آراء من هنا وهناك فيَضِلُّون ويُضِلُّون .

جاء في مقدمة الطبعة الثانية من (حديث الأربعاء) ص(د) قول طه حسين :

« إني أعرف من عيوبي ونقائصي أكثر مما يعرف الناقدون لي ، والناعون علي ، وكم أتمنى أن تتيح ظروف الحياة لي من الفراغ ما يمكنني من أن أظهر رأيي في نفسي وفي آثاري مفصلاً ، إذن لرأى الناس من ذلك عجباً . . » وقد فعل ذلك ـ رحمه الله ـ شفاهاً ، على ما مر بك آنفاً في أحكامه السابقة من كتابيه (حديث الأربعاء) و(في الشعر الجاهلي) . بل ذهب أبعد من ذلك وهو يبدي ويعيد ويكرر . محذراً من الاتكاء على ما أملى من فصول في (حديث الأربعاء) لأنه أرسلها أحاديث في صحف سيارة لا تمهل الكاتب أن يتروى ويبحث ، وقرر مؤكداً حاجتها إلى إعادة النظر وإلى بذل جهد وعناية ، لقد نعت هذه الفصول بقوله الصريح الصادق :

« فلست تجد فيها الفكرة القوية الواضحة المتحدة التي يصدر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأسفارهم ، بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأحدثك في غير تحفظ ولا احتياط ، إني مهما أكن قد تكلفت في هذه الفصول من جهد ومشقة فإني لم أعن بها العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً . إنما هي فصول تنشر في صحيفة سيارة ليقرأها الناس جميعاً فينتفع بقراءتها من ينتفع ، ويتفكه بقراءتها من يتفكه ، ولم يكن بد لكاتبها من أن يتجنب التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي ، إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا ، ولقد يكون من الحق علي

لنفسي والأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأني ما كتبت منه فصلاً إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص « محتاج » إلى استئناف العناية به والنظر فيه . . » .

لقد كان على الذين يصدرون عن أقواله وأحكامه ويقررونها على طلابهم أن يقفوا ـ على الأقل ـ عند حكمه هو نفسه على ما صدر عنه . فيحققوا ما قال هو : إنه يحتاج إلى تحقيق ، ويمحصوا ما أقر هو : إنه يحتاج إلى تمحيص . أما أن ينسبوا إليه أحكاماً أخذوها من الفصول التي كتبها من غير الاحتياط الذي احتاطه هو نفسه حين كتبها فجرح جبار . وظلم آن أن يوضع له حد .

إن الذي حداني على كتابة ما تقدم أمران :

أولهما : أمانة في عنقي على إبراء ذمتي منها ، أديتها لوجه الحق ، وقد ذهب الرجل للقاء ربه ، فحقٌّ علي أن أشهد بما سمعت منه ، وقد قمت بذلك في مؤتمر المجمع ـ كما أسلفت ـ بعد أن أدى الدكتور الحوفي شهادته برجوع طه حسين عن رأيه أيضاً في انتحال الشعر الجاهلي . لكن ذلك كان منا في مجلس محدود ، وبيئة خاصة قليلة جداً بعدد أفرادها . وإن عظمت كفاياتها ، وأعيده هنا على نطاق أوسع .

والأمر الثاني : ما نشرته مجلة (دعوة الحق)[1] التي تصدرها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف في المملكة المغربية بعنوان (رأي طه حسين في الشعر الجاهلي) . ولا ريب في أنك علمت الآن أن في العنوان ظلماً لطه حسين بعد أن رجع عن رأيه . وليت الكاتب أشار إلى السنة التي رأى فيها طه حسين ذلك الرأي فقال : « رأي طه حسين سنة ١٩٢٦ في الشعر الجاهلي » .

خمسون عاماً مضت على رأي رآه ، عورض فيه ، وألفت في الرد عليه كتب (موضوعية) جيدة[2] أفيجوز في شرعة الحق والإنصاف أن نظن أن طه ـ بعد هذا

---

(١) العدد الخامس من السنة السابعة عشرة (المحرم ١٣٩٦هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦م) ص٧٦ .

(٢) عد الكاتب هنا تسعة كتب ، منها :

ـ النقد التحليلي لكتاب الشعر الجاهلي للأستاذ محمد أحمد الغمراوي .

ـ الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة ـ صدر عام ١٩٢٦م . =

كله ، طوال تلك الأعوام التي قاربت الخمسين ، قد ظل جامداً على رأيه الذي رآه في أول شبابه بعد كل ما بينوا له ؟ فإين حصافته إذن ؟ وأين فهمه وإنصافه ، وكل الذين عرفوه شهدوا له بهذه الفضائل الثلاث ؟! وهي شهادة حق .

هذا ما رأيت واجباً بيانه بعد اطلاعي على ما نشر في تلك المجلة الرفيعة ، إنصافاً للحقيقة ، وإبراء للذمة ، وإنقاذاً لمن يضع هذين الكتابين في أيدي طلابه ، وهو لا يعرف أن مؤلفهما رجع عما فيهما رجوعاً قاطعاً لما نضج وبرئ من فتنة لفت النظر وإثارة الضجيج ، وحق على تاريخ الأدب أن يشيد بفضيلته في التصحيح كما كان ندد بتورطه في شبابه بتحمّسه لرأي غير نضيج .

لدعوة الحق الخلود ، ولحامليها التحية ، وعلى طه حسين الذي أنصف نفسه قبل أن ننصفه ـ رحمةُ الله .

= ـ نقض كتاب (في الشعر الجاهلي) للشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر فيما بعد ـ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٥هـ .

ـ محاضرات في بيان الأخطاء التي اشتمل عليها كتاب (في الشعر الجاهلي) للشيخ محمد الخضري ـ نشرت في مجلة القضاء الشرعي .

ـ نقد كتاب (في الشعر الجاهلي) لمحمد فريد وجدي . بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر ـ أكتوبر ١٩٢٦م .

ـ نقض مطاعن في القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة .

ـ (الشعر الجاهلي) والرد عليه لمحمد حسين، عدا ردود كثيرة نشرت في صحف ومجلات مختلفة .

دين المتنبي

بحث أُعدَّ بمناسبة المهرجان الألفي لأبي الطيب المتنبي في دمشق
نشر في مجلة الرسالة العددين ١٦١ـ١٦٢ عام ١٩٣٦م

عاش في هذه الدنيا قبل ألف عام رجل قضى إحدى وخمسين سنة يعمل في حياته للمجد ؛ ركب إليه المكاره واقتحم الغمرات ؛ أراده مرة من طريق الدين فخاب ، ثم راوغه من طريق الولاية فأخفق ، ثم مضى قُدُماً يجالد دون سبيله هذه جيوشاً من أذى الأعداء ونكاية الحساد وكلَب الزمان وتخلّف الجَدّ .

تقاذفته الأقطار ضارباً في الأرض : من حلب ، إلى دمشق ، إلى فلسطين ، إلى مصر ، إلى العراق ، إلى فارس ؛ حتى إذا ملأ الدنيا وشغل الناس وقفل راجعاً من شيراز وشارف بغداد وحط في سوادها الغربي ، أحاط به أعداؤه في (دير العاقول) ليغتالوه ، فقاتلهم قتال المستبسل المستميت حتى سقط دفاعاً عن نفسه وشرفه ، فصعدت روحه إلى بارئها يحاسبها على ما قدمت في عاجلتها من خير أو شر ، وإذا كان موضوعنا البحث في دين الرجل فلا بد أن ننبه قبل الشروع فيه إلى أنا سنخرج على ذلك السخف التقليدي الذي توارثناه في عصورنا الأخيرة جيلاً عن جيل ، في تكفير الناس من أجل كلمة قالوها أو عمل قاموا به ؛ نتعلق لذلك بأوهى الأسباب ، ونتكلف له كل التكلف لنخرج مسلماً عن دينه وإن كرهناه ، أو نؤولَ له ما زل به لسانه إن أحببناه ، تعقد لذلك المجالس في المساجد والمدارس وعند السلطان ، وتؤلف الرسائل وتثار الفتن ، وتراق الدماء ، حتى لقد سوّل الشيطان لبعض الحكام أن يتخذ من عبَدة الهوى هؤلاء مطايا يركبها إلى غاياته فيمن يكره من كل آمر بمعروف ، أو جبّاه بحق ، أو ثائر على ظلم ، فما أسرع ما كانت تخرج الفتيا بالتكفير ، وما أسرع الحاكم حينئذ إلى البطش والفتك .

ولولا الخروج عن الموضوع لأفضت في شرح هذه الناحية من تاريخنا وما أدت

إليه من سوء العقبى ، وما جرّت على العلم والدين من ويلات وخراب ، وخاصة أخريات عصور الجهل ، يوم كان يضطلع بهذه المهازل شيخ الإسلام في السلطنة العثمانية .

وحسب المرء أن يذكر على سبيل التمثيل آراء المحبين والمبغضين في أجلاء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ صدر تاريخنا ، ثم أقوال هؤلاء وهؤلاء في الحلاَّج ومحيي الدين بن عربي وتلك الطبقة . بل ما لي أعمد إلى التاريخ البعيد وفي فجر نهضتنا مثل صالحة من ذلك . فاذكروا إن شئتم الأئمة جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا ومن لفَّ لفّهم . ألم يرفعهم قوم إلى درجات المصلحين المجتهدين ، ويهبط بهم آخرون إلى دركات الكفار أعداء الدين ؟!

وغريب منهم هذا الفضول والتطفل والله تعالىٰ لم يجعل إلينا أمر الناس ، حتى نزجَّ أنفسنا في هذه المزالق . ومتى ملك بشرٌ أمر بشر والله يقول : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام ٦/ ٥٢] . أما كان في خويصة أنفسهم ما يشغلهم عن الناس والتحكم في آخرتهم ؟ وما كان أقربهم من إنصاف لو عرضوا القول أو الفعل على الحق فسموا الأشياء بأسمائها ، وحكموا عليها بالخطأ أو الصواب ، ولم يحمّلوا النصوص ما لا تحمل ، ووكلوا أمر الناس إلى الله ، إذن لوفروا على أنفسهم عنتاً طويلاً ، ووقتاً سيسألهم الله عن إنفاقه في هذه السفاسف والآثام ، وجهوداً لم يرزقهم الله إياها ليفرقوا دينه شيعاً ، ويؤلبوا عباده بعضهم على بعض .

وأنا إذ أعرض لدين المتنبي فإنما أحكم على أقوال قالها وعلى هنات صدرت عنه ، فأعرضها على الحق ، وسواء على الباحث ، إذا اجتهد وأخلص ، أكان المتنبي بعد ذلك مسلماً أم ملحداً ، فما لنا إيمانه ولا علينا كفره ، ولا يملك إنسان لإنسان عذاباً ولا ثواباً .

* *

أمهد لبحثي بكلمة عن الحالة الدينية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وهو الأمد الذي عاش فيه شاعرنا ، وأنا حين أفيض فيه إنما أتكلم على المتنبي نفسه

لشدة العلاقة بين الرجل وعصره ، ولأن كل شيء من أحوال ذلك العصر كان يهيئ للدعوات السياسية والدينية . وسنرى أن تنبؤ أبي الطيب ليس بالأمر الأدّ في ذلك الزمن الذي يعجّ بالأحزاب والنحل وأهل الأهواء .

كان الدين أروج التجارات حينئذ في جميع الأقطار الإسلامية ؛ فمن بغىٰ ملكاً تذرع له بالدين ، ومن أراد ثورة جعل شعارها الدين ، ومن دعا إلى نِحلة فإنما سلاحه هذا الوتر الحساس من النفوس ؛ ودولة بني العباس إذ ذاك متمكنة في رقعة صغيرة في العراق ، تعيش مع ذلك خاضعة لسلطان الأمراء المتغلبين من الفرس أو الديلم أو الترك ، والانتساب إلى آل بيت الرسول ﷺ أمضى سلاحه يصرفه الخوارج وأرباب الأطماع .

كان في حلب بنو حمدان وهم علوية ، وانقرض الأغالبة في المغرب فُدعي للفاطميين في رقادة من أرض القيروان سنة ٢٩٦هـ وهم ينتسبون إلى فاطمة ، وكل خارج على الدولة إنما كان يدعو الناس إلى الرضا من آل محمد ، وكان في تعاليم الشيعة ما يحفز الطامحين إلى شق العصا : كلٌّ يدّعي أنه الإمام المنتظر .

وأعظم النحل تسلطاً ونفوذاً يومئذ ثلاث : الباطنية والشيعة والحنابلة ، وهؤلاء الأخيرون انحصر سلطانهم في بغداد فترة من الزمن فقط ، بينما انبث دعاة الشيعة والباطنية في كثير من الأقطار . وكان أهول الجميع خطراً وأبعدهم أثراً القرامطة ، وهم طائفة مؤولة باطنية حلولية ، جعلوا للشرع ظاهراً وباطناً ، وبنوا مذهبهم على تأويل الأحكام والآيات . ظهروا سنة ٢٧٨هـ وانتشروا بالشام وسواد الكوفة ، ثم اشتد أمرهم حتى زحفوا على حمص ، وخضعت لهم دمشق على جزية ، ثم زحفوا إلى الكوفة وعظم خطرهم وتفاقم شرهم ، وعجز جند الخلافة عن إخضاعهم « وما زال أمرهم إلى قوة حتى استولوا على أكثر بلاد الفرات ، وأسسوا دولة بالبحرين ، ودحروا جيوش الخليفة المقتدر ، وثارت منهم طائفة في نواحي الحجاز ، فانقطع الحج سنين خوفاً منهم . ولما أرسل إليهم المقتدر جيشاً بقيادة منصور الديلمي دحروه وقتلوا الحجاج يوم التروية في المسجد الحرام قتلاً ذريعاً ، وطرحوا القتلى في بئر زمزم ، واقتلع زعيمهم الحجر الأسود من مكانه في الكعبة ، وأخذه معه إلى

هجر حيث بقي اثنين وعشرين عاماً حتى رد إلى مكانه أيام المطيع العباسي سنة ٣٩٣ » .

ذكر المعري في رسالة الغفران : « أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام ، ويقولون للهمج والطغام : « هذه الفرس لركاب المهدي يركبه متى ظهر » . وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل ، وتوصل إلى المملكة وتضليل . ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم لما حضرته المنية ، جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس بالموت : « إني قد عزمت على النقلة ، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمداً ، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء » فعليه اللعنة ، لقد كفر أعظم الكفر الساعة التي يؤمن فيها الكافر ، ويؤوب إلى آخرته المسافر » .

نجد أن القرامطة أخذوا بالحلول والتناسخ المتسربين إلى المسلمين من الهند وفارس ، وشاركوا بعض فرق الشيعة فكرة الإمام المنتظر ، وأصبح من ديدن كل داعية إلى ثورة أو خروج على سلطان ، أن ينتسب إلى علي رضي الله عنه ، أو يدعو إلى الرضا من آل محمد إن تعذرت عليه النسبة مباشرة وكثر هؤلاء الدعاة والخارجون ، وفشت فاشيتهم حتى امتلأت حوادث تلك الأيام بذكرهم . وكان سقوط هيبة الخلافة وانحسار العصبية العربية من أهم العوامل في كثرة تلك الطوائف والانقسامات . وأصبحت الدنيا في كل مكان لمن غلب ، وقام المتغلبون وجنودهم بضروب من المناكر أنفدت صبر البقية الصالحة ، فثار في بغداد جماعة من الحنابلة ، واضطرمت قلوبهم بالغيرة على الدين من أن تنتهك محارمه ، فأجمعوا أمرهم وانتظموا معسكرات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بالقوة والسلاح واستفحل شأنهم وقويت شوكتهم ، حتى صاروا يكبسون بين القواد والعامة فحيثما « وجدوا مسكراً أراقوه ، أو مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء » . ولم يطل بهم الزمان حتى أذعنوا لمؤثرات العصر ، فتسرب إلى جماعات منهم أقوال هي إلى الحلول والتشبيه ، واندس في غمارهم ـ على ما يظهر ـ أناس ليسوا منهم فعظمت أذيتهم على الناس ، فتقدم إليهم الخليفة بالإنذار فما أذعنوا فاضطر إلى قمعهم بالقوة

وإراحة الناس منهم .

هذا إلى أناس كثيرين جعلوا الدين وسيلة إلى الدنيا يتاجرون به متاجرة ، فيوماً تراهم معتزلة ويوماً شيعة ؛ وحيناً باطنية وحيناً حلولية يقولون بالتناسخ ، يميلون مع الريح حيث مالت ، ويعرضون في كل سوق ما يروج فيها ، لا يرجعون إلى عقيدة ولا يصدرون عن إيمان ، بل هم أبداً متقلبون ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران ٣/ ١٦٧] .

* *

تلك هي حال الدين في عصر أبي الطيب وفي البلاد التي فيها . فما ظنكم بفتىً دون العشرين من عمره ، يتوقد ذكاء ويتفجر فصاحة ، طماح مغامر ، يعشق السيادة ، وينشد المجد قوته ، التفت حوله فما رأى إلا جماهير بلا عقل ، تتبع كل ناعق عليهم رؤساء جهال ، لا علم لهم ولا فضل ولا أدب ، ما فيهم على كثرتهم من يقاربه في ذكائه ومواهبه وعظم نفسه ، ثم أبصر سوق الدعوات رائجة كل الرواج ، وكان في طبيعة كثير منهم ما يدعو الطامح إلى محاولة السيادة عن طريق الدين .

شاء هذا الفتى أن يقيم نسبةً بين دعوتهم ودعوته تتسق هي والفرق بينهم وبينه ، فإذا كان فيهم من ادعى أنه الإمام المنتظر ، أو المهدي ، أو الرضا ، فإن النسبة تقضي أن يدّعي النبوة دفعة واحدة ، وقد فعل .

ولا مندوحة لي هنا عن القول بأن تنبؤه في الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشك فيه[1] ، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة ، حتى التي كانت تميل إليه

---

(١) قرأت أخيراً عدد المقتطف الذي كتبه الأستاذ شاكر عن المتنبي خاصة ، فإذا به يذهب إلى نفي تنبؤ أبي الطيب الذي اتفقت عليه كل المصادر تقريباً . وقد أنعمت في تدبر الأسباب الحادية على النفي فلم أجد فيها مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة .
والتاريخ لا يثبت خبراً أو ينفيه تبعاً لميل مؤلف أو رأيه ، ولا بد فيه حال النفي من التعرض لجميع الأخبار المثبتة بالتوهين ، خبراً خبراً . وهذا لم يصنعه الأستاذ شاكر .
وأمر ادعاء المتنبي العلوية ليس فيه ما يهيج عليه الناس كل هذا ، على رغم ذلك الخيال الجميل الذي لبس ادعاءه إياها في الكتاب المذكور . =

كل الميل ، فإنها لم تنف الأمر ، وإنما التمست له المعاذير . وما كان أغناها عن ذلك ، فإن في السن التي وقعت فيها هذه الزلة العذر كل العذر ؛ وليس من الإنصاف أن نلمز حياة خمسين سنة من أجل هناة كانت في سن الفتوة . فلأشرع في ذكر هذا التنبؤ بإيجاز ، ثم لأفض في علاقة الرجل بالدين مدى حياته . وسأعتمد في قص الحادث على أبي العلاء خاصة ، لفضله وتحريه وقرب زمانه . وسأعفي نفسي من أشياء كثيرة وردت في (الصبح المنبي) لا يقبلها عقل ولا تؤيدها قرائن .

وقع المتنبي إلى بادية السماوة وأظهر دعوته ، فتبعه قوم من الأعراب من بني كلب ، خلبهم بذلاقة لسانه ، وحسن بيانه . وتلا عليهم كلاماً زعم أنه أنزل عليه . نقله الأنباري في طبقاته عن أبي علي بن حامد قال :

« وكان قد تلا على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه . فكانوا يحكون له سوراً كثيرة نسخت منها سورة ثم ضاعت وبقي أولها في حفظي وهو : « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار . امض على سننك واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله » .

وقد حفظ لنا التاريخ مشهداً من مشاهد هذه الدعوة في اللاذقية ، ولا ريب أنه كان بعد أن توثق أمر المتنبي بعض التوثق في البادية . قال أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي :

= وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً ، ففيم كان خجل أبي الطيب وحياؤه كلما سئل عن أمر لقبه (المتنبي) ؟ ولم كان يعمد إلى اشتقاقه من النبوة تارة ، ويعتذر بأنه شيء كان في الحداثة تارة ، ويقول : إنه يكره التلقب به ، وأنه يناديه به من يريد الغض منه ؟ وعلى أي شيء تقع كلمة كافور « من ادَّعى النبوة بعد محمد أما يدعي الملك مع كافور » ؟ وكافور ليس من الذين يختلفون على الشاعر ولا ممن يروج الاختلاق .

وقد روى المعري ـ وهو الحجة الأثبت ـ أمر التنبؤ وما حف به من حادث ومعجزات ، في (رسالة الغفران) ، وأبو العلاء كان أحرى أن يشك أو يكذب الخبر لو أن في الأمر مجالاً للشك واحتمالاً للتكذيب ، لأنه أشد حباً للمتنبي وعصبية له ، وهو أنفذ بصيرة فيما يقال وأحكم نقداً للأخبار مع قرب زمن وصفاء ذهن ، وقوة حجة ، ومواتات وسائل التحقيق إذ ذاك .

« قدم أبو الطيب المتنبي اللاذقية في سنة ٣٢٠هـ وكان عمره يومئذ سبع عشرة سنة وهو لا عذار له ، وله وفرة إلى شحمتي أذنيه ، فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته ؛ فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت له : « والله إنك لشاب خطير ، تصلح لمنادمة ملك كبير » . فقال :

« ويحك! أتدري ما تقول ؟ أنا نبي مرسل » . فظننت أنه يهزل ، ثم تذكرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له : « ما تقول ؟ » فقال : « أنا نبي مرسل » .

فقلت له : « مرسل إلى من ؟ » .

قال : « إلى هذه الأمة الضالة » .

قلت : « تفعل ماذا ؟ » .

قال : « أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جَوْراً » .

قلت : « بماذا ؟ » .

قال : « بإدرار الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الأعناق لمن عصىٰ وأبى » .

فقلت له : « إن هذا أمر عظيم أخاف عليك منه أن يظهر » وعذلته على ذلك فقال بديهاً :

أبـا عبـد الإلـه معـاذُ إنّـي ... خفـيٌّ عنـك فـي الهيجـا مَقـامـي
ذكـرت جسيـم مطَّلبـي وأنّـا ... نُخـاطـر فيـه بـالمُهَـج الجِسـام
أمثلـي تـأخـذُ النّكبـاتُ منـه ... ويجـزعُ مـن مـلاقـاة الحِمَـام
ولـو بـرزَ الـزَّمـانُ إلـيَّ شخصـاً ... لخضَّـبَ شعـرَ مفـرِقِـه حُسـامـي
ومـا بلغَـتْ مشيئتَهـا اللّيـالـي ... ولا سـارَتْ وفـي يـدهـا زمـامـي
إذا امتـلأت عيـونُ الخيـل منّـي ... فـويـلٌ فـي التَّيقُّـظ والمنـام

بهذه القوة والاطمئنان يتحمس المتنبي لنصرة دعوته ويحاول تمكينها من

القلوب ، فلنصغ إلى أبي العلاء المعري في (رسالة الغفران) يحدث عن معجزات نسبت إلى أبي الطيب ، قال :

« وحدثت أن أبا الطيب لما حصل في بني عدي وحاول أن يخرج فيهم قالوا له وقد تبينوا دعواه :

« ههنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك نبي مرسل ، وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل ، فتحيّل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة ، وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشي السمحة ، وأنه ورد بها الحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم .

وحدث أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته ، وقال للمجروح : لا تحلها في يومك ، وعد له أياماً وليالي ، وأن ذلك الكاتب قبل منه ، فبرئ الجرح ، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ويقولون : هو يحيي الأموات .

وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل ، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل لقي الأمر على ما ذكر .

ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئاً من المطاعم مسموماً وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل » . اهـ .

هذا ما ذكر المعري من معجزاته ، وقد ذكر غيره معجزات أخر نضرب عنها صفحاً ، لبعدها عن العقل ، ولأن راويها ليس في التثبت بمكان أبي العلاء .

وفي (ديوان أبي الطيب) قصيدتان قالهما في صباه ، تفيضان أملاً وطموحاً وكفاحاً ، وأنا أجعل زمانهما فترة التنبؤ هذه ، حين كانت نفسه تجيش بأبعد المطامع وتوقن بالفوز والنجاح . لما وجد تلكؤ الناس عن إجابة دعوته في نخلة ـ إحدى قرى

بني كلب ـ ومظاهرته بالعداء ، عزم على المضي بأمره وتحمل الأذى ، ورسم لنفسه هذه الخطة الواضحة في قصيدته :

مـا مُقَامـي بـأرضِ نخلـةَ إلاّ كمُقَـامِ المسيـح بيـنَ اليهـود
مفـرشـي صهـوةُ الحصـان ولكـنّ قميصـي مسـرودةٌ مـن حـديـد
أيـنَ فضلـي إذا قنعـتُ مـن الـدّهـ ـر بعيـشٍ معجّـل التنكيـد
ضاق صـدري وطـال فـي طلب الرِّزْ قِ قيـامـي وقـلَّ عنـه قعـودي
أبـداً أقطـعُ البـلادَ ونجمـي فـي نحـوسٍ وهمَّتـي فـي سُعُـود
عـشْ عـزيـزاً أو مُـتْ وأنـتَ كـريـمٌ بيـنَ طعـن القنـا وخَفْـقِ البنـود
فـاطلـبِ العـزَّ فـي لظًـى ودَعِ الـذُّ لَّ ولـو كـان فـي جنـانِ الخلـود
إن أكـن مُعجبـاً فعجْـبٌ عجيـبٌ لـم يجـدْ فـوقَ نفسـه مـن مـزيـد
أنـا تِـربُ النَّـدى وربُّ القـوافـي وسِمـامُ العـدا وغيـظُ الحسـود
أنـا فـي أمـةٍ تـداركَهـا اللـّ ـهُ غـريـبٌ كصـالـحٍ فـي ثمـود

ولما رزقت دعوته بوارق من الإقبال في بني كلب سكر بنشوتها وطفقت نفسه تحدثه بقرب تحقيق الأمنية ، ثم استهل خياله يبني له هذا المجد حتى أنس من نفسه قوة وتحفزاً ، فراح يتحدث بإنفاذ ما رسم من خطة ، ولو وقفت دونه ملوك الأرض إلى أن تتم دعوته ويسود الناس . إن شئت فانظر في هذه الأبيات أهي لهجة شاعر يفتخر ، أم إيمان طماح واثق من نفسه كل الثقة :

سيصحـبُ النَّصـلُ مني مثـلَ مضـربِـهِ وينجَلـي خبـري عـن صِمَّـةِ الصِّمـم
لقـد تصبَّـرتُ حتـى لاتَ مصطبـرٍ فـالآن أُقْحـمُ حتـى لاتَ مُقْتحـم
لأَتْـرُكَـنَّ وجـوهَ الخيـل سـاهمـة والحـربُ أقومُ مـن سـاقٍ علـى قـدم

وما قولك فيمن سيغني الأرض بالدماء عن الأمطار :

تُنْسـي البـلادَ بـروقَ الجـوِّ بـارِقَتـي وتكتفـي بـالـدَّمِ الجاري عـن الـديـم

ويخاطب نفسه هذا الخطاب الناري، مشجعاً إياها، مهوناً عليها أمر الناس فيقول :

رِدِي حياضَ الرَّدىٰ يا نفسُ واتَّركي حيـاضَ خـوفِ الـرَّدى للشّـاءِ والنَّعم
إن لـم أَذَرْكِ علـى الأرمـاح سـائلـة فـلا دعيـتُ ابـنَ أمِّ المجـد والكـرم

ثم انظر هذا الإنذار الشامل والوعيد الرهيب لأهل الأرض وملوك العجم والعرب :

ميعـادُ كـلِّ رقيـقِ الشفـرتيـن غـداً ... ومن عصىٰ من ملوك العُرْب والعَجَمِ

فـإن أجـابـوا فمـا قصـدي بهـا لَهُـم ... وإن تـولَّـوْا فمـا أرضـىٰ لهـا بِهِـم

هذه نفثة نفس جائشة تسلحت باليقين ورأت الخيال يلوح لها بقوة الحقيقة الواقعة، مؤمن بالفوز ، واثقة من كفاءته واضطلاعها بالأمور الجسام . وما أظن أبا الطيب حين قال هذه القصيدة كاذباً في نفسه ، لا بل كان يحدث عنها أصدق الحديث ، وإنما كان مخدوعاً ثائراً يريه شبابه الفائر ومواهبه المتقدة السراب ماء ؛ فذهب يصف ما تريه نفسه . وإلا فكيف تكون القصيدة أقوى ظهوراً منها فيما تلوت من شعره .

تبعت أبا الطيب شراذم من عامة وأعراب ، ثم نمى خبره إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية . وأنه يخشى أن يستفحل أمره « فخرج إليه لؤلؤ ، فقاتله وأسره وشرَّد من كان معه من بني كلب وغيرهم من قبائل العرب . وحبسه في السجن دهراً طويلاً حتى كاد يتلف ، فكانت حاله إلى الضَّرَاعة والاستكانة . وكانت هذه الضربة كافية في إعادة رشده إليه وفي يقظته من حلمه اللذيذ الذي نعم به زمناً يسيراً فاستفاقت تلك النفس التي كانت تهذي في حلمها وتقول :

إذا امتـلأت عيـون الخيـل منـي ... فـويـلٌ فـي التيقـظ والمنـام

وتقول :

ميعـادُ كـلِّ رقيـق الشفـرتيـن غـداً ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم

وهبطت من عليائها إلى أسفل الدركات فقالت :

أمـالـك رقِّـي ومـن شـأنُـهُ ... هِبـاتُ اللجيـن وعِتْـقُ العبيـد

دعـوتُـكَ عنـدَ انقطـاع الـرَّجـا ... ءِ والمـوتُ منـي كحبـل الـوريـد

ثم سئل لؤلؤ في أمره فاستتابه وكتب وثيقة وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأطلقه . وبهذا انطوت صحيفة من تاريخ أبي الطيب في صباه ، على نزوة خلدها التاريخ على قلة ما يسجل للصبيان من نزوات .

* * *

لم يفد أبو الطيب من مغامرته هذه إلا لقب (المتنبي) الذي لصق به على كره منه ، فكان يستحي بعد توبته كل الاستحياء .

ذكر عنه المعري أنه سئل عن حقيقة هذا اللقب فقال : « هو من النَّبْوة أي المرتفع من الأرض » ولما كان في بغداد قال له أحد الأكابر : « خبرني من أثق به أنك قلت : إنك نبي ؟ » فقال أبو الطيب : « الذي قلته : أنا أحمد النبي » .

قال أبو علي بن حامد : « كان المتنبي في مجلس سيف الدولة : إذا ذكر له قرآنه أنكره وجحده ، وقال له ابن خالويه يوماً في مجلس سيف الدولة : « لولا أن أخي جاهل لما رضي أن يُدعى بالمتنبي ، لأنه معنى المتنبي كاذب ، ومن رضي أن يدعى بالكذب ، فهو جاهل . فقال أبو الطيب : لست أرضى أن أدعى بذلك وإنما يدعونني به من يريد الغض مني ، ولست أقدر على المنع » .

ونقل صاحب طبقات الأدباء ص٣٧١ عن التنوخي قال : قال لي أبي : « أما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبي لأني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أو لا ؟ فجاوبني جواب مغالط وقال : « إن هذا شيء كان في الحداثة ، فاستحييت أن أستقصي عليه فأمسكت » .

وزعم جماعة أن اللقب لصق به لتشبهه بالمسيح مرة ، وبصالح مرة في أبياته التي مرت .

وكيفما كان فإن الذين عاشوا في زمن المتنبي وبعده مجمعون على ادعائه النبوة ، وكان هو يجهد أن ينفي التهمة في حياته خجلاً وحياء . وليس بين الأمرين تناقض ولا داع إلى حيرة . وقد كان هذا اللقب على أبي الطيب من أشد ما كابد في حياته : فقد منعه كافور الولاية بسببه ، ولما عوتب قال : « يا قوم ، من ادَّعى النبوة بعد محمد ﷺ ألا يدعي الملك مع كافور ؟ فحسبكم » .

وكلما أراد عدو أو شاعر إيلام المتنبي هجاه ونبزه بهذا اللقب .

* * *

أنتقل الآن إلى الكلام عن اعتقاد أبي الطيب ، وهو الموضوع الذي زلت فيه أقدام

كثيرين ، إما لميل إلى الرجل أو عليه ، وإما لاكتفائهم من البحث بأدنى نظرة ، وتعلّقهم بظاهر من القول دون نفاذ إلى حقيقته ولا تطلع إلى ما حف به من قرائن . والحيطة في هذا ضرورية لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربي وخاصة في عصر كعصر أبي الطيب فشا فيه المدح والغلو والتلاعب بالألفاظ ، وأصبح كل مادح على مذهب ممدوحه في الأغلب ، فإن كان شيعياً أشاد الشاعر بسراة الشيعة ، ورفع من مقالتهم ، وإن كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليه ، وإن كان معتزلياً أو سنياً فالشاعر معتزلي أو سني . . وهكذا دواليك .

فشت هذه الظاهرة من النفاق في الناس ، وكانت أشد ما تكون في الشعراء ، حتى لقد شهد المعري عليهم وعلى عصرهم بذلك ؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المعرة ، فقد أيدها بالدليل ، وأرسل فيها قولاً حكيماً يعرف رشده وصوابه كل من أمعن الفكرة ، ولم يكتف بالنظرة . قال بعد أن ذكر تنبؤ أبي الطيب والأبيات تدل على تألهه :

« وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً ، وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض ؛ ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون . وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ، وإنما غرضه التكسب ؛ ولا أرتاب في أن دعبلاً كان على رأي الحكمي[1] وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة » .

وقال في موضع آخر : « وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ، وكان لهم (يعني القائلين بالتناسخ) في المغرب رجل يعرف بابن هانئ ، وكان من شعرائهم المجيدين ، فكان يغلو في مدح المعز غلواً عظيماً حتى قال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقَّادة :

---

(١) قلت : الحكمي : هو أبو نواس الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء . وهو شيخ الشعراء الزنادقة . مات سنة ١٩٨هـ .

حــلَّ بــرقَّــادة المسيــحُ حــلَّ بهــا آدمٌ ونــوحُ
حــلَّ بهــا الله ذو المعــالــي وكــلُّ شــيءٍ ســواه ريــح »

فمن الضلال البين إذن أن نلزم أبا الطيب عقيدة ذكرت في شعره عرضاً ، إلا إذا صحبتها قرائن تقويها وتدل على اعتقاده إياها . وليس من الصواب في شيء اعتبار الشعر ـ وحاله ما بيّنا ـ مصدراً من مصادر التاريخ . وما أجهل المؤرخ إذا حكم على أخلاق سيف الدولة أو كافور بشهادة شعر المتنبي فيهما .

بهذا الحذر أخوض الكلام في اعتقاد المتنبي مع علمي بأنه لم ينظم شيئاً يبيّن فكرته في الدين خاصة ، وإنما هي أبيات وقعت في جملة شعره ، بوسع المؤرخ أن يستأنس بها بعد أن يدرس سيرته .

جاء في (خزانة الأدب) للبغدادي كلام عن اعتقاد أبي الطيب منقول عن الأصفهاني وهذا نصه :

« وهو (أي أبو الطيب) في الجملة خبيث الاعتقاد ؛ وكان في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضلّه كما ضلَّ . وأما ما يدل عليه شعره فمتلوّن ، وقوله :

هَــوّنْ علــى بصــرٍ مــا شَــقَّ مَنْظَـرُهُ فــإنَّمــا يَقظــات العيــنِ كــالحُلَــمِ

مذهب السوفسطائية .

وقوله :

تمتّــع مــن سُهــادٍ أو رقــادٍ ولا تــأمــلْ كــرًى تحــتَ الــرِّجــام
فــإنَّ لثــالــث الحــاليــن معنــىً ســوى معنــى انتبــاهــك والمنــام

مذهب التناسخ . وقوله :

نحــنُ بنــو الــدُّنيــا فمــا بــالنــا نعــافُ مــا لا بــدَّ مــن شُــرْبــه
فهــذه الأرواحُ مــن جَــوّه وهــذه الأجســامُ مــن تُــرْبــه

مذهب القضائية . وقوله [في أبي الفضل بن العميد]

فــإن يكــنِ المهــديُّ قــد بــانَ هــديُــه فهذا، وإلا فالهدى ذا، فما المهدي ؟!

مذهب الشيعة (كذا) . وقوله :

تخالفَ النّاسُ حتى لا اتِّفاقَ لهم إلا على شَجَبٍ والخُلْف في الشَّجَبِ
فقيل : تخلُدُ نفسُ المرءِ باقيةً وقيل : تشرَكُ جسمَ المرءِ في العَطَبِ

مذهب من يقول بالنفس الناطقة . ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية ، والإنسان إذا خلع ربقة الإسلام من عنقه وأسلمه الله عز وجل إلى حوله وقوته وجد في الضلالات مجالاً واسعاً ، وفي البدع والجهالات مناديح وفُسَحاً »[1] اهـ .

فأبو الطيب في رأي هذا الفاضل : سوفسطائي ، تناسخي قضائي شيعي حشيشي . . مجموعة مذاهب لو فُرقت على مملكة عريضة لخربتها في يومين ؛ فما الحال إذا اضطلع بها كلها قلب رجل واحد ؟

على أن الشواهد التي استند إليها في أحكامه هذه لا تحمل ما حمّلها : فالشاهد الثاني (تمتع من سهاد . . البيت) ليس فيه ما يصرح بالتناسخ . وقوله : « فإن يكن المهدي . . . » يخرجه من الشيعية إخراجاً ، لأنه شك في المهدي أول البيت ، ثم جعل ممدوحه هو المهدي إن كان هناك مهدي ، ثم ختم البيت بهذا الاستفهام التهكمي : ما المهدي!! ؟

والشاهد الأخير (تخالف الناس . . البيتين) يدل على تردد أبي الطيب بين القولين ، وعلى شكه وحيْرته بدليل البيت الذي بعدهما :

ومن تفكَّرَ في الدنيا ومهجتِهِ أقامه الفكر بين العجز والتعب

والذي استفدناه من كل ذلك أن المتنبي وقع في حداثته إلى رجل من المتفلسفة فهوّسه وأضلّه ، والظاهر أن أثر هذا الأستاذ كان في أبي الطيب بالغاً ، فقد بقي ضعف العقيدة وعدم الاعتداد بآداب الدين ملازماً أبا الطيب حتى مات .

ومهما يكن فقد ألم المتنبي بكثير من النحل الشائعة في عصره دون اعتقاده بواحدة ما . وذكر بعضها في شعره منزّلة خير تنزيل : مدح طاهراً العلوي مرة فقال :

إذا علوي لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجةٌ للنَّواصب

---

(١) قلت : انظر الخزانة ٢/٣٤٨-٣٤٩ . وما بين الحاصرتين استدركته منه .

والنَّواصب الخوارج الذين نصبوا العداء لعلي .

وذكر المانوية أصحاب الاثنين الزاعمين أن الخير كله من النور وأن الشر كله من الظلام فقال :

وكم لظلامِ اللّيلِ عندك من يدٍ تخبّر أن المانوية تكذبُ

وعرض لذكر المجوس ومذهبهم في نكاح الأخوات حين أراد الثناء على حسن امرأة ود أخوها لو كانت تحل له لفرط جمالها فقال :

يا أختَ معتنقِ الفوارس في الوغى لأخوك ثَمّ أرقُّ منك وأرحم
يرنو إليك مع العفاف وعنده أنَّ المجوسَ تصيبُ فيما تحكم

ووقع في شعره ذكر كلمة يصحّ أن يتعلق بها من يريد جر أبي الطيب إلى طائفة ما ، هي كلمة (الوصيّ) في قوله :

هو ابن رسول الله وابن وصيّه وشبههما شبهت بعد التجارب

وقوله :

وتركت مدحي للوصي تعمّداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا

وقد فرغت من بيان أن مثل هذا لا يدل على شيء ، ولا ينهض دليلاً ولا بعض دليل ، لجريان عادة الشعراء بمجاراة الممدوح في عقيدته ورأيه .

**

وبعد ، فإن لم يكن للحكم على دين المتنبي مجال في شعره ، ففي تلك الشناعات القبيحة التي زجه فيها الغلو في المدح حتى قل أدبه مع الله ومع رسله وكتبه ، حين زعم لممدوحيه علواً يرفعهم إلى ذلك المستوى . والمدح متى جاوز الواقع فهو محظور في كل الأديان ، فكيف إن كان بالباطل وإلى التغالي ؟ . دع ما يريق من ماء وجه المادح ، وما يكسر من عزته ، ويضيع من كرامته . ومتى كان مسلماً من لا حياء له ولا عزة ولا كرامة ؟

وددت ـ والله ـ لو أن شعراءنا هجروا هذا الباب ، باب المديح ، مرَّة واحدة بمحاسنه ومقابحه ، وشُغلوا عنه بغيره من فنون القول الواسعة ، فما هو بالفن

المشرف ولا المأسوف عليه إن فقد . وقد حفظ الأدب العربي كثيراً من المبالغات الممقوتة والغلو الشنيع ، ولكن ما في ديوان أبي الطيب وحده هو بكل ما في مكتبتنا قبحاً وشناعة وإساءة أدب :

مرة يحاول السجود لممدوحه فلا يكفه إلا الزجر :

طلبنـــا رضـــاهُ بتـــرْكِ الـــذي رضينـــا لـــه فتـــركْنَـا السُّجــودا

ومرة يشرك هذا الممدوح بالله فيقول :

مـــا يـــرتجـىٰ أحـــدٌ لمكـــرمـــة إلا الإلـــه وأنـــت يـــا بـــدْرُ

ويقول :

تـرى القمـرَ الأرضـيَّ والملـك الَّـذي لـه الملـكُ بعـد الله والمجـدُ والـذكـرُ

ويقول :

إذا بقيـــت ســـالمـــاً أبـــا علـــيّ فـــالملـــك لله العـــزيـــز ، ثـــم لـــي

ويقول :

أنـــا مبصـــرٌ وأظـــن أنّـــي نـــائـــمٌ مـــن كـــان يحلـــم بـــالإلـــه فـــأحلمـــا

ويقول :

تتقـــاصـــرُ الأفهـــامُ عـــن إدراكـــه مثـــل الـــذي الأفـــلاك فيـــه والـــدنـــا

يعني الله سبحانه . ويستخف تارة بالمصطلحات الدينية استخفافاً ظاهراً فيقول :

يتـــرشَّفْـــن مـــن فمـــي رشفـــات هـــنَّ فيـــه أحلـــى مـــن التـــوحيـــد

وقد أرادوا تأويل هذا البيت فكان التكلّف والتعسّف ظاهريْن في تأويلهم . وقال :

وأُعطيـــتَ الـــذي لـــم يُعـــطَ خلـــقٌ عليـــك صـــلاةُ ربّـــك والســـلام

وجعل ممدوحه أعظم معجزات النبوة في قوله :

وأبهـــرُ آيـــات التّهـــامـــي أنَّـــه أبـــوك وأسمـــى مـــا لكـــم مـــن منـــاقـــب

وهو لا يرى لممدوحه شبيهاً أبداً فيقول :

لـم يخلـقِ الـرحمـنُ مثـلَ محمـدٍ   أبـــداً وظنِّـــي أنـــه لا يخلـــق

ويقول :

إن كـان مثلـك كـان أو هـو كـائـن   فبـرئـــتُ حينئـــذ مـــن الإســـلام

وانظر هذا الغلو الممقوت في قوله :

لـو كـان علمـك بـالإلـه مقسمـاً   فـي النـاسِ مـا بعـثَ الإلـهُ رسـولا
لـو كـان لفظُـك فيهـمُ مـا أنـزل الـ   ـقـــرآن والتـــوراة والإنجيـــلا

وفي قوله :

أو كـان صـادفَ رأسَ عـاذر سيفـه   فـي يـوم معـركـةٍ لأعيـا عيسـى
أو كـانَ لـجَّ البحـر مثـل يمينـه   مـا انشـق حتـى جـاز فيـه مـوسـى
يـا مـن يلـوذ مـن الـزمـان بظلـه   أبـداً وتطـرد بـاسمـه إبليسـا

وهذا الهذيان ما معناه ؟

يـا أيهـا الملـكُ المصفّـى جـوهـراً   من ذات ذي الملكوت أسمىٰ من سما
نـور تظـاهـر فيـك لا هـو تِيُّـهُ   فتكـاد تعلـم علـم مـا لـن يعلمـا

وهو حيناً كالمسيح (ما مقامي بأرض نخلة . . . البيت) وحيناً كصالح (أنا في أمة . . . البيت) ولا يخجل بعد هذا الادعاء أن يضرع إلى من سجنه بهذه العبودية :

أمـالـك رقـي ومـن شـأنـهُ   هبـاتُ اللّجيـن وعتـق العبيـد

هو من حداثته مهووس مضلّل ، لم يستنر قلبه بنور عقيدة ، ولا شعر صدره ببرد يقين . فلم ينشأ تنشئة دينية في صباه ، ثم طرح إلى هموم الحياة وأتعابها فاضطر إلى التكسب بالمدح من صغره ، وشُغل عن عبادة الله والتدين بعبادة الناس والمال لهذا السبب ، لا « لأنه صاحب مطامع دنيوية وعقل موكل بالأعمال والوقائع لا بالعقائد والعادات »[(١)] فليس هناك تناف بين التوكيل بالأعمال والتدين ، ولم يخل المتدينون

---

(١) كلمة الأستاذ العقاد في كتابه مطالعات ص١٢١ .

يوماً عن مآرب ومطامع في هذه الحياة .

وهذا وليس للمتنبي فلسفة إلهية حتى نقول : إنه استهان بالدين تفلسفاً ؛ وليس لعقله ما لعقل أبي العلاء من مواهب تؤهل صاحبها للنظر والحكم في المقالات والمذاهب ، بل هو في هذا الاستخفاف الذي نم عليه شعره لا يترفع كثيراً عما نرى عليه بعض العامة المستخفين .

* *

كان إلى جانب المحن والثورات الداخلية التي مني بها المسلمون في القرن الرابع غارات أجنبية متواصلة تشن على ثغور المسلمين ؛ وكان أمراء العرب في تأهب مستمر لرد هذه الغارات فيظفرون تارة وتارة يغلبون ، وسيف الدولة أحد هؤلاء الأمراء الذين أصْلَوا الروم بنيرانهم وشُغلوا بردّ غاراتهم .

ونزعة الحروب في الشرق ـ قديماً وحديثاً ـ دينية أبداً ما تغيرت يوماً من الأيام ، إلا أن الروم كانوا في القرن الرابع الهجري صريحين ، لم يهتدوا بعد إلى هذا الطلاء الكاذب الذي أسموه تمديناً بعد عشرة قرون[1] .

وشاعرنا أبو الطيب شارك سيف الدولة في جهاده الديني ، فقاتل بجسمه ، وتعرض للخطر ، وناضل بلسانه . وفي شعره من مواطن الغيرة على الدين وأهله من تسلط الروم ما يحمل المنصف على عدها في حسناته ، كان يرى هذه الحروب كما كان يراها غيره من أهل زمانه وكما هي في الواقع ـ دينية لا قومية ، وهذا هو الفارق بينها وبين حروب سيف الدولة مع خصومة من الأمراء . فكانت قصائد أبي الطيب التي يصف فيها هذه الحروب تطفح بالحمية الدينية والنزعة الإسلامية ، فهو يثني على سيف الدولة الذي هزم الدمستق وأنقذ المسلمين من إكراه الروم لهم على الردة فيقول :

فخـــرُّوا لخـــالقهـــم سجّـــداً ولـــو لـــم تُغـث سجـدوا للصُّلُـب

---

(١) ومع هذا فقد قال الجنرال اللنبي حين دخل القدس فاتحاً : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وناهيك بها صراحة فاضحة .

ولم تعجبه هدنتهم مع الروم فقرعهم ومدح سيف الدولة لتدينه فقال :

أرى المسلمين مع المشركـ ـين فإمَّا لعجز وإما رهب
وأنت مع الله في جانبٍ قليلَ الرّقاد كثيرَ التعب

ومن هنا تلقيبه سيف الدولة بسيف الرب وسيف الدين في أقواله :

أيا سيفَ ربِّك لا خلقِه ويا ذا المكارم لا ذا الشطب

* *

يا سيف دولة دين الله دم أبداً وعش برغم الأعادي عيشةً رغدا

* *

خَضَعَتْ لمنصلك المناصلُ عنوةً وأذلّ دينك سائر الأديان

* *

ونعته بنفرته الشديدة من الردة وتعلقه بالإسلام فقال :

كأنَّ سخاءك الإسلام تخشى إذا ما صلت عاقبة ارتداد

وهو رجاء الإسلام والموقى من الرحمن ونصير التوحيد :

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا وراجيك والإسلامِ أنك سالم
ولمْ لا يقي الرحمن حدَّيك ما وقىٰ وتفليقُهُ هامَ العدا بك دائم

أبو الطيب يذهب أبعد من هذا : لا يكتفي باستنكار سلطان الروم على قومه ، بل يأنف لهم أن يحكمهم مثل كافور ، وإن كان مسلماً مثلهم ، ولا يرضيه سكوت الناس عليه ؛ ويغضبه أن يعظموه فيصرخ فيهم هذه الصرخة ويعرّض بأم كافور :

نوَيبيّة لم تدر أن بنيها الـ ـنوبي دون الله يعبد في مصر

ثم يرسلها ملعلعة تتنزى بالألم والحسرة والأسف على ما صار إليه الإسلام فيقول :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم

رحم الله أبا الطيب! ما تراه كان قائلاً لو بُعث اليوم فشاهد ما نشاهد! إذن لرأى هؤلاء الأعبد القزم شرفاء قياساً إلى غيرهم ، بل أنبياء .

* *

لصاحبنا إزاء ما تقدم من أبيات يأباها الدين والعقل ، أبياتٌ أخرى هي من صميم الدين وروحه ، يتقاضاني الإنصاف ذكر شيء منها كما ذكرت تلك ، فقد نص في بعضها على أنه لا يخضع لمخلوق أبداً :

تغـرّب لا مستعظمـاً غيـر نفسـه ولا قـابـلاً إلا لخـالقـه حكمـا

وقد جعله أبو العلاء بهذا البيت من المتألهين . ويعترف بتصرف الله المطلق في الكون :

ألا إنّمـا كـانـت وفـاة محمـد دليـلاً علـى أن ليـس لله غـالـب

وأن الله هو الملحوظ في كل فعل وحركة :

فـأنـت حسـامُ الملـكِ واللهُ ضـاربٌ وأنـت لـواءُ الـديـن والله عـاقـد

وهذا البيت ينظر إلى قول الله مخاطباً نبيه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال ٨/١٧] وهو يجعل شكر الله واجباً في دوام النعمة حين قال في ممدوحه :

مقلـداً فـوق شكـرِ الله ذا شطـب لا تستـدام بـأمضـىٰ منهمـا النِّعـمُ

وكما أبىٰ قبول الحكم من غير خالقه أبى الشكوى إلى الناس وهذا غاية ما يأخذ به الموحّد نفسه :

ولا تَشَـكَّ إلـى خلـق فتشمتـه شكوى الجريح إلى الغربان والرَّخم(١)

---

(١) نسب للمتنبي هذان البيتان :

أبعيـنِ مفتقـرٍ إليـك نظـرتنـي فـأهنتنـي وقـذفتنـي مـن حـالـق

لسـت الملـومَ ، أنـا الملـوم لأننـي أنـزلـت آمـالـي بغيـر الخـالـق

وهما وإن كانا في الجملة والمذهب يؤيدان بيت المتنبي المذكور ـ بعيدان ـ في رأيي ـ عن روحه ، فلم يألف أبو الطيب الاعتراف بإهانة نفسه وقذفها من حالق .

ولنذكر أن صاحب دمشق وكان يهودياً يعرف بابن ملك حمل المتنبي على مدحه فأبى أنفة ، وكذلك فعل مع ابن كيغلغ وكان رومياً .

هذا ما رأيت في شعر أبي الطيب من تعلّق بالدين سلباً أو إيجاباً ، ذكرته على حقه بحرية وصراحة . أما سيرته العملية فقد ذكروا له أخلاقاً يحمده عليها الدين ، وهي عفة المذهب والصدق .

وقد كان المتنبي ـ كما ذكروا ـ لم يؤثر عنه فسوق قط . وقوله :

إنـي علـى شغفـي بمـا فـي خُمْـرِهَـا لأَعِـفُّ عمَّـا فـي سـراويـلاتهـا . . إلخ

صحيح كل الصحة في الدلالة على عفته ، فقد أيدته سيرته طوال حياته . وكذلك في التزامه جانب الصدق :

ومن هوى الصدق في نفسي وعادته رغبت عن شعَر في الرأس مكذوب

ثم ذكروا له خلالاً ثلاثاً دلت على أن الرجل لم يأخذ نفسه بشيء من التكاليف الشرعية ، أي لم يكن مسلماً بالعمل . قال أبو حمزة البصري :

« بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة : هي أنه ما كذب ولا زنىٰ ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة وهي أنه ما صام ولا صلّى ولا قرأ القرآن » .

فإذا أضفت إلى ذلك ما تعرف في سيرته من البخل والتعاظم وسلاطة اللسان ، وأن له في القذف فحشاً ما عرف أقبح منه ولا أدنس ، استقام لك من كل ما قدمت رأي لعله أن يكون أقرب الآراء من صواب .

وأنا لست أقول فيه ما قالوا من أنه : « خبيث الاعتقاد قد خلع ربقة الإسلام » ولا أتكلف له التأويل والمحال ، فقد قدمت الإشارة إلى بطلان المذهبين معاً .

ولكني ألاحظ أنه شاعر ، والشاعر كثيراً ما يبيع دينه بدنيا غيره ، فإن خرج على الإسلام في غلوه فما قصد إلى هذا الخروج قصداً ، وإنما أراد الزلفى عند الممدوح ، فأداه الغلو إلى الخروج .

وليس من الحق أن نحكم على آخرة رجل بنزوة كانت منه في الحداثة ، أو

حماقات صدرت في فترات من حياته . ومن ذا زعم أن أبا الطيب كان يعتقدها اعتقاداً حتى نجعله بها صاحب مذهب في الدين ، وقد علمنا أن عقله لم يفرغ لهذا قط ؛ فمن سره أن يجر النوابغ المشهورين إلى طائفة بالسلاسل والأغلال ، يكثر بهم سوادها فما أراني مضطراً إلى شيء من هذا ، وقد فرغ أهل البصر من هلهلة هذه الطريقة التي سلكها بعض المؤلفين الحديثين في كتب التراجم جهلاً وعصبية ، فما هي إلى علم ولا إلى أمانة ، والحكم على دين رجل أبعد منالاً من أن يكتفى فيه بورود اسم هذا الدين في كلامه ، فما بالك إن كان ذكره له مجاراة أو حكاية أو رداً أو شتيمة ؟

وقد ذكر المتنبي في شعره هذه الديانات : المانوية ، المجوس ، اليهود ، النصارى . . . إلخ أفيستقيم في هذا الزمان أن ينهض منتسب إلى العلم فيعد أبا الطيب مانوياً أو مجوسياً ؟

إن العلم والأدب أمانة ، فلينظر قارئ في كتاب ما ترك مؤلفه من عقله وأمانته وما أخذ .

أما أنا فأستطيع الآن بعد ما قدمت من بحث تحريت فيه بجهدي ، ودعمته بما رأيت من برهان أن أرسل كلمتي مطمئناً في دين أبي الطّيب فأقول :

آمن لسانه وتخلّف عمله ، ولم يكن الدين همّه يوماً من الأيام .

حول نبوة المتنبي (١)

بحث نشر في الرسالة العدد ١٧٠ عام ١٩٣٦
وهو في كتاب (المتنبي) للأستاذ محمود محمد شاكر

كنت عائداً من جولة في قرى (البقاع) حين قرأت كلمة الأستاذ الفاضل محمود محمد شاكر في العدد (١٦٧) من الرسالة الغراء ، التي كتبها رداً على حاشية بحثنا في (دين المتنبي) المنشور في العددين (١٦١ ، ١٦٢) من المجلة المذكورة .

وكانت قراءتي لردِّه ، بعد عشرة أيام من صدوره . فإذا تأخرت في التعليق عليه ، فهذا عذري أبسطه للقراء الكرام ، وأنا أعوذ بالله من الغرور والذهاب بالنفس ، ومن الجهل بمقدارها ، والمكابرة في العلم ، والعصبية للرأي والهوى ، فما يزال الناس ـ ولله الحمد ـ يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق وإتقانه لعمله ، لا بدعواه وتبجُّحه . وقد ولَّى زمن كان فيه الولوع بالإغراب والإتيان بالجديد ـ ولو تافهاً ـ سبيلاً إلى الشهرة وذيوع الصيت ، وأقبل زمان فيه للتفكير حُرمة وللعقل وزن ، وكُفِي فيه المؤلفون مَؤُونة الثناء على النفس ، والتحدُّث إلى القراء بمزايا آثارهم وما تفرّدت به من معجزات .

وهؤلاء ذوو البصيرة من القراء يقلّبون ما يطالعون كل مُقلَّب ، يقع إليهم الكتاب فيمحصونه ويُفَلُّونه ويتدبَّرون ما فيه ، حتى تنكشف لهم منه مواطن الحسن والقبح ، ويلمسون فيه آثار العجلة ، كما يلمسون مواضع التؤدة والروية .

وفي هذا ما كاد يصرفني عن الرد ، سيراً على قاعدتي في ألا أحفل نقداً ولا ردّاً إلا إذا كان حقاً ، وسبيلي حينئذ أن آخذ نفسي به وأشكر لصاحبه ، وإلاّ فإنّ الزبد يذهب جُفاء وما ينفع الناس فيمكث في الأرض . وخروجي اليوم على قاعدتي ، إنما كان لمنزلة الكاتب الفاضل ، لا لِمَا في الردِّ نفسه . وليس في الأمر كُلُّ ما ظنه الأستاذ شاكر : فلا إثارة ولا إغراء ولا سلاح ولا استعداد لمعارك ، إنما هي حاشية على كلام له المحل الثاني من بحثي ، لم أرد بها نقد كتاب ولا التعرُّض لمؤلف ،

وشتان بين أسطر عُلِّقت عرضاً في حاشية ، وبين كلام مطوَّل أنشئ للنقد خاصة .

أنا أدري ـ والإنصاف شريعة ـ أن الكلام على كتاب الأستاذ شاكر لا يكفيه فصل كبير ، ففي الكتاب إحسان ، وفيه إصابة واجتهاد ، وفيه أماكن جديرة بالثناء حظيت بجهود حالفها التوفيق مرة وأخطأها مرة .

**

وبعد ، فإني أشكر الأستاذ على نقله كلامي بحروفه ، لأن عمله هذا سمح للقراء أن ينظروا : هل بلغ الأستاذ في الجواب على أسئلتي ما يريد من إزالة الشبهات الواردة عليه ، أم قصَّر دون هذه الغاية ؟ أمَّا أنا فقد عدت إلى كتاب الأستاذ كما طلب إليّ ، وأنعمت ـ ثانية ـ في تدبر الأسباب الحادية على نفي تنبؤ أبي الطيب فلم أجد فيها مقنعاً ، كما لم أعثر في رده الذي تفضل به على شيء من الحجة . وإليك البيان :

١ـ وهَّن الأستاذ رواية التنوخي ، لأنه صاحب الوزير المهلبي ، ولأن المهلبي عدوّ المتنبي ، فلا يبعد أن يكون التنوخيّ تحامل على أبي الطيب إرضاء للمهلبي .

فنحن نسأله : هل يكفي هذا الاحتمال في تبرير ردِّ رواية التنوخي ، وهي كما يراها المنصف تحمل في مطاويها دليل الصدق والأمانة في نقل الحديث ، لا دليل الوضع والكذب ؟ سأل التنوخي أبا الطيب عن معنى (المتنبي) فأجابه : « إن هذا شيء كان في الحداثة » ، وظاهر أنه يعني التلقيب لا التنبؤ ، فجوابه غير صريح ، وهو كما قال الراوي جواب مغالط ، وكان في وسع التنوخي أن يحمّل المتنبي ـ لو أراد وضعاً وتحاملاً ـ جواباً صريحاً في ادِّعائه النبوة . ولو استقام هذا الأصل الذي بنى عليه الأستاذ رواية التنوخي ، لجاز لكل من أراد نَفْيَ خبر أن يورد عليه مثل هذه الاحتمالات الخيالية فيسقطه . وما أحسب أن خبراً ـ مهما كان صحيحاً ـ يستعصي إسقاطه على هذا الأصل!

إنما السبيل أن ينقّب الأستاذ عن نص صحيح صَرِيح في تجريح الراوي التنوخي ، وأنه عُهِدَ منه وضع الأخبار ودسّ الروايات ، أو أن يلجأ إلى حجةٍ ـ لا إلى احتمال ـ قوية يرضاها العقل والمنطق السليم .

٢ـ ثم استهل الأستاذ كتابه بفرض فرضه ، وخلاصته أن المتنبي علوي صحيح النسب ، وأنه أخذ بكتمان هذا النسب لعداوة بينه وبين العلويين ، زعمها الأستاذ ولم يعرفها التاريخ . ثم ذهل حضرته على أن هذا كان منه فرضاً ودعوى ، فراح يعدّه بعد صفحات حقيقية واقعة يبني عليها ، ويشرح بموجبها أبيات الديوان ويكذب ـ مستنداً إليها ـ الروايات ويتّهم الراوين . وهو بذلك يخرج على أصول سنها هو لنفسه ، وأخبر عنها في رده علينا حين قال : « ولا بد لمن يريد أن ينقد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار ، أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول في علم الرواية ، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق ، ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضة » . ونحن ننقل للقارئ أدلة على هذا الذهول من مواضع متفرقة من كتابه ، ليستبين أن الكاتب لم يتمكن من ضبط فكرته ، فانتشرت عليه وتفرقت . قال في ص٨٥ : « بيّنا لك فيما مرّ ما بين أبي الطيب وبين العلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأر قديم . . . » ، يقصد مما مرَّ احتماله الذي لخصناه آنفاً . وقال في ص٩٢ : « وبيّن على مذهبنا في نسب المتنبي أن الرجل حبس من أجل دعوى العلوية » ، وقال في ص١٠٢ : « وكأني بالمتنبي في طريقه يظهر في القبائل والمدن أمر نسبه ويذيع بينهم أنه علوي الأصل شريف النسب ، محتالاً لذلك بالدهاء . . . ! » . فأنت ترى أن هذا النسب العلوي وعداء العلويين كان فرضاً أول الكتاب ، ثم صار حقيقة مقررة في وسطه .

وماذا في أن يكون المتنبي علوياً حتى يهتم به العلويون هذا الاهتمام ، وحتى يحتال هو لإذاعته في القبائل والمدن بالدهاء ، والبلاد تعج عجيجاً بالعلويين والأشراف ؟

والغريب أن يتخذ الأستاذ من نظريته هذه التي افترضها برهاناً يضرب به كل الروايات والأخبار التي تحمل أمر تنبئه ، ويشغل الأمراء والناس والعلويين ودعاتهم بأمر فتى دون العشرين يدّعى العلوية فقط ، فيقول في رد رواية اللاذقي ص٨٥ : « أما اللاذقي فمجهول ، ولا يتيسر نقد سنده ، ولكن مما لا شك فيه أن اللاذقية التي نسب إليها كانت لوقت أبي الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطاً لكثير من كبار

الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة في التاريخ العربي كله » ، هل اهتمامهم بفتى دون العشرين من عمره من الأحداث العظيمة التي أحدثوها في التاريخ العربي كله أيها الأستاذ ؟! ولم لا يغتالونه مرة واحدة ، ويريحون أنفسهم من وضع الأخبار والدسّ عند الحكام ؟ إن في الأمر مطامح لنفس هذا الفتى جعل سُلَّمه إليها شيئاً آخر مع العلوية هو أكبر منها وأخطر .

وقد رددت أنا قسماً كبيراً من رواية اللاذقي هذا ، ولكن لشيء غير ما ذهب إليه الأستاذ الكريم ، وسأبينه قريباً . وما أكثر ما يبين الإنسان لنفسه الخطة في البحث . ثم تنتشر عليه الفكرة فيبني على غير أساس ، ولست أجد كلاماً في تصوير عمل الأستاذ وأصوله في بحوثه ، أصدق من قول الجاحظ في إبراهيم النظام وهو هذا : « وكان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذي قاس عليه ، لكان أمره على الخلاص ، ولكنه يظن الظن ، ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً »[1] .

٣ـ يورد الأستاذ على حديث أبي علي بن أبي حامد شبهة واحدة ، بعد أن يقرَّ بإحكامه ، ويقول عنه ص : ٨٦ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قِبَل غرابته عما جرت عليه الأحكام في شأن من يدعون النبوة . . . » ، وقد أطال في بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا . والذي في كلام أبي علي هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام » ، وجليٌّ أنهم استتابوه من دعوى النبوة ، فرجع بذلك إلى الإسلام . أما الوثيقة فهي ببطلان علويته ، وبهذا تزول شبهة الأستاذ ، فإن من المألوف أن تكتب الوثائق في إثبات الأنساب ونفيها .

٤ـ عرض الأستاذ لرواية الهاشمي التي فيها : « كان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادَّعى أنه علوي ، ثم ادّعى النبوَّة ، ثم عاد يدعي أنه علويّ ، إلى أن أشهد عليه في الشام بالتوبة وأطلق » . وهذه الرواية تعني أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ،

---

(١) الحيوان ٢/ ٨٣ .

وحين ترك ادعاء النبوة بقي على دعواه الأولى . ومنها ومن الرواية التي قبلها ، نفهم أنه لما أطلق ترك الدّعْوَيَيْن معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين ، وليس في الأمر مشكلة ولا تناقض ، ولا داع لأن يرجح الأستاذ [ص٢٠٧ـ٢٠٨] ، إقحام لفظ النبوة بين العلويين في حديث الهاشمي ، وليقول : « إن المراد بالنبوة في حديث أبي علي بن أبي حامد معنوية ، فعلوية أبي الطيب التي أراد أن يفسر بها النبوة الواردة في الروايات على اختلاف مصادرها ، لم تسلم له من الأصل ، وبقي المتنبي جعفياً يمنياً . وإذا كان لا بد من إيراد احتمال ، فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم . على أن الرواية في غنىً عن هذا الفرض أيضاً ، وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه ، وأن يظل على العلوية طوال أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة .

٥ـ بقيت رواية الناشئ القائلة : « كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عني ، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم وهو بَعْدُ لم يعرف ولم يلقب بالمتنبي » . هذا الخبر هو مظنة أن يكون فيه بعض الحجة ، فلنفرضه صحيحاً ، ولننظر ماذا تحته : إن فيه نصاً على أن أبا الطيب لم يلقب بَعْدُ بالمتنبي ، ولم يعرف في الكوفة ، وإذا شئنا الدقة في التعبير قلنا : إنه لم يبلغ أهل الكوفة أمر هذا اللقب ، فيجوز أن يكون لقب به في الشام ، ويجوز ألا يكون . وليس في خبر الناشئ شيء آخر غير هذا . وبيان ذلك أن أبا الطيب ادّعى النبوة للأعراب ، ثمّ سجن ثم أطلق وانتهى أمره ونسيه الناس ، ثم حصل في الكوفة سنة ٣٢٥هـ ، وحضر مجلس الناشئ فتى في الثانية والعشرين ، ولما عاد إلى الشعر واتصل بالأمراء وبسيف الدولة وناوش الناس وناوشوه ، وصاول الشعراء وصاولوه ، وتفاقم الشر بينه وبين الناس ، نبشوا تاريخه ـ وهو هناك معروف ـ فأذاعوا منه هذه الزلة التي كانت في حداثته ، وتعلقوا بها ، وسار له في الناس هذا اللقب : (المتنبي) .

* *

لهذه الأسباب ـ وهي للقارئ معروضة ـ لم أجد في كلام الأستاذ شاكر « مقنعاً به من القوة ما يقف هذه الروايات الصحيحة » . وأظن أني أبنت له ـ كما أحب هو ـ وجوه الضعف في قوله ، وسواء علي وعلى الحق : أستبرأ الأستاذ من قوله أم لا . ولا بد أن يكون القارئ شعر بحر صي على وزن كلامي حرفاً حرفاً ، وأني لم أسرف ولم أرسل القول على عواهنه . وقد عجبت كل العجب من الأستاذ ـ وهو الناقد الأصولي الفنان ـ حين لم يدر لم اختصرت حديث اللاذقي ؟ إذ إن الأمر ظاهر ، فإن الزيادات التي أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع ، ولم تكن ثمة حاجة لأدلّ القراء على سبب إهمالها ، لأن تهافتها بيّن ، وكثير أن تُجَرَّد عليها حملة كالتي نزل بها الأستاذ الميدان ، فخصص لها صفحتين من كتابه القيم . وهو يعلم ـ حفظه الله ـ أن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع ، والمعقول ، كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث . وأنا أستحيي من شرح هذا في مجلة (الرسالة) ، على رغم أن الأستاذ لم يجد بأساً في أن يعرفنا أن الخبر ما يحتمل الصدق والكذب ، وأن وأن . . . إلخ إلخ ، مما يدرسه الطلاب المبتدئون . وأنا قد عملت بما أعرف من أصول البحث والتمحيص من دون أن أمُنَّ على قرائي . أما أستاذنا الفاضل فقد ملأ رده من مثل هذه الألفاظ : رواية ، دراية ، أصول نقد . . . إلخ ، وكلامي وكلامه أمام القارئ ، وله وحده أن يحكم أين الرواية والدراية والأصول حقيقة لا ادعاء ، وما التهويل بمغنٍ عن أحدنا فتيلاً .

كنت أتوقع أن يتحفنا الأستاذ بالبراهين التي سوَّغت له رد الروايات فلم يفعل . أقول لم يفعل ، لأن أقواله : « رفضناه ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه » ، « إن هذا الخجل الذي يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة » ، « أخبار متداولة تهوَّر كثير من الأدباء في التسليم بصحتها » ، « أما كلمة كافور فمفتعلة » ، « وأسخف من هذه الرواية رواية من يروى . . . » إن أقواله هذه ، ولو أتبع كل كلمة منها بجميع مرادفاتها ومؤكداتها اللفظية والمعنوية ، هي أليق بمظاهرة هتافية ينادى فيها بسقوط فلان وفلان ، منها ببحث علمي ، العمدة فيه الحجة والبرهان . وأي شيء في أن ينبز كاتب روايات التاريخ بالبطلان والكذب ، ثم لا يكون دليله عليها إلا أنها كذب وبطلان ! !

هذا وقد حمل الأستاذ أقوالي ما ليس تحمل ، فأنا لم أدَّع للمعري تنزهاً عن الخطأ ، ولم أقل بأن « ورود خبر في كتب العلماء هو الدليل الذي لا دليل غيره » ، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة ، بل هو مما ييسر للمحقق وسائله . كما أني لم أسلم بكل الروايات ولم أعدها صحيحة ابتداء ، فقد رددت منها ما وجدت فيه إلى الرد سبيلاً ، ونقدت حكماً أدرج في مصدر من أمهات المصادر وأجلها ، وهو (خزانة الأدب) ، حين وجدت للنقد مجالاً ، ولكل من النقد والرد والتسليم مواطن . وكيف تريدني أن أقنع قرائي بأمر لم أقتنع به ، وإلى أشياء أخرى يتحقق من رجع إلى مقالي أني لم أذهب إليها ؟

ونحن لم نتهم الأستاذ بالعصبية للمتنبي ، ولكنه هو قدَّم لنا في رده دليلاً على عصبيته لرأيه ، وليس لنا في هذا الأمر يدان . ولما قلت عن كافور : « وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ، ولا ممن يروّج الاختلاق » ، خُيِّل للأستاذ أن ثمة نصراً مؤزراً فقال : « إن الأستاذ قد حكم على كافور حكماً لم يرد له ذكر في كتاب ، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخي والبرهان العقلي : أن كافوراً لم يختلق على الناس ولا يروج الاختلاق ؟ لقد أتينا نحن (بارك الله) بالروايات ونقضناها بالدليل ـ ضعيفاً أو قوياً ـ أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره » اهـ .

وعلى رغم أن الدليل على المثبت لا على النافي ـ كما لا يخفى على الأستاذ الأصولي ـ وأن على من يدعي على كافور الاختلاق وترويجه أن يقيم البينة ، على رغم هذا نحيل الأستاذ على الذهبي الذي وصف دينه وتواضعه فقال : « وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرِّغ وجهه ساجداً ويقول : « اللهم لا تسلط علي مخلوقاً » ، وكان يرسل كل ليلة عيدٍ وَقْرَ بغلٍ دراهم في صُرَرٍ بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء . . . » .

ونحيله أيضاً على الذهبي وغيره من المؤرخين الذين أجمعوا على وفور عقله وحسن تدبيره وصلاحه . ويرى الأستاذ معنا أن فقه هذه الروايات ـ وهو الخبير بالرواية والدراية ـ يجعل كافوراً بمنجاة من النزول إلى هذا الدرك ، وإن في أمور

ملكه وبعد غوره ، ما يشغله على الاختلاق على شاعر تكفي إشارة منه لتذهب برأسه ، إن ما يسبغه المؤرخون على كافور من الصفات ، يكفي لنقول ببعده عن جميع السفاسف جملة واحدة . ففي التاريخ بيّنة وفيه دليل ، ولكن للعجلة في الحكم آفات .

هذا وفي نفسي مما أورده الأستاذ المحقق شيء ، فهل يسمح لي أن أطالبه بالدليل العلمي على قوله الجازم : « اعلم أن أكثر ما يروى في ترجمة هذا الرجل (المتنبي) وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التي تتناقلها مجالس الأدباء ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا كان مما يراد به مضغ الكلام في مجالس الأمراء أو في سامر الأدباء . . . إلخ » .

وهل يتفضل فيبين لنا البرهان القاطع في قوله جواباً على سؤالي : « إن هذا الخجل الذي يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة . . . إلخ » . فمن هم هؤلاء الرواة الذين لفقوا الأباطيل ؟ إني متى أعرفهم ، يسهل عليَّ من دون شك أن أسأل عن الأسباب الحادية لهم على التلفيق .

وأنا غير مطمئن إلى قول ابن جني في سبب تلقيب أبي الطيب بالمتنبي ، فابن جني مفرط في حبه لصاحبه والدفاع عنه ، وهو متّهم فيه . فهل لأستاذنا أن يعزز قوله بروايات أخرى سبيلها على غير ابن جني وعلى غير ما حوله ؟ فإن تعذر هذا ، فلا عليه أن يؤيدها بأدلة لا اعتراض للفكر السليم عليها . ولا بأس أن نقول له ، وقد قرأنا ختام رده الذي أثنى فيه على نفسه وعلى كتابه بما هو له أهل : أنت كما أثنيت على نفسك ، ولكن إذا كان كتابك قد اتخذه ـ كما زعمت ـ بعض الكتاب « مصدراً استنبطوا به أصول النقد » . فلسنا بالذين نسمي الطعن المجرد للروايات أصولاً في النقد ، وما لهذا أيضاً علاقة بالبحث . وهلاَّ إذ ذكرت ذلك دللتنا على أسماء هؤلاء الكتاب والمجلات التي نشروا بها ، والمواطن التي قلدوك فيها ، لنهنئك على شيوع مذهبك وكثرة المؤمنين به ؟ ولعلك فاعل عن قريب إن شاء الله .

أما أنا فما كنت أظن قط أن أسطراً تذكر عرضاً في رد فكرة ، تثير مثل هذا

الفاضل فيحمل منها هماً يجد وَقْرَه وعَنَتَه اثنين وأربعين يوماً ، ثم ينفثه في ردّه الذي تكرم به على مثل هذا الشكل .

لقد وددت ـ والله ـ لو أن الأستاذ شاكراً نقب عن الحجة وتحدى الحق ، لأعترف له به وأرجع إلى قوله . وصحف (الرسالة) أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان ، منها إلى الدعوة والانتقاض . وأتمنى للأستاذ أن يهجر هذا الأسلوب في الجدال ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً ، كما لم يغن طنين الأستاذ صروف بالإشادة بمزايا الكتاب في مقدمته . والمأمول من الله أن يأخذ بيد الأستاذ شاكر فيتمم لنا كتابه الضخم عن المتنبي الذي قُدِّرَ بأربعة مجلدات ، وأتمنى أن أراه قريباً ، وأن أرى فيه حقائق الرواية والدراية وأصول النقد ، لا ألفاظها فقط . وليس بمهم بعد ذلك أن تكون هذه الأصول حديثة يخترعها الأستاذ ، أو قديمة على غرار ما تألف عقول هذا الناس ، إنما المهم أن تكون صحيحة سوية .

وسأكون سعيداً حقاً يوم ينقد الأستاذ الأخبار خبراً خبراً ، فيعارض بينها ويقابل ، ويمحصُها تمحيصاً يرضيه هو ، ويستفيد منه القراء الذين لا يخفى عليهم وجه الحق في كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيلٌ من صاحبه ومراوغةٌ في الحط منه ، فإن هذا هو الأشكل بالأستاذ الكريم ، والأليق بفضله ، والأولى بسجاياه ، وله ـ في الختام ـ شكري وخالص تقديري ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

حول نبوة المتنبي (٢)

بحث نشر في الرسالة العدد ١٧٤ عام ١٩٣٦
وهو في كتاب (المتنبي) للأستاذ محمود محمد شاكر

قرأت للأخ شاكر مقاليه الأخيرين المطولين جداً في الرسالة (١٧١ـ١٧٢) ، فإن ما أريد أن أقوله قد قلته سابقاً في الرسالة (١٧٠) ، فليرجع إليه فهو رد على مقاليه هذين أيضاً .

لما عرف الأستاذ شاكر أنا لا نحمل رداً ولا نقداً إلا إذا كان حقاً ، وسبيلنا حينئذ أن نأخذ به أنفسنا ونشكر لصاحبه ، عاد بذلك ، فراغ رَوْغة عدل فيها بالكلام عن وجهه الذي يجب أن يكون فيه ، فلم تظفر اعتراضاتنا ـ لسوء حظها ـ منه بجواب . وقد كنا طلبنا إليه التعرض لهذه الأخبار التي رماها جملة بالكذب ، فيبين وجوه بطلانها ، والسبب الحادي لرواتها على وضعها ، ببيان يزيل اللبس ويرضي الأمانة والعقل ، فأبى وطفق يتعلق بتوافه الأمور ، فهذا كلام شغل أربعة أعمدة من (الرسالة) في تزييف رواية اللاذقي . وقد عرف القراء قيمتها عندنا ، وذاك كلام يعرض لبسطي عذري في التأخر بالرد ، وذلك كلام آخر طويل يدور حول ياء سقطت من كلام له نقلناه . . . إلخ .

استوفى الأخ ستة عشر عموداً زوىٰ عنا فيهن حججه المزعومة ونافع بيانه ، وأطلق قلمه فسطر من القول النبيل ما نمر به مرَّ الكرام . ولما أشرف على الختام قال : « وتعبٌ أن أمضي على هذا الوجه في تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذين نقل كلامهم » . وقد علم أصلحه الله وعلم القراء أن البحث والحوار كله يدور حول هذا فقط ، ففيم الهرب منه والاشتغال بغيره ؟ ولست أنا الذي أدعي بطلان الروايات فأحتاج لمعرفة وجوه البطلان ، وإنما نفع ذلك وغناؤه ـ إن تم ـ عائدان عليه وحده ، فهو الذي ألف واستهدف ، وهو الذي ادعى وأعوزه البرهان .

وقد كنت ظننت أني مع أستاذ يعينني في إزالة ما حول هذا البحث من شُبَهٍ بالعلم الواسع ، والحجة البالغة ، ولطف التأتِّي ، وحسن القصد ، فإذا بي أمام امرئ يريدها جدلاً ومراءً ، واستطالة قولٍ وحبَّ غلبة ، مع معرفته من نفسه الحدة وضيق الصدر .

فما أنا ـ وقد عرض الأستاذ لنا أدبه عرضاً صحيحاً ـ بالذي يجاريه في أسلوبه . وكل ما تفضل به من غمز احتل من مكانه محل الحجة ، لا يحدوني على مقابلته أو مشاكلته . ولا على الخروج على قاعدتي التي أطمعته فورَّطته ، وكانت خليقة منه بغير ما فعل .

ليت الأستاذ شاكراً كان تريَّث فلم يحرص على صدور ردّه عقب كلمتي بلا تأخر . ولم يخرج عما أخبرنا من طبعه في الإبطاء والتخلف . فإن الناس لا يقدرون الكلام بسرعة صدوره ، وإنما يقدّرونه بما يحمل من الحق والصواب .

ليته تريّث وتدبر وأنعم في كلامه وكلام غيره ، إذن لما أعجله حبّ الرد للرد فجعله ينقض فكرة هي له على أنها لغيره ، ويستنجد لدفعها بالعربية والمنطق والأصول ، وبيان ذلك باختصار أنه :

كان أشكل عليه في كلام أبي علي بن أبي حامد أمر الوثيقة التي كتبوها على المتنبي بعد أن استتابوه من دعوى النبوة ، فذهبنا نحن إلى أنها في إبطال علويته لا تنبئه ، وأمرُ علويته ورد في روايات ثانية ، فكان من الأستاذ أن أورد رواية أبي علي ثم علق على كلامنا فيها بقوله : (الرسالة ص : ١٦٦٥) .

« فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية في هذا الخبر ولا في غيره مما روي عن أبي علي ابن أبي حامد هذا ، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلوية فيه ، وهو لم يذكرها فيه ، ولم ترد عنه في خبر غيره ، ثم تعمد إلى الكلام فتؤوِّل بعضه على النبوة وبعضه على العلوية فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة ؟ » .

والذي قلناه نحن هو هذا (الرسالة ١٧٠) : « وليس في الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ (ص : ٢٠٧ـ٢٠٨) من كتابه إقحام لفظ النبوة بين العلويين في حديث الهاشمي ، وليقول : « إن المراد بالنبوة (تأمل) في حديث أبي

علي بن أبي حامد : العلوية) . فمن المقحم ومن المؤوِّل أيها البحاثة المحقق الذي لا ينسى اليوم ما قاله أمس ؟! ثم قلنا : « فعلوية أبي الطيب التي أراد أن يفسر بها النبوة الواردة في الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل ، وبقي المتنبي جُعفياً يمنياً . وإذا كان لا بد (تدبر) من إيراد احتمال . فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم على أن الروايات في غنىً عن هذا الفرض أيضاً (تأمل وتدبر) وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه . وأن يظل على العلوية طوال أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة » .

فنظرية الإقحام أنت قلت بها أيها الأستاذ الجليل لا نحن ، وكلمتنا بدئت بقولنا : « إذا كان لا بد من احتمال » . أما كلمتك فبدئت : « إنّ المراد بالنبوة في حديث أبي علي . . . العلوية » (ص : ٢٠٨) من كتابك القيم[1] وأياً كان صاحب اكتشاف الإقحام ومؤوِّل النبوة بالعلوية ، فهو ونظريته خليقان بما تفضل به الأستاذ من استنكار واستبشاع .

لقد رماني الأستاذ بدائه : عدم التدبر والتحريف ، وأراد أن يتناول فكرة لي كيفما اتفق له لينقدها ، فوقعت به على فكرته هو منقولة في كلامي! وقاتل الله العجلة ، فقديماً ذكروا أن تاجراً أضمر أخذ عِدْل من أعدال شريكه ، فوضع رداءه عليه ليعرفه في الظلمة ، ثم ذهب وجاء رفيقه ليصلح أعداله ، فوجد رداء رفيقه على عدله ، وظن أنه نسيه ، فرفعه ووضعه على عدل شريكه . ولما كان الليل أتى الشريك بحمَّال واطأهُ ، ففتح الحانوت واحتمل العدل الذي عليه الرداء وأخرجه هو والرجل ، وجعلا يتراوحان على حَمْلِهِ حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً ، فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله!!

فعلى القارئ المتتبع أن يرجع حيثما وجد نقلاً لكلامي إلى الأصل المنقول عنه ، فلست أفرغ دائماً لبيان ما حُرِّف ، ولا أحتمل إلا تبعة ما قلته بحروفه ، غير

(١) انظر النص في المقالة المتقدّمة .

مرويٍّ بكلام من غيري . ومَن أوَّل كلامي بجُمَلٍ من عنده ثم شرع في ردِّها ، فإنما ردُّه على تأويله فحسب .

كان رغب الأخ شاكر ألا نتبع ظننا في أنه من أهل الغرور والذهاب بالنفس والجهل بمقدارها ، والمكابرة في العلم والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة ، وقبل كلمته هذه كان ادعى لنفسه تدبراً وإمعاناً وأصولاً ودراية ، ثم في الأخير حِلْماً عند المقاتل البادية ، حين لمَزَنا بالحاجة إلى هذه الصفات ، وكلام كلينا معروض لمن أراد تثبتاً . وسبحان الذي قال : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف ٦١/ ٣] .

فهل أجد حرجاً في أن أقول ثانية : « صحف الرسالة أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاص » .

« وإن القراء لا يخفىٰ عليهم وجه الحق في كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيل من صاحبه ومراوغة في الحط منه » ، وحرام أن أقتل الوقت في تتبع المزالق التي زلّ فيها صاحبنا في مقاليه هذين . فما هي بنافعتنا فيما ظهر ، لتباين أسلوبينا في البحث و(اختلاف في الجِبِلَّة) . على ما قال الأخ شاكر .

وما أنا بعائد إليه ، لأن الحقيقة لم تفد شيئاً بخوض هذا البحث معه ، ولن أجاري أخي في طريقه التي سلكها فما هي لي بطريق ، ولا أرب لي بتعسف المتاهات . ولولا أن يظن العجول من القراء أن نظرية الإقحام وتأويل النبوة بالعلوية التي رماني بها الأستاذ على عجلة وخطأ ، هي نظريتي وفكرتي ، لما خططت حرفاً من كلمتي هذه .

وبعد ، فليس عندي لأخي الأستاذ على أقواله فيَّ غير السلام .

* *

ابن حزم - الإمام المحب (١) ، (٢) ، (٣)

(٣٨٤ - ٤٥٦هـ)

مقالات نشرت في مجلة الثقافة القاهرية السنة الثانية ، الأعداد ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠
على التوالي عام : ١٩٤٠ وهي مدرجة في كتاب الأستاذ : (ابن حزم الأندلسي)

شاء الله لابن حزم أن يكمل من حيث نقص كثيرون ، فهيأ كل شيء لهذه النفس السامية ، حتى خفقت بالحب النبيل العف الطهور ، ذلك الحب الذي نعمت به قلوب الصفوة من العباد الصالحين .

والأندلس لعهد ابن حزم مرتع الجمال العجيب ، في طبيعته وفي سكانه رجالاً ونساءً ، عجت بالحور من مختلف الأجناس من آسية وإفريقية وأوربة . فتوالد من تمازج الأعراق وتلاقح الدماء جيل جديد تم للأندلس به جمال خاص أثر في رجالها فلطَّف من طباعهم ، وطبع أدب الأندلس بهذا الطابع الرقيق الجذاب الذي تفردت به .

وابن حزم منذ نعومة أظفاره ، صافي النفس ، رقيق الشمائل ، مرهف الحس ، مشبوب العاطفة ؛ يزين ذلك كله تهذيب (أرستقراطي) متوارث ، وعقل واسع ، وعزيمة ضابطة مع خوف من الله عز وجل .

والذي عجل تفتح قلبه إشراف أرقى الأندلسيات على تربيته ، وإحاطته إلى زمن استتمام رجولته بسيدات هن أرقى نساء مجتمعه . فصَبَا وخَفَقَ بالحب قلبُه ، ثم تمكن واشتد ، ونفّس عنه بمقاطيع من الشعر تفيض رقة وحرقة . وليس لأحد أن يستغرب من إمام كابن حزم أن يملكه الجمال ، ويأسر لبه ؛ فما كان رجال الشريعة يوماً من الدهر غُلْف القلوب ، ولا عُمي العيون ، ولا متبلدي الحس ، بل إن ثقافتهم بطبيعتها لتهديهم إلى معجزات الله في الجمال ، وتحدوهم على تقديرها والتمتع بنعمها ، وشكر المبدع في صنعها .

وإن من أعرض عن نداء عواطفه التي أودع الله في قلبه ، وتهاون بنظام بنى الله عليه الكون منذ بدء الخليقة ، لكائن لم تكمل آدميته ، رجلاً كان أم امرأة ، والله الذي ميَّز الإنسان بالتفكير السامي هو الذي غرس في قلوب كل جنس نوازع نحو الجنس الآخر ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، لتتم حكمته في عمران الدنيا . والعازفون عن سنة الله في بريته معطلون ناقصون ، وما جعل الله يوماً من القربات إليه تعطيل نظام أحكمه بيديه .

ولقد بهرج ابن حزم ـ رحمه الله ـ هذا الضرب من الورع الكاذب ، وزيفه أشد تزييف فقال :

يلومُ رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى	وسيّان عندي فيك لاحٍ وساكتُ
يقولون : جانبْتَ التّصاونَ جملةً	وأنت عليهم بالشريعة قانت
فقلت لهم : هذا الرِّياءُ بعينه	صراحاً وزيٌّ للمرائين ماقت
متى جاءَ تحريمُ الهوى عن محمدٍ	وهل منعُهُ في محكم الذكر ثابت ؟
إذا لم أواقع محرماً أتقي به	مجيئي يومَ البعث والوجْهُ باهت
فلستُ أبالي في الهوى قولَ لائمٍ	سواءٌ لعمري جاهرٌ أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختيارَهُ	وهل بخبايا اللَّفظ يؤخذُ صامت[١]

إذن لقد أحب ابن حزم ولا مناص ؛ والحب السامي اضطراري لا اختياري ، يبعثه الجمال في القلب الكامل ، والنفس الزكية ، والطبيعة الشاعرة ؛ وكان من نعمة الله على المكتبة العربية ، أن يسلم لها مختصر لكتاب (طوق الحمامة) الكتاب الذي قصره مؤلفه على الحب ودواعيه وحالاته ، وآثاره وعوارضه ؛ ويعنينا منه بوجه خاص أمران ، لا تتم لنا صورة صادقة عن حياة ابن حزم حتى نعرض لهما . أما الأول فأخبار حبه وآثاره في نفسه . وأما الثاني فهو اختباراته في هذا الميدان ودراسته العميقة المجتمعة في الحب ، ثم دقة وتحليل وُفّق إليهما في دراسته النفسية العميقة ، ونحن فيما نسوق إليك عيال على هذا المصدر الوحيد ، ولولاه ما استطعنا

(١) طوق الحمامة ص(٣٣) .

أن نعرف شيئاً عن حياته الشعرية هذه ، ولبقيت سراً مجهولاً ، ولم ننعم إلا بصورة شوهاء عن حياته .

أطلعنا ابن حزم على حوادث ثلاث في تاريخ قلبه ، وكلها أصابه في صباه وحداثة سنه ، وكلها كان له الأثر البليغ في حزن نفسه ، وإثارة عواطفه ، وفجيعة شبابه .

فأما الأولى فتبين لنا أثر الحب الأول إذا صادف قلباً خالياً ، كيف يتمكن حتى لا يولع المحب إلا بما شابه صفة محبوبه الأول قال :

« دعني أخبرك : أني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على الحسن نفسه ؛ وإني لأجد هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت ، لا تواتيني نفسي على سواه ، ولا تحب غيره البتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضي الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله » .

ثم ذكر ملاحظته الخاصة بخلفاء بني مروان ، وكيف تتابعوا جميعاً على محبة الشقراء من النساء حتى أتى أغلبهم أشقر أشهل نزاعاً إلى أمهاتهم ، فأيد بذلك نظريته في ابتغاء الإنسان الصفة التي عليها محبوبه الأول ؛ وهذا هو أسلوبه في أكثر الكتاب : يشرح العارض ، ويصف أحواله ثم يؤيده بالشواهد التي عانى أو عاين أو سمع .

وأما الثانية ففاجعة بحبيب حل من قلبه أسمى محل ، فغبر ابن حزم بعدها لا يطيب له عيش ، ولا يجد عنها سلوى ؛ وقد أثرت في نفسه أبلغ الأثر حتى ما كان ينتفع بنفسه بعدُ ، وحتى فاضت قريحته بمقطوعة من أصدق الشعر العاطفي ، ذكر منها مع الأسف أبياتاً متفرقة ، نثره في سرد الحادث أشعر منهن وأبلغ ، قال في باب البيتين :

« دعني أخبرك : أني أجد من دهي بهذه الفادحة ، وتعجلت له هذه المصيبة . وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا ، اسمها (نُعْم) وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقاً وموافقة لي ، وكنت أبا

عذرها . وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار ، واخترمتها الليالي ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هي دوني في السن .

« فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها ؛ وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن (أي بعد خمس عشرة سنة) ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليّ ، مسارعاً طائعاً ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ، ولا أَنِستُ بسواها ، ولقد عفَّى حبي لها على كل ما قبله ، وحرم ما كان بعده ، ومما قلت فيها :

مهذّبةٌ بيضاءُ كالشَّمس إن بدت ... وسائرُ أرباب الحِجال نجومُ
أطارَ هواها القلبَ عن مستقرّه ... فبعدَ وقوعٍ ظلَّ وهو يحوم

ومن مراثيَّ فيها قصيدة منها :

كأني لم آنس بألفاظك التي ... على عُقَدِ الألباب هنَّ نوافثُ
ولم أتحكّم في الأماني كأنني ... لإفراط ما حكمت فيهن عابثُ

وفيها :

ويبدين إعراضاً وهن أوالف ... ويقسمن في هجري وهن حوانثُ[1]

والحقيقة أن هيام ابن حزم بنُعم بلغ الغاية في الشّدة ، حتى إنه بعد موتها لم يكن يسلوها في يقظة ولا منام . والمرء يرىٰ في أحلامه ما تهتف به نفسه الباطنة . رآها مرة في نومه فسرَّ بها كل السرور ، وخلّد لنا بشر نفسه في هذه الأبيات الصادقة القوية ، دليلاً على المحل الذي حلته من قلبه ، محل لم ينزله غيرها أحد قط :

أتى طيفُ نُعم مضجعي بعد هدأةٍ ... ولِلَّيل سلطانٌ وظلٌّ ممدّد
وعهدي بها تحتَ التراب مقيمةٌ ... وجاءت كما قد كنتُ من قبلُ أعهدُ
فعدنا كما كنا وعادَ زماننا ... كما قد عهدنا قبلُ والعَود أحمد

---

(١) المصدر نفسه ص٨٨ .

وأما الثالثة فقصة حب لم يستجب له ، بقي شديداً متسعّراً سنين طويلة ، ثم برد فجأة حين رأى محبوبته بعد غياب ، وقد غاض جمالها لعدم تعهده . والقصة على طولها طريفة جداً ، لأنها تشرح بإسهاب لذيذ مطاردة ابن حزم للجارية وتمنُّعها . ثم هي إلى ذلك تصف لنا مجتمع ابن حزم وصفاً دقيقاً لا نجد تفصيله في مكان آخر ؛ وحسبنا أن الذي يقوم ببيان هذا كله هو ابن حزم نفسه ؛ ولا تنس أن ذلك كان منه أيام الصِّبا ، قبل تفرغه لطلب الفقه قال :

« وإني لأخبرك عني أني ألفت في أيام صباي إلفة المحبة ، جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسَن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا تُوجَّه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرَّس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمَّها ، تزدان في المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها ، غير راغبة في اللهو ؛ على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فحننت إليها ، وأحببتها حباً مفرطاً شديداً . فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة ، وأسمع من فمها لفظة ـ غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع ـ بأبلغ السعي ، فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

« فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا[1] ودخلة أخي رحمه الله من النساء ، ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ، ثم تنقلن إلى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها[2]

(١) الدخلة : مثلثة الدال البطانة .

(٢) الفحوص : ج فحص وهو كل مكان يسكن .

مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن . فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره ؛ وكانت قد علمت كلفي بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذ كلهنّ ينتقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها ؛ واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج[1] في الآثار ؛ ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنّي طربتُ إلى شمسٍ إذا غربت ... كانت مغاربُها جوفَ المقاصير
شمسٌ ممثّلة في خَلْق جاريةٍ ... كأن أعطافها طيُّ الطوامير
ليست من الإنس إلا في مناسبةٍ ... ولا من الجنِّ إلا في التصاوير
فالوجْهُ جوهرةٌ والجسمُ عَبْهرةٌ ... والرّيحُ عنبرةٌ والكلُّ من نور
كأنّها حين تخطو في مجاسدها[2] ... تخطو على البيض أو حد القوارير

فلعمري لكأن المضراب إنما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا ؛ وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها . وفي ذلك أقول :

لا تلمْها على النِّفار ومنعِ الوصـ ... ـل بل[3] ما ذا لها بنكير
هل يكونُ الهلالُ غيرَ بعيدٍ ... أو يكون الغزالُ غيرَ نفور

(١) القيافة : معرفة آثار الناس ، ومدلج قبيلة اشتهرت بين الناس بقيافتها .
(٢) الطوامير : الصحف . والعبهرة : الممتلئة الجسم الناعمة الطويلة . والمجسد (كمبرد) : ثوب يلي الجسد ـ القاموس .
(٣) في الأصل : كم . وما : نافية .

وأقول :

منعــتِ جمــالَ وجهــك مقلتيَّــا ... ولفظُــك قــد ضَنَنْــتِ بــه عليَّــا
أراك نــذرْتِ للــرحمــنِ صــومــاً ... فلســتِ تكلِّميــن اليــومَ حيَّــا
وقــد غنيــت للعبــاس شعــراً ... هنيئــاً ذا لعبــاس هنيــا
فلــو يلقــاك عبــاس لأضحــى ... لفــوز[1] قــاليــاً وبكــم شجيــا

* *

ثم انتقل أبي ـ رحمه الله ـ من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة ، وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هي بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك . ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد ، بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت (اشتدت) الفتنة وألقت باعها ، وعمت الناس وخصّتنا ، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ، ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمئة .

واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها ـ وقد ارتفعت الواعية[2] ـ قائمة في المأتم وسط النساء في جملة البواكي والنوادب ؛ فلقد أثارت وجداً دفيناً ، وحركت ساكناً ، وذكرتني عهداً قديماً ، وحباً تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً فواني ، وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجددت أحزاني ، وهيجت بلابلي . على أني كنت في ذلك النهار مرزأً مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ؛ ولكن زاد الشجى ، وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه

---

(١) فوز : صاحبة العباس بن الأحنف . تغزل بها في شعره .
(٢) الضمير يعود إلى الجارية صاحبة القصة . والواعية الصراخ والصوت .

مجيباً فقلت قطعة منها :

يبكـي لميْـت مـات وهـو مكـرم ولَلْحَـيُّ أولـىٰ بـالـدمـوع الـذوارف
فيـا عجبـاً مـن آسـف لامـرئٍ ثـوى ومـا هـو للمقتـول ظلمـاً بـآسـف

ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأُجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمئة . وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمئة فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي : « هذه فلانة » وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذي كان يُرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النُّوَّار[1] الذي كان البصر يقصد نحوه متبوراً[2] ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض المنبي عن الكلّ ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وهدمها الصيانة التي كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذلها في الخروج فيما لا بد لها منه مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك . وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : « إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أسلاً وأعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم السكن » . وإني لو نلت منها أقل وصل ، وأنست لي بعض الأنس ، لخولطت طرباً ، أو ملت فرحاً ؛ ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني ، وهذا الوجه من أسباب السلو ، صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم ، إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضي المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه .

* *

---

(١) النُّوَّار كرمان : الزهر .

(٢) علق مصحح الطبعة ما يلي : كذا في الأصل الصواب مبتاراً أي : مختبراً .

وانظر الآن إلى الإرادة القوية والعفة الأصيلة كيف تغلبتا على ابن حزم ، حين استحكم واستوى ، في موقف لا يسلم فيه إلا القليل ، لقد جاز امتحاناً بغاية النجاح ، وقهر هواه وملك لبه ، وكان على حد قول الرافعي رحمه الله :

قلبي يحبُّ وإنما أخلاقه فيه ودينه

قال : « ولقد ضمني المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفي ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمها مني النشأة في الصِّبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة ، وكنت تركتها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت في خديها أزاهير الجمال فتمّت واعتمت ، وأتت كما أقول :

خريدةٌ صاغها الرحمن من نور جلَّت ملاحتُها عن كل تقدير
لو جاءني عملي في حسن صورتها يومَ الحساب ، ويومَ النفخ في الصور
لكنت أحظى عباد الله كلِّهم بالجنتين وقربِ الخرَّدِ الحور

فبت عندها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عني على جاري العادة في التربية . فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده مني الغزل ؛ ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبي أن يزدهيه الاستحسان ؛ ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل » .

ولا تحسبن ما يلقى من المكابرة في حبه أمراً هيناً ، أو تظنن أن حبه لم يبلغ من القوة بحيث يتغلب على عفته وصلابته . بل اعلم أن عاطفته تشتد كأقوى ما تشتد في فحول الرجال ، وهواه مضطرم عاصف لا يقف له شيء ، وإن الذي ينعى إليه بعض من يحب من بلد نازح فيجد لذلك من الوجد والحزن ما تضيق معه الأرض على رحبها ، حتى يفر بنفسه نحو المقابر ، ويهيم على وجهه بينها وهو ينشد[1] :

---

(١) طوق الحمامة ص١٢٥ .

وددت بـــأن ظهْـــرَ الأرض بطـــنٌ وأن البطـــنَ منهـــا صـــارَ ظهـــرا
وأنّـــي مـــتّ قبـــل ورود خَطْـــب أتـــى فـــأثـــار فـــي الأكبـــاد جمـــرا
وأن دمـــي لمـــن قـــد بـــان غَسْـــلٌ وأن ضلـــوع صـــدري كـــن قبـــرا

ثم يتصل به بعد حين كذب هذا النّعي ، فلا يكاد يستقر فرحاً ، ثم ينشد[1] :

بشـــرى أتـــت واليـــأسُ مستحكـــمُ والقلـــب فـــي سبـــعٍ طبـــاقٍ شـــداد
كســـت فـــؤادي خضـــرةً بعـــدمـــا كـــان فـــؤادي لابســـاً للحـــداد
جلَّـــى ســـواد الغـــم عنـــي كمـــا يجلـــى بنـــور الشمـــس لـــون الســـواد

إن الذي يهيم هذا الهيام ، ويستخفه نعي وبشرى ذلك الاستخفاف ، فتفيض لوعته ، كما يطفح بشره ، إن هذا الرجل ممكّن له في دنيا الحب ، حتى بلغ فيها درجة الفناء على تعبير الصوفيين ، فإذا سلط على حبه هذا العظيم دينه وورعه ، عرفنا مبلغ قوة التدين فيه ، وأنه شيء لا يكاد يفي بوصفه البيان .

* *

هذا ما قصه علينا ابن حزم من أحاديث صبوته في صباه . وهو حين يتكلم فيما يعرض للحب والمحبين من أحوال ، أسرع ما يكون إلى إيراد الشاهد في نفسه ، أو في غيره . وبهذا أطلعنا على خصائص حبه ، وتاريخ قلبه ، وأنه حب مكين يتأصل ببطء بعد امتحان طويل ، ولكنه ثابت لا يسلو عنه قط . قال في باب (من لا يحب إلا مع المطاولة) .

« وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لي دهراً ، وأخذي معه في كل جد وهزل ، وكذلك أنا في السلوّ والتوق . فما نسيت وداً لي قط ، وإن حنيني إلى كل عهد تقدم لي ليغصُّني بالطعام ، ويشرقني بالماء ، ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائي له ، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت ، لا أقول : في الألاَّف والإخوان وحدهم ، لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ، ولا فارقني

---

(١) المصدر نفسه ص١٥ .

الإطراق والانعلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشجى يعتادني ، وولوع هم ما ينفك يطرقني ؛ ولقد نغص تذكري ما مضى كل عيش أستأنفه ، وإني لقتيل الهموم في عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال ، لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعراً منه :

محبَّةُ صدقٍ لم تكن بنتَ ساعةٍ ... ولا وَرِيَتْ حين ارتيادِ زنادِها
فلم يدنُ منها عزمُها وانتقاضُها ... ولم ينأ عنها مكْثُها وازديادها
يؤكد ذا أنّا نرى كلَّ نشأةٍ ... تتمّ سريعاً عن قريب نهادها
ولكنّني أرضٌ عزازٌ صليبة ... منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها ... فليست تبالي أن يجود عهادها[1]

وهذه غاية في الإخلاص وصدق المحبة والوفاء . وعلى هذا الغرار ، فليكن الحب المخلص ، والعلاقة البريئة ، وحفظ العهد .

ومن رُزِق حظ ابن حزم في العشق لم يروه منه شيء ، وكلما نهل طلب مزيداً ، لأن القلب الصادق الحب ظامئ أبداً مستزيد كلما روي ، بهذا حكم ابن حزم ، وأيّد حكمه بهذه الحادثة التي رواها عن نفسه قال :

« دعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ، ولا زادني إلا ظمأ ؛ وهذا حكم من تداوىٰ برأيه ، وإن رقا عنه سريعاً . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتني إلاّ مستزيداً ، ولقد طال بي ذلك ، فما أحسست بسآمة ، ولا رهقتني فترة ؛ ولقد ضمني مجلس مع من كنت أحب فلم أُجِلْ خاطري في فن من فنون الوصل ، إلا وجدته مقصراً عن مرادي ، وغير شاف وجدي ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت تلوّذاً وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي ، فقلت في ذلك المجلس :

وددت بأن القلب شُقّ بمدية ... وأُدخلتِ فيه ثم أطبق في صدري

---

(١) طوق الحمامة ص٢٢ .

فـأصبحـتِ فيـه لا تحلّيـن غيـره إلـى منقضـى يـوم القيـامـة والحشـر
تعيشيـن فيـه مـا حييـت فـإن أمـتْ سكنتِ شغافَ القلب في ظلم القبر[1]

ولست بحاجة إلى التنبيه على سمو هذه العاطفة وروعة هذا الشعر الصادق ، عبر فيه ابن حزم عن ذات صدره ، ولم يشأ الإغراق على طريقة الشعراء . وقد يبدو في شعره هذا شيء من الأثرة (الأنانية) لم يتصنع فيه الإيثار المألوف في الغزل ، لأنه إنما أحب لنفسه ، فترجم عن هذا الحب بأصدق عبارة وأدق صورة . ومن الطريف أن جدلاً قام بينه وبين أبي عبد الله محمد بن كليب في القيروان حول هذه النقطة ، كان فيها مجادلة داعية إلى الإيثار ، فقال محمد :

ـ إذا كره من أحب لقائي وتجنب قربي فما أصنع ؟

ابن حزم ـ أرى أن تسعى في إدخال الروح على نفسك بلقائه وإن كره .

محمد ـ لكني لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواي ، ومراده على مرادي ، وأصبر ولو كان في ذلك الحتف .

ابن حزم ـ إني إنما أحببته لنفسي ، ولالتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسي ، وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها .

محمد ـ هذا ظلم من القياس : أشد من الموت ما تمنى له الموت ، وأعز من النفس ما بذلت فيه النفس .

ابن حزم ـ إن بذلك نفسك لم يكن اختياراً ، بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألا تبذلها لما بذلتها . وتركك لقاءه اختياراً منك ، أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها .

محمد ـ أنت رجل جدلي ، ولا جدل في الحب[2] .

وحيناً نرى ابن حزم يتحفنا بثمرات دراسته القيمة لأحوال المحبين ، فيطلعنا على الفرح الشديد ينعم به من أيقن بمحبة حبيبه ، وعلى الغم القاتل يقاسيه من حرم

---

(١) طوق الحمامة ص١ .

(٢) طوق الحمامة ص٤٢ .

عطف من يحب ، والحالات النفسية التي يلقى بها المحب حبيبته غير مختار . ثم يطلعنا بإخلاص على سريرة نفسه وما وقع له هو في الحالين ، في نثر بديع يأخذ بمجامع القلوب ، قال :

« ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ؛ ورأيت تمكن المتغلّبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مديري الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه وصحة مودته له ؛ وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي محبوب غضبان ، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء » . ثم قال عن نفسه :

« ولقد امتحنت الأمرين ، وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد ، وأنفذ من السيف : لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ؛ وفي الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن : أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع . وأتحلل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفتن القول فتوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضي »[1] .

وأمر آخر في ابن حزم يثير الدهشة والإعجاب ، وهو أنه وصل في خبرته وتجاربه إلى نتائج ما يماري فيها الإنسان لاستنادها إلىٰ دراسة نفسية عميقة مع ملاحظة وانتباه وتأمل ؛ وكأني به في وصفه التغيرات (الفسيولوجية) التي تطرأ على المحب في حضرة حبيبه ، واحداً من كبار علماء النفس في عصرنا العشرين قال :

« وشيء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلاً يراها أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ، ظاهراً عليها ، لا خفاء به . والرجال كذلك

---

(١) طوق الحمامة ص٦٧ .

إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترتيب المشي وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس في كل مكان ، والله عز وجل يقول : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور ٢٤/ ٣٠] فلولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى . وهذا حد التعرض فكيف بما دونه »[١] .

* *

ستقرأ قريباً كلمة ابن حزم في ترفعه عن الحرام ، وعصمته منه ، آخر الكلام على أخلاقه ، وستطلع الآن على السبب في أنه ما حل مئزره على حرام قط منذ عقل ، وأنه بريء الساحة نقي الحجرة ، وهو يعود في جملته إلى رقابة أسرته وتوجيه شيخه قال :

« وكان السبب فيما ذكرته (يعني من عفته العجيبة) أني كنت وقت تأجج نار الصِّبا وشرة الحداثة وتمكن غرار الفتوة ، مقصوراً محظراً عليَّ : بين رقباء ورقائب ، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه ، وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ، ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح والزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة : علماً وعملاً ، وديناً وورعاً ، فنفعني الله به كثيراً ، وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصي »[٢] .

ونجاة ابن حزم من الحرام مع كثرة اختلاطه بالنساء وأنسهن إليه ، وإفضائهن إليه بأسرارهن ، واطّلاعه منها على ما لا يتيسر لغيره . . . إحدى الأعاجيب التي لا تتأتى لبشر إلا في الفرط النادر .

---

(١) طوق الحمامة ص١٢٤ .

(٢) نفسه ١٢٥ .

ويدهشني منه خروجه على المألوف من الغلط ، فيما شاع من تعريف الصالح والفاسق ؛ فقد ألف الناس لهاتين الكلمتين معنى بعيدَ الوقوع غير فطري ، يشك فيه كل من أمعن في سيرة المختارين من البشر . . . حتى وضع لهما ابن حزم الحدود المعقولة الواقعية ، مستفيداً من خبرته بخبايا الصدور وأسرار النفوس قال :

« إني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة أعني الصلاح غلطاً بعيداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي : إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي : إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش ، تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض (للمناظر) الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدّى للمشاهد المؤذية ويحب الخلوات المهلكات ، والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء »[١] .

وهذا نعت معقول ، ونظن أن الصالح ـ بالمفهوم الشائع ـ الذي لا يؤثر فيه الجمال ولا تحدثه نفسه بشيء حياله . . كائن لم يخلقه الله قط .

وبعد فهذا هو ابن حزم في حبه ونبله وسمو عواطفه وعزة نفسه ورقّة حسّه وطهارة ذيله . . . عظيم نادر المثال في الرجال المحبين ، كما كان عظيماً نادر المثال في المفكرين أولي الأذهان الحداد والقرائح الصافية والعبقرية العجيبة .

---

(١) طوق الحمامة ص١٢٣ .



الكتاب الثالث
شخصيات لها تاريخ



بدر الدين الزّركشي

(٧٤٥ـ٧٩٤هـ)

مقالة عن الإمام بدر الدين الزركشي ، وقد نشر له الأستاذ كتابه (الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة) .

نشرت في مجلة التمدن الإسلامي السنة الخامسة الجزء الثالث ، عام ١٩٣٩م .

والمقال في كتاب الأستاذ المحقق .

سلخ الأستاذ سعيد الأفغاني في دراسته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أكثر من عامين ، وأخيراً وقع في المكتبة الظاهرية بدمشق على مجموعة خطية في آخرها رسالة عنها للإمام الزركشي تدل على غزارة علمها وبارع نقدها وقوة شخصيتها فيما استدركته على المحدّثين ، فصحّحت به رواياتهم بنقد رقيق اللهجة ، أو قاسي العبارة ، أو لاذع النكتة ، حسب ما يقتضيه المقام وإظهار الحقيقة . وقد خص هذه المجلة بما ننشره عن المؤلف ورسالته (الإجابة) فنشكر للأستاذ الأفغاني جهوده الموفقة .

المجلة

هو محمد بن عبد الله بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله بدر الدين ؛ مصري المولد والوفاة ، تركي الأصل ، شافعي المذهب ، كان إماماً علامة مصنفاً محرراً ، ولد سنة ٧٤٥هـ ، وأخذ عن الشيخين جمال الدين الإسنوي وسراج الدين البُلقيني ورحل إلى حلب ، فأخذ عن الشيخ شهاب الدين الأذرعي ، وسمع الحديث بدمشق وغيرها ، وكان فقيهاً أصولياً أديباً فاضلاً في جميع ذلك ، ودرّس وأفتى وولي مشيخة خانقاه كريم الدين بالقرافة الصغرى ، قال البرماوي : « كان منقطعاً إلى الاشتغال ، لا يشتغل عنه بشيء وله أقارب يكفونه أمر دنياه » .

وكان خطه ضعيفاً جداً ، قلَّ من يحسن استخراجه[1] . توفي بمصر ثالث رجب سنة ٧٩٤هـ ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من تربة بكتمر الساقي[2] .

مؤلفاته : أكثر اشتغال الزركشي بالفقه وأصوله ، وعلوم الحديث والقرآن والتفسير ، وقد ترك فيها أكثر من ثلاثين مصنفاً ؛ منها ما عرفنا أنه له بطريق العرض ، ونحن على رغم ما بذلنا من وقت وجهد في سبيل جمعها لا نقطعُ بالإحاطة بها جميعاً ، وإنما نقطع بأننا بذلنا الطاقة كلها حتى لم يبق منها شيء . وإليك أسماءها وشيئاً عنها[3] مرتبة على الحروف :

١ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة .

٢ـ إعلام الساجد في أحكام المساجد[4] .

٣ـ البحر المحيط في أصول الفقه[5] .

قال في شذرات الذهب هو : « ثلاثة أجزاء جمع فيه جمعاً كثيراً لم يسبق إليه » .

٤ـ البرهان في علوم القرآن[6] .

كتاب جليل ضمنه سبعة وأربعين نوعاً ، ثم اطلع عليه السيوطي فأدرجه في كتابه الكبير (الإتقان في علوم القرآن) وله الفضل في تعريفنا بمحتوياته ، قال في مقدمة

---

(١) إي والله فقد لقينا منه الألاقي ، كان يمر علينا النهار بكامله فلا نحل من مشاكله في رسالة (الإجابة) أكثر من أربع كلمات بعد الرجوع إلى الأمهات من كتب الحديث والرجال ، وإذا كان قل من يحسن استخراج خطه من أكثر من خمسة قرون ، فقدر بنفسك أي عنت يلقىٰ من يتعرّض لمثل ذلك في عصرنا الحاضر .

(٢) عن الذيل التام على دول الإسلام ، وشذرات الذهب ، وحسن المحاضرة للسيوطي ، وقاموس الأعلام للزركلي بتصرف يسير .

(٣) رجعنا في جمعها إلى مظان كثيرة أهمها شذرات الذهب وحسن المحاضرة وكشف الظنون وبروكلمان وذيله ، والإجابة نفسها ورسالة أخرى .

(٤) حسن المحاضرة ، بروكلمان .

(٥) حسن المحاضرة ، شذرات الذهب ، وبروكلمان .

(٦) كشف الظنون ، حسن المحاضرة ، بروكلمان (الذيل) .

الإتقان في صدد كلامه على تأليفه في هذا الموضوع :

« . . . وأنا أظن أني مفرد بذلك ، غير مسبوق بالخوض في هذه المسالك ، فبينما أَنا أجيل في ذلك فكري أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، إذ بلغني أن الشيخ الإمام بدر الدين بن محمد بن عبد الله الزركشي أحد متأخري أصحابنا الشافعيين ، ألف كتاباً في ذلك حافلاً يسمى : « البرهان في علوم القرآن » فتطلبته حتى وقفت عليه ، فوجدته قال في خطبته : « لما كانت علوم القرآن لا تحصى ، ومعانيه لا تستقصى ، وجبت العناية بالقدر الممكن ، وممّا فات المتقدّمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه كما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم الحديث ، فاستخرت الله تعالىٰ وله الحمد في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلم الناس في فنونه ، وخاضوا في نكته وعيونه ، وضمنته المعاني الأنيقة والحكم الرشيقة ، ما بهر القلوب عجباً ليكون مفتاحاً لأبوابه ، وعنواناً على كتابه ، معيناً للمفسر على حقائقه مطلعاً على بعض أسراره ودقائقه ، وسميته (البرهان في علوم القرآن) ، وهذه فهرست أنواعه : النوع الأول[1] . . . إلخ واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره ، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله ؛ فإن الصناعة طويلة والعمر قصير ؛ وماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير » (ا . هـ كلام الزركشي) . ثم قال السيوطي :

ولما وقفت على هذا الكتاب ازددت به سروراً ، وحمدت الله كثيراً ، وقوي العزم على إبراز ما أضمرته . . إلخ » .

٥ـ تخريج أحاديث الرافعي[2] .

٦ـ تفسير القرآن[3] .

ذكر في كشف الظنون أنه وصل في التفسير حتى سورة مريم .

---

(١) انظرها كاملة في مقدمة الإتقان في علوم القرآن .

(٢) كشف الظنون ، حسن المحاضرة .

(٣) كشف الظنون ، حسن المحاضرة .

٧ـ تكملة شرح المنهاج[1] .

كتاب منهاج الطالبين هو للإمام النووي ، وقد شرحه الإسنوي ، وبلغ فيه إلى (المساقاة) وتوفي ولم يكمله ، فأكمله الزركشي . وفي دار الكتب الظاهرية منه الجزء الثالث رقم (٣٤٥ فقه الشافعي) .

١٠ـ خبايا الزوايا في الفروع[2] .

قال في كشف الظنون : « أوله : الحمد لله الذي لم تزل نعمته تتجدد . . . إلخ » ذكر فيه ما ذكره الرافعي والنووي في غير مظنته من الأبواب ، فردَّ كل شكل إلى شكله ، وكل فرع إلى أصله ، واستدرك عليه الشريف عز الدين حمزة بن أحمد الحسيني الدمشقي الشافعي المتوفّى سنة ٨٧٤هـ وسمّاه (بقايا الخبايا). ولبدر الدين أبي السعادات محمد بن محمد البلقيني المتوفى سنة ٨٩٠هـ حاشية عليه » .

١١ـ خلاصة الفنون الأربعة[3] .

١٢ـ الديباج في توضيح المنهاج[4] .

ذكر صاحب كشف الظنون أن له شرحاً للمنهاج اسمه (الديباج) غير تكملة شرح المنهاج الذي مر آنفاً .

١٣ـ الذهب الإبريز في تخريج أحاديث (فتح العزيز) .

لم يذكر هذا المصنف أحد ، وإنما ذكره المؤلف نفسه في رسالته (الإجابة) هذه فقال : قلت في الذهب الإبريز في تخريج أحاديث (فتح العزيز) .

١٤ـ زهر العريش في أحكام الحشيش .

أوله : (الحمد لله على نعمائه) .

١٥ـ سلاسل الذهب في الأصول .

---

(١) كشف الظنون ، شذرات الذهب ، بروكلمان (الذيل) .

(٢) كشف الظنون ، بروكلمان .

(٣) بروكلمان .

(٤) حسن المحاضرة ، الأعلام للزركلي ، بروكلمان (الذيل) ، كشف الظنون .

١٦ـ شرح التنبيه للشيرازي .

١٧ـ شرح جامع الصحيح ، أو شرح البخاري .

١٨ـ شرح جمع الجوامع للسُّبكي (في أصول الفقه) .

ذكر صاحب شذرات الذهب أنه : « في مجلدين » وفي كشف الظنون أن اسمه (تشنيف المسامع) واختصر شرح الزركشي هذا أبو زرعة العراقي المتوفّى سنة ٨٢٦هـ بكتاب سماه (الغيث الهامع) .

١٩ـ شرح (المعنبر للإسنوي) ذكره في كشف الظنون .

٢٠ـ شرح الوجيز .

مخطوط في الظاهرية برقم ٢٣٩٢ .

٢١ـ الغرر السوافر فيما يحتاج إليه المسافر .

مختصر على ثلاثة أبواب ، أوله : (الحمد لله الذي جعل الأرض ذلولاً تمشي إلخ) ، الأول : في مدلول السفر ، الثاني فيما يتعلق عند السفر ، الثالث : (بياض في الأصل) كشف الظنون .

٢٢ـ غنية المحتاج في شرح المنهاج .

لم يذكر في كشف الظنون . إلا أن السيوطي في (حسن المحاضرة) عد في كتبه (شرح المنهاج) غير (الديباج) الذي مر ذكره ، فلعل هذا الشرح أوفى .

٢٣ـ في أحكام التمنّي .

تفرد بذكره (بروكلمان) .

٢٤ـ القواعد في الفقه (أو في الفروع)

من مخطوطات دمشق واسمه (القواعد والزوائد) . أما صاحب كشف الظنون فذكر أن اسمه (القواعد في الفروع) وأنه : « رتبها على حروف المعجم . وشرحها سراج الدين العبادي في مجلدين واختصر الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني المتوفّى سنة ٩٧٣هـ الأصل كما ذكره في متنه » .

٢٥ـ اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة

تفرّد بذكره المؤلف ، (بروكلمان) في الذيل . أما صاحب كشف الظنون فقد ذكره مغفلاً من التعريف واسم المؤلف .

٢٦ـ لقطة العجلان وبلة الظمآن

وقد طبع في دمشق مؤخراً .

٢٧ـ ما لا يسع المكلّف جهله

بهذا العنوان عد صاحب كشف الظنون مؤلفين متعددين ، ليس فيهم الزركشي وقد تفرد بذكره بروكلمان .

٢٨ـ مجموعة فقه

٢٩ـ المختصر (في الحديث)

لم يذكره أحد ممن رجعت إليهم ، وإنما وجدته في حاشية الأجهوري على شرح البيقونية للزرقاني ، قال في ص(١٥) (طبع مصر) « قال الزركشي في مختصره : يدخل القلب والشذوذ والاضطراب في قسم الصحيح والحسن » .

٣٠ـ المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمعتبر

مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق (رقمه ١١١٥ حديث) لم يذكره غير بروكلمان في (الذيل) .

٣١ـ المنثور في قواعد اللغة الفقهية

في قاموس الأعلام للزركلي : أنه هو المعروف بقواعد الزركشي ، إلا أن بروكلمان ذكر المنثور في كتابه ، ثم ذكر في (الذيل) القواعد والزوائد .

٣٢ـ النكت على البخاري

٣٣ـ النكت على ابن الصلاح

وسنتمثل مكانته في العلم وبعد غوره ؛ عند قراءة هذه الرسالة ؛ ولا حرج عليّ إذا دللتك منذ الآن على مثال من دقته وتحريه ؛ ولتعلم مبلغ تنقيره واطلاعه ؛ فانظر

بصورة خاصة استدراكه على أوهام وقعت في صحيح البخاري والترمذي ، وكيف أقام الأدلة على ما ذهب إليه ، ثم كيف اعتذر الاعتذار اللطيف الذي يسوغ ما ذهب إليه ، ثم كيف اعتذر الاعتذار اللطيف الذي سوغ درج هذه الأوهام في الصحيح ، لتستأنس بذلك في معرفة فضله ، والنسق الذي عليه تحقيقاته في مصنفاته الجليلة ، التي لم يبق من الكثير منها إلا الأسماء وبعضها ذهبت هي وأسماؤها .

رسالة (الإجابة)

لم يرد لهذه الرسالة ذكر في فهارس المكتبات المطبوعة ، ولم نسمع أنها في مكتبة خاصة ، ولم يذكرها بروكلمان ، حتى فهرس المكتبة الظاهرية القديم خال من ذكرها ، فهي على هذا ولما سيأتي ، فريدة في العالم ذات قيمة ممتازة ، وهي كما تقدم الجزء الأخير من المجموعة ذات الرقم (٣٢ مجاميع) في القبة الظاهرية ، وهي بحجم صغير ١٤×١٩س .م . وعدد أوراقها (٤٤) . والظاهر أنها مسودة كتبها المؤلف وهو ينوي أن يعود إليها بالتنقيح بدليل الشطب الكثير الذي فيها والحواشي الدقيقة التي ألحقت ببعض صحفها ، وبياض ترك في صحف متعددة بين الفقرة والفقرة أو بين الفصل والفصل ، ثم لم يسعفه الوقت فأبقاها على حالها . وصحفها لا تتشابه فبينما تجد صحيفة (١٦) مثلاً مكتظة السطور والحواشي حتى لا تتبين فيها بياضاً ، إذا بك في بعضها الآخر إزاء سطرين أو ثلاثة ، وهي في أكثرها غير منقوطة . وقد قرأها على المؤلف نفسه ولده محمد الزرّكشي وإخوته حتى الصغار منهم ، وسنثبت السماع في آخر الكتاب كما هو في الأصل . وكان الفراغ من قراءته سنة أربع وتسعين وسبع مئة وهي السنة التي مات فيها المؤلف رحمه الله . أما تاريخ كتابتها فقبل سنة ٧٩٠ ، لأنها أُهديت إلى القاضي برهان الدين بن جماعة المتوفَّى سنة ٧٩٠هـ . أما خط المؤلف فإنا إذا استثنيا خطبة الكتاب التي تخف فيها صعوبة القراءة فإن ما بقي منها أشبه بالرموز والطلاسم . ويبلغ من التعمية نهايته في الصفحة السادسة عشرة فقد لزت حواشيها لزاً بخط دقيق يشبه في بعضها ما يكتب الأطباء إلى الصيادلة باللاتينية ، وإن كان خط صاحبنا أدق وأغمض ، وبعض الكلمات يكتفي منها بأول حرف إذا وافقت حرف الصفحة وجرى على كتابة العناوين

بالحبر الأحمر . وقد صورنا هذه الصفحة ليطلع القارئ على أسلوب المؤلف في تهيئة تصانيفه .

وقعت نسخة المؤلف (الإجابة) لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة في ملك العلامة الفقيه الشافعي أحمد بن عبد الرحمن الرملي الشهير بأبي الأسباط ؛ فألحق فيها استدراك السيدة عائشة على مروان بن الحكم ، ولم يكن هذا في الأصل وإنما أثبته الرملي بخطه أيضاً ، كما ترى كلامه في موضعه من الرسالة ، فأنت ترى أنها إلى قيمتها العلمية ذات قيمة أثرية لاشتمالها على خطوط أئمة في القرن الثامن وبعده : الزركشي وولده وابن طولون الصالحي والرملي وآخر .

أما ما لقيت من عناء وبذلت من جهد ووقت فما يفيد القارئ بيانه ، إلا أني كنت بعد أن نسخ الرسالة ناسخ متقن متمرن ، حيالَ مئة وعشرين مشكلاً ، فما زلت أرجع إلى الأمهات التي أشرت إليها ، وأستعين بمذكراتي عن السيدة عائشة حتى لم يبعد منه إلا دون المواضع الخمس ، وهي إما من كلام المؤلف نفسه ، أو من نص منقول عن كتاب مفقود فلا سبيل إلى حله ، ولم أشأ التصرف من عندي بشيء ، وبقي كذلك نقص في ثلاث جمل ذهبت بعض كلماتها مع حروف الصفحة ، فلم يكن سبيل إلى معرفته . وأكبر ظني أن المؤلف ـ رحمه الله ـ لو أراد تبييض هذه النسخة لما استطاع حل رموز هو عقّدها .

ولا أريد أن أكتم القارئ اغتباطي من نزول العدد من مئة وعشرين إلىٰ ما دون العشر ، فقد نعمت بلذة لا يستطاع وصفها .

وإن أختم بشيء فهو الإعجاب الذي لا يحد بالمحدّثين الذين جاهدوا لعلمهم ، وأخلصوا له أكبر جهاد وأتم إخلاص ، وأشهد لقد كانوا في دقتهم وتحريهم وإحاطتهم وإتقانهم معجزة الله في المؤمنين . وما أزعم أني أدركت مدى تعبهم واجتهادهم ، وإنما استطعت ـ وأنا أُخرج هذه الرسالة ـ أن أكون في نفسي فكرة عن جهادهم في سبيل السنة .

لقد آمنت بعظمتهم وعظمة عملهم ، وأنهم الشهداء الصامتون ، وأن مدادهم أثمن من دم شهداء المعركة ، وإني لم أر ولم أسمع ولم أتخيل أن أناساً لهم مثل

تلك الهمم والعزائم والصبر والأمانة ، وإني لأخجل حين أقرّ أني - على كثرة ما أعرف من ذوي الجلادة والهمة والانقطاع لخدمة العلم - عجزت أن أعد واحداً بذل معشار ما كان يبذل أصغر أولئك المحدّثين . وما لي أخجل ؟ وقد أيقنت أن ما قدموا هو شيء فوق طوق البشر ، فرحمهم الله وأثابهم ونفع بهم وقيض لهذا العلم الجليل من يعنى به على غرارهم .

الظاهرية وابن حزم

مقالة تبيّن تحوّل ابن حزم إلى المذهب الظاهري .
نشرت في مجلة التمدن الإسلامي ، السنة السادسة ، الجزء الأول ، عام ١٩٤٠ .
وقد نشر أستاذنا ترجمته من سير أعلام النبلاء ، وحقّق بعض رسائله

لم يعتنق ابن حزم في الفقه المذهب الشائع في الأندلس في عهده ، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ، وإنما اتخذ فيه مذهب الإمام الشافعي ، وطفق يدافع عنه حتى عرف به بين العلماء ، ونصب نفسه هدفاً لأتباع غيره من المذاهب المستفيضة في الأندلس ، « فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ »[١] ولا جرم ففي جبلّة ابن حزم ثورة فطرية على التقليد ، فلما اشتد واستحكم عدل عن مذهب الشافعي واجتهد بنفسه على قواعد أهل الظاهر ، ولزم دعوة الظاهرية ينشرها ويؤيدها في أكثر تصانيفه ، وينافح عنها خصومها بقوة وعنف ونشاط حتى مات رحمه الله .

إمام هذه الطائفة وأول من قال بالظاهر هو : داوود بن علي الأصفهاني المتوفى سنة (٢٧٠هـ)[٢] « أخذ بالكتاب والسنة وألغى ما سوى ذلك » من رأي وقياس ، وألف كتباً كثيرة في الفقه على أصوله بلغت قريباً من المئتين ، على فضل وعلم وورع وصدق ، وعلى خطته درج ولده محمد ، وتتابعت بعدهما أئمة الظاهريين[٣]

قال الشهرستاني : « ومن أصحاب الظاهر مثل داوود الأصفهاني وغيره ممن لم يجوّز القياس والاجتهاد في الأحكام : (الأصول هو الكتاب والسنة والإجماع

---

(١) إرشاد الأريب .

(٢) قلت : انظر ترجمته في دول الإسلام للذهبي بتحقيقي ١/ ٢٤٣ وثمة مظان ترجمته .

(٣) انظر أئمة المدرسة الظاهرية وما خلفوا من الكتب في فهرست ابن النديم .

فقط) أن يكون القياس أصلاً من الأصول وقال : « أول من قاس إبليس » ، وظن أن القياس أمر خارج عن مضمون الكتاب والسنة ، ولم يدر أنه طلب حكم الشرع من مناهج الشرع ، ولم تنضبط قطّ شريعة من الشرائع إلا باقتران الاجتهاد به ، لأن من ضرورة الانتشار في العالم : الحكم بأن الاجتهاد معتبر ، وقد رأينا الصحابة كيف اجتهدوا وكم قاسوا ، خصوصاً في مسائل الميراث من توريث الإخوة مع الجد ، وكيفية توريث الكلالة ، وذلك مما لا يخفى على المتدبر لأحوالهم . . . »[١] .

وقد ترك الظاهريون المشكلات التي لم تخطر للنبي ﷺ ولا لأصحابه من حملة السنة ووقفوا عندها ، وانتشر مذهبهم بعض الانتشار في العراق وفارس وخراسان ، وكان منهم أُناس في بلاد الشام ، في حين لم يكن بالأندلس منهم لعهد ابن حزم غيره ، وقد حفظ الشعراني في (ميزانه) والرازي في (تفسيره) والمقريزي أنماطاً وقضايا للظاهرية فانظرها ثمة . وعدّوا ممن قال بالظاهر الإمام أحمد بن حنبل ، أحد الأئمة الأربعة ، فهو بتركه القياس وأخذه بالمأثور ووقوفه عند النصوص أشبه الظاهرية .

جاء في رسالة للشيخ محمد الشطي : « ولما كان الإمام أحمد من أئمة الظاهر كداوود بن علي الظاهري وابن حزم وغيرهم ، التزم البعض من متقدمي فقهاء الحنابلة نقل أحكام مذهب داوود وغيره ، ككتاب (رؤوس المسائل) لأبي الخطاب محفوظ . . . . و(الرعايتين الصغرى والكبرى) لابن حمدان وغيرها من الكتب المعتمدة في المذهب »[٢] .

والظاهريون بوقوفهم عند النصوص وطرحهم القياس كانوا إلى الرخصة والتسامح في بعض المسائل وإلى الشدة في بعض ، حتى إن المرء ليعجب من بعض أحكام يطبقونها .

---

(١) ٢ : ٤٥ على هامش كتاب الفصل لابن حزم .

(٢) مجموع يشتمل على رسالتين : الأولى في مذهب داوود الظاهري جمع محمد الشطي ، والثانية في مسائل شيخ الإسلام ابن تيمية جمع برهان الدين ابن قيم الجوزية ص٣ (دمشق سنة ١٣٣٠هـ مطبعة روضة الشام) .

وإليك هذا المثال لتعرف طراز أخذهم بالظاهر :

الماء ينجس إذا بال فيه بائل لحديث « لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه » فلو بال في إناء وصبه في الماء أو بال على شيء فجرى البول إلى الماء فلا ينجس!! »[1] .

وأظن في هذا المثل كفاية في إطلاعك على أنماطهم في النظر ، وأصبح بذلك مذهبهم سمحاً سهلاً في أمور وشديداً في أمور . ومن الطريف أن تطلع على المسائل التي جمعها الشطي في مذهب داوود وتقابلها بأمثالها في المذاهب الأخرى ، وقد جاء في ختام الرسالة المذكورة : « ومن أراد الاطلاع على مذهب داوود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي »[2] .

ولم يخل الأَمر من حملة عنيفة يسوقها عليهم خصومهم شأن كل مذهب ، فترى القاضي أبا بكر بن العربي يصمهم بأنهم : « أُمة سخيفة تسوّرت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقّفوه من إخوانهم الخوارج حيث تقول : لا حكم إلا لله » وقال عنهم :

« يقولون : (لا قول إلا ما قال الله ، ولا نتّبع إلا رسول الله ، فإنّ الله لم يأمر بالاقتداء بأحد ولا بالاهتداء بهدي بشر) . فيجب أن يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة وتهويل » ثم قال يوصي أصحابه بالطريق إلى تعجيزهم : « فأوصيكم وصيتين : ألا تستدلوا عليهم ، وطالبوهم بالدليل ، فإن المبتدع إذا استدللت عليه شغب ، وإذا طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلاً .

فأما قولهم: (لا قول إلا ما قال الله) فحق، ولكن أرني ما قال الله. وأما قولهم : (لا حكم إلا لله) فغير مسلّم على الإطلاق ، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره مما قاله وأخبر به ، فصح أن رسول الله ﷺ قال : « وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري : ما حكم الله : ولكن أنزلهم على حكمك » .

---

(١) المصدر السابق ص٦ .

(٢) المصدر نفسه ص٢٧ .

وصح قوله : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء . . الحديث »[1] اهـ .

هذا ولست بصدد شرح آراء الموافقين والمخالفين ، فإن جمود المذهب على ظاهر النصوص أورثه بطئاً في حركة انتشاره حتى لم يعدُ طائفة خاصة ، ثم انقرض مع الزمن ولم يرزق ما رزقت بقية المذاهب من الانتشار ، لفقدانه المرونة الضرورية لكل زمان ومكان ، فاندثر ليبقى الأنسب .

وكأن القدر وضع ابن حزم بموضع المخالف المجاهد ، فاتّباعه الشافعي أول الأمر جر عليه عداوة الفقهاء وتشنيعهم ، والقول بالظاهر بعد ذلك ألّب عليه وعلى نحلته أقواماً لا قبل له بهم ، ومع هذا استصغر الأذى في سبيل ما يرى أنه الحق ، وصمد لخصومه وكافحهم ولم يلق السلاح من يده حتى فارق الحياة بعد أن ملأ المغرب بدعوته وهو فرد ، كما اعترف خصمه العنيد أبو بكر بن العربي .

ومن قصيدة لابن حزم تراها في موضع آخر أبيات يشرح فيها وجهة النظر الظاهرية وهي :

فقلت : هل عيبهم لي غير أنّي لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم أفن
وأنني مولعٌ بالنصّ لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني نحو آراء يقال بها ... في الدين ، بل حسبي القرآن والسنن

وخير لنا في وقفك على جهاده وما تحمله في سبيل دعوته أن نسوق إليك قول أبي مروان بن حيان ، فقد لخص لنا مجمل ما لاقى في حياته من اضطهاد وإعراض في سبيل مذهبه ، قال :

« ثم عدل إلى الظاهر فنقّحه وجادل عنه ، ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يرقّه بتدريج ، بل يصك به معارضه صكّ الجندل ، وينشقه إنشاق الخردل ، فينفر عنه القلوب ، ويقع به الندوب ، حتى استهدف إلى فقهاء وقته فتمالؤوا عليه ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهَوْا عوامهم عن الدنوّ منه ، فطفق الملوك يُنصّونه (يبعدونه) ويسيّرونه عن

(١) تذكرة الحفاظ .

بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره ، وهي بلدة من بادية ليلة وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع : يبث علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم، كمل من مصنفاته وقر بعير، لم يجاوز أكثرها عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها ، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية » إلخ .

على أنه قد وجد بعض التأييد من حاكم جزيرة ميورقة : العباس بن أحمد بن رشيق ، فقد استدعاه إلى جزيرته بعد أن كانت الفتيا فيها على مذهب مالك فلبى الدعوة ودخلها بعد سنة ٤٣٠هـ فنشر مذهب الظاهرية في كنفه حتى فشا ، وكانت تقوم المناظرة بينه وبين خصومه في مجلس الحاكم نفسه ، حتى إن أبا الوليد بن البارية الميورقي الفقيه المالكي ناظره بمجلس ابن رشيق ، لم يستطع الوقوف لابن حزم وأتى ببعض الهفوات فأغلظ عليه القول ابن حزم ، وعظم عليه ما أتى ، ثم سجنه ابن رشيق أياماً ، ولم يطلقه حتى أشهد عليه بالتوبة ، وتركه يخرج إلى الحج فتوفي في وجهه ، هذه كل الحماية التي ظفر بها ابن حزم .

ومن الغريب أن بعض الناس استغلوا تشيعه لبني أمية فرموه ببغض « علي » أي بالنصب ، وما أكثر ما يلقى من نصب نفسه لقول الحق والصدع به ، بمزاج مثل مزاج ابن حزم صراحةً وصدقاً وعدم مبالاة وإهمالاً للعواقب ، جرّت عليه ما جرت .

وليس لأصحاب مذهب الظاهر كتب نعرف منها آراء وأصول مذهبهم إلا ما سمح ببقائه الدهر من كتب ابن حزم حتى قيل على ما مر بك آنفاً : « من أراد الاطلاع على مذهب داوود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي » ولا ريب أن ابن تيمية عيال في هذا على ابن حزم .

هذا وقد أطبق الذين ترجموا له على ورعه وتدينه وزهده وتحريه للصدق ، وتواضعه ولين جانبه ، مع عمل صالح وجرأة نادرة ، وصبر طويل واحتمال في ذات الله ، إلى فضائل جمة ، وأنعم بها من مزايا لا تكمل إلا لعدد قليل يبعثهم الله في أحقاب متطاولة ، ليقرّ بهم حقاً أضيع ويهدم باطلاً أشيع ، ويرجع عباده إلى دينهم الحق ، ويمتحنهم الله بما امتحن به أنبياءه الكرام عليهم الصلاة والسلام من أذى الناس وحسدهم ، وعذابهم ، فيحملون ذلك كله بصبر كبير وصفح جميل ، ويهدي

بسيرتهم هذه أكثر مما يهدي بعلومهم .

وإنك لتلمس خوف ابن حزم من الله واليوم الآخر في كل ما تقرأ له ، بلغت الحماسة لدينه من نفسه كل مبلغ وملكت عليه وقته وتفكيره فطرح الدنيا وجاهها وغرورها ، ونبذ المناصب والوزارات لينشر الدين غريباً مشرداً طريدَ سجونٍ وحكام ، ووشايات ، وهذا ما تفعله العقيدة إذا حلت قلباً كبيراً ، ونفساً مخلصة ، وهي سيرة حميدة فيها تبصرة لقوم يعقلون .

الصهيونيّ الأول (١)

مقالة مهداة إلى : « الأقلام النبيلة المجنّدة لنصرة فلسطين »
يبيّن فيها أستاذنا دور عبد الله بن سبأ اليهودي في الفتن ، وشقّ صفوف المسلمين .
نشرت في مجلة الرسالة العدد ٦٥١ عام ١٩٤٥م

تمهيد

بات العرب في مشارق الأرض ومغاربها في هم مقيم مقعد من خطر الصهيونية بفلسطين ، ومن كفر ساسة الإنجليز والأمريكان بالضمير والإنسانية . ولقد حق لهم ذلك ، فإن في إرث غريزتهم التاريخية ـ من حيث لا يشعرون ـ علم ما تكنُّ الصهيونية من قوة على الشر ، وعبقرية في تهديم مثل الخير والحق ، وما تستتبع من شرور آخذ بعضها بحجز بعض ، وبعض هذا كاف في تبرير همهم وفزعهم .

وجميع الباحثين في تاريخ هذا الجرثوم الخبيث يردون نشأته إلى القرن الثامن عشر ، لا يرقَوْن إلى ما قبل ذلك ؛ فما قول القارئ الكريم إذا عرف أن العرب بلوا بفتك هذا الداء منذ أربعة عشر قرناً ؟ وأن عبقريته الهدامة فعلت فيهم فعلها الخبيث ، وبقوا يعانون آثارها السرطانية في وحدتهم الدينية والقومية حتى يوم الناس هذا .

وظاهر أني عنيت أعظم مأساتين في تاريخ المسلمين : مقتل عثمان وحرب الجمل ، وأكثر المؤرخين يوزعون التبعة بين بعض الزعماء غافلين عن روح الشر وبطل الفتنة ، والقليل منهم ممن انتبه إلى العامل الحقيقي وجعل له نصيباً ثانوياً في تأريث الشر . أما أنا فقد خرجت من بحثي بيقين لا يعدله يقين إلى أنه كان في الفتنتين جميعاً عامل أولي واحد هو هذا الصيهوني ، وإليك البيان منتزعاً من كتاب أُعّده عن (عائشة والسياسة) بعد ذكر الحوادث المعروفة .

في مأساة عثمان :

رأيت من الخير قبل أن أنتقل إلى مآتي السيدة عائشة بعد عثمان أن أنبه إلى سبب هام أعزو إليه تبعة هذه المأساة ، مأساة عثمان التي ذهبت ضحيتها وحدة المسلمين فلم يجتمعوا بعده قط . أودع أيام عثمان مقرراً : أن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة كعلي وطلحة والزبير وعائشة . هو ـ بعد التمحيص ـ من التبعات الثانوية . أما أقوى الأسباب التي أرثت الشغب وهاجت الاضطراب وبذرت الشرور وأوقدت الفتنة ؛ فهو مؤامرة واسعة منظمة محكمة ، سهر عليها أبالسة خبيرون ، وسددوا خطاها وتعهدوها في جميع الأقطار حتى آتت ثمرها . ولم تلق هذه المؤامرة من عامة المؤرخين ما تستحق من التوضيح والاهتمام ، وأنا أجزم هنا أن الأسباب التي يذكرونها كلها ، والتبعات التي يوزعونها بين من ذكرت ومن لم أذكر . . . لن تقوى مجتمعة على أن تسامي هذا السبب الهام الذي أشرت إليه ؛ بل أجزم أنها جميعاً عناصر (ثانوية) لم تكن لتنتج شيئاً لولا هذا الجو الذي هيأه إبليس هذه المؤامرة عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء . وأبعد من هذا ، أني أومن أشد الإيمان بأنه لو لم يكن شيء قط من هذه المساعي التي يذكرونها ، لكان عمل ابن السوداء وحده كافياً في بلوغ النتيجة المشؤومة نفسها .

* *

عبد الله بن سبأ يهودي من صنعاء أمه سوداء ، تظاهر بالإسلام على عهد عثمان ، ثم اندفع متنقلاً في البلدان الإسلامية ، باذراً الضلالات والشرور في هذا المجتمع السليم ، وهو رجل على غاية من الذكاء ، وصدق الفراسة ، والنظر البعيد ، والحيلة الواسعة ، والنفاذ إلى نفسية الجماهير ، أقطع أنه أَحَد أبطال جمعية سرية مخيفة غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام . وأكاد أظن أن هذه الجمعية تعمل (لحساب) دولة أجنبية ، هي دولة الروم التي انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام .

والغريب الذي لم أقض منه عجباً أن نشاط هذا الرجل قد اتسع لتعهد ميادين مختلفة هي الميدان الديني ، والميدان السياسي ، والميدان الحربي .

لقد أراد نسف العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين غريبتين : الرجعة والوصاية . وقد حفظ لنا الطبري بعض نصوص تعاليمه ، فمنها :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص ٢٨/ ٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى » ، فقُبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت في المجتمع .

ثم قال لهم بعد ذلك : « إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد . . . ، ومحمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء »[١] .

ثم انتقل خطوة بعد هذا التمهيد ؛ فجمع بين إفساد الميدان الديني والسياسي في إذاعة قوله : « فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة »[٢] .

ثم قال بعد ذلك لأتباعه : « إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ؛ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر »[٣] . وهكذا دخلت تعاليم هذا المفسد الذكي قلوب الناس إذ تلطف لهم ؛ فجاء من الجهة التي تحنُّ لها قلوبهم ، وتهواها أهواؤهم .

لقد طاف الأقطار العربية قطراً قطراً ، بدأ بالحجاز باثاً ضلالته ، ثم انعطف إلى الشام ، والشام يومئذ بيد بصير بأمره معاوية بن أبي سفيان ، الذي فطن إلى خطره فأبعده ؛ إلا أنه على حذره أصابه رشاش من إفساده . والطبري يزعم أن ابن السوداء « لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر »[٤] .

والصحيح أنه قدر ، وزرع ، وحرك على معاوية صحابياً جليلاً أذعن عامة الشاميين لأقواله حتى اضطر معاوية الداعية الحليم إلى أن يطلب من الخليفة عثمان

---

(١) انظر هذه الأقوال كلها وغيرها في تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٨ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨هـ) .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه .

إخراجه من الشام ، ذلك هو أبو ذر الغفاري وحادثه معروف مشهور ؛ وهذا الطبري نفسه يتولى قص الحادث :

« لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال : « يا أبا ذر! ألا تعجب إلى معاوية يقول : « المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله!! » كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين ؟ فأتى أبو ذر معاوية فقال له : « ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ » قال معاوية : « يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال مال الله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ » قال أبو ذر : « فلا تقله »[١] . . . ثم كان ما كان من تأليب أبي ذر الأغنياء على الفقراء وخوف معاوية على الشام منه ومن دعوته ، ثم نفيه منها .

إني لشديد الإعجاب بذكاء ابن السوداء وصدق فراسته ، وإحكام دراسته لنفسيات الناس ، لقد عرف الخبيث من يختار من الشام فيخدعه بالله ، ولقد وفق التوفيق كلّه بهذه المقالة التي فصّلها على مزاج أبي ذر ، فلم يكد يلقيها حتى طار بها أبو ذر فحطّ على معاوية . وهذا هو فن ابن السوداء الذي أنجح مساعيه ؛ فهم جيد للناس وأمزجتهم ونفوسهم ، و(استخبارات صادقة منظمة) انتفع بها أعظم الانتفاع في إحكام خطط الشر ، واستغلال حسن لغفلة المسلمين عن نواياه ، وخداع ماكر لهم عن دينهم ، وسلامة دولتهم .

لقد جنى الروم من دسائس ابن السوداء خيراً كبيراً : إذ شغل القوى الإسلامية بعضها ببعض فكسر شوكتها ، وشغلها عن الاندفاع في الفتوح ، وما استتبعت بعد ذلك من شرور أخذ بعضها برقاب بعض أفظع وأشنع هولاً . ولو وقع ابن السوداء هذا لإنجلترا اليوم لاستغنت به في إفناء عدوها عن جيوش وأساطيل ومنظمات استخبارية تعج بالخبيرين الفنيين .

والظاهر أن ابن السوداء سكر بهذا الظفر الذي لم يكن يتوقعه في الشام ، فأتى أبا الدرداء ، ففطن هذا لمكره فقال : « من أنت ؟ أظنك والله يهودياً »[٢] ، ثم انصرف

---

(١) الجزء نفسه ص٢٣٥ .

(٢) ص٣٦٨ .

عنه فأتى عبادة بن الصامت ، فتلعق به عبادة وسلمه إلى معاوية قائلاً : « هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر »[1] .

« كان الحكيم بن جبلة رجلاً لصاً ، إذا قفل الجيوش خَنَسَ عنهم ، فسعىٰ في أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكّر لهم ، ويفسد في الأرض ، ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب إلى عامله عبد الله بن عامر : « أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجنَّ من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً » . فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها[2] .

على هذا الرجل المفسد الموتور الجريء الناقم على عثمان ، نزل عبد الله بن سبأ لما أتى البصرة ، وصار يجتمع إليه الناس ، ويبث إليهم تعاليمه الهامة ومقالاته الثورية للفرقة ، بلباقة ، لا يصرح فيها بما ينم عن نواياه ، وفشا أمره ، وقبل الناس ما يقول وعظموه ، وبلغ خبره الوالي عبد الله بن عامر . فأرسل إليه فسأله : « ما أنت » ؟ فأخبره : « أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك » . فقال عبد الله : « ما يبلغني ذلك ، اخرج عني » فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، فاستقر بمصر وجعل يكاتب جماعاته في الأمصار ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم »[3] .

هكذا صار ابن السوداء بماله من (استخبارات وفروعٍ يتسقط الناقمين واحداً واحداً : ممن ناله عقوبة أو تأديب من عامل أو خليفة ، أو ممن له طموح إلى منفعة لم يصل إليها . . . فجعلهم حزبه وبطانته ، وألف بينهم حتى صار له في كل بلد جماعة . فلما نظم هذه الفروع استقر بمصر يثوّر الناقمين ، وألقى إلى جماعاته في الأقطار دستور العمل وخطة الدعاية التي تسبق الثورة ، وإليكها كما حفظها الطبري :

« انهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر » .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الطبري ٣/ ٣٦٨ .

(٣) المصدر نفسه .

فبث دعاته ، وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه هؤلاء في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة (العاصمة) وأوسعوا الأرض إذاعةً ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون ؛ فيقول أهل كل مصر : « إنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء » . . . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : « إنا لفي عافية مما فيه الناس »[1] .

وأحكمت هذه الجماعة أمرها ومؤامرتها ، وأرسلت إلى الأمصار كتباً مزورة بما شاؤوا من شكوى واستنجاد بأهل الأمصار ، وتحريض لهم على الثورة والخلع ، وجعلوا هذه الكتب على لسان علي وطلحة والزبير وعائشة .

لقد ملأ ابن السوداء البلاد نقمة وثورة وفساداً ، وأصبحت الأقطار كلها هشيماً يابساً ينتظر شرارة واحدة كان إرسالها أهون شيء على جمعياته وأتباعه . فلما قدمها التهمت الأخضر واليابس وأراقت الدماء وسالت جموع الثائرين من أهل الأمصار المختلفة على مدينة الرسول وكان ما يعرف كل قارئ من قتل الخليفة الشهيد على حال تبكي الصخر الأصم .

وهكذا قضى هذا الصهيوني الأول على حكم (المدينة) وحكومة (الراشدين) إلى يوم الدين .

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٧٩ ، هذا ويعجبني من أحد رواة الطبري فهم جيد لفلسفة الحوادث : إنه يعزو كثرة الناقمين من الصعاليك إلى عامل اقتصادي هو ظفر أهل السابقة من المهاجرين والأنصار بالغنائم الوافرة والضياع العامرة ، وحسد الصعاليك لهم حسداً خفياً لا يظهرونه لأنه « لا حجة لهم فيه والناس عليهم ، فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي أو محرر استحلى كلامهم ، فكانوا في زيادة والناس في نقصان حتى غلب الشر ومن هذه الكثرة التي تمت في الخفاء وجد ابن السوداء وأتباعه مادة وقودهم ، فما هبت الهيعة إلى الشر حتى كانوا جميعاً على استعداد للفتنة .

الصهيوني الأول (٢)

مقالة يتابع الأستاذ فيها ما نشره في العدد ٦٥١
عن الصهيوني الأول .
وهي منشورة في مجلة الرسالة العدد ٦٦٢/ عام
١٩٤٦

في الفاجعة الكبرى : فتنة الجمل :

سقط الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان مضرجاً بدمه ، ضحية المؤامرة الخطرة التي دبرها بإحكام عبد الله بن سبأ مالئ الأرض فتناً وشروراً وفساداً . فضج الناس من هول الفاجعة وفداحة الخطب ، وجأروا يطالبون بثأر عثمان . فانبلج ذهن ابن السوداء عن خطة مضاعفة ينجو بها هو ومن معه من القصاص ، ثم يتحفز هو لإحكام مؤامرة أكبر ، وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها الكارثة بعثمان رضي الله عنه .

انضم هو ومن تابعه إلى علي بن أبي طالب ، حين انبرت السيدة عائشة وطلحة والزبير يؤلبون الجماهير للطلب بدم عثمان ، فكان لا بد للإمام علي من الخروج لرد السيدة ومن معها خشية أن ينبثق صدع جديد ، فلما وصل إلى الكوفة كان ابن السوداء وأعوانه أنشط جنده في الدعوة لأمره ، وبذلك كانا في حرز حريز من الثائرين لعثمان الذين احتلوا البصرة يستعدون .

جرت بين علي وأصحاب الجمل مكاتبات ثم سفراء ووفود ، وتفاهم الفريقان ، وفرح الناس بانقشاع الغمة ، وتراضي المسلمين وجمع الكلمة على المشاورة في كل أمر ، وعلى أن يكون أول الأمور حلاً أن يأخذ علي في قصاص قتلة عثمان ، ورتق هذا الفتق الذي أحدثه ابن سبأ وأعوانه في أرض الجزيرة .

أرسل علي إلى رؤساء أصحابه بما تم عليه الإجماع من اتفاق ، وكذلك فعل طلحة والزبير ، واتفقوا على الصلح ، وبات الناس بليلة لم يبيتوا بمثلها فرحاً وابتهاجاً بما أشرفوا عليه من العافية والسلامة . أما ابن السوداء وأصحابه فقد باتوا

بشر ليلة باتوها قط ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم في سر من الناس خشية أن يفطن أحد لما يبيتون من الشر .

المؤامرة :

أشرف الفريقان من أصحاب علي وأصحاب الجمل على الصلح والاجتماع ، واطمأنوا إلى نوم هنيء لما وفقهم الله إليه ، وكان في هذا ما يسر الناس جميعاً ، إلا هذا الفريق الذي لا يطيب لهم عيش إلا بتأريث الشر ، وهم هؤلاء السبئية المؤلبة على عثمان والوالغة في دمه ، عرفوا أن لا مقام لهم سواء انتصر علي أم خصومه لأن علياً لن يسكت عن إقامة حد متى تم له الأمر وأمكنته الفرص ، وكذلك أصحاب الجمل إن ظفروا لم يتركوا أحداً ممن شارك في دم عثمان ؛ لقد كان هم الناس من الفريقين قتلة عثمان أينما كانوا .

جمع ابن السوداء هؤلاء النفر في ظلمة الليل البهيم ، وكان منهم علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وخالد بن ملجم وسالم بن ثعلبة العبسي وشريح بن أوفى والأشتر . . . ، في عدة ممن وقعوا في شرك الطاغية عبد الله بن سبأ فلعب بعقولهم وسيرهم وأتباعهم إلى عثمان ، جمعهم فتداولوا بينهم هذا الكلام :

« ما الرأي ؟ وهذا والله علي ـ وهو أبصر الناس بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك ـ وهو يقول ما يقول[(١)] ولم ينفر إليه إلا قتلة عثمان والقليل من غيرهم ، فكيف به إذا شام (نظر) القوم وشاموه ، وإذا رأى قلتنا في كثرتهم ؟ . . . أنتم والله ترادون ، وما أنتم بأنجى من شيء » .

الأشتر : أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما ، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم . ورأي الناس فينا واحد ، وإن يصطلحوا فعلى دمائنا . . . فهلموا ـ يا قتلة عثمان ـ فلنتواثب على علي فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون .

---

(١) كان علي بعد أن اتفقت الكلمة خطب في أصحابه فقال : « ألا وإني راحل غداً فارتحلوا ، ألا لا يرتحلنّ غداً أحد أعان على عثمان بشيء ، وليغن السفهاء عني أنفسهم » الطبري ٣/ ٥٠٧ وهم يعنون قوله هذا وقد نزل عليهم كالصاعقة إذ كانوا يرون أنفسهم أخلص جنده وأقواه .

ابن السوداء : بئس الرأي رأيت : أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذي قار ألفان وخمس مئة ، وهذا ابن الحنظلية (القعقاع بن عمرو) وأصحابه في خمسة آلاف : بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلاً ؛ فارقأ على ظلعك[1] .

علباء بن الهيثم : ـ انصرفوا بنا عنهم ودعوهم ؛ فإن قلوا كان أقوى لعدوهم عليهم ، وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم . دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تثقون به ، وامتنعوا من الناس .

ابن السوداء : ـ بئس ما رأيت ، وَدَّ ـ والله ـ الناس أنكم على جديلة (ناحية) ولم تكونوا مع أقوام برآء ، ولو كان ذلك الذي تقول لتخطّفكم كل شيء .

عدي بن حاتم : ـ والله ما رضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله في خوض الحديث ؛ فأما إذا وقع ما وقع ونزل من الناس هذه المنزلة ، فإن لنا عتاداً من خيول وسلاح محموداً ؛ فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا » .

ابن السوداء : ـ أحسنت .

سالم بن ثعلبة : ـ من كان أراد فيما أتى الدنيا فإني لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتي ، ولئن طال بقائي إذا أنا لاقيتهم لا يزيد على جزر جزور[2] . وأحلف بالله : إنكم لتفرقون من السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف .

ابن السوداء : ـ إن هذا قد قال قولاً .

شريح بن أوفى : ـ أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمراً ينبغي لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخيره ؛ فإنا عند الناس بشر المنازل ، فلا أدري ما الناس صانعون بنا غداً إذا ما هم التقوا .

ثم تكلم ابن السوداء بعد أن أدلى كل بدلوه فقال :

« يا قوم ، إن عزكم في خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر : فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ،

---

(١) أي : إنك ضعيف فتكلّف ما تطيق وأصلح أمرك . القاموس .

(٢) يريد : وقتاً بمقدار ما تنحر الذبيحة ويسلخ جلدها .

ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون . فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون »[1] .

وعلى ذلك انفض الاجتماع الأثيم ، وأحكمت الخطة .

قاتل الله ابن السوداء ، فوالله ما أراه إلا شيطاناً خلق من مارج من نار ، ما أبصرَهُ بطُرق الفتنة وبثِّ العقارب ، وما أدقَّ توهينه تلك الطرق التي أشار بها أصحابه ، ما أفطنه إلى ضعفها وقلَّة غنائها ، ثم كيف آل به تقليب الرأي حتى اهتدى إلى التي ليس بعدها شر منها : قاصمة الظهر ومبيدة الأمم .

ومنذا الذي يقرأ هذه المؤامرة ، وكيف أدار أصحابها الآراء على وجوهها المختلفة ، ثم لا يرجع ذهنه بسرعة البرق إلى ما ذكره أصحاب السير عن مجلس كفار قريش في دار الندوة : يجيلون الرأي في محمد ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، وقد حضر اجتماعهم ذاك إبليس بهيئة شيخ نجدي ، فجعل كلما عرض أحدهم رأياً في القضاء على دعوة محمد وهّنه وأظهر فساده ، حتى أعيا القوم جميعاً بحجته ، فسألوه : ما عنده ؟ فقال : تختارون من كل قبيلة رجلاً جلداً ، فيجتمعون ويضربون محمداً ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل ، ولا طاقة لبني هاشم بقبائل العرب كافة » .

أليست تلك المؤامرة نسخة (طبق الأصل كما يقولون) عن هذا المجلس ؟

أليس ابن السوداء هذا إبليس بعينه ؟ وأستغفر الله ، فأين يقع منه إبليس ؟ لهو والله أبلغ نكاية بهذه الأمة من إبليس ، وأبعد أثراً في الدس والكيد . وأخشى أن يكون الذي ظنوه إبليس ابناً من أبناء السوداوات أبطال الشر والمكر والفساد من اليهود : تنكر لهم شيخاً نجدياً إحكاماً لدسيسته .

* *

لما كان الغلس انسل هؤلاء المؤتمرون ـ وما يشعر بهم جيرانهم ـ إلى الأمر الذي أجمعوا عليه انسلالاً وعليهم ظلمة ، خرج مضريهم إلى مضريهم ، وربعيهم إلى

---

(١) خلد حديث هذه المؤامرة المؤرخ الطبري في تاريخه ٣/ ٥٠٧ـ٥٠٨ .

ربعيهم ويمانيهم إلى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بغتوهم ، وحيرتهم الصدمة فقد كانوا باتوا على صلح تغشاهم الطمأنينة والسكينة .

فجيء الناس جميعاً ، وخرج طلحة والزبير فسألا : « ما هذا ؟ » فقالوا : « طرقنا أهل الكوفة ليلاً » . فقالا :

« قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ، ويستحل الحرمة ، وأنه لن يطاوعنا » .

ثم خرجا في وجوه الناس من مضر ، فبعثا إلى الميمنة ـ وهم ربيعة ـ عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام يعبئها ، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وثبتا في القلب .

ـ استطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم ؛ فسمع علي الصوت ـ وكان السبئيون المتآمرون قد وضعوا طبقاً لخطتهم رجلاً قريباً منه ليخبره بما يريدون ـ فلما قال : « ما هذا ؟ » قال ذاك الرجل :

« ما فجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا ، فرددناهم من حيث جاؤوا فوجدنا القوم على رجل ، فركبونا وثار الناس » .

فقال علي لصاحب ميمنته : « ائت الميمنة » وقال لصاحب ميسرته : « ائت الميسرة » ثم قال : « قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا » .

والسبئية مجتهدون في إنشاب القتال لا يفترون ، والتحم الناس بعضهم ببعض ، ودارت المعركة فاصطلى بنارها الناس جموعاً ، وكاد هؤلاء الناس الذين باتوا مصطلحين على خير حال ، كادوا أن يتفانَوْا ، وانحسرت المعركة عن خمسة عشر ألفاً من القتلى وما لا يحصى من الجرحى ، وكان فيمن قتل رؤوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين الأولين ، وسجل التاريخ أفجع نكبة حلّت بالمسلمين منذ كان للناس تاريخ .

* *

وبعد ، فهل ألب الأمصار على عثمان إلا ابن السوداء ؟

وهل غرهم أحد بمثل ما زوّر لهم من كلام ترويجاً لدعوته ؟

وهل دم عثمان إلا نجاح خطة ابن السوداء هذا ؟

وهل استطاعت الروم وفارس أن تنال من هؤلاء الفاتحين بمثل ما نال منهم ابن السوداء ؟

وهل هذه العشرات الألوف من دماء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم إلا ثمرة خبه وكيده ومكره بهذا الدين وأهله ؟

وما زال المسلمون من يومهم ذاك إلى الآن في شرور متتالية يزجها إليهم أبناء السوداوات[1] في مختلف الأعصار والأمصار : دساً في دينهم وتفرقة لكلمتهم ، واستهانة بتاريخهم ، واستخفافاً بتقاليدهم ومقوماتهم ، ووضعاً من شأن لغتهم ، وإفساداً لأخلاقهم ، وتهويناً من سلامة نظمهم ، وإشادة بكل مذهب أجنبي يفكك عراهم ويأتي بنيانهم من القواعد . والغريب أننا قوم (طيبون جداً) لا نرى غضاضة في توسيد أمورنا الصغيرة أو الكبيرة إلى الذين كانوا مطايا الاستعمار وجواسيس الأجانب ، وأجراء لكل دعوة هدامة ودولة طماعة . نفعل ذلك عن غفلة تارة وعن غرور تارة ، وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تفطن إلى أبناء السوداوات هؤلاء إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا ليقضي الله أمراً كان مفعولا[2] .

ترى هل بدأنا نتعظ[3] ؟

---

(١) يصح أن نطلق (أبناء السوداوات) على الذين يقومون في المجتمع الإسلامي ، في ميادينه الفكرية والعلمية والتربوية والسياسية و . . . . بمثل مهمة (الطابور الخامس) لأيامنا هذه ، تسمية لهم باسم أعظمهم شراً ودساً وكيداً : عبد الله بن سبأ ، ابن السوداء .

(٢) من كتابنا المعد للطبع (عائشة والسياسة) ص١٥٤ .

(٣) لا والله ـ يا أستاذنا ، فقد حلّت بنا النكبة ١٩٤٨ ، وضاعت فلسطين كلها ١٩٦٧ وسقطت بغداد ٢٠٠٣ ، وما زال فريق منا يجري وراء أبناء السوداء يسترضيهم .

معاوية بين يدي عائشة

مقالة نشرت في مجلة الرسالة العدد ٧١٤ عام ١٩٤٧

وهي في كتاب الأستاذ : (عائشة والسياسة)

الشورى أساس من أسس الحكم في الإسلام ، فكلما كان حظ الحكم منها أوفى كان أقرب إلى روح الإسلام . والحاكم الأعلى في العرف الإسلامي أجير للناس كافة : يسهر على مصالحهم ويمضي أحكام الشرع ويستوفي أجره من بيت مالهم ، وليس يملك من الأمر غير ذلك .

انقضى عهد الراشدين وفَهْمُ أجلاّء الصحابة ورؤوس الناس للحكم هذا الفهم ؛ فلما اتفق أن ولّى الخليفة عثمان رضي الله عنه بعض الأكفياء من أقربائه أعمالاً ، أعظم الناس ذلك ، وخافوا أن تصير مصالحهم العامة حُكْرة لأحد أياً كان أو وقفاً على أسرة أية كانت ، ففشت القالة في عثمان ، وكان هذا أول الشر الذي أودى بخلافته .

أما معاوية ، فإن أربعين عاماً سلخها في حكم الشام إلى جوار إمبراطورية الرومان وفي ديارها القديمة ، قد انحرفت به عن الجادة في أمر الحكم ، فلم يسلك به الطريق الإسلامي الذي رأينا أساليب مختلفة له في عهد الراشدين ، وإنما سلك به طريقاً (بيزنطياً) وأراد الخلافة أسلوباً ملكياً على أساس بيزنطة ، وانتوى لها نية فطفق يتألف لها الناس ويهيئ لها الأمور . . . فلما وجد الأحوال مواتية أعلنها بيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد .

ولم يفعل ذلك معاوية حتى سبر أغوار الأمصار وطباع الناس ؛ وكانت قد استلانت واستكانت مدة عشرين عاماً بسبب سياسته وسياسة ولاته الحازمين الأشداء . نعم لقد استكانت إلى الطاعة ، حتى من يجيش حمية من رؤوس الناس وأحرارهم ، روّض معاوية إباءهم وأنفتهم بلطفه وعطائه الجم حتى أسلسوا القياد ، أما من لم يسلس له فقد جعله جزر السيوف كما فعل في أمر حجْر بن عدي

وأصحابه . هذا وقد حصد الموت مدة أربعين سنة أكثر الصحابة وزعماء الجماهير ممن يهابهم معاوية .

مع كل ذلك ، لم يخل إعلان البيعة ليزيد من صدمة للنفوس عامة ، فأكثرها وقف ثم رضي بالقدر المحتم ، وبعضها أنكر ورفع عقيرته بالإنكار .

أما السيدة عائشة فقد لزمت بيتها وسكينتها ، وأنا أقطع أنها جاهدت نفسها بهذه السكينة أعظم الجهاد ، وكبتتها أعظم الكبت ، وكظمت غيظاً ما كانت لتكظمه . فما كان هذا الأمر بالأمر الحقير ، إنه أعظم ما مر بالسيدة من خروج على الإسلام وتنكر لروحه ؛ ولكنها ذكرى يوم الجمل والدماء المهراقة فيه ، الدماء دائماً هي الشبح الذي يلوح لعائشة كلما همت بإنكار منكر فترعد فرائصها وتستجير بالله من كل خير يؤدي إلى شر .

لكن أعوان معاوية فاتهم اللطف في تأتيهم لهذا الخرق لحرمة الخلافة ، ولم يدركوا ما فيه من كسر لحرية ألفها العرب وشورى يتعبدون بها ، ونظم سامية تجري منهم مجرى الدم من العروق . ظن أعوان معاوية أن البيعة ليزيد أمر من هذه الأمور الكثيرة التي يرد بها البريد فتعلق للناس ، وتنفذ في يسر وصمت . . . مما لا يصدم عقيدة ولا يجافي روحاً ، ولا يكسر تقاليد ، أصيلة ، ولا يذل أنفة قومية .

* *

أرسل معاوية أمره إلى الأمصار بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده ، فوقف عامله على المدينة مروان بن الحكم يعلن هذه البيعة على منبر رسول الله ﷺ ، فكان إنكار الناس لها واحداً ، وكان متكلّمهم عبد الرحمن بن أبي بكر أخو السيدة عائشة ، فقد ردّ على مروان قائلاً :

« كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك ، لا يكون ذلك . لا تُحدِثُوا علينا سنَّة الروم : « كلما مات هرقل قام مكانه هرقل » ، « لقد جئتم بها هرقلية وقوقية[1] ؛ تبايعون لأبنائكم ؟ »

---

(١) الدنانير القوقية من ضرب قيصر لأنه كان يسمى قوقاً ـ القاموس المحيط .

قال مروان : « سنة أبي بكر وعمر » .

عبد الرحمن : « بل سنة هرقل وقيصر » ، « ما لأبي بكر لم يستخلفني ؟ وما لعمر لم يستخلف عبد الله ؟ » .

واشتد الغضب والحنق بمروان فقال :

ـ يا أيها الناس ، إن هذا الذي قال الله فيه : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف ٤٦/ ١٧] .

حينئذ ، فرغ صبر عائشة وهي تسمع من حجرتها بالمسجد ، وقد رأت أن عبث مروان تطاول إلى القرآن ، فغضبت وقالت لمن حولها : « ألابن الصديق يقول هذا ؟ استروني » فستروها فجهرت ورددت جوانب المسجد صوتها قائلة :

ـ كذبت والله يا مروان ، ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ؛ إن ذلك رجل معروف نسبه . . . ولكن (رسول) الله لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت قضض (قطعة) من لعنة الله[1] يابن الزرقاء ، أعلينا تتأول القرآن ؟! لولا أني أرى الناس كأنهم يرتعشون لقلت قولاً لا يخرج من أقطارها » .

وكان لهذه الصرخة أثرها في الجماهير فانخذل مروان وانكسر ، ولم يعرف أن يقول غير هذه الكلمة : « ما يومنا منك بواحد »[2] .

لقد كان جبْهها مروان شديداً عنيفاً حاطماً ، وما باختيارها جبهته ، ولكنه أحرجها . إن الذي بوسعها أن تفعله هو حيادها في أمر هذه البيعة غير المشروعة ، وحسبها ذلك قهراً لنفسها وللواجب عليها ، وكذلك كان : فلم ترد على مروان شيئاً لما أعلن بيعة يزيد ، لكن مروان امتد أذاه إلى أخيها بغير حق ، ثم امتد إلى ما هوأشد حرمة من أخيها وما لا يجوز لمسلم أن يقر عبثاً فيه ، لقد امتد عبث مروان إلى كتاب الله يدّعي أن آية نزلت في عبد الرحمن وهي لم تنزل فيه . . .

---

(١) تاريخ ابن عساكر (مخطوط) : ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر .

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص١٤١ .

لم يكن للسيدة ولا لغيرها أن تسكت على هذا المنكر الذي ارتكبه مروان نصرة لعصبيته السياسية .

وأي كان فقد امتنع عبد الرحمن بن أبي بكر عن البيعة ، وامتنع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وامتنع لامتناعهم أهل الحجاز .

كتب مروان بالذي كان إلى معاوية ، فأقبل نحو المدينة ، فلما دنا منها استقبله أهلها وفيهم الأربعة المذكورون ، « فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر فسبه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » .

فلما دخل الحسين بن علي قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بدنة يترقرق دمها ـ والله ـ مهريقة » .

فلما دخل ابن الزبير قال معاوية : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، « ضبّ تلعة مدخل رأسه تحت ذنبه » .

فلما دخل عبد الله بن عمر قال معاوية : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » وسبّه فقال عبد الله : « إني لست بأهل لهذه المقالة » .

قال معاوية : « بلى ، ولما هو شر منها »[1] .

معاوية في بيت عائشة :

دخل معاوية المدينة وكله خوف من السيدة عائشة أن تشتد عليه فيما ابتدع وما يريد أن يبتدع في أمر خلافة المسلمين مما يهون معه كل ما كان الناس نقموا على عثمان . ثم هو يخشى أن تكون السيدة سنداً وملجأ وقوة لهؤلاء الأربعة أعلام الحجاز من صحابة رسول الله ﷺ . ومعاوية من الذين يتأتَّوْن للشر قبل وقوعه ، ولا تحملهم قوتهم عليه أن يكابروه حتى يقضوا عليه ، توفيراً لقواهم ورجالهم ، وسياسة لهؤلاء الخصوم عسى أن يصبحوا في جملة أنصارهم فيزيدوا بهم قوتهم .

أراد معاوية أن يتلطف لما في قلب السيدة عليه ، فقد قتل قائده ـ بأمره على ما

---

(١) أمالي القالي ٣/ ١٧٥ .

أرجح ـ أخاها محمد بن أبي بكر بمصر شر قتلة وأشدها نكالاً : حرمه قبل قتله شربة ماء ، وكان يتهالك ظمأ ثم أدرج جثته في جيفة حمار فأحرقها ، ولم ينج أخاها من القتل والإحراق شفاعة عائشة ولا إرسالها في أمره رسولاً خاصاً من أشراف بني أمية ؛ وكذلك أرسلت تشفع أيضاً في حجر بن عدي وأصحابه فلم تفد شفاعتها شيئاً . ولا ريب أن في نفس السيدة على معاوية ـ لذلك ـ ما فيها ، ولكنها كظمت غيظها وردّت حنقها . ثم ما كان من مروان مع أخيها عبد الرحمن في أمر البيعة ليزيد ما رأيت آنفاً .

ومعاوية يخشى أن يفيض الإناء فيكون له من عائشة يومٌ مثل يوم الدار أو يوم الجمل ، والحملة عليه اليوم مواتية ناجحة لاقحة ؛ لهذا الخرق الذي أتاه في الإسلام بأخذ البيعة لابنه يزيد مع أن أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأولي الحل والعقد من رجال العلم متوافرون يشهدون ويسمعون : قد تخطى معاوية مشيختهم وأجلاءهم إلى شاب مستهتر سكير سيئ السيرة رقيق الدين فيما زعموا .

لهذا كله ، عزم معاوية أن يروض أصعب الناس عليه يومئذ وأشدهم وأجدرهم إذا قال : « هلمَّ » أن يلبيه الناس من كل صوب ويثوروا تحت لوائه . عزم قبل كل شيء على زيارة عائشة والتذلل لها وموادّتها ، « فأقبل ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن ، فأذنت له وحده لم يدخل عليها معه أحد ، وكان عندها مولاها ذكوان ، فلما استقر به المجلس ابتدرته عائشة تقول :

« يا معاوية ، أكنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخي محمد بن أبي بكر ؟ » .

وكان التقريع عنيفاً مفاجئاً كما ترى ، لكن داهية الأمويين ـ على ما يظهر ـ كان يتوقع مثله ، فلم تصدمه المفاجأة ، بل أجاب متملقاً متودداً :

ـ ما كنت لتفعلين ذلك .

ـ ولم ؟

ـ لأني في بيت آمن : بيت رسول الله ﷺ[1] .

فطامن ذلك من عنفها . ثم إنها حمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله وذكرت أبا بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما . . . ثم صمتت . وكان على معاوية أن يجيب على خطبتها هذه ، ولكنه لم يخطب مخافة ألا يبلغ ما بلغت ، فارتجل الحديث ارتجالاً في الأمر الذي قدم لأجله ، وتلطف في تهوينه وتقريبه ، قال :

« أنتِ والله يا أم المؤمنين العالمةُ بالله وبرسوله دللْتِنا على الحق ، وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يطاع أمرك ويسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم . وقد أكد الناس بيعتهم في أعناقهم ، وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم ؛ أفترين أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ؟ » .

فلما سمعت عائشة ذلك علمت أنه سيمضي أمره فأوصته بهؤلاء المخالفين : أخيها عبد الرحمن وأصحابه فقالت :

« أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت » .

ثم قام معاوية ، فلما قام ذكرت عائشة فعلته الشنعاء في حجر وصحبه ، فقرَّعته قائلة :

« يا معاوية ، قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين ؟ » .

فقال معاوية مراوغاً : « دعي هذا ، كيف أنا في الذي بيني وبينك وفي حوائجك ؟ » .

قالت : « صالح » .

قال : « فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا »[2] .

---

(١) الإمامة والسياسة ص١٥٠ .

(٢) المصدر السابق ـ ذكروا أن معاوية كان يتعهد السيدة دائماً بالعطايا الجسام : قال عروة : بعث معاوية إلى عائشة بمئة ألف درهم ، فوالله ما أمست حتى فرقتها ، فقالت لها مولاتها : « لو اشتريت=

وهكذا انتهى اللقاء الأول بين الخليفة الداهية العظيم وعائشة أم المؤمنين ، وأصابه بعض ما يستحق من التعنيف على لسان السيدة .

ثم خرج معاوية ومعه ذكوان مولى عائشة ، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول :

« تالله ما رأيت كاليوم خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله » ثم مضى . ولا تظنن وأنت تقرأ كلام معاوية آنفاً أن فيه حجة أو أن السيدة اقتنعت ، فليس مما يقنع مثلها أن يقال لها في منكر تنكره : « هذا قضاء من قضاء الله » ، لكن عزيمة سبقت منها في اعتزال السياسة والفتن جعلها تمر بهذه الحجة الواهية متغافلة . ومعاوية يعلم ذلك منها[1] ، وكلا الاثنين يجامل صاحبه ويدافع شره .

ثم كان لقاء آخر بمكة زوّر له معاوية جواباً فيه شبه الحجة في قتل حجر وأصحابه .

والذي أذهب إليه أن السيدة لا تريد ظاهر هذا التأنيب ، وإنما تلوّح لمعاوية بقضايا قد تلجأ إلى التشنيع بها عليه إذا هو حاول أن يمس أخاها عبد الرحمن وصحبه بأذى أو بطش ، ففهم كل منهما عن صاحبه .

وكأن مكانتها ـ رحمها الله ـ قيّدت معاوية عن التصرف كما يريد في إحكام الأمر لابنه في الحجاز فمات وفي نفسه غصة من منزلة عائشة بين المسلمين ، وتخوف لما قد يكون منها .

أما اجتناب السيدة الشدة في إنكار هذا المنكر فيشرحه أحسن شرح حالها في احتضارها :

= لنا بدرهم لحماً! » فقالت عائشة : « ألا قلت لي » : وبعث إليها معاوية بقلادة بمئة ألف فقسمتها بين أمهات المؤمنين . وقيل : إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار ـ انظر سير النبلاء للذهبي ٢/ ٧١ والإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص٧٢ .

(١) ويعلم من نفسه أنها ـ في البيعة ليزيد ـ تسعى فيما يخالف الكتاب ، ولقد نقل عنه قوله لابنه يزيد في احتضاره : « إن أعظم ما أخاف الله فيه : ما كنت أصنع لك » . يعني من أمر البيعة له . انظر تفصيل ذلك في الطبري ٤/ ٢٢٦ حوادث سنة ٥٦هـ .

ذكروا أنها لما احتضرت جزعت ، فقيل لها : « أتجزعين يا أم المؤمنين وأنت زوجة رسول الله وأم المؤمنين وابنة أبي بكر الصديق ؟ » فقالت : « إن يوم الجمل معترض في حلقي . . . ليتني كنت نسياً منسياً »[1] .

---

(١) من كتابنا (عائشة والسياسة) المعد للطبع .

كافور وسيف الدولة في نظر الحق والتاريخ

تعقيب حول مقالة (الطموح عند المتنبي) للأستاذ أحمد رضا .
وقد ردّ أستاذنا معظم ما جاء في هذه المقالة من مدح لسيف الدولة أو ذم لكافور ؛ انتصاراً للحق .
نشرته مجلة المجمع العلمي بدمشق ، المجلد ١٥ ، الجزء ١ ، لعام ١٩٣٧ ، ص٧٨ـ٨٢

(أكثر من كتب في هذه الأيام عن المتنبي كان قوله في هذين الرجلين نحواً من أقوال المتنبي فيهما ، تأثروا بشعر المتنبي في مدح الأول وذم الثاني . ولم أر فيهم من نصب ميزان الحق بينهما فقال كلمة التاريخ ، بل كلهم أعاد قول الشاعر الذي يتجه جهة الريح ولا يؤخره عن هجاء امرئ في الغد ما أطنب في مدحه أمس . إلا أن أحداً لم يقل فيهما ما قال حضرة الفاضل الذي نناقشه بكلمتنا هذه) .

قرأت في العدد العاشر من هذه المجلة كلمة الأستاذ أحمد رضا في (روح الطموح عند المتنبي) وقد جره الاسترسال في الكلام ـ وهو في موقف المؤرخ الأمين ـ إلى أن يقول ص٣٦٧ من مجلة المجمع لهذه السنة بعد أن أورد طائفة من مدائح المتنبي في كافور :

« يقول هذا وكثيراً مثله فيه ، وهو العبد الزنيم الذي أذنه في يد النخاس دامية ، وقدره وهو بالفلسين مردود ، ويقبل منه ما لا يقبله من سيف الدولة ؛ فيخضع للإنشاد بحضرته قائماً ، وهو يعلم أن الفرق بين سيف الدولة وكافور علماً وأدباً ونسباً وشرفاً ونوالاً كالفرق بين الدرة والبعرة لا يقاس بحد » اهـ .

هذا قول إد تنكره الحقيقة والتاريخ كل الإنكار ، وما كان لمؤرخ أن يصدر حكماً على رجل لقول شاعر فيه ، وضلال كبير أن نعتمد على المتنبي في القضاء بين سيف الدولة وكافور ، بل هو نفسه مدح كافوراً ثم هجاه ، وقد بالغ في حاليه هاتين مبالغة

منكرة فبأيتهما نأخذ ؟ وإذا ساغ لصاحب الفن المولع بالجمال أن يستعذب أماديح الشاعر أو أهاجيه ، فإن على المؤرخ أن يطرحها طرحاً ، وألا يقيم لها حساباً إذا علم أنها لا ترجع إلا إلى سرور الشاعر بالعطاء أو غيظه من الحرمان .

وما عيب الشعر العربي بشيء أشنع من أبواب المديح فيه ، وليت الزمن ذهب بهذه الثروة منه صفقة واحدة فأفناها غير مأسوف عليها ، إذن لقرت عين الأدب والفن والكرامة ، ولارتفع الشعر عن دركات الاستجداء الشائن .

هذا وأول أدوات المؤرخ التي لا يكون مؤرخاً إلا بها ، التجرد والإنصاف ووزن الأقوال وما لابسها من ظروف ، ثم التروي والأناة والاستقصاء ، حتى إذا اطمأن المؤرخ إلى ما بذل من جهد أصدر حكمه بكل هدوء ، إصدار من يعرف أن الله سيسأله عن كل حرف سطره : ما هي حجته فيه ؟

فلأشرع في بيان ما أنكر من هذا القول الذي أتى به الأستاذ :

أـ أما كون كافور عبداً فليس بضائره عند التاريخ الذي لا يحكم على امرئ إلا بأعماله ، عبداً كان أم حراً ، وقد تضافرت الشرائع السماوية والوضعية كافة على إسقاط هذا الذي يزعم فرقاً بين خلق الله ، فالعبد كالحر والحر كالعبد في نظر الحق لا يرفع الإنسان إلا صالح عمله .

ب ـ وأما كونه زنيماً فهذا ما أسأل الأستاذ إقامة البينة عليه من التاريخ ، أسأله ذلك بإلحاف ولا أقيله من الجواب عليه البتة .

ج ـ وأما التفاوت في الأدب فهو صحيح كما ذهب إليه الأستاذ في إثباته ، وأنا أسلمه له مع إبائي أشد الإباء الشكل الذي وردت عليه عبارته .

د ـ وأما النسب والشرف فعجيب والله ذكرهما على سبيل المفاضلة ، نعم كان ذلك في زمن مضى من الجاهلية أو من عصور الجهل والظلم ، فلما أتى الإسلام أبطله وهدمه تهديماً أقر عيون كل منصف حر في أقطار الأرض .

ولا تنس أن من أكبر حسنات الإسلام جعله الناس كلهم طبقة واحدة ، وبهذا قضى على ظلم فارس والروم وغيرها من الأمم التي كان فيها طبقات ، فيها الملوك

وفيها الأشراف وفيها التجار وفيها العبيد . . . وكانت كل طبقة تسوم من دونها سوء العذاب . فلما رحم الله الناس بالإسلام جهر كتابه بهذه الآية العظيمة الخالدة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا﴾ [الحجرات ٤٩/ ١٣] .

وافرض أيها الأستاذ أن في تقاليد اليوم ما يجعل هذه الفروق معتبرة ، أفيسوغ لك وأنت المؤرخ الباحث أن تدخلها في جريدة الحسنات والسيئات فتجعل النسب مما يتفاضل به الناس في نظر التاريخ ؟

والإسلام هو الذي يقول قرآنه : ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد ١١١/ ١] وأنت تعلم أن أبا لهب ينتسب إلى أشرف بيت من بيوت العرب ، هو ابن عبد المطلب وعم رسول الله ذروة سنام الشرف وغاية ما يعتز به النسب . وكتاب الإسلام هو القائل في ولد نوح : ﴿ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ [هود ١١/ ٤٦] فأنت ترى في هذه الآية الفصل فيما بيننا ، فهي أسقطت نسب الدم ، وأثبتت نسب العمل ، والأمر كذلك في الواقع والحق ، فنسب الإنسان عمله ، ولا يخفى على أحد الحديث القائل بأن الله أذهب نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب[1] .

هـ ـ وأما قولك : هذا دُرّة وهذا بَعْرة فهو ما أستهجنه كل الاستهجان ، لأنك إن كنت تعني الخلقة فليس أمرها إلى كافور ولا إلى سيف الدولة حتى نعيب الأول بتشويه صورته أو نثني على الثاني بتحسينها ، أمر ذلك يا مولاي إلى الله ، ومهما ترقّى سيف الدولة في مراتب الجمال ومهما تدنّى كافور في القبح فإنا لا نغفر لك أن تشبه آدمياً بالبعرة والمحاريب يتعالى فيها كل يوم قول الله عز وجل ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين ٩٥/ ٤] وقوله : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء ١٧/ ٧٠] .

وإن كنت تعني بتشبيهك هذا بالدرة وذلك بالبعرة فارقاً معنوياً مرجعه إلى ما أدى كل منهما لرعيته من خدمة فهذا غير مسلّم لك .

---

(١) والحديث : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء ، والناس من آدم ، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . .﴾ وهو قطعة من خطبة الوداع » متفق عليه .

وسأثبت لك شهادة المؤرخين في أن الأمر على عكس ما ذهبت إليه ، وأن التاريخ يذكر سيف الدولة في عداد السفّاكين الظالمين الذين استحلّوا كل ما حرم رسول الإنسانية ﷺ في قوله : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ويذكره مع الذين اشقَوْا رعيتهم وفتنوها ، والتاريخ يعدُّ كافوراً في طبقة الملوك الصالحين الحصيفين وهاك براهيني :

١ـ قال المؤرخ الذهبي في كافور : « وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول : اللهم لا تسلط عليّ مخلوقاً » وقال : « وكان يرسل كل ليلة عيد وقر بغل دراهم في صرر بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء »[1] .

٢ـ جاء في كتاب دول الإسلام في حوادث سنة ٣٥٦هـ « وفيها مات كافور وكان عجباً في العقل والشجاعة »[2] .

٣ـ جاء في وفيات الأعيان في ترجمة كافور : « وكان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس وغير ذلك ، وكانت أيامه سديدة جميلة »[3] .

هذا كافور ، فأما سيف الدولة فإليك شذرات من أقوال المؤرخين فيه :

٤ـ جاء في خطط الشام : « كان سيف الدولة يسير هو والشريف العقيقي بضواحي دمشق ، فقال سيف الدولة : ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واجد ، فقال له العقيقي : هي لأقوام كثيرة . فقال سيف الدولة : لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرؤنَّ منها . فأَعلم االعقيقي أهل دمشق بذلك ، فكاتبوا كافوراً يستدعونه من مصر ، فجاءهم »[4] اهـ .

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٩٢ . ط مؤسسة الرسالة .
(٢) انظر دول الإسلام للذهبي . تح حسن إسماعيل مروة ط دار صادر ١/ ٣٢٦ .
(٣) انظر وفيات الأعيان ٤/ ٩٩ .
(٤) انظر خطط الشام لكرد علي ١/ ٢١٧ .

٥ـ وذكر الأزدي سيف الدولة فقال : « كان سيف الدولة معجباً برأيه ، محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بآرائه سعيداً مظفراً في حروبه ، جائراً على رعتيه ، اشتد بكاء الناس منه وعليه » .

وإذا علمت مصادر هذه الأموال التي كان بها سيف الدولة مفرطاً في السخاء والبذخ لم يعجبك سخاؤه ولا بذخه ، فقد قال صاحب الخطط بعد هذا : « نعم كان سيف الدولة جائراً على رعيته يخرّب قريةً ليجيز شاعراً مدحه بقصيدة » ثم قال :

« لقد استحلّ سيف الدولة للقيام بهذه الأُبهة الضخمة في مملكته الصغيرة مصادرة رعيته ، فكان قاضيه أبو الحصين يقول : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك ، ولذلك كثرت مصادرة كل غني من التجار وغيرهم ؛ فخربت البلاد الشمالية في أيامه »[١] .

وما أحسن ما ذيّل الأستاذ الكرد علي على كلامه في سيف الدولة حين قال : « وفي باب كرمه غرائب بسطت في كتب الأدب ، وكلها على ما فيها من المفاخر في خدمة اللغة والشعر تحمل في مطاويها مساوئ الظلم وإعنات الرعية ، فسيف الدولة ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وحسناته أكثر »[٢] اهـ .

وأنا لست من رأي العلامة صاحب الخطط في أن حسناته أكثر ، لأني أرى جميع هذه الهبات وذلك السخاء المزيف لا يقوم لدرهم واحد يأخذه من رعيته ظلماً ، ولا ينهض لقطرة دم يسفكها بغير حق . ولا بأس في أن أثبت هنا خبراً نقله الكرد علي نفسه عن ابن حوقل ، ما أظن أن أحداً فيه بقية من إنسانية ورحمة يرضى لنفسه أن يعدَّ سيف الدولة في غير الطغاة العتاة من كبار المجرمين في التاريخ ، لما أتاه من الإجرام الشنيع .

٦ـ ومن كثرة مظالم سيف الدولة أن بني حبيب ـ وهم أبناء عم بني حمدان ـ كانوا ينزلون نصيبين « فأكب عليهم بنو حمدان بصنوف الجور حتى خرجوا بذراريهم في

---

(١) انظر خطط الشام ١/ ٢٢٢ .
(٢) المصدر نفسه .

اثني عشر ألف فارس إلى الروم وتنصروا بأجمعهم ، ثم عادوا إلى بلاد الإسلام على بصيرة بمضاره ، وعلم أسباب فساده وقلوبهم تضطرم حقداً » على ما قال ابن حوقل وأخذوا يخربون القرى في الجزيرة والشام ، وأطمعوا صاحب الروم بأنطاكية وحلب » .

فهل تفي بهذه الوصمة كل ما يعد لسيف الدولة من مآثر وحسنات وعطايا وهبات ، مع فرضنا أن هذه العطايا وتلك الهبات من ماله الحلال لا من أموال الرعية ولا من المظالم والمصادرات .

* * *

أرأيت أيها الأستاذ (رضا) كيف أن سيف الدولة بطّأَ به عمله ولم يُسرِع به نسبه وأن كافوراً سماء وصاحبك أرض . وقل ذلك في صفة من عمل عمله .

إن العلم والأدب أمانة فلينظر قارئ في كتاب : ما ترك مؤلفه من عقله وأمانته وما أخذ ، وليتق الله قضاة التاريخ والأدب ، فإن المهمة شاقة والحمل ثقيل ، والناقد بصير .

تاريخ مفترى
للسلطان عبد الحميد

مقالة منصفة ، وضّح فيها الأستاذ جانباً من تاريخ السلطان عبد الحميد .

نشرت في مجلة البيان ، العدد ٣٥ / عام ١٩٦٩

من حق القارئ أن يعرف أني أصبحت من أعظم الشاكّين في التواريخ ، وليس ذلك راجعاً إلى ما تلقيت في نشأتي من أن التاريخ علم ظني غير يقيني ، بل لما أشاهد من البون الشاسع بين الحادثة أراها أو الرجل أعرفه حق المعرفة وما ينشر عنهما ، إذ أجد الخبر أو الترجمة شيئاً غير الذي شاهدت أو عرفت ، ثم يصبح المكتوب المنشور تاريخاً مع الزمن ، ويصبح العيان مجهولاً إلا عند من عاين حتى إذا مرت سنوات وتلقف الناس هذا المنشور لم يجد العارف المعاين الجرأة ليشهد بما عاين أو عرف ، فإذا فعل أهمل الناس شهادته ، وأخذوا بما جاء في المنشور .

ويبدع هؤلاء المتصدّون للتاريخ دون كفاية ، حوادث وأشخاصاً لم يخلقهم الله ، فهل من المبالغة في شيء بعد هذا تعريف بعضهم للتاريخ بأنه « خرافة بلغت حد النضج والتمام » . ؟ إن هذا القائل أحد العقلاء الظراف حقاً .

كلنا يسمع اليوم إذاعات متباينة عما يجري في بلده . ويضحك حين يرى الحادث تحت بصره وقع على حالٍ معلومة لسبب معروف ثم يسمعه على أشكال مخالفة لما وقع بصور تتعدد على مقدار ما يسمع من إذاعات ، ويخترع لها أسباب بعدد سياسات هذه الإذاعات حيال بلده . ويسجل كل مشتغل بالتاريخ الحديث . ما يهمه مما يسمع من إذاعاته . حتى إذا استوت له مع الأيام عناصر بحثه ألف كتابه ، فكان مصدراً علمياً من مصادر التاريخ . فإذا فعل فعله مختصون في كل قطر عربي مثلاً . وعرضت ما تقول هذه المصادر عن حادث واحد لم تجد روايتين تتفقان في العرض . فإذا تابعت لتجد التفسيرات المقدمة للحادث وتعليلاته كان التباين أوسع شقة حتى يتعذر التوفيق بين اثنين منها .

والصحف اليومية هي غداً وثائق تاريخية . وأنت تقرأ الحادث الواحد في صحف مختلفة ، على صور بعدد المصورين تماماً . هذا يجلوه مدحاً وذاك يجعله قدحاً . وأذكر أن مؤرخاً أميركياً أثبت أقوال أربع صحف لندنية مسائية وصفت شهود رسولين لحكومة السوفييت خطبة « لويد جورج » عن بولونية في مجلس العموم :

١ـ أما الأولى فجعلت الرسولين يفهمان الخطاب حق الفهم ويعلقان عليه .

٢ـ وأما الثانية فجعلت أحدهما يفهم ويلقي ببعض جمل كل بضع دقائق على رفيقه الذي لا يعرف الإنكليزية .

٣ـ وأما الثالثة فجعلتهما يهتمان بما يريان أكثر من اهتمامهما بما يسمعان .

٤ـ وأما الرابعة فقررت أنهما لم يتبادلا ملاحظة قط .

وإلى الآن لا يعرف أية الصحف الأربع هي المصيبة ، بل ربما كان الواقع غير ما قالت جميعاً[١] .

وفي مطلع الحرب العالمية الثانية نشر في جرائد دمشق بيان فيه تأييد للحلفاء ، وقعه أربعة من أجلاء العلماء بدمشق ، واستنكره الناس وساء ظنهم بهؤلاء ، ثم تبين بعد التحقيق أنه لا علم لأحد من الأربعة به ، فلما طلب إليهم تكذيبه أرسل كل تكذيبه بتوقيعه فلم ينشر منها شيء ، والمؤرخ من غير دمشق إذا كان يتتبع هذه الصحف معذور إذا أثبت التأييد الذي قرأه ، ولم يقرأ بعده تكذيباً في هذه الصحف نفسها .

واستمعت مرة قبل سنوات إلى إذاعة خارجية وكنت عميداً لكلية الآداب بجامعة دمشق ذكرت أن اضطرابات شديدة قام بها طلاب هذه الكلية ، وأتت القوات لقمعها وانهالت على الطالبات ضرباً بالسياط حتى سالت الدماء على أرض الجامعة ، بينما لم تشهد الجامعة انتظام تدريس وهدوء حركة كما شاهدت في السنة التي سمعت فيها

---

(١) من كلمة لي في حديث عن المرحوم الأستاذ محمد كرد علي ، وكنت قرأت أشتاتاً مما كتب عنه : مقالات وكتباً ، أكثرها كأنه يحدثني عن شخص لا أعرفه ، وكأنه لم تكن بيني وبينه تلك الخلطة ورفع الكلفة سنين طوالاً .

هذه الإذاعة . حتى اتهمت أُذني هل تسمع النبأ عن دمشق أو عن جزائر واق الواق .

ذكرت كل هذا تمهيداً لمعنى أريد ألا يتخلى عنه المشتغلون بالعلم ، وهو أن التاريخ لا يفيد العلم قط . والذي ساق هذا فرحة الناس اليوم بما تباشروا به من قرب إعادة الخط الحديدي الحجازي بين دمشق والمدينة المنورة وهو المأثرة الخالدة للسلطان عبد الحميد(١) .

* * *

درس معلمونا في حداثتهم الشيء الكثير عن ظلم السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني . ولقنونا له تاريخاً أسود حافلاً بالإرهاب ونحن صغار . كما تلقوه هم أيام الاتحاديين آخر العهد التركي ، ونشأنا على ذلك وبقينا عليه إلى الآن . وهذا التاريخ عند جمهرة جيلنا من المسلمات التي لا يعتريها ارتياب .

ثم انجلت الأيام لذوي البصائر عن خلافه . فتبين للناس أن حزب الاتحاد التركي الذي قام ضباطه بالثورة المسلحة على السلطان واغتصبوا الحكم وبقوا على اغتصابه إلى أن تناثرت المملكة العثمانية أشلاء ممزقة . تبين للناس أن أقطاب هذا الحزب الحقيقيين كانوا من يهود سلانيك . وأنهم افتروا تاريخاً يوافق نزعاتهم وما ينتوون . فرضوه فرضاً على الناشئة في المدارس . تاريخاً كله من صنع أيديهم ، توصلاً إلى هدف زعموه للناس من رفع الظلم ونشر الحرية والعدالة والإخاء والمساواة ، وتلك كانت شعاراتهم يومئذٍ ، فتبعهم المتحمسون من الشبيبة أفراداً وجماعات ، لكن الغرض الحقيقي لم يكن يعرفه إلا عدد قليل جداً من هذا الحزب . اتضح بعد السنوات الطوال لنفر ضئيل من الباحثين ، وكان الفضل في انكشافه للنكبة الكبرى نكبة فلسطين ، فقد شرحت حوادث كثيرة سابقة ، وصححت نظرات خاطئة وإليك البيان :

---

(١) أقول : لم تطل فرحتهم بالتباشير .

فهيهات هيهات أن يعود الخط الحديدي الحجازي أو أي رابط يوحّد العرب ، ما دام أمرهم لغيرهم ، وقرارهم بيد أوليائهم .

كنا في صيف سنة ١٩٥٠ في رحلة جامعية إلى بلاد الأتراك ، وكانت أول رحلة رسمية من سورية إلى تركية ، فأحسن القوم استقبالنا والعناية بنا ، ولاحظنا أن الأمر تجاوز المجاملات الرسمية إلى فيض من المودة القلبية أحاطت بنا من الرسميين ، فلما خالطنا أفراد الشعب غمرونا برعايتهم وفتحوا قلوبهم . وفي حفلة أخوية أقامتها هيئة التعليم الثانوي في إستانبول ، تحدث إلينا رئيسها الوقور عن العلاقات الأخوية بين الشعبين العربي والتركي التي امتدت مئات السنين ، وكانت الصراحة ورفع الكلفة قد أضفتا على الحديث متعة وسمواً ، فتبادلنا ذكر الإساءات التي بدرت من الحكام الأتراك نحو العرب ، وقد أسهب في شرحها زميلنا الجليل الأستاذ عز الدين التنوخي رحمه الله[١] إذ كان قد اكتوى بنارها ، وكان من الضباط الذين أفلتوا من حبال أحمد جمال باشا حاكم سورية العسكري في الحرب العالمية الأولى ، فأقر رئيس الهيئة بها جميعاً إلا أنه قال : « إن هذه الإساءات تنحصر في حكم حزب الاتحاد والترقي ، ولم تقع على العرب وحدهم ، بل إنها نالت الأتراك والعرب على السواء » . فلما ذكر أحدنا الألوف من الأحرار الذين لا يحصون ممن أغرقهم السلطان عبد الحميد في مياه البوسفور انبرى رئيس الهيئة في رقة ولطف طالباً تسمية عشرة فقط من هذه الألوف التي لا تحصى ، فلما أحرجنا قال : « يا أخوتي لم يثبت غرق إنسان واحد في البوسفور » وطفق يسرد الحجج التي تدحض هذه الفرية ، ثم ختمها بما قدمت خلاصته .

لكن كتباً وبحوثاً ظهرت في هذه السنين العشرين أزالت من نفسي كل ما كان رسخ فيها من الصغر عن عبد الحميد ، حتى ما حفظناه في دروس الاستظهار من قصيدة حافظ إبراهيم الرائعة التي بدأها يخاطب السلطان المخلوع :

لا رعى الله عهدها من جدود ... كيف أمسيت يا ابن عبد المجيد
مشبع الحوت من لحوم البرايا! ... ومجيع الجنود تحت البنود

---

(١) انتقل إلى رحمة الله قبل سنة وأشهر عن ٧٧ عاماً ، وهو أحمى ما كان نشاطاً وأوفر حيوية ، وأقوى غيرة على العربية ديناً ولغة وتاريخاً وأمة .

وإلى القارئ الكريم سلسلة هذه الحقائق التي محت التاريخ المفترى أسردها دون تعليق :

١ـ بعد انعقاد أول مؤتمر صهيوني في ٣٠ آب ١٨٩٧ بمدينة « بال » في سويسرة برئاسة هرتزل ووضع مقرراته بإنشاء الوطن اليهودي ، كان التخطيط يقضي بأن يعرض هرتزل على الملوك ورؤساء الدول الكبرى ما يجعل كلاً منهم يتحمس للوطن اليهودي لما يعود على مصلحته من فائدة منه ، فطاف على وزير المستعمرات البريطانية وإمبراطور ألمانية وقيصر روسية ذاكراً لكل منهم الفائدة التي يربحها من إنشاء وطن قومي بفلسطين لليهود مما لا نريد تفصيله الآن ، وإنما نعرض لمقابلته مع السلطان عبد الحميد الذي كانت مملكته ترزح تحت عجز مالي فظيع ، فافتتح المقابلة بتحذير السلطان من العرب ، وأبان له أن إنشاء الوطن اليهودي بفلسطين كاف للقضاء على الحركة القومية العربية . . ثم تعهد للسلطان بأن يبدد اليهود الديون التركية البالغة عشرات الملايين من الجنيهات ، وأن يقدموا للسلطان خاصة عشر هذا المبلغ الباهظ : فرفض السلطان العرض بشدة وأفهمه أن هذا مستحيل .

٢ـ بعد هذه المقابلة تأسست جمعية الاتحاد والترقي . سرية في الأول . من يهود من سلانيك تظاهر آباؤهم بالإسلام وبعضهم ممن بقي على يهوديته منهم ، مع نفر من الشباب الأغرار المتحمسين من الأتراك المنتمين إلى المحافل الماسونية ، ومعروف نفوذ اليهودية العالمية فيها ، وكانوا يجتمعون في بيوت اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية .

٣ـ ثم ظهرت الدعوات المتطرفة إلى العنصرية الطورانية وإذكاء النفور والعداوة بين عناصر المملكة العثمانية من عرب وأكراد وأرمن وشركس وأرنؤوط ، وسرعان ما آتت الخطة ثمارها ، فوقع رد الفعل بظهور الدعوات العنصرية بين هؤلاء الشعوب أيضاً ، وكان هذا هو الديناميت الذي بعثر أركان هذه الإمبراطورية الضخمة ومعلوم أن السلطان عبد الحميد كان عدو العنصرية ، لأنه كان يقول بالجامعة الإسلامية ، وبذلك وحد الدول الأجنبية على عداوته رغم ما بينها من تعارض المصالح . فدأبت هي تغذي هذه العنصريات داخلاً وخارجاً ، ظاهراً وباطناً .

٤ـ كان خلع السلطان عبد الحميد جزءاً من مؤامرة اليهود والدول الأجنبية ، تمهيداً لاغتصاب فلسطين ، إذ إن إنشاء الوطن اليهودي مستحيل إذا لم تبعثر الإمبراطورية العثمانية أيادي سبأ ، والمؤلم أن الذي أبلغ السلطان قرار عزله هو « قره صو » الاتحادي المشهور ، وهو يهودي .

٥ـ لما آل الأمر إلى حزب الاتحاد والترقي أعلنوا الطورانية ديناً للحكم واضطهدوا بقية العناصر ، ولم يسلم من عدوانهم وعدوان الكماليين فيما بعد ـ وهم فرع منشق من الاتحاديين ـ عنصر من عناصر الدولة إلا اليهود ، وظهر أن أعمال الاتحاديين كانت أعمال هدم للدولة لا محافظة عليها ولعل اعتراف تركية بإسرائيل فيما سبق وإقامة العلائق الودية بينهما هو البقية الأثرية لتعاليم هذا الحزب ومنشئيه وكثير من المسؤولين في تركية في السنين الماضية خريجو هذا الحزب من حيث يشعرون ولا يشعرون .

٦ـ وقف في مجلس المبعوثان التركي أيام الاتحاديين فيمن وقف يندد بالصهيونية وأحابيلها التي نصبتها لتفرقة كلمة الأمة ولانقراض الدولة ، نائبان من سورية هما شكري العسلي وعبد الوهاب الإنكليزي ، وقد دافعا بشدة ما ساد في الأوساط السياسية حينئذ ـ وكانت الصهيونية قد ذر قرنها في كل مكان ـ من فكرة إقطاع فلسطين لليهود ، ومن ذلك الوقت أسرَّ الاتحاديون اغتيالهما . فلما أعلنت الحرب ساقهما أحمد جمال باشا إلى محكمة عرفية صورية بتهم ملفقة وعلقهما على حبال المشانق فيمن علق من السوريين (في الداخل والساحل) .

٧ـ لما أعلنت الحرب العالمية الأولى دفع اليهود من الاتحاديين الحزب بقوة إلى خوض الحرب بجانب ألمانية ، فاندفعوا بلا روية غير عابئين بآراء كبار العسكريين المجربين بالتريث ، وفي الوقت نفسه كان اليهود إلى جانب إنكلترة وفرنسة يمولون الحرب ، فتمزقت الدولة العثمانية على ما يعرف الجميع ، ولم تكد الحرب تنتهي حتى أعلن وعد بلفور لليهود بإنشاء وطن قومي لهم بفلسطين ، ولم يكن بين ذلك وبين خلع السلطان عبد الحميد إلا تسع سنوات .

والعجيب في غفلتنا أنا لم ننتبه بعد إلى هذه العلاقة كما ينبغي . وأن التاريخ

الصادق للسلطان عبد الحميد لم يكتب بعد .

٨ـ كنا نتحدث صيف سنة ١٩٥٠ في رحلتنا المتقدم ذكرها مع مدير بنك في إحدى المدن التركية ، فظهر من الحديث أن كلاً من العرب والأتراك يعتب على الآخر في أمور غير قليلة . وظهر أيضاً أن كثيراً منها غير صحيح . فلما رأى عجبنا بادر يقول : « لا تعجبوا يا إخوتي فنحن وأنتم تتغذى صحفنا بأخبار شركات يهودية ، تقدم لكلٍ منا ما يحقق أهدافاً رسموها هم ، وكثيراً ما نُساق بعد ذلك نحن وأنتم إلى مصير يضرنا جميعاً ويفيدهم وحدهم »[1] .

***

وبعد . ألا تذهلك أيها القارئ الكريم قدرة اليهود على افتراء التاريخ بذكائهم وحديدهم ونارهم يوم كانوا يسيّرون الحزب الحاكم في تركية ، وأنهم كانوا من الدهاء والكيد والمقدرة في تسميم الأفكار كما يشاؤون بالموضع الذي بلغوا فيه من السلطان عبد الحميد ما وصفه حافظ بقوله يخاطب السلطان بعد خلعه :

فرح المسلمون قبل النصارى ... فيك قبل الدروز قبل اليهود

شمتوا كلهم ، وليس من الهمَّة ... أن يشمت الورى في طريد

رجعت إلى نفسي حفاظاً على كرامتها ، فطرحت من ذهني كل هذا التاريخ الخرافي الذي شحن اليهود به الأذهان عن عبد الحميد ، كما طرحت أرضاً كل قصيدة حافظ إبراهيم على تحفظها ، ولم أبق منها إلا إشادته بمأثرة عبد الحميد في مد الخط الحديدي الحجازي وإحيائه بذلك اقتصاد العراق والشام والحجاز وكل جزيرة العرب ، وما أصدقه في خطابه السلطان :

حاولوا طمس ما صنعت وودّوا ... لو يطيقون طمسَ خطّ الحديد

ذاك عبد الحميد ذخرك عند ... الله باقٍ إن ضاع عند العبيد

وعاش حافظ بعد ذلك ربع قرن وأيقن أنهم أطاقوا طمس خط الحديد ، طمسناه

---

(١) ليس هذا بغريب على السياسة وحبائلها ما دامت قائمة على المصالح والمادة ، ولكن الغريب أننا في سنة (٢٠٠٨) ما زلنا ننخدع بهذه السياسات المفرّقة ، فنصادق عدوّنا ، ونتعادى فيما بيننا . . . !

بأيدينا إطاعة لـ (لورانس) في الحرب الأولى ، وتطوعنا دون روية فنسفنا محطاته واقتلعنا الخطوط وأعمدة الأسلاك وقتلنا اقتصاد البلاد يوم كان لورانس يغري البدو بذلك . وواصل الاحتلال الفرنسي ما صنع لورانس والمغفلون منا من تهديم منشآته ، وأتى بعد الاحتلال من صنائعه من أتم الخراب بحيث انقضى أكثر من خمسين سنة على ذلك ، ولم تتفق الكلمة على إعادته فخدمنا عدونا من حيث لا نشعر ، إذ أخرنا عمران بلادنا . وبقاء الخراب حتى الآن ظفر نالته اليهودية العالمية ، إذ من مصلحتها ألا يكون حول دولتها استقرار ولا ازدهار .

لنستعن بمثل هذا المفتاح على فهم حاضرنا ، ولنلق عن أنفسنا الخرافات والافتراءات التي لا تزال عند كثير من أنصاف المتعلمين السطحيين تاريخاً . . بل لنسلط هذا الكشاف على كل فتنة وضرر يحلان في أرض عربية مهما حملت من التضليل الخادع ، فحيثما وجدنا تهديماً فلنفتش عن اليهودية المتخفية ، ولا تخدعنا عناوين ولا تهاويل ، فما أكثر ما لبست الرذيلة اليهودية الممزقة في كل بلد شعار مقدساته ، لتخدع الأغرار فيهدموا وهم يظنون أنهم يبنون .

سبب
خلع السلطان عبد الحميد

مقالة توضح بجلاء دور الصهيونية الماكر في خلع السلطان ، لمواقفه الأبية الشجاعة من إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .
نشرت في مجلة العربي ، العدد ١٦٩/ عام ١٩٧٢

لعل من نجهل من ضحايا التاريخ أضعاف من نعرف ، ولم يكن الأقدمون بعيدين عن الصواب حين جعلوا التاريخ علماً ظنياً غير يقيني ، وإذا أمعن الإنسان في سيرة من عايشهم وخبرهم من المشهورين ، رأى بوناً شاسعاً بين حقيقتهم التي عرفها والتراجم التي سطرت لهم فيما بعد ، وما يزال عمل المؤرخ اللاحق تصحيحاً واستدراكاً لأعمال من سبقه من مؤرخين على هدي أضواء جديدة تسلط .

وتاريخ السلطان عبد الحميد ـ كما عُرض غير مرة ـ من الأمثلة الصارخة على تزوير وسائل الدعاية والإعلام ، مما اخترع العلم من وسائل زوده بها كالإذاعة والتلفزة والأخبار المصورة أحوج ممن قبلنا إلى الشك واتهام الإشاعات والإذاعات والتحري والتروي فيما يشاع ويذاع ، إذ كانوا في عهد السلطان مثلاً لا يملكون من هذه الوسائل إلا صحف الأخبار على ما كانت عليه من بطء ، ومع هذا استطاعت تشويه سيرته وصورته على غير ما خلقه الله ، فكيف لو أدركته هذه الوسائل الحديثة وما يصدر عنها مما هو اليوم أخبار وإذاعات حتى إذا أودع غداً بطون الأسفار صار تاريخاً وحقائق ؟

معالم في سيرة عبد الحميد

لا بد قبل التعرض لهذه الوثيقة التي تنشر لأول مرة من إلمامة خاطفة نثبت بها بعض المعالم في سيرة هذا السلطان الذي امتد حكمه بين سنتي (١٨٧٦ـ١٩٠٩) . كانت السلطنة حين جلس عبد الحميد على العرش مثقلة بالمتاعب « تواجه أشد الأزمات . فشهدت في عهده نشاطاً كبيراً في العراق ، وامتدت السكك الحديدية في

ولاياتها الأوربية والآسيوية ، وأقيمت المرافئ المتعددة ، وأنشئ الخط الحجازي بين دمشق والمدينة المنورة ولم يكن للأجنبي فيه صلات مالية »[1] .

وبرز في عهده كثير من رجالات العرب في مناصب رفيعة حساسة ، وأكثر السلطان من تقريب العرب وعظمائهم حتى كانت لهم كفة مرجحة في الحكم ، فالكاتب الثاني للسلطان هو (أحمد عزة باشا العابد) عربي من دمشق ، وشيخ السلطان (أبو الهدى الصيادي) عربي من ضواحي حلب .

والسلطان شديد المحبة للعرب قوي الاعتقاد فيهم ، أكثر منهم في ضباطه وحرسه الخاص وموظفي (سراياه) حتى جلب على نفسه نقمة (العنصريين من الأتراك) وكان يحلم بـ (الجامعة الإسلامية) تحت لواء الخلافة حتى عرفت سياسته العامة الداخلية بأنها (إسلامية تعطف على العرب) وكثيراً ما هدد الدول الأجنبية برفع راية الجهاد التي إذا رفعها وجب على كل مسلم في الأرض الانضواء تحتها مجاهداً في سبيل الله .

أما سياسته الخارجية فـ « هي التي مدت في عمر المملكة نحو جيل . . ولم تكن سياسة جهالة وغباوة وعواطف كما وصفها الاتحاديون الذين خلفوا عبد الحميد على السلطة ، وإنما كانت سياسة عقل ناضج وخبرة كاملة »[2] وشهد خصمه جمال الدين الأفغاني فقال :

« رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ، ومرامي الدول الغربية ، وهو معدّ لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وسلماً ، وأعظم ما أدهشني ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل كيلا تتفق أوروبة على عمل خطير في الممالك العثمانية ، ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوربية بأسرها . . وكلما حاولت أوروبة أن تجمع كلمة البلقان للخروج على الدولة

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني ، لمحمد جميل بيهم ، ٢/ ١٦٢ ، الطبعة الأولى ١٩٥٤م .
(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٦٦ .

بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه من كلمة وكيد »[1] .

« هرتزل » يساوم السلطان

في سنة ١٨٩٧ عرض (هرتزل) مؤسس الصهيونية على السلطان عبد الحميد فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وأن هذا كاف للقضاء على حركة القومية العربية ، وسيكون من تأسيسه فوائد جمة للمملكة ، وأن هرتزل يتعهد بتسديد ديون الدولة كلها وبتقديم مبلغ ضخم للسلطان خاصة لقاء هذا السماح ، فلم يكن من السلطان إلا الرفض الشديد المشروح في وثيقتنا التي ننشرها . وكانت الدول الأوربية (روسية وإنكلترة وفرنسة) في غيظ من ميل السلطان إلى منح امتياز الخط الحديدي الواصل بين إستانبول وبغداد لألمانية ، فدأبت جميعاً على تحريك العناصر المختلفة في الدولة ومدها بالمعونات السرية لإعلان العصيان كما فعلت في الولايات البلقانية ، وعلى هذا تأسست أحزاب مناوئة للسلطان ، وكان بعض اليهود المتظاهرون بالإسلام على رأس الساعين في الفساد ، وانعقدت الاجتماعات السرية في المحافل الماسونية المختلفة ، وكان مؤسسو جمعية (الاتحاد والترقي) قد عقدوا اجتماعاتهم الأولى في المحفل الماسوني الإيطالي ، وفتحت السفارات الأجنبية أبوابها لكل مخطط للعصيان على السلطان ، وعمل الضباط (ذوو الأصل اليهودي) من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي على تخطيط الانقلاب الذي يخلعون فيه السلطان ، وكانت إنكلترا وفرنسة سابقتين إلى إيواء اللاجئين من معارضي الحكم الحميدي ، وتركتهم يعملون في بلادهم علناً لإسقاط السلطان .

التخطيط لخلع السلطان

آمن « هرتزل » وأعوانه اليهود أن لا أمل لهم في الوطن القومي بفلسطين

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني لمحمد باشا المخزومي (دار الفكر في بيروت ١٩٦٥) ص٣٥ .
يقول السيد جمال الدين بعد ذلك : أما ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوروبة ، وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة ـ الذي فيه نهضة المسلمين عموماً ـ فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك . . إلخ ـ ص٣٨ .

والسلطان على عرشه ، وأن خيرهم في بعثرة المملكة وتقويض أركانها ، فعملوا في ميدانين : ميدان خارجي بما لهم من نفوذ ومؤسسات وتحكم في الدول الأوربية ، وميدان داخلي في تغذية الروح القومية الانفصالية لعناصر المملكة المختلفة من عرب وأكراد وشركس وأرنؤوط وأرمن . . إلخ وأحزاب وجمعيات سرية زودتها الصهيونية بـ (عقائديات)[١] حسنة الظاهر ، ولها في كيان الأمة فعل الديناميت المفجر . حتى آتت الحركات والجهود المختلفة ثمارها . فجعل حزب الاتحاد والترقي (اليهودي الماسوني) مركز عمله سراً في « سلانيك » ، اختارها لأن فيها « عدا الجوالي الأجنبية الكثيرة ، عدداً من المحافل الماسونية كانت عوناً لهم على تشكيلاتهم وعلى كتمان مساعيهم . . »[٢] ثم قويت حركة المعارضين حتى صارت علنية بعد السرية ، وتجاوباً مع معارضي (سلانيك) الأرمن وسائر الأقليات تحت شعار (الدستور) . « ولما علم السلطان أن مدينة سلانيك أعلنت في يومي ٢٣ و٢٤ تموز سنة ١٩٠٨ الدستور إجابة لطلب جمعية الاتحاد والترقي ، وذلك بمظاهرة صاخبة ، وأن البرقيات الموجهة للصدارة من أجناد (سلانيك ، ومناستير ، وأسكوب ، وسرس) لا تزال تلح في المطالبة بإعلان الدستور ، وتهدد بالزحف على العاصمة ، بينما كان الجو السياسي الدولي ينذر بالخطر من جراء المؤامرات التي تبنتها الدول الأجنبية ضد السلطنة ، أصدر إرادته بإعادة الدستور يوم ٢٤ تموز ١٩٠٨ »[٣] .

أما شبان العرب فقد أعداهم التحسس القومي الذي كان الأجانب يؤرثونه من حيث لا يشعر بهم ، وكانت الإرساليات الأجنبية ومدارسها والقنصليات تنفخ في رماد هذا الوعي القومي . . واغتنمت المدارس الأجنبية المنتشرة في المملكة فرصة

---

(١) كلمة ـ على ركتها وتزوير دلالتها وضعف مترجمها الأول في العربية ـ شائعة بين الشداة المراهقين المترجمين ، يريدون بها أنظمة بعض الدول الكبرى المستعمرة ، وسموا المتعصبين لتقليد ما بـ (العقائديين) وإنما العقيدة ما عقدت عليه قلبك ، أما ما يريدون ـ بصرف النظر عن صلاحه أو فساده ـ فلا يعدو أن يكون (آراء) .

(٢) فلسفة التاريخ العثماني ٢/ ١٦٧ .

(٣) الجزء السابق ص١٦٨ .

استثنائها من رقابة الدولة فألقت في أفئدة تلاميذها النصارى الرعب من المسلمين لتنفّرهم من الإمبراطورية العثمانية ، ولتكتسب قلوبهم مستعينة على ذلك ببعض التآليف التي لم تتورع عن الطعن في الإسلام والتشهير برسوله . .[1] .

فإذا علمت أن (الجامعة الإسلامية) ملهج السلطان ، أدركت ما الذي جمع الدول والأقليات والأحزاب الزنيمة والمغفلين من أصحاب المطامع على هوى واحد ، هو خلع السلطان عبد الحميد .

* *

كان لا بد لهذه المعارضات من شعارات محببة إلى الجماهير تتستر وراءها : شأن كل تخطيط يسهم فيه اليهود ، كالقومية للعناصر غير التركية ، (ورفع الظلم والاستبداد ورد الأمر شورى) للأتراك . . فرفع حزب الاتحاد والترقي شعار (الحرية والعدالة والمساواة) ، وأكثروا من اختلاق الأخبار والشائعات عن كثرة من أصابهم ظلم عبد الحميد : ألوف القتلى والغرقى (في البوسفور) ، وعشرات الألوف ازدحمت بهم سجون المملكة . . حتى اعتقد الناس من كثرة التكرار والترداد لهذه الإشاعات أنهم يعيشون في جو خانق من إرهاب السلطان (الأحمر) كما لقبوه .

وآلت الأمور ـ كما يعرف القراء الكرام ـ إلى أن زحفت فرقة الجيش من سلانيك ودخلت العاصمة ، وأحاطت بالقصر وأبلغت السلطان قرار الخلع ، ولم يكن المبلغ إلا (قره صو) عضو الحزب (اليهودي الأصل)! ولم يكن السلطان بحاجة لهذا الإبلاغ ، إذ كان موقناً أنه دفع ثمن رفضه إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين كما ستعلم من الوثيقة بعد قليل .

* *

بعد الخلع

أعلنت الأفراح في الأنحاء القريبة والبعيدة من المملكة العثمانية بخلع السلطان ،

---

(١) الجزء السابق ص١٧٧ بتصرف يسير .

وتبارى (المطبّلون) في ذم السلطان وتسويد صحيفته ، واختلاق الطم والرم من الأخبار عن ظلمه واستبداده وبطشه وسفكه الدماء وسجنه الأبرياء الأحرار ، كما تباروا في الإشادة بالضباط الأحرار ضباط الانقلاب ، وبالحزب الحاكم (الاتحاد والترقي) . ثم نشطت الأحزاب التي لم تخف تطرفها في عصبيتها التركية لفرض نظريتها في تتريك العناصر كلها . ولفق للسلطان تاريخ درس في المدارس والجامعات ، وحفظنا ـ في طفولتنا ـ من مساوئ السلطان ما شحنوا به الكتب المدرسية والصحف والمجلات . . وخلاصة ذلك كله ـ كما زعموا حينئذ ـ أن حزب الاتحاد والترقي أنقذ البلاد من الظلم والاستبداد والإرهاب ، وأن الذي حفزهم على الثورة إعادة (الحرية والعدالة والمساواة) ونشرها بين الناس . ثم أظهر الزمان زيف ذلك كله ، وأن هذا الحزب التقدمي كان المتفجرة التي أطاحت بالمملكة كلها فبعثرتها أباديد .

ولم يطل الزمن بالناس حتى حلت كارثة فلسطين ، وتكشفت الحوادث لذوي البصائر عن الحقيقة الصارخة المؤلمة : كان اليهود وراء كل حزب وكل دعوة عنصرية في الإمبراطورية العثمانية ، ولو سمح السلطان للوطن القومي اليهودي لبقي الحكم حكمه إلى أن يأتيه أجله . ولم تكن تلك الأحزاب والعنصريات إلا من الوسائل للقضاء على الدولة وتمهيد الأمر للوطن الصهيوني . لقد ذهبت المعلومات التي لقَّننا إياها عن عبد الحميد وحزب الاتحاد والترقي معلمونا المخدّرون بالدعاية الإعلامية الحزبية أيام الاتحاديين أدراج الرياح ، واستبدلنا بها الحقيقة الماثلة عارية محسوسة لكل ذي عينين ، أدركناها الآن وكان عبد الحميد يراها رأي العين قبل ستين سنة ، لكنه لم يجد من يفهم عنه كما سيتضح لك ذلك من رسالته . لقد كان عرشه فريسة الصهيونية المدمرة المخربة فكان الضحية الأولى في سبيل فلسطين ، **وكان الضحية الثانية الملك حسين بن علي ، ملك الحجاز السابق ، رحمه الله ، حين نفاه الإنكليز إلى (قبرس) بعد أن ضاقوا به فرموه عن عرشه لكثرة ما تمسك بحقوق فلسطين** ، ولما قرعهم به من إخلاف الحلفاء وعودهم له بفلسطين ، كلما هبطت فلسطين هجرة يهودية بحماية الإنكليز على مدى السنين الأخيرات من حكمه .

مأثرة السلطان في حقن الدماء

يحفظ المعمرون في دمشق عن أحد باشوات الدولة العثمانية المرحوم (زاهد باشا الهبل) وكان يرويه لجلسائه آخر مآتي السلطان في قصره يوم الخلع قال :

لما اضطربت الحوادث وتمردت فرقة (سلانيك) ، أخبر الصدر الأعظم سلطانه بعصيان جيش سلانيك فقال السلطان : (طيب) ولا يزيد عليها : وكان الصدر الأعظم شديد الهيبة للسلطان . ثم دخل آمر القوى في القصر يستأذن السلطان بضرب العصاة والمقاومة ، فمنعه ، ثم عاوده القول يريدون إذنه بالمقاومة فقال لهم :

« أعرف جيداً أن كل ما يرومون هو خلعي أو قتلي ، وأنا شخص واحد ، فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط مئات القتلى منكم ومنهم ، وأنتم جميعاً أفراد من هذه الأمة ، والأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد » .

ثم دخل العصاة ولم يقاومهم أحد ، وأبلغوا السلطان قرار الحزب خلعه ، ونقلوه إلى قصر في سلانيك بعيداً يقيم فيه حتى الممات .

* *

الوثيقة وقصتها

في زاوية الشاذلية في حي القنوات بدمشق ، يرقد تحت قبة عالية الشيخ محمود أبو الشامات[١] ، شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية ، وأول خليفة لصاحب الطريقة

---

(١) ترجم له أديب تقي الدين نقيب الأشراف بدمشق في كتابه (منتخبات التواريخ لدمشق) وقال في آخر ترجمته ص٧٩٨ : « ودفن في زاويته في حي القنوات ، التي وقفها عليه الوزير رضا باشا القرين الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني . وكان ذلك المحل قديماً دار الحكومة (دلى يلطه) بعد أن أسست قبل ذلك الحكومة المصرية والدولة الفاطمية زاوية لابن عطاء الله الإسكندري صاحب (الحكم) .

أما ترجمته فقد أوجزها عن المصدر السابق ، مفخرة مؤلفي التراجم لعصرنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتاب يعده للذين لم يترجم لهم في كتابه الكبير (الأعلام) سماه (الإعلام بمن ليس في الأعلام) وقد سمح مشكوراً بنقلها لفائدة القراء وهذه هي :

« محمود بن محيي الدين بن مصطفى ، أبو الشامات الدمشقي الحنفي (١٢٦٦ ـ ١٣٤١هـ = ١٨٥٠ ـ ١٩٢٢م) : متصوف ، أديب . كان شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية بدمشق . =

الشيخ علي اليشرطي المشهور أسسها في مدينة عكا .

كان الشيخ أبو الشامات جميل الصورة ، حسن السمت ، مهيباً ، حلو البشرة ، نديماً ، محاضراً ، للناس ـ والعوام منهم خاصة ـ عقيدة فيه صالحة ، يقيم الحضرة (مجلس الذكر) كل ليلة جمعة في زاويته الفخمة .

من مريدي الشيخ (راغب رضا بك) مدير القصر السلطاني أيام السلطان عبد الحميد ، وكلما زار الشيخ (إستانبول) نزل عند مريده مدير القصر . والظاهر أن السلطان الذي لا تخفى عليه خافية من شؤون حاشيته ، اطلع على الأمر ، فسأل مدير قصره عمن يكون ضيفه ، فأخبره أنه شيخه في الطريق ، ووصف له من حاله ما ملأ سمع السلطان وأهاجه لاستزارته ، فلما اجتمع به ملأ عينه وقلبه ، وطلب منه الطريق فلبّاه ، وأصبح السلطان من تلاميذ الشيخ في الشاذلية وأورادها وأذكارها ، وقد عرفت أن الشيخ حسن المحاضرة من أمراء المجالس ، تتقبله القلوب ، فتعلق به السلطان . كما أخذ عنه الطريق جملة من وجهاء (إستانبول) وموظفي القصر السلطاني وجنوده وحراسه . فلما خلع السلطان ووضع في قصر في (سلانيك) كان من الحراس الذين أقيموا عليه ، أحد تلاميذ الشيخ أبي الشامات ، وعن طريقه تتم المواصلة السرية الكتابية بين الشيخ والسلطان المخلوع ، وحفظ الزمان لنا هذه الرسالة التي أرسلها السلطان إلى الشيخ وفيها البيان الصريح عن سر خلعه كشفه لشيخه .

احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سراً مكتوماً طوال عهد الاتحاديين ، حتى إذا زال الحكم التركي عن سورية أطلع عليها بعض خلصائه ، ثم حافظ عليها بعد وفاته أبناؤه من بعده إذ كانت من أنفس التحف التي يحرص عليها الحريصون ، لا يطلعون عليها إلا الثقات من أهل ودِّهم ، حتى إذا قدم العهد وظهر عليها آثار الأيام ضنوا بها على

= له : (شرح التائية الكبرى) أربعة مجلدات ، ورسائل منها : (المعشرات) و(الموالاة) و(عروج السالك ودنوه) ، وقصيدة في (إثبات وحدة الوجود) و(مولد ـ مطبوع) على لسان القوم ، و(شرح على الوظيفة الشاذلية) ورسالة في (لبس الخرقة) في مصطلح المتصوفة ، و(السنوحات) وديوان فيه كثير من نظمه جمعه ابنه عبد الرحيم ، مولده ووفاته بدمشق .

الجميع . وقد سعى بعض وجهاء دمشق من أصدقاء أبناء الشيخ حتى أقنعهم باطلاعي عليها ، إذ لا يجوز كتمان أمرها الآن ، حتى لا يضيع الحق ، وحتى يصحّح كثير من الباحثين والعلماء خطأ ورَّطتهُمْ فيه الدعايات الباطلة ، فلبى الورثة الطلب مشكورين ، وأعارونيها في مطلع هذا العام ٧٢ ريثما صورتها ورددتها لهم .

أما الترجمة العربية للرسالة فقد قام بها صديق لهم من أهل العلم يتقن اللغتين العربية والتركية[١] وكتبها لهم بخطه الفارسي الجميل المعروف ، وهم يحتفظون بالترجمة احتفاظهم بالأصل التركي . ولا تنس ما قدمت لك من أن الرسالة موجهة من السلطان (المريد) إلى شيخه في الطريق ، فلا بد إذن من الطمأنينة على التزام الأذكار الشاذلية والتزام التقاليد في مخاطبة الشيخ ، وإليك الرسالة المترجمة :

يا هو

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين .

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية ، إلى مفيض الروح والحياة ، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات ، وأقبّل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة .

بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مايس من السنة الحالية ، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين .

سيدي

إنني بتوفيق الله تعالىٰ مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً . وأعرض أنني

---

(١) هو الشيخ أحمد القاسمي مدير أوقاف الجمهورية السورية سابقاً . وقد حرص كل الحرص على الدقة في الترجمة ، حتى أنه كرر لفظ : « بوجه قطعي » ، ست مرات متتالية ، على ما في هذا التكرار من ركّة ، إذ كانت في الأصل التركي كذلك .

ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة .

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ :

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما ، سوى أنني ـ بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم ـ اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة .

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً ، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي :

« إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا ـ فضلاً عن (١٥٠) مئة وخمسون مليون ليرة إنكليزية ذهباً فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي . لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً » .

وبعد جوابي القطعي[1] اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى (سلانيك) ، فقبلت بهذا التكليف الأخير .

---

(١) هاجم عبد الوهاب الإنكليزي وشكري العسلي النائبان السوريان في مجلس (المبعوثان) التركي ، فكرة الوطن اليهودي في فلسطين أيام حكم الاتحاديين ، فلما دخلت تركية الحرب العامة بعد أن ورطها الاتحاديون مع ألمانية ، أعلنت الأحكام العرفية في سورية ، وقام أحمد جمال باشا السفاح ـ الحاكم العسكري لولاية سورية وقائد الجيش الرابع وأحد أقطاب الحزب فدفع بالنائبين المذكورين إلى محاكمة صورية بتهم ملفقة ضد الدولة ، وحكم عليهما بالإعدام وشُنقا ، ولم يكن لهما من ذنب عند العارفين إلا موقفهما المشرف في الدفاع عن فلسطين في مجلس المبعوثان ، فحقد عليهما الحزب اليهودي الحاكم (حزب الاتحاد والترقي) حتى وجد الفرصة سانحة في ظل الحرب والأحكام العرفية . إن الحيلولة دون إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين هي الجريمة الوحيدة لعبد الحميد والنائبين المذكورين ، والجريمة التي لا يغفرها مطلقاً مسيّروا الحزب من وراء الستار .

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة : فلسطين . . وقد كان بعد ذلك ما كان . ولذا فإني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال . وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام ، وبه أختم رسالتي هذه .

ألثم يديكم المباركتين ، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي بسلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء .

يا أستاذي المعظم

لقد أطلت عليكم التحية ، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن تحيط سماحتكم علماً ، وتحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

ما أظن هذه الوثيقة التاريخية بحاجة إلى تعليق ، فليس بعد بيان السلطان نفسه عما جرى له بيان ، ولا بعد هذه الصراحة بوقاحة اليهود وعملائهم (الاتحاديين) صراحة . ونحن الذين نعيش في سنة ١٩٧٢ بعد أن رأينا تتابع الأحداث منذ وعد بلفور سنة ١٩١٧ وما لحقه . صححنا كثيراً من نظراتنا السابقة إلى الحلفاء ومواعيدهم ، وألممنا بأثر اليهود في الحوادث العالمية إلماماً نظرياً ، وصرنا نرتاب بل نخاف أشد الخوف كلما رفع حزب شعارات نعشقها ، بعد أن علمنا علم اليقين ما كان وراء شعارات (الحرية والعدالة والمساواة) التي رفعها حزب الاتحاد والترقي من استعباد واضطهاد وظلم وتفريق وإراقة دماء وشنق ضحايا . لقد كان (الاتحاد) الذي سمى به الحزب نفسه تشتيتاً للأمة الواحدة ، وتمييزاً بين عناصرها ، وإضاعة لبعض بلادها ، وكان (الترقي) انحداراً إلى الهاوية حيث لفظت المملكة عندها نفسها الأخير .

الهدف من الرسالة

نتساءل ـ بعد ما تقدم ـ ما أرب السلطان من عرضه على (أصحاب السماحة والعقول السليمة) هذه (المسألة الهامة) وجعلها أمانة في ذمة التاريخ ؟

إننا إذا ذكرنا أن السلطان بشهادة خصومه وشهادة السياسيين الأجانب كان من الدهاة أصحاب الأناة والتدبير ، عرفنا بأنفسنا الجواب . لقد أراد أن يرمي عصفورين ـ كما يقولون ـ بحجر واحد : وذلك أنه باستشارته العلماء والمشايخ وذوي العقول السليمة يكون قد حرك جهازاً له خطره البالغ في تلك الأيام فيثير أولئك ـ في خطب المساجد ومجالس الوعظ وحلقات المشايخ ـ الجماهير ، وقدسية (فلسطين) حساسة جداً يوم كان للدين حكمه النافذ على القلوب ، فيعي الشعب ويغلي ويثور ، فتموت فكرة الوطن القومي في مهدها بعد تنبه الجماهير لها ، ويزاح (الانقلابيون) بأهون السبل بعد حصول هذه التوعية وخاصة في العاصمة والأناضول ، وبذا ينقذ السلطان فلسطين ، ويقضي على الانقلابيين ، إذ كان الجيش الذي ساقوه فقام بالانقلاب وأوهموه إنما يحاربون به الاستبداد الحميدي ـ سيصبح بعد توعيته ، وتنبهه للغرض الحقيقي ، واطلاعه على هوية (الاتحاديين) منقلباً عليهم لا يرضى دون تعليقهم على المشانق لقاء خدعهم وتضليلهم له .

لكن الشيخ أبا الشامات وجماعته وأصحاب السماحة لم يكونوا من الوعي والشعور بالمصالح العليا للأمة بحيث ظن السلطان . نعم ، إني أعلم أن حركات مضادة للاتحاديين قد بدأت تذر قرونها ، وأن (الجمعية المحمدية) التي صار لها فروع في بعض الأمصار طالبت متحمسة بإلغاء الدستور والرجوع إلى الشرع الإسلامي ، لكن لم يكن بأكثر من فورة حماسة لم تلبث أن انطفأت بالإرهاب الأحمر الذي حكم به الاتحاديون ، إذ لم يحسن القائمون بها والداعون لها تخطيطها ولا تعميمها ، ولم يكن وعي الشعب يومئذ كافياً ليدرك مصالحه ، وكان (المطبلون) للاتحاديين من المنافقين المرتزقة أكثر من أولئك بكثير .

يرحم الله عبد الحميد ، لم يكن له في مستواه وزراء ولا أعوان ولا شعب ، لقد سبق زمنه وكان في كفايته ودرايته وسياسته وبُعد نظره بحيث استطاع وحده بدهائه

وتصرفه مع الدول تأجيل انقراض الدولة ثلث قرن من الزمان ، ولو وجد الأعوان الأكفياء والأمة التي تفهم عنه لترك للدولة بناء من الطراز الأول .

* *

عبد الحميد في ذاكرة شعبه

إني أعي في طفولتي ـ وقد نزل ما نزل من ويلات الحروب وضياع البلاد والمجاعة والقحط أيام الحرب العامة الأولى ـ الناس وهم لا يملون من ذكر أيام عبد الحميد بالخير والرحمات ، وكانت كلمة (سقى الله تلك الأيام) لازمة تتردد على الألسنة كلما ذكر عبد الحميد وعهده . ولقد كان عندهم خلع عبد الحميد هو الباب الذي منه تدفقت على البلاد المصائب والشدائد والضياع . وما لي أرجع إلى عهد الحداثة وأنا الآن كلما جلست إلى معمَّر أو أصغيت إلى حديث يدور بين طاعنين في السن أسمع الترحم على عبد الحميد وعلى أيامه ، حتى صار اسمه حِناناً في قلوب الناس ، تجسد فيه عزهم السابق ورخاؤهم وأمنهم وسلامة مقدساتهم . والظاهر أن لروح الشعوب حساً لا يخطئ ، وحدساً صادقاً لا تنفع منه أضاليل دعاية مهما تعظم وتضخم . لقد ذهب كل ما حشوا به أذهاننا عن استبداد عبد الحميد . ونسي الناس كل دعايات الاتحاديين وتاريخهم المزور الذي صنعته الدول الأجنبية والمكر اليهودي ، نسي الناس كل ذلك ، وبقي في عقيدتهم أن حزب الاتحاد والترقي والقواعد الماسونية كلها كانت طلائع الغزو الصهيوني ، وأن السلطان كان المناضل الحق الصامت عن فلسطين ، وأنه لو قبل عرض الاتحاديين عملاء اليهود لتحقق من سنة ١٩٠٨ تهويد فلسطين ، وما تأخر بفضل السلطان وإيمانه وعزيمته إلى سنة ١٩٤٨ .

لقد كان وحده ـ رحمه الله ـ الشهيد الصادق الأوّل الذي خر دفاعاً عن فلسطين .

وثيقة وعبرتها(١)

(الأمير شكيب أرسلان والشيخ رشيد رضا)

مقالة تترجم للأمير شكيب أرسلان وللشيخ رشيد رضا
وتبيّن صلابة الأول ووضوح رؤيته للحق .
نشرت في مجلة (دعوة الحق) بالرباط ، السنة (١٥) المحرم ١٣٩٢هـ/ آذار ١٩٧٢م

الأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦ـ١٣٦٦هـ=١٨٦٩ـ١٩٤٦م)[١] علم فرد ، لا يدانيه في نضاله ومساعيه ونشاطه الدائب مجاهد آخر في العالم الإسلامي كله ، وقف نفسه وقلمه على نصرة قضايا العرب وسائر الشعوب المسلمة ، وكان ملء السمع والبصر في غير ما ميدان : أديب منتج وشاعر طويل النفس ، ومؤرخ ثبت ، وسياسي مجرّب . جنّد ملكاته كلها في خدمة أمته وبلاده ورفع أمجادها ، موقن في قرارة نفسه أنه مسؤول عن جميع هذه الشعوب المظلومة في إفريقية وآسية ، فكان لكل منها من قلبه جزء ومن جهاده نصيب .

شغل مناصب إدارية أيام الدولة العثمانية ، ثم انتخب نائباً في مجلسها البرلماني (مجلس المبعوثان) عن (حوران) من ديار الشام ، فلما كانت الحرب العامة الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨) سكن دمشق وخالط علماءها وكبراءها ، وقبيل احتلال الفرنسيين لها سكن (برلين) ثم استقر في (جنيف) بسويسرا وجعلها مقر (الوفد السوري الفلسطيني الذي رأسه وكان كل شيء فيه ، وأصدر هناك مجلة الأمة العربية ذات الصيت الذائع (la Nation Arabe) باللغة الفرنسية ، ينافح فيها عن القضايا العربية عامة من أقصى المغرب[٢] إلى أدنى المشرق .

---

(١) الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلي ٣/ ١٧٣ـ١٧٤ وانظر فيه ترجمته وجريدة ببعض آثاره .

(٢) كنت أقدر أن أقطار المشرق هي التي كانت تتابع جهاده وكتاباته وتعلق على مآتيه أطيب الآمال ، فلما زرت المغرب العزيز في رحلة علمية سنة ١٩٥٦م أحسست جلالة قدره في نفوس عظمائهم=

صورة فتوغرافية لرسالة الأمير شكيب أرسلان بخطه ، وهي وثيقة تاريخية ذات شأن هام لكل آثاره رحمه الله

= وعلمائهم ، وأنهم على رغم الوطأة الثقيلة والرقابة الشديدة للاحتلال الفرنسي والسور الحديدي الذي حبس المغرب فيه وعزلهم عن العالم ـ على رغم ذلك كله تسربت إلى المغاربة أخبار الحرب الإعلامية التي شنها الأمير ومجلته على الفرنسيين ، وأشد ما كانت منذ أراد الفرنسيون بـ (الظهير البربري) تمزيق المغرب وكسر وحدته التي جبلها الله بيديه . فثبت للأمير في نفوس المغاربة تقدير وتقديس لا حد لهما . أما نحن ـ الشرقيين ـ فلا ننسى أبداً مقالات الأمير وصرخاته في كشف أضرار (الظهير) للعالم الإسلامي كله على صفحات جرائد مصر ومجلاتها ولاسيما صحيفة (الفتح) للمجاهد المسلم السيد محب الدين الخطيب ، (الفتح) التي كانت وحدها جبهة ثابتة لكل مكائد الاستعمار في العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة .

واشتهرت هذه المجلة في البيئات العربية والأجنبية ، بل هي في المحافل الأجنبية أعرف وأشهر ، وقلّ أن يجهلها مثقف حينئذ .

ليس يعنينا هنا آثاره في التاريخ والأدب والشعر ، وهي جليلة ثرة سخية شغلت حيزاً مرموقاً في أثبات المراجع والمصادر ، وإنما يعنينا جهاده السياسي الذي شمل الجزئيات والكليات ، فإذا طرق موضوعاً منه أشبعه بحثاً حتى إذا فرغ قارئه منه شعر بامتلائه من الموضوع وتسلحه بحججه . ولقد كان ـ رحمه الله ـ أريحياً في الكتابة ، اتسع سخاؤه فيها لصغير الصحف وكبيرها ، ومغمور المجلات ومشهورها في الشرق والمغرب ، وكلمة الشيخ عن الأمير التي أشير إليها في هذه الوثيقة وهي (بحر لا ساحل له) تصف بصدق واقعاً معروفاً ، بل إن سخاءه خاص في مراسلاته التي كان يتعاهد بها نبهاء الأعيان في الأمصار العربية . وإن القليل مما اطّلعت عليه في رسائله الخاصة بادئاً أو مجيباً جعلني أقطع أنه في السياسة ومصالح الأمة من المخلصين الملهمين .

انفرد الأمير بين أقرانه وزملائه باتجاهات واجتهادات لقي بسببها من مخالفيه الأمرّين ، ونالت منه الصحف والمجلات الطائفية المأجورة ما لم تنل من عظيم ولا حقير ، فثبت وصبر ، ولم يغير ولم يبدل ، ولم يحد عما يراه الحق يمنة ولا يسرة ، ومضى صابراً مناضلاً هازئاً بالمناصب والرياسات التي لوح له بها المستعمرون ، ثم ألبسوها الدمى والألاعيب من أشباه البشر . . . حتى لقي ربه بثوب جهاده متوفىً في بيروت .

تألفت الجمعيات السرية في البلاد العربية منذ أواخر عهد السلطان عبد الحميد رحمه الله ، بعضها يسعى لربط البلاد العربية بفرنسة ، وبعضها بإنكلترة ، وبعضها استهدف استقلالاً ذاتياً (لا مركزياً) ، وبعضها أراد استقلالاً تاماً . ودخل شبان العرب المتحمسون هذه الجمعيات ، بعض عن حسن نية ، وبعض دُسّ فيها إنجاحاً لخطط الدول الأجنبية الرامية إلى تحطيم الرجل المريض (الدولة العثمانية) وبعثرة إمبراطوريته وابتلاع أجزائها .

كان ذلك كله رد فعل للعنصرية التركية المتعصبة التي نادى بها بعض الأحزاب

التركية ، ولاسيما حزب (الاتحاد والترقي) الحاكم حينئذ ، والذي ظهر - في ما بعد - أن رؤوسه المخططة من يهود سلانيك (الدونمة) الذين تظاهر آباؤهم بالإسلام ، أسسوا هذا الحزب فدخله الأتراك الغافلون . ثم سيق الحزب وأكثر أعضائه من ضباط الجيش إلى خلع السلطان عبد الحميد الذي كان رفض بإباء وترفّع عرضَ الزعيم الصهيوني (هرتزل) ملايينَ الدنانير الذهبية لقاء جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود ، فنال السلطان جزاءه على أيدي الضباط (الدونمة)[1] هؤلاء : خلعاً من الملك ، وتشويهاً لسمعته وتزييفاً لسيرته[2] .

تهافت شبان العرب على هذه الجمعيات ، وأظهر بعضهم العداء للدولة والصداقة والتبعية لدول أجنبية ، وكانت هذه علامة الوطنية العربية في بعض البقاع حينئذ ، وكان للطائفية أثر كبير في الميل الأجنبي . أكثر هذه الأحزاب عاشت خارج الحكم العثماني ، في مصر الخاضعة حينئذ لإنكلترة ، وجهرت بعدائها للدولة ، ولم يبق سياسي مرموق من السوريين (من ساحل سورية وداخلها ومن فلسطين والأردن) إلا اشترك في حزب من هذه الأحزاب المتخالفة التي لم تجمع إلا على شيء واحد هو خصومة الدولة العثمانية والاستعانة بأعدائها . انفرد الأمير شكيب من

---

(١) كانوا تسربوا إلى الجيش في غفلة عن القُوَّام عليه ، خطوةً أولى في سبيل اغتصاب فلسطين ، تلتها خطوات حققت آخرتها الاستيلاء عليها وطرد أصحابها منها .

(٢) وقد تلقينا هذا التزوير في دروس التاريخ ونحن أطفال ، وبقينا عليه السنين الطوال . . حتى أزالت حوادث فلسطين الصارخة وما ظهر من خفايا السياسة الدولية وما نشر المؤرخون الأوربيون والأمريكيون من وثائق وكتب . . أزالت زيف التزوير ورفعت الغشاوة فرأى الناس ما كان أسراراً حقائقَ بادية للعيان . . فصححنا ما نشأنا من تاريخ مزور للسلطان رحمه الله ، وترحمنا على الأمير شكيب إذ فتح الله بصيرته على ما لم نر حقيقته إلا بعد خمسين سنة من وقوعه ، بل صرنا نقول في حسرة : ليتنا كنا صبرنا قليلاً ولم نكن معاول في هدم دولة العثمانيين ، بل ليت حكمهم - على علاته - دام ولم نر مصائب الاحتلالين الفرنسي والإنجليزي ، ولا ذلك اليوم الأسود يوم إنشاء (إسرائيل) على جماجم الشهداء والضحايا من إخواننا الفلسطينيين ، الذين طردتهم وشردتهم وسلخت جلودهم وأموالهم وديارهم حليفتنا العزيزة (إنكلترة) التي استنصرت بنا في شدتها على العثمانيين فنصرناها ببلاهتنا ، وبارك ولادتها وسابق إلى الاعتراف بها حبيبتا كثير منا (روسية وأمريكة!!) .
رحمة الله لنا ما كان أشد غفلتنا حينئذ! ، وما أبعدنا عن السلوك الواعي اليوم! .

بينهم جميعاً بالولاء الصادق لدولة الخلافة ، يخطِّئ زملاءه ويحذرهم العواقب . ويبصرهم بخداع الأجانب وأحابيلهم . . ولكن أين من يسمع منه ؟ وكانت نظرته أن كل المطالب العربية يمكن بحثها بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وأن ليس من المروءة ولا الشهامة طعن الدولة من خلف وهي تواجه أعداء يحاربونها . وكان متفائلاً حسن الظن يوقن أن الدولة ستلبي أكثر هذه المطالب بعد أن تفرغ من حربها ، وأن أصغر اضطراب داخلي مضر بالدولة والعرب معاً .

ولقي الأمير من الصحف في مصر وغيرها عنتاً وشتماً وقذفاً ، وكان الحلفاء يمدون كبريات الصحف المصرية (الأهرام والمقطم) وغيرهما بالمال والأخبار والتوجيه حتى تسمم الرأي العام العربي بما أرادوا ، وكان لهم ذلك فالتزم الرأي العام مروجي سياساتهم ونبذ المخلصين الواعين ، ثم دار الزمن دورة بعد دورة ومضت عشرات السنين ، واكتوينا من الأجانب واليهود بعد رحيل الأتراك بما جعل الجميع يترحمون على العهد البائد ، ومات الأمير شكيب وشهد الواعون الراشدون من خصومه أن آراءه كانت هي الحق ، وأنهم كانوا في غشاوة بل عماية ، وأن ثورة الملك حسين ـ رحمه الله ـ على جلال أهدافها وحسن نيته كانت دفعاً للحَمل إلى براثن الذئب المتربص .

تجلى نضال الأمير في المقالات يرسلها إلى الصحف العربية والأجنبية ، وفي الرسائل الخاصة يبعث بها إلى من يتوسم فيهم الخير ، وكانت سيلاً يعز على الحصر ، وبقي على ذلك حتى كان الاحتلال الفرنسي لشمالي الشام[١] والاحتلال الإنجليزي لجنوبيه[٢] ، واقتضى الأمر عملاً جديداً دائباً ، دفاعاً عن القضايا العربية ، فحمل الأمير على صحته وزاد نشاطه أضعافاً مضاعفة يؤلف ويراسل وينشر في الصحف والمجلات بالعربية والفرنسية ، يكافح ويرد الهجمات عن العرب

---

(١) جزأت فرنسة هذا الجزء من الشام دولتين : جُزَيْئاً داخلياً سمته (دولة سورية) وجزيئاً ساحلياً سمته بجبل فيه (دولة لبنان) ، ولما شعرت أنها ضمت مدناً كبرى (بيروت وطرابلس الشام وصيدا وصور وبعلبك والبقاع) إلى هذا الجبل الصغير ، كبَّرت اسمه فصار (دولة لبنان الكبير) .

(٢) جزأته إنكلترة إلى جزأين أيضاً : فلسطين والأردن . وبقيت هذه الجزيئات الأربعة على تقطيع الدولتين الغاصبتين إلى اليوم! .

والمسلمين وعن تراثهم وحضارتهم حتى دعي بحق أمير البيان . كتب مرة إلى صديقه المرحوم السيد هاشم الأتاسي[1] سنة ١٩٣٥م أنه أحصى ما كتبه في ذلك العام فكان :

١٧٨١ رسالة خاصة

١٧٦ مقالة في الجرائد

١١٠٠ صفحة كتباً طبعت

ثم قال : « هذا محصول قلمي كل سنة » .

كانت الرسائل الخاصة التي ننشر اليوم واحدة منها هنا ، أحد الميادين العامة التي جاه فيها رحمه الله .

- ب -

أما الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢_١٣٥٤هـ=١٨٦٥_١٩٣٥م) فقد « ولد ونشأ في قرية (قلمون) قرب طرابلس الشام ، وتعلم فيها وفي طرابلس ، وتنسك ، ونظم الشعر في صباه ، وكتب في بعض الصحف ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ فاتصل بالإمام الشيخ محمد عبده ، وتلمذ له وأصدر مجلة (المنار) لبث آراء شيخه في الإصلاح الديني والاجتماعي . ولما أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦هـ زار بلاد الشام ، واعترضه في دمشق أحد أعداء الإصلاح فكانت فتنة عاد على أثرها إلى مصر وأنشأ مدرسة (الدعوة والإرشاد) ثم قصد سورية أيام الملك فيصل بن الحسين ، وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري فيها ، وغادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠ ، فأقام في (وطنه الثاني) مصر مدة ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوربة ، وعاد فاستقر بمصر إلى أن توفّي . . . »[2] .

---

(١) الأعلام للزركلي : ترجمة الأمير في الطبعة الثالثة ٣/ ١٧٣_١٧٤ . والسيد هاشم الأتاسي ممن شغل الوظائف الإدارية أيام العثمانيين ، ثم شغل رياسة الجمهورية السورية مرتين بعد التاريخ المذكور في الرسالة .

(٢) الأعلام للزركلي : ٦/ ١٢٦ .

ووثيقتنا تشير إلى ناحية من نشاطه ليس في خطة صاحب (الأعلام) الذي نقلنا عنه هذه المعلومات معالجتها ، تلك هي خوضة لجج السياسة والحزبية ولم يكن متسلحاً بعدتها ، فانزلق في مزالقها واستغلها واستغلته حتى أساء ذلك إلى عمله الأصيل الذي خلق له ، وهو نشر الوعي الديني الصحيح في المجتمع .

-ج-

الوثيقة :

في أعلى الرسالة تاريخ (٢٩ نيسان)[١] ولا ذكر فيها للسنة ، ويرجح أن المرسل إليه هو الأستاذ أمين سعيد ، صحفي سوري مارس الصحافة في مصر وسورية وتوفي سنة ١٩٦٩م[٢] .

والجملة الأولى في الرسالة تشير إلى أمر خاصٍ ، وباقيها من بيان الأمير المركز الموجز الممتلئ صواباً وغيرة وبعد نظر . وفي أسفلها حاشيتان ملحقتان .

ويجب ألا ننسى تقدير الأمير للشيخ رشيد حتى ألّف في سيرته بعد وفاته كتابه القيم (السيد محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة) ، لكن النصح الخالص للأمة وقولة الحق ولو كانت على أعز الناس هما دأب الأمير وهجيراه . وإليك نص الرسالة وقد شرحت في الحواشي ما رأيت الإشارة إليه ضرورية

٢٩ نيسان

أخي الأمين السعيد

. . . . .

أرسلت لكم كتاباً بالفرنساوي عن تونس ، وأشرت أن ينشر على الأقل ترجمة الخلاصة التي في الآخر .

بلغني سلام الأستاذ الشيخ رشيد رضا ، واهدوه سلامي . لكن لا بد أن تبلغوا

---

(١) يغلب على الظن أنها قبل سنة ١٩٢٢م التي نصب الاحتلال الفرنسي فيها حقي العظم الوارد ذكره في الرسالة ، حاكماً لدولة دمشق .

(٢) بل توفي بسنة ١٩٦٧م . وله مجموعة من الأعمال في الصحافة والسياسة . انظر الأعلام ٢/ ٢٠ .

الأستاذ أنني إن كنت (بحراً لا ساحل له) فلماذا أوسعوني طعناً وشتماً في الماضي ؟ وبلغ منهم الأمر أن استأجروا جريدة (الصاعقة)[1] للسفاهة علي ، ولا ذنب سوى قولي : اتقوا الله ولا تتفرقوا ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال ٨/ ٤٦] يوم بدؤوا الطعن بي ما كان جرى قلمي إلا بهذه النصائح . استئجارهم (الصاعقة) للتمثيل بي اعترف لي به رفيق لهم هو (داوود عمون)[2] .

اسألوا لي العلامة الأستاذ : كيف جرى أن كاتب سر (الاستقلال العربي) حقي العظم[3] هو أعظم داعية لمنع العرب من الاستقلال ؟ هذا الذي يتشيع لفرنسة أكثر من كل (ماروني)[4] هو الذي كان عمدة الأستاذ ورفيقه . . . في لجنة (اللا مركزية)[5] .

اسألوا لي السيد الأستاذ : كيف رأى مواعيد أصحابه (الإنكليز) باستقلال

---

(١) جريدة مصرية عرفت بشدة حملاتها في تعرضها للمرموقين حتى في أحوالهم الخاصة .

(٢) داوود بن أنطون عمون : لبناني احترف المحاماة في مصر . ثم عمل مديراً لمعارف لبنان في عهد الاحتلال الفرنسي حتى مات سنة ١٩٢٢ ـ الأعلام للزركلي [٢/ ٣٣١] .

(٣) من أسرة العظم الدمشقية المشهورة ، نزح إلى مصر وعاش بها زمناً طويلاً ، وله نشاط في الأحزاب السورية في القاهرة مثل حزب (اللامركزية) و(الاستقلال) ، يدين بتسليم الأمر في سورية لفرنسة . ولما احتل الفرنسيون دمشق استدعاه المفوض السامي الفرنسي (الجنرال غورو) وسماه حاكماً لدولة دمشق ، وأبدل به بعد ثلاث سنوات موظفاً آخر ، ثم كانت الثورة السورية ثم حكومات شبه وطنية ، ثم استدعاه الفرنسيون ثانية ليكون رئيس وزراء في سورية ، ولم يطل به الأمر في هذا المنصب فرجع إلى مصر حيث توفي . الأعلام [٢/ ٢٦٥] .

(٤) عرف عن الطائفة المارونية في جبل لبنان ولاء صميم لفرنسة منذ أكثر من مئة سنة وأن جمهورها ينادي بحكم فرنسي مباشر لأن الكثلكة تجمع بينهما ، فلما احتل الفرنسيون شمالي الشام (ساحلاً وداخلاً) ولّوا مهام الأمور المارونيين وحكّموهم في القطر كله . وكثير من وجهائهم وعامتهم على هذا الولاء إلى الآن لنَشْئتهم عليه في المدارس الكنسية الفرنسية الولاء . بل جلب الفرنسيون كثيراً منهم إلى مناصب في المغرب والجزائر وتونس ، والطليان وظفوا منهم في ليبية لهذه الرابطة المذهبية التي أسلفت .

(٥) حزب أنشئ أيام الحكم العثماني ، واسمه يدل على هدفه ، وهو إدارة الأقاليم التابعة للخلافة باستقلال ذاتي .

العرب ؟ . . لا بد أن يكون عرف الحقيقة اليوم هو وغيره ، لكن وا أسفاه! « الصيف ضيعتِ اللبن » . ولا بد للعرب من بلايا سود ، ومحن تذل لها الأسود حتى ينالوا ما كانوا أمَّلُوه من وفاء إنكلترة[١] . إن « أحد أدباء دروز لبنان » (هكذا لقبني الأستاذ في مناره) عرف مِن مصلحة الإسلام أكثر مما عرف غيره .

هذا من جهة الأستاذ صاحبنا القديم . ثم اهدوا سلامي للأستاذ المغربي[٢] وقولوا له : (عسى أن يكون تراجع الود بينه وبين من « سيطت نفسه بنفسه » ويكون ذلك الشلو عادت إليه الروح . . .) وسلامي إلى الخليل الغني عن التعريف .

بهذه الجمعة أرسلت إليكم ثلاث مقالات ، ومقالة لـ (الكنانة) عن فلسطين . وكل هذه الأتعاب لا أقصد بها الشهرة كما تعلمون ، بل إيقاظ هذه الأمة التي غدر الغادرون بها ، والله يوفقكم إلى سواء السبيل ويؤيدكم ويسددكم .

حاشية١ـ أرجو أن تذهبوا إلى حضرة الإمام الشيخ بدر الدين الحسني[٣] وتقبلوا يده عني بصورة خاصة ، وتلتمسوا لي رضاه ودعاه وتجاوبوني . هذا ما أطلبه أجرة

---

(١) إي والله ، لقد ذقنا هذه البلايا والمحن ، وأعظمها ما لا نصرح به مما هو أشد من الاحتلال والصهيونية .

(٢) الشيخ عبد القادر المغربي رفيق الشيخ رشيد رضا في الطلب ، وقد هنأه الشيخ رشيد بقصيدة يوم زفافه قرأها لي المغربي رحمه الله ، تعاطى الكتابة في جريدة (المؤيد) المصرية ، من أتباع الحركة الإصلاحية التي مثلها رفيقه . ولعل الأمير شكيباً يشير بـ (الشلو وهو العضو) إلى علاقة الشيخ المغربي برئيسه الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق انظر الأعلام ٤/ ٤٧ وسيطت : خلطت .

(٣) كبير علماء الشام ومرجعهم ، شيخ المحدثين وقدوة العاملين الصلحاء . كانت غرفته في دار الحديث النووية موئل الناس في الأزمات ، على عتبتها يذوب جبروت المتجبرين . رزقه الله هيبة في قلوب الحكام والمتسلطين ، أيام الأتراك وفي الحكم العربي ثم أيام الاحتلال الفرنسي . منزوٍ عن الناس ، ولهم فيه اعتقاد عظيم ، لما زاد ظلم الاتحاديين الأتراك قصده الناس ليبايعوه خليفة ويثوروا فزجرهم وزاد انزواءه . درسه بعد صلاة الجمعة تحت قبة النَّسر في مسجد بني أمية مشهود مشهور يقصده أهل العلم من ضواحي المدينة والقرى القريبة . يحفظ الصحيحين بأسانيدهما ، ويتكلم على الحديث الواحد في درس الجمعة كلاماً حافلاً لم تر العلماء أجمع منه . توفي بدمشق سنة ١٣٥٤هـ=١٩٣٥م . الأعلام (٧/ ١٥٧ـ١٥٨) .

على أتعابي .

حاشية٢ـ فهمت رجوع الأستاذ الشقيري[١] وسرني فرجه . سامحه الله فقد أضحك (جمال باشا)[٢] وأبكى أناساً كثيرين ، ولكنه يعتذر بقوله : « إنه يفضل أن يكون حياً (لعنه الله) من أن يكون مشنوقاً) (رحمه الله)

. . . .

هذه هي الوثيقة ، فأما العبرة فموضوع آخر وحديث قادم إن شاء الله .

---

(١) الشيخ أسعد الشقيري خطيب فلسطيني يحسن الخطابة بالتركية والعربية ، يتقرب إلى الحكام ، كان في معية أحمد جمال باشا قائد الجيش العثماني الرابع في سورية أيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨) اتهم بأذى ناس كثيرين . وابنه أحمد الشقيري تزعم حركة التحرير الفلسطينية أيام جمال عبد الناصر ، ثم صار صاحب أفخم قصر في بيروت جاوز ثمنه المليون ليرة (في ذلك الوقت)!! .

(٢) قائد الجيش العثماني الرابع وأحد أساطين حزب الاتحاد والترقي الذي نادى بالعنصرية الضيقة المتعصبة كما رسمها البارزون من أعضائه ذوو الأصل اليهودي (الدونمة) . تأسس الحزب ـ كما تقدم ـ بعد أن رفض السلطان عبد الحميد عرض (هرتزل) الصهيوني في إعطاء اليهود فلسطين وطناً قومياً لهم لقاء أداء (هرتزل) ديون الدولة العثمانية وبعض ملايين من الدنانير الذهبية للسلطان خاصة . قام هذا الحزب التقدمي الثوري الذي جعل شعاره (حرية ، عدالة ، مساواة) وقتل بعمله هذه المبادئ قتلاً شأن أصحاب الشعارات ، قام بانقلابه العسكري وخلع السلطان واغتصب السلطة وغذى عوامل الفرقة والكراهية بين عناصر الدولة وأدخل المملكة بالقوة على رغم تحذير العقلاء المحنكين الحرب العامية في صف الألمان ـ كما خطط اليهود تماماً ـ فكانت الدائرة على الدولة فتبعثرت وتمزقت واحتل الإنجليز فلسطين ريثما يهيئونها لقمة سائغة لليهود ، وثبتوا جريمتهم الوحشية (إسرائيل) لعنةً على إنسانيتهم وحضارتهم ثم انسحبوا شر انسحاب وأقذره .

وثيقة وعبرتها (٢)

(الأمير شكيب أرسلان والشيخ رشيد رضا)

مقالة تتمم المقالة الأولى ، وتبيّن العبرة منها ، وهي أن الشيخ الذي يعمل في السياسة أو تستغله الحزبية ، كأنه باع دينه بدنياه .
نشرت في مجلة (دعوة الحق) بالرباط
السنة (١٥)

استهل القرن الجديد ولعلماء الدين في الأقطار العربية خاصة حرمة وإجلال ، هم المرموقون من دون الزعماء والحكام ، لهم المكانة وكلمتهم هي المطاعة . ولعل الفضل في ذلك يرجع إلى أعلام منهم راقبوا الله في علمهم وعملهم وسلوكهم حين أيقنوا أنهم موقوفون بين يدي الله فمسؤولون عما قاموا به من واجب نحو أنفسهم ونحو الأمة عامتها وخاصتها ، وهل أوفوا بما أخذ الله عليهم من ميثاق يوم آتاهم العلم والكتاب ؟ فثبتت لهم في النفوس تلك التجلّة لمواقف وقفوها آمرين بالمعروف ، وناهين عن المنكر ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، وجمع القلوب عليهم عزوفٌ عن المطامع ، وعكوف على الخير ، والنفع العام ، فدان لهم الصغير والكبير ، وكان لأكثرهم مكاسب مشروعة من تجارة أو صناعة أو زراعة صانت وجوههم عن أبواب الحكام .

واختلف تقدير الناس لأفرادهم على قدر التزامهم بما يجب عليهم أو تفريطهم فيه . وكان بينهم ـ كما في كل طبقة ـ أشرار تظاهروا بالصلاح ، فساء حكم الجمهور عليهم جزاءاً وفاقاً ، استغلوا مظاهرهم وعقيدة الناس فيهم وتسليمهم بما يقولون أو يعملون في معاملاتهم ، وكان منهم غش وخداع وتكالب على المطامع وبيع للدين بالدنيا . وسرعان ما كشف الله للناس خبيئتهم ، فأساؤوا إلى أنفسهم وإلى سمعة زملائهم الأبرياء ، حتى شاع أن مظاهر الصلاح هذه شباك للخداع ولأكل الأموال بالباطل . والعامة لا تمييز لها ، بل هي تسارع إلى تعميم الأحكام ولا تصيب الذين

ظلموا خاصة .

هذه حال الناس يوم كتب الأمير شكيب ـ رحمه الله ـ هذه الرسالة التي نشرناها في عدد سابق . ولا بد لعالم الدين من مورد مشروع يعيش به ، وهو يعلم جيداً أن أول ما يجب عليه الكسب الحلال ، وأن من القبيح أن يعيش عالة على غيره ، فانصرف أكثر أهل العلم إلى مهنة يتعلمونها ليعيشوا وأهليهم من كسبها ، ولم يكن للوظائف الرسمية حينئذ الإغراء الذي صار لها فيما بعد ، بل كان الورعون يترفعون عن مال الحكومة ويعدونه (مشبوهاً) . ولا يزال الدمشقيون يتناقلون عن آبائهم خبر الشيخ الحائك ، العالم الذي اضطرت إليه الدولة فأخذته من وراء (النول) الذي يحيك عليه إلى منصب الإفتاء .

لقد كان علمهم يضبط سلوكهم في تجاراتهم وصناعاتهم وزراعاتهم وسائر معاملاتهم ، فإن شذ أحدهم عن الطريق القويم كانت سقطته أشد من سقطة غيره ، ولا غرابة في ذلك ، فعالم الشريعة في نظر الناس كالثوب الأبيض تشتهر اللطخة الصغيرة عليه ، في حين يخفى أكبر منها بكثير على غير الأبيض من الثياب .

ـ * ـ

الصناعات الشريفة إذن من شأن أهل الشرع ، وعلى كل منهم أن يتقن واحدة منها تكفيه هم العيش ، ليجد فراغ بال حين ينصرف إلى عمله وإرشاده ، فهل (السياسة) التي عندنا صناعة شريفة ؟ وهل تليق بأهل الشرع ؟

أحب أن أصرح قبل الجواب ، إن مفهوم (السياسة) لدى الناس غير محدود ، فمن السياسة عندهم مساعٍ لرفع الحيف والجور ، ومنها الثورة على الغاصبين المحتلين ، ومنها قتال المعتدين ، ومنها السعي في تكتل حزبي لبلوغ مطامع أو مناصب بطرق سياسية (أي غير مشروعة) ، ومنها ومنها . .

لأبدأ بما أسميته رفع الحيف والجور لأقرر أنه من واجب العلماء الأول ، فإنكار المنكر باليد واللسان والجنان مما فرضه الشارع على جميع المكلفين ، وأهلُ العلم في طليعتهم ، وأثني بالثورة على المحتلين وقتال المعتدين ، فهذا هو الجهاد المفروض على كل القادرين ، وأهلُ العلم في طليعتهم . ولست أنسى الشيوخ الذين

تسارعوا إلى الجهاد في حرب الفرنسيين في (ميسلون) سنة ١٩٢٠ ، ولا الذين كانوا في طليعة المقاتلين للعدو في معارك الغوطة (غوطة دمشق) يوم ثارت البلاد على الفرنسيين ، لقد كانوا ملهج الألسنة ، وشغاف القلوب ، ومنازل الرحمات ، تزار قبورهم وتكرم أسرهم ، وتدعو لهم الأمة بالرحمة والرضوان ، ومن منا لا تدمع عيناه الآن كلما ذكر بالتقديس جهاد العلماء السنوسيين وعمر المختار للطليان ، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي في ريف المغرب للفرنسيين والإسبان ، والشيخ عز الدين القسام في سهول فلسطين وجبالها وغيرهم من الشهداء العلماء العاملين ، الذين سارعوا إلى طاعة الله فأكرمهم ورضي عنهم .

هذه طريق لاحبة واضحة لا زلق فيها ولا زلل ، أما إذا بلغنا الثالثة وهي المفهوم الشائع اليوم لكلمة السياسة فكلا ثم كلا ، إن السعي لبلوغ مطمح أو منصب عن طريق ممالأة لزعيم ، أو تزلف إلى حاكم ، أو انضوَاء في أحزاب ما كان منها يوماً من الأيام إلا تصديع الصف ، وتفريق الكلمة ، وتمزيق الشمل ، وإضاعة مصالح الأمة ، وتسليم بلادها في بعض الأحيان . . . إن هذا كله ينبغي أن يترفع عنه كل ذي شرف ، ولأن يقطع المرء الصخر ويكسر الحطب خير له من كسب يأتيه من هذا الطريق ، أستغفر الله ، بل لأنْ يمد يده يتكفف الناس فيعيش مما يلقون إليه برضاهم أشرف وأسلم . كيف نرضى لمن تعلم كتاب الله أن يخالفه جهاراً نهاراً ، فيعمل في حرفةٍ أداتها الغش والخداع والتضليل والافتراء والتزوير والطعن بالشرفاء والاحتيال على الضعفاء وإحداث الخلاف والفتن حتى إراقة الدماء ليفوز حزب كذا أو زعيم كذا ، فيلقي إليه الفائز بفتات يعيش عليه بعد طول ما خدع الناس وكذب عليهم وباع دينه لدنيا غيره ، إن هذا هو الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً .

-*-

أعرف عدداً من علماء الشرع زاولوا السياسة (في نيابات ووزارات ومناصب شرعية وصحفية) فكانوا كمن وقف على شفا جرف هار ، ومهما يصنع السياسي فلا يحمده إلا من انتفع بصنيعه ، حتى أفراد حزبه ، وحتى صحف الحزب لا يمدحونه

إن لم يصل إليهم من صنعه نفع ، أما الآخرون وهم جل الناس فنصيبه منهم الطعن والقذف والشتائم واللعنات والاتهامات ليل نهار ، وأنا أحب أن أقرر هنا ـ والشهادة لله ـ أن هؤلاء الذين عرفتهم من علماء الشرع السياسيين ينطوون على خير للأمة ، وأن صوابهم أكثر من خطئهم ، وأنهم مظلومون جداً ، مظلومون من خصومهم ، مظلومون من شعوبهم ، مظلومون من التاريخ . لقد زاحموا أهل الجيفة على جيفتهم ـ على حد التعبير المشهور عن المتكالبين على الدنيا ـ فهيهات أن ينجوا من نتنها وطعمها . ولو بقي هؤلاء السادة في عملهم الذي تعلموا العلم من أجله لكانوا موضع إجلال من الجميع ، ولنفع الله بكلماتهم وتوجيههم ولفازوا برضا الله .

إنك ـ في عرف مجتمعاتنا ـ متى تدخل في حزب أو جماعة فقد أعلنت عداءك لبقية الأحزاب والجماعات ، هذا نظر الناس عندنا شئنا أم أبينا ، فما لك ولهذا وأنت لا تريد إلا خير الجميع ، ابتعد عنهم جميعاً يأتوك جميعاً .

إن واحداً من هؤلاء لا يزال على قيد الحياة ، يستوجب عمله في بيروت أن يكون بابه مفتوحاً للجميع ، يوجههم وينصحهم ويأمرهم وينهاهم ، وهو في نفسه موضع ثقة ، صالح غيور على مصالح الأمة ، ديِّن صيِّن ، بعيد عن المكر والدهاء ، تغلب عليه سلامة القلب ، له إشراف بحكم منصبه على جمعية خيرية واسعة الانتشار ذات تقاليد وأعراف ، أخضعها في تاريخها الطويل ذوو الوجاهة والمطامع لمنفعتهم . قال محدثي : « فأشار عليه بعض المقربين منه من خصوم أولئك المتنفذين بإبعاد ذوي المآرب الخاصة عن التحكم في أمورها ، وذلك بالإشراف المباشر على تطبيق روح القانون في انتخاباتها وبذلك يقل أنصار المتسلطين في الجمعية ، فقبل المشورة . ولما حاول ذلك زلزل ذوو المطامع والنفوذ الأرض من تحته ، وتناولته صحفهم ودعاياتهم ومنشوراتهم وحتى زعانفهم بالطعن والتشهير ، وهو لا صحف له ولا دعايات ولا زعانف ، لم يخافوا الله في بريء أراد خيراً ، ولا في منصب يقتضي الأدب الرفيع ـ في بلدهم خاصة ـ احترامه وإجلاله ، ولا في دينٍ ضعفت رابطة معتنقيه من دون سائر الطوائف لسوء تصرف زعمائهم . لم يخطئ الرجل ولم يسئ ، وظاهر ما أشار به المشيرون عليه حق واضح ، كل ما في الأمر أن إنفاذ هذا

الحق اصطدم بمصالح المتلاعبين بالجماهير الغافلة الطائشة ، فلم يبالوا في الحملة عليه مصلحة ولا ديناً ولا خلقاً .

وهذه حادثة أخرى شهدتها بعيني ووعيي وأنا في الرابعة عشرة : أراد الفرنسيون قبيل الثورة السورية وقد أحسوا بغليان الشعب ، أن يخدروه ، فدعوه إلى انتخاب (مجلس تمثيلي) وأعلنوا قانون الانتخاب ، وعلم الشعب أن الغاية منه إضفاء شيء من الشرعية على الاحتلال الفرنسي ، فقاطع الانتخاب ، إلاّ أن افراداً تقدموا لملء المقاعد ثم أعلنت السلطة أسماءهم وانعقد المجلس .

كان أبي ـ رحمه الله ـ يصطحبني إلى المسجد الأموي بين المغرب والعشاء فنحضر حلقة درس ثم صلاة العشاء ، فإنا يوماً لمنتصبون للصلاة وقد أقيمت وكبر الإمام ، فلم يرعنا إلا أصوات جهيرة من نواح مختلفة في المسجد تنادي (الصلاة الصلاة) ، لا تصلوا وراء الخائن ، هذا فرنسي خائن . . . إلخ) فالتفت فإذا جماعات كثيرة متفرقة ، كل منها قدم إماماً ، ولم يبق من الصفوف الطويلة العشرة التي تصطف عادة لصلاة العشاء إلا عشرة أشخاص وراء المحراب ، والذي زار المسجد الأموي وعرف اتساعه يتصور عظم الهرج والمرج الذي حصل ، واستمعت أنا إلى قراءة الإمام فإذا بها راجفة متعتعة على غير المألوف ، فلما انتهى من صلاته ـ وعادته أن يتلبث فيؤدي السنة ثم الوتر ويدعو ويؤمن المقتدون ثم يشيعه إلى داره القريبة من المسجد جيرانه ـ لما انتهى من صلاته غادر المسجد مصفراً خائفاً يمشي بسرعة وحيداً والأنظار تحفه باللعنات ، ثم مرض قهراً ثم مات ، فسألت : (ما شأنه ؟) قالوا : (عضو في المجلس التمثيلي) . ثم عرفت فيما بعد وقد قرأت تاريخ هذه الفترة وسمعت عن أحداثها أن المسكين تقدم عن غفلة وحسن نية ، وأن مواقفه في المجلس كانت مشرفة ، لكن الجماهير لا وعي لها ، يعبث بها خبثاء ذوي المآرب ، ثم هي شديدة الحساسية تريد من رجل الشرع إعلان عدائه ومقاومته للمحتل الأجنبي ، وتعتقد فيه القدرة كأن معه جيشاً وعتاداً كفيلين بحمايته وطرد المحتل . وقد كنت فتى من هذه الجماهير حين أجبت عضواً من جمعية إسلامية دأبت على إصدار منشورات تطالب العناية بدرس الدين في مدارس الحكومة وزيادة

حصصه وكان الفرنسيون قد أنقصوها : سألني : (ما رأيك في هذا المنشور ؟) قلت : (أرى ـ صيانةً لدرس الدين ـ أن تطالبوا بإلغائه) فعجب جداً وقال : (كيف ؟ ولمه ؟) قلت : إن للدين حرمة في النفوس طبيعية ، فإذا ألغيتم الدرس بقيت الحرمة ، ويتعلم الناشئ دينه في أسرته وفي المسجد ، لكن إبقاءه ـ وبعض مدرسيه يمالئون الفرنسيين ـ يوحي إلى الأطفال وقد تشبعوا بروح المقاومة أن هذه الممالأة من الدين فيكفرون به) فلم يُحِرْ جواباً . وأسأل نفسي الآن : ماذا صنع مدرس الدين المسكين رحمه الله ؟ إنه كان يرد على التحية التي يلقاه بها المدير الفرنسي بمثلها كما يفعل كل مدرس غيره تماماً ، فأفردته أنا ورفاقي بالإنكار لأنه شيخ متعمم كان حقه ـ في رأينا ـ أن يبصق في وجه الأجنبي الغاصب .

هذه الحساسية العامة هي التي لم يراعها كثير من أرباب الشرع وهي ذات أثر بعيد في الجماهير ، وهم يرددون في وعظهم للناس : « رحم الله امرءاً جبَّ الغيبة عن نفسه » و(ابتعد عن كثير مما لا بأس به حذراً مما به بأس) . وقصَّ علينا حينئذ مدرس التاريخ ، أن المعتمد البريطاني في مصر ضاق صدره من عالم أزهري صلب قوي الشكيمة ، تأبَّى على كل أساليب البريطانيين الناعمة ومصائدهم الخفية ، للعامة فيه عقيدة عظيمة وله شعبية واسعة ولكلمته نفوذ ، ففتقت الحيلة وإنعام النظر للمعتمد خطة قد تنجح . ففي حفل عام كبير (عيد أو ذكرى المولد النبوي) حضره الخديوي ورجال الحكومة وعلماء الأزهر والوجهاء والأعيان وازدحم بعامة الشعب ، كان هذا العالم جالساً في الصف الأول ، فلما حضر المعتمد جعل يشير إلى أفراد الصف الأول بالتحية إشارة والناس جميعاً يرقبونه ، فلما حاذى هذا العالم وقف ورفع قبعته على أعين الملأ وصافحه مصافحة حارة طويلة لفتت الأنظار ، ثم أتم تحاياه على البقية بالإشارة الخاطفة وجلس ، وصار الناس يتهامسون ، فما انقضى الحفل حتى تناقلت أفواه النظارة : (هذا الذي كنا نظنه قطب العلماء! ؟ . . إنه جاسوس إنجليزي) وشاعت في البلد فخسر المسكين شعبيته وكسب كره الخديوي ورجاله وكسب اللعن والطعن .

للغزالي ـ رحمه الله ـ كلمة مأثورة « ومن لم يعرف أحوال زمانه فهو جاهل » ،

قام بهذه الكلمة الأجانب فنجحوا ، وأهملها أكثر العلماء والشرع فضعفوا : إن فهم أحوال الدنيا علم ضروري ، وكان على العالم الأزهري أن يسبق المعتمد البريطاني في فهم المجتمع المصري وتقلباته ونفسيته حق الفهم .

-*-

وما لي أضرب الأمثال من ذاكرتي ووثيقتنا هذه ناطقة بالعبرة . ليس المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا بالمجهول لنا اليوم ، قرأنا (تفسيره) وفتاواه وبحوثه في (مجلة المنار) منذ نعومة أظفارنا ، وأنا إلى الآن أقدر علمه ودعوته إلى الإصلاح غاية التقدير ، والأمير شكيب ـ رحمه الله ـ أشد مني لعلمه تقديراً إذ هو خليطه وصديقه ، وعنوان كتابه فيه (الشيخ محمد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة) دال على مكانته في قلبه . لكن إقامة الشيخ في مصر سنين طويلة سهلت على الأحزاب ومحترفي السياسة اجتذابه إليهم ، وكان للسوريين النازحين إلى مصر أيام الحكم العثماني ثم الاحتلال الفرنسي أحزاب وفئات تزعم كلاً منها متزعِّم ، أسست في أول الأمر لإنقاذ سورية من الاحتلال فاشتغلت بهذا قيراطاً وبحملة بعضها على بعض ثلاثة وعشرين قيراطاً ، وحاول كل حزب أن يضم إليه من له وجاهة أو نفوذ أو نفعٌ ما للحزب ، ونشأ الخلاف وهو أمر طبيعي ، معه سوء الظن والطعن بالمخالف ، وهما غير طبيعيين ، ثم سال هذا الشر من نوادي الأحزاب إلى الصحف ، ولم يبق ذو شأن فيهم إلا (شرّحه) الطاعنون وفضحوا مآتيه الخاصة والعامة بحق وغير حق ، فإذا صدقنا ما نشر حكمنا على الجميع بالخيانة والعمالة لفرنسة أو إنكلترة مع سوء السيرة الشخصية .

كان للسيد رشيد وقد رفع (مناره) فاستضاء به الناس ، أثر بعيد في توجيه الإصلاح الديني والاجتماعي ، ورسخت له في النفوس مكانة ، حتى إذا جره الشياطين إلى أحزابهم نزل إلى المعركة وهو ذو قلم ولسان ، يرمي ويُرمى ، ويطعن ويُطعن فيه ، حتى كرهه كثير ـ بحكم حزبيتهم ـ لم يكونوا يكنون له من قبل إلا الإجلال . وظن ـ رحمه الله ـ أن هذا سياسة ، والظاهر أنه قد تأثر بالذين كان ميلهم إلى الإنكليز ، بعضهم ليستعينوا بهم على استقلال بلادهم ، وبعضهم يمهدون

ليحتل بلادهم الإنكليز ، فأحسن السيد بالإنكليز ظناً ، وصرت ترى أثر هذا الاتجاه الحزبي في (المنار) فلم يبقه خالصاً للدعوة الإصلاحية ، بل دس فيه من حزبيته الجديدة ما كرَّهه إلى كثير من الواعين ، ونُسِي في سورية الشيخ رشيد رضا الداعية الإصلاحي ، وذُكِر الشيخ رشيد السياسي المتحزب ، وهو ما ترى الإشارة إليه في رسالة الأمير السابقة .

ودعك مما قال الأمير في ميل الشيخ إلى الإنجليز وفي دخوله في حزب مع ممالئٍ للاحتلال الفرنسي محارب لاستقلال بلاده ، ودع تأنيبه للشيخ على استئجار جريدة سفيهة لتطعن في الأمير وتشوه سمعته وهو لم يدع إلا إلى ألفة واتحاد ونبذ خلاف . . فهذا أمره ظاهر ، وقف معي عند تعبير الشيخ عن أمير البيان وسيد من كتب يدافع عن الشرق والإسلام ، وصاحب التعاليق القيمة على (حاضر العالم الإسلامي) التي ضربت بها الأمثال و . . . بأنه (أحد أدباء دروز لبنان)!!

إنك توقن معي أن هذا الكفران لم يقله الشيخ الداعية إلى الله ، لكن قاله المتحزب المتعصب لحزبيته التعصب الأعمى المتعامي عن ضوء الشمس في رائعة النهار ، هذا الحزبي هو الذي تقمص الشيخ فحرك قلمه بهذا ، والحزبية المتعصبة تستبيح كل حرام لتشفي حقدها أو تصل إلى مبتغاها ، ولو تكلم الشيخ الداعية إلى الله معافىً من حزبيته ، معبراً عما هو الحق في نفسه لقال : (أديب الشرق ورب البيان العربي ورسول التوعية إلى العالم الإسلامي) .

- * -

إن من آتاه الله علماً خليق أن يبقى حيث وضعه الله ، مناراً يهدي ، وواعياً يحذر ، وأباً يحنو على البار يُثَبِّته ، وعلى العاقّ يرده إلى الصواب ، يقف نفسه لخير الجميع ، لا ينحاز إلى فئة على فئة ، إن ضرر المنحاز على الجماعة والدعوة أوسع من ضرره على نفسه بكثير ، إن الانجرار على الأذيال وبيع الدين بالدنيا هو الذي أضعف هيبة الشرع في النفوس ، وأضاع رجاله حتى استهان بهم كل متسلط ، ثم استهانت بهم الجماهير ، ثم أصبحت علوم الشرع كالوباء يبتعد عنه كل أحد ، فصرنا نقصد المصر الكبير لنرى فيه عالماً بالشريعة من طراز من أدركنا فلا نجد ، ولم يبق

للمنتسبين إليه من حرمة عند حاكم ولا محكوم . إن ضياع شخصية (العلماء) مؤد في النهاية إلى حشر الجهلاء الأدعياء في المناصب الشرعية بينما العلماء الحقيقيون في دورهم قابعون لا يعرفهم أحد . هذا بلاء عام غير خاص ، بلاءُ أمة كفرت بأنعم الله ، وصدق الله العظيم ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ [طه ٢٠/ ١٢٥] وأي ضنك أشد من أن نفتح عيوننا يوماً ما في بلد كدمشق مثلاً كان يقصد من سائر الأقطار لمدارسه الشرعية المتنوعة وعلمائه الأجلاء الكثيرين المشهورين حتى صاروا في فنونهم مراجع ، فنجد بقيتهم ـ لا سمح الله ـ يلوذون بأماكن مجهولة ينشرون فيها علمهم لأفراد في الخفاء ، ونجد ـ لا سمح الله أيضاً ـ جاهلاً دجِلاً يبيع نفسه للشيطان متربعاً في منصب الإفتاء .

ـ * ـ

التوعية والنضال والمقاومة والجهاد الخالصة لوجه الله ، ميادين طبيعية لأولى الرسالات ، أما غيرها فمزالق ومزلات ومتاهات ، تضيع أهل العلم فيضيع العلم ومكانته وتضيع مقومات الأمة وشخصيتها . وكل من عرف الذين أشرت إليهم من العلماء السياسيين يقول معي بحسرة وألم : ليت أهل هذه الطبقة الخيرة بقوا في ميادينهم هادين مهديين ، ولم ينحطوا إلى دركات السياسة الحزبية ضالين مضلين[١] .

---

(١) رحم الله أستاذنا ، لو كان بيننا اليوم .

معاوية في الأساطير

بحث ألقاه الأستاذ في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد
الشام ، المنعقد في الجامعة الأردنية بعمان . ما
بين ٢٠ـ٢٥/ ٤/ ١٩٧٤
ونشرته الدار المتحدة للنشر ١٩٧٤

معنى الأساطير في معجماتنا العربية : « الأحاديث لا نظام لها »[١] والأساطير : « الأباطيل »[٢] سَطَرَ علينا : إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل » ، « وهو يسطر ما لا أصل له . أي يؤلف » وسطر عليه : زخرف له الأقاويل ونمّقها ، وتلك الأقاويل : الأساطير ، والواحد من الأساطير : أسطور وأسطورة وإسطير وإسطيرة وإسطار وإسطارة[٣] .

هذا الشرح إيضاح لما تعارف عليه الناس في العصور الإسلامية الأولى ، أما في أصل اللغة فالسطر الصف من كل شيء من شجر وكتابة وغيرها . وسميت الكتابة سطراً لأن الأحرف والكلمات تكون فيها صفاً صفاً ، والحكاية أسطورة من حيث سرد حوادثها في نسق واحد بصرف النظر عن كونها حقاً أو باطلاً .

وأي كان فالأسطورة عند القدماء والمحدثين لا تخلو من زخرفة وباطل ، فإذا كان الأمر كذلك ففيم العناية بها ، وما جدوى بحثها في ندوة علمية تنعقد للمصادر التاريخية عن بلاد الشام ؟

إن هذه المخلفات من أساطير وأحلام وقصص وخرافات تشيع بين العامة في مجتمع ما لتقفنا على ما عجزت عن وقفنا عليه كتب التاريخ التي تعنىٰ في الغالب بالرسميات وما إليها ، إنا نلمس في هذه المخلفات الشعبية حركات الجماهير وخلجات نفوسها ، ونعرف منازعها وأهواءها ورغباتها ، مما لا يهتم به كثير من

---

(١) القاموس المحيط .
(٢) الصحاح .
(٣) لسان العرب والقاموس والصحاح .

المؤرخين إلا عرضاً ، فكل همهم من التاريخ ذكر ما يجري في مجالس الحكم ، وفي ميادين الحروب ، ولهذا نجد تواريخهم سجلات بأسماء القياصرة والأكاسرة والملوك والحكام والقواد والوزراء ، قلما نرى فيها اهتماماً بأحوال العامة والشعوب ، بل جعلوها سجلات للرغبات الظافرة التي حققت في عالم الواقع بحيث لا نلمح فيها صورة لرغبة مكبوتة ، أو عاطفة حبيس ، ولا بياناً للتيارات النفسية التي تقاذفت أفراد الشعب عامة أو بعض طبقاته وما أحكم قول (هـ . ب . تشارلتن) حين يعرض لتعبير الأساطير عن الواقع فيقول عن الملك آثر وملوك الجن وغيرها من الأساطير الخيالية إنها : « تمثل جانباً من الحياة النفسية الحقيقية وإن لم تصور الواقع المحسوس من أوضاع الحياة ، ذلك لأنها تشبع في الناس أهواء ونزعات لا يشبعها عالم الواقع ، فهي في ذلك كأحلام اليقظة أو أحلام النوم تحقق للحالم أمانيه التي لم يستطع تحقيقها في دنياه »[١] .

يقولون : « إن التأليف العربي القديم طابعه الاستطراد » ويريدون أنه غير محكم التبويب والتنسيق فكثيراً ما نرى فوائد تاريخية في غير مكانها كما نجد أدباً في كتب التاريخ لا نصيبه في كتب الأدب ، فعلى الباحث إذن أن يطوف بتراث الأدباء والفقهاء والأطباء والمؤرخين واللغويين والمحدّثين والمفسرين . . وما علينا في موضوعنا اليوم أن ننحرف نحن أيضاً عن كتب التاريخ السياسي وكتب الأدب ونرود مجاهل المكتبة العربية علّ نوراً يسعى بين أيدينا إلى غايتنا ، ولنفد من هذه الظاهرة التي بالغوا في تعميمها ظاهرة الاستطراد .

في دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوطتان لتاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر[٢] ، عكفت على تفليتهما شهوراً طويلة فوجدت فيهما عوناً على موضوعنا ولفتاً للذهن إلى الطريق اللاحب بعد أن كنت أسير في بنيات الطريق .

ومادة حديثنا كله مما يسمى (الأحاديث الموضوعة) التي لا أصل لها في

---

(١) « فنون الأدب » ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ـ القاهرة سنة ١٩٤٥م (مطبعة لجنة التأليف والترجمة .

(٢) نتقل في هذا البحث عن المخطوطة ذات الرقم ١٥/ ٣٣٨٠ .

اصطلاح المحدّثين ، وعلم الحديث ـ كما يعرف المطّلعون ـ من أنضج العلوم الإسلامية وأحكمها منهجاً وأقواها علمية ، لقد احتاط المحدثون كل الحيطة لفنهم وتشدّدوا في شروط الراوي والمروي عنه ، ولم يكتفوا بالقواعد المحررة لتصحيح السند كما توهم بعض الباحثين المحدثين ـ رحمه الله ـ بل عنوا بنقد المتن عناية بالغة ، ووضعوا له من الضوابط والمعايير ما لم يسلم معها إلا كل حديث قوي بالغ الصحة ، أما الأحاديث المكذوبة على رسول الله فقد وسموها وألفوا فيها المؤلفات ليحذرها الناس .

إذا كان من منهج المحدّث إذا وصل إليه الحديث الموضوع أن يطرحه أرضاً ويمضي لطيته ، فإن مهمة المؤرخ الباحث أن يبادر إلى التقاطه ويفيد منه ، ويسلط عليه الأضواء الكاشفة ويتساءل ، من وضعه ؟

ما الحامل له على الوضع ؟

ما الملابسات التي أحاطت بوضع الواضع ؟ ما تاريخه ؟ علام تدل هذه الأسباب والملابسات ؟ . . وإذن سيهتدي المؤرخ إذا وصل إلى أجوبة أسئلته إلى فوائد جمة في السياسة والاجتماع والأخلاق والعقائد وسائر أحوال المجتمع .

لقد ثارت في المجتمع الإسلامي خلافات أدت إلى فتن انتهت بقتل الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان ، ثم كانت حرب الجمل فكان معظم جند علي من الكوفة ، ومعظم جيش عائشة من البصرة ، وتوارث المصران على أثرها إحناً وخصومات ، ثم كانت حرب صغيرة بين معاوية ومعه أهل الشام وعلي ومعه أهل العراق ، وكانت منازعات قبلية إلى جانب المنازعات الإقليمية وإلى جانب الخلاف في المذهب حول الأحداث السابقة وحول زعمائها ، ولكل ذلك آثار في أدب ذلك العصر شعره ونثره . وأتى الوضّاعون فأسهموا في وضع الأحاديث كل ينصر بما يضع هواه وعصبيته ، إما للبلد ، وإما للنحلة ، وإما للقبيلة ، وإما للزعيم . . ولم يخف زيف هذه الأحاديث على أهل الحديث ، فنبهوا إلى كذبها ، لكنها راجت بين الناس وتلقف كل ما ينصر هواه ، وروجه حتى عظم منها البلاء وأزاغت عقائد العامة وكان لها أثرها البعيد في السياسة والعقيدة . . ولم تكن الشام ولا خليفتها معاوية بمنجاة

من وضع الأحاديث مادحة وقادحة على هوى الواضع .

أول ما افتتح به الحافظ ابن عساكر كتابه : (باب ما جاز من أن الشام يكون ملك الإسلام) حديث فيه غمز ظاهر لخلافة بني أمية ، فقد نسب إلى الرسول ـ ﷺ ـ هذا الحكم : « الخلافة بالمدينة والملك بالشام »[١] .

ويشاء كعب الأحبار أن يزج بالتوراة في هذا الميدان فيتحدث عن صفة رسول الله في التوراة وأنها :

« محمد بن عبد الله يولد بمكة ويهاجر إلى طابة ويكون ملكه بالشام » .

فإن سألت : وما أرب كعب إلى ترويج هذا القول ، بل ما غرض المسعى اليهودي الذي استمر يعمل في الخفاء حتى بعد موت كعب ؟ أجبتك باحتمال أن يكون الغرض التقرب إلى السلطان من جهة ، وتعظيم الشام التي فيها بيت المقدس من جهة ثانية ، وكان دليلي في هذا الاحتمال رواية ثابتة أصرح وأوضح في بيان شأن القدس فقد نسبوا للرسول هذا القول :

« هذا الأمر (يعني الخلافة) كائن بعدي بالمدينة ثم بالشام ثم بالجزيرة ثم بالعراق ثم بالمدينة ثم ببيت المقدس ، فإذا كان ببيت المقدس فثم عقر دارها ولن يخرجها قوم فتعود إليهم أبداً »[٢] .

وفسر ذلك الحافظ ابن عساكر قائلاً : « يعني بقوله : (بالجزيرة) أمر مروان بن محمد الحمار وبقوله : (بالمدينة) بعد العراق يعني المهدي يخرج في آخر الزمان بالعراق » وهذه الرواية في الوضع متأخرة عن سابقتها ، ففيها إجمال لتنقل الخلافة بين الأمصار حتى العهد العباسي ، وهو زمن وضعها فيما أجنح إليه .

وهنا أرى من الضروري أن أنبه على عمل السياسة الأموية في تربية العامة على إعظام شأن الخلافة والخليفة إعظاماً يذكّر بإعظام النصارى حينئذ رؤساءهم واعتقادهم أنهم يستمدون التأييد الإلهي من السماء . ومن تذكر تاريخ الشام لم يعدم

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (دمشق ؛ مطبعة روضة الشام) ١/ ٤٠ .

(٢) المصدر السابق .

من الحوادث براهين كثيرة ، فقد درج العامة في الشام على تقديس الخلفاء والتسليم الأعمى لعصمتهم ، وعمل رجال البيت الأموي ومن مال إليهم على ترويج هذه العقيدة حتى قاربت أن تكون من المسلّمات عندهم . فهذا يزيد بن عبد الملك أحب أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وكانت سيرة عمر ـ كما نعلم ـ نشازاً في سير خلفاء بني أمية وأمرائهم ، سارها على رغمهم جميعاً ، فلما قال يزيد : سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز ، أحضروا له أربعين شيخاً فشهدوا عنده : « أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب » قال الذهبي راوي الخبر : « وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون ذلك »[1] .

ولا تظن أن مثل هذه العقائد في طائفة من الجهال الشاميين فحسب كما أراد الذهبي أن يقول ، بل الأمر أوسع انتشاراً وأمد آفاقاً ، فهذا هشام بن عبد الملك نفسه ضاق بأعمال ولي عهده الوليد بن يزيد حتى قال :

لئن رضي الناس بالوليد بن يزيد خليفة ما أظن الحديث الذي رواه الناس : « أن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار » إلا باطلاً[2] .

فهذا أثر السنين الطوال في أخذ الرعية بالدعاية الواسعة وسياستهم على تقديس أمرائهم وخلفائهم ، وأنت تدرك أن هذه الدعاية ردت عن الخلفاء ما لا ترده الجيوش ولا الحصون .

قلت آنفاً : إن هذه الدعاية لم تقتصر على طائفة من الجهال الشاميين ، بل كانت واسعة الانتشار حتى حملها هشام بن عبد الملك فيمن حملها ، وأزيدك الآن أن الأشياخ أنفسهم حملوها معتقدين ، وحملوها طلبتهم معلّمين :

سأل المنصور أبا عبد الله : « ما قولك في خلفاء بني أمية ؟ » فقال : « وما عسيت أن أقول فيهم ؟ إن من كان منهم لله مطيعاً ، وبكتابه عاملاً ، ولسنة نبيه متبعاً فإنه إمام تجب طاعته ومناصحته ، ومن كان منهم على غير ذلك فلا » فقال

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/ ٥٥ .
(٢) مخطوطة ابن عساكر ج٥ الورقة ٥٢٤ .

المنصور : « جئت بها ـ والذي نفسي بيده ـ عراقية ، أهكذا أدركت أشياخك من أهل الشام يقولون ؟ » قال : « لا ، أدركتهم يقولون :

« إن الخليفة إذا استخلف غفر الله له ما مضى من ذنوبه » .

فقال المنصور : « إي والله وما تأخر من ذنوبه »[1] .

ولندع ما في كلمة المنصور الأخيرة من فكاهة ، وقدر ما قدرت أنا حين قرأتها ، فقد كان المنصور مأخوذاً بأحكام بني أمية توطيد ملكهم ، فما استنبط المنصور سياسة إلا وجد الأمويين قد ذهبوا بحظها وغَنَائها ، ود لو يستطيع ما استطاع بنو أمية من تجنيد كل شيء حتى العقائد والنوايا والهواجس .

إزاء هذا الظفر السياسي الذي أحرزه الأمويون في ميدان الدعاية الشعبية ، كان خصومهم لا يألون جهداً في نقض ما يبنون ، لكن عمل أولئك كان كالسيل عارماً جارفاً ، فاحتاج خصومهم إلى عشرات السنين حتى أثمر عملهم الخفي الضئيل بعض الثمرات ، فصرنا نرى رد الفعل ظاهراً أيام العباسيين : أخباراً تهدم أخباراً ، وأحاديث توضع تمحو أحاديث وضعت ، وناراً تملأ الآن بمن امتلأت بهم الجنة في أحاديث أمس . . .

والحق أنه ليس بيدي من الأخبار والأحاديث مما وضع الوضاع ، ما يشيد بذكر بني أمية جملة ، إلا حديث واحد هو :

« لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان الكرة ، فإذا خرجت منهم فلا خير في عيش »[2] فإن أنا أردت الحديث الصحيح ، رأيت في خطة النبي العلمية أقوى دليل على حسن ظنه بهم ، فقد كان ـ ﷺ ـ وصاحباه من بعده يطلبون للأعمال ذوي الكفاءات ، فمن ثم ترى في عمالهم كثيراً من بني أمية وليس هذا مما نحن منه الآن بسبيل . إنما أريد الإشارة إلى جملة من الأخبار المروية تحط من الأمويين أقبح الحط ، وتهبط بهم دركات في الشر ، فيبوؤون بين الناس بأشنع الآثام . ولا تنس

---

(١) الجزء السابق ، الورقة ١٩٤/٢ .

(٢) الورقة ١٩٤/١ .

أني أجعل أيام خصومهم العباسيين ظرفاً لوضع هذه الأخبار وترويجها .

جاء في (كنز العمال)[1] أن بجالة سأل عمران بن حصين : « حدثني عن أبغض الناس إلى رسول الله ـ ﷺ » قال : « تكتم علي حتى أموت ؟ » قلت : « نعم » قال : « بنو أمية وثقيف وبنو حذيفة » .

وروي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : « ألم يكن فيما يقرأ : « قاتلوا في الله آخر مرة كما قاتلتم فيه أول مرة ؟ » فسأله « متى ذلك ؟ » فقال : « إذا كانت بنو أمية وبنو مخزوم الوزراء »[2] .

ويدخل مروان بن الحكم على معاوية فيكلمه في حوائجه قائلاً : « اقض حاجتي فوالله إن مؤونتي لعظيمة ، إني أصبحت أبا عشرة وأخا عشرة وعم عشرة » فلما أدبر مروان وابن عباس جالس مع معاوية على سرير ـ قال معاوية : « أنشدك الله يابن عباس أما تعلم أن رسول الله قال : « إذا بلغ بنو الحَكَم ثلاثين رجلاً اتخذوا أموال الله بينهم دولاً ، وعباد الله خولاً ، وكتابه دخلاً ، فإذا بلغوا تسعة وتسعين وأربع مئة كان هلاكهم أسرع من الثمرة ؟ » قال : اللهم نعم »[3] .

ولم يكتف الوضاع بما يعزونه إلى زمن الرسول وأصحابه من أقوال يرويها جيل عن آخر ، بل حملوا صخور الأديرة من ذلك وجعلوه بالعبرانية إيغالاً في الأسطورية) وترويجاً على العوام ، ولقد كان قتل الحسين أول ما يشنع المشنعون على بني أمية وأنصارهم جملة ، قال الأصمعي :

مررت بالشام على باب دير ، وإن على حجر منقور كتابة بالعبرانية فقرأتها ، فأخرج راهب رأسه من الدير وقال لي : « يا حنيفي أتحسن تقرأ العبرانية ؟ » قلت : « نعم » قال لي « اقرأ » فقرأت :

أيرجو معشر قتلوا حسيناً ... شفاعة جده يوم الحساب

---

(١) ٦/ ٦٧ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢/ ٣٠٧ .

(٣) مخطوطة ابن عساكر ٥/ الورقة ٤٨٨/ ١ وفيها (آيات الله) ولعلها محرفة عما أثبتناه .

فقال لي الراهب : « يا حنيفي هذا مكتوب على هذا الحجر قبل أن يبعث صاحبك بثلاثين عاماً »[١] .

إذا أنت جاوزت اشتغال الوضاع ببني أمية جملة ، مدحاً وقدحاً ، إلى اشتغالهم بهم تفصيلاً ، وجدت فيضاً غزيراً ، إن هو آلمك وأمضَّك لملامح الكذب فيه فأنت واجد فيه متعة وتسلية ، وعرضاً لما في نفوس الجماهير حين ترضى وحين تغضب ، وحين تضيق صدراً بالضغط على آرائها وعقائدها ، فتنفس عن نفوسها برد فعل خفي ، لكنه يتزايد برفق حتى يجرف كل شيء .

أول ما اشتغلوا به من خلفاء بني أمية شيخهم ويعسوبهم معاوية بن أبي سفيان ، فلم يحظ أحد بمثل ما حظي به من روايات وأخبار تزج به في النار ، ولا نعم أحد بمثل ما حبته روايات الطرف الآخر من مقام عن يمين الرحمن في جنات عدن .

وليس بغريب أن يستأثر معاوية بهذا النصيب الوافي من الأساطير ، فقد اختطف الخلافة خطفاً ، وكان حظه من سخط شيعة علي بن أبي طالب وشيعة العباسيين من بعد أوفى حظٍّ ، وهو الذي بدهائه وبأسه وحلمه ، وطد أركان ملكه فبقي قذًى في أعين الشيعة مئة سنة ، ثم زال المالك ولم يزل غيظهم عليه حتى اليوم فيما أحسب . فقد رووا عن عمار : « إذا رأيتم الشام اجتمع أمرها على ابن أبي سفيان فالحقوا بمكة »[٢] . وزعموا أن رسول الله قال : « إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقتلوه »[٣] .

وحملوا عليه تشنيعات كثيرة كقولهم : « قضى رسول الله والخلفاء بعده : لا يرث مسلماً كافرٌ ولا كافراً مسلمٌ ، وقضى معاوية وبنو أمية أن يتوارثا حتى زمن عمر ابن عبد العزيز فرجع إلى السنة »[٤] . وقد تقدم لك إباؤهم عليه اسم الخلافة فسمعوا إمرته ملكاً . ويضعون أسطورة (أمد بن أبد) أحد المعمرين ، فيذكرون أن معاوية

---

(١) الجزء السابق الورقة ٤٧٨/ ١ . والوضع هنا على لسان الأصمعي .
(٢) كنز العمال ٦/ ٦٧ .
(٣) مخطوطة ابن عساكر ج٥ الورقة ٣٦٢/ ١ .
(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣/ ١٠٣ .

استقدمه وجعل يسأله عما مر عليه في عمره الذي انقضى منه ثلاث مئة وستون سنة ، فيسأله عن هاشم فيقول : « نعم رأيته رجلاً طويلاً حسن الوجه ، يقال : إن بين عينيه بركة أو غرة بركة » ويسأله معاوية عن جده أمية فيقول : (نعم رأيت رجلاً قصيراً أعمى يقال : إن في وجهه لشراً أو شؤماً) ثم يسأله : « هل رأيت محمداً ؟ » فيغضب أمد وينتهر معاوية قائلاً : (ويحك ، ألا فخمته كما فخمه الله فقلت : رسول الله . .)[1] . وريح الخصومة بادية في هذا الخبر ، ولست بحاجة إلى من يدلك على الحزب الذي وضعه حين أراد أن يسلسل الشر والشؤم من الجد الأعلى أمية ، ويقابله بالأغر المبارك هاشم جد خصومه الهاشميين ، ثم تصوير معاوية بالممتلئ حقداً ، بحيث لا تسمح له نفسه بذكر النبي برسول الله حتى يدعوه الدعاء الجافي الجلف الذي رأيت .

هذا ما يقدمه لنا خصوم معاوية ، أما الدفاع فقد كان قوياً جارفاً كاسحاً ساحقاً كما يقول العسكريون ، فلئن كان الهجوم طلقات مسدس لقد كان الدفاع قنابل ذرية .

ولم تكتف هذه الجهة بالقضاء على الخصم ، بل اندفعت تزلزل الأرض التي عاش عليها ، وتقلب منازله عاليها سافلها ، ثم تنسفها نسفاً ، وأنا ـ عن عمد ـ أتكلم بلغة العسكريين فما وجدت تعبيراً أصدق فيما أنا بسبيله .

استخبرت ابن عساكر ، ونفضت تاريخه الضخم فأخرج لي من كنوزه نثارة ما حلمت بمثلها . لقد وضعت يدي على ما تضمر الجماهير من (ذخائر) ترد بها على نفسها الاعتبار ، وإن كايدها خصم فأذعنت له حيناً من الزمن ، لا تلبث أن تبلغ في انتقامها مدى بعيداً . وأغلب ما سأقدمه لك وضع بعد موت معاوية ، بل بعد ذهاب دولة بني أمية ، وضع أيام العباسيين حين كان يتقرب المقتربون إليهم بذم معاوية وبني أمية ، وحين لم يكن يستطيع الشاميون ولا أنصار الأمويين أن يبلغوا في العلن من خصومهم مبلغاً ، ولا يملكون لهم ضراً ، فانصرف ما عند الناس من ذخر مخبوء إلى الأساطير يرضون بها نفوسهم ، ويشفون غيظهم ، وينالون من عدوهم بطريق

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣/ ١٠٣ .

ملتو غير مباشر .

يعرف التاريخ الصحيح من شأن معاوية أنه كان من كتّاب وحي النبي - ﷺ - وأنه ولي الشام لعمر بن الخطاب ، فكان يعرف له أموراً وينكر أموراً ، وسأصنف لك ما بين يدي من هذه الروايات أصنافاً ثلاثة : صنفاً فيه أدعية الرسول له ، وصنفاً فيه الثناء عليه وتبشيره بالجنة ، وصنفاً جمع ما لا يخطر ببالك من غلو وإغراق وسذاجة لا تروج إلا عند العوام ، وهذا الصنف الثالث هو محط الشاهد .

١ـ فأما الصنف الأول فيدخل فيه ما رووا أن رسول الله قال لمعاوية : « كيف بك لو قد قَمَصك الله قميصاً ؟ » يعني الخلافة ، فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه فقالت : يا رسول الله وإن الله لمُقْمص أخي قميصاً ؟ قال : « نعم ، ولكن فيه هنات وهنات وهنات » فقالت : يا رسول الله فادع الله له فقال : « اللهم اهده بالهدى ، وجنّبه الردى ، واغفر له في الآخرة والأولى »[1] .

« إن الله ائتمن على وحيه جبريل وأنا ومعاوية ، وكاد أن يبعث معاوية نبياً من كثرة حلمه ، وائتمانه على كلام ربي ، فغفر لمعاوية ذنوبه ، ووفّاه حسابه ، وعلمه كتابه ، وجعله هادياً مهدياً ، وهدى به »[2] .

وأبلغ من ذلك نكاية في خصوم معاوية أن هؤلاء الوضّاع الظرفاء نسبوا لعلي ابن أبي طالب أنه قال :

سمعت رسول الله بأذني - وإلا صمّتا - يقول له : « أنت يا معاوية أحد أمناء الله ، اللهم علّمه الكتابَ ومكّن له في البلاد » هذا وعند ابن عساكر روايات غير هذه فارجع إليها .

٢ـ وأما الصنف الثاني فغرائبه أكثر وأعجب ، والأحاديث هنا تصور معاوية بأنه (رجل الساعة) على حد تعبير سياسيي اليوم ، ثم تذهب أبعد من ذلك فتقيسه إلى أبي بكر وعمر ، ثم تجعل النبي يفضله عليهما وعلى الصحابة وإليك التفصيل :

---

(١) مخطوطة ابن عساكر ج٥ الورقة ١/ ٣٤٠ وعن هذا الجزء النقول الآتية .

(٢) الورقة ٣٤٢ .

ذكر رسول الله يوماً الشام فقالوا : كيف لنا بالشام يا رسول الله وفيها الروم ذات القرون ؟ فقال : « أجل إن فيها لأقواماً أنتم أحقر في أعينهم من القراد في أستاه الإبل »[1] . وقال : « لعل أن يكفيناها غلام من غلمان قريش » وبيد رسول الله عصا فأهوى بها إلى منكب معاوية[2] .

ثم نترقى ويترقى معاوية معنا درجة في الزعم الآتي :

استأذن رسول الله أبا بكر وعمر في أمر فقال : « أشيرا علي » فقالا : الله ورسوله أعلم) فقال : ادعوا معاوية فقال أبو بكر وعمر : أما كان في رسول الله ورجلين من رجال قريش ما يتقنون أمرهم حتى يبعث رسول الله إلى غلام من غلمان قريش ؟ فقال : « ادعوا لي معاوية » فلما وقف بين يديه قال رسول الله : « أحضروه أمركم فإنه قوي أمين »[3] .

ثم ترقت الأخبار بمعاوية درجات عالية جداً يسندون روايتها إلى ابن عمر : تزعم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأصحابه يوماً : « يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة » فطلع معاوية ، فلما كان الغد قال مثل ذلك فطلع معاوية . فلما كان بعد الغد قال مثل ذلك فطلع معاوية ، قال رجل : هو هذا ؟ قال : « نعم هو هذا » ثم قال رسول الله : « يا معاوية أنت مني وأنا منك ، لتزاحمني على باب الجنة كهاتين »[4] .

ولا يفوت الوضاع كيد خصومهم كما فعلوا في أحاديث الصنف الأول ، فها هم أولاء يصعدون علياً منبر الكوفة فيخطب أهلها قائلاً :

والله لأخرجنّها من عنقي ولأضعنَّها في رقابكم ، ألا إن خير الناس بعد رسول الله أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم أنا ، ما قلت ذلك من نفسي ، ولأخرجن ما في عنقي

---

(١) الورقة ٣٤٢ .

(٢) الورقة ١/٣٤٦ .

(٣) الورقة ٣٤٢ .

(٤) الورقة ١/٣٤٨ ثم عقب الحافظ ابن عساكر بكلام على ضعف السند وسقوطه بما لا يعنينا هنا . فما في المتن كلف لتوهين نسبه إلى النبي ـ ﷺ ـ وكذلك الأمر في الروايات السابقة واللاحقة .

لمعاوية : لقد استكتبه رسول الله وأنا جالس بين يديه فأخذ القلم فجعله في يده فلم أجد من ذلك في قلبي إذ علمت أن ذلك لم يكن من رسول الله وكان من الله عز وجل ، ألا وإن المسلم من سلم من قصتي وقصته)[1] .

٣ـ أما أخبار الصنف الثالث فمهزلة أولمبية ، لقد خرج الوضاع فيها عن مألوف العرب في الصدر الأول حتى في التخيل ، وهي أخبار إلى أن تلصق بآلهة اليونان وأنصاف آلهتهم أقرب من أن تنسب إلى الإله الحق ورسوله :

أـ . . نزل جبريل على النبي ومعه قلم من ذهب إبريز فقال : إن الله يقرأ عليك السلام ويقول لك : « هذه هدية مني إلى معاوية فقل له يكتب به آية الكرسي بخط حسن ويشكلها ويعجمها[2] ، وأعلمه أني قد كتبت له ثواب من قرأها إلى يوم القيامة » فقال النبي : « من لنا بأبي عبد الرحمن » فمضى أبو بكر الصديق فجاء ومعه محبرة وقرطاس فدفعه النبي إلى معاوية فكتبها وهو يبكي[3] .

ب ـ جاء جبريل إلى النبي ـ ﷺ ـ بورقة آس أخضر مكتوب عليها « لا إله إلا الله ، حب معاوية بن أبي سفيان فرج ؟ مني على عبادي »[4] .

ج ـ وذكروا أن رسول الله قال لأم حبيبة أخت معاوية : . . . فإني أحب معاوية ، وأحب من يحبه ، جبريل ومكاييل يحبان معاوية ، والله تعالىٰ أشد حباً لمعاوية من جبريل وميكائيل يا أم حبيبة »[5] .

ورووا أنه قال لها يوماً : « يا أم حبيبة هذا أخوك قد أقبل ، أما إنه يبعث يوم القيامة عليه رداء من نور الإيمان »[6] .

---

(١) الورقة ٣٤٠/١ .

(٢) الورقة ٣٤٠/٢ هذا ينبئك أنه تصدى لوضع الأحاديث والأخبار كل أحد حتى العوام وإلا فأيسر قدر من ثقافة كاف ليعرف صاحبه أن النبي ـ ﷺ ـ ثم الخلفاء الراشدون بالمدينة ماتوا ولم يكن بعد شكل ولا إعجام .

(٣) الورقة ٣٤٢/١ .

(٤) الورقة ٣٤٢/١ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) الورقة ٣٤٦/١ .

ثم لم يقتصروا على هذه الكرامة كلها في الدار الآخرة ، فعجلوا له من فاكهة الجنة ، وسخروا جبريل في إيصالها فزعموا :

د ـ أن جعفر بن أبي طالب قدم من بعض أسفاره ومعه شيء من السفرجل ، فأهداه إلى رسول الله والنبي يومئذ في منزل أبي بكر الصديق ، إذ دخل معاوية فقال النبي لجعفر « أنى لك هذا ؟ » فقال : « أهداه إلي رجل شاب حسن الهيئة في بعض أسفاري فأحببت أن أهديه إليك يا رسول الله » ، فأكل منه النبي وأخذ منه واحدة وأعطاها معاوية وقال : توافقني في الجنة بمثلها وقال : « يا معاوية ، من مثلك ؟ أخذت اليوم من هدايا ثلاثة كلهم في الجنة وأنت رابعهم » ، « يا جعفر : هل تدري من المهدي إليك السفرجل ؟ » قال : (لا) قال : « ذاك جبريل وهو سيد الملائكة ، وأنا سيد الأنبياء، وجعفر سيد الشهداء وأنت يا معاوية سيد الأمناء »[1] .

هـ ـ ثم عنيت هذه النزعة بخصوم معاوية ومبغضيه فخصتهم بكل نكر ، فزعمت أن رسول الله قال له : « الشاك في فضلك يا معاوية تنشق الأرض عنه يوم القيامة وفي عنقه طوق من نار له ثلاث مئة شعبة ، في كل شعبة شيطان يكلح في وجهه مقدار عمر الدنيا »[2] .

وكأنهم لم يكتفوا بهذه الصورة على بشاعتها فولدوا بإبداعهم صورة أكلح فزعموا :

و ـ أن النبي كان ذات يوم جالساً بين أصحابه إذ قال : « يدخل عليكم من باب المسجد في هذا اليوم رجل من أهل الجنة يفرحني الله به » فقال أبو هريرة : فتطاولت لها ، فإذا نحن بمعاوية قد دخل ، فقلت : « يارسول الله هذا هو ؟ فقال : « نعم يا أبا هريرة هو هو » يقولها ثلاثاً ثم قال : « يا أبا هريرة ، إن في جهنم كلاباً زرق الأعين على أعرافها شعر كأمثال أذناب الخيل ، لو أذن الله لكلب منها أن يبلغ السماوات السبع في لقمة واحدة لهان ذلك عليه ، يسلطه يوم القيامة على من لعن معاوية)[3] أي هول والله!

---

(١) الورقة ٣٤٧/ ١ .

(٢) الورقة ٣٤٥/ ٢ .

(٣) الورقة ٣٤٨/ ٢ .

ويبلغ الوضاع غايتهم في صورة مسرحية شائقة ينطلق بها الرسول ومعاوية معاً بين يدي الرحمن إلى الجنة :

ز ـ إذا كان يوم القيامة دعي بالنبي ومعاوية ، فيوقفان بين يدي الله ، فيطوق النبي بطوق ياقوت أحمر ، ويسور بثلاثة أسورة من لؤلؤ ، فيأخذ النبي الطوق فيطوقه معاوية ، ثم يسوره بثلاثة أسورة ، فيقول له الله : « يا محمد ، تسخى علي وأنا السخي وأنا الذي لا أبخل ؟ فيقول النبي : « إلهي وسيدي ، كنت ضمنت لمعاوية في دار الدنيا ضمناً فأوفيته ما ضمنته له بين يديك يا رب » فيبتسم الرب إليهما ثم يقول : « خذ بيد صاحبك انطلقا إلى الجنة جميعاً »[١] .

ثم يتوج الوضاع هذه الإحالات كلها بالتي ليس بعدها ، إذ نجد معاوية يستأثر بقرب عرش الله دون النبي نفسه ، ناعماً بمناجاة الله وتحيته سبعين عاماً وتزيد ، على حين يكون النبي بعيداً ينتظر معاوية ، فيزعمون :

ح ـ أن رسول الله قال : « لا أفتقد أحداً من أصحابي غير معاوية ، فإني لا أراه ثمانين عاماً أو سبعين عاماً ، فإذا كان بعد ثمانين عاماً أو سبعين يقبل عليَّ على ناقة من المسك الإذفر حشوها من رحمة الله ، قوائمها من الزبرجد فأقول : يا معاوية فيقول : لبيك يا محمد[٢] ، فأقول « أين كنت من ثمانين عاماً ؟ » فيقول : في روضة تحت عرش ربي يناجيني وأناجيه ويحييني وأحييه ، ويقول : هذا عوض مما كنت تشتم في دار الدنيا[٣] .

لم يقتصر هذا الغلو في معاوية على أهل الشام ، بل امتد إلى غيره ، ولعل ذلك

---

(١) الورقة ٢٤٨/١ .

(٢) كذا هي في الرواية .

(٣) الورقة السابقة ، هذا وقد تكلم الحافظ ابن عساكر على كذب هذا الحديث ووضعه إسناداً ومتناً . ونقل عن الخطيب أنه من وضع الوكيل ، وأن الإسناد رجاله كلهم ثقات إلا الوكيل . اهـ وأردت بنقل هذا تذكيرك بأن الوضاعين يلصقون بما يضعون أسناداً مقبولة لا طعن فيها ، وأن النقد في هذا الباب نقد المتن نفسه . هذا وقد رواه الحافظ في موضع آخر برواية ثانية منكرة في إسنادها غير واحد من المجاهيل .

راجع إلى غلو الشيعة في نصر صاحبهم والطعن على خصمه ، غلوّاً حمل الفريق الآخر على مقابلته بغلو مثله ، وكان ذلك يكون بحيث يتصاقب الفريقان في بلد ، أو يكون بلد أحدهما على مقربة من بلد الآخر ، فيتيح الاحتكاك تلك الثروة الطريفة من الأدب . هذه واسط مدينة الحجاج بقيت تنصر معاوية حتى بعد انقراض الدولة الأموية بمئات السنين ، في خضم من التشيع حولها ، وبالغت في ذلك حتى خرجت عن المعقول والمنقول معاً ، جاء في (أحسن التقاسيم)[1] :

في أهل واسط بلهٌ وغلوٌّ في معاوية ، ووصف لي رجل بالزهد والتعبد ، فقصدته ـ وتركت القافلة خلفي ، وبت عنده تلك الليلة ، وجعلت أسأله إلى أن قلت : ما قولك في الصاحب ابن عباد ؟ فجعل يلعنه ، ثم قال : إنه أتانا بمذهب لا نعرفه قلت : وما هو ؟ قال : يقول معاوية ليس مرسلاً . قلت : وما تقول أنت ؟ قال : أقول كما قال الله عز وجل : ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ . أبو بكر كان مرسلاً ، وعمر كان مرسلاً ، (حتى ذكر الأربعة) ثم قال : ومعاوية كان مرسلاً قلت : ألا تعقل ؟ أما الأربعة فكانوا خلفاء ومعاوية كان ملكاً ، فجعل يشنّع عليَّ ، وأصبح يقول : هذا رافضي ، فلو لم تدركني القافلة لبطشوا بي .

ولهم في تكريم معاوية في الجنة مثل ما لغيرهم من تحزب العامة وعصبيتهم له ، وقد حدث المقدسي نفسه أيضاً بما شهد منهم ، قال :

كنت يوماً بجامع واسط وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس فدنوت منه فإذا هو يقول : حدثنا فلان عن فلان . . عن النبي : أن الله يدني معاوية يوم القيامة يجلسه إلى جنبه ـ ويغلفه بيده ، ثم يجلوه على الخلق كالعروس . فقلت له : بماذا ؟ أبمحاربته علياً ـ رضي الله عن معاوية ـ وكذبت أنت يا ضال . فقال : خذوا عني هذا الرافضي ، فأقبل الناس عليّ فعرفني بعض الكتبة فكركرهم عني .

ما عرفنا من عقيدة العامة بالشام في تقديس خلفائهم حتى قطعوا بالغفران لمن ولي الخلافة ثلاثة أيام يجعلنا لا نظن المبالغة في رواية المسعودي : أن أنصار

---

(١) ص٣٩٩ .

الأمويين في الشام حلفوا للسفاح : أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى ولي العباسيون الخلافة[١] .

والظاهر أن هذه عقيدة شامية ثابتة تجدها في التواريخ كما تجدها في الأساطير التي تسجل تقاليد الشعب وآراءه بكل صدقة وأمانة . ولأمر ما قال سفيان الثوري : « إذا كنت في الشام فحدِّث بفضائل علي »[٢] وهذه العبارة قاصرة جداً في التعبير عن الواقع ، فإن ما عليه عامة أهل الشام حينئذ من عقيدة في علي ليقتضي تنشئتهم تنشئة (دكتاتورية) على خلاف ما ألفوا من تقاليد وأعراف في الإسلام ورجاله . ولست أعرف حكومة نجحت في إحكام دعايتها حتى ضمت لدولتها خواطر الناس في اليقظة والمنام ، وأمنت شر من على الأرض ومن في الأرحام مثل حكومة الأمويين . وانظر صورة طريفة من المجتمع الشامي حينئذ في مسجد دمشق وهو مرآة البلد ، يرويها ابن عساكر في تاريخه الجليل عن أبي يحيى السكري قال :

دخلت مسجد دمشق فرأيت به حلقاً فقلت : هذا مسجد قد دخله جماعة من الصحابة ، فملت إلى حلقة في صدرها شيخ جالس ، فجلست إليه فقال له رجل أمامه : من علي بن أبي طالب ؟ فقال : خفاق كان بالعراق ، اجتمعت عليه جماعة فقصد أمير المؤمنين معاوية ليحاربه فنصر الله معاوية عليه . قال السكري : فاستعظمت ذلك وقمت ، فرأيت في جانب المسجد شيخاً يصلي إلى سارية ، حسن السمت والصلاة والهيئة ، فقلت له : يا شيخ أنا رجل من أهل العراق ، جلست إلى تلك الحلقة . . . وقصصت عليه القصة وانتقاص علي بن أبي طالب فقال : في هذا المسجد عجائب ، بلغني أن بعضهم يطعن على أبي محمد الحجاج بن يوسف فعلي ابن أبي طالب من هو ؟؟ ثم جعل يبكي . فقمت عنه وقلت : لا أستحل أن أبيت بهذا البلد[٣] .

ولم يزدد الأمر في الشام إلا تمكناً على الزمن ، ولعله نما وانتشر أكثر بعد

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢١٧ .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١/ ٨٠ .

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١/ ٨٠ .

انقراض بني أمية وحكمهم ، ولا أعزو ذلك إلا إلى بصر بني أمية بسياسة النفوس ونزعاتها واهتدائهم إلى التلطف بها ، فغذوا أدب العامة بما أرادوا ، ونشروا بينهم من الأحاديث والقصص والأخبار كل ما يؤيد دولتهم ويوهي خصومهم ، حتى شاب عليه الكبير ونشأ عليه الصغير ، وما غرس في الآداب الشعبية فهيهات للسياسة العاجلة أن تقضي عليه بالعنف والقهر . وأبلغ من الصورة التي رأيناها في مسجد دمشق صفحة حفظها ياقوت في كتابه (إرشاد الأريب) هي أبعد دلالة وأصدق تاريخاً لتقليد المجتمع الشامي يومئذ، يرويها رجل عاش عمره كله في دولة العباسيين، ولم يشهد شيئاً من أيام الأمويين، هو أبو الحسن المدائني (١٣٥-٢٢٥هـ) قال : قال لي رجل : كنت بالشام فجعلت لا أسمع أحداً يسمى علياً ، ولا حسناً ، ولا حسيناً ، وإنما أسمع : معاوية ، ويزيد بن الوليد . . فمررت يوماً برجل جالس على باب داره وقد عطشت - فاستسقيته فقال : يا حسين اسقه . فقلت له : أسميت حسيناً ؟ فقال : إي والله ، إن لي أولاداً أسماؤهم حسين وحسن وجعفر ، فإن أهل الشام يسمون أولادهم بأسماء خلفاء الله ولا يزال أحدنا يلعن ولده ويشتمه ، وإنما سميت أولادي بأسماء أعداء الله فإذا لعنت فإنما ألعن أعداء الله فقلت له : ظننتك خير أهل الشام ، وإذا جهنم ليس فيها شر منك[١] .

ونحن مدينون للمدائني ولياقوت بهذا الأمر الاجتماعي العام في تعبير الشاميين عن طوياتهم ومنازعهم بأسماء أولادهم ، وليس بعد هذا في صدق التعبير غاية .

والظاهر أن التقاليد الشامية هذه تسربت فغزت بلداناً مجاورة سلباً وإيجاباً ، وليس أمتع من تاريخ هذه الآداب الشعبية نشأتها وتطورها ورحلتها وتأثرها وتأثيرها . نحن نعلم أن وكر العداوة لمعاوية هو شيعة العراق الذين أغرقوا وبالغوا في الحط منه وفي الرفع من خصمه الإمام علي ، حتى خلقوا في نفوس من ليس على رأيهم من مواطنيهم رد فعل ، وغرسوا فيها عطفاً زائداً على معاوية ، والآداب

---

(١) إرشاد الأريب ١٢٨/١٤ (طبعة فريد رفاعي) ، ويبلغ الخبر المأمون فيقول : (لا جرم قد ابتعث الله عليهم من يلعن أحياءهم وأمواتهم ويلعن من في أصلاب الرجال وأرحام النساء) يعني أهل الشام .

تتلاقح في أقاليم الأمم المتجاورة ، فكيف في أوطان الأمة الواحدة ، والعراق والشام منذ أقدم العصور بينهما أواصر اقتصادية وسياسية واجتماعية والناس في أسفار وتجارات بينهما ، فلما كان الفتح الإسلامي جمعهما الدين الواحد والحاكم الواحد إلى جانب العرق الواحد واللغة الواحدة ، فصارا في حكم الإقليم الواحد ، وكان أول ما تفاعل بينهما الآداب خاصة ، فأصبح من المتوقع أن نجد آثاراً للتقاليد الشعبية الشامية في العراق ، وقد مر بنا شأن أهل واسط في العصبية لمعاوية فانظر الآن زيادة عليه كيف تسرب إلى العراق حب معاوية . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : (كنت أحبو ، فأخذ أبي بيدي وعبر بي إلى الجسر (ببغداد) فمضى إلى جامع الرصافة ، فلما انتهينا إليه رأينا حباباً فيها السويق والسكر والماء المبرد بالثلج ، وخدماً في أيديهم الطاسات يقولون للناس : اشربوا على حب معاوية بن أبي سفيان . فقلت : يا أبه ، من معاوية ؟ فقال : هؤلاء قوم أبغضوا رجلاً لم يكن إلى الطعن عليه سبيل فأحبوا أعداءه[1] .

إن عشرين سنة ولي فيها معاوية الشام جعلته يخبر نفسية الشاميين ويقتلها دراسة فعرف كيف يتأتى لها برفق حتى صارت أطوع له من بنانه ، وجعل يفجؤه الأمر العظيم يطيش له الحليم فيلقاه هادئاً غير محتفل ، مطمئناً إلى تعلق رعيته وإخلاص جنده له ، هذا الجند الذي تعهده بدعاية محكمة وارتاح إلى غفلته وطواعيته وسذاجته أحياناً حتى ضرب المثل بطاعة أهل الشام وجند الشام ، فصار يشيع فيهم ما لو تحدث به إلى غير شامي لضحك منه ، وحسبك أن تعلم أنه رباهم على عقيدة أن علياً وأصحابه تاركون للصلاة[2] . لم يفت معاوية الداهية الأريب سلطان القصص على النفوس ، فاتخذ قاصاً يذكر الناس بعد صلاة الصبح ، وكان هو يستمع إلى قصصه الذي يبدأ بذكر الله واليوم الآخر ، ثم يخوض في السياسة فيذكر الخليفة وحزبه ويثني عليهم ويدعو لهم ، ويذكر خصومه ذاماً لهم وداعياً لهم[3] . ولم يكن

---

(١) مجلة الشرق ٢٦/ ٤١٤ نقلاً عن تاريخ بغداد لابن النجار .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩-٣٠ .

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩-٣٠ .

يتورع القصاص عن الاختلاق والكذب بما يرضي السلطان ، ولو كان ذلك الاختلاق في الدين والكذب على سيد المرسلين ، وكأن الغاية ـ وهي توطيد السلطان ـ بررت الوسيلة على ما يزعمون . ولقد روض معاوية رعيته في الشام على استحسان ما يستحسن واستهجان ما يستهجن حتى أصبح عندهم أمر الخليفة في كل شيء من أمر الله . هذه نزعة القوم التي نشئوا عليها في العصر الأول ، والصحابة وأهل العلم والرأي ، ورؤوس الناس وعقلاؤهم لا يزالون أحياء متوافرين ، فما ظنك إذا رحل هؤلاء وجرى على آثارهم ذرياتهم من بعدهم ، جيلاً بعد جيل ، فورثوا عن أوليهم نزعاتهم السياسية والحزبية دون أن يكون لهم علمهم ولا عقلهم ولا سؤددهم ؟ والخلفاء ودعاتهم مع ذلك دائبون في غرس ما يرضي الدولة في نفوسهم ، فيترعرعون منذ نعومة أظفارهم ، وقد ألفوا شتم علي وآل بيته مع ذكر الله على منابر الشام ، وغذى به أدبهم الشعبي وما يتناقلون من أخبار وعقائد وأساطير ، وأنت تعلم أن العامة تقيس للسلطان في هواه ذراعاً كلما قاس إصبعاً .

إن هذه الأساطير أعني الأحاديث الموضوعة كذباً في الفضائل والمثالب والمغيبات أخبار بعضها وضع لحوادث انقضت قبل زمن الوضع ، وبعضها حل في عقائد العامة على أنه لم يقع بعد ، لكنه آت لا ريب فيه كعقيدة السفياني ، وممن يعايشنا اليوم خلق كثير على هذا الاعتقاد ينتظر خروج السفياني ، إنها جميعاً تخضع لسنة فطرية جعلها الله من سنن الطبيعة ، وهي ما يعبر عنه في الجغرافية الطبيعية بـ (الائتكال والتراكم) ، والحق أن الحياة كلها على هذه الأرض ينالها ما ينال الأرض نفسها من ائتكال في نواح وتراكم في أخرى ، لا أستثني من ظواهر الحياة شيئاً لا المادية ولا المعنوية ، فالعقائد والأساطير والآداب ، وحتى الدين في نفوس الناس ، كل ذلك يعنو لسنة الله هذه ويعتور أجزاءه ضمور في جهات ونمو في جهات ، وانظر على سبيل المثال الإسلام كما هو في الكتاب العزيز وكما بلغه صاحب الشريعة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفهمه الصحابة الأولون ، والإسلام كما يتصوره العامة وكثير من الخاصة في أي بقعة شئت من العالم الإسلامي اليوم ، ولأمر ما كان المجددون الذين يقيضهم الله لهذا الدين بين الفترة والفترة يعنون أول ما يعنون

بإزالة تلك الطبقات المتراكمة على جوهر الدين حتى يجعلوه للناس كما أنزل الله ، وقلما كفت حياة الواحد منهم لتنظيف النقطة التي ركز فيها جهوده .

والذي أريد قوله هنا أن هذا الركام من المغيبات التي وصلت إلينا بدأ خبراً ذا زوائد عن حادث وقع ، ثم أضاف إليها الرأي العام مع الزمن ما غمره من شعور نحوه ، ومن رغبات يتمنى أن لو وقعت ، وأموراً يود أن لم تقع ، ثم صهر ذلك كله في بوتقة المغيبات ، خادعاً نفسه أن ذلك سيقع على هذا التفصيل ، فعوض بذلك على نفسه ـ من حيث لا يشعر ـ إخفاقاً أو خسائر في أنفس أو منافع وآمال .

وبعد فهذا معاوية كما تجليه المغيبات من الأساطير والموضوعات ، ولئن كنا في دراستنا حكمنا عليها بعدم الصحة وهو ما لا يشك فيه باحث إن ما تدل عليه صحيح صحيح . لقد كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ حاكماً واسع النفوذ في حكمه ، يحظى بالشعبية الواسعة في مجتمعه ، محبوباً إلى أبعد حدود المحبة ، ولا أدل على ذلك من رواج هذه الأساطير في المجتمع الشامي جيلاً بعد جيل ، ووجدانها السبيل إلى تخليدها في النفوس والسطور ، ثم بقائها حتى زماننا هذا نعتبر بها وننشئ حولها الدراسات ، ولقد أمدتنا بما لا سبيل للتاريخ الرسمي إلى الحظوة به ، فهي أصدق منه دلالة على تيارات المجتمع في عفويتها ، ولئن أسقط المحدثون الاستدلال بها جميعاً فإن على الباحثين في الأدب أو السياسة أو الاجتماع أن يعضوا عليها بالنواجذ ، لأمانتها في الدلالة على نفسية المجتمع . والشعب يعبر عن شعوره أحياناً صريحاً واضحاً على خط مستقيم كما يقولون ، وذلك أيام الرخاء والحرية ، وتارة في رمز والتواء إذا نزل بالمجتمع من الإرهاق والعسف ما لا قبل له به ، فينفس عن كبته في قصص وأساطير وأمثال قد تكون أبلغ في الدلالة على حاله مما كان أرسله صريحاً في أيام الرخاء ، وله بهذا تعويض عما فقد من حرية وطمأنينة ، كما تعوض الأحلام لصاحبها ما عجز عن تحقيقه حال اليقظة ، ومن هنا كانت الأساطير مصدراً يجب أن يبحث فيها بعناية ، وأن تستنطق بحذق وحيطة وإحكام .

الدكتور سبح والمعهد الطبي العربي

كلمة تأبينية ، ألقاها أستاذنا في المؤتمر السنوي السابع والخمسين لمجمع اللغة العربية في القاهرة في الجلسة السابعة صباح الأحد ٢ شعبان ١٤١١هـ الموافق لـ ١٧ شباط ، ١٩٩١م .

سُعدت ورحّبت بتكليفي بالكلام على سلفي العضو الجليل الراحل ، الدكتور حسني سبح ، أستاذ الأمراض الباطنية وسريرياتها في الجامعة السورية ، ثم انتخب عميداً لكلية الطب فيها ، ثم رئيساً للجامعة السورية ، صاحب المؤلفات الطبية الجليلة ، والمعجمات في مصطلحاتها . اغتبطت بزمالته في الجامعة سنة ١٩٤٨م ، ثم بصداقته البارة أربعين سنة كان فيهن ملهج الألسنة بمناقبه ومآثره .

تاريخ الراحل العزيز هو تاريخ (معهد الطب العربي) بدمشق منذ إنشائه سنة ١٩١٩م أيام العهد العربي الفيصلي إلى اليوم ، وتاريخ هذا التأسيس ، هو تاريخ نضال العرب في الشام بكل طبقاتهم من عامة ومتعلمين ، فما كادت ترحل الدولة التركية آخر الحرب العالمية الأولى ، حتى كنت ترى حياة الشاميين حياة حماسة وجيشان كل فرد يريد الإسهام في تأسيس حكم عربي سليم بما يستطيع .

لم يكن القائمون على تأسيس الجامعة ، بدءاً بمدرسة الحقوق ومدرسة الطب إلا من قادة الشعب في نهضته ، غمرتهم روح قوية مناضلة في سبيل تعريب التعليم الجامعي ، والنهوض به بعزائم لا تكل ، حتى استوى قائماً على رجليه ، والسر هو فيما غمر قلوبهم من إيمان لا يتزعزع بالعودة إلى أصولهم ، ومعرفة (من هم ؟) في التاريخ الحضاري البشري يوم كانوا قادة العالم ومعلميه .

أما أساتذتهم الشيوخ ، فقد تخرجوا في معاهد تركية ؛ فلما كان الحكم العربي - سقى الله أيامه - قلب مؤسسوه لغة الدولة بجرة قلم ، وهبّ جميع المسؤولين في أجهزة الدولة ، يقبلون على دروس خاصة في اللغة العربية ، إضافة إلى أعبائهم الرسمية والتدريسية ، وموّنتهم الدولة العربية بدروس ليلية في الفصحى ، يحاولون

الكلام بها ما استطاعوا ، خالطيها بما غلبهم من اللهجة العامية[1] ، واستمروا بإرادة قوية وعزيمة تنطلق ولا تتراجع ، وكان إلى جانبهم زملاء أقوياء يساعدونهم « فلم تمض سنوات حتى أخذ العبءَ عن كاهل أولئك الشيوخ ، سواعد قوية ، آمنت بعربيتها إيمانها بدينها ، ما دفعها إلى هدفها القويم صعداً ، وحتى أصبحت عربية العلم في الجامعة السورية مثلاً يحتذى فكان فقيدنا سبح أحدهم .

لم يخل طريق هؤلاء المؤمنين الشبان من المثبطين طلائع الاحتلال الأجنبي ومثبتي دعائمه فيما بعد ، لم يخل من الوعورة والعقبات وأمضى سلاح هدام في أيديهم كان سلاح التشكيك واستحالة الأمر ، وعدم صلاح العربية لغةً للعلم ، وأوحى الأجانب المحتلون في الساحل إلى عملائهم في الداخل في الميادين المختلفة ، في المدارس والصحف والإدارات ، والإرساليات الأجنبية ، أوحَوْا إليهم بتقويض العزائم وثنيها عما فرغت أنفسها له ، وبثوا تساؤلات وشكوكاً وتفاصيل تودي بإيمان الضعفاء من الأنصار مثل : كيف تصلح لغة البداة للتعبير عن مكتشفات القرن العشرين ومخترعاته[2] ؟ نبغاء العلماء في البلاد الأجنبية في الطب

---

(١) تجلَّىٰ هذا الميل في عزم بعضهم ألاّ يتكلم إلاّ بالفصحى على جهله بها ، ولما رأى أن (القاف) هو النطق الصحيح لما تنطقه العامة بالهمز ، صار لا يذكر الأرانب إلاّ بالقاف في دروسه فيقول : إذا شرّحنا جثّة قرنب ـ وإلى جانب الجامع القموي ، يريد الأموي . وظننت أن هذه شاعت للتنكيت عليه ، ثم علمت أنها واقعة حقاً في أول ممارسته . انظر تاريخ الطب في الشام للدكتور شوكة الشطي ص١٥٨ .

(٢) قال الدكتور رمسيس جرجس الأستاذ في كلية الطب عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة :
« عندما قامت الثورة المصرية على الاستعمار الإنكليزي سنة ١٩١٩ كان من ضمن ما فكرنا فيه إصدار مجلة طبية عربية تسجل ما يقوم به المصريون في مختلف فرقهم من أبحاث واختبارات ، وكان أستاذ الجراحة إذ ذاك إنكليزياً ، فهاج لهذا الخاطر (الخبيث في نظره) . وأخذ يحاجني في ذلك أنه مشروع فاشل ، وسيقضي على الطب في مصر قضاء مبرماً . فقلت له : « . . ولكن العرب سبقوا فدرّسوا هذا العلم بالعربية ، وعنهم نقل الأوربيون فأسف لما وصلت إليه عقليتي من تدهور ودعا الله لي بالتوفيق . [جريدة مصر (العدد ٧١٣١) الصادر في ٢٩/ ٢/١٩٥٨م] . . .
. . الظاهر أن هذه الريب الصادرة عن تخطيط سابق كانوا يبثونها في كل قطر ، فقد استمر الدكتور جرجس يقول : « . . أما الحماسة المصطنعة التي يبديها بعضهم من عجز خريجي كلية الطب =

والحقوق والهندسة والآليات لا يحصون ، فما عندنا نحن ؟

هبنا درّسنا الطب في العربية ، فكيف بمتابعة ما يجدّ في هذه العلوم لمن لم يدرسها في الأصل بالفرنسية أو الألمانية ؟ لغة سيبويه لا تصلح صلاح لغات لافوازيه وباستور وكوخ و . . . إلخ ما هناك من شبه وأباطيل تودي بحجج أقوى أنصار التعريب . . . لولا أن إيماناً لا يتزعزع في قلوب الرعيل المؤسس الذين لم يبالوا بما يثار حولهم من غبار وجدال ، ولا تهكم ولا تثبيط ، ومضوا يبصرون مواطئ أقدامهم ، إلى هدفهم الذي آمنوا بسداده ، عاملين جادين ، يسلمهم فتح إلى فتح . ثم كان الاحتلال الفرنسي بعد معركة ميسلون ، وأراد أن يوقر في الصدور ما بثّ أبواقه الذين سبقوه : أن التعليم العالي بالعربية خرافة ، فأثبتت عزائم هؤلاء المؤمنين الأساتذة أن دعاوى الهدامين هي الخرافة ، وأضحكوا بعملهم الناجح جماهير الناس من محاولات المحتلين القديمة . ستون عاماً وكلية الطب ماضية في إثراء اللغة العربية ، بمؤلفاتهم العلمية ، ومعاجمهم الفنية والعلمية العربية ، كل فن له أساتذته ومراجعه العربية ومصطلحاته العربية التي وضعت مقابلات لمثيلاتها الأجنبية ، ولفقيدنا الراحل الدكتور سبح العدد الوافر منها ناطقة بما قدموا من آثار باقيات .

إن فهرساً لمطبوعات كلية الطب بالجامعة السورية بين سنتي ١٩٣٢ـ١٩٥٧م قد سجّل لها أجلّ الأعمال : « فقد نيّفت على السبعين طبعت كلها في مطبعة جامعة دمشق فقط ، جاوز مؤلفوها الأربعين أستاذاً ، وكثير من هذه الكتب ينتهي بمعجم للمصطلحات في اللغة العربية إزاء مصطلحاتها الأجنبية ، وانتشرت في جزيرة العرب

= (الدارسين باللغة العربية) عن متابعة أبحاثهم فهذا كلام لا يجوز إلا على العقول الساذجة) . ففي مصر لا يقرأ الطبيب شيئاً بعد إذ لا يجد أمامه المؤلفات المطلوبة ؛ أما إذا وجدت باللغة العربية سهل عليه الاطلاع ، إذ يترجم كل ما يستحدث في عالم الطب بكل اللغات فما المانع في أن يترجّ إلى لغته ، وهو ما يحدث اليوم في المجالات المتعددة وفي النشرات والإعلانات التجارية .
إن الذين يقاومون نقل الطب إلى العربية مصابون (بعقدة الدونية) يرون أنفسهم ولغتهم أحط من لغات الآخرين ، ولكن سيثبت الزمن لهم أنهم كانوا في وهم ، وأنهم كانوا يعطلون تقدم أمتهم ، والأفضل لهم أن « يكفوا عن هذا الهذيان » .

والأردن والعراق ومناطق الخليج العربي حيث شغل الأطباء السوريون خريجو هذه الجامعة مناصب في إدارات الصحة والتدريس » .

ثم سمت همم الطامحين من الرعيل الأول المؤمن بلغته وعلمه وأمته ، فأرادوا أن يكون للغة العربية معجم شامل للمصطلحات الطبية . . على اختلاف فنونها كما لغيرها من كبريات اللغات الحية ، فعمدوا إلى معجم المصطلحات الطبية بالفرنسية لـ (كليرفيل) ، فعكف على ترجمته ثلاثة من أجلة أساتذة الطب هم : أحمد حمدي الخياط ، ومحمد صلاح الدين الكواكبي ، ومرشد خاطر ، وامتد دأبهم على ذلك سنين حتى أنجزوه ، ثم طبعوه في مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٦٠م .

ثم أنشأ فريق منهم على رأسهم الطبيب مرشد خاطر (مجلة المعهد الطبي العربي) التي تولى المعهد إصدارها ، فصدر منها ٢١ مجلداً بين سنتي ١٩٢٤ و١٩٤٧م .

وغني عن البيان أن نشير إلى اللغة المشرقة لهذه المجلة في رصانتها وعلميتها وعربية مصطلحاتها ، وحسبك منها سهولة لغتها وسلاستها وسلامتها . وفي بحوثها الجليلة النافعة آلاف المصطلحات بالعربية الواضحة المبينة .

إن معهد الطب العربي ومجلته قلعتان من قلاع العربية ، وإن الذين قاموا عليهما كانوا هم والعربية الفصحى كما قال الأعشى :

رضيعـا لبـان ثـدْي أمٍّ تقـاسمـا بـأسحـم داجٍ عَـوْضُ لا نتفـرّق

وبهذا لا يكون من المبالغة في شيء قول الدكتور العالم الأمين شوكة موفق الشطي حين أرّخ لهذا المعهد ، العربي لغة وروحاً : « إن رجال المعهد الطبي العربي بمجلتهم ومؤلفاتهم ومقالاتهم ، قاموا بنهضة لغوية تبعها انتصار اللغة العربية في عالم العرب وبلاده الشاسعة . . . إن الجامعة السورية باعثة اللغة العلمية العربية ، ولئن كان ثالوث الكلية الأميركية في لبنان : [فانريك ، وبوست ، وورتبات] له فضل غير منكور في خدمة اللغة آخر القرن التاسع عشر ، إن هذا الفضل قضى عليه روح التبشير والاستعمار الأميريكيان ، حين قلبوا لغة التعليم فيها إلى اللغة الإنكليزية ، فبعث الله ثالوثاً أقوى عزيمة وإخلاصاً ، وتفانياً في بلاد الشام في

القرن العشرين ، عنيت به دعائم النهضة العربية اللغوية في المعهد الطبي العربي ، الثلاثة الأجلاء : أحمد حمدي الخياط ، ومحمد جميل الخاني ، ومرشد خاطر ؛ فقد كتب الله لعملهم المنظم المستمر ، حياةً وانتشاراً إلى سائر الأقطار العربية ، فلنا بفضلهم وفضل زملائهم وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم لغة علمية عربية سليمة واضحة . . » .

« وما أسهم أساتيذه فيه من البحوث المبتكرة في الأمراض المستوطنة كالبُرَداء والزُّحار ، وتشمّعات الكبد ، والتهاباتها الأميبية ، وأشكال الإفرنجي العصبي ، والتهابات الأعصاب العديدة التالية للمعالجة المصلية ، وما إلى ذلك من البحوث الكثيرة . . . قد تناقلته مجلات الغرب الطبية »[1] .

هذا التاريخ كله شارك فيه الدكتور سبح ، فتياً وشاباً وكهلاً ، وشيخاً في همة الشباب ، ما فترت حماسته ولا غاب فيه عن معترك حتى العام الذي توفي فيه ، عام ١٩٨٦ ، لم يغب ـ كعادته ـ عن مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وقد يعرف زملاؤه الأجلاء العرب والأجانب أنه كان يقضي لياليه عاكفاً على جداول المصطلحات التي ستناقش ضحى هذه الليالي ، يدرسها ويدوّن ملاحظاته التي تكون موضع عناية المختصين من زملائه الأعضاء .

وفي مجمع دمشق يوم وفاته في ٣١/ ١٢/ ١٩٨٦ ، أنهى عمله اليومي في آخر الدوام ، عائداً في سيارته إلى داره ، أسلم الروح في الطريق سوياً معافًى ، ما شعر سائقه بوفاته إلا لما نزل يفتح له باب السيارة أمام داره ، قد ملأ حياته كلها عملاً ، منتقلاً من عمله النافع إلى جوار ربه إكراماً من الله له .

مآثر الفقيد كثيرة مشهورة ، في علمه وأدبه ، وإخلاصه في التزامه بالواجب عليه دارساً ومدرساً ، عربي الروح إنساني النزعة ، مخلصاً لاختصاصه ، متابعاً لما يجدّ فيه ، راحلاً كل صيف إلى أوربة إلا أن يعوقه عائق ، زائراً معاهدها الطبية ، ومشافيها ومكاتب النابهين من علمائها العالميين ، متتبعاً المجلات الاختصاصية ،

---

(١) تاريخ الطب (كتاب سورية) ص٧٥ ، ١٤٩ .

مشتركاً في بعضها ، وبعد هذا التزود مجتهداً بأناة وروية في تآليفه العلمية ، ناقلاً هذا الزاد الوافر إلى المكتبة العربية ، وإلى طلابه وزملائه في الميادين النظرية والعملية . وإن جاز أن ننسى شيئاً من التفاصيل فلن ننسى ذلك الصرح الشامخ الذي تعهده منذ كان فكرة في أذهان أهل الخير من علية القوم ، حين سمعوا منه مرحبين ، إلى أن وضع أساسه وإلى أن سما وبسق وآتى أكله ، ذلك هو (مستشفى المواساة) في أنزه مكان بدمشق ، جعله يموج بالنشاط والحركة واستقبال المرضى ورحيل المعافَيْن ، يعج بالأطباء المعالجين المتخصصين ليل نهار ، لا يدخله داخل إلا دعا لكل من أسهم فيه بجهد أو مال من المحسنين ، وكان الدكتور سبح روح هذه المسعاة الخيّرة ، ومديرها والساهر عليها ، فلما تمت اكتمالاً وأجهزة ، ورضي عن سير العمل فيها ، خاف عليها وأراد لها الدوام ، حمل لجنتها على تسليمها إلى الجامعة ، وتمّ ذلك بعد سنين ، ولم ينقطع المسؤولون عن الاستفادة منه حتى توفاه الله مطمئناً إلى خلود المشروع قرير العين سعيد النفس بازدهاره واستمرار النفع منه .

أعمال الفقيد كلها تمضي بهدوء وصمت ، هذا هو مزاجه ، بعيد عن الدعاية والضجة والمظاهر ، لا يشعر الغريب عن الموضوع بأنه أمام رئيس يلفت النظر ، واعٍ لكل صغيرة وكبيرة ، حارس بصير في عمله ، انتخب عميداً لكلية الطب بعد عميد سابق مغاير له ، فوجد في درج مكتبه ملفاً (إضبارة) فيه عقد بين كلية الطب وشركة فرنسية تزود الكلية بما تحتاج إليه من أجهزة حديثة وما إليها ، ومبلغ العقد نحو مئة وعشرين ألف ليرة سورية ، لم يبق لإنفاذ العقد إلا توقيع العميد . درس الدكتور سبح العقد بإمعان ـ وكان ذا خبرة دقيقة في الأجهزة وأسعارها حصل عليها في أسفاره إلى أماكنها ووجوده في اللجان التي تؤلفها الكلية ـ فرابه فيه شيء ؛ فلما دخل وكيل الشركة ليأخذ التوقيع رفض الدكتور إنفاذ العقد ، فتداول هو والوكيل الأمر ، فوجد الوكيل أن هذا العميد لا يخدع ، ولم تزل المفاوضة حتى استطاع الدكتور سبح إنزال المبلغ إلى تسعين ألفاً ، وردّ على الكلية ثلاثين ألفاً في مجلس واحد .

ويذكرون في مآثره الإدارية أن دستوره في سيرته الوظيفية كسيرته أستاذاً :

استقامة وصراحة ؛ إذا لم يلب طلبك لم يتعبك ، بل يفاجئك باعتذاره في كل أمر غير سوي ، ولا تخرج من مجلسه إلا مقتنعاً أن الحق معه إذا كنت منصفاً ، فتخرج راضياً ، على حين أن كثيراً من المسؤولين يحرصون على (شعبية يظنونها من حسن الإدارة) فيحسنون الاستقبال والكلام المعسول وبذل الوعود ، وبعد عدد من الزيارات والوعود يلقونك بأسفهم الشديد بعد بذل جميع الجهود والعجز عن تلبية الطلب .

ومما عرف عنه تقيده بإنفاذ مواعيده بدقة ، وأنه قد خطط جدول أعماله اليومية المختلفة ، يؤديها في أوقاتها المحددة ، وكان يحدث أصحابه ببركة هذا الالتزام على أعماله ، ولولاه ما استطاع الوفاء بالواجب عليه في مؤلفاته الضخام وبحوثه للمؤتمرات ، ومقالاته التي يعد بها المجلات العلمية وغيرها ، وإدارته للمؤسسات التي يشرف عليها ، إذ كان حركة مستمرة منتظمة متروية . وتجد شيئاً من أعماله في البيان الملحق بهذه الكلمة ، مع الأعمال الرسمية التي قام بها .

يشهد له خلصاؤه وغيرهم بمنقبة حسن العهد ؛ لا يلمّ بأحدهم مرض فيعالجه إلا انتظمت زيارات الدكتور له على غير العادة ، يتعهد سير العلاج ، ولا يقطعها حتى يطمئن إلى شفائه ، زميلاً أو غير زميل ؛ فليس إلا أن تكون مودةٌ حتى يرعاها ويقوم بحقها أحسن قيام ذاكراً الحديث الشريف « إن حسن العهد من الإيمان » . رواه الحاكم في مستدركه .

وله إلى ذلك أعمال خيرية في السر ، لا يدري بها أحد إلا أن يبوح بها من نالها .

وما لي لا أذكر الأطباء الناجحين الذين خرّجهم فاقتدوا به في تزودهم في اختصاصاتهم ، وجعلوه أسوتهم في سيرتهم العلمية والعملية ؟ إن طلاب الأستاذ المرموق هم أيضاً من مآثره ومؤلفاته المسعدة لنفسه ، كلما تذكر جهوده في تنشئتهم شكر ربه على توفيقه له ، وهم من حسناته الجارية ما انتفع بهم الناس وبمؤلفاتهم .

وأحر ما وقع في نفسي أحسن موقع ، ولم يبق اليوم من يهتمّ له ، حديث حدثنيه وقد جاوز الثمانين ، موقف قلّ من يقوم بمثله اليوم ، وقد كان يقفه أكثر الشبان المتدفقين حماسة في أداء الواجب عليهم في سنوات التأسيس في العشرينات من هذا القرن :

أرسل إليه رئيس جامعة عربية في قطر شقيق رسالة في أمر هام عام ، أرسلها باللغة الإنكليزية ، فامتعض ، وردّ إليه هذا في الجواب : « أنت عربي من قطر عربي وفي جامعة لغتها الرسمية هي العربية ، وأنا كذلك ؛ فتفضل واكتب إلي بالعربية لغة بلادك وبلادي في حكم الدستور » . لقد فاته أنه الآن في سن الشباب وتدفقه وغليانه ، ولم يفارق روح الشباب وهو يناضل في سبيل لغته وسمعة جامعته ، وكذلك شأن الرجال الحميين الحمسين لمقدساتهم ، ختم شيخوخته في الثمانينات بمثل النخوة التي ناضل فيها الأعداء في سنه العشرين وهو فتى غض الإهاب ، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب ٣٣/ ٢٣] .

نسأل الله لفقيد الجامعات والمجامع العربية الدكتور حسني سبح ، الرضوان والكرامة ، ومقعد صدق عند مليك مقتدر ، كما أسأله لهذا المجمع الكريم الازدهار والنجح والتوفيق في خدمة اللغة العربية ، وهو ملبٍّ دعاءنا ما أخلصنا والتزمنا ما عاهدناه عليه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

سيرة الأستاذ الدكتور حسني سبح بالأرقام[(١)]

ولد في دمشق ١٩٠٠م

انتسب إلى مدرسة الطب العثمانية بدمشق سنة ١٩١٣م بالمسابقة

تخرج طبيباً من مدرسة الطب العربية بدمشق ١٩١٩م

حاز شهادة الدكتوراه في الطب من جامعة لوزان سنة ١٩٢٥م

عُيّن مساعد مخبر في المعهد الطبي العربي (كلية الطب فيما بعد) ١٩٣٢م

أصبح أستاذاً للأمراض الباطنة وسريرياتها في المعهد الطبي العربي سنة ١٩٣٨م

انتخب عميداً لكلية الطب سنة ١٩٣٨م

عيّن رئيساً للجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) سنة ١٩٤٣م

أحيل على التقاعد سنة ١٩٦٠م

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : المجلد ٦٢ سنة ١٩٨٧م ص١٧٤ .

مددت خدمته للتدريس في كلية الطب حتى ١/ ٧/ ١٩٦٧م

انتخب رئيساً لجمعية المواساة بدمشق سنة ١٩٤٣م

انتخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٦م

انتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٨ـ واستمر فيه حتى عام ١٩٨٦

اختير عضواً في مجامع اللغة العربية في مصر والعراق والأردن والهند

كان عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (ألكسو) ، وفي الاتحاد الدولي للداء السكري ، وفي أكاديمية نيويورك للعلوم ، وفي الجمعية السورية لتاريخ العلوم .

انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٨٦م

توفي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته يوم الأربعاء ٢٩/ ٤/ ١٤٠٧هـ = ٣١/ ١٢/ ١٩٨٦م

أشهر مؤلفاته[١]

موجز مبحث الأعراض والتشخيص لطلاب السنتين الأولى والثانية (بكلية الطب) .

موجز مبادئ علم الأمراض لطلاب طب الأسنان

فلسفة الطب أو علم الأمراض العام

مبادئ الأمراض الباطنة

موجز علم الأمراض الباطنة

موجز أمراض الجملة العصبية

أمراض الغدد الصم والتغذية والتسممات

علم الأمراض الباطنة ، الجزء الأول : أمراض الجملة العصبية

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٦٢ سنة ١٩٨٧ ص١٧٥ .

علم الأمراض الباطنة الجزء الثاني : الأمراض الباطنية والطفيلية .

علم الأمراض الباطنة ، الجزء الثالث : أمراض جهاز التنفس

علم الأمراض الباطنة ، الجزء الرابع : أمراض جهاز الهضم

علم الأمراض الباطنة ، الجزء الخامس : أمراض جهاز الدوران

علم الأمراض الباطنة ، الجزء السادس : جهاز البول والدم

علم الأمراض الباطنة ، الجزء السابع : الغدد الصم والتغذية والتسممات

معجم الألفاظ والمصطلحات الفنية لأمراض الجملة العصبية .

معجم الألفاظ والمصطلحات الفنية للأمراض الإنتانية والطفيلية .

معجم الألفاظ والمصطلحات الفنية لأمراض جهاز التنفس .

نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات .

المعجم الطبي الموحد (بالاشتراك) .

وله مقالات كثيرة ، نشر معظمها في مجلة المعهد الطبي العربي ، وفي مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .



الكتاب الرابع
كتاب في سطور



البيمارستانات في الإسلام

صفحة منطوية من صفحات التمدن الإسلامي

عرض قدمه الأستاذ بمناسبة صدور كتاب (البيمارستانات في الإسلام) للطبيب أحمد عيسىٰ .
نشرته مجلة التمدن الإسلامي ، السنة الخامسة ، العدد ٤ ، ٥ ، ٦/ عام ١٣٥٨

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الذين لا تزال رحمتهم شاهداً ومثلاً في الآخرين .

هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء ، مغتبطين ، بيان رائع لعظمة التمدن الإسلامي وما حفل به من أمجاد ، وبذل في سبيله من جهاد ، حتى أظلّت راياته البلاد ، وسعد بخيره العباد ، وشهد الله ما ذكر ذاكر حضارة المسلمين إلا استهلت بعبراتنا الشؤون ، حسرة على من كانوا رسل خير ورحمة ، وحملة علم وعرفان ، أن تذهب جهودهم الإنسانية سدًى ومساعيهم الخيرية أدراج الرياح ، على يد من خلفوهم في الحضارة ، فرجعوا بالفضيلة قروناً إلى الوراء ، وأستغفر الله فما من وراء فيه ما في تمدن القرن العشرين من قسوة ووحشية وانتهاك لكل حرمة .

ولقد توافر على خدمة تاريخنا مئات المؤرخين من شرقيين وغربيين في مختلف العصور ، وكشفوا كثيراً من مجاهله ، وجلَوْا من مغامضه ، حتى وضحت سبله ، ولاحت معالمه ، وأجمع الناس ـ يحدوهم يقين لا يتزعزع ـ على أن حضارة الإسلام بزّت كل حضارة في الوجود شرفاً ونبلاً وسمواً وسجاحة ، ومع ذلك فإن هناك صفحات كثيرة من الجهاد الإنساني النبيل لا تزال تنتظر من يكشف عنها التراب المتراكم، ويلم ما تشعث منها، ليخرجها للناس آية معجزة في حب الخير، والكفاح له، والتفاني فيه، وذلك ما تجد منه بياناً في هذا الكتاب، وذلك ما حدا جمعية التمدن الإسلامي على نشره ، لأنه صفحة قيمة من صفحات التمدن الإسلامي العظيم .

وبعد فمما يعتدُّه أنصار الحضارة العتيدة في باب حسناتها سبقها إلى تعميم المشافي والملاجئ الخيرية في بلادها وعطفها على ذوي العاهات والمعتلين ، وكفاحها في سبيل الصحة العامة ، وكان جمهورنا على التسليم بهذا السبق والتفرد على رغم ما نرى من اختصاص فريق من البشر بهذه المنافع دون فريق ، إذ لم يقم من ينصب الميزان بالقسط ، ويبحث في مطاوي تاريخنا الزاهر عما لسلفنا من مجهود إنساني ، حتى انتدب لذلك العلامة الجليل الدكتور أحمد عيسى بك بما يتحلَّى به من تضلُّع في علوم الطب ، وتمكن في تاريخ العرب ، إلى رجولة سامية تأبى عليه أن يهب لراحته وقتاً يستطيع خدمة أمته فيه ، فهجر الراحة وعكف على العمل العلمي الخاص ، حتى أخرج لنا كتابه هذا برهاناً ساطعاً على أن الحضارة الإنسانية المحضة هي حضارة المسلمين . وبذلك تتضافر الأدلة من أنواع مختلفة على أن المسلمين ما كانوا يعيشون لأنفسهم ، بل كانوا يعدون خير الناس ، وسعادتهم من أعظم الأمانات التي حملوها ، وعليهم ألا يألوا جهداً في تأديتها على حقها ، فكان الخير العام هو السمة التي تسم تاريخهم بين تواريخ الأمم قاطبة في القديم والحديث .

جعل المؤلف أول المستشفيات في الإسلام خيمة رفيدة وهي امرأة (كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضبعة من المسلمين ، وقد كان رسول الله ﷺ قال لقوم حين أصاب سعد بن معاذ السهم في غزوة الخندق : « اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أَعوده من قريب »[1] . ولما تتابعت الفتوح كان في كل جيش مضارب فيها الممرضات من النساء يداوين الجرحى وكان هذا جهادهن .

وبذلك علمنا أن أول المستشفيات نشأة في الإسلام هي المستشفيات الحربية المتنقلة إلى أن جاء الوليد بن عبد الملك الخليفة العمراني فاتخذ للمجذَّمين وغيرهم من ذوي العاهات داراً خاصة يُعتنى بهم فيها ، وأجرى عليها الأرزاق ورتّب لهم الخدم ، فكان أول من اتخذ الملاجئ الخيرية في الإسلام ، ثم تتابع الأمر حتى غصَّت حواضر الإسلام من سمرقند إلى فاس إلى غرناطة بالمنشآت الخيرية ،

(١) ص٩ من هذا الكتاب ، يعني : البيمارستانات في الإسلام ، والخبر في أسد الغابة ٧/ ١١٧ ، ورُفَيْدة امرأه من قبيلة أسلم .

وحُبست عليها الأوقاف الدارَّة ، ورُتب فيها الأطباء والصيادلة والممرضات والفراشون ، وجُهّزت بوسائل الرفاهية والتسلية ، وتمتع المرضى فيها من الرعاية والنعمة بما لا غاية وراءه .

ويحيّر المؤرخ تعليل هذه الكثرة من المؤسسات العامة حتى أصبحت تجد في بقعة صغيرة حول المسجد الأموي ثلاثة بيمارستانات ، يمر الماشي عليهن جميعاً في دقيقتين ، ونحن ـ مع تقديرنا للرقي العظيم الذي بلغه المسلمون ـ نجد ذلك نتيجة منطقية للخطة التي وضعها خلفاء الإسلام نصب أعينهم ، وهي إفاضة النعمة على الرعية عامة حتى يتمتع الملوك والسوقة بدرجات متقاربة من رغد العيش ورفاهية الحياة ؛ ولن ننسى ما فعل عمر إزاء تقسيم السواد سواد العراق على المقاتلين ، وتلك النظرة الحصيفة التي ذهبت به إلى المستقبل البعيد ، وقوله : « لئن سلمني الله لا أدع أرامل العراق يحتجن إلى رجل بعدي » ، ثم ترسم الخلفاء خطاه من بعده حتى رأينا الغني في أيام عمر بن عبد العزيز يدور بصدقته فلا يجد من يقبلها منه . هذا الرخاء المستفيض أسلم الأمراء والأغنياء بعد عصور ، إلى إنفاق أموالهم على المؤسسات الخيرية من ملاجئ ومشافٍ ومساجد ومدارس وربط وتكايا وزوايا . . . وحفر آبار وإجراء قنوات وبناء مصانع على طرق المسافرين ، بل أداهم التفنن في تحري الخير إلى حبس الأوقاف على ما يفقد من متاع ويعطب من إناء . وفي دمشق أحياء كثيرة لا تمشي فيها عشرين متراً إلا رأيت مسجداً أو مدرسة أو مستشفى ، بل يكاد ما انحدر فيها من قاسيون يكون كله مدارس ومساجد وتكايا ومشافي . ومن قرأ ما وقف على هذه من أوقاف قطع بأن أكثر القرى والمزارع والعقارات في الشام وقف على الجهات الخيرية ، فلا غرابة إن عددنا في أول الأسباب لشيوع هذه المنشآت ندرة الفقراء .

أثَّرت هذه المشافي أثراً آخر علمياً خالصاً إلى جانب أثرها الخيري ذلك ، هو تقدم علم الطب شوطاً بعيداً بما أسدى إليه نوابغ الأطباء الذين نشؤوا فيه من أياد ، وما نال من تشجيع العلية والأمراء ، وحسبك دليلاً أن تلقي نظرة على الباب الأول من هذا الكتاب وخاصة منه نظم البيمارستان ، والدروس الطبية ، وامتحانات الأطباء والصيادلة ، وترتيبهم وشروط إجازتهم ، فستعلم أن نظم هذه الصنعة لا تقل

عما هي عليه الآن في الحيطة والاهتمام ، وستجد أن ما جروا عليه في امتحان الخريجين في مختلف فروع الطب هو غاية في الحذر وضمان السلامة ، وسيتساءل القارئ حين يفرغ من هذه التفاصيل والعجب آخذ منه كل مأخذ : أترى أن ما وصلنا إلى ما انتهوا إليه من الدقة والاهتمام بالخير العام ؟

والمشافي كانت في الوقت نفسه جامعات طبيّة تلقى فيها الدروس النظرية إلى جانب الدروس العملية ، وكان لها من الشرف والمكانة بحيث كان السلطان أو نائبه هو الرئيس الأعلى لها ، فترى أن البيمارستان النوري مثلاً مناط إدارته بنائب السلطنة بدمشق ، ولا غرابة بعد ذلك في أن يولي الناس علوم الطب كل عنايتهم ، وقد رأوا ما للأطباء من الأرزاق الوافرة والمناصب العالية والشأن الاجتماعي العظيم ، حتى كان من المكفوفين أطباء مشهورون ، بل إن تلك الحضارة الباهرة آتت من الثمر في هذا الباب ما عجزت عنه حضارة القرن العشرين فقد تخطى الاهتمام بالطب الرجال إلى النساء ، فكان منهن طبيبات بارعات ، بل كان منهن من تولت مشيخة الطب في حاضرة من أعظم حواضر الإسلام[1] .

وسيشكر القارئ للمؤلف جهده الكبير إذ لم يكفه أن يجلو لنا حالة البيمارستانات في أوضح صورة وأنصع بيان ، حتى لكأننا نعيش في عهود ازدهارها ونعاين مرضاها وآلتها وحسن نعمتها وعناية أطبائها ، ونستمع إلى دروسهم ، ونرنو إلى تجاربهم ، ونبهر بآيات نبوغهم وافتنانهم ، لم يكفه ذلك حتى رفعنا إلى مستوى ثقافتهم الشاملة ، فأرخهم كما أرخ مشافيهم ، وعرفنا أن الطبيب إلى تمكنه في فنه كان مشاركاً في بقية الفنون ، وإنك لتجد في كثير من تراجم الذين تولوا العمل في المشافي من درس الفقه والتفسير وعلوم اللسان ، دع عنك إجادة السريانية أو اليونانية أو العبرانية ، وأكثرهم اشترك في إغناء الخزانة العربية بنفائس المؤلفات والترجمات ، وكان مما يمتحن فيه الطبيب أطروحة يقدمها في فرع من فروع الطب التي مارسها ، وبهذا ترى الأطباء لهم المحل المرموق بين حملة الثقافة ونشرة العلم ، وإذن لا تستغرب أن تكون البيمارستانات من العناية والترفيه على ما يحدثك

---

(١) انظر ص١٦٤ رقم ١٦ من هذا الكتاب . يعني البيمارستانات .

به المؤلف ، والمشرفون عليها من ذكرنا لك علماً وفضلاً وتمكناً وحصافة .

وهل أتاك أنهم سبقوا حضارتنا بقرون حين اهتدوا إلى المعالجة بالموسيقا ، لقد كانت الأجواق الموسيقية في بيمارستان فاس تروّح عن المرضى ، وتسليهم عن آلامهم . وكذلك الأمر في البيمارستان النوري بدمشق فقد كانوا يجلبون القصّاص والمطربين إلى قاعات المرضى فيه ، بل رتب المؤذنون ينشدون على المآذن قبل الفجر بساعتين بأنغام شجية تخفيفاً لعناء السهر على المرضى المؤرّقين . ولا تزال هذه البدعة الحسنة جارية إلى الآن في منتصف الليل دائماً وبعد العشاء في بعض الأحايين ، دون أن يعرف الناس لها أصلاً وسبباً . والحق أن الإنسان لن يملك دمعته على قوم بلغت من نفوسهم الرحمة وحب الخير هذا المبلغ النبيل .

وانظر على سبيل المثال ما أعد من وسائل الراحة في البيمارستان العضدي ، مع العلم بأنه لم يكن من بيمارستانات الدرجة الأولى ، فإن ناظره في سنة ٤٤٩ هـ بعد أن دثرت أوقافه أعادها « وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها شيئاً كثيراً ، وأقام الفرش واللحف للمرضى ، والأراييح الطيبة والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين . وكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً ونساء طباخات ونوابون وحراس ، والبستان إلى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول ، والسفن على مائه تنقل الضعفاء والفقراء ، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية ويبيتون عندهم بالنوبة . وكان فيه عدة خواب فيها السكَّر الطبرزد والأبلوج واللوز والمشمش والخشخاش وسائر الحبوب ، والبراني الصينية فيها العقاقير ، وأربع قواصر فيها الأهليلج الأصفر والكابلي والهندي ، وأربع قواصر ثمر هندي وزنجبيل وعود رند ومسك وعنبر والراوند الصيني في البراني والترياق الفاروقي وجميع الأفاويه وصناديق فيها أكفان وقدور كبار وصغار وآلات وأربعة وعشرين فراشاً . . . وذكر ابن صابي أشياء ما يوجد في دور الخلفاء مثلها »[1] .

هذا في العضدي فما ظنك بالبيمارستان النوري بدمشق الذي لم تخمد منه النار قط ، أو المنصوري بالقاهرة وهو لا يزال يؤدي عمله الإنساني إلى يوم الناس هذا

---

(١) ص١٩٠ من هذا الكتاب .

سالخاً من عمره ثمانية قرون ، وبذلك يكون أقدم مستشفى في العالم قاطبة .

وحدث ما شئت ـ ولا حرج ـ عن بيمارستان تونس العظيم الذي كان فيه أربعة آلاف بين مريض وناقه ، وهو عدد ضخم ليس على وجه الأرض اليوم مستشفى يستوعب من المرضى ما استوعب .

رأت جمعية التمدن الإسلامي بدمشق في نشر هذا الكتاب حافزاً لأحفاد أولئك الأبطال ليصلوا ما انقطع من تاريخ الإنسانية إذ لا يزال مكان أسلافهم شاغراً ينتظر من يقوم بتلك الرسالة النبيلة ، ورأت خدمة لناحية من التاريخ الإسلامي تكاد تكون مجهولة ، وليس من شك في أن للمسلمين نواحي كثيرة تحتاج إلى من يوليها العناية الوافية من أرباب الكفاءات لتتم فصول التاريخ الخالد لأشرف من تقدم إلى خدمة الخير والحق والهدى والسلام .

وأمر آخر له قيمته الأدبية وهو أن الدكتور الفاضل أحمد عيسى بك أول من أرسل مؤلفاً من مصر ليطبع في دمشق بادئاً بذلك عهد تعاون أدبي بين هاتين الحاضرتين وهما أعظم حواضر الثقافة في العالم العربي ، وفي هذا دليل عملي على أن البلدان العربية أشبه بأحياء بلد واحد . ونرجو لهذا الاتصال العملي أن تطّرد حلقاته بعد إذ خرجنا من طور الدعاية إلى طور العمل في سبيل الوحدة العربية ، فلا يسعنا إلا شكر هذه الأريحية للدكتور الفاضل إذ قدم كتابه لجمعيتنا تنظر فيه وتطبعه الطبعة الأولى لتنفق ريعها على المشاريع الخيرية أكثر الله في حملة العلم من أمثاله العاملين .

ونعتقد ـ إذ نقدم للناس هذا السفر النفيس ـ أنا حققنا مبدأً من مبادئنا السامية ، وهو نشر آثار التمدن الإسلامي ، وأعظم هذه الآثار ما اتصل خيره بالناس قاطبة ، وشملت رحمته كل نفس تختلج ، ولعل من يقرأ هذا الكتاب بنزعة إنسانية خالصة يذكر كلمة رينان :

« **ما دخلت مسجداً قط ، إلا عراني خشوع يمازجه أسف على أني لم أكن مسلماً** » فيتمنى أن يكون مسلماً من ذلك الطراز طراز نور الدين وصلاح الدين .

مناظرة أدبية
بين الأساتذة
عبد الله البستاني ـ عبد القادر المغربي ـ أنستاس الكرملي

مقالة عرضها أستاذنا لقيمتها التاريخية فحسب ، ليقف القارئ على ما كان يدور في الأوساط الثقافية آنذاك من مساجلات . .
نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ المجلد الخامس عشر عام ١٩٣٦م

للشاب الأديب السيد حسام الدين القدسي همم مشكورة في طبع الكتب النافعة قديمها وحديثها ، وآخر ما أتحف المكتبة العربية به ، طبعة هذه الرسالة طبعاً نظيفاً على ورق صقيل .

ولا بد من كلمة تمهيدية يعرف بها القارئ الظرف الذي نشرت فيه هذه المناظرات ، فقد أعاد الناشر إلى الذهن ذكر معركة حامية قامت منذ ستة عشر عاماً بين الأساتذة المذكورين .

كان المجمع العلمي العربي إذ ذاك في أول نشأته وعنفوان نشاطه ، وكان قد أحدث في الشام اهتماماً خاصاً باللغة العربية ، وجلب إليها الأنظار بما نشر من بحوث مفيدة يحاضر فيها أعضاؤه ، ومقالات نافعة تعلم الناس وتقوِّم من ألسنتهم ما فيها من عوج ؛ كان المجمع يومئذ معقد الآمال ، ومطمح الأنظار ، ومحط العناية من مختلف الطبقات الشعبية والحكومية ، فاستطاع أن يرفع مستوى اللغة العربية والتاريخ القومي في البلاد ، وعجل نضج الحركة الفكرية فيها . وكان الأدباء والعلماء الذين اشرأبت أعناقهم وتطلعت نفوسهم ليحوزوا شرف العضوية فيه عدداً غير قليل . ولقي المجمع من هذا النفر عنتاً : لأنهم لما أخفقوا ناصبوه العداء ، فشرعوا أقلامهم وأطالوا ألسنتهم في نقد ما يضع من مصطلحات أو يصلح من غلطات ، نقداً كان نصيب الغرض فيه أوفى من نصيب الحق .

من هؤلاء النفر : الشيخ عبد الله البستاني الذي تشغل مقالاته الأربع في نقد (عثرات الأقلام) التي نشرها المجمع ثلثي الرسالة ، والذي قال فيه الأستاذ المغربي : « أراد أن يهدم بناء مقالاتنا (عثرات الأقلام) ويتخذ من أنقاضها سلالم يرتقي عليها إلى قمة الشهرة واحتكار البراعة في اللغة العربية »[1] نقد الأستاذ البستاني في مقالته الأولى كلمات وردت في نشرة للمجمع وهذه هي (حبّذ يحبّذ ، واطن يواطن ، رجل بكل معنى الكلمة ، داخل يداخل ، حايد ، تأكد ، انتزه ، عنابر) وقد تكلف لنقده هذا غاية التكلف ، حتى كان التعقيد والتقعير يشينان أكثر المقال ، وكان في حظره استعمال أكثر تلك الكلمات قد حجّر واسعاً ، إلا أنه كان عفيف اللسان ، لم يتعرض لشخص معين بسوء ، وكان إلى جانب الأدب أقرب منه إلى جانب الحق .

ومقالته الثانية رد بها على الشيخ المغربي الذي كان نقده لاذعاً[2] وهي تشهد بأن البستاني غير عاجز في ميدان الرد بل هو من فرسانه المجلين .

لكنه يبدو في رده على الكرملي صائلاً سليط اللسان ، لاذع التنكيت ، يبسط من كلامه ما لا يجمل ، فهو يقول له ص٧٨ « يا محترم ، من أعظم البلايا أن تكون لي مناظراً » ويقول ص ٧٩ « ومن العجب أنك تتولى القضاء ، وأنت لا تدري أين تضع الباء » و« لم تحرز من آداب اللغة إلا شيئاً يسيراً لا تستدر منه جدوى ولا يسهل عليك تأليف عبارة خالية من حزازة ، فالتمس كتاباً واضح التعبير وتخرّج به على أديب . . وتدرّب في آداب البحث ، وتبصّر في كل ما تتلقنه إلخ . . . » .

والذي يخلص به القارئ من مقالاته : الاعتقاد بسعة اطلاعه وتمكنه من علوم اللغة ، وبرشاقة أسلوبه ما لم يتكلف ، فإذا فعل فهناك ما شئت من غموض أو ـ على رأي الأستاذ المغربي ـ من معاظلة وعسلطة .

بقي شيء واحد يؤخذ على الأستاذ المغربي وهو أن مذهبه في الألفاظ الدخيلة والعامية مذهب الإباحيين لا يحظر منها شيئاً ، قال حاكياً رأي أعضاء المجمع ثم

---

(١) ص١٧ .

(٢) ص١٨ فما بعد .

رأيه الخاص فيها : « فهم[1] يرفضون قبول كل كلمة أعجمية ويبحثون عن أخرى سواها من اللغة العربية يقوم مقامها ، حتى إذا لم يجدوا قبلوا الأعجمية بعد إفراغها في القوالب العربية . هذا رأي رفاقي ورأي الكثيرين . أما رأيي في أمثال تلك الكلمات فهو غير رأيهم : لأني لا أرى مانعاً يمنع من استعمال المعرب أو الدخيل إذا شاع . . .

وقد اطلعت منذ أيام على كتاب معرب بقلم كاتب من أشهر كتاب مصر فرأيت فيه كلمات وتراكيب دخيلة ما كنت أحسب أن يجري بها قلمه ، وقد أراد أعضاء مجمعنا أن يعدوها من عثرات قلمه وينبهوا إليها ، لكني ضننت بها عن هذا الموقف وخبأتها للاستشهاد بها على صحة رأيي ، وهو وجوب التسامح في الكلمات الدخيلة » .

والذي نستغربه من مثل الأستاذ المغربي أن ينكر على البستاني تصحيحه أخطاء وردت في معجم (أقرب الموارد) وهو ما كان حقيقاً أن يحمده عليه غاية الحمد ، فليس على الأرض أشنع من غلط في معجم ، وهو إذا وجد زلة من كاتب معروف يجعل زلته مذهباً في الصواب جديداً يجب اعتماده في اللغة كأن قائله امرؤ القيس أو علي بن أبي طالب ، وهو تساهل في الأستاذ مشهور ، والأمانة تقضي عليه أن يقول للمخطئ : أخطأت ، ولو سار الناس على مذهبه لكان لنا في كل عشرين سنة لغة جديدة ، ونحمد الله على أن الناس في هذه النهضة ماضون قُدُماً في إحياء لغتنا الكريمة ، ونقض ما علق بها من دخيل مرذول أو عامي ساقط ، شأن كل الأمم الحية ذوات الكرامة والعزة ، بل إن كثيراً ليبالغون فيفضلون الاصطلاح القديم المهجور على العربي المحدث في زماننا مهما كان الأول ثقيلاً والثاني رشيقاً .

وأما الأب الكرملي فقد عاب على البستاني تشدداته ، فاستعرض كل ما قال المتناظران ، فصوّب من كلامهما ما صوّب وردّ ما وجده خليقاً بالرد .

ثم ختم الناشر الرسالة بكلمة عادلة لأمير البيان شكيب أرسلان قال فيها : « لكل من أستاذنا البستاني والأستاذ المغربي والأب الكرملي وجهة فيما يقول ، وهذه مسائل قيل فيها الشيء وعكسه كثيراً ، وما أوسع أبواب العربية لمن عرفها » . وأظن

---

(١) ص٢١ .

أن هذا قول فصل في أكثر المناظرات اللغوية .

* *

قيمة هذه المناظرة والبحوث التي دارت فيها تاريخية : إذ إنها تطلعنا على ما كان يشتغل به بعض اللغويين قبل ستة عشر عاماً ، وترينا كيف كانوا يتبادلون النظر ، وإلا فالجدوى التي يخرج بها القارئ اليوم من تلاوة الرسالة ضئيلة جداً إذا أهملنا النظرة التاريخية .

ابن عبد ربه وعقده

(بقلم جبرائيل سليمان جبور)

مقالة نقدية تعرض الكتاب ، حاول أستاذنا فيها إبراز ما للكتاب وما عليه ، ثم صحح ما رأى تصحيحه من أغاليط .

نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - المجلد السادس عشر ج٣ ، ٤ / ص٤٨٨-٤٩٢ . عام ١٩٣٧م .

كتاب جيد الطبع على ورق صقيل قسّمه مؤلفه الفاضل أقساماً خمسة : تكلم في الأول منها (١-٩) على مصادر الدرس الثلاثة : العقد الفريد نفسه ، وشعر ابن عبد ربه ، ثم ما كتبه المؤرخون عنه . وقصر القسم الثاني (ص٩-٢٩) على حياة ابن عبد ربه فوفاها من الإسهاب والتحقيق ما أسعفت به المصادر المتيسرة للمؤلف . ثم بحث في القسم الثالث (ص٢٩-١١٧) عن كتاب العقد فحلّله فأحسن تحليله ، وذكر المصادر التي استقى منها مؤلفه ، وتعرض لقيمته من حيث التاريخ والدين والأدب وأهم التحقيقات في هذا القسم ما تعلق بتسميته (العقد الفريد) وما دُسّ في الكتاب على مؤلفه أو زيد بعد موته . ووقف القسم الرابع (ص١١٧-١٢٣) على نثر ابن عبد ربه ، والقسم الخامس (١٢٣-١٥٣) على شعره في مختلف الفنون . وختم الكتاب بفهرس منظم للأعلام الواردة فيه .

هذا وصف مجمل لبحوث الكتاب وسأشرع في الكلام على ما يلاحظ عليه بإجمال متبعاً ترتيب الصفحات :

١- استدل المؤلف (ص١٨ وما قبلها) على أن صاحب العقد « كان يشرب الخمر ويحبها ويدعو إليها » بأشعار له في ذكر الخمر وصفتها والثناء عليها . ونريد هنا أن ننبه إلى أن هذا شائع عند عامة الشعراء حتى الفقهاء منهم . فمن لوازم الشعر صفة النساء والخمر ، وإنا نخطئ كثيراً إذا اعتمدنا في درس حياة شاعر على ما يذكر

في شعره من حب للنساء والخمر ، أو تمدح بالشجاعة وعفة النفس . والبون شاسع بين أقوال الشعراء عندنا وأفعالهم منذ الجاهلية حتى اليوم ، والذي يثبت شرب الخمر على صاحب العقد خبر مأثور أو رواية مشهورة .

٢ـ ليس للمؤلف أن يأخذ برواية (Ribera) ص(٢٢) ما لم يعلم المصدر الذي استند إليه ؛ فكثيراً ما يكون نصيب خطرات النفس وجمحات الخيال أكثر من نصيب الحقيقة فيما يكتب أهل الغرب عن الشرق .

٣ـ زعم المؤلف (ص٥٣) أن ابن عبد ربه « لم يستطع أن يتجرد من بعض النزعات والميول ، ولم يتجنب كثيراً من الأغلاط التي ارتكبها غيره » وأرسل حكمه هذا مجرداً عن الشاهد فلم يذكر شيئاً من النزعات التي سيطرت عليه ، ولم يلم بشيء من الأغلاط الكثيرة التي ارتكبها . والمؤرخ لا يرسل حكماً غفلاً من الشاهد والدليل .

٤ـ عقد فصلاً بعنوان (نظره كمسلم إلى النصارى في الأندلس ص٧٥) فقرأناه ، فإذا به لا يتعلق بالنصارى ، ولكن بالفرنج (الإسبان) أعداء الدولة العربية فوصف الفرنج بالنصارى يصرف الذهن إلى أشياء لم يردها المؤلف . وإنما يرد على الخاطر حين تلاوة هذا العنوان الذميون الذين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكنا نود أن يكون المؤلف دقيقاً في وضع الكلمة مواضعها .

٥ـ عرض المؤلف ص٨٠ للقصة التي كانت بين صاحب العقد والقلفاط الشاعر واحتشم عن روايتها فقال « نسكت عن ذكرها لما فيها من بذيء اللفظ . . . وليس بلائق أن نذكر هنا هذه القصص » ونأخذ عليه أمرين ، أما الأول فإنه لم يسكت عن ذكرها وأتى العمل الذي رآه غير لائق حين ذكر البيت :

يا عرس أحمد إني مزمعٌ سفراً فودّعيني سراً من أبي عمرا!

ثم دلّ القارئ على المصدر حيث يروي القصة بتفاصيلها فلم نستفد شيئاً من هذه المظاهرة الورعة! إلا تشويق القارئ إلى معرفتها فلو رواها كان الخطب أيسر . وأما الثاني فهو أن الأمانة تقضي على من يتصدى لشرح ناحية من تاريخ الأدب أن يؤدي الأشياء على حقائقها التي هي عليها ، لأنه مؤرخ لا رجل تقاليد ورياء .

٦ـ قال ص٨٤ : « إن ابن عبد ربه كان مولعاً بوجه عام في المعارضة سواء أكان فيها انتقاد أم لم يكن . وقد كان في كثير من شعره الذي ذكره في العقد معارضاً لشعراء تقدموه . . . إلخ » وظاهر أن المؤلف فهم من معنى معارضة الشعر : الانتقاد وليس كذلك ، وإنما المعارضة أن يجري الشاعر مع شاعر آخر في وزن قصيدته ورويّها وموضوعها . وهي شائعة معروفة .

٧ـ استدل المؤلف من عدم ذكر توقيعات لأحد بعد المأمون على « أن الذي دس في المواضع السابقة قد فاته الدس هنا . وإن وقوف ابن عبد ربه عند المأمون ليحملنا على الظن أن أكثر الأخبار التي وردت في العقد عن خلفاء بني العباس ممن عقب المأمون دست على ابن عبد ربه إلخ » ولا يرد هذا كله لأنه من المعروف أنه ليس لأحد بعد المأمون توقيع يؤثر ويروى ؛ لضعف ملكات الخلفاء بعده ، وقلّة بضاعتهم من علوم العربية .

٨ـ وازن بين نثر ابن قتيبة ونثر ابن عبد ربه وذكر نماذج ثم ذهب إلى تفضيل الثاني على الأول ص١١٩ . والذي نراه أن الأمر على العكس وإن النماذج نفسها التي أوردها لا تؤيد رأيه . ومَرَدُّ الأمر في ذلك إلى الذوق والملكة ، ولكل امرئ منهما ما رزق .

٩ـ في الكتاب تطويل كان يحسن أن يتجرد منه . فالفصل الذي عقده لتشيع ابن عبد ربه والذي ملأ عشر صفحات (ص٦١ـ٧٠) لا محصّل له ، وهو غير وارد : لأن للتشيع مفهوماً اصطلاحياً لا يتحقق منه شيء في صاحب العقد ، ولا يشارك الشيعة في شيءٍ من عقائدهم ولا تبرئهم من بعض الصحابة ، وكل ما في الأمر أنه يحب آل البيت ويشيد بذكرهم ومناقبهم الصحيحة ، وهذا يشاركه فيه كل مسلم . والغريب أن المؤلف نفسه بعد أن يسود هذه الصفحات العشر يشعر بما قدمنا فيختم فصله بهذه الجملة : « ولعل تشيع ابن عبد ربه من النوع المعروف (بالتشيع الحسن) » .

وكذلك الأمر في فصل « نزعته المغربية ص٧٢ـ٧٥ » فكان من الخير أن يطويه برمته إذ لا نزعة مغربية عند صاحب العقد كما قرر المؤلف نفسه .

ويلحق بما تقدم فصل (نظره كمولى إلى العرب ص٧٧ـ٨٠) الذي حشر فيه المؤلف شبه شواهد لا تدل على شيء أبداً نقلها ابن عبد ربه ، وتكاد تكون في كل كتاب أدب ، وخاصة قصة الفقهاء الموالي ، فإن روايتها لا تدل على شيء في نفس ابن عبد ربه . والمؤلف نفسه يعترف بأنه لا يستطيع أن يجزم ، لأن صاحب العقد ناقل راوٍ ليس إلا . ففيم هذا التطويل إذن ؟

وهناك عدا هذه الفصول التي يجب حذفها تطويلات أُخر نذكر منها مثالين :

الأول : أن حاشيته على كلمة الصاحب : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » من التكلف الذي لا داعي له إلا حب الإطالة فليس من فائدة للقارئ في رجوعه إلى سورة يوسف .

والثاني : أنه أعاد رواية واحدة لابن خلكان مرتين في عشرة أسطر ص(١٢٥) .

١٠ـ كنا نحب للمؤلف أن يعرض كتابه على أستاذ بصير يصلح له لغته ، وإليك نماذج من غلطات الكتاب :

ص	الخطأ	الصواب
١	الشهير	المشهور
١ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٤	بالأخص	خصوصاً
١	بالأخيرة	بالأخير
	« قدميتها	قدمها (لا لزوم للنسبة إن كانت غير خطأ)
	« أثرت علي	أثرت فيّ
٢ ، ٢١ ، ٥٠	كما وأن	كما أن
٣	كلاهما قد استقيا	كلاهما قد استقى
	« لاسيما وقد	وقد (لاسيما لا يجوز أن تأتي بعدها الواو)
٤	لاسيما ونحن	ونحن
٤	وبالتالي لا نعلم	ولا نعلم
١٠ ، ١١	عائلة	أسرة

ص	الخطأ	الصواب
١١ ، ٢٠	عاصر	أدرك
١٥	وقتاً لا بأس به	وقتاً كافياً أو صالحاً
	« المرجح عندنا	نعم المرجح عندنا أنه كان يشربها (لا يقع الحرف خبراً)
٣٦	دور	لعلّها درر
٤٣	يخطأه	يخطئه
٤٦	وغيرها	وغيرهما
٥٠	امتاز عن تفرد	(أو فاق على)
٥١	عدا عما	عدا ما
٨٨	بني هاشم	بني العباس
٩٥	أمتع لك	أمتع بك
١١٤	فهل لأي من هاتين	فهل لإحدى هاتين
١٢٤	وها أنا	وها أنا ذا
	« وها أمامي صفحة	وها هي ذي أمامي صفحة
١٢٦	يحيطها	يحيط بها
١٤٣	(إنه) ذا نفس	ذو نفس إلخ .

وقد تجتمع الخمس من هذه الغلطات في بعض صفحة ، وتكون اثنتان في السطر الواحد . . .

١١ـ فنتمنى أن يعاد طبع الكتاب وأن يزيدنا المؤلف بياناً عن ميزات الطبعات المختلفة للعقد ، كما أننا نلفت نظره إلى أن صاحب العقد كثيراً ما يقول : وفي كتاب للهند ثم ينقل نصوصاً هي في كليلة ودمنة التي بأيدي الناس اليوم . انظر على سبيل المثال (١ : ٣٧) ، (٢ : ٣١) ، (٢ : ٤٣) إلخ[1] وهي مسألة جديرة بالدرس والبحث .

---

(١) العقد الفريد : المطبعة الأزهرية ، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦هـ .

١٢ـ عرضت أكثر ملاحظاتي ؛ لأن الموضوع هام ، والكتاب نفيس مفيد ، والجهود المبذولة في تأليفه كبيرة ، مع أني كنت أود لو تريث في طبعه وتروى أكثر .
وأنا أرجو للكتاب الرواج وللمؤلف الفاضل اطراد النجاح وأن يتدارك هذه العيوب في طبعة ثانية إن شاء الله .

نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر

(تحقيق الأستاذ ألفريد البستاني)

مقالة عرض فيها أستاذنا الكتاب ما له وما عليه .
وصحح ما وقع عليه من أغلاط .
نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
المجلد ١٦/ ٢٥١ ص٥٣٢-٧٣٢- عام ١٩٣٧م .

ما تزال نكبة الأندلس ونزوح العرب عنها النزوح المعروف أمره درساً ماثلاً في نفس كل عربي يثير فيها العبرة والدمعة معاً .

ولعل أغرب ما في هذا الدرس تلك الفوارق العظمى بين معاملة العرب للإسبان حين دخلوا بلادهم فاتحين ، ومعاملة الإسبان للعرب حين جلَوْا عنها نازحين .

وهذا كتاب لمؤلف مجهول حضر الوقائع الأخيرة بين العرب والإسبان ، وشاهد عن كثب ما صُبَّ على رؤوس المسلمين من البلاء من تقتيل وتعذيب ، ونهب أموال وسبي نساء وذراري ، وجلاء عن الأوطان ، واستباحة لحرمات الأديان ، ثم تفنن في استئصال البقية الباقية من شيوخ لا حول لهم على مشاق السفر وأطفال وأرامل أقعدهم الضعف[١] ، فكل يوم إحالات بالمئات على محاكم التفتيش ، وكل يوم إحراق وصلب وتعذيب في الساحات العامة ، حتى سئم الإسبان أنفسهم هذه المجازر البشرية التي راجت سوقها والتي أحرزت بها حكومة الإسبان حينئذ قصب السَّبق في الوحشية والقسوة والظلم .

وإليك كلمة المؤلف نفسه عن موضوع كتابه وخطته فيه قال : « أما بعد فهذا كتاب أذكر فيه نبذة من بعض تواريخ ما وقع في مدة الأمير أبي الحسن علي بن نصر . . . ابن الملوك النصريين ، ومدة ملك ابنه محمد وأخيه محمد أيضاً رحمهما الله ، وكيف استولى العدو على جميع بلاد الأندلس في تلك المدة ، وعوّلت في

---

(١) ص٤٤ ، ٤٥ .

ذلك على الاختصار ، وتركت التطويل والإكثار »[1] .

تجد في هذا الكتاب تفصيل حصار مدينة الحمَّة[2] ، وموقعة لَوْشة وانتصار المسلمين وفرار ابني الأمير ، وتألّب أهل وادي آش وغرناطة معهما وموقعة بلّش ، وموقعة اللسانة واستيلاء النصارى على حصن قرطمة ودكوين والرندة وموقعة المكين ، واستيلاء النصارى على حصن قنبيل ولوشة وإلبيرة ـ وحصار مدينة مالقة والبسطة وحصن الشلوبانية ، ثم حصار غرناطة وتسليمها .

وفي خلال ذلك تشاهد من ضروب البطولة التي أبداها العرب على قلّتهم ما ميزهم من جميع الأمم ، ولكن أمرهم كان إلى إدبار . **وأشد ما يفجعك هو خروج الخارجين على الأمراء ، وانقسام هؤلاء العرب القليلين بعضهم على بعض ، واستعانتهم** بعدوهم على قومهم وأهل ملتهم ، حتى إذا انتهيتَ إلى آخر الكتاب لم تملك دمعتك حين ترى آخر ملوك غرناطة يستعين بملك قشتالة على عمه ، وحين تشعر بخبث ملك قشتالة وروغانه وضرب أحدهما بالآخر حتى أضعف الأميرين معاً وذهبت القتلى من حزبيهما بالآلاف ، فكان ذلك أكبر العون في سقوط غرناطة آخر بلدة مسلمة في يد الإسبان .

وفي آخر الكتاب فصل قيم الفائدة في (نزوح مسلمي الأندلس إلى المغرب) وبيان المواطن التي حلَّها أهل كل بلد من الأندلس في المغرب . وتحسُّ في عدة مواضع من الكتاب أن مؤلفه كتبه وهو يتحرّق من الألم والتفجّع ، وتجزم حين تقرؤه أن قلبه يكاد يتفطر من لوعته ، وأن عَبْرته ما ترقأ ، اسمعه وقد صوّر لنا غدر ملك قشتالة بعد أن عاهد المسلمين المستضعفين ، وسلم لهم بكل شروطهم كيف « أخذ في نقض الشروط شرطاً شرطاً وبحلّها فصلاً فصلاً إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين ، وأدركهم الهوان والذلة . . . ثم دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه فدخلوا في دينه كرهاً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق من

---

(١) ص (١) .

(٢) ويقال لها : حمَّة بجانة ، وهي على ثلاثة أميال منها . وهي في جبل شامخ فيه معادن غريبة وحمة عجيبة الشأن . انظر الروض المعطار .

يقول فيها : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » جهراً . . وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالىٰ وتلاوة القرآن! فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعدمين لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين! قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ويأكلون لحم الخنزير ، ويشربون الخمر . . . فيا لها من فجعة ما أمرَّها ! ومصيبة ما أعظمها وأضرَّها ! وطامة ما أكبرها ! . . وعم الكفر جميع القرى والبلدان وانطفأ من الأندلس نور الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ولينتحب المنتحبون فإنا لله وإنا إليه راجعون[1] .

* *

نشر هذا الكتاب الأستاذ ألفريد البستاني من عدة مخطوطات ، وكتب مقدمته وحواشيه ، ووضع فهارسه ، وهو من منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو للأبحاث العربية الإسبانية بطنجة (المغرب) وتقرأ في مقدمة النشر كيف حصل على هذه المخطوطة التي اعتمدها والتي كتبت في القرن الثاني عشر للهجرة .

هذا ولست أقر الناشر في حكمه على بيان المؤلف بقوله : « أما من حيث اللغة فالاضطراب ظاهر في جميع النواحي »[2] ففي هذا الحكم مبالغة شديدة ، لأن الهفوات اللغوية من استعماله ضمير العقلاء لغيرهم كقوله : (وهدمهم [يعني الأبراج] ص٣٤) وحذفه نون الأفعال الخمسة من غير أن تسبق بناصب أو جازم كما سنشير إليه ، هذه الهفوات قليلة ، ولعلها من تحريف النساخ .

ومن الواجب علينا أن نعترف بأن الفهارس التي نشرها الأستاذ البستاني في آخر الكتاب قليلة الجدوى ، لأنها غير مرتبة على الحروف ، بل وضعت هكذا اعتباطاً على غير قاعدة ، وإذا لم يراع في الفهارس ترتيب ما فما ندري ما وجه إثباتها ؟ وهناك حاشية معادة (ص٦ و٢٣) وخطأ في قراءة المخطوطة كما سيأتي .

---

(١) ص٤٤ ، ٤٥ .

(٢) ص١٩ .

وفي الكتاب أغلاط كثيرة كان على الناشر الفاضل أن يعرضه على أخبر منه في العربية ليتداركها له ونحن مشيرون إلى أهمها :

فمنها ما يعود إلى الرسم كهذه الكلمات :

تحيىٰ وصوابها تحيا ـ دعى وصوابها دعا ـ الأستأذان وصوابها الاستئذان ـ فثقفنا وصوابها فاتفقنا ـ مؤريخي : مؤرخي ـ المبديء : المبدئ ـ المنشيء : المنشئ ٢ علي ابن سعد : علي بن سعد ـ ٦ عن من : عمن ـ ٣٥ أولائك : أولئك ٤٤ سبى نسائهم : سبى نساءهم ـ ٥٩ بنوا عبيد : بنو عبيد ، بنوا منديل : بنو منديل .

ومنها ما يعود إلى ضعف في عربية الناشر وخطئه في قراءة المخطوطة وعدم اهتدائه إلى تحريف النساخ والإشارة إلى الصواب فيه :

خطأ	صواب	خطأ	صواب
حدوث	حروب	٢٩ مدافاً	مدافعاً
٥ انبثها	اثبتها	٣٦ فارتحل	ارتحل
الانتفاض	الانتقاض	٤٠ المسلمون	المسلمين
٧ يأمراهم	يأمرانهم	٤٤ والمعدومين	والمعدمين
بل والدنو	بل الدنو	٤٦ زمامتهم	ذمامتهم
٨ يعلموهم	يعلمونهم	٤٧ أن يعينونه	أن يعينوه
٢٤ نفذ	نفد	٤٧ ثلاثة سنين	ثلاث سنين
٦٦ وقُتل منه خلقاً:	وقتل معه خلق	٧٧ ليعاقبونهم	ليعاقبوهم

وهناك نقص وإبهام في بعض الجمل فقوله ص٨ (نعمل الحيلة في الدخول عليهم والتقصير والتفريط) . فيه نقص لم ينتبه إليه الناشر وقوله ص٢٧ (ولم يتركو شيئاً إلا سقف المدينة خاصة) وص٤١ (أضمروا عليه إلا عفوهم من حينهم) مما لا يفهم ففي الجملتين تشويه كان على الناشر أن يجتهد في إزالته ليتضح معنى المؤلف .

وهذه المآخذ كثيرة في هذه الرسالة الصغيرة التي لا تتجاوز ٤٨ صفحة .

وهذا بعض ما رأينا في مقدمته هو من أغلاط عدا التي مرت في أغلاط الرسم بالرقم الفرنجي :

ص	خطأ	صواب	ص	خطأ	صواب
٣	فهابهم جلال المكان	فهابوا جلال المكان	١٣	الأمتين التي	الأمتين اللتين
٨	الخضيل	الخضل	١٧	عدا عن الأغلاط	عدا الأغلاط
١١	سوريا	سورية	١٩	لوحده العصمة	له وحده العصمة
١٢	يغيرون	يغارون			

وقوله ص١١ : (بينما كان العراق يتفرس وسورية تترك ومصر تتطور بتأثيرهم وتتأثر بتطورهم) غير صحيح ولو قال كاد بدل كان لكان لذلك وجه .

ولا تخلو لغته من ركاكة كتتابع الإضافات في قوله ص٧ « من تاريخ مراحل آخر أيام مجدك » وكقوله ص١١ : « بدرجات سلم المقاييس الأدبية المرهونة بحرارة مزاج أعصاب الفاتحين » .

ومع أملنا الوطيد في أن الأستاذ البستاني سيأخذ نصيحتنا المخلصة أخذ الغيور على لغته ، ليس يسعنا إلا أن نثني على عاطفته العربية الحارة التي أشعرنا بها في أول الكتاب ، وأن نتمنى على الله أن يوفقه في نشر تحفنا الضائعة ، وأن نعود فنشكره في هذه المجلة ثانية وثالثة إن شاء الله .

الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة

للإمام الزركشي

مقالة عرض فيها أستاذنا الكتاب ، معرّفاً بصاحبه .
نشرتها مجلة الثقافة القاهرية في العدد ١٩ ، السنة الأولى عام ١٩٣٩م

تحت قبة الملك الظاهر في دمشق ، حيث أودعت الكنوز المخطوطة من تراثنا العلمي ، رسالةٌ قيمة فريدة اسمها (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة)[١] للإمام بدر الدين الزركشي الشافعي المتوفى سنة ٧٩٤هـ .

وظاهر من العنوان موضوع الرسالة ، فهي مخصّصة في نقد السيدة عائشة لعلماء الصحابة في رواية حديث أو استنباط حكم أو تفسير آية . وعلى قلة من عُني بنواحي المرأة من المؤلفين ، نجد في هذه الرسالة الصغيرة الحجم ما يشفي الغليل في تبيين المدى الذي بلغته المرأة في أول تاريخنا .

لم يرد لهذه الرسالة ذكر في فهارس المكتبات العامة ، ولم يذكرها بروكلمان ، حتى فهرس المكتبة الظاهرية المطبوع خلا من الإشارة إليها ؛ وعلى هذا ـ ولما يأتي بعد ـ تكون وحيدة في العالم .

وقد قرأها على المؤلف نفسه، ولده محمد الزركشي وإخوته حتى الصغار منهم .

وتاريخ كتابتها قبل سنة ٧٩٠هـ ، لأنها أهديت إلى القاضي برهان الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٩٠هـ[٢] .

---

(١) سينجز طبعها في شهر أيار (مايو) مقدمة بفصل ضاف ومذيلة بحواش وفهارس ، في المطبعة الهاشمية بدمشق .
قلت : وقد صدر عام ١٩٣٩م كما وعد رحمه الله .

(٢) هو : إبراهيم بن عبد الرحيم بن البدر محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي الأصل المقدسي له ترجمة في الذيل التام على دول الإسلام للسخاوي ١/ ٣٥٠ .

هذا ويشبه أن يكون الكتاب ثلاثة أبواب :

الأول في خصائص عائشة ، وقد أبلغها المؤلف فوق الأربعين .

والثاني في استدراكاتها على الصحابة .

والثالث في استدراكات عامة .

ويكاد يكون هذا الكتاب جمعاً لمسائل تفرقت أشتاتاً في بطون كتب الحديث والفقه ، وإن دل على شيء فعلى[1] إحاطة الزركشي الواسعة وبصره في الحديث . فنحن لا نقع في أغلب الرسالة إلا على نُقول من كتب نعرف بعضها الآن ونجهل بعضها . إلا أن هذا الجمع الذي يظنه الجاهلون في متناول يد كل أحد ، أو يزعمونه أيسر مشقة من التأليف ، يدل ـ فيما يدل ـ على علم غزير ونقد سديد وعقل يعرف ما يأخذ وما يدع .

وشخصية الزركشي المؤلف لا تبرز للقارئ إلا في موضعين : أما الأول ففي خطبة الكتاب حيث يكون مولعاً بالسّجع الذي لا يدخل القلب ، وبإطراء القاضي الذي أهدى إليه مؤلفه ، وهذا أمر غير ذي بال ؛ وأما الثاني فيدل حقاً على موهبة في النقد حصيفة وأدب مع العلماء لطيف . فقد أنهى في الفصل الذي عقده لخصائص عائشة ، الخاصة السابعة ثم قال : « تنبيه جليل على وهمين وقعا في حديث الإفك في صحيح البخاري » نفى فيه نفياً قاطعاً ما جاء في البخاري[2] من أن الجارية التي سألها الرسول هي (بريرة) واستعرض روايات عدّة فمحصها ودعم رأيه بالأرقام والتواريخ مما لا سبيل إلى سرده . قال في خاتمة نقده :

« وهذا كثيراً ما يقع في الحديث من تفسير بعض الرواة ، فيظن أنه من الحديث ، وهو نوع غامض لا ينتبه له إلا الحذاق » . واعتذر للإمام البخاري اعتذاراً لطيفاً ، وبعد أن ذكر الوهم الثاني قال : « ومن نظائره ما وقع للترمذي وغيره من حديث . . إلخ » فوهّم الذين ذكروا بلالاً مع أبي بكر في خروج النبي مع عمه أبي طالب إلى

---

(١) قلت : هذا أسلوب غلّطه أستاذنا من قبل ، والأشبه لو قال : « هو يدلّ فيما يدل على . . . » كما سيأتي بعد قليل .

(٢) رواه البخاري رقم ٤٤٧٣ في تفسير سورة النور .

الشام للتجارة ، وبلال إنما اشتراه أبو بكر بعد مبعث النبي وإسلامه .

**

وإليك أنماطاً مختلفة من استدراكات عائشة ، وهي تارة تكون بلهجة رقيقة عذبة ، وتارة بكلام فصل قاس عنيف ، وآونة مشفوعة بنكتة لاذعة أو تبكيت قارع :

بلغتها رواية عمر عن النبي ﷺ قوله : « إنّ الميت ليعذَّب ببكاء الحي » ، فأنكرت ذلك ، وبينت أنه إنما حكى حال يهودية يبكي أهلها عليها ، وشفعت إنكارها بحجة قاطعة قائلة : إن الله لا يعذّب المؤمن ببكاء أحد . حسبكم القرآن : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام ٦/ ١٦٤] ومواضع أخرى . واعتذرت لعمر بقولها : « رحم الله عمر ما كذب ، ولكنه أخطأ أو نسي » .

وازن هذا بلهجتها مع أبي الدرداء ، فقد بلغها قوله : « من أدركَ الصُّبح فلا وِتْرَ له » فقالت : « لا . كذب أبو الدرداء . كان النبي ﷺ يصبح فيوتر » . هكذا أرسلت كلمتها صريحة شديدة لا لين فيها ولا مداراة .

أما تنكيتها فعذْبٌ لاذع معاً : ذكر لها أن ابن عمرو بن العاص يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن ، فقالت : « يا عجباً لابن عمرو! يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن ، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن ؟ لقد اغتسلت أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد ، وما أزيد أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات » . وظرفها في قولها : « أفلا يأمرهنَّ أن يحلقْنَ » لا يحتاج إلى تنبيه إليه .

وأبو هريرة ، وما أدراك ما لقي من السيدة في سبيل أحكام وروايات يرسلها على غير وجهها . كانت تسلط عليه فكرها الثاقب ، ونقدها الصائب ، وحفظها الواعي ، فتتضاءل رواياته ثم يُذْعن لأقوالها لا يحيرُ جواباً .

ويلاحظ أنه كان في أكثر مواقفه ميالاً إلى التشديد ، فكانت ترده إلى اليسر والسعة والرخصة ، وكثيراً ما فاته أول الحديث ، وتعلق حفظه بجملة من آخر فحكم بها ، وهو لا يدري أنها وردت في كلام الرسول عليه السلام في معرض الحكاية أو الإنكار . وإليك مثلين تقيس عليهما سائر استدراكات السيدة على أبي هريرة :

قالوا لها : إن أبا هريرة روى عن النبي أن : « الشؤم في ثلاثة : في الدار ، والمرأة ، والفرس » فتستغرب السيدة تسرّع أبي هريرة إلى الرواية وتقول : « لم يحفظ أبو هريرة . إنّه دخل ورسول الله ﷺ يقول : « قاتل الله اليهود يقولون : الشؤم في ثلاثة : في الدار ، والمرأة ، والفرس » فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله » والغريب أن هذا القول البعيد عن روح الإسلام لا يزال يعتقد به أشباه العوام حتى يومنا هذا ، على رغم تصحيح السيدة له منذ ثلاثة عشر قرناً .

أما المثل الثاني فما روىٰ أبو هريرة عن النبي في الشِّعر وأنه قال : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً » . ولما بلغ السيدة روايته ارتاعت لها وقالت : « لم يحفظ أبو هريرة الحديث ، إنما قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هجيتُ به » . وهكذا أنقذت بسعة علمها وجودة روايتها ودقتها ثروة طائلة من الكلام الجميل حرمها أبو هريرة بشطر حديث . والغريب حقاً أن كثيراً من العلماء يذهب إلى التحرج من قول الشعر وروايته ويراه عبثاً ، ثم يستشهد بالحديث الناقص الذي يرويه أبو هريرة!

أظن في هذا القدر كفاية في التعريف بهذه الرسالة الجليلة ، وإنما استطعت أن أقفك على الموضوع وأنماط منه تدل على باقيه ، وأنك عرفت الذروة الشامخة التي احتلتها المرأة في صدر الإسلام ، وأنها بقيت مرجع مشيخة المهاجرين والأنصار ، والعلماء الأجلاء ، وأن دوحتها في العلم كانت من السموق بحيث تتقطع دونها أعناق الأحبار الفحول . وأرجو الله أن يوفق في تقديمها لك مطبوعة مخدومة في هذه الأيام إذا يسر وأعان .

مصطلح التاريخ

للدكتور أسد رستم

مقالة يعرض فيها أستاذنا الكتاب موضحاً ما له وما عليه .
نشرتها مجلة الثقافة القاهرية في العدد ٩٠/ السنة الثانية/ عام ١٩٤٠م

أخرج الدكتور أسد رستم هذا الكتاب في ٢٢٨ صفحة من القطع الوسط بحرف جميل على ورق صقيل . وجعله أحد عشر باباً هذه موضوعاتها : التقميش (جمع الأصول) ـ العلوم الموصلة ـ نقد الأصول ـ تنظيم الأصول ـ تفسير النص ـ العدالة والضبط ـ إثبات الحقائق المفردة ـ الربط والتأليف ـ الاجتهاد ـ التعليل والإيضاح ـ العرض . ثم ختمه بفهرس أبجدي عام(١) .

يدعو المؤلف الفاضل في كتابه هذا المؤرخين إلى أن يتقبلوا طريقة المحدِّثين في التثبت والدقة والتحري ، وأن يستفيدوا من قواعدهم التي وضعوها في الجرح والتعديل ونقد النص ، ويفاخر الدكتور رستم بسبق المحدِّثين إلى هذه القواعد الجليلة التي تفوق دقة وضبطاً ما وصل إليه أساطين علماء التاريخ ونقدته في أوربة وأمريكة .

أما تقسيم كتابه إلى الأبواب المتقدمة فقد أراد فيها أن يساير المراحل التي يجتازها كل مؤلف من حين يشرع في جمع أصوله حتى ينجز عمله .

فأنت ترى أن الفكرة واضحة معروفة مسلمة لا مجال فيها لأخذ ولا رد .

وقد احتاط الدكتور فعرض كتابه على الأستاذين الشيخ محمد العربي والشيخ بهجة البيطار ، وبهذا أشرك غيره في التبعة .

قرأت الكتاب بشغف وقد وقفت فيه مواقف أنا عارض لأكثرها بالإشارة هنا :

---

(١) قلت : الصواب : (ألفبائي) .

١ـ مع تسليمي بالفكرة التي يدور عليها الكتاب أرى أن عيبه الظاهر في شواهده ؛ فهي تتصف بالطول الممل مع ضعف الارتباط بينها وبين ما سيقت من أجله في مواطن ، وتهافتها هي نفسها في مواطن ؛ فتراه ينقل عن كتاب لابن تيمية في التفسير ما يملأ خمس عشرة صفحة من (٧١ـ٨٥) والعلاقة بين ما قرره وبين الشاهد ليست من القوة بحيث تقتضيه هذا الطول في الاستشهاد ، وكان يكفي أن يشير إلى ملخصها إشارة . وقل نحواً من هذا في نقله عن مقدمة ابن الصلاح وابن خلدون ما ملأ ثلاثاً وعشرين صفحة متتابعات (١٠٧ـ١٣٠) ومثلها (من٢٠٠ـ٢٠٣) . ومن الشواهد التي فيها بعض التهافت ما ذكره لزميله جبرئيل جبور (ص٢٧ـ٣١) عقب كلامه على تزوير الوثائق والدس فيها . وكتاب جبور (ابن عبد ربه وعقده) الذي نقل الدكتور رستم شاهده منه ليس مما يثبت للامتحان[1] وإنما هو محاولة جاز بها صاحبها امتحان الجامعة الأمريكية ببيروت . ذهب فيه السيد جبور إلى أن بعض فصول العقد الفريد مدسوس على صاحبه ، وأورد لإثبات ذلك توجيهات بعضها صحيح وهو ما سبق إليه (نولدكه) وبعضها لا ينهض دليلاً لتطرق الاحتمال إليه ، وهو ـ على ما ذكرنا في مجلة المجمع العلمي العربي ـ أن المؤلف استدل من عدم ذكر توقيعات لأحد بعد المأمون على « أن الذي دسّ في المواضع السابقة قد فاته الدس هنا . وإن وقوف ابن عبد ربه عند المأمون ليحملنا على الظن أن أكثر الأخبار التي وردت في العقد عن خلفاء بني العباس ممن أقعد المأمون دست على ابن عبد ربه » . ولا يرد هذا كله لأن من المعروف أنه ليس لأحد بعد المأمون توقيع يؤثر ويُروىٰ ، لضعف ملكات الخلفاء بعده وقلة بضاعتهم من علوم العربية .

وهناك شاهد آخر طويل في غير طائل أورده الدكتور زميله جبور كدرس وتطبيق في نقد الرّوايات ، عرض فيه لموت ابن أبي ربيعة ، وقد شغل من كتاب الدكتور خمس عشرة صفحة (١٦٠ـ١٧٥) استعرض فيها روايات تقول بموته في الشام ، وأخرى منفياً بدَهْلَك[2] ، وثالثة بموته غازياً في البحر ، فتكلف غاية التكلف ليصف

---

(١) قلت : وقد تقدّم عرض الأستاذ لهذا الكتاب قبل قليل .

(٢) هي جزيرة في بحر اليمن . انظر معجم البلدان ٢/ ٤٩٢ .

هذه المصادر بالوضع والتلفيق ، ثم ضرب بهذه الروايات كلها عرض الحائط ، واخترع لعمر بن أبي ربيعة مدفناً لم تقل به رواية قط فقال : « أغلب الظن إذن أنه مات بمرض ربما في اليمن »!!

ومن وصل في قراءة هذا الكتاب إلى هذا الموضع يجد أغرب الأمور في تعصب الزملاء بعضهم لبعض . والصحيح أنه كان على الدكتور وهو يضع كتاباً للذين يريدون أن يتعلموا التاريخ أن ينتقي لكتابه شواهد أحكم أساً ، وأسدّ منطقاً ، وأمتن طريقة .

٢ـ قال في ص ز : « إن أكثر مؤرخينا يزعمون أن كتابة التاريخ لا تتعدى نقل الرواية والإلمام بقواعد اللغة » ونحن نريد للدكتور وقد حاول أن يُحبِّب للناس تحري أهل الحديث ودقتهم أن يكون هو نفسه عاملاً بما يدعو إليه ؛ بل له أن يذكر لنا كيف استقرى أحوال مؤرخينا بعد أن أحصاهم عداً ، وكيف وجد أكثرهم يفهمون التاريخ هذا الفهم الضئيل المنحط ؟ ليتفضل وليذكر لنا أسماء مؤرخينا هؤلاء ، وإذن يسلم هو نفسه من اختلاق الأحكام اختلاقاً ، ومن ارتجال الطعن ارتجالاً .

٣ـ في نقله عن رسالة ابن تيمية ص٧٣ هذه الجملة : « والأئمة المهديين مثل عبد الله بن مسعود » وقد علق عليها : « الأصل : المهذبين وعبد الله . . » وليس من الأصول المرعية في إخراج النصوص أن يزاد فيها ما لا تقتضيه ، ونرى صحة العبارة هكذا : « المهديين وعبد الله بن مسعود » .

٤ـ استعمل أرباب الثقافة الإسلامية اسم (الآلات) لما سماه المؤلف (العلوم الموصلة) وعنوا بها كل ما يلزم لفهم الشريعة من نحو وصرف وبلاغة ومصطلح حديث وأصول فقه ومنطق . . إلخ . هذا والاصطلاح المعروف كلمة واحدة فآلات التاريخ خير من العلوم الموصلة للتاريخ .

٥ـ تعرض (ص١٤٦) لحملة محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا في الشام ، فصور جبل لبنان في صورة المطيع المساعد ، وصور دمشق في صورة المتقاعسة بل المتطرفة في عداء الشقيقة مصر ، وبذلك حمل الحوادث ما لا تحتمل ؛ ولولا أنا نظن في المؤلف الظن الحسن لما كان لكلامه هذا من غرض سوى التفريق بين مصر

والشام . إذ يعرف من له أدنى إلمام بالأحوال السياسية لتلك الحقبة أنه لا جبل لبنان نهض لمساعدة الشقيقة ولا دمشق تطرفت في عدائها ؛ وكل ما في الأمر أن مناوأة الدولة العثمانية كان من خطط الإقطاعيين المتسلطين على جبل لبنان ، وأن الحملة المصرية وافقت هوى هؤلاء في إيقاع الضرر في الدولة ، وأن الشاميين دفعوا للقاء الحملة المصرية دفعاً لقوة نفوذ الدولة في الشام وضعفه في جبل لبنان . والحق أنه لم يكن حينئذ في ديار الشام (وفيها جبل لبنان) ما نفهمه اليوم من رأي عام ولا إرادة شعب .

٦ـ كنت أحب للمؤلف وكتابه محاولة تعرف مدى نجاحها في ختام هذه الكلمة ـ أن يعفي نفسه من العبارات التي يتبجح بها بعض الأساتذة والمؤلفين بعد أن يبذلوا جهداً ناجحاً : عرض لمسالة تنازل المتوكل على الله آخر الخلفاء بمصر للسلطان سليم ، فبعد أن ذكر نفسه نحواً من خمس عشرة مرة بضمير الجمع من مثل قوله « رأينا ، بحثنا ، كتبنا . . إلخ » ، قال (ص١٩٤) : « بعد أن أتممنا جميع ما تقدم كتبنا إلى صديقنا المرحوم أحمد زكي باشا نستشيره في الأمر ، فأصدر رحمه الله حكماً مبرماً . . . أما نحن فإننا ترددنا في الأمر ، كثيراً . . . » وكذلك قوله (ص٥٣) : « لم نوفق دائماً إلى الفوز في تحري النص كما توفقنا هنا . ونوافق الأستاذ شارل لانجلو الإفرنسي في قوله : إن تحري النص في مثل هذه الأحوال هو نوع من المغامرات التي يتوقف النجاح فيها على ذكاء المؤرخ المدقق وسعة اطلاعه وسلامة استنتاجه » وتستفيض أمثال هذه الإعلانات عن النفس في صحف الكتاب . وهذه العبارات تعيب كتب الأثبات المحققين .

٧ـ وبعد فقد رد المؤلف على من ذهبوا إلى أن « من شروط الطريقة العلمية في البحث ألا يعمد المؤلف إلى هذه الأساليب الشائقة في عرض الحقائق ، كأنهم يزعمون أن العلم يتنافى معها » رد عليهم بقوله (ص٢١١) : « من يدري ؟ فلعل الدافع عند هؤلاء إلى مثل هذه الأحكام ضعفهم في الأداء وعدم تمكنهم من ناحية اللغة وقصورهم عن إيجاد التعابير الشائقة » ثم قال : « فواجب المؤرخ إذن أن يجيد اللغة التي يصطنعها لتدوين حقائقه وعرضها ، بحيث لا تعوزه معرفة قواعد اللغة

ومفرداتها وبيانها . . . » إلخ .

وإذا طبقنا هذا الكلام على لغة الكتاب جزمنا بجرأة المؤلف في إقدامه على طبعه في هذا الثوب . وأنا لست أدري من حرم على البحث العلمي الأساليب الشائقة ، وإنما أدري أنه لا محل في البحث العلمي للعب بالترادف ولا اللغو من الألفاظ ، فالتكرار الذي في مثل قوله ص١ : « إذا سطت محن الدهر أو عوادي الزمن » . وقوله ص٣٥ : « قلبنا الطرف فيها ، ونظرنا في أعطافها ومطاويها » لغو الكلام .

هذا ، ولا بد أن نشير إلى بعض أغلاط وصوابها وإلى جمل ركيكة مستفيضة فيه لنكون عن لغته فكرة صحيحة :

ص	خطأ	صواب
٦	إن مؤرخي العصر . . . فهم يفوقونهم	إن . . . يفوقونهم
٧	وإذا فعل سرعان	وإذا فعل فسرعان
٣٨	فحصنا	امتحنا (أو اختبرنا)
٤٥	الشهيرة	المشهورة
»	على خطاها	على خطئها
٨٨	وتناولها بها	وتناولها بهما (لأن الضمير يعود على الأصبعين)
٩٣	العروش الكنيسية	العروش الكنسية
١٠٥	لم يرتب فيه حرف منه	لم يرتب في حرف منه

وهاك نمطاً من جمله غير المفهومة أو الواضحة الركاكة

ص٤ : وبطبيعة الحال يصبح هذا البعض ما يسهل علينا الوصول إليه .

ص٤ : الحقيقة هي كل الحقيقة لا بعضها .

ص٦ : في تأسيس أو تشجيع الكتاب .

ص٣٨ : وجدنا أن نفسها هو نفس مخطوطتنا .

رحلة الوزير في افتكاك الأسير

للوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني

تحقيق الأستاذ ألفريد البستاني

مقالة يعرض فيها أستاذنا الكتاب بما له وما عليه ، ويذكر مآخذه على التحقيق

نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ١٦/ ١ ، ٢/ ص٢٦٩-٢٨٧- عام ١٩٤١م

السلطان المظفر مولاي إسماعيل من أعاظم سلاطين المغرب ، وأكثرهم حزماً وعقلاً ودهاءً وضرباً في الأرض في سبيل التوسع . بويع سنة ١٠٨٢هـ (١٦٧٢م) « فنهض بأعباء الملك وضبط الأمور بشدة وحزم ، فتمهدت له البلاد ، ودان له قريبها وبعيدها ، وأخمد ثورة مراكش وثورة فاس . فلما دانت له البلاد المغربية من أقصاها إلى أقصاها بعد معارك وحروب طويلة واستتب الأمن في الداخل ، وأجبر الإنكليز على الانسحاب من طنجة سنة ١٦٨٤م ، واسترجع العرائش من الإسبان سنة ١٦٨٩ وضرب الحصار على سبتة ، فكر في الفتوحات الخارجية : فاستولى على تخوم السودان وبلغ فيها إلى ما وراء النيل ، فانتشرت دولته وامتدت مملكته من جهة الشرق إلى قرب بلاد بكرة ونواحي تلمسان .

فهابته دول أوربة وتسابق ملوكها وسلاطينها إلى خطب وده والتقرب إليه ، فبادلهم الولاء ، وإبرام معاهدات الصداقة ، وإرسال السفراء .

وكان أقربهم إليه الدولة الإسبانية فبعث إلى ملكها كارلوس الثاني وزيره « محمد ابن عبد الوهاب الغساني »[١] سفيراً في أمرين هامين : تخليص الأسرى المسلمين

---

(١) ص٩ . له ترجمة في الأعلام ٦/ ٢٥٦ . وفيه وفاته سنة ١١١٩هـ - ١٧٠٧م .
قلت : ذكر أستاذنا أن سبب بعثه أمران هامان : تخليص الأسرى المسلمين وسها عن الثاني : وهو جلب ما بقي في الأندلس من الكتب العربية .

وهو ذو مغزى ، فقد عرفنا منه أن الإسبان على عهده « كان لهم سوق عامة في فسيح من الأرض يقوم موسمها خمسة عشر يوماً في السنة (ص٣٥) على مثل ما كان عليه العرب في جاهليتهم وصدر إسلامهم ، وأن من (الاكتيربكيين) من يختصي لتحسين الصوت وترقيقه (ص٣٦) ، وأن القوم كانوا يرتعون في بحبوحة من غنى مستفيض عقب استيلائهم على أمريكة فترفعوا عن التجارة والتقرب والمهن ، وصار أكثر من يقوم بذلك عندهم نزلاء فرنسيين لأن بلادهم كانت ضيقة المعاش (ص٤٤) ، ونرى (ص٤٦ ـ ٥٦) معلومات طريفة عن أولية البيت المالك في إسبانية ، ولم ينس أن يفيدنا عن سبب بناء الإسكوريال (ص٤٨) ، ولا أن يصف لنا نظام تولية البابا ص٦٧ ، ولا تصوير الانزلاق على الجليد تصويراً لاذاً (ص٥٩) ، كما لم ينس نعت مقابلته لملك إسبانية ووصفه ونعت قصره وحاشيته وطراز حياته ، ولا الساحة العامة في مدريد ، ولا مصارعة الثيران ، ولا المشافي (البيمارستانات) وعنايتهم بالمرضى إلخ . ثم لم يهمل أن يطلعنا على اهتمام القوم بالأخبار الخارجية ، فقد عرف من منشوراتهم [جرائدهم] (ص٧٩) أخبار السلطان سليمان القانوني وحربه مع إمبراطور ألمانية وإزماعه حصار ويانه . كما عرفنا كثيراً عن التاريخ الدولي إذ ذاك وأيقنا بأن الوزير المؤلف خبير بعلاقات الدول دارس لتاريخهم درساً جيداً ، عليم بشؤون عصره وتفاصيل الحوادث ، فهو رجل دولة .

ويكاد ما ذكره ص٨٣ ـ ٨٥ عن عاداتهم في الميراث وحوادثهم فيه ودقائق أموره سواء كان الموروث لقباً أو مالاً أو عقاراً . . يكون نظاماً كاملاً في الإرث .

ومما يدل على فطنته وبعد نظره أنه تكهن بوراثة أمير فرنسي لعرش إسبانية قبل حرب الوراثة الإسبانية ، وترشيح فيليب آنجو للعرش (ص٨٥) وكان دقيقاً جداً حين علل شروع الإسبان بتعلم الفرنسية إلى آخر ما في الرحلة من فوائد » .

وذيل كتابه بفصل ممتع عن دخول العرب للأندلس وأحداثها الأولى ، وعرفنا أنه دخلها رجل واحد فقط من أصاغر الصحابة مع موسى بن نصير اسمه المنيذر الإفريقي وساق حديثاً عنه عن النبي ﷺ .

ومما يبعث على الإعجاب العظيم في هذا الفصل ويثير في العربي بل في كل

إنسان أنبل الشعور وأسمى العواطف ما ذكره ص١١٥ من عادة خلفاء بني أمية بدمشق من أنهم « إذا وردت عليهم الجبايات استقدموا مع جباية كل موضع عشرة رجال من وجوه رجاله وخيارهم فلا يدخل بيت المال من الجباية لا دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو : ما فيها دينار ولا درهم أخذ إلا بحقه ، وأنه أفضل أعطيات أهل البلد من العيال والذرية!! » .

الحق أن الحضارة تحتاج إلى قرون كثيرة حتى تسمو إلى فهم الإسلام والمسلمين .

* *

وبعد فهل علي من حرج إذا أنا أثنيت على المؤسسة التي تعنى بإخراج مثل هذه الكتب ونبشها من قبورها فتضيف إلىٰ تاريخنا صفحات مجيدة ، وإذا خصصت بشكري الأستاذ ألفريد البستاني الذي توافر ـ على قدر طاقته ـ على نشره كتابنا بهذه الحالة . وأرى من تمام شكري لهذا السيد أن ألفته إلى أمور لا يجهلها في أصول نشر المخطوطات منها :

١ـ إننا لم نعرف قيمة المخطوطات الثلاث التي اعتمد عليها ، ولا تاريخ كتابتها ومن الواجب أن ينشر صورة فوتوغرافية لأول صفحة وآخر صفحة منها .

٢ـ الكتاب يكاد يكون حديثاً واحداً غير متميز الأجزاء ، ومن أولى واجب الناشر أن يبوبه ليستريح القراء عند أول كل موضوع جديد . والكتاب ١٢٠ صفحة لم يذكر الناشر الواجب عليه إلا في نحو خمس صفحات .

٣ـ نعيد هنا ما لاحظنا عليه في كتاب آخر[١] . وهو أن الفهارس قليلة الغناء ؛ لأنها لا تخضع لترتيب ما ، فلا هي مرتبة على الحروف العربية ، ولا الإسبانية ، ولا على ترتيب القدم في الزمن . ونزيد هنا أن أهم الفهارس التي على المؤلف إثباتها ولا يستغنى عنه قط وهو فهرست الموضوعات ، قد أهمله الناشر إهمالاً تاماً ، وصار الذي يريد أن يرجع إلى حادثة في الكتاب مضطراً إلى إعادة قراءته من أوله

---

(١) قلت : هو كتاب (نبذة العصر في أخبار بني نصر) وقد تقدّم عرضه .

حتى يظفر بضالته ، وهذا عيب في النشر كبير .

٤ـ هناك بعض جمل غامضة أو محرفة لم يجتهد الناشر في معرفة صوابها ، ولم يشر إلى استشكاله إياها : كقوله : ص١ « وتصرفه الكلية . . . بالبيض المحامي » وتقديره ما أنفق على منبر جامع قرطبة بـ (٥٣٥) دينار ، فإن الصواب فيه ما ذكر في حاشيته ص٢٢ وهو (١٥٣٥) دينار ، وللناشر أن يستصوب ، وقوله ص٢٧ « والمتجالات » لم نفهم المقصود منها فإما أن تكون محرفة ، وإما أن يكون لها معنى محلّي على الناشر أن يوضحه . ونرجح أن هناك خرماً بعد السطر الثامن عشر ص٩٥ لأن الجملة ناقصة ، وقوله ص٩٦ الرجل إلى مد جرة الماء متبعوه ، وص٩٨ (قنانيط وحجاب كيبار ؟) مما لم نفهمه .

٥ـ ملاحظة الناشر ص٣ أن المؤلف خلط بين طارق بن زياد وطريف بن مالك غير صحيحة أبداً ، وكل ما في الأمر أن الناسخ أخطأ فكتب طارقاً وهو يريد طريفاً ، وذلك في صفحتي ٥ ، ٧ بدليل أن الكلمة في مخطوطة بني بوزين (رقم٢) جاءت صواباً (انظر ص٥) . فعلى من يقدم على تخطئة المؤلفين أن يتثبت ويتروى طويلاً .

٦ـ وجدت في الكتاب هذه الجمل الملحونة : « ص٢٤ يزعمونه النصارى ، ص٢٥ يتولونها بقايا ص٢٧ يحطن به أربعة عجائز ، ٢٩ طلبوا أهل ص٨٦ لا يقدرون أهل الصليب ، ٩٦ ما يلقونه عليهم معلموهم ، فلم يفهموه جميع النصارى ، ٩٩ العشر كلمات ، يسمع لهم (أي النواقيس) صوت ، ١٠٠ خمس طواغي ، مسجد طليطلة وقرطبة وإشبيلية الشهيري الذكر ، ١٠٦ كل ناقوس منها ست وثلاثين شبراً » وظاهر أن جمع الضمير في الجمل الثلاث الأولى لغة ضعيفة وكذلك في (ص٦٢ ويأتون بهم ويدخل إليهم (يقصد الثيران) و٦٤ و٦٦ إلخ .

وإن الصواب في الرابعة : العشر الكلمات ، وإن ضمير الذكور العقلاء في الخامسة خطأ وكذلك الصواب في الشهيري : الشهيرة أو المشهورة لأنها صفة ما لا يعقل ، والصواب أيضاً أن يقول : خمسة طواغي ، وستة وثلاثون شبراً . هن غلطات ست يستطيع الإنسان أن يحملها المؤلف كما يستطيع أن يجعل أكثرها من

تحريف الناسخين وهو ما أجزم به ، وكيفما كان فليس من السائغ أصلاً أن يقول الناشر : « أما الرحلة فإنشاؤها مضطرب وتعابيرها ركيكة تظهر عامية أحياناً »[1] والصحيح أن لغة الرحلة سلسلة صحيحة لا عامية فيها ولا ركاكة ، بل الإنشاء قوي متين كما أحس به المستشرق الفرنسي البحاثة هنري بيرس[2] على أعجميته . وجودة الوصف والإنشاء في الرحلة مما لا ينبغي ـ كان ـ أن يخفى على أحد .

٧ـ حذف الناشر ثلاث صفحات من الرحلة وصف فيها المؤلف « بصورة مشوهة ارتداد (شاوول) بولس الرسول وتكلم عن أعمال الرسل الإنجيليين ، وتعرض إلى سر تجسد المسيح وإلى سلطة البابا الروحية وما يسنه من الشرائع والأحكام ، وذكر بعض مناظراته مع الرهبان في مدريد وتكلم عن طريقة الرهبان والكهنة في استعمالهم سر الاعتراف ، وأورد بعض أخبار ملفقة لا فائدة من ذكرها »[3] وأكاد أقول : إن هذا الحذف جريمة شنعاء في قانون النشر ، وتساهل في الأمانة العلمية .

هذا وليس على الناشر من أداء الأمانة حرج في دينه ، فإن أبت عاطفته إلا التنفيس فإن الأصول المتبعة تبيح له التعليق والرد بعد إثبات النص بحذافيره . وعلى كل فإن هذه الرحلة بتراء بسبب فعلة الناشر فقد حرمنا الاستمتاع برأي مشاهد مخالف . وغريب جداً أن يقول مع ذلك ص٢ : « فقد توخينا الأمانة والصدق في النشر والترجمة محافظة على قيمة أصول المخطوط التاريخية » والعلم لا يجد في عمله هذا أمانة ولا محافظةً على قيمة الأصول التاريخية .

٨ـ على الناشر أن يتجنب ما أمكن الجمل المهلهلة التي لا طائل تحتها من مثل قوله ص٧ : « وبينما نحن في معترك البحث وميدان الدرس فوق مائدة التشريح في المختبر العقلي نحلل مقاييس ومقادير عقدة هذه القضية إلخ » .

وأن يعتني بدرس قواعد لغته العربية فإن العمل الذي يمارسه يتطلب ذلك كما سترى .

---

(١) ص٢ .
(٢) ص٦ .
(٣) ص٩٤ .

٩ـ قيمة الرحلة ونفاستها وجلال الموضوعات التي عالجتها ، كل ذلك يوجب علينا أن نثبت الأغلاط التي انتبهنا إليها وهي كثيرة جداً ، وغالبها من البدائه التي لا يجوز جهلها أبداً ، وإني لأرجو ثانية [بكل حرارة] من السيد البستاني أن يتقن لغته ويدرس قواعدها ويعرض أعماله على من هو أخبر منه فيها ، فإن هذه الجريدة من الأغلاط في [١٢٠] صفحة إحدى الكبر في هذا العصر :

ص	الخطأ	الصواب
٥	واستلاء الفرنسيون : الذي وضعناه	واستيلاء الفرنسيين التي وضعناها
٢	هاتك	هاتيك
٣	مبديء	مبدأ
	دُعي	دعا
	فغزى	فغزا
٤	فاطمئن	فاطمأن
٥	وقع هذا	ومع هذا
٦	لملاقتنا	لملاقاتنا
	ثلاث مراكب	ثلاثة مراكب
٧	للملاقات	للملاقاة
[٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٦ ، ٣٩ إلخ]		
٩	دار	داراً
١٠	المقصودين	المقصودات أو المقصودة
	الدار الذي	الدار التي
١١	الجوز	الجو
١٤	واعتقادتهم	واعتقاداتهم
١٥	فتشير	فتثير
١٨	وسبعة	وسبع
٢٠	كسى	كسا

ص	الخطأ	الصواب
	شمط	شحط
٢١	أيمحوا	أيمحو
	هام	رام
	المراعات والمحابات	المراعاة والمحاباة
	جدبت ضبغي	جذبت ضبعي
	زاد	زادي
٢٢	مصدفين	مصفدين
	العظيم أثر	عظيم أثر
	نزهت المشتاق	نزهة المشتاق
٢٣	القناطير	القناطر
٢٥	المندثر	المتدثر
٢٧	أربعة عجائز	أربع عجائز
٢٨	ذي	ذوي
	ابنة عشرون	ابنة عرين
٢٩=٨٤	الغير	غيرهم
٣٠	أناس ذو	أناس ذوو
٣١	ثلاثة مسافات	ثلاث مسافات
	في كذلك	كذلك
	ونساءهم	ونسائهم
٣٢	ليس	فليس
٣٣	آخراً	آخر
٣٦	منتقات	منتقاة
	يستحسنوها	يستحسنونها
	وله سنين	وله سنون
٣٧	ليعصرونه	ليعصروه

ص	الخطأ	الصواب
٤٠	يكونونها	يسكنونها
٦٩=٨٢ ، ٨٦	تزويجها	تزوجها
٤١	يتهيىء	يتهيأ
	كملت الأثني عشر	كمل الاثنا عشر
٤٢	ورجلاً	ورجالاً
٤٤	سينين	سنين
٥٢	للاختلاطهم	لاختلاطهم
٥٤	ألزاموا	ألزموا
	أحسن ومن	أحسن من
٥٥	ستة وعشرين سنة	ست وعشرين سنة
٥٦	علىء	علاء
	أربعة عشر سنة	أربع عشرة سنة
٥٧	ذالك	ذلك
٥٩	الأخيريين	الأخريين
١١٩	عصى	عصا
٦٠	بلادنا	في بلادنا
٦٣	حضرت عيد	حضرت عيداً
	ليراه الناس ويعرفوه	ويعرفوه .
٦٤	كنائساً كنائس	عجائزاً كنائس
	آخراً	آخر
٦٧	ولم يتولى	ولم يتول
٦٩	ابنت	ابنة
٧٠	فمال	فقال
	فأغلقها	فأغلقه
٧١	ابدلواه	ابدلوه

ص	الخطأ	الصواب
	مبلغه اثني عشر	مبلغ اثني عشر (أو مبلغه اثنا عشر)
	ونساءهم	ونسائهم
٧٢	والردا	والردى
٧٣	الشنئان	الشنآن
٧٤	بد حرب	من حرب
٧٥	تدعوني	تدعونني
٧٦	مزعمين	مزمعين
٧٨	ست مائة دارا	ستمائة دار
	فجهوا	فوجهوا
٨١	أخلا	أخلى
٨٣	ولداً ذكر	ولداً ذكراً
	يرثه	يرثها
٨٤	يتوعدون	يتواعدون
٨٥	مبالات	مبالاة
٨٧	الكنائسي	الكنسي
٨٨	ممزجاً	ممزوجاً
٩٠	معد	معداً
	يدعوا	يدعو
	تناوله	مناولته
	الستة	في الستة
٩١	تغل ل ه	تغل لي
٩٣	بالسان	باللسان
٩٤	تجد	تجسد
٩٥	ثلاث أبواب	ثلاثة أبواب
٩٧	الستة وأربعين	الستة والأربعين

ص	الخطأ	الصواب
	زينته	زنته
	أربعة عشر مدرسة	أربع عشرة مدرسة
٩٨	تسمع أصوات	تسمع أصواتاً
١٠٠	يمت	يموت
	إذا	إذ
١٠١	داره الذي	داره التي
١٠٣	نرجوا	نرجو
	نقضوه	نقضيه
١٠٤	في بناءه	في بنائه
١٠٦	ثلاثة أرباع ، الذراع	ثلاثة أرباع الذراع
١٠٨	بالهباء	بالهبات
١١٠	بأكثره من	بأكثر من
١١٥	قريئت	قرئت
	المعنى ؟	
١١٦	خباسة؟	
	وصاروا	وصدروا
١١٧	التابعان	التابعيان
١١٨	لسيليه	لسبيله
١١٩	الشي	إلى

من عيون الأدب الغربي

العدد التاسع

تأليف : ج . لويس دكنسن

ترجمة : الأستاذ محمد رفعة

مقالة تحدث فيها أستاذنا عن الكتاب ومضمونه وأسلوبه ، ثم عرّج على ما وقع فيه من هفوات .
نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
المجلد ١٦/ ٨ص ٣٨٧ـ٤٠٧ ـ عام ١٩٤١

هذا هو العدد التاسع من (عيون الأدب الغربي) التي عنيت بترجمتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ألفه (ج . لويس د كنسن) وعرّبه الأستاذ محمد رفعة في ١١٥ صفحة .

قارئ الكتاب يحضر جلسة من جلسات (منتدى الباحثين) بلندن ، الجمعية التي كان من أغراضها أن تجمع بين أكثر العناصر تبايناً ، وتعقد جلساتها في دور أعضائها بالتناوب ، في لندن شتاء ، وفي منازل بعض الأعضاء الريفية صيفاً .

أما الأعضاء الذين سجل المؤلف كلامهم في جلستنا هذه فهم : (رمنهام) كبير وزراء الدولة حينئذ من حزب الأحرار ، وخصمه اللدود (مندوزا) من المحافظين ، و(كانتلوب) الذي اعتزل الحياة العامة حديثاً وهو محافظ قديم ، و(أليسون) الاشتراكي النشيط ، و(ماكارثي) الفوضوي المشهور ، و(ولسن) العالم بالأحياء ، و(مارتن) الأستاذ ، و(كوريات) الشاعر ، و(أودين) من رجال الأعمال و(هورنجتن) من الأعيان ، و(ودمان) عضو جماعة الأصحاب ، و(فيفيان) الأديب .

يجتمع هؤلاء السادة كل أسبوعين مرة فيقرأ أحدهم رسالة ، ثم يتناقش فيها سائر الأعضاء . والكلام في جلستنا هذه الّتي امتدت من بعد العشاء حتى طلوع الشمس

لكانتلوب المحافظ القديم ، وقد نسي هذا رسالته المكتوبة ، ورفض أن يرتجل شيئاً في موضوعها ففرض عليه رب الدار كفارة : « أن يقدم اعترافاً شخصياً يفسر به اشتغاله بالسياسة ، ولمَ كان ـ وما زال ـ محافظاً من الطراز القديم ؟ ولم أقدم على اعتزال الحياة العامة وهو في مستهل حياته ؟ وقصارى القول أن عليه أن يفضي إلينا بوجهة نظره ، وهذا سيحفز رمنهام للكلام بعده ، فإذا تكلم استثار غيره من الأعضاء حتى يُفضي كل منا في آخر الأمر بوجهة نظره ؛ وتكون السهرة ممتعة حقاً »[1] .

وكذلك كان ، فقد أجرى المؤلف على ألسنة هؤلاء السادة المختلفي المذاهب والميول آراء شديدة التباين في نقائص المجتمع وطرق مداواتها ، كلٌّ قد شخص الداء ووصف الدواء من وجهة نظره الخاصة . فالكتاب إذن محضر جلسة فيها « عرض مختصر لآراء جماعة من الناس يمثل كل واحد منهم طائفة خاصة ، ويشرح نظرته إلى الحياة ويدافع عنها . وفي هذا العرض آراء كثيرة بعضها خطأ وبعضها صواب ، بعضها قائم على العقل والمنطق ، وبعضها مغالطات وبلاغة خطابية ، شأن كثير من الآراء التي يعرضها الناس في أحاديثهم ويدافعون عنها بحماسة ، وليست هي في الغالب إلا سفسطة وكلاماً منمقاً »[2] .

كذلك قال المعرّب الفاضل في مقدمته ، لكن القارئ يقع خلال هذا الجدل على حوار ممتع لذيذ فيه حق ، وفيه علم ، وفيه تفكير عميق ، وتجارب صادقة . وعلى القارئ أن يمعن في هذا الحوار للفائدة لا للتسلية . ولا يسعه إلا الإعجاب الشديد لهذا الهدوء والنظام يسودان جلسة لا يجمع اثنين من أعضائها رأي واحد ، تصطرع فيها المذاهب وتتباين الآراء ، ويصرح كل بما لخصمه عنده ، ومع هذا فالجو مشبع بروح الألفة والاحترام . وهذا شيء لا تجده إلا عند الإنكليز : محافظ ، وحر ، واشتراكي ، وفوضوي ، ومالي ، وشاعر ، ومتدين ، وأديب : يتحاورون في المسائل التي هي مصادر خلافهم وفرقتهم . تسمع الخطيب فلا تشك أن خصمه سيثب عليه ليقطعه إرباً ؛ فإذا نزل ذاك وصعد هذا يرد عليه ، رأيت احترام

---

(١) ص٢ .

(٢) ص٥ .

الرأي وسمو التهذيب يسيطران على كلامه وسلوكه .

أكثر هؤلاء الخطباء تأثيراً فيّ هو المحافظ القديم (كانتلوب) لا لأنه حمل على الديمقراطية ونصر الارستقراطية الوراثية ، ولكني رأيت في انتقاده توسيد الوظائف إلى المرتزقة حقاً كثيراً ، وحبَّبني فيه أنه صريح غاية الصراحة يمثل طبقته من الإنجليز خير تمثيل . وإذا استطعت أن تشك في إنجليزية هذه الصور التي عرضها المؤلف فلن يتطرق إليه شك في عراقة هذا الرجل في إنجليزيته ، وقد وقفت كثيراً عند قوله :

« أعتقد أن السعي وراء الثروة يقضي على جدارة الإنسان لتولي الخدمة العامة . . . وأن محترفي التجارة يجب أن يبعدوا عن الوظائف العامة »[١] « إني أدين بمذهب حكومة السادة (gentleman) وأعني بهذه الكلمة مدلولها الإنجليزي الممثل لروح العصر القديم ، وهو الرجل ذو الموارد الخاصة ، الناشئ منذ الطفولة في جو الحياة العامة المهيأ بطبيعة منبته للخدمة في الجيش أو البحرية أو الكنيسة أو البرلمان . هذا النوع من الرجال هو الذي أسس عظمة روما ، وشيد مجد إنجلترة في سالف الزمان ، وإني لا أؤمن أن ستقوم قائمة لدولة عظيمة حكامها من التجار وأرباب الحوانيت والصناع ؛ وليس ذلك راجعاً إلى أنهم ليسوا جديرين بالتقدير ، بل لأن طرائق حياتهم ومعاشهم تقضي على جدارتهم لولاية الشؤون العامة »[٢] .

وهذا رأي قد رآه أيضاً أحد الأعيان (انظر ص٩٢) وهما من طينة واحدة ، وقد أعجبني تعريفه الإنجليز الخلصاء ، فهو يراهم من نتاج الريف خاصة ، ويقول في صفتهم : « يقفون ساعة كاملة لا يتحركون ، كصفحة الماء الراكد ، يتأملون حصاناً أو خنزيراً ؛ هذا الطراز من الرجال يظنهم المتحضرون بلهاء لأنهم لا يجيبون عن سؤال قبل أن تمر خمس دقائق ، ثم يجيبونك في الغالب بتوجيه سؤال آخر . إلخ »[٣] . وقد أسف هذا المحافظ القديم « كيف يهرع الناس إلى المدن التماساً للحياة الاجتماعية في حين أني ما وجدت حياة اجتماعية حقة إلا في الريف » .

---

(١) ص٥ .

(٢) ص٧ .

(٣) ص١٨ .

وتسمع على هذا الوتر نغماً آخر لعينٍ إنجليزي عاش طويلاً في إيطالية ثم رجع إلى بلاده فنظرها نظرة ناقدة ، ومن قوله : « يخيل إليَّ أن الإنجليز بنوع خاص قلما يبذلون محاولة جدية لمواجهة الحقيقة لأنهم . . إلخ »[1] .

والقارئ يشعر شعوراً قوياً برشاقة أسلوب المؤلف وقوة عارضته وشعوره العميق بنواحي الحياة وإحساسه بالجمال ، وهي الصفات التي وصفه بها المعرب الفاضل .

* *

ليس ينقص إعجابنا بتعريب الأستاذ رفعة عن إعجابنا بالمؤلف ، فقد استطاع أن يسبغ على الكتاب حلة رشيقة من الأسلوب العربي السهل البليغ ، وقد لفتت نظري هذه الملاحظات أعرضها عليه :

١ـ تقول العرب : « فعلته علىٰ رغمه » ولم أجد حذف الجار في كلام يعتمد عليه وقد جاءت (رغم) خالية من (على) في الصفحات : ١٦ ، ١٨ ، ٦٩ ، إلخ .

٢ـ لم يرد استعمال (لما) للتعليل فيحسن أن يستبدل (إذ) بلما في قوله (ولما كانت . . . فإني) ص٤٠ س٩ وكذلك ص٤١ـ١٦ .

٣ـ إذا قلنا : « هذا واجبي » لم يفهم منه إلا أنه واجب لي على غيري ، أما إذا كان الأمر على العكس فالصواب أن نقول : « هذا واجب عليَّ » وعلى هذا ورد خطأ قوله : واجبي في الصفحات ٤٠ ، ٤٧ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٣ ، ١٠٢ .

٤ـ الصواب في نحو قوله ص٤٢ (تعارض مع كل الحقائق) أن يقال « تتعارض هي وكل الحقائق » لأن الفاعل في أفعال المشاركة متعدد ولا يؤتى بـ (مع) قبل مجيء اسمين على الأقل ومثلها : اتفق معه . وقد ورد شبيه هذا الخطأ في الصفحات ٧١/ ٨٧ ، ٨٩ .

٥ـ وهب تتعدى لمفعولها الأصلي باللام قال تعالىٰ : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم ١٩/ ٥] وتعديتها له مباشرة على خلاف الوارد . وعلى هذا يصلح ما ورد في ص٤٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ .

٦ـ قوله ص ٢٥ (يلبس على عينيه منظارين) يحتاج إلى إعادة نظر المعرّب

---

(١) ص٨٦ .

وحذف الفعل أو استبدال (يضع) به أولى .

٧ـ أحصينا هذه الهنوات فأحببنا عرضها خدمة للكتاب :

ص	خطأ	صواب
٧	إحساننا المادي	إحساسنا المادي
١٥	أحمق من	أشد حمقاً من
٢٣	حدا بي . . إلى	حداني . . . على
٤١	هذا وذاك للذين	هو هذا وذاك اللذان
	بنفس البساطة	بالبساطة نفسها
٤٨	البعض الآخر	بعضها الآخر
	[وكذا في ص١٠٦ ، ١٠٧]	
٤٩	شعوذة	شعبذة
٥٠	أثر نموها [مفصولة في سطرين]	أثرتموها
٥١	كافة الأشياء	الأشياء كافة
	[وكذا في ص٥٩ ، ٨٩ ، ٩٣ ولا تستعمل إلا حالاً منكرة متأخرة]	
٥٣	بل وكل	بل كل
٥٥	يتمشدق	يتشدق
٦١	الغير المحدودة	غير المحدودة
٧٨	أحاجج	أحاج
٨٣	ينصلح	يصلح
٩٠	أأسرتكم	أسرتكم
٩١	بل والأمانة	وحتى الأمانة (أو بل الأمانة)
٩٢	تستقرئه	تستقريه
١٠٥	مبرءاً	مبرأ
١٠٩	أبواه	مات أبواه

ولا يسعني إلا شكر الأستاذ المعرب على جهده القيم ، وشكر لجنة التأليف والترجمة والنشر على ما تقوم به من جليل الأعمال في خدمة العلم والعربية .

المعجم العربي ـ نشأته وتطوره
(للدكتور حسين نصار)

مقالة يعرض فيها أستاذنا الكتاب ، ما له وما عليه ذاكراً ما وقع عليه من أغاليط .
نشرتها مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في المجلد ٤٤ / الجزء الرابع ص٩١٣ـ٩٢٤ عام ١٩٦٩ .

كتاب في جزأين صفحاته ٨٣٥ للدكتور حسين نصار المدرس بكلية الآداب في جامعة القاهرة

منشورات مكتبة مصر ـ دار مصر للطباعة ١٩٦٨

سبق لهذه المجلة أن وصفت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في مجلدها السابع والثلاثين (ص١١٥) بقلم العالم الجليل الأستاذ عبد الله كنون ، وصفاً وفّى الكتاب ما هو أهل له من التقدير ، ومنح المؤلف « إضافات قيمة أفاد منها » في طبعته الثانية هذه ، وقد أشار إليها شاكراً في مقدمة الطبع .

لا أعيد شيئاً مما نشر عنه في هذه المجلة ، ويحسن بالقارئ الرجوع إليه . لكن لا مندوحة لي عن تذكيره بأن الكتاب دراسة تاريخية نقدية خطوطها العريضة ثلاثة :

١ـ الرسائل اللغوية على الموضوعات .

٢ـ المعاجم .

٣ـ المعاجم التي نحتاج إليها .

والدراسة متأنية صابرة جاهدة تستحق مع الشكر والتقدير العناية بها وبالنواحي التي أطافت بها ، وكلها ذو خطر من الواجب الاهتمام به ؛ ولم يسعني الاعتذار حين كلفني السيد رئيس المجمع الكتابة عن هذه الطبعة ، فرأيت بعد الإشارة إلى ما كتب عن الطبعة الأولى وبيان نظرتي إلى هذه الدراسة أن أعرض ما بدا لي من ملاحظ

بالترتيب :

ص١٦ ـ « وأعترف القرآن للعرب بهذه القدرة اللغوية قال تعالىٰ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف ٤٣/ ٥٨] وقال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم ١٩/ ٩٧] .

. . . ومثال ذلك الرسول الكريم . . . فكان يقول بصدد تعليل فصاحته : « أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش وأني نشأتُ في بني سعد بن بكر » . . .

. . كانوا يدفعون صبيتهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم ، وينشؤوا على تفوقهم اللغوي . مثال ذلك زهير بن أبي سلمى الذي عاش مع خاله بشامة بن الغدير الشاعر فخرجه شاعراً » .

هذه النقول من صفحة واحدة ينتظمها ظاهرة واسعة الشيوع في الدراسات الحديثة ، هي تحميل النصوص فوق ما تحمل ، وتجاوزها في الاستنباط إلى أبعد منها ، فلا يوقف حيث وقفت ؛ فالآيتان ليستا اعترافاً بالقدرة اللغوية وشتان ما بين اللَّدد في الخصومة والقدرة اللغوية ، والحديث على فرض صحته لا يشهد لقول المؤلف (إذ أرسل [الرسول] إلى البادية في طفولته لهذا السبب) وقد ضعَّفه المحدثون[1] . وليس في ترجمة زهير ما يؤيد (أنهم كانوا يدفعون صبيتهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم وينشؤوا على تفوقهم اللغوي ، إنما هي حال زهير الخاصة أن كان خال أبيه سيد غطفان وحكيمها وكان شاعراً) .

ص١٨ـ أحكام عدة عن زواج الموالي هي موضوع نظر وتحتاج إلى تمحيص ، ويحسن أن يرجع فيها إلى كتب الفقه والأحكام ، وما كان (الأغاني) و(العقد الفريد) يوماً مرجعاً في مثل هذه الأمور .

ص٢٢ـ « بل تعلّم بعض العرب أنفسهم الفارسية ، ونظموا بها شعراً ، وتشبهوا بالفرس في أزيائهم واحتفالاتهم . نفهم ذلك من خبر الشاعر العربي يزيد بن ربيعة بن مفرّغ مع عبيد الله بن زياد ، وليس في الخبر المشار إليه ما فهمه ، وكل الذي فيه أن

---

(١) قلت : انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ، ط الخانجي ، ص٩٥ .

الغلمان الذين خاطبوا يزيد بالفارسية أجابهم بها جملة بجملة ، وهو شيء يستفيده عادة من أقام حيث أقام يزيد ، فلا نظم شعرٍ ولا تشبُّه في الأزياء والاحتفالات .

ص٥٩ـ في كلامه عن (الفائق) للزمخشري قال : « ولا يعرض للمجاز وما إليه ، مما بني عليه (الأساس) . ولعل سبب ذلك أنه ألف (الأساس) بعد الفائق » . وهذا تعميم فيه نظر ؛ إذ لا نعدم في الفائق تعرضاً للمجاز ، ففي كلامه مثلاً على مادة (ختل) جاء في شرح المراد من الحديث « وأن تُتَّخذ السيوف مناجل » .

المناجل المجاز ، أي يؤثرون الحرث على الحرب .

ص١٠٣ـ « ومن المؤرخين من سلبه (أي ثعلباً) الكتاب جملة فنسبه إلى الحسن ابن داوود الرقّي أو يعقوب بن السكيت » .

قلت : يحسن إثبات ما اشتهر عند المطّلعين من كثرة نقد القدماء (فصيح ثعلب) حتى حملوه على إنكار نسبة الكتاب إليه[(١)] .

ص١٦٥ـ في كلامه على كتاب الفزاري الإسكندري أقحم ثلاثة أسطر . (وألف محمد بن أبي القاسم بن بايحوك البقالي . . . إلخ) يحسن تأخيرها إلى ما بعد انتهاء كلامه على كتاب الفزاري في الصفحة التالية .

ص٢٠٠ـ ص١٤ (أبواب السالم) وأعني به هنا ما فيه حرف علة واحد أو همزة واحدة) ، أطلق (السالم) وهو يريد (غير السالم) كما هو ظاهر فلعل كلمة (غير) سقطت في الطبع ، إلا أن ذلك تكرر .

ص٢٥٦ـ في كلامه عن الخليل و(كتاب العين) : « بل أورد أشياء من لغة المعاصرين له في إقليمه العراق ، أو بلدته البصرة خاصة ، ولو كانت لا تعرف في البادية ، مما يدل على تسامحه وتحرره من القواعد المتزمتة »!!

ولغة معاصري الخليل في البصرة عربية وما أثبته منها في العين لا يخالف القواعد ، ومن الذي قال : إن على صاحب المعجم ألا يثبت إلا ما كان يعرف في

---

(١) في أصول النحو ص١٩٣ (مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤) .

البادية ؟! وأي كان فكلمة (تسامح) و(تزمت) وأمثال لهما مما تستعمل في عصرنا في غير محلها ، تصان عنه دراسة موضوعية جادة عن (المعجم العربي) .

ص٢٥٨ـ فيها نقل عن ابن الأنباري في قياسية النحو استقاه المؤلف من (الاقتراح) للسيوطي ، وكان ذلك سائغاً في الطبعة الأولى سنة ١٩٥٦ أما في الطبعة الثانية فلا ، إذ إن (الاقتراح) منتزع انتزاعاً من كتاب لابن الأنباري اسمه (لمع الأدلة)[١] وقد نشرته الجامعة السورية سنة ١٩٥٧ ونقل السيوطي تجد أصله في ص٩٩ من (لمع الأدلة) ، ولم يعد (الاقتراح) مصدراً أصيلاً بعد نشر الأصل (لمع الأدلة) .

ص٢٧٨ـ (يكفي أن يذكر أمام المتأخرين (كتاب العين) حتى تنهال الشتائم والتهم جزافاً ، وأقرب مثال لذلك الأشموني الذي قال عن لفظ انفرد به الخليل : « . . . لم يسمع إلا من كتاب العين فلا يلتفت إليه » ومن الطبيعي أن يشاركه الصبَّان محشيه في شتائمه قال ؛ « قوله (إلا من كتاب العين) أي المحشو بالخطأ » .

في هذه الأسطر مثال آخر على الظاهرة التي أشرنا إليها في كلامنا على ص١٦ : المبالغة في تحميل النصوص ما ليس فيها فكلمتا (لا يلتفت إليه) و(المحشو بالخطأ) خطأ ، ولكنهما ليستا (شتائم تنهال) ولا تهماً تكال (جزافاً) .

ح٢ : ص٤٤٤ في كلامه على ابن فارس في (مقاييسه) : « فهو يقدم الأصل أو الأصول ثم يبني الفروع عليها ويختم المادة بالشواذ » . ولكن هذه الطريقة اضطربت عليه فمادة (عقّ) أصلها انشقّ ، ولكنها تطورت إلى ثلاثة فروع واضحة أولها ما زال محتفظاً بمعنى الشق صراحة ، وثانيها ما يدور حول الشّعْر الذي يولد به المرء ، والثالث ما يدور حول عقوق الوالدين . ومن الطبيعي أن يتناول الإنسان صيغ كل فرع منها على حدة ، ولكن ذلك لم يحدث في المقاييس) .

---

(١) في الكتاب (رسالتان لابن الأنباري : الإغراب في جدل الإعراب ، ولمع الأدلة) مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٧ بتحقيق سعيد الأفغاني .

قلت : لا اضطراب ، فقد أشار ابن فارس في أول كلامه على المادة بقوله : « العين والقاف أصل واحد يدل على الشق ، وإليه يرجع فروع الباب بلطف نظر ، قال الخليل : أصل العقّ الشقّ ، وإليه يرجع العقوق ، وكذلك الشعر ينشق عنه الجلد » . فلا يزال الأصل ملحوظاً في كل الفروع حتى دون لطف نظر ، وإذن لا اضطراب . . .

ص٥١٦ـ (ويبدو أن النسخة المطبوعة من (الصحاح) نالها شيء من التصحيح ، إذ ورد فيها البيت الأول والثالث ، ورواية (سمعوا من صالح) لا البيت الأول وحده ، ولا الرواية التي ذكرها الصّغّاني) .

قلت : لعل نسخة الصغّاني فيها التصحيف لا أن النسخة المطبوعة من الصحاح صحّحت .

ص٧٥٥ـ (وكان المعتل من المهموز من أعظم الأمور إثارة لحيرتهم واضطرابهم حتى تخلص كثير منهم بجمع المعتل الواوي والياء والمهموز معاً . . . والحق أن هذه مشكلة أخرى ربما تفوق غيرها في الصعوبة . .) .

ربما صح هذا الوصف في المراحل الأولى لتأليف المعاجم ، أما اليوم فمن الإسراف إطلاق مشكلة على مثل هذه الأمور ، وقد تيسر للباحث الفصل في الواوي واليائي ، بل تيسر ذلك لمن قبلنا وفصلوا كلاً عن الآخر ، والخطأ في بعض كلمات ممكن إصلاحه ، فليس مشكلة ما حلوه منذ أزمان متطاولة .

ص٧٥٦ـ كان من أثر الدعايات السيئة التي أغرق فيها غيرنا كثيراً منا حتى صار يردد أن لغتنا نحوها وصرفها ومفرداتها وحروفها كلها مشاكل في مشاكل ، أن تسممت ناشئتنا في عقيدتها في لغتها ، ولولا أنهم يعرفون لغة أجنبية يجدون فيها ما هو أبعد مما يعد أولئك في باب المشكلات لأسرع ذلك في إهمالهم لغتهم مرة واحدة ، وليس هنا موضع بيانه ، وكان من ذلك التيار : الدعاية العريضة في أثر دراسة اللغات السامية الميتة ، وتصحيح العربية عليها ، وذلك عكس ما يقضي به المنطق وعلم اللغة العام ، أذكرني بذلك قول المؤلف « وحصروا [حروف الزيادة] في عبارة (سألتمونيها) ولكن البحث المقارن بين اللغات السامية جميعاً يهزأ من

هذا الحصر ويرى أن الممكن زيادة غيرها من الحروف وقد حدث هذا فعلاً في العربية وأخواتها . وأترك هذا البحث المقارن إذ لا أستطيع أن أقوم به لعدم معرفتي بالساميات »!! .

والمؤلف يعرف أن حروف (سألتمونيها) هي الزيادات المطّردة في الكلمات لمعانٍ خاصة ، وأن الأقدمين من علماء اللغة فرّقوا بينها وبين حروف مزيدة سماعاً ، فوصفوا ذلك الواقع اللغوي وقرروه ، ونبهوا على هذه الألفاظ المعدودة القليلة ، مستغنين كل الاستغناء عما يسمى بـ (البحث المقارن بين اللغات السامية) الذي يهزأ » .

ص٧٨٤ـ ارتباط العربية بالدين (ارتباطاً شديداً أسبغ عليها القداسة فكان في ذلك نفعها وضررها . . أما ضررها فلأن هذه القداسة جعلت المسلمين والعرب يتمسكون بها بصورة واحدة (؟) منها ، فتأخرت عن حاجيات العصور الحديثة ، ولم تستطع أن تجاريها حتى نادى كثيرون بهجرها تماماً) .

لم أفهم المقصود بالصورة الواحدة منها إذ لم يشرحها المؤلف ولا بسط الصور الأخرى التي كان يجب أن يتمسك بها العرب والمسلمون . أترك ذلك وأتساءل عن آخر الفقرة : (وتأخرت عن حاجيات [كذا] العصور الحديثة) وهي شبهة يتلقفها ناطق عن آخر : هل كان ينتظر هؤلاء الكثيرون أن يجد الكيميائي والفيزيائي والميكانيكي في القاموس المحيط ولسان العرب مصطلحات لما جدّ في ديار المخترعين بعدها بقرون ؟ ثم من هم كيميائيونا وفيزيائيونا وميكانيكيونا الذين اخترعوا ولم يجد لهم علماء اللغة مسميات لمخترعاتهم وأجهزتهم وأجزائها ؟ ما تأخرت اللغة ولكن أرباب الألسنة الطويلة في غير طائل تأخروا وانحطوا وتكاسلوا إلا عن اللغو . ولا يقال : إن اللغة تأخرت حتى يعجز المهندسون منا والعلماء المتخصصون الذين درسوا لغتهم كما يدرس الأجنبي لغته ثم تخصصوا وحاولوا وضع المصطلح . أما حين يتصدى المختص المؤهل فسيجد كل شيء ممهداً ، وقد حصل ذلك فعلاً في آخر المئة الماضية في القاهرة وساحل الشام ، وفي الخمسين سنة الماضية في دمشق حيث لبّتِ اللغة حاجات الإدارة والجيش وكليات الجامعة

(في الطب والحقوق والعلوم والتجارة والزراعة) ، لبث حين بذل المحتاج الجهد ، ولم يقعد يسوغ كسله بأن الماضين لم يهيئوا له .

إن تأخرنا هو في إعداد أنفسنا لنكون مؤثرين في عصرنا في العلوم والفنون والابتكار ، ومتى أردنا بجد وصدق ، هذا الإعداد وجدنا لغتنا سابقة أمامنا[1] فما تقديسنا لغتنا أخّرنا ، ولكن أخرنا إهمالها وقبول الدعايات المغرضة فيها وانسياقنا على أذيال مخططيها ومروجيها .

ص٧٨٥ـ (ووضع ابن سيده في مقدمة (محكمه) منهجاً يعتبر ثورة في عالم التأليف اللغوي العربي . . . ولو طبقه عليه لأغنانا عن كثير من التخبط والاضطراب وكثيرٍ مما نريد أخذه عن الغربيين اليوم ، ولكان معجمه فذاً بين معجمات العربية) .

قلت : خير من (لو) هذه أن يقوم نفر منا بتطبيقه على (المحكم) في طبعة علمية ذات نهج سليم محكم ، وحسب ابن سيده أن وضع الخطة وليكن التطبيق من نصيبنا . وعصرنا ميسر فيه كل شيء .

* *

لست أرى ما رأى المؤلف من تسمية (منشورات اليسوعيين في بيروت) بالمعاجم في دراسة علمية من خصائصها تحديد الأسماء والصفات ، وما كان حسبه أن يشير إلى هذه الأعمال التجارية التي نظر حين تأليفها إلى ما خطط لمدارس اليسوعيين في حاشية تنوه بأثرها في إفساد اللغة ، أما أن تسمى مدرسة!! وتقرن بالمعجم الوسيط فهذا ظلم كبير . ولن أستشهد إلا بأقوال المؤلف نفسه في وصفها ، وإنصافه كفيل برفع الحيف في طبعة قادمة إن شاء الله .

في كلامه على (أقرب الموارد) وزياداته على القاموس المحيط قال (ص٧١٨) :

« وأخذ بعضها الآخر (يعني الزيادات) من معجمي جوليوس Gulius وفريتاج

---

(١) انظر بسط قضية اللغة العربية وما أثير حولها من حرب خفية في عصرنا الحديث في كتابي (حاضر اللغة العربية) ـ مطبوعات معهد الدراسات العالية بالقاهرة ١٩٦٢ .

Freitag ومحيط المحيط وقطر المحيط للبستاني . وكان جيوليوس وفريتاج قد اعتمدا في معجميهما على بعض كتب الأدب المتأخرة التي لا يستشهد بلغاتها ولا تُعنى بالتزام الفصحى ، فأدخلا في معجميهما كثيراً من الألفاظ المولدة والعامية ، فتسربت إلى معاجم بطرس البستاني والشرتوني ، فنقدت هذه المعاجم نقداً مرّاً . وخاصة من الأب أنستاس ماري الكرملي الذي كان يقف لها بالمرصاد .

وإشارة المؤلف إلى أنها لم يقصد بتأليفها إلا لغرض خاصّ لطائفة معلومة مما يبعدها عن صفة المعجم الذي يكون عاماً عادة .

جاء في ص٧٣٠ :

« وآخر الظواهر فيها عنايتها بالألفاظ والمعاني المسيحية أو التي لها دلالات خاصة عند المسيحيين . وكان ذلك أمراً طبيعياً لهم ، لأنهم جميعاً مسيحيون نشؤوا على تربية مسيحية دينية وألفوا معاجمهم لمدارس مسيحية دينية هي مدارس اليسوعيين » .

وعرض المؤلف لنقد بعض هذه المنشورات الذي نشره اليازجي فقال :

« . . ونكتفي هنا بالإشارة إلى كتاب : (تنبيهات اليازجي على محيط البستاني) الذي يخرج الباحث من دراسته بأن البستاني وقع في الأخطاء التالية :

التصحيف ، وتفسير الألفاظ بأخرى غير موجودة في موادها ، والخطأ في التفسير ، وعدمه تماماً ، وسوء عبارته ، والخطأ في ضبط الألفاظ ، والإتيان بمعانٍ لم ينصّ أحد من القدماء عليها ، وقد استمد كثيراً من هذه المعاني من جوليوس وفريتاج ، ومن الآثار المسيحية ، وأتاه كثير من هذا الخطأ من سوء فهمه لبعض عبارات الفيروزآبادي وبعض اصطلاحاته وعاداته في قاموسه .

وكل هذه الأخطاء على وجه التقريب نجدها عند أفراد مدرسة اليسوعيين جميعاً . . » اهـ وواحدة مما عدّد المؤلف كافية في إبعاد هذه المنشورات عن صفة المعجم أو أي صفة علمية .

إذا كان ما تقدم يسمى مدرسة فللمؤلف رأيه . لكن الذي لا يجوز بحال أن تقرن

هذه الأعمال بالمعجم الوسيط ، ويقال في المقابلة : إن هذا خير من معاجم اليسوعيين ، بين الفريقين فروق صارخة فأين أعمال هؤلاء الموصوفة آنفاً من أعمال مؤسسة دستورها المحافظة على سلامة العربية وتلبية حاجات العصر في ميادين العلوم والفنون . . . إلخ وجماعتها علماء أعلام ، أعمالهم خلصت للعلم لا لاستهلاك مدارس خاصة أريد الحيلولة بين تلاميذها وبين معاجم اللغة الصحيحة .

* *

لئن استطعت تعداد ما وقفت عنده من هذا الكتاب النافع إن ما راقني منه أكثر ، والأعمال العلمية هي التي تستحق أن يوقف عندها طويلاً ويبذل في سبيل استكمالها كل جهد ، وأرجو أن يطرد نمو هذا البحث واستكماله في طبعة بعد طبعة والله الموفق[1] .

ص	س	خطأ	صواب
ح	١	جدير بالشكر المشرفين	المشرفون
-	-	والعاملين	والعاملون
٢	٤	هذا	هذه
١٦	١٧	وينشئوا	وينشؤوا
١٧	١٧	حدا بالمؤرخين إلى	حدا المؤرخين على
٥٤	٤	لا زال	ما زال
١٠٤	٤	أخطئوا	أخطؤوا
١٢٢	٢٢	الألف بائي	الألفبائي
١٢٤	٢٢	بينهما	بينها
١٦٢	١٥	الجغرافيا	الجغرافية = ١٦٩ إلخ
١٧٠	٩	وصفهم	وصفي
٢٠١	٢٣	الباقين	الباقيين

(١) رأيت ـ خدمة للكتاب ـ أن أشير إلى ما لم يذكر فيه من أخطاء الطبع التي تلفت النظر لغلبة الصحة والجودة عليه :

ص	س	خطأ	صواب
٢١٢	١٩	عقد	عقدوا
٢٢٢	١٤	يعبثون	يعبؤون
٢٢٣	٤	نظام . . بنظام	بنظام . . . نظام
٢٢٩	٩	الرائين	الراءين
٢٣٥	١٤	سمحمح	صمحمح
٢٥٠	٥	هل لا بد	ألا بد
٢٦٢	٦	أقطب	أقب
٣١٩	٦	الأقصين	الأقصيين
٣٤٤	١١	ههنا	ها هنا = ٥/٣٧٠
٣٧٤	٥	لاضطرادها	لاطرادها
٣٨٦	٥	لا يتعارض . . . مع تحريه	لا يتعارض . . . هو وتحريه
٤٢٨	٦	اتفق مع الخليل	اتفق هو والخليل
٤٤٦	٢	ثلاث أصول	ثلاثة أصول
٤٤٩	٩	بواسطتها	بوساطتها
٤٥٤	٩	والمزاد	والمزيد = ٥٣٩ . . إلخ
٤٧١	٢٠	تميزه عن	عميزه من
٤٨٦	١٩	عربي	غير عربي
٥٠١	٩	اللغويين	اللغويون
٥٤٠	٢٢	فأجفئوا	فأجفؤوا
٥٦٤	٣	على جميع صيغ	على جمع صيغ
		ومعاني كتابي العين والجمهرة :	كتابي العين والجمهرة ومعانيهما
٥٨٦	١٧	المعاني الثلاث	المعاني الثلاثة
٦٤١	١٣	المعلقات السبعة	المعلقات السبع
٦٧٧	٧	حدا به إلى	حداه على .

الأعلام العربية

(دراسة لغوية اجتماعية) للدكتور إبراهيم السامرائي

تقع في ٩٤ص من القطع الوسط ـ مطبعة أسعد ـ بغداد ١٩٦٤

مقالة عرض فيها أستاذنا الكتاب ما له وما عليه .
نشرتها مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤٤ ، الجزء الرابع ، لعام ١٩٦٩ . ص٩٢٥ ـ ٩٢٦ .

ما ضم بلد مختلفين في الجنس أو العقيدة أو الحضارة إلا كان بين فئاته أخذ وعطاء ، وتأثر وتأثير ، في الأخلاق والعادات والمواصفات ، لا فرق في ذلك بين غالب ومغلوب ، ووطني ومحتل . واللغة . هذه الظاهرة الاجتماعية لا تتأبى على الناموس العام . فما زالت اللغات الأوربية الغربية مثلاً تحمل طوائف من كلمات أصولها عربية تسرّبت إليهم من مئات السنين ، وما زالت لهجاتنا الدارجة في البلاد العربية عليها آثار من التركية والكردية والفارسية ، ثم الإنكليزية والفرنسية والإيطالية في عصرنا الحديث .

وهذه الرسالة محاولة من صاحبها ، أثبت فيها عدداً من الأعلام التي يسمّى بها في العراق ، بين طوائفه المختلفة من مسلمين ونصارى ويهود وصابئة ، استقراها الباحث . وأشار إلى ظاهرة حديثة تسربت فيها أعلام مما يسمّي به المسلمون إلى بقية الطوائف ، كما أثبت أعلاماً سجلها من تونس والجزائر ، ثم تطرق إلى ما يشيع في إيران من أعلام عربية الأصل على أكثرها الطابع المذهبي ، وهو يأمل أن تتيسر له مادة أخرى يكمل « بها هذا الاستقراء الذي لا بد منه في الدراسات اللغوية الاجتماعية التاريخية » على حد تعبيره .

ولا ريب أن الخطوة الأولى إلى تلك الغاية هو الاستقراء والتسجيل ، يعقبها خطوة ثانية تتميز بها مدلولات الظواهر التي تدرس ، وينظر بعدها ما يمكن أن يستنبط منها من أحكام اجتماعية تاريخية .

هذا وقوله ص١٥ « وهذه المسألة اللغوية [يعني تعبيرهم في الشمال الإفريقي عن ابن الحاج بـ (بلحاج)] عربية قديمة فقد سمع (بلحارث بن كعب وبلعنبر وبلهجيم) وغيرها ، موهم ، فلا شك أن الباء في الأعلام الأخيرة مختصرة من (بنو ، بني) على حين باء (بلحاج) مختصرة من ابن .

وأخشى أن يكون خلل في قوله ص٥٠ « دراسة الأعلام الحديثة . . . تؤلف جانباً لغوياً لا بد من الاضطلاع به والتبصر فيه ليكون ذلك معيناً على فهم العربية الفصيحة ، فالمتبادر إلى الذهن العكس .

وربما كان شيء من التعميم غير الصحيح في حاشية (٧) ص٥٣ : (حمد الله) من أعلام الإيرانيين ، وهو غير معروف عند العرب »!! ففي دمشق مثلاً عدد من البيوت ألقابها آل حمد الله .

كما توقفت عند قوله ص٧٣ « سبتي : من الأعلام الشائعة بين المسلمين في عصرنا هذا » ويحسن أن يحدد المكان ، فما أذكر أني سمعت به في الأعلام الشائعة .

وفي بعض أخطاء الطبع ما يحير القارئ كقوله ص٧٥ : (سمحه) وهي من أعلام اليهود الشائعة الاستعمال ، وهي من مادة عبرانية وهي صفة مؤنثة تعني في العربية (فرحة) . اهـ فهل يريد : تعني في العبرانية (فرحة) العربية ، كما هو الظاهر من القرينة ؟

والعرب ترسم (سورية) بالهاء لا بالألف كما ورد في ص٨ وكذلك إفريقية المرسومة بالألف خطأ في ص٢٧ . وصواب (ابن أصيبعة) في ص٤٠ هو : ابن أبي أصيبعة .

أرجو أن يوفق الله المؤلف الفاضل إلى بلوغ ما يأمل فيما ينفع .

**

معاني القرآن ـ للأخفش

(تحقيق د . فايز فارس)

مقالة عرض الأستاذ فيها الكتاب ، وتابع عمل المحقق فيه وعلق عليه ، ونبّه على ما وقع عليه من أغلاط .
نشرتها مجلة مجمع القاهرة في الجزء ٤٦/ لعام ١٩٨٠ ص٨٨١ .

يقع الكتاب في جزأين في ٦٦٨ص من القطع الأوسط ، مع فهارس عدّة . صدر في غرة المحرم عام ١٤٠٠هـ (نوفمبر ١٩٧٩) عن المطبعة العصرية في الكويت .

أول انطباع كان في نفسي للأخفش يرجع إلى سنة ١٩٢٩م حين كنا ندرس الجاحظ وكتابه (الحيوان) وعرض المحاضر الأستاذ شفيق جبري ـ رحمه الله ـ في كلية الآداب بالجامعة السورية ما دار بين الجاحظ والأخفش في خبر خلّده الجاحظ في كتابه (الحيوان) قال : « قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلَّها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدّم بعض العويص وتؤخّر بعض المفهوم ؟!

قال : أنا رجلٌ لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه ، قلت حاجاتهم إليّ فيها ، وإنما كانت غايتي المنالة[(١)] ، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم ، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فَهْم ما لم يفهموا ، وإنما قد كَسَبْتُ في هذا التدبير ، إذ كنت إلى التكسُّب ذهبت ، ولكن ما بال إبراهيم النظام ، وفلان وفلان ، يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلي في مواقفته[(٢)] ، وحسن نظره ، وشدّة عنايته ، ولا يفهم أكثرها ؟! »[(٣)] .

---

(١) المنالة : ما يناله أجراً على العلم .

(٢) المواقفة : بتقديم القاف . الخصومة والجدال .

(٣) انظر الحيوان للجاحظ ١/ ٩١ـ٩٢ .

كان الانطباع غير حميد في نفس ناشئ مولع بالمُثُل ، يستفزّه الانحراف عنها في كل ميدان ، فما بالك في ميدان العلم ونشره .

ثم علق بذهني وأنا أتصفح سير كبار النحاة في (بغية الوعاة) . قولُ الأخفش المتعالي بنفسه : « سألني الكسائي أن أؤلف كتاباً في (معاني القرآن) فألفت كتاباً في المعاني ، فجعله أمامه ، وعمل عليه كتاباً في المعاني ، وعمل الفراء كتاباً في ذلك عليهما ، وقرأ على الكسائي في كتاب سيبويه سراً ، ووهب له سبعين ديناراً »[1] .

فتمت للأخفش في نفسي صورة منذ خمسين سنة ، وكنت أشتهي أن أقع على الكتب الثلاثة في (معاني القرآن) ، كتاب الأخفش ، وكتاب الكسائي ، وكتاب الفراء .

وأسعف الزمان فاطّلعت على كتاب الفراء في أجزائه الثلاثة ، وها أنذا أقدم اليوم كتاب الأخفش بتحقيق الدكتور فائز فارس ، عن نسخة وحيدة ، تحفظها المكتبة الرضوية في (مشهد) إيران تحت رقم ٢٢٠[2] .

تفتتح هذه النشرة لكتاب الأخفش (معاني القرآن) بمقدمة ضافية بلغت (١٣٠) صفة عرض فيها المحقق حياة الأخفش ، فذكر صفاته الخَلْقية والخُلُقية ، ثم عقد فصلاً لشيوخه : سيبويه ، ويونس بن حبيب ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي مالك الأعرابي ، وأبي شمر المعتزلي . وفصلاً لتلاميذه أبي عمر الجرمي ، والسجستاني ، والرياشي ، وأبي جعفر اليزيدي ، والناشي ، والزيادي ، والتوزي ، والنيسابوري ، والمهلبي ، والأشنانداني ، والحرمازي وابني المعذل والكسائي وغيرهم .

أما الفصل الرابع فقصره على مصنفاته ، مشيداً بمعرفته للغة والشعر والعروض ، ولم يفته الإشارة في علم الكلام إلى اعتزاله وحذقه الجدل ، ثم ذكر مصنفاته واحداً

---

(١) انظر بغية الوعاة ١/ ٥٩٠ .

(٢) المقدمة ص١١٥ .

واحداً ، مشيراً إلى ما استطاع معرفته من أماكنها اليوم ، وغير ناسٍ ما طبع منها .

وبذلك أنهى الباب الأول من الكتاب .

أمّا الباب الثاني فحوى فصله الأول لمحة تاريخية إلى تفسير القرآن ، وشيء من تاريخ التفسير واتجاهاته ، وإشارة إلى الكتب الأولى منه التي لا تعدو شرح الغريب والاستشهاد على معناه بأشعار العرب القدماء ، ووصل من هذه ، فنظرة إلى الكلام على (معاني القرآن) للأخفش ، فأشار إلى ترتيبه بين مصنفاته ، ونسخته المخطوطة ، ومكانة الكتاب .

أما الفصل الثاني فمقصور على وصف الكتاب نفسه (ما له وما عليه) في رأيه .

وفي الفصل الثالث تكلّم على مصادر الكتاب وشواهده القرآنية ، والقراءات ، وموقعه منها ثم الشواهد الشعرية وأقوال العرب ، وأمثالها ، ثم آراء العلماء .

ودار الفصل الرابع حول منهج الأخفش في كتابه ، وعرضه لمسائل النحو والصرف ، ومدى أخذه بالسماع والقياس ، وختم المقدمة بعرض منهجه في تحقيق الكتاب ، وذيلها بجداول إحصائية للشواهد الشعرية ، ما نسب منها إلى قائله ، وما لم ينسب .

وأنوّه هنا بالجدول الذي ذكر فيه مصطلحات الأخفش وما يقابلها من المصطلحات المتداولة اليوم(١) .

في قراءتي الكتاب ومقدمته خامرني سرور بما لمست من عزم على التحقيق ، وحيطة في الأحكام ، وعناية بالفهم ، على خلاف ما أجد في الكثير الغالب من أعمال تدور بها المطابع على أنها تحقيق للتراث ، ثم لا تجد فيها إلاّ آثار الادعاء والتلفيق مشفوعة بالألقاب التي أعجب مما تحتها! أنائمين كانوا أم مغفلين أم جاهلين ؟

كان هذا الجهد المبذول بإخلاص بين الجهود المعروضة كل يوم كالدوحة ينعم بها سالك الصحراء . ولكنني ـ ولا بدّ في أعمال البشر من لكن ـ كانت لي وقفات من

---

(١) المقدمة ص١٢٨ .

عمل المحقق ، أنا عارض لها على ترتيب ورودها :

١ـ في المقدمة ص١٧ أراد المحقق أن يبرئ الأخفش مما وصفه به الجاحظ من تعقيد واستغلاق في بيانه فقال :

« وفي سهولة كتاب (معاني القرآن) ما ينفي عن الأخفش تهمة التعقيد » حسن أن يدافع باحث عن مؤلف تهماً رآها غير واردة ، وأحسن منه ألاّ يغلبه الإكبار له ويصرفه عن الرؤية والرويّة ، وليس الجاحظ وحده اتهمه بالاستغلاق ، ففي مقدمة المحقق ص٤٣ قول ابن الخياط لثعلب : « ويحك صاحبك هذا مجنون ، ويتكلم بما لا يفهم » واستشهد بقول الأخفش :

« كم متى مكان السارية رجل ؟ وكم متى مكان السارية ذراع ؟ » .

وحسبك ما اعترف به الأخفش نفسه بقوله : « عملت كتاب (المسائل الكبير) فلم يعرفوا أكثر ما فيه »[1] .

يقصد نحاة الكوفة .

بل نجد في كتابه (معاني القرآن) نفسه شرحه لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة ٢/ ٤٠] حيث قال ص٧٦ :

« وإياي : وقد شغلت الفعل بالاسم المضمر الذي بعده الفعل ، لأن كل ما كان من الأمر أو النهي في هذا النحو فهو مصوب نحو قولك : « زيداً فاضرب أخاه » ، لأن الأمر والنهي مما يضمران كثيراً ، ويحسن فيهما الإضمار ، والرفع أيضاً جائز على ألاّ تضمر إلخ » .

هل يصل أحد إلى مراد المؤلف من القراءة الأولى ؟ فأين الوضوح ؟

ومثلها ما جاء في ص٤٠٣ في شرح الآية : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾ [مريم ١٩/ ٤٤] من قوله : « ويقف في القرآن : (يا أبت) للكتاب » . فهل يفهم القارئ المبتدئ : أن القارئ وقف على هذا التاء تاء مراعاة للرسم في المصحف ؟

وأدلّ من ذلك على إبهامه المعنى على القارئ حتى يضطر إلى قصده والجلوس

---

(١) المقدمة ص٤٣ .

بين يديه سائلاً عن المراد ما جاء في الصفحة ٤٢٣ :

« وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ [الفرقان ٢٥/ ٦٢] يقول : يختلفان » ا . هـ

ولم يزد على هذه الكلمة ، فهل يستطيع أحد أن يفهم من هذه الكلمة أن المعنى هو أن الليل يخلف النهار والنهار يخلف الليل ؟ .

إن الكلمة موهمة ، يحار القارئ لها بين معنيين : وجود الاختلاف بينهما ، ومجيء كل منهما خلف الآخر . ولو أراد الإرشاد إلى المعنى بوضوح وتحديد لقال : (يتعاقبان) وهي كلمة واحدة أيضاً .

وربما عيب عنده الوضوح والتحديد .

لا ، لم يكن الجاحظ متجنياً على الأخفش حين قال كلمة الحق فيه : « لمَ لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدم بعض العويص ، وتؤخر بعض المفهوم ؟ » .

إن كتابه (معاني القرآن) هذا ليس بمنجاة عن هذا الحكم .

٢ـ ص٩٠ من المقدمة ، علّق المحقق على قول بشار في هجاء سيبويه :

أَسِيبُويَهْ يا ابن الفارسية ما الذي ... تحدثت عن شتمي وما كنت تَنْبُذُ[١]

يقول في الحاشية (٢) : هي في الأغاني بالياء بعد السين (لعله يريد : بعد الواو) .

ولا بد من إسقاط هذه الياء ليستقيم البيت من الطويل ، وهي : (أسيبوه) عند المرزباني ا . هـ

قلت : كان المحدثون يكرهون النطق به كما هو مألوف . ويلفظونها بضم الباء وفتح الياء ، وبهذا يستقيم الوزن أيضاً : أسيبويَ . تاج العروس مادة (سيب) .

٣ـ روى المحقق في ص١١١ من المقدمة أن النحويين عزوا إلى الأخفش تجويزه

---

(١) ديوان بشار ، ط صادر ص٤٤٥ . والصواب كي يستقيم الوزن حذف الهاء من آخر الاسم ، أي : (أسيبُويَ) .

الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، واحتاط في حكمة على هذه النسبة ، لكنه قال بعد احتياطه ص١١٢ : « وأبو الحسن لم يكن في حاجة إلى القراءات الشاذة والضعيفة ليضيفها إلى ما وصل إليه » .

وذلك وهم أن القراءة التي فصلت بين المضاف والمضاف إليه فيها شذوذ أو ضعف ، وذلك غير صحيح ، فالقراءة صحيحة قرأ بها عبد الله بن عامر أحد السبعة ، والقاعدة صحيحة ، وكان على النحاة أن يكملوا قاعدتهم بجواز الفصل بين المتضايفين أو الجار والمجرور .

أو القسم ، بقولهم : « أو معمول المصدر » ويستشهدوا على ذلك بقراءة عبد الله ابن عامر أحد السبعة :

« وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم »[(١)] .

وفي ص٢٦٠ تناقض بين النص والتعليق : جاء في الكلام على الآية : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المائدة ٥/ ٥٣] .

قال أبو عمرو : والنصب لفعل (يقول) محال ؛ لأنه لا يجوز : « عسى الله أن يقول الذين آمنوا »[(٢)] . ثم الحاشية (٣٥) ففيها : قرأ أبو عمرو وحده : (ويقولَ) أيضاً[(٣)] . ا . هـ .

أقول ما في الحاشية صحيح ، ويبقى الإسكان في النص نفسه ، فينبغي أن يزال .

٥- في ص١٣١ جاء في الحاشية (٥٢٧) البيت الآتي :

فإن يكُ خيلي قد أُصيبتْ صميمها ....

والصواب كما في المصادر المذكورة ، وما تقتضيه المطابقة في التذكير هو :

فإن تك خيلي قد أُصيبَ صميمها[(٤)] ....

---

(١) الأنعام ٦/ ١٣٧ . وانظر كتاب السبعة لابن مجاهد ٢٧٠ .

(٢) انظر في أصول النحو للأستاذ . ط٣ : جامعة دمشق ١٩٦٤م . ص٤٠ .

(٣) انظر كتاب السبعة ٢٤٥ .

(٤) قلت : هذا صدر بيت من الطويل ، وعجزه : « فعمداً على عَيْنٍ تيمَّمْتُ مالكا » . وهو لخفاف بن ندبة انظر اللسان (صمم) .

٦ـ في ص٣٩٨ فسّر الأخفش قوله تعالىٰ : ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الكهف ١٨/ ٦٠] بقوله : « أي لا أزال . قال الشاعر :

وما برحوا حتى تهادت نساؤهم ببطحاء ذي قارٍ عيابَ اللطائمِ

أي : ما زالوا » اهـ .

قلت : تفسير الآية هذا سليم ، لكن شاهده غير سليم ، فهو بمعنى : (ما ذهبوا حتى) . على حين معنى الآية : (لا أبرح سائراً حتى) .

وعلّق المحقق قائلاً : « وهو من شواهد أبي حيان في البحر المحيط ، ونرى الأخفش يجيز حذف خبر (ما برح) إن دلّ عليه دليل »[1] ا . هـ .

وتبع فيه المحقق أبا حيان ، والصواب أن (ما برحوا) في البيت تامة .

ومنها قوله تعالىٰ على لسان كبير إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف ١٢/ ٨٠] .

٧ـ ص٤١٥ في الحاشية (٧) ألفاظ من العبرية والسريانية والسبئية في صدد شرحه لكلمة (صلوات) ملأت خمسة أسطر لا لزوم لها البتة في مثل هذا الكتاب ، ويكفي هنا السطر المنقول عن لسان العرب .

وأحب حين يكون الموضوع متعلقاً بالساميات تصوير اللفظ السامي بأقرب حروف عربية إليه ، لفائدة القارئ حين تدعو لذلك حاجة .

٨ـ وهذا اقتراح عام : لا يتضح المراد من شرح أبي عمرو المُدرج في ص٢٦٠ ، إلاّ حين يفتح القارئ المصحف ، ويمعن في السياق ، وأستحبُّ في مثل هذا إدراج الآيتين في الحاشية ، وقد كان الحفظ في القديم شائعاً في طلبة العلم في نحو العاشرة من أعمارهم ، ونتلافى هذا اليوم هذا النقص بإكمال الآية في الحاشية ، حتى يستوعب القارئ ما يقال في المتن . وبتر الشاهد عائق كبير لفهم المراد .

حواشي المحقق أقرب إلى الاعتدال ، والتكثير في ذكر المصادر بلوى عامة ،

---

(١) انظر البحر المحيط ٧/ ١٩٨ .

وأكثر ما تكون عند غير المحصلين الواعين ، فإذا كان حكم في (كتاب سيبويه) فمصدره كتاب سيبويه فقط ولا لزوم لإدراج كل الكتب التي نقلت عنه منذ عهده حتى أيامنا هذه . وكذا الشواهد ، فإذا ذكر الديوان فلا لزوم لذكر الأشموني وابن عقيل والمفصل وشرحه و . . . إلخ .

والأصل في ذلك التوثيق ذكرُ المنبع الأول ، ولا تثقل الحواشي بهذا الغثاء الذي لا طائل تحته ، وما أكثر ما قرأت في بعض المطبوع من كتب التراث هذه الأيام حواشي ثقيلة بذكر المصادر ، ولا كلمة البتة عن ذكر شرح كلمة غريبة أو تفسير جملة غامضة ، بحيث يستطيع القارئ المضي حتى يرجع إلى المعجمات كأنه يطالع نسخة خطية لا مطبوعة ادعى لها التحقيق والتصحيح والتيسير .

وهذه ملاحظة أذكرها بالمناسبة عسى أن تكبح المتسرّعين إلى (الإنتاج) على غير هدى ، ولا استعداد ، ولا بصيرة فيما يذكر وما لا يذكر .

لا أكون وفيت المحقق حقه إذا أهملت الإشادة بفهرسته المتقنة ، وبعضها تفرّد بها ؛ لأنه أيقن أن حاجة مُراجع الكتاب لا تسد من دونها ، ولكل كتاب حاجته الخاصة ، يفطن إليها من طالت ممارسته وإمعانه فيه ، ولا بأس في سردها على القارئ ليقدر عناية المحقق قدرها كما وردت :

١ـ فهرس الشواهد القرآنية

٢ـ فهرس القراءات القرآنية

٣ـ فهرس الأشعار

٤ـ فهرس الأرجاز

٥ـ فهرس الشعراء

٦ـ فهرس الأعلام

٧ـ فهرس الأصوات

٨ـ فهرس الصرف

٩ـ فهرس النحو

١٠ـ فهرس الدلالة

١١ـ فهرس الأقوال والأمثال

١٢ـ فهرس اللغات

١٣ـ فهرس الأدوات

١٤ـ قائمة المصادر والمراجع

١٥ـ فهرس الموضوعات

أما الكلام على عمل الأخفش وما يؤخذ عليه فموضوع آخر ، أرجو أن أقوم به قريباً بتيسير الله[١] .

ولينعم المحقق بما أنعم الله عليه من إخلاص ، لقد وضع قدمه على الجادة التي كادت تجلو ، وتجنب بنيات الطرق المزدحمة بالأدعياء ، فأهلاً بباحث نغْتبط بتقديمه لخدمة الأمة وتراثها .

---

(١) وفى أستاذنا بما وعد ، وقد تقدّم البحث في كتاب اللغة والنحو من قبل ، تحت عنوان : « مع الأخفش الأوسط في كتابه (معاني القرآن) فليراجع هناك .

صانعو التاريخ العربي
(تأليف د . فيليب حتي ، ترجمة د . أنيس فريحة)

مقالة عرض فيها أستاذنا الكتاب ، موضحاً خضوع صاحبه لآراء كنسية وصليبية واستعمارية معادية لكل ما هو عربي ومسلم . وحاقدة عليه . ومما زاد الإساءة للكتاب الترجمة الركيكة السقيمة .

نشرت في مجلة كلية الآداب بجامعة بنغازي ، العدد ٦ لعام ١٩٧٤م .

هذا الكتاب حصيلة ما ترسب من انطباع في ذهن مؤلفه عن العرب والإسلام في فترتين من حياته ، فترة شبابه وفترة استقلاله ، ويشبهه في ذلك عدد من ناشري الكتاب ؛ وإذ كان هؤلاء يمثلون شبه ظاهرة في أيامنا هذه ، كان من الحق والأمانة لتاريخ عصرنا بيانها صريحة غير مجمجمة :

فأما الفترة الأولى فقد كان فيها فريسة عوامل ثلاثة ، كلها وضع على عينيه نظارة سوداء مقعرة في جزء ، محدبة في جزء ، بعد أن شحنت نفسه الناشئة المتفتحة لما يوحى إليها ، بكل ما في الصليبية[١] المتوارثة عند دول الاستعمار من حقد وعداوة

---

(١) يخلط بعضهم بين النصرانية والصليبية لذا كان من الواجب التفريق بينهما :
فالنصرانية هي الدين الذي جاء به السيد المسيح عليه السلام ، والصليبية هي الروح الخبيثة التي شحن بها بابوات القرون الوسطى أتباعهم من العوام الأوروبيين حتى تيسر لهم تجهيز حملات متطوعة منهم لإنقاذ الأرض المقدسة ـ زعموا ـ من أيدي المسلمين . وكان من هذه الحملات وباء جارف من الوحشية والقذارة والبعد عن الإنسانية ، واستمرت نحو مئتي عام ، رجع بعدها الصليبيون إلى بلادهم وقد اكتسبوا ـ على زعمهم ـ شيئاً من حضارة المسلمين . وما زالت هذه الروح الخبيثة تنمو وتتطور حتى صارت في أيامنا غزواً ظاهراً وخفياً وحرباً لا سرية فيها ؛ ميادينها الأديان والأوطان والأفكار والأذهان ، والكتب ومنابر الجامعات والمؤتمرات . . ثم نفوس أبنائنا الذين نرسلهم ليتعلموا في أوروبة وأمريكة كل اختصاص حتى التاريخ والعربية والشريعة ، إي والله =

للعرب والإسلام ، ومن تزييف للحقائق ، واختراع للسير والأحكام ، ثم قيل له : بهذا المنظار انظر كلما أردت أن تعرف أو تذيع شيئاً عن العرب والإسلام .

هذه العوامل الثلاثة هي : الكنيسة ، والغزو الفكري الأجنبي المتمثل في المبشرين والمستشرقين ، والبيئة العامة التي نشأ فيها وكانت قد اتخذت اتجاهات خاصة أواخر أيام العثمانيين ، حول سنة ١٨٦٠م بالتحديد . خلق هذه الاتجاهات وغذاها الدول الأجنبية ذات الأطماع القديمة المعروفة في بلاد الشام (ساحلاً وداخلاً) ؛ فاستغلت ضعف الدولة العثمانية (الرجل المريض) واستغلت تمتعها بالامتيازات التي لا حدود لها في جسم هذا الرجل المريض ، حتى أصبحت دوائر قناصلها حكومات داخل حكومة ، فكان لروسية وفرنسة وإيطالية وإنكلترة وأمريكة وحتى الدانمارك وهولندة وبلجيكة . . فئات من الإرساليات التبشيرية (كنائس ومدارس ومستشفيات) في هذه الرقعة الصغيرة من الأرض بين جبال طوروس وغزة . وكانت القدس وبيروت أكثرها مباءات لتلك الدول ؛ ولم يكن فيها حينئذ مدارس نظامية للتعليم غيرها ، إلاّ ما ندر من كتاتيب عزف عنها غير الفقراء من الناس .

من هذه المؤسسات نشأ معلمو الأجيال اللاحقة ، فزرعوا في نفوس تلاميذهم ما كان زُرع فيهم من جراثيم الوباء ، وتسلسل الوباء وانتشر حتى صار سلطة ذات قوة تؤيد أفكارها ومبادئها بالنار والحديد أيام الاحتلال الفرنسي في النصف الشمالي من سورية ، والاحتلال البريطاني في نصفها الجنوبي . وحمل النشء هذه النوازع الأثيمة بمقادير تتفاوت تبعاً لاستعداد كل نفس وما فيها من مناعة أو طواعية ، وتبعاً للطائفة التي ينتمي إليها الناشئون وللأسر التي يربون فيها .

وأما الفترة الثانية فحين يلتحق الناشئ بالجامعات ، ويتغرب في طلب العلم في أوربة وأمريكة وتؤخذ نفسه بالظاهر المنتشر هناك من روح الحرية والاستقلال في الرأي ، ويحاول ـ إن كان فيه نزوع للخير ـ أن يكون حراً مستقلاً فيما يطالع ويتخذ

= حتى العربية والشريعة في بعض الأقطار الغربية فيأتوننا ـ إلا من عصم الله ـ بما يريد العدو من أفكار تدمر كل قائم من مقومات المجتمع ، كل يعمل لهم في اختصاصه .

من رأي ، وربما كان مخلصاً في ابتغائه لنفسه التحرر و(موضوعية البحث) والنزاهة في الحكم ، لكن (الروح اليهودية الخفية) المتغلغلة بخبث ونعومة في أروقة الجامعات الأوروبية والأميركية منذ القرن الثامن عشر تسوقه إلى المزالق من حيث لا يشعر ، إذ صرفت اتجاهه عن المصادر السليمة في بحثه (وهو أيضاً ضعيف في لغتها لم يألفها) ، وأحاطته بل أغرقته بالمصادر الملوثة (الموجهة) ذات المنهج البراق ، فتملأت نفسه منها وصدر عنها في أحكامه . ولا يبرئه من التبعة في رأي العلم والحق حسن نيته وأنه لم يهتد إلاّ إلى هذه المصادر المضللة .

ما أردت بهذه الأسطر دفاعاً عن المؤلف ، بل تقريراً لواقع أحاط به ولا يد له فيه ، إنه مسيَّر غير مخيَّر ، شأنه شأن عشرات ممن أغرقوا أسواق بيروت بكتبهم واستولوا على منابر في جامعات بمساع ممن منحهم الشهادات في فترة أظنها بشَّرت بالانقضاء بإذن الله ، فترة أسميها (فترة الانبهار بالبريق الأجنبي) ، فترة أعرف من أساتيذها عدداً إذا لم يروا في بحوث طلابهم وعلى صفحاتها قائمة بالمصادر الأجنبية بأحرفها اللاتينية ولو كان البحث في (لغة باعة البقول في سوق القرية) أسقطوا البحث وقالوا : بحث غير جامعي ولا منهجي!!

لا بد من هذا البيان إنصافاً للمؤلف وأمثاله ، وحين يستطيع الإفلات من هذا الإطار وذلك المنظار ويترك عقله وعينيه ترى الأشياء كما خلقها الله يقع على صواب كثير لا يخفى على المتأمل في كتابه وسأشير إلى بعضه .

شيء واحد وددت أنه لم يقع ، هو الزج بكلمة (تاريخ) في عنوان الكتاب وفي صفحاته كما زُجّ بكلمة (البحث العلمي) ، وكان الصدق أن يكون العنوان : (انطباعاتي عن عظماء عرب) ، وسترى أن الكتاب ليس من التاريخ في شيء لفقدان صاحبه الأدوات التي لا بد منها لمن يكتب عن العرب والإسلام ، وأن ما فيه من صواب هو نتيجة اللحظات التي تحرر فيها المؤلف من سلطان الشحنات السابقة .

* *

خطة الكتاب التي سلكها المؤلف في انتقاء مصادره واهية جداً ، وهي هي التي أبعدت كتابه عن الالتحاق بكتب التاريخ أو شبه التاريخ ، قال في مقدمته القصيرة :

« إن المادة التي اعتمدناها في هذه الدراسة مستمدة من المصادر الأولية (؟) ، بعد مقابلتها بنتائج الأبحاث العلمية (!!! ؟) التي قام بها علماء في الشرق والغرب (؟) . ولذا لم نرَ ضرورة للقيام بأبحاث مستجدة ، فقد استفدنا من المادة التي أثبتناها في كتبنا السابقة : (تاريخ العرب) و(تاريخ سورية) و(تاريخ لبنان) و(تاريخ الشرق الأدنى)[1] » .

ويعلم المؤلف الفاضل أن كتبه المذكورة لا تصلح مصادر للاعتماد ، لانجراره فيها على أذيال أجانب بعيدين كل البعد عن روح الأمة العربية في بقاعها ، وعن تمثّل روح الشعوب التي يحاولون الكتابة عنها ، والديانات التي يدينون بها ، وهيهات لمثلهم أن يطابق كلامهم الواقع على حقيقته مهما يحاولوا ، هذا فيمن حسنت نيته منهم ، بصرف النظر عمن يرغمون المعلومات على خدمة أهداف موجهة من الأصل توجيهاً مرسوماً سابقاً لزعزعة مجتمع ما ، إنهم يصبّون في ذهنه عصارات سامة تلتهم إيمانه بنفسه وبتاريخه وبأمته وبدينه وبلغته وبكل مقوماته الأصيلة كما تفعل العناكب السامة فيما يعلق بشباكها تمهيداً لافتراسه .

كان على المؤلف أن يبيّن ماذا يعني بـ (المصادر الأولية) ، ألم يقل في مقدمته : « ولو أن كاتباً غيرنا حاول ما حاولناه . . . لكان فسّر التاريخ على غير ما فسّرناه »[2] . والذي ينعم النظر في حواشيه التي يعزو فيها إلى مصادره يجدها قليلة جداً ، ويجد أن بعضها لا يصلح مصدراً في دراسة نزيهة جادة ، ولاسيما الأجنبي منها ، ولعل أكثر مصادره اطلاعاً هو الأب (لامنس) ، والمؤلف يعلم أنه ذو نزعة متطرفة متهورة بعيدة عن الأمانة ، موغلة في تزييف الأحكام ليحظى برتبة (قديس) جزاء جهوده في غسل أدمغة تلاميذه في منطقة الاحتلال الفرنسي وقراء كتاباته خارجها ، من كل حقيقة تتعلق بالعرب والإسلام ليحل محلها الزيف الذي صنعه ، ويعلم كذلك أن جمهرة المستشرقين لا تعتمده ، مع إقراري أنا شخصياً بأنه من أكثرهم اطلاعاً على تراثنا ، لكن نقله واستنباطه لا أمانة فيهما البتة .

---

(١) ص٧ .
(٢) ص٧ .

أما شهادة المؤلف بأن (لامنس) « أنصف الأمويين في حكمه »[1] فلعل مردها إلى النظرة السطحية المتسرعة الساذجة ، فلامنس آخر من يلفته الإنصاف ، لكنه رأى مؤرخين عرباً اتهموا الأمويين بقلة الدين والجور وبتقريب النصارى والعكوف على الخمور والملذات ، فكان رد الفعل عنده أن يُشيد بهم من حيث ظن خروج كثرتهم على الإسلام فذلك ما عطفه عليهم[2] .

ما أظن أن المؤلف الفاضل الدكتور فيليب حتي يماري في أن الخطوة الأولى في الأسلوب السليم في التأليف ، هي عرض المصادر ونقدها وغربلتها وتقويمها ثم تصنيفها قبل المضي في الاعتماد عليها ، وهو ما لم يفعله في كتابه هذا ولا كتبه السابقة التي اعتمد عليها . ومن هنا استبعدنا أن يكون هذا الكتاب تاريخاً أو دراسة علمية ، إنه انطباع شخصي بعد رؤية بالمنظار الأسود المهوش الذي وصفنا آنفاً ، فلننظر في بعض أجزاء لبعض الصور التي نتجت عن هذه الرؤية .

* *

عن الرسول :

لم يستند في أكثر كلامه عنه على حقائق موثوق بها تاريخياً ، بل خلط روايات بتفاسير شعبية وأساطير قال : إنها (إسلامية مسيحية) كأسطورة (بحيرى الراهب) التي لم تصح ، ليسوغ لنفسه أن يقول :

١ـ « إنها تعكس لنا شيئاً عن العلاقات القديمة بين الديانتين وعن أثر المسيحية » ـ ص١٦ .

ونقول : إن الذي لا أصل له ـ ويوافقنا عليه المؤلف فيما نظن ـ لا يعكس شيئاً البتة ، والأساطير والروايات الموضوعة فيما بعد ، لا تقرر حقائق سابقة ، فخيالُ أن يكون علاقات قديمة بين الديانتين أضغاث أحلام .

---

(١) ستمر إشارة أخرى إليه في بحثنا (البناء على الشاهد الأبتر) في العدد القادم إن شاء الله .
قلت : تقدم في كتاب (اللغة والنحو) فليراجع في مكانه .

(٢) الحاشية السابقة .

٢ـ « ينبغي أن يكون النصارى الذين تعرف إليهم النبي (كذا ، كأنه انتهى من تحقيقه) من جماعة السريان أو الأقباط أو الأحباش على أطراف سورية والعراق » ص١٧ .

ما مصادرك في أنه تعرف على نصارى ؟ من هم ؟ ولماذا (ينبغي أن يكون) ؟ ومن وضع الأحباش على أطراف سورية والعراق ؟ أسئلة أعفى المؤلف نفسه من الجواب عنها ، بل من التفكير فيها .

٣ـ « ولربما كان النبي ينتفع بالقراءة والكتابة في تصريف شؤونه ، ولكن يبدو أنه لم يكن متأكداً من أنه يستطيع أن يكتب أموراً في الدين »!!! ـ ص١٨ . لا تعليق ، ولعل لهذه الجملة معنى في الأصل الإنكليزي .

أعرف أن مبشرين ومستشرقين حاولوا بكثرة التكرار إيهامنا أنه ﷺ يعرف الكتابة ، لكنها كانت محاولة صبيانية ساذجة ، وإلاّ فهل كان يسكت القرشيون الألداء في خصومتهم عمن تحداهم بالقرآن وبأنه أمي لا يكتب وهو يقرعهم كل يوم بالآية الكريمة : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/ ٤٨] ، لو عرفوا أن له إلماماً ولو قليلاً بالكتابة ؟

لم يسأل المؤلف نفسه هذا السؤال وهو يحاول كتابة تاريخ!

٤ـ « وأول من استجاب لهذه الدعوة الكريمة بعد صحبه والأقربين من أهله كانت جماعة المنبوذين والمعدمين والعبيد ، وهم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة ﴿ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء ٢٦/ ١١١] .

لا أيها الفاضل ، إن هذه الآية نزلت في أتباع نوح لا أتباع محمد ، عد إليها وابدأ قبل سطرين فسترى أن مصادرك خاطئة .

٥ـ « واعترافه بالكعبة وبالحجر الأسود وببئر زمزم وهي من بقايا الجاهلية العربية ، جعل الإسلام يبتعد عن الديانتين التوحيديتين اليهودية والنصرانية . ص٣١ .

تساءلت : أبقي مثقف أجنبي (بله العربي) من دارسي تاريخ العرب سنة تأليف

الكتاب لا يعلم أن هذه بقايا من دين إبراهيم ، استغلها عرب الجاهلية لأوثانهم ، حتى جاء الإسلام فأعاد لها مكانتها الأولى وطهرها من الأوثان والأصنام ؟

وأدعى إلى العجب أن يعترف المؤلف بعد أسطر بقوله « لاقى النبي العربي والقرآن الكريم على يد المسيحيين في العصور الوسيطة من التشويه والتشنيع الشيء الكثير ، وتبدو هذه الحقيقة مذهلة لأن الإسلام من (بين) جميع الأديان الأخرى أقرب دين إلى المسيحية . . إلخ » ص ـ٣٢ .

تولى المؤلف الرد على نفسه فكفانا المؤونة ، وسيكون أقرب إلى الواقع حين يحذف في طبعة قادمة قوله (في العصور الوسيطة ، فالأمر ـ كما يعرف ـ استمر واتسع في عصرنا هذا ، وكان حاله في الأقربين أشد منها في الأجنبين .

عن عمر :

٦ـ « كان عمر أكثر اقتداراً من أبي بكر . . . عمر حاول أن يقضي على حروب الردة » ـ ص٣٧ .

٧ـ « كان عمر في الخامسة والأربعين من عمره عندما دخل الإسلام » ص٣٧ ـ « وكان عند إسلامه في الرابعة والثلاثين من عمره » ـ ص٤٠ !!!

٨ـ « الواقع أن هذا الكتاب الذي كتبه عمر إلى الأمصار يفصح[1] عما كان يضمره من حسد »!! . ـ ص٤٨ .

٩ـ عقب المؤلف على إقامة عمر الحد على ابنه أسوة بغيره من عامة الرعية بقوله : « والغريب أن المؤرخين المعاصرين الذين يكتبون سيرة عمر يتغاضون عن عنصر القسوة في هذه الحادثة ، تماماً كما أنهم يتغاضون عن قسوته في معاملته خالداً وإذلاله بعد خدماته الجلّى ، ولكن عبادة الأشخاص تحول دون رؤية الخطأ فيمن يعبدونه » . ـ ص٦٠ .

---

(١) وهو : « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع . . » .
والظاهر أن المؤلف خفي عليه معنى « فخفت أن يوكلوا إليه » وهو عكس ما قاله تماماً ، هو إبعاد عن تفخيم الأشخاص بله عبادتهم .

أنحتاج إلى أكثر من هذه النقول عن المؤلف لنوقن أنه لم يعرف عمر ولا المبادئ التي يصدر عنها عمر ، وأن من عناهم بالمعاصرين ربما كانوا أعمق فهماً وأبعد عن السذاجة في الحكم . لقد أثار المؤلف في نفسي الإشفاق أكثر من شيء آخر ، حين كانت قدمه الواحدة على الأرض وحاول رفع الثانية إلى أعلى درجات السلم ، وذلك حين وازن ـ وفهمه للتاريخ هذا الفهم ـ بين أبي بكر وعمر .

عن علي :

١٠ـ « كان بضربة سيفه يقطع الفارس وهو على صهوة جواده إلى نصفين ، النصف الأسفل يبقى على الجواد ، ويتدحرج النصف الأعلى على الأرض!! » ـ ص٦٤ . (كذا)

١١ـ قتل عثمان « نتيجة لمؤامرة اشترك بها المسلمون بمن فيهم (كذا) عليّ على ما يرجح!! » ـ ص٦٤ .

١٢ـ « كان علي يمارس سياسة مترددة متقلبة . . . أعوزته مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر ويقظة وحزم . . . هو زعيم فئة إسلامية كبيرة ؛ الشيعة . . . والواقع أن علياً في معتقدات العامة من الشيعة يحتل مرتبة أعلى من مرتبة محمد ، وغلاتهم يؤلهونه » ـ ص٦٧ .

١٣ـ « الخلافة التي تولاها مؤسس الشيعة عليّ مدة خمس سنوات » ـ ص١٣٣

١٤ـ « أفلح عبيد الله المهدي في تسلم صولجان علي بن أبي طالب » . ـ ص١٦٠ .

وكل هذا ليس من التاريخ في شيء ، فلم يشترك عليّ في مؤامرة ، وهو أتقى لله وأعلى نبلاً من أن ينحدر إلى هذا ، والمؤامرة سيق إليها بعض المسلمين بدسائس يهودي مريب هو ابن سبأ واستنكرها عامة المسلمين ، فقوله : « اشترك فيها المسلمون بمن فيهم عليّ » جهل بالتاريخ وبعليّ معاً ، وعليّ صدر في مآتيه عن أحكام الشريعة لا عن سياسة متقلبة ، ولم تعوزه مزايا الزعامة السياسية ، ولكن خوف الله ألجمه عن كل دسائس السياسة ، ومن السذاجة والظلم معاً أن نقايس من نعرف من السياسيين من بغاة المناصب والمنافع أياً كانت السبل إلى منافعهم ، بمن

كانت المثل العليا بين عينيه في كل ما يأتي وما يذر . والشيعة الذين يحلون علياً فوق مرتبة محمد لم يخلقهم الله ، وإنما خلقهم خيال الكتاب الأجانب وأهواؤهم ، والمؤلهون علياً ليسوا من الشيعة البتة . وعليّ لم يؤسس الشيعة ولا كانت على أيامه ، ولم يكن زعيمهم بل كان خليفة للمسلمين عامة ، ولا ابتغى ملكاً ولا صولجاناً ولا . . كل ما جاء في هذه الأسطر من أوهام يبرأ منها التاريخ الصحيح . ومن شدا شيئاً من التاريخ العربي في مصادره السليمة يعرف بطلان كل ما قال المؤلف .

في المقالات والعقائد :

١٥ـ « الدين والفلسفة عدوان طبيعيان لأن الدين يعتمد الوحي والفلسفة تعتمد العقل » ـ ص٢١٣ .

قول مردد كثيراً في أوربة المسيحية ، لكن نقله إلى دين آخر ومكان آخر هو الباطل ، ولا تضاد بين الوحي الصادق والعقل السليم .

١٦ـ « كان المعتزلة قد سبقوا المتكلمين (!!!) في الأخذ عن الفلسفة الإغريقية والمنطق الأرسطي لدعم حججهم ، غير أن المعتزلة كانت لهم ميول فاطمية (!!) بينما كان المتكلمون من السنّيين (!!) .

وإزاء المتكلمين كان هناك الشيعة الباطنية (!!) الذين كانوا يرون أن للنصوص الدينية تفسيراً باطنياً أشرنا إليه عند كلامنا على الإسماعيلية ، ومقابل الباطنية كانت الفرقة التي تعرف بالظاهرية (!!) والتي تقول بالتفسير الحرفي للنصوص الدينية »!! . ـ ص٢٠٣ .

وهذا كله تخليط من لا يعرف الفرق ولا مقالاتهم ، والمسلم به أنه لا يهجم على الكلام في الملل والنحل ارتجالاً . إنه يحتاج إلى دراسات متنوعة متأنية ، ونقول للمؤلف بإيجاز :

المعتزلة من المتكلمين بل هم أبرز أهل الكلام بين الفرق ، والكلام ليس قاصراً على أهل السنة ، بل في الشيعة متكلمون ، والباطنية ليسوا شيعة بعد أن انفردوا بمبادئ جديدة ، ولا يوضعون إزاء المتكلمين ، والظاهريون لا يقابلون الباطنيين ،

إن الباطنية نحلة خاصة منطوية على نفسها ، والظاهرية ليست نحلة ولا طائفة ، هي مدرسة فقهية من أهل السنة كالشافعية والحنفية والزيدية والمالكية ، كلهم سنيون . . .

وما كان أغنى المؤلف عن الخوض في هذه المتاهات لأمثاله كما خاض المستشرقون ، ولو تركها لأهلها لأراح واستراح .

في المذاهب الفقهية :

١٧ـ « برزت شخصيتان الأولى منهما في الحقل الفكري (!) والثانية في الحقل الديني (!) وهما الإمام أبو حنيفة ومالك بن أنس . . . كان أبو حنيفة عالماً يعنى بالنظريات (!!) وأما مالك فكان عالماً دينياً يمارس القضاء (!!) . . . وكان المذهب المالكي يعتمد الحديث بينما المذهب الحنفي يعتمد القياس والرأي . . . فلم يتأثر بمذهبهم (يعني أهل المدينة) الذي يعتمد الحديث والسنة ، بل كان يأخذ بالاستحسان والقياس . . . فإن الفروقات (كذا) بين المذهبين قليلة ودقيقة بحيث أنه يصعب على الدارس أن يكتشفها » . ـ ص٢٣٣ .

١٨ـ « إن بعض الشعائر والعادات الدينية السابقة للإسلام (؟) ظلت متبعة بعد الإسلام عن طريق الإجماع ، وكذلك الأمر فيما كان يحسبه علماء الدين خروجاً على الدين أو بدعة باطلة فإنه بواسطة الإجماع أصبح أمراً مألوفاً مقبولاً في معتقدات العامة من الناس » . ـ ص٢٤٧ .

الكلام الأول (١٧) عن أبي حنيفة ومالك تخليط مخترع أعجب مما سبق ، وليت من يجهل شيئاً لا يحاول (فبركة) المعلومات عنه ولا التفلسف فيه ؛ فأبو حنيفة ومالك (عالمان دينيان) عملا في حقل واحد هو الفقه ، والكتاب والسنة أصلان عند الإمامين لا يقدم عليهما شيء ، وأبو حنيفة لم يعنَ بالنظريات ، ومالك لم يكن قاضياً ، وكل هذا يعلمه المثقف العربي بالضرورة . وقد أثار المؤلف عجبي وحيرتي فقد قرر في أول الفقرة (١٧) أن لكل منهما حقلاً مختلفاً عن الآخر هذا يعنى بالنظريات (؟) وذاك عالم ديني ، ولم ينهِ الفقرة نفسها حتى نقض أولها فقال : « إن الفروقات (كذا عبارة المترجم) بين المذهبين قليلة ودقيقة ، بحيث إنه

يصعب على الدارس أن يكتشفها »!!

أما الفقرة (١٨) فكلها باطل لا أصل له ، فلا الشعائر الدينية تثبت عن طريق الإجماع ، ولا معتقدات العامة تجعل البدعة مقبولة ، والمؤلف ـ كما ظهر ـ لا يعرف الإجماع ما هو ، وما كان بدعة سيظل بدعة ، ولا علاقة لمعتقدات العامة في إثبات شريعة .

* *

وبعد ، فلعل المؤلف الفاضل اقتنع كما اقتنع الكاتب بأن أدوات البحث لموضوع الكتاب غير متاحة له ، ومن هنا قلنا : إن الكتاب ليس كتاب تاريخ بحال من الأحوال ، بل سجلٌ انطباعات في ذهن المؤلف بعد سنين وقراءات بعضها صحيح وأكثرها باطل .

أما حين ينفرد المؤلف مستقلاً عن غيره ـ وقلما يكون ذلك ـ فقد يأتي بأحكام بعضها يستحق النقاش وبعضها يعوزه الإحكام والاحتياط في التعبير وبعضها سديد .

فمثال النوع الأول قوله عن القومية : « العصبية القبلية التي نسميها في لغتنا السياسية : القومية » .

ومثال النوع الثاني آخر جملة في الكتاب : « ابن خلدون أول من فلسف التاريخ ، وآخر جبار من جبابرة الفكر في الإسلام »[١] .

أما « أول من فلسف التاريخ » فوددت لو ألحق بها (في حد علمي) فالذي نشر من تراثنا هو الأقل ، ومن يدري لعل الغد يكشف لابن خلدون سلفاً سابقاً ، وأما جملة (آخر جبابرة الفكر) فقد أذكرتني بقصيدة فيكتور هوغو يخاطب نابليون الأول الذي لقب وليده (امبراطور الغد) وقوله له (الغد بيد الله لا بيدك) ، ومنذا حجّر فضل الله ألا يأتي من يفوق ابن خلدون في المستقبل . فهل انتهى عمر الدنيا يوم ألف المؤلف كتابه! ؟

وأما مثال النوع الثالث فقد كشف عن نظرة شاملة صحيحة سديدة ، يحاول كثير

---

(١) ص٣٥٣ .

من الأجانب وأذنابهم سترها أو تزييفها ، لقد أرسلها المؤلف واضحة قيمة لا عوج فيها ولا التواء في مطلع كتابه وذلك قوله[1] :

« لم يسجل التاريخ لنا اسم رجل واحد سوى النبي العربي محمد ، كان صاحب رسالة وباني أمة ومؤسس دولة . . . هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة متراصة لا يمكن أن تنفصم الواحدة منها عن الأخرى ، وكانت إلى حدٍّ ما متوافقة يشد بعضها أزر بعض ، وكان الدين من بينها ، على مدى التاريخ ، القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمناً » .

هذا بعض ما سجلت حين قرأت الكتاب ، ووددت لو كان المؤلف قريباً مني فأطلعه على كل ما سجلت وأذاكره في أمور كثيرة في كتابه[2] ، فبعض انطباعاته المستقلة توحي بأن المذاكرة معه ليست عقيماً ، وأنا بعد أحسن الظن بالطبيعة البشرية وميلها إلى الخير إنْ خليتْ ونفسها ، بعيداً عن كل مؤثر وموسوس .

* *

---

(١) ص١٣ .

(٢) لا أدري ماذا تحمل الترجمة من تبعة أو إساءة ، لكني شعرت أنها ليست هناك ، وأن صاحبها غريب عن موضوع العرب والإسلام ، وأن الركاكة وسقم اللغة وضعف الثقافة تسيء إلى كل موضوع ، فمثلاً :

ص١٧ـ « غاب حراء » ، ليس في مكة غابات ، و(حراء) مغارة في جبل معروف في مكة .

ص١٧ـ و« يتهجمني لك العتي ترضى » كلمات لا معنى لها ، ولو رجع المترجم إلى حيث أشار المؤلف لوجد الصواب : « يتجهمني ، لك العتبى حتى ترضى » .

ص٦٤ـ « اشترك المسلمون بمن فيهم علي » تعبير غاية في الركاكة ، ولو سلك السهولة فقال (اشترك المسلمون وفيهم علي) لنجا .

ص٧٤ـ « ذاكرش ناتئ » . الكرش تؤنثها العرب ـ انظر « مختار الصحاح » أصغر معجم صحيح .

ص٨٨ـ « اليمانيون » خطأ ، صوابه إما (اليمنيون) وإما (اليمانون) .

ص١٣ـ بنو أمماً صوابها (بنوا أمماً) .

ص١٣ـ المؤلف لم يعز إلى مجموعة صور ، حتى يكتب تحت الآية : صورة البقرة .

إنما عزا إلى السورة الثانية في القرآن الكريم : سورة البقرة .

. . . وهكذا .

إذا كان الحافز على نشر هذا الكتاب باللغة الإنكليزية أن يُقرأ في أمريكة وأوربة حيث « لاقى النبي العربي والقرآن الكريم على يد المسيحيين في العصور الوسيطة من التشويه والتشنيع الشيء الكثير » إلى درجة أذهلت المؤلف فأراد بتأليفه هذا تصحيح كثير من تصوراتهم . . فصواب نشره هناك ظاهر ، وعمل المؤلف عمل إنساني نبيل ، والضرورة إليه ماسة ؛ ولكن هل كانت هناك حاجة إلى نشره بالعربية ، وقلَّ مثقف في بلادها يجهل هذا القدر من المعلومات ، بل يعرفه على صحته في مصادره الأصيلة السليمة ، والمجتمع العربي معافىً في الجملة من هذه الإحن الصليبية ومن ذلك التشويه والتشنيع ؟

سؤال أجيب أنا عليه بـ « لا » ويجيب المؤلف الفاضل بـ « نعم » ، ولعل في علمه عن بعض هذه البُؤر والبيئات ما ليس في علمي .

لقد أراد خيراً على كل حال ـ والله يجزي كلاً على نيته أخطأ أو أصاب ـ وفوق كل ذي علم عليمٌ .

كمال أتاتورك

(لمحمد محمد توفيق)

عرض للكتاب ، اتّسم بالحياد والإنصاف نشرته
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد
الرابع عشر ، العددان (١١ ، ١٢) .

كتابٌ يقع في (١٩٠) صفحة من القطع الوسط أخرجته إدارة الهلال ، إحدى هدايا ثلاث لقراء مجلة الهلال ، مستهلٌّ بمقدمة جيدة للأستاذ « فكري أباظة » ثم بتصدير للمؤلف تعرض فيه لصفة كمال الجسمية وذكر مزاياه البارزة من سيرته .
وكمال أتاتورك على رأي المؤلف في تصويره : سيدٌ مذ كان في الجيش صبياً ـ المنطق عنده مطرقة يهوي بها على كل شيء ـ عمليٌّ باردٌ قبل أن يكن خيالياً متحمساً ـ آمنَ الناسُ بزعامته قبل أن تُتاحَ له الزعامة ـ إذا آمن بفساد شيء بتره بتراً لم يعمد إلى إصلاحه ـ متكبر كالشيطان ، ولكن كبرياءه قائمٌ على اعتدادٍ بالنفس ـ منطقه العسكري لا يُجارى ـ اليأس يتخذ سبيله إلىٰ قلوب الناس ، أما هو فهيهات أن يقنط ـ صارم إلى أقصى حدود الصرامة .

وتحت كل جملةٍ من هذه الجمل الموجزة القصة الشاهدة لها .

وقد قسم المؤلف كتابه ثلاثة أقسام جعل عنوان القسم الأول (سلطنةٌ تنهار) وبحوثه تدور حول الحرب الكبرى وأيام الانحلال العثماني ، ويلمس فيه القارئَ جملةً من أسباب الاضمحلال والفناء اللذين سيقت إليهما الدولة العثمانية . والقسم الثاني عنوانه (جهاد واستقلال) وفيه تتجلى الحركة الكمالية منذ نشأتها حتى إزالتها آخر خيط من شباك النفوذ الأجنبي ، وهو أقوى اقسام الكتاب وأفيدها ، وخليق بكل أمة تحاول تخلصاً من النير الأجنبي أن تتدبره بإمعانٍ لتنسج على منواله . والقسم الثالث عنوانه (عهد جديد) عرض فيه المؤلف للتنظيمات الجديدة التي أحدثها العهد الكمالي في التعليم والاجتماع والعادات .

* *

المؤلف تركي الأصل وهو معجب كل الإعجاب بمصطفى كمال وأعماله يتحمس كل التحمس للدفاع عنه ، ورد ما يرمى به من نقد ، وقد أبعده إعجابه وتعصبه ـ في بعض المواضع ـ عن أن يكون المؤرخ المنصف الحيادي . تعوزه الحجة فيعمد إلى العبارات الخطابية أحياناً ، بل قد يستدرجه هذا الحب إلى الاستنجاد بكلامٍ هو أقرب إلى المغالطة .

عرّض ص(١٦) بما في سيرة مصطفى كمال الشخصية من قبح وفساد فبرَّر ذلك بقوله : « دنيا القرن العشرين ليست دنيا الأخلاق الفاضلة فحسب ، بل دنيا الأخلاق غير الفاضلة أيضاً » . ثم يقول : « ولو أن كمالاً كان فاضلاً و . . . . لما استطاع أن يسوق شعبه في دنيا القرن العشرين »! وهذا تعصب ذميم فلم نعهد أن أحداً من العلماء والمؤرخين حاول تبرير ضعف الخلق ، وكيف تغافل المؤلف عن الزعيمين هتلر وموسوليني ، وهما مضرب المثل في متانة الخلق الشخصي والحرص على كسر شوكة التهتك والرذيلة في شعبيهما ما وجدا إلى ذلك سبيلاً . فهل سبقهما كمال بشعبه في مدارج التمدن حين قذف به في مهاوي الفساد وانحلال الخلق . والذي أظنه أنه ستمضي قرون طويلة دون أن يبلغ الشعب التركي بهذه الوسائل شوط الألمان أو الطليان في الرقي الحقيقي .

جاء في ص(٢٢) في صدر الكلام عن جمال باشا كلمة للغازي في جمال : « إن رجلاً يبحث عن القدوة ليتشبه بها مؤمناً بأن نجاة البلاد لا تتم إلاّ بهذا التقليد ، هيهات أن يكون رجلاً في نظري » فهلاّ ذكر هذا حين اندفع في تيار التقليد اللاتيني الأعمى ودفع أمته إليه بالنار والحديد ؟ .

ولما بلغ المؤلف إلى الكلام على تخلي كمال عن الدين علَّلَ هذا العمل ص١١٣ بأنه يرمي إلى اجتناب عداوة الغرب ، كأن التدين هو الذي يجلب عداوة الغرب ، وكأن نبذ الدين يستدعي صداقته!! ألا فليُعلم أن الدين الصحيح ما كان يوماً أداة ضعف قط ، وأن هذا من كمالٍ هفوة وهفوةُ العظيم عظيمة أبداً . وإن الغرب إذا وجد تركية ضعيفةً وأراد الاعتداء عليها فلن يعدم وسيلةً أو حيلة تبرر له اعتداءه أمام الرأي العام ، وإلاّ فقل لي ماذا نفعت الحبشة نصرانيتها ؟ وما قوة الحجج التي

تذرعت بها إيطالية للفتك بها ؟

كل الذي نرجوه ألا تعدم تركية بعد سنين ، في هؤلاء النشء الذين نُشئوا التنشئة الكمالية اللا دينية : أبطالاً على غرار الغازي كمال وعصمة وكاظم وبكير وفوزي وغيرهم ممن أخرجهم العهد الديني عهد الخلافة والرجعية إن كان يعزى انتصار الترك في حروب الاستقلال إلى قوة معنوية ، فهذه القوة هي قوة الدين والدفاع عن حرمته . الكلمتان اللتان لم تكن تخلو منهما خطبة من خطب كمال وأتباعه في تحريض الجند التركي الباسل . دع مئات الألوف من الدنانير التي جاد بها العالم الإسلامي باسم الإسلام .

ولا بأس في أن أنقل هنا الحجة التي نقلها المؤلف في صدد الكلام عن استبدال الحروف اللاتينية بالعربية حيث يقول ص١٦٣ : « لماذا تتحمل القبيلة التركية كل هذا التعقيد من حروف ليست من تُراث آبائهم الأولين في مراعي آسية ؟ » ويقول ص١٦٥ : « فالكلمات العربية والفارسية المندسة في لغة الترك يجب أن تُستبعد ، واللغة التركية يجب أن تعود إلى عهد القبيلة » .

وعجيب من الرجل الذي يفرُّ من الرجعية واسمها ورائحتها ويهجر كلَّ نافعٍ إن كان يتصل منها بسبب ثم يعلّل (تلتين) الحروف ونبذ الكلمات العربية والفارسية بأنها لم تكن من تُراث الآباء في مراعي آسية ، وما الرجعية الذميمة والله إلاَّ الرجوع لعهد الآباء في مراعي آسية ، ثم أمر آخر هل كانت هذه الكلمات الفرنسية والإنجليزية و . . . وغيرها مما رحب الكماليون بدخوله اللغة التركية من تراث الآباء في مراعي آسية ؟ اللهم هذا فرار من المنطق وتناقض صارخ . ومتى جانب المؤرخ الحيدة في كتابته صرفه الغرض عن تسميته الأشياء بأسمائها .

الكتابُ قيمٌ والجهودُ المبذولةُ في تأليفه شاقةٌ والفكرةُ المسيطرةُ عليه ناضجةٌ والأسلوبُ جذاب ذو صبغةٍ خاصة ولا يسعني وقد فرغتُ من تلاوته إلاَّ أن أقول : إن كلمة الأستاذ أباظة في المؤلف « أنه روح » صحيحة إلى حدٍّ بعيد فقد أصغينا ونحن نقرأ إلى روحه لا إلى لسانه ، ولا بد للمؤلف أن يكون صدّيقاً لمن يترجم له حتى ينصفه ، وإن كان صاحبنا قد جاوز هذا حتى وقف على عتبة التأليه لكمال .

وأنا أنصح لكل متعلم أن يطالع هذا الكتاب فهو من الكتب القليلة النافعة التي تتمخض عنها المطابع وعقل المطالع ومحاكمته معه ، فله ملء الحرية أن يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء . وليس ما قدمتُ من مآخذ على المؤلف بصارفةٍ إيايَ عن الثناء على عمله .



الكتاب الخامس
قضايا ومشكلات



المربّي الأعظم ﷺ
(النبي والأطفال)

بحث يوضح الملامح التربوية لتربية الأطفال لدى الرسول ﷺ ، نشر في مجلة المعلمين والمعلمات عام ١٩٣٥م ، وأعادت مجلة حضارة الإسلام نشره في العدد ٢ شباط ١٩٨١م .

صحبت إلى قرية (قرعون) رجلاً : ما شئت من إخلاص واندفاع وتفان مع لطف يدخل إلى القلوب ، لبث في أهل القرية زماناً يعلمهم ويهذبهم ، فليس شاب فيها إلا وقد انتفع بمواعظ الشيخ أو حديثه أو فعله .

سايرته إلى مسجد القرية ، فما رأى في طريقه طفلاً إلا سلم عليه وهش له وسأله عن حاله وعن أهله ، وكان في جيب الشيخ شيء من السكر يهديه إلى بعض الأطفال يسرهم به ، ولا أنسى ما حييت منظر وجوههم وقد تهلّلت وغمر أساريرها البشر والجذل ، ثم رأيتهم يهرعون إلى المسجد يصلون لا يبتغون من وراء ذلك ـ فيما أحسب ـ إلا مسرة الشيخ ومرضاته .

لقد أذكرني شأن صاحبي بقصة لصاحب الرسالة ﷺ ، بعيدة الأثر في نفسي ، قديمة العهد ، لا أدري أين قرأتها ، إلا أني لأذكر أنها تعاود قلبي فتفعمه بروحها السامية كلما رأيت طفلاً جذلاً في عيد من الأعياد . وكان ذكري لها هذا العيد أشد أثراً لما رأيت من تأسي صاحبي بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ولما رأيت من شأن صبية (قرعون) هؤلاء .

وبعد أليس من الخير أن يعمد علماء التربية إلى الأصول التي بنى عليها المربي الأعظم ﷺ حين أنشأ بها أمة أحيت فيما بعد أمماً كثيرة من خلق الله فعلمتهم وهذبتهم ، ثم أغنتهم ورفهتهم ؟ أليس جديراً بنا أن ندرس كيف ألان النفوس الجافية ، وتألّف الطباع النافرة ، وراض الأمزجة الجامحة ، فأحيا الميت ، وأذل الصعب ، وفجر من جلاميد القلوب ينابيع الرحمة والحكمة والعدل والإحسان ؟

بلى ، بهذا علينا أن نبدأ ، ولا غضاضة في أن ندع ـ ولو قليلاً من الزمن ـ ساداتنا أساطين التربية من الأجانب ، لندعهم يتحاورون ويتجادلون من وراء مناضدهم وأمام كراساتهم فيما يشاؤون ، ولنسترح قليلاً من أوامرهم ونواهيهم واقتراحاتهم ؛ لنعكف على دراسة عملية قيمة فنبحث في أساليب بهرت نتائجها ، وكانت بارعة إلى أقصى حد ، كتب لها الفوز إلى يوم الناس هذا ، وما تزال في أثارة من نعمها الكثيرة .

« كل مولود يولد على الفطرة » هذه كلمة المربي العظيم في طبيعة الطفل الصافية ، وهي تطفح تفاؤلاً بقبول أثر الخير والإصلاح ، وتؤاخذ المربين إلى حد بعيد بما ينطبع عليه الأطفال تحت أيديهم . وقد عني الرسول بالأطفال وتربيتهم عناية بالغة ، وحض الآباء على تعليمهم وتنشئتهم التنشئة الكاملة ، وأكثر من تذكيرهم بحقوق أولادهم وأنهم موقوفون بين يدي الله مسؤولون عن هذه الحقوق . وكان من عمله ﷺ أكبر مؤيد لتعاليمه في ذلك ، فطلع على الناس بأمر ما جال في خاطر بشر قبله قط ، وليس في تاريخ المدنيات كلها أسمى منه في خدمة العلم ومحاربة الأمية .

لقي المسلمون من كفار قريش كل أذى وسوء ، ذاقوا بسببهم الجوع والعذاب ومفارقة الأهل والأوطان ، ثم كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة فلم ينقطع عنهم الأذى في أموالهم وأهليهم ، ثم يؤذن لهؤلاء المظلومين بالقتال دفاعاً عن أنفسهم وعقائدهم فيظفرهم الله على أعدائهم في غزوة بدر ويأسرون منهم فريقاً ليس في المسلمين إلا من يذكر لهؤلاء الأسرى أذية في مال أو نفس أو ولد ، يوصي الرسول بهم فلا يمس أحد منهم بسوء ، ثم يكون الفداء المشهور في التاريخ وهو أن يعلم الفقير من الأسرى عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة ثم ينصرف إلى أهله .

لقد كان الرسول الكريم في ذلك خيراً لأعدائه وأتباعه على السواء ، ولم يَنِ قطّ في هذه السبيل ، وبقيت مواعظه السامية ملء الأسماع طوال حياته وبعد مماته ، وليس في الاستصراخ لأداء هذا الواجب أبلغ من قوله : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » .

وهو يرمي في أكثر أحاديثه إلى أخذ الطفل بتكاليف الرجولة وسماتها من الصغر شيئاً فشيئاً ، وأن يتوصل إلى ذلك بكل رفق ورحمة . ولقد اختار أن يعاملوا معاملة الرجال : يؤمرون بالصلاة لسبع ، ويفرق بينهم في المضاجع ، ونص على أمور بأعيانها يجب على الآباء أن يعلموها أبناءهم فقال : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وألا يذقه إلا طيباً » .

ويلاحظ أن الطفل الناشئ على هذا يصبح رجلاً معتمداً على نفسه قائماً بتكاليف الرجولة كلها ، وهذا كل الكمال المطلوب من الرجل حينئذ .

وإذا أدرت اليوم طرفك فيمن حولك من الناس ورأيت أن أكثرهم لا يحسن عوماً ولا رمياً ولا فروسية ، وأنهم مرفهون ناعمون يؤذيهم مسُّ النسيم ، قد أضاعوا من أقدارهم وعزهم ورجولتهم بمقدار ما حفظوا لأنفسهم من حظوظ ، إذا عرفت ذلك أيقنت مدى تقصيرنا وأننا أمة كلها أطفال كبار! وإذا جد الجد لم يكن فينا من يقول بفعله : إني رجل! ولم تستغرب بعد هذا أن يكون أسامة بن زيد رضي الله عنه قائداً على جيش عظيم فيه مشيخة قريش والأنصار من طراز أبي بكر وعمر ولم تتجاوز سن أسامة حينئذ ثمانية عشر عاماً .

إن الأصول التي بنى عليها الرسول تجعل من ابن ثمانية عشر عاماً قائداً عظيماً « ترمي همته من وراء سنه مرمىً بعيداً » .

يريد النبي إذن ، أن يربي الأطفال على الاضطلاع بالأعباء والتحلي بالعلم وإتقان الرياضات النافعة كحمل السلاح ، وركوب الخيل ، والعَوْم ، فما السبيل التي يستعان بها في حمل الطفل على اعتياد هذا العيش الجشب ؟

كان يراها في لطف المدخل إلى قلوب الأطفال ، والتحبب إليهم ، والرفق بهم ، وكان هو إذا لقيهم في طريق سلم عليهم كما يسلم على الكبير ، وإن حضروا مجلساً كان كلامه إياهم يشعرهم أنهم ليسوا بأطفال ، فيتسمون من أنفسهم بسمات الرجال . وليس بنا من حاجة إلى ذكر الشواهد على ذلك ، فكل الذين تربوا في بيته كانوا من صغرهم غاية في بعد الهمة والشجاعة وممارسة الصعاب ، إلى علم غزير وثقافة واسعة وفكر ناضج وأخلاق قوية : هذا علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس

والحسن والحسين . . شملتهم من النبي عناية بالغة ورِفق وأدب فكانوا مضرب الأمثال في ذلك كله ، تتقطع دون الوصول إلى درجاتهم أعناق الفحول . يسجد النبي فيعلو ظهره الحسين أو الحسن ـ وهو طفل ـ فيطيل النبي السجود رفقاً به حتى ينزل . ويردف عبد الله بن عباس خلف ظهره على دابة فيلقي إليه بالكلمات المشهورات :

« يا غلام! ألا أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك . . . الحديث »[١]

وناهيك بعلي وقد كفلَهُ النبي صغيراً تخفيفاً عن عمه أبي طالب ، وكان فقيراً ذا عيال ، فنشأ أحسن نشأة ، وكان كما وصفه ضرار الصُّدائي رضي الله عنه « كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عَدْلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه . . إلخ »[٢] .

ويكاد يكون قوله عليه السلام لمعاذ بن جبل حين أرسله والياً إلى اليمن : « يسّروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا »[٣] دستوره في كل الأمور ، مع الرجال والنساء والأطفال على السواء .

لقد بان لك مما تقدّم خطر الترغيب والتحبب إلى الأطفال في نجاح التربية ، وعرفت المدى الذي بلغه النبي في ذلك حين جعل الأطفال يشعرون برجولتهم ، بل كان يبلغ أبعد من هذا : كان يمازحهم كما يمازح الرجال ، وإذا علمت أن مزحه كان قليلاً ولا يكون إلا حقاً ، أمكنك أن تدرك مقدار اعتنائه بهم فقد رووا عن أنس : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ (صغير) يقال له : أبو عمير ، وكان له نُغَير (طير) يلعب به فمات . فدخل النبي فرآه حزيناً فقال : « ما شأنه ؟ » فقالوا : « مات نُغَيءرُه » فقال : « يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ »[٤] مباسطة له ليغتبط بخطاب النبي فيقول لأهله : « كلّمني وسألني » فيسلني حزنه .

---

(١) رواه أحمد والترمذي .

(٢) انظر هذا الوصف في زهر الآداب الجزء الأول .

(٣) رواه البخاري .

(٤) رواه البخاري .

وكم في السيرة المطهرة من مُثل بُعثرت في طوايا الأسفار ، أرسلها الرسول مثابة للقلوب الحية ، تبلغ منها إلى دروس بليغة الأثر في لطف الحس ورقة الشعور بما في حناياها من الحنو السامي ، والرحمة الناعشة ، مع تغلغل في فهم نفوس الأطفال ، ومسح ما بأفئدتهم من سوء .

ولقد كان يؤمه أصحابه وفي أعماق صدورهم بؤس متراكم ويأس مظلم وتبرم بالحياة وضيق بمصاعبها ، فلا يلبثون أن يحتويهم مجلسه ، ويعمهم إيناسه ، وينفذ إلى قلوبهم منطقه ، حتى ينفضوا ولم يذق واحدهم بؤساً قط ، ولا ساوره همٌّ ولا يأس ، وفي نفسه ـ حين منصرفه ـ أنه آثر الأصحاب عند الرسول ، وأوفرهم نصيباً من عطفه وحبه ورعايته .

لم يكن اهتمام الرسول بالأطفال وتربيتهم قاصراً على من تربوا في حجره وكفالته ، بل دخل هذا الدرس كل بيت من بيوت مكة والمدينة . وهل أنا بحاجة أن أذكر أحاديثه ووصاياه في الصغار وخاصة في البنات ورعايتهن والحدب عليهن ، فكم أرَّقت قلوباً صلدة ، وجعلت من الذين كانوا ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ﴾ [النحل ١٦/٥٨] ، جعلت من هؤلاء رجالاً يذوبون حناناً على البنات يربونهن ويكرمونهن .

أما وصاياه عليه السلام باليتامى من الذكور والإناث فهي الشمس شهرة ومضرب أمثال .

فلأختر من البيوت بيتاً مثلاً ، ولأذكر من صحابته الكرام رجلاً لم يعهد في الجاهلية أغلظ كبداً منه قط ، فإذا هو بعد الإسلام وصحبة النبي يتدفق رحمة وحنواً . لا أقول على الأطفال فحسب بل عليهم وعلى الرجال والنساء ، بل على كل حي فيه نسمة تختلج . عُرف الرجل دون شك ، وهل لي هنا عنه معدل ، ذاك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : الرجل الجلف القاسي القلب حين دفن ـ فيما روي ستاً من بناته في الجاهلية ، وإن كان ليحفر لإحداهن الحفرة يريد أن يئدها فيها فيتخلله غبار الحفر فتنفض البنت عن أبيها غباره وتمشط لحيته بأصابعها حناناً ورقة فلا يلين

ذلك من قلبه شيئاً ، حتى إذا انتهى زجها في قبرها وأهال التراب بين بكائها وعويلها واستنجادها به يا أبتاه![1] .

إن هذا الرجل يهديه الله بالإسلام وتمسه نفحات النبي ، فتقتلع من قلبه جذور القسوة والجفاء ، وتجعل منه أرحم حاكم عرفه التاريخ ، وأكثره حدباً على رعيته وسهراً على راحتها . هذا الرجل بعد أن تأثر بسيرة الرسول الأعظم وأصبح خليفة يأتي إليه عامل له فيجده قد حف به صبيته يلاعبهم ويتبذل بين أيديهم ويكثرون عليه فيقول العامل : « ما هذا ؟ فوالله إني لأضع قدمي في عتبة الدار فما يبقى فيها من حسٌّ لصغير ولا كبير ، وإنهم ليبتدرون الزوايا والمخابئ هلعاً وفزعاً » . فيقول عمر : « فأنت والله بالناس أقل رحمة ، لا تعمل لي عملاً » . ورد عهده .

حقاً لقد كان هذا الانقلاب عجيباً كل العجب ، ولم يك عمر في هذا إلا متأسياً بصاحب الشريعة عليه السلام فقد رووا : أن أعرابياً جاء إلى النبي فقال : تقبلون الصبيان فإنا لا نقبلهم . فقال النبي ﷺ : « أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ »[2] .

هذه كلمة عجلى ، فما أردت لأكتب بحثاً في تفصيل الأصول التي شرعها الرسول في التربية . فليس مثلي من يضطلع بذلك ، وإنما هي خاطرة ذكرتها فجعلت منها قضاء لبعض الحق علي ، ووسيلة لتذكير القادرين بتقصيرهم ، حين اختاروا أهون الأمرين فعمدوا إلى كتب الغربيين ينقلون ويترجمون وهم يعرفون حق المعرفة أن للقوم عاداتهم وعرفهم وطبيعة إقليمهم وخصائص جنسهم ، أخذ علماؤهم كل ذلك حين وضعوا أصول تربيتهم ، ونحن غير أولئك نحتاج إلى من يعرفنا حق المعرفة ويدرسنا حق الدرس ، ثم ينهج لنا مناهج الإصلاح . ومن ظن أن الأمر ترجمة ونقل فهو أحد رجلين : إما رجل أطبق عينه فلا يدرك ما يحيط به ، وإما رجل

---

(١) قلت : رحم الله أستاذنا ، إذ لم يضع هذه الرواية في الميزان ـ كما هي عادته ـ ، والذي أذهب إليه أن قريشاً وبني عدي منهم لم يعرفوا وأد البنات . ولعلّ هذه من قصص القصاص والوعاظ يريدون إظهار فضل الإسلام في تغيير النفوس والأخلاق . والله أعلم .

(٢) رواه البخاري .

عرف الحقيقة فتجاهلها إخلاداً إلى الراحة ورغبة في الدعة .

إنا بحاجة في التربية إلى مجتهدين ، مجتهدين على اصطلاح الفقهاء وشروطهم في الاجتهاد : حذقوا أصول الفرنجة ، وفهموا تاريخ العرب ، وتغلغلوا في حاضرهم ، وهُدوا إلى المدى الذي ينبغي أن تبلغه أمتهم لتحيا الحياة العزيزة يراعون ذلك كله في استنباط ما نحن بحاجة إليه ، من أصول في التربية حديثة ، ويراعون ذلك كله أيضاً في وضع برامج ومناهج للتعليم تنشئ فتياناً عرباً مثقفين .

أما التلفيق والتقليد ، فشر في رأيي من الجهل ، ومهما يحاول متكلف أن ينتصر للحالة التي نحن فيها ، ومهما يُحصِ ـ في البلد من شبان يحملون أعلى الشهادات : فما ذلك بمغن فتيلاً ، وقد كاد إجماع الناس يطبق على أنا ـ حين تخبطنا في التقليد وركبنا هذه التعاسيف ـ قد خسرنا في كثير من شبابنا الرجولة والعروبة جميعاً!

وأي خير لنا ولبلادنا ، في شاب لا عربي ولا رجل ؟

التربية عند ابن حزم

بحث يتناول الملامح التربوية عند ابن حزم نشر في كتاب (من أعلام التربية العربية الإسلامية) المجلد الثاني .
نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .
والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية عام ١٩٨٨م .

عصره وحياته

لعل السنين التي شهدت حياة ابن حزم ، شهدت أروع ما وصلت إليه الأندلس من ترف حضاري وازدهار ثقافي ، رافق ذلك تفتت وتشتت في وحدة القطر ، وانحدار نحو الضعف في الحكم والسياسة والاجتماع والأخلاق . وقد أظفرتني طول الصحبة لآثار ابن حزم بصورة صادقة لعصره ، تولى هو تصويرها بريشته العبقرية ، واضحة في مواطن كثيرة من كتبه ورسائله ، لم تغن غناءها عبارات من أرخوا لتلك الحقبة في حال من الأحوال ، لأنها أدت إلينا انطباعاته عما شاهد ، وأحكاماً على عصره وبلده في نواحيهما المتعددة ، وسأورد منها ما تسعف به خطة البحث مما لا نجد كثيراً منه عند المؤرخين .

وكون ابن حزم في القمة من أعلام الدين والأدب والسياسة والتاريخ والفلسفة والاجتماع ، وممن ولي الوزارة هو وأبوه قبله ، وممن تعرض للنكبات والسجن والإبعاد . كل ذلك يحتم علينا قبل الإلمام بسيرته أن نلم بمجمل الحالة السياسية والفكرية في القرن الذي شهد آثار عبقريته ، ونعني الفترة بين (٣٥٠ـ٤٧٠هـ) .

« توفي[١] الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر سنة ٣٥٠هـ بعد أن تمتع العرب بالأندلس في حكمه بأيام تزري بأيام الرشيد في بغداد ، فقد قضى على الاضطرابات

(١) كتابي : ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ص٩ فما بعد ، بتصرف يسير .

التي سادت لأول حكمه ، وأدب الخارجين عليه ، وقهر أعداءه الطامعين في مملكته ، وأرهب الإسبان ، وضمن للناس رخاء وأمناً ما سمح الزمان بمثلهما ، ووطّد ملكاً على أسس متينة ، ساعده على هذا عقل راجح ، ودهاء واسع ، ووطنية مخلصة ، ورجولة كاملة ، مع بأس شديد ، وصفح جميل ، وهمة بعيدة ، فاجتمعت الأندلس على طاعته ، ونعمت في عهده وازدهرت . ورفع للعلم صرحاً باذخاً ؛ فأغدق العطايا على العلماء ، وأوسع لهم مجالسه وفتح خزائنه . وكان من حظ الأندلس أن دامت ولايته خمسين عاماً نسيت فيها ما أصابها من شدائد ، ولم يؤخذ عليه طوال أيامه إلا تقريبه الموالي تقريباً أضعف العصبية العربية فيما بعد ، وذلك مأخذ عظيم إذ لا يبعد عن أذهاننا أن الذي عجل خراب الأندلس فريقان : (الإسبان) العدو الخارجي المتربص بالمسلمين وبلادهم ، والبرابرة والصقالبة وهم الجراثيم الداخلية التي فعلت في جزيرة الأندلس ما فعل الموالي من الفرس والأتراك في خلافة العباسيين ببغداد .

تربع على عرش الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم ، وهو أعلم الأمويين وأحكمهم على الإطلاق ، فسار سيرة أبيه فغزا الجلالقة الذين طمعوا في الثغور ، وانتقض عليه بعض الحكام الإسبان فحاربهم ، وعقدوا معه المعاهدات ، ثم تفرغ لتنشيط الحركة العلمية ، وكان قد بدأ ازدهارها ـ كما علمت ـ قبل عهد أبيه ، فاجتمع له من العلماء وكتب العلم ما لم يجتمع لغيره قط . وجميل بنا أن نورد مبلغ عنايته بالعلم عن ابن حزم نفسه ، قال : « إن عدة الفهارس في خزانة الحكم العلمية ، التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط »[1] .

وقال المقّري :

« جمع من الكتب ما لا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل : إنها أربع مئة ألف مجلد ، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها . . . (وإنه) قلما يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر ، في أي فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٤ و١٨٥ .

ومولده ووفاته ، ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن »[1] .

ولم تطل مع الأسف مدة حكمه أكثر من ست عشرة سنة كان فيها بعد أبيه كالمأمون بعد الرشيد ، بل إن هذا الذي ذكره المقّري من قراءته الآلاف المؤلفة من المجلدات وتعليقه عليها وخبرته بتواريخ أصحابها وفنونها شيء لم نسمع مثله لمخلوق آخر ، لا خليفة ولا عالم .

توفي الحكم سنة ٣٦٦هـ ، وبوفاته انقضى العهد الذهبي للأندلس وبدأ عصر الفوضى والاضطراب والتغلب ، وتمزق الكلمة ، وطمع الأعداء . ولم تقم بعده للأمويين قائمة . ولئن ولي الأمر بعده خلفاء من أمية فإن هذه الولاية لم تكن إلا اسماً بلا رسم ، وانفسح الأمر للوزراء والحجاب[2] المتغلبين فمثلوا في الأندلس أدوار الأفشين وبغا وآل بويه مع الخلفاء العباسيين ببغداد .

ولي الأمر بعد الحكم ابنه هشام المؤيد ، وكان عمره عشرة أعوام وأشهراً ، فأخذ شأن الخلافة بالضؤول ، وتسنى لابن أبي عامر أن يقضي على حقيقتها ويبقى اسمها ، فنشأت بذلك دولة العامريين .

كان المنصور بن أبي عامر هذا وكيلاً للسيدة (صبح) أم هشام على عهد الحكم ، ينظر في أموالها وضياعها ، فسعت لدى الحكم حتى ولاه القضاء ، وبدت له فيه كفاية واسعة ، فلما ولي هشام على حداثته تسلم المنصور الحجابة ، وقبض على ناصية الأمور واستبد بها ، ورسم لنفسه خطة للقضاء على كل من يمكن أن ينازعه الأمر يوماً من الأيام . . . وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة . . وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا ستاً وخمسين غزوة لم تنكس له فيها راية ولا فُلَّ له جيش .

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٤ و١٨٥ .

(٢) وظيفة الحاجب حينئذ تشبه وظيفة رئيس الوزراء لعهدنا ، فهو الواسطة بين الوزراء والخليفة .

بقي الأمر مستمسكاً على عهد الحاجب المنصور ، لأنه كان من أعظم السلاطين دهاء وحزماً وهيبة في القلوب ، دامت أيامه سبعاً وعشرين سنة ، ثم خلفه ولده عبد الملك وتلقب بالمظفر ، فسار في الحجابة سيرة أبيه في الجملة سبعة أعوام ثم توفي سنة ٣٩٨هـ فخلفه أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناظر ، وحاول أن يزيد من سلطانه ، فحمل الخليفة المستضعف هشاماً المؤيد على العهد له بالخلافة بعده ، فثارت لذلك ثائرة الأمويين وسائر المضريين ، لأن السلطة الفعلية التي مارسها الحاجب المنصور ـ وهو يمني ـ كانت قذًى في عيون المضريين كافة ، وسكتوا على مضض حتى طفح الكيل .

كان عبد الرحمن هذا دون أبيه وأخيه كفاية وأكثر أطماعاً ، وزاد الأمر سوءاً تسلط البرابرة والصقالبة ، مما أغضب المضرية واليمنية جميعاً ، وكانت فتنة ، خلع فيها المؤيد وسجن ، ورجع عبد الرحمن من غزوة ليتلافى الأمر فانفض عنه أنصاره وثار به جنده ، وقتل سنة ٣٩٩هـ ، وانتهى بذلك أمر دولة العامرية دولة الحجَّاب .

بايع الناس لمحمد بن هشام بن عبد الجبار وتلقب بالمهدي ، وبدأ يشدد الوطأة على البرابرة فثاروا به فأزعجهم عن قرطبة، ثم هاجموا المدينة فخلعوه ففر، وبايعوا سليمان بن الحكم بن الناصر وتلقب بالمستعين سنة ٤٠٠هـ ، فلم يفجأ الناس إلا المهدي مستجيشاً بملك قسطيلة الإسباني، فاسترد ملكه وحارب البربر فانهزم فقتلوه، وأعادوا هشاماً المؤيد ثانية سنة ٤٠٣هـ وبدأت المهازل تتابع تترى بين المتقاتلين على الإمارة ، يستعين كل منهم بعدوه وعدو بلاده على أخيه وابن عمه . . . ثم قتل هشام وأعيد المستعين ، ونهض خيران العامري يكاتب الأدارسة ويحرض الناس على خلع المستعين حتى جاء علي بن حمود العلوي من الأدارسة ، وملك قرطبة سنة ٤٠٧هـ ، وقتل المستعين فانقرضت دولة الأمويين وبدأت دولة العلويين .

أوجس خيران العامري خيفة من ابن حمود ، فسعى سراً ليعيد الأمر إلى الأمويين بعد أن كان سعى في خروجه من أيديهم ، وشاء الله أن ينجح المسعى فبايع أكثر أهل الأندلس عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، ولقبوه بالمرتضى سنة ٤٠٨هـ .

ثم تغير المرتضى على خيران ، وكانت بينهما أحداث انتهت ببيعة عبد الرحمن ابن هشام أخي المهدي ولقب بالمستظهر سنة ٤١٤هـ ، وتعاقب المستضعفون من الأمويين والأمر بينهم وبين العلويين دول ، حتى بويع هشام بن محمد المعتمد بالله سنة ٤١٨هـ ، فاضطربت ولايات الأندلس ، وهبّ أمية بن عبد الرحمن بن هشام يطلب البيعة لنفسه في هذه الاضطرابات والفتن القائمة . . . حتى سئم الناس الأمويين ، ونادى أهل قرطبة في الأسواق والأرباض بالوقيعة في الأمويين حتى لا يبقى منهم أحد ، فكان آخر خلفائهم هشام بن محمد ، وختم ملكهم سنة ٤٢٢هـ .

انقرضت الخلافة الأموية واستقل كل وال بولايته ، وبدأ عهد ملوك الطوائف في الأندلس ، فاستبد ابن عباد في إشبيلية ، أما قرطبة فاستبد فيها ابن جهور[1] رئيس الجماعة بها ، فنهض بمقاليد الأمور خير نهوض واستتب الأمن ، وعمرت قرطبة ، وسار في الناس سيرة الصالحين : يعود المرضى ويشهد الجنائز ، وأشرك في الأمر معه اثنين ليكون شورى ، واستشعر الناس في عهده شيئاً من الطمأنينة إلى أن مات سنة ٤٣٥هـ فقام بالأمر بعده ولده محمد بن جهور ، وطالت مدته ، ثم ضاق أهل قرطبة به فخلعوه سنة ٤٦١هـ ، ولم يكن ابنه عبد الملك الذي ولي الأمر بعده بأسعد حظاً ، إذ إنه أساء السيرة فأخرج من قرطبة ، ثم استولى عليها المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٨٤هـ . وبقي الأمر هكذا مشتتاً لا نظام له ، والفتن بين الملوك الصغار لا تهدأ ثائرتها . . . حتى ملك الأندلس رجل واحد هو يوسف بن تاشفين ملك الملثمين في بر العدوة (المغرب) .

هذا هو عهد احتضار الدولة الأموية وانقضاء أيامها ، العهد المضطرب المخيف الذي شهده عالمنا ابن حزم ، مررت بأهم أحداثه مراً سريعاً لتبقى في الذهن حين نمر بحياة ابن حزم المشردة ، ولنعظم هذه العبقرية التي نجمت في عهد الاضطراب الإعظام اللائق بها .

ولا يحسبنَّ أحد أن الناس في هذه القلاقل كابدوا شظفاً من العيش أو ضيقاً في

---

(١) أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور . صاحب قرطبة ، حازم يعدُّ في الدُّهاة ، وله أدب وحلم ووقار . الأعلام ٢/ ١٤١ ـ ١٤٢ .

أساليب الحياة ، بل إن الأمر على العكس ، لقد رتعوا في بحبوحة من عيش رغد ورخاء دائم ونعيم مقيم وعلوم زاخرة ، وحياة فكرية خصبة لولا ما شابها أحياناً من قتل ونهب وخوف هي من طبيعة الفترة ، ولولا ما حاق ببعض المفكرين من ممالأة المتسلطين للعوام في تتبع كتب الفلاسفة وبعض الأحرار كابن حزم نفسه بالإحراق أو الإتلاف .

أما فيما عدا ذلك فقد ضمنت لهم حضارتهم الزاهرة في عهد الأمان ألواناً من الترف واللذائذ والبذخ ما أظن أنا نتمتع بمثلها لهذا العهد . والمؤرخون عامة لاحظوا أن الدول تنقرض وهي أكثر ما تكون خيراً وتنعماً وحضارة وسعة[1] . لكن خاصة المفكرين لهم نظرة أخرى أعمق وأصدق لا تؤثر فيها هذه المظاهر ، بل تأخذ بعين الاعتبار حرية الإنسان وكرامته وراء هذه المظاهر ، وقديماً قال شاعرهم :

مما يزهِّدُني في أرض أندلسٍ ألقابُ معتضدٍ فيها ومعتمد
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخاً صَوْلَةَ الأسد

وإليك حكم ابن حزم نفسه على هذه الأحوال التي تردت فيها الأندلس ، وهذا نصه بالحرف :

« . . . واجتمع عندنا في صقع الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه . وذلك فضيحة لم ير مثلها دلت على الإدبار المؤبد : أربعة خلفاء في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يدعى بأمير المؤمنين! أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها ، فإنه ظهر رجل يقال له (المؤيد الحصري) بعد اثنين وعشرين عاماً من موت هشام ؛ فادّعى أنه هشام ، وشهد له أنه هو قومٌ خساس من خصيان ونساء ، فبويع وخُطِبَ له على أكثر منابر الأندلس ، وسفكت الدماء به ، وتصادمت الجيوش في أمره ، وأقام المدعي أنه هشام نيفاً وعشرين سنة ، والقاضي محمد بن إسماعيل (ابن عباد) في رتبة الوزير بين يديه ، والأمر إليه .

وكان محمد بن القاسم الحسني خليفة بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بمالقة ،

---

(١) كتابنا عن ابن حزم ص١٧ .

وإدريس بن يحيى بسبتة »[١] .

حياته

أصل أسرة ابن حزم من (لبلة) بلد إلى الغرب من إشبيلية تبعد بضعة أميال عن بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) فهي برية بحرية[٢] ، نزحت إلى قرطبة واستوطنتها فلمع فيها اسم الأسرة وعرف منها غير واحد بالعلم والفضل ، وكان والد ابن حزم أحمد بن سعيد بن حزم ممن قرأ العلم ، وسمع من الشيوخ ، وأقرأ وأسمع ، ذا مواهب أهلته ليتبوأ الوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر ، وعظم جاهه فاتخذ القصور والخدم والحشم ، واتسع ثراؤه وعاش أهله في بحبوحة النعيم .

ولد إمامنا علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في قرطبة بالجانب الشرقي من ربض المغيرة ، آخر ليلة الأربعاء من آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٤هـ (٧/ ١٢/ ٩٩٤م) كما كتب بذلك بخطه إلى القاضي صاعد صاحب (طبقات الأمم)[٣] .

وأسرته نعتها الفتح بن خاقان بقوله : « بنو حزم فتية علم وأدب ، وثنية مجد وحسب »[٤] ولي الوزارة منهم غير واحد ، ولقد نشأ ابن حزم في قصور أبيه نشأة المترفين المنعمين ، تحيط به العناية من كل صوب (يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير)[٥] . أما نشأته الأولى فهي غريبة حقاً ولعلها هي السر في نبوغه وعبقريته ، بل إليها يرجع الأثر الأكبر في تخرجه على تلك الصورة الفذة التي لم يشبهه فيها أحد من أعلام الإسلام ، لا في الشرق ولا في الغرب على مدى القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة ، ذلك أنه نشأ في حجور العالمات المربيات من أهل بيته ، ونحن مدينون لابن حزم نفسه بالشيء الكثير في أخبار طفولته وبقية حياته ، ولعله تفرد بذلك بين الأعلام ، وكفانا الحيرة بين آراء مختلفة كان من الممكن أن

---

(١) الفصل لابن حزم .

(٢) مادة (لبلة) في معجم البلدان لياقوت .

(٣) انظر ترجمته في إرشاد الأريب لياقوت .

(٤) قلائد العقيان .

(٥) هذه كلمة صاعد فيه .

تحفّ سيرته بالغموض والاحتمالات قال :

« ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب ، وحين تبقل وجهي . وَهُنَّ علمنني القرآن ، وروّينني كثيراً من الأشياء ، ودربنني في الخط . ولم يكن وكدي في إعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك . . . إلخ »[1] .

هذه خطوة ثقافته الأولى ، ثم صار له إلمام بالنحو والأدب والقرآن ، « وأرخى لموهبته العنان فصار ينظم الشعر ولما يبلغ الحلم ، كما حدَّث عن نفسه »[2] وكان يغشى مع أبيه مجالس المظفر بن أبي عامر الحافلة بالشعراء والأدباء . ولقد قص علينا قصة مجلس منها في عيد الفطر وهو في الثانية عشرة من عمره . أما ما قصه عن غشيان مجالس الغناء في قصره ، وحفظه ما كان يُتغنى فيه من مثل شعر العباس بن الأحنف[3] مع ما حف ذلك من ملابساته العاطفية فما أكثر ما يحفل به كتابه (طوق الحمامة) . وعرف عنه بديهته في نظم الشعر بين نساء قصره والقصور التي يغشاها بحكم منصب أبيه وعلاقاته ، حتى صار بعض بنات هؤلاء الكبراء ممن كان يجهله يقترحن عليه النظم في موضوع من موضوعات الحب ، ثم يغنين بشعره في مجالسهن ، كما فعلت إحدى كرائم المظفر بن أبي عامر »[4] .

نشأة القصور هذه ـ وإن جلت مواهبه الأدبية ـ أدخلت الضيم على ثقافته الشرعية ، فلم يفرغ لها ، لأنه أقام في الوزارة بعد بلوغه حتى صار له ست وعشرون سنة لم يكن له فيها طلب يذكر[5] ، وقد رووا عنه قوله : « إنني بلغت إلى هذه السن

---

(١) طوق الحمامة (طبعة دمشق ١٣٤٩هـ) ، ص٤٦ ، وعن هذه الطبعة جميع النقول التي ستمر بك .

(٢) نظرات في اللغة عند ابن حزم ص١٦ وطوق الحمامة ص١٦ .

(٣) طوق الحمامة ص١٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص١١٣ .

(٥) كتابي ابن حزم الأندلسي ص٣٢ .

وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات »[1] لكن المجتمع النقاد هزه هزاً على تقصيره ، في حادث يرويه عنه الوزير الإمام أبو محمد بن العربي قال : « أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه فدخل المسجد قبل صلاة العصر والحفل فيه ، فجلس ولم يركع ، فقال له أستاذه (يعني الذي رباه) بإشارة أن (قم فصلِّ تحية المسجد) فلم يفهم ، فقال له بعض المجاورين له : « أبلغت هذه السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة ؟ » قال ، فقمت فركعت وفهمت إذن إشارة الأستاذ إلي بذلك ، فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد ، مشاركة للأحياء من أقرباء الميت ، دخلت المسجد فبادرت بالركوع ، فقيل لي : (اجلس ، ليس هذا وقت صلاة) ، فانصرفت عن الميت وقد خزيت ولحقني ما هانت عليّ به نفسي ، وقلت للأستاذ دلني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحون . .) فدلني ، فقصدته من ذلك المشهد وأعلمته بما جرى فيه ، وسألت الابتداء بقراءة العلم واسترشدته ، فدلني على كتاب (الموطأ) لمالك بن أنس رضي الله عنه ، فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم ، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام وبدأت المناظرة »[2] .

وانطلق بمجامعه على علوم الشريعة يعب منها حتى صار الإمام المنفرد صاحب المذهب والمنافح عنه ، ولا أطيل بتسمية شيوخه وكبار تلاميذه ، فلذلك فصل خاص تجده في كتابي عن ابن حزم ص٣٤ كما تجد الكلام على علمه ومصنفاته حتى ص٦٠ منه .

---

(١) ترجمته في إرشاد الأريب لياقوت ، وفيه أن (أجبر) عند الأندلسيين بمعنى (أقضي) عند أهل المشرق .

(٢) حدَّد المقَّري في نفح الطيب ذلك بقوله (أول سماعه سنة ٣٩٩هـ) والذهبي في تذكرة الحفاظ جعله سنة ٤٠٠هـ . أما ابن بشكوال في الصلة فقال : أول سماعه من ابن الجَسُور قبل الأربع مئة (الترجمة رقم ٤٠٨) .

وهذا شيء واحد . وفي ترجمته في تذكرة الحفاظ يذكر الذهبي شيئاً ثانياً لانعطافه إلى طلب العلم ، انظر كتابي ابن حزم الأندلسي ص٣٤ .

أما مآتيه في غير ميدان العلم فقد تقدم الكلام على الفتن والانتفاضات التي جرت في الأندلس ، وكان من آثارها عليه أن تنكر الزمان لوالد ابن حزم بعد قيام هشام المؤيد سنة ٤٠٠هـ ، فانكمش هو وابنه ، ثم مات والده سنة ٤٠٢هـ وكان مترجمنا « أقام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستاً وعشرين سنة » وزر للمرتضى صاحب بلنسية ، وحارب في جيشه بغرناطة ، ووقع في أيدي أعدائه سنة ٤٠٣ ، ثم قامت خلافة عبد الرحمن المستظهر في رمضان سنة ٤١٤ وكان صديقاً لابن حزم ، وسَّدَ إليه الوزارة فأقام فيها أشهراً حتى مقتل عبد الرحمن في ذي الحجة من السنة نفسها ، وعاد إلى الوزارة أيام هشام المعتمد بين سنتي ٤١٨ـ٤٢٢هـ ، وهنا تنتهي حياته الوزارية ، ويطلّق المناصب وتطلّقه إلى غير رجعة »[١] .

خلال ذلك تعرضت قصور آل حزم للتخريب ، فغادر قرطبة سنة ٤٠٤هـ ، وطوف في شرقي الأندلس ، بين الحرية فحصن القصر فبلنسية ، ولم يعد إلى قرطبة إلا سنة ٤٠٩هـ ، بقي فيها حتى وزر للمستظهر أسابيع معدودة سنة ٤١٤هـ ، ولم ينعم بالراحة حتى انقراض الحكم الأموي ، ثم غادر إلى إشبيلية ينشر مذهبه الظاهري فنقم عليه الناس ، وتقرب ابن عباد إلى العامة بإحراق كتبه ، وآل به الأمر إلى بلد أسرته الأصلية (لبلة) حيث مات سنة ٤٥٦هـ كما مر بك ، مطارداً منفياً ، ودفن بقريته (مُنْتَ لَيْشَمَ) التي هي ملكه وملك آبائه من قبله[٢] .

هذه الحياة القلقة تركت آثارها في نفس ابن حزم حتى مات ، وقد سجل هذه الآثار في غير ما موضع من كتبه ، ومن الحق علينا ألا نفوّت على القارئ وقد ألمّ بمجمل ما تعرض له من أحداث ، أن يعرف قوة هذه النفس التي حباه الله بها وصلابتها في عقيدتها . ذكر ما حدث لأسرته حتى سنة ٤٠٤هـ فقال : « . . ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار . . . ثم ضرب الدهر ضرباته وأُجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤ »[٣] ثم

---

(١) كتاب ابن حزم الأندلسي ص٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص١٤٩ .

(٣) طوق الحمامة ص١١ ، ١٧ .

« ألقت الفتنة جرانها . . ووقع انتهاب جند البربر منازلنا في الجانب الغربي بقرطبة . . . وتقلبت بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة وسكنى مدينة المرية . . . وفي أثر ذلك نكبني (خيران) صاحب المرية(بتهمة) أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ، ثم أخرجنا على جهة التغريب . . . إلخ »[١] .

ونجد كثيراً من تجاربه في حياته وما وقع له في (طوق الحمامة) الذي كتبه في آخر حياته وختمه بالحسرة والشكوى وحمد الله وقال : « والكلام في مثل هذا (موضوع الحب) إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب ، وإنّ حفظَ شيء ، وبقاءَ رسم ، وتذكّرَ فائت لمثل خاطري لعجب ، على ما مضى ودهمني . وأنت تعلم أن ذهني متقلب ، وبالي مهتم بما نحن فيه من نبوّ الدار والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر في صيانة الأهل والولد ؛ واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر وانتظار الأقدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، وإن الذي أبقى لأكثر مما أخذ ، والذي ترك أعظم من الذي تحيَّف ، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تحدّ ولا يؤدّىٰ شكرها ، والكل منحه وعطاياه . . جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين ، الحامدين الذاكرين والحمد لله رب العالمين »[٢] .

ونحن أشد عجباً مما عجب منه ، كيف خلّف ـ وقد وقع عليه ما وقع ـ أربع مئة مجلد ؟ قال صاعد : « أخبرني ابنه الفضل المكنى أبا رافع : اجتمع من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربع مئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة »[٣] هذا غير ما أحرق ابن عباد صاحب إشبيلية .

---

(١) التقريب لحد المنطق ص٢٠٠ .

(٢) التقريب لحد المنطق ص١٥٣ .

(٣) ترجمته في إرشاد الأريب وفي نفح الطيب .

ولقيت كتبه بعد وفاته وآراؤه ومذهبه أشد مما لاقى هو في حياته ، وهو إلى اليوم هدف الطاغين من المتجنين على العلم[1] والحق ، حتى لقد كان أحق من المتنبي في أنه « مالئ الدنيا وشاغل الناس » .

مذهبه في التربية والتعليم

صاحب هذه الحياة دان ربه بالتزام الحق والجهر به ، ورفض الانجرار على أذيال غيره مهما يكن شأنه في العلم إلا بدليل وبرهان ، وأخذ نفسه بالولاء للحق وإباء العصبية في كل شيء ، حتى فيما نراه اليوم فضيلة قومية ، لقد أبى كل ما ينصر عصبية بلا دليل ، فقد جاء في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) : « وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات ، وهذا لا معنى له ، لأن وجوه الفضل معروفة ، وإنما هي بعمل واختصاص ، ولا عمل للغة ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة . . . . وقد غلط في هذا جالينوس فقال : « إن لغة اليونانيين أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع » قال ابن حزم : « وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته لا يفهمها فهي عنده في النصاب الذي ذكر جالينوس ولا فرق . . . لقد قال قوم : العربية أفضل اللغات ، لأنه بها نزل كلام الله تعالىٰ ، قال ابن حزم : وهذا لا معنى له لأن الله أخبرنا أنه لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فبكل لغة نزل كلام الله ووحيه . . . »[2] .

فابن حزم بحق من أحرار الفكر حرية تنأى به عن التقليد وعن تقدير الأقوال بقائليها ، فإذا ترسم غيره أقوال الفلاسفة السابقين ، حكم هو عقله فيما قالوا ، فإما قبل وإما رفض قال : « وذكر الفلاسفة (كون الشيء في الشيء) ، فلم نروجها للاشتغال به ، إذ ليس من تفتيق الكلام . . . مما لا قوة فيه لإدراك الحقائق وإقامة البراهين وكيفية الاستدلال الذي هو غرضنا من هذا الكتاب »[3] فإذا أضفت إلى ما

---

(١) انظر فصل (هو والناس) ص١٣٣ في كتابي ابن حزم الأندلسي . هذا وقد سجل ابن حبان ما شاهد من ظلم الناس لابن حزم فقال : « يا لبدائع هذا الحبر وغرره ، على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها » ـ الذخيرة ـ القسم الأول من المجلد الأول ص١٤٤ .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١/ ٣٤ ص٣٥ .

(٣) التقريب لحد المنطق ص٧٤ .

تقدم تقريره أنه : « أمكن أن نعلم نحن كثيراً مما خفي على مالك . . . »[1] عرفت أنك حيال عقل متحرر ، بل لقد صرح فلاسفة اليونان كما يزن كلام أئمة الإسلام بميزان واحد عدل ، بل لقد صرح بهذه التسوية جهاراً حين قال : « ولسنا نخرج من جملة العلماء من ثبتت عدالته وبحثه عن حدود الفتيا ، وإن كان مخالفاً لنحلتنا ، بل نعتدّ بخلافه كسائر العلماء ولا فرق كعمرو بن عبيد و . . و . . ونظرائهم وإن كان فيهم القدري والشيعي والإباضي والمرجئ ، لأنهم أهل علم وفضل وخير واجتهاد رحمهم الله . وغلط هؤلاء فيما خالفونا فيه كغلط سائر العلماء في التحرير والتحليل ولا فرق »[2] .

سقت هذا كله بين يدي الكلام على مذهبه في التربية والتعليم لتعلم مبلغ التحرر والاجتهاد اللذين يصدر عنهما في تجاربه وأحكامه ، وأنه « حين يعالج موضوعاً علمياً يعالجه بعيداً كل البعد عن الاعتبارات الأخرى مهما تكن ، إذ لا يرى فيه إلا ميداناً ، الناس فيه أسرة واحدة من جميع الملل والنحل ومن كل العصور والدهور ، وما خلفوا من تراث علمي وحضاري لا يختص فيه وطن ولا جيل ، ومن هنا طارت عنده حدود الزمان والمكان ، واندثرت عوامل العصبية والعواطف والأهواء[3] ، فكان (إنسانياً حقاً) وسيمر بك ما يحقق إنسانيته الشاملة .

آراؤه في التربية :

لآراء ابن حزم في التربية منطلقات وأسس ، منها أنه مضى يبحث ويتسع ويغوص في مجتمعه حتى درسه درساً ، وتقلب في مراحل حياته ماراً بما لا يحصى من التجارب والعبر في نفسه وخلطائه خاصة ، ثم في مجتمعه الأندلسي عامة ، وعن هذه الرحلات الفكرية صدرت آراؤه المختلفة في التربية والتعليم وسجلها في أخريات حياته في كتبه هنا وهناك ، فما هذه المنطلقات ؟ أو المبادئ العامة ؟ لقد

---

(١) الرد على ابن النفريلا اليهودي ورسائل أخرى ص١١١ .
(٢) مراتب الإجماع ص١٠ .
(٣) نظرات في اللغة عند ابن حزم ص٣٧ .

رددتها إلى أربعة أصول منثورة :

١ ـ الأول : أن الحياة الاجتماعية عنده تعاون وتكافل ، فعلى كل إنسان أن يكون عضواً عاملاً في مجتمعه ، له إنتاج يحتاج إليه الناس ، وينتفع منه هو ، من دون هذا يكون عالة ساقطاً منسلخاً من آدميته .

تجد هذا في غير مكان من كتبه ، وهو أوضح ما يكون فيما نقله عن شيخه أبي عبد الله محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني ، قال في رسالته (مراتب العلوم) :

« فصل : ومن السمج القبيح بقاء الإنسان فارغاً في مدة إقامته في هذه الدار ، مفنياً تلك المدة فيما غيره أولى به وأحسن منه ، في حماقة وبطالة أو معصية وظلم ، وقد سمعت شيخنا ابن الحسن يقول لي ولغيري : « إن من العجب من يبقى في هذا العالم (دون) معاونة لنوعه على مصلحة ، أما يرى الحراث يحرث له ، والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له ، والخياط يخيط له ، والجزار يجزر له ، والبناء يبني له ، وسائر الناس كل متول شغلاً له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة ؟ أفما يستحي أن يكون عيالاً على كل العالم لا يعين هو أيضاً بشيء من المصلحة ؟ » ولقد صدق »[1] .

٢ ـ الثاني : أن الثقافة أساس في المواطنة الصالحة ، وأريد بالثقافة هنا أكمل تعاريفها ، وهي سلوك المرء في حياته بما يقتضيه ما تعلمه من العلم ، وهو ما اصطلح عليه في الثقافة الإسلامية بـ (العلم والعمل) ووصف الكامل بأنه (عالم عامل) ، وصنف ابن حزم الناس على هذا الأساس أصنافاً أربعة في آخر رسالته في (مداواة النفوس) حيث قال : « فرض على الناس تعليم الخير والعمل به » :

(أ) فمن جمع الأمرين جميعاً فقد استوفى الفضلين معاً .

(ب) ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك العمل به فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهو خير من آخر :

---

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي (المجموعة الأولى) تحقيق إحسان عباس ص٨٣ .

(ج) لم يعلمه ولم يعمل به ، وهذا الذي لا خير فيه ، أمثل حالة فيه وأقل ذماً من :

(د) آخر ينهى عن تعليم الخير ويصد عنه .

ولو لم ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء ، ولا أمر بالخير إلا من استوعبه لما نهى أحد عن شر ولا أمر أحد بخير بعد النبي ﷺ . وحسبك ممن أدّى رأيه إلى هذا إفساداً وسوء طبع وذم (حال)[1] .

٣ـ الثالث : الصدور عن تجربة : يرى القارئ ، لآثار ابن حزم أنه كثير التعويل على التجارب في أحكامه التي يصدرها في التربية والأخلاق والسياسة والاجتماع ، لا يكتفي بما هداه إليه النظر الطويل والمطالعة المستمرة ، بل يتعرض لمن هم موضوع النظرية : يمتحن أحوالهم ، ويتصل بهم ويسائلهم ، ثم يعرض ما يتحصل لديه على نظرته المستقلة معترضاً ومقابلاً وفاحصاً حتى يطمئن إلى ما يصدر من أحكام . عقد في رسالته (في مداواة النفوس) فصلاً في مداواة ذوي الأخلاق الفاسدة[2] ، بدأه بقوله : « من امتحن بالعُجْب فليفكر في عيوبه . . . » فعرض أحوال العجب وعيوبه ، وتسربه إلى النفوس ، وفصّل القول في ذلك تفصيلاً في صفحات ، يصف الحالة ويطب لها بالدواء ، ويضرب الأمثال ، ويعنينا من ذلك ممارساته فقال[3] : « وقد تسببت إلى سؤال بعضهم في رفق ولين ، عن سبب علو نفسه واحتقار الناس ، فما وجدت عنده مزيداً على أن قال لي : « أنا حر لست عبد أحد » فقلت له : « أكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة ، فهم أحرار مثلك إلا قوماً من العبيد هم أطول يداً منك ، وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الأحرار » فلم أجد عنده زيادة ، فرجعت إلى تفتيش أحوالهم ومراعاتها ، فأفكرت في ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذي لا سبب له ، فلم أزل أختبر ما تنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم ومن مراميهم في كلامهم ، فاستقر أمرهم

---

(١) المصدر نفسه ص١٧٣ .

(٢) ص١٥٠ المصدر السابق .

(٣) المصدر نفسه ص١٥٩ .

أن عندهم فضل عقل وتمييز ورأي أصيل ، لو أمكنتهم الأيام في تصريفه أو وجدوا فيه متسعاً لأداروا الممالك الرفيعة ، ولبان فضلهم على سائر الناس ، ولو ملكوا مالاً لأحسنوا تصريفه ، فمن هاهنا تسبب التيه إليهم وسرى العجب فيهم . . إلخ » هو لا يكتفي بسؤال أصحاب العلاقة بموضوعه ، بل يمضي أبعد من ذلك فيفتش أحوالهم ويراعيها ، ويظل سنين يفكر راصداً سبباً يقبله ويطمئن إليه ، وكذلك يكون الدأب والصبر من أنجع الوسائل للوصول إلى الاطمئنان .

ولما قاده النظر إلى أن « أقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وماله بغير علة توجب ذلك ، وآثرك على من سواك » كان يقطع أن هذا شيء معدوم ، وما منعه إلا أنه وجد مثلاً واحداً مطابقاً لهذا الشرط فاحتاط بقوله : « ولولا أني شاهدت مظفراً ومباركاً صاحبي (بلنسية) لقدرت أن هذا الخلق معدوم في زماننا . ولكني ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتي الأحوال الموجبة للفرقة ، غيرهما »[١] .

وقرر في إصلاح المسيء نجاعة الثناء على المحسن بحضرته فقال « وما أعلم لحب المدح فضلاً إلا هذا وحده ، وهو أن يقتدي به من يسمع الثناء ، ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ، ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه »[٢] وهذه إشادة بفائدة للتاريخ أقرتها تجربته .

وفي أضرار التسرع في الأخذ بالظاهر حذر الناس بما أملت تجاربه عليه أن يحذر الناس منه فقال[٣] : « ينبغي للعاقل ألا يحكم بما يبدو إليه من استرحام الباكي المتظلم وتشكيه وشدة تلويه وتقلبه وبكائه ، فقد وقفت على بعض من يفعل هذا ، على يقين أنه الظالم المعتدي المفرط في الظلم ، ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي مظهراً لقلة المبالاة ، فيسبق إلى نفس بعض ما لا يحقق النظر أنه ظالم . وهذا مكان ينبغي التثبت فيه ، ومغالبة ميل النفس جملة ، ولا يميل المرء

---

(١) المصدر السابق ص١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص١٤٩ .

(٣) المصدر السابق ص١٦٦ .

مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها ، ولكن يقصد الإنصاف لما يوجبها الحق على السواء »[1] .

أَنِسَ ابن حزم بالتجربة فحبب إليه تنويعها ، حتى لقد جرب مماحكة الجهلاء ، وأثمرت تجربته معهم منفعة لم يحب أن يحرمها قارئ رسائله فقال لهم : « لكل شيء فائدة ، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهي أنه توقّد طبعي ، واحتدم خاطري ، وحمي فكري ، وتهيج نشاطي ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة ، ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت تلك التواليف » .

وخرج من ممارساته الطويلة وتجاربه المتعددة بإصراره وتشديده على كل متكلم ألا يتكلم إلا بعد تفكير ومحاكمة وامتحان ، وعظّم التبعة في الإخلال بهذا المبدأ بقوله : « ولقد يحق على المرء أن يخطم كلامه وأن يزمه إلا بعد تحقيق وميز ، وأن يعلم أن الله له بالمرصاد ، وأن كلامه محسوب مكتوب مسؤول عنه يوم القيامة . . »[2] وكان قد أوصى قارئه غير مرة في مواضع مختلفة في كتابه ، بالحياد التام في كل ما يقرأ أو يسمع ، فلا يحكم إلا بعد تجربة وبرهان من مثل قوله آخر رسالته (في مداواة النفوس) :

« وإذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام في كتاب ، فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة ، قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع ، وأيضاً فلا تقبل عليه إقبال المصدق به المستحسن إياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع ، فتظلم في كلا الوجهين نفسك وتبعد عن إدراك الحقيقة . ولكن أقبل عليه إقبال سالم القلب من النزع عنه والنزوع إليه ، ولكن إقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى ليزيد به علماً وقبوله إن كان حسناً ، أو رده إن كان خطأ »[3] .

---

(١) المصدر السابق ص١٦٦ .

(٢) مراتب الإجماع ص١٧٨ .

(٣) رسائل ابن حزم (المجموعة الأولى) ص١٧٢ وص٣٥ هذا وفي المطبوعة « فتظلم كلا الوجهين بنفسك » . وعند النزاع عنه ، فأصلحه إلى ما ظننته صواباً عما ظننت تحريف نسخ .

وهذا غاية من جعل الإنصاف والوصول إلى الحق ديدنه .

واشترط ابن حزم للتجربة التكرار الكثير الموثوق بدوامه بحيث « تضطر النفوس إلى الإقرار به كاضطرارنا إلى الإقرار بأن الإنسان إن بقي ثلاث ساعات تحت الماء مات » وقال في كتاب آخر : « إن التجارب لا تكون إلا بتكرار الحال مراراً كثيرة على صفة واحدة »[1] .

٤ـ الرابع : الوضوح ، مبدأ التزم به ابن حزم وطالب غيره به ، يريد بذلك أن تكون لغة العلم سهلة ميسرة لكل أحد ، بعيدة عن كل غموض ، وأن تكون المصطلحات دالة على ما تحتها من أفراد ، والعجيب أن هذا الذي أخذ نفسه به ورغب فيه من غيره هو الذي جر عليه حملات عنيفة من محتكري العلم ، وكان خليقاً أن يكون داعية ثناء وشكر ، وسيمر بك أنماط من ذلك ، وأكثر ما عاناه بسبب تسهيله علم المنطق لطالبيه ، ووضع مصطلحات مفهومة واضحة ببيان شاف ميسر فهمه لكل أحد ، إذ كان هذا الفن على حد تعبيره « وعّرته الأوائل وعبرت عنه بحروف الهجاء ضنانة به ، واحتسبنا الأجر في إبدائه وتسهيله وتقريبه على كل من نظر فيه . . . فقربنا من ذلك بعيداً ، وبينا وأوضحنا عويصاً ، فسهلنا وعراً ، وذللنا صعباً ما نعلم أحداً سمح بذلك ولا أتعب ذهنه فيه قبلنا ، ولله الحمد أولاً وآخراً »[2] وفصّل ذلك بعد صفحات بقوله : « . . . فليعلم أننا إنما ننظر المعاني بألفاظ متفق عليها لتكون قاضية على ما يغمض فهمه مما ليس من نوعها ، فها هنا يلوح لك فضل كلامنا آنفاً في المتلائمات وترتاح لفهمه جداً »[3] . وتطبيقاً لمذهبه في التأليف سمى كتابه (التقريب لحد المنطق) وقارئه يجد فيه مذهبه في الإيضاح بيّناً ظاهراً ، ويوقن بصدق العنوان على محتواه ، لقد كان تقريباً حقاً .

المنزع العام في حياة ابن حزم وكتبه ورسائله : نشر الثقافة وتيسيرها للناس عامة ، وله إزاء مطولاته الواسعة جداً رسائل مختصرة سهلة الفهم أراد بها تنوير

---

(١) الفصل ٥/ ٣٨ ورسائل ابن حزم (المجموعة الأولى ص٦٨) .

(٢) التقريب لحد المنطق ص١١٦ .

(٣) المصدر السابق ص١٥٥ .

أذهان الشعب ، وعن هذا المنزع كل آرائه في التربية والتعليم الآتية بعد :

التسهيل :

« إن الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن يسهله جهده ، ويقربه بقدر طاقته ، ويخففه ما أمكن ، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة ويدعو إليه في شوارع السابلة ، وينادي عليه في مجامع السيارة ، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه ويجري الأجور لمقتنيه ، ويعظم الأجعال عليه للباحثين عنه . . . لكان ذلك حظاً جزيلاً وعملاً جيداً وسعياً مشكوراً كريماً وإحياءً للعلم »[١] .

بهذه الروح الخيرة مارس ابن حزم التأليف والتعليم ، وعنها صدرت آراؤه في التربية حتى لكأنها آراء المحدثين من أساطين التربية ، فاللغة مثلاً في مذهبه أداة توضيح وتسهيل تيسر على البشر بلوغ أغراضهم ، أما في العلم فاتخاذها وسيلة إيضاح وتقريب أوجب وأوكد ، والعلوم النظرية إلى هذا أحوج . . . ويتلخص هذا المذهب بأداء الأغراض العلمية بالألفاظ الفاشية التي يفهمها عامة الناس ، وتجنب كل مستغلق معقد عليهم »[٢] .

ويشير إلى وجوب دلالة المصطلح على ما تحته من المقصود وأن ينزه عن اشتماله على غير المقصود من المعاني ، وانتقد اصطلاح علماء الكلام على إطلاق (القديم) على الله للاشتراك في معانيها وعموم دلالتها على كل قديم من المحدثات ، فوضع لذلك لفظة (الأول)[٣] وهذا مثال من تدقيقه اللغوي وتسهيله الفهم في آن واحد ، وتلمس مذهبه في وضع المصطلح حين عقب على وضعه (الإجماع الجازئ) بقوله : « عبارة اشتققناها لكل صنف من صفته الخاصة به ليقرب بها التفاهم بين المعلم والمتعلم ، والمتناظرين على سبيل طلب الحقيقة إن شاء الله »[٤] .

---

(١) المصدر السابق ص٨ .

(٢) كتابي « نظرات في اللغة عند ابن حزم » ص٣٩ .

(٣) مراتب الإجماع ص٨ .

(٤) انظر التقريب لحد المنطق ص٧٤ ، ٧٥ .

الأسلوب المقتصد في التأليف :

في الكتب التعليمية يجب الابتعاد عن التطويل ، لأن طويل البيان ينسي بعضه بعضاً ، كما ينبغي تجنب الإخلال بجزئيات المعنى عن طريق الاختصار المكثف كما في عبارات بعض المتون القديمة ، ويؤثر ابن حزم التوسط فلا يأتي بكلمة إلا وتحتها معنى ، وقد أوصى قارئ كتابه « أن يتدبر جميع ألفاظنا في هذا الكتاب ، فإنا لم نورد منه لفظة في ذكرنا عقد الإجماع إلا لمعنى كان يختل لو لم نذكر تلك اللفظة ، وليتعقب هذا فإنه ينتفع بمثله منفعة عظيمة ، ويكتسب علماً وشحذاً لذهنه ، وتعلماً لمعاني الألفاظ وبناء الكلام على المعاني »[1] .

تداعي المعاني والتربية :

انتبه ابن حزم إلى ظاهرة تداعي المعاني وإمكان الاستفادة منها في التعليم ، وكان هذا هدفه لتثبيت مسائل الإجماع في كتابه (مراتب الإجماع) ونبه في مقدمته إلى ما لهذه الظاهرة من أثر في التربية والتعليم وعلل ذلك بقوله : « . . . فإن الشيء إذا ضم إلى شكله وقرن بنظيره سهل حفظه ، وأمكن طلبه ، وقرب متناوله ، ووضح خطأ من خالف الحق فيه ، ولم يتعنّ المختصون في البحث عن مكانه عند تنازعهم فيه »[2] وما زال المربون إلى اليوم يوصون بجمع الشبيه إلى شبهه ، في تقرير مسائل علم ما ، وترى أمثلة كثيرة في كتب ابن حزم كـ (المحلّىٰ) و(إبطال القياس) ، فأحكام الشريعة في أبواب عدة تترابط بالتشابه والتضاد وغير ذلك .

ميل النفس : يولي المربون اليوم عناية عظيمة لميل الطالب إلى فن ما ، ووجوب مراعاة هذا الميل ما أمكن ، لأن الرغبة حافز كبير في التحصيل ، وحذروا من إهمال هذا الحافز النفسي أو معاكسته . وقد قرر هذا ابن حزم فقال : « من مال بطبعه إلى علم ما ـ وإن كان أدنى من غيره ـ فلا يشغلها بسواه ، فيكون كغارس النارجيل بالأندلس ، وكغارس الزيتون بالهند ، وكل ذلك لا ينجب »[3] .

---

(١) المصدر السابق ص١٧٧ .

(٢) مراتب الإجماع ص٣ .

(٣) رسائل ابن حزم (المجموعة الأولى) ص١٢٢ .

ولابن حزم نظرات في التربية غير هذه منشورة في كتبه صراحة حيناً كالذي تقدم ، وإشارة حيناً آخر ، فلننقل إلى المنهج العام الذي وضعه لطالب العلم ، ثم إلى تقديره لكل علم على حدة سلباً أو إيجاباً .

الثقافة العامة والاختصاص :

نظرة ابن حزم إلى العلم محيطة شاملة ، لا تقتصر على ما يسمى بعلم كاللغة والشريعة والطب والفلك والحساب مثلاً ، بل تتسع حتى تشمل الصناعات بأنواعها ، فبعد أن ذكر أنواعاً من العلوم وصنفها وعرف بها ، عقب على ذلك بقوله : « وعند التحقيق وصحة النظر فكل ما علم فهو علم ، فيدخل في ذلك علم النجارة والخياطة وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها وغرسها ، والبناء وغير ذلك ، إلا أن هذه إنما هي للدنيا خاصة فيما بالناس الحاجة في معايشهم »[١] .

لكنه عني بأن يكون كل إنسان على نصيب من الثقافة العامة ، سواء أكان صانعاً أم طالب علم يريد التخصص فيه ، فهناك معلومات عامة ومبادئ علوم لابد من الإلمام بها قبل تعلم حرفة أو انصراف إلى فن ، وقد وضع لذلك منهاجاً جمع كل ما لا يجوز ـ في نظره لأهل عصره ـ أن يجهلوه .

بدأ منهاجه بأن يسلم الطفل بعد مولده بخمس سنين إلى مؤدب يعلمه الخط حتى يكون خطه « قائم الحروف بيناً صحيح التأليف »[٢] ويعلمه القراءة ، وحدُّها « أن يمهر في القراءة لكل كتاب يخرج من يده بلغته التي يتخاطب بها صقعه ، وينفذ فيه ، ويحفظ مع ذلك القرآن فإنه يجمع بذلك وجوهاً كثيرة عظيمة ، أحدها التدرب في القراءة له وتمرين اللسان على تلاوته فيحصل من ذلك حداً ، إلى ما يحصل عنه من عهوده الفاضلة ووصاياه الكريمة ليجدها عدة عنده مدخرة لديه قبل حاجته إليها يوم حاجته إليها »[٣] .

---

(١) المصدر السابق ص٨٠ .

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي (المجموعة الأولى) ص٦٣ .

(٣) المصدر السابق ص٦٤ فما بعد .

فإذا أتقن المبادئ على الصفة التي ذكرها فلينتقل إلى علم النحو ، وليتقن منه مواضع الإعراب ، وتغير الحركات دون التعمق فيه إذ يكفيه منه ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة » ورسم له في هذا كتاب الواضح للزبيدي[1] ، أو ما نحا نحوه كالموجز لابن السراج .

أما علم اللغة فيكفيه ما فشا في مخاطبات الناس وكتبهم مما كثر استعماله ولا يجوز جهله ، « والذي يجزئ من علم اللغة كتابان أحدهما (الغريب المصنف) لأبي عبيد ، والثاني (مختصر العين) للزبيدي ، ليقف على المستعمل بهما ، ويكون ما عدا المستعمل منها عدة لحاجة إن عنّت يوماً ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب ، فإن أوغل في علوم اللغة حتى يحكم (خلق الإنسان) لثابت و(الفرق) له و(المذكر والمؤنث) لابن الأنباري و(المقصور والممدود والمهموز) لأبي علي القالي و(النبات) لأبي حنيفة الدينوري ، وما أشبه ذلك فحسن بخلاف ما قلنا في النحو . . . ، وإن كان مع ما ذكرنا شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير . . . فإذا بلغ المرء من النحو واللغة إلى الحد الذي ذكرنا فلينتقل إلى علم العدد »[2] وسائر الرياضيات من هندسة وفلك ، وعند ذلك يشرع (في النظر) في حدود المنطق ، ثم في علم التاريخ وتراجم العظماء للاعتبار ، وما لا يجوز جهله من علم الطب مما يحفظ الصحة .

فإذا بلغ المتعلم هذا المبلغ من الثقافة العامة فلا بد عليه أن ينصرف إلى ما يحصل به عيشه من صناعة أو تجارة أو زراعة أو تعليم ، أو إذا شاء إلى التخصص في علم من العلوم والتعمق فيه . ولم ينس أن ينبهنا إلى ضرورة هذه الثقافة العامة ، وأن يحذرنا من التفريط فيها أو الإفراط في التزام علم واحد ، فقال : « ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره أو شك أن يكون ضُحكة ، وكان ما خفي عليه من علمه

---

(١) طبع أخيراً بتحقيق د . عبد الكريم خليفة فإذا هو يتجه إلى الناحية التطبيقية أو (الوظيفية) بالمصطلح الحديث . وهذا يكفي دون شك .

(٢) رسم هذا كله بين صفحتي ٦٣ و٧٢ من رسائل ابن حزم ، وبين خلال ذلك الفائدة العملية لكل علم ، وانظر (الرد على ابن النغريلا ورسائل أخرى لابن حزم) ص١٦٣ـ١٦٥ .

الذي اقتصر عليه أكثر مما أدرك منه لتعلق العلوم بعضها ببعض . . . ومن طلب الاحتواء على كل علم أو شك أن ينقطع وينحسر ولا يحصل على شيء ، وكان كالمحضر (المسرع) إلى غير غاية ، إذ العمر يقصر عن ذلك ، وليأخذ من كل علم بنصيب . . . ممابه ضرورة إلى ما لا بد له منه ثم يعتمد العلم الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه وبحيلته فيستكثر منه ما أمكنه . فربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر على قدر ذكاء فهمه وقوة طبعه وحضور خاطره وإكبابه على الطلب »[1] .

هذا وقد تخلل هذه الخطة المتكاملة أجزاؤها وصايا خلقية واجتماعية تنأى بطالب العلم عن الدنايا ، وأن يكون الإخلاص رائده في خطواته ، وأن يزع نفسه عما لا يليق به .

هل اكتفى ابن حزم في تسديد خطا طالب العلم ورسم منهج سديد له ، وترك من فوقه لأنفسهم ؟ الحق أننا نجده يتابعه حتى نهاية حياته ، في رأي ابن حزم **أن غاية العالم أن يكون طالب حقيقة** وهذه أرفع الدرجات في فلسفته وهي غاية الغايات في كل فلسفة ، لذا عظم شأنها ووصف طول الطريق إليها بقوله : « واعلم أن ما ذكرنا من الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدة البحث ، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال ، والنظر في طبائع الأشياء ، وسماع حجة كل محتج ، والنظر فيها والتفتيش ، والإشراف على الديانات والنحل والمذاهب والاختيارات واختلاف الناس وقراءة كتبهم . . .

ثم نرجع فنقول : لا بد لطالب الحقائق من الاطلاع على القرآن ومعانيه ، ورواية ألفاظه وأحكامه ، وحديث النبي ﷺ وسيره الجامعة لجميع الفضائل المحمودة في الدنيا والموصلة إلى الآخرة ، ولا بد مع ذلك من مطالعة الأخبار القديمة والحديثة والإشراف على قَسْم البلاد ومعرفة الهيئة ، والوقوف على اللغة التي تقرأ الكتب المترجمة بها ، والتحري في وجوه المستعمل منها ، ولا بد له من مطالعة النحو ،

---

(١) ص٧٧ من المصدر السابق وعرض قبل ذلك للمقتصر على علم واحد فروى عن شيخه يحيى بن مجاهد الفزاري قوله : « كنت آخذ من كل علم طرفاً ، فإن سماع الإنسان قوماً يتحدثون وهو لا يدري ما يقولون غمة عظيمة » ص٧١ .

ويكفيه منه ما يصل به إلى اختلاف المعاني بما يقف عليه من اختلاف الحركات في الألفاظ ومواضع الإعراب منها ، وهذا مجموع في كتاب (الجمل للزجاجي) الدمشقي .

وأما كل ما تقدم فليستكثر منه ما أمكنه ، ولذلك : حد هو الغاية ، وحد هو الذي لا ينبغي أن يقتصر على أقل منه ، فالحد الأكبر هو ألا تخلو من النظر في العلوم التي قدمنا إلا في أوقات أداء الفرائض والنظر فيما لا بد لك منه من المعاش وترك كل ما يمكن أن تستغني عنه من أمور الدنيا . .[1] .

وهكذا هيأ ابن حزم منهجاً في التربية والتعليم يبدأ مع الإنسان طفلاً في الخامسة من عمره ، ثم يتدرج قدماً في صعود حتى الوفاة ، **لأن الإنسان الكامل - في نظره - هو الذي لا ينفك طالب علم ما تردد في رئتيه نفس** .

كيف تصور ابن حزم الحياة المثلى الممكنة ؟

لكل مفكر تصور خاص للكون وللسلوك المثالي فيه ، فقديماً عرف الناس تصور أفلاطون ، ثم عرفوا تصور الفارابي في (المدينة الفاضلة) ، ولغيرهما تصورات مثالية أخرى[2] . أما ابن حزم فقد حصر تصوره للكون في حدود النصوص القطعية من القرآن الكريم والحديث الشريف ووقف عندها فلم يعتقد سواها ، وأعفى نفسه من فلسفة تصورية وإن لم يعفها من التفكير والتدبُّر في كل ما يشاهد ، حتى استطاع الوصول إلى أن المجتمع المثالي هو المؤسس على التعاون والتضامن والتكامل .

لكنه ألزم نفسه رسم صورة مثالية لحياة الإنسان المثقف هي التي تعنينا هنا ، فقد تعرض لها في أماكن كثيرة من آثاره التي أمكن الاطلاع عليها حتى إننا نستطيع أن نقول : إن أجزاءها متكاملة إلى حد ما بحيث إذا كشف المستقبل عن بقية آثاره فلن يغير في هيكلها شيئاً غير إثرائه بالتفاصيل .

وقد مرّ بك ما خطط في المجال التعليمي ونجمله هنا بما يلي :

---

(١) التقريب لحد المنطق ص١٩٨ .

(٢) هذا طبعاً غير الفلسفات العامة التي حاول أصحابها معرفة نشأة الكون وطبيعته وتكاد تكون متعددة بعدد الفلاسفة أنفسهم .

بعد إتقان الطفل القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب ينتقل إلى ما نسميه بالثقافة الأصلية ، وهي تختلف أحوالها باختلاف الشعوب وأديانها وتقاليدها . وهي في بيئته اللغة العربية وشيء من آدابها ، والقرآن الكريم وعلومه والسنة والفقه وشيء من التاريخ والجغرافية والهيئة ، وبعد ذلك مرحلة التخصص في اللغة أو الشريعة أو الطب أو الهندسة أو الصناعات المعاشية ، بشرط عدم الانقطاع بعد هذا التزود عن الاستزادة مما ينفعه في الدنيا ويهديه إلى سعادة الآخرة .

أما السلوك فنقسمه قسمين : الأول نحو خالقه والثاني نحو مجتمعه :

١ـ فالسلوك مع ربه أن يلتزم كل ما أمر به عبادة : كالصلاة والصيام والزكاة والحج في الحدود التي بينتها السنة ، وأن يبتعد عن التطرف المنحرف الذي ابتدعه المبتدعون ، وهو يتشدد في ذلك ويعد الزيادة على ما ورد في السنة الصحيحة وسيرة الرسول وأصحابه إساءة ، يعبر عن ذلك في أسلوبه العنيف المعتاد وقد سئل عن الحد الأعلى في التعبد فأجاب :

« أنا أكره لكل واحد أن يزيد عن عدد ما كان يتنفل به نبيه محمد لوجهين : أحدهما قول الله عز وجل : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب ٣٣/ ٢١] ، والثاني أن يُخْطِر الشيطان في قلبه فيوسوس أنه فعل من الخير أكثر مما كان محمد يفعله فيهلك في الأبد ويحبط عمله ، ويجد صلاته وصيامه في ميزان سيئاته »[١] ويؤكد هذا بقوله : « من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر به الله ورسوله فإنه يحتوي على جميع الفضائل » ولا ينسى في كل حال أن يحذر في أمور الشريعة وغيرها من التقليد لأن « المقلد راض أن يغبن عقله ، ولعله مع ذلك يستعظم أن يغبن ماله ، فيخطئ في الوجهين معاً »[٢] و« مجالس الذكر عنده هي مجالس العلم »[٣] كل هذا يدل على مذهب ابن حزم في تصرف الإنسان حتى في

(١) رسائل ابن حزم (المجموعة الأولى) ص (ط) نقلاً عن رسالة ابن حزم (التلخيص لوجوه التخليص : الورقة ٢٤٢) . والآية من سورة الأحزاب ٣٣/ ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص١٦٣ .

(٣) انظر ص١٧١ من المصدر السابق .

عباداته وهو في تمام حريته واستقلاله ، في التزام السنن والتنزه عن التقليد . وإذا كان فيما سبق أحب لطالب العلم ن يستمر في طلبه إلى آخر عمره ، فقد أحب أن يذكره أن « أجلّ العلوم ما قربك من خالقك ، وأعانك على الوصول إلى رضاه »[1] .

٢ـ وأما سلوكه في مجتمعه فقد عرفت أن ابن حزم يوجب على كل امرئ أن يكون فيه عاملاً مفيداً بنفسه وعلمه وماله ، ويضيف بعد ذلك أن يكون مفيداً في حياة المجتمع الروحية والمادية ، وهو بعد أن رسم للإنسان الكامل الإقبال على العلم والعمل به بقوله : « **من أخذ من كل علم ما هو محتاج إليه ، واستعمل ما علم كما يجب ، فلا أحد أفضل منه ، لأنه حصل على عز النفس وغناها في العاجل وعلى الفوز في الآجل** »[2] توجه إلى هؤلاء الأفراد الحاصلين على التربية الفاضلة لإقامة الحياة الاجتماعية قائلاً : « وليكن الناس فيها في تعاونهم على إقامة الواجب من ذلك عليهم ، كالمجتمعين لإقامة منزل ، فإنه لا بد من بنّاء وأجراء ينقلون الطين ، ومن صناع القرمد ، وقطاعي الخشب ، وصناعي الأبواب والمسامير حتى يتم البناء . وكذلك سائر ما بالناس الحاجة إليه من الحرث فإنه لا يتم إلا بالتعاون على (القيام) بالآلة والعمل بها . وكذلك التعاون على ما به تكون النجاة والترقي إلى عالم الخلود ، ورضا الخالق أوجب وأكرم »[3] .

على هذا نرى ابن حزم يستحب لرجله الفاضل ألاّ ينسى التربية الروحية في كل خطوة من خطواته ، لا في علمه فقط ، **فإذا دخل المجتمع مصلحاً فعليه بالرفق والاعتدال والصبر ، بعيداً عن الإفراط والتفريط ، وعن الإعجاب بالنفس والاستصغار لغيرها في كل صفة وحال فـ** (لا يذم ما جهل ولا يعجب بما علم »[4] .

وإذا كان عمود المجتمع المسلم ونظامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

---

(١) المصدر السابق ص١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص٨٩ .

(٣) المصدر السابق ص٨٢ .

(٤) انظر ص٨٠ من المصدر السابق .

فقد أوجب ابن حزم على رجله حين يتقدم للإصلاح الاجتماعي « الائتساء بالنبي ﷺ في وعظه أهل الجهل والمعاصي والرزائل ، وقد أثنى عليه السلام على الرفق فأمر بالتيسير ونهى عن التنفير ، وكان يتخول بالموعظة خوف الملل »[١] فذاك أجود أن ينجح في أمره بالمعروف ، فإذا بلغنا الشق الثاني (النهي عن المنكر) تغير الموقف تماماً : « وأما الغلظة والشدة فإنما تجب في حد من حدود الله تعالىٰ فلا لين في ذلك » ، ولعل عناية ابن حزم في إنكار المنكر مقدمة على الأمر بالمعروف ولا سيما في ظلم البشر ، **ولذا لم ير لرجله الفاضل صحبة السلطان لأنها من البلايا العظيمة ، تعرضه** « للخطر الشنيع في ذهاب دينه وذهاب نفسه وشغل باله وترادف همومه ، فلا يشاركه في محظور البتة ، وإن أداه ذلك إلى التلف ، فلأن يتلف مظلوماً مأجوراً محتسباً محموداً أفضل من أن يبقى ظالماً مسيئاً آثماً مذموماً . . . إلخ »[٢] بل إنه أوصى بالتشدد مع أهل المناكر وعدم السماحة معهم لأن « مسامحة أهل الاستئثار والاستغناء والتغافل لهم ليس مروءة ولا فضيلة ، بل هو مهانة وضعف وتضرية لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم » . وكذلك رسم ابن حزم لرجله الفاضل أن يكون سلبياً شديد السلبية في مجتمع أراد له الصحة والسلامة[٣] . وهذا يوافق ما قدم من أن نصرة الحق وإبطال الباطل هدف عزيز لحياة المؤمن الفاضل ، يستحق أن يبذل المرء نفسه في سبيله ، وكرر ذلك في غير موضع من كتبه ، وجعله من وصاياه في (رسالة مداواة النفوس) وهي من آخر ما ألف « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل ، في دعاء إلى الحق ، وفي حماية الحريم ، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالىٰ ، وفي نصر مظلوم »[٤] والعاقل « لا يرى لنفسه ثمناً إلاّ الجنة »[٥] .

---

(١) ص١٤٨ و١٤٩ .

(٢) المصدر السابق ص٧٥ .

(٣) المصدر السابق ص١٣٤ .

(٤) المصدر السابق ص١١٨ و١١٩ .

(٥) المصدر السابق ص١١٨ و١١٩ .

هذا ما تيسر لي استنباطه من تصور ابن حزم للإنسان (المربي) الكامل ، اجتهدت أن يكون هذا التصور بكلمات ابن حزم نفسه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، ليكون أصدق في التعبير ، مطابقاً لما في نفسه إلى أبعد الحدود .

وأن أختم بشيء فهو أن هذا التصور منبعث من الواقع الذي عاش فيه ابن حزم ودرسه ، ووعاه ، وفلسفه ، ليس فيه خيال ولا أماني . لم يضع ابن حزم تصوراً مثالياً لما يريد أن يكون عليه الإنسان الذي يحلم به ، فهو ليس كأفلاطون في جمهوريته ، ولا كمن نسج على مثال أفلاطون فتصور مدناً فاضلة كل ما فيها غاية في الكمال . كل ما صنع ابن حزم أنه وصف سيرة لمَّ أجزاءها من واقع عاينه وفهمه حق الفهم ، وهي سيرة ممكنة لا تخيل فيها ولا مبالغة ، كل أجزائها تحققت في الواقع الذي عايشه في مجتمعه .

* *

علم لا سياسة

حديث إذاعي يتحدث فيه الأستاذ عن مناقشة
قانون الأحزاب
يعود إلى يوم ٢٧/ ٨/ ١٩٦٢م

يشغل محترفي السياسة هذه الأيام الإعلانُ عن أنفسهم في صدد مناقشتهم قانون الأحزاب ويسمون هذا سياسة . أما رجال الفكر الخالص فيمر أمام أعينهم فلم متلاحق المآسي في تاريخنا القديم والحديث ، بحيث لا تمر في هذا العرض نكبة أو مأساة إلا رأى الغائص على سببها يداً أجنبية عدواً ، ووجدت مجال التخريب ذا سعة ، حيث كان في المجتمع أحزابٌ يناوئ بعضها بعضاً .

وأكبر ثمرات العلم أن يسدد الخطا في الحاضر والمستقبل ويعصم المجتمع القائم من التورّط في الوحول التي غاصت فيها مجتمعات سابقة ، وإن مجتمعاً يقع في أخطاء تتكرر مجتمع عار عن الثقافة مهما يكثر فيه العلماء والمتعالمون ، لأن الثقافة في حقيقتها هي تطويع للسلوك الفردي والاجتماعي لمقتضيات العلم والمعرفة .

فما الدرس الذي أملته التجارب السابقة في المجتمع العربي حتى نفيد منه في خطوتنا الحاضرة ؟

نزل العرب إلى ميدان التاريخ أول المئة الأولى للهجرة ، وكلمتهم واحدة ، فأتوا بالعجائب في الحرب والفتح ، ثم في البناء والتنظيم ، وكان منهم الخير كل الخير لأنفسهم وللعالم كافة .

ولم تكد الحزبية تذرّ قرنها آخر أيام الخليفة الشهيد عثمان بن عفان ويتهامسُ الناس بأموية وهاشمية حتى وجد الأعداء سبيلاً إلى هذه الوحدة القوية فصاروا يغذون الشر ويوقدون النار في الأمصار ، ووجدوا في ابن سبأ وأشباهه أُجَراء نشطين يخرّبون الناس في أحزاب عقائدية يرأسونها ويلقون إليهم في أول الأمر كلاماً مقبولاً

وخلوا منه إلى مبالغات أفسدت العقيدة من أساسها ، ونادوا بألسنتهم بمبادئ ، وقاموا بأعمال تضادها حطّمت وحدة الأمة تحطيماً ، فوقفت الفتوح واشتغل بعض العرب ببعض أيام علي ومعاوية حتى خيف على بلاد المسلمين نفسها من الروم . ودفعنا نحن الثمن دم عثمان ثم دم عشرات الألوف في وقعتي الجمل وصفين ، ثم تلاحقت النكبات فيما بيننا ، نعمل سلاحنا في أنفسنا بدل إعماله في عدونا المشترك ، فأوقعنا الوهى في دولتنا ، والتفرقة في صفوفنا ، والعداوة في قلوبنا .

ثم كانت حزبية ثانية بين الأموية والزبيرية ألقحت فتناً وحروباً داخلية وضعضعت وضعنا الخارجي ، وانجلت عن ألوف القتلى ، وغلبة الحزب الأموي . وما كاد الناس يستريحون منها حتى رمى أذكياء الأعداء بوقود جديد من هذه (العقائدية) الحزبية وتبنى الفرس (العقائدية العلوية) وأنا أستعمل هذا التعبير الركيك عمداً لأفهم الصبيان وجهلة الزعماء ، وكان تطاحن بين الحزب الأموي والحزب العلوي انتهى بإعلان الدعوة العباسية بعد سفك عشرات الألوف من الدماء العربية في عشرات المعارك والمجازر الداخلية ثم انقسمت هذه العقائدية الفارسية الأصل إلى عباسية وعلوية ، وتفرعت العلوية إلى إمامية وزيدية ثم كانت في المشرق الأحزاب الباطنية المعروفة .

وفي المغرب الدعوة الباطنية التي انجلت عن قيام الدولة الفاطمية في مصر . وتتوالى هذه الحزبيات التي تتقمص عقائد تجتذب جماهير من الناس ، وتظهر من تحت الستارة الحقيقة المرة فإذا هي تكالب على الحكم والأموال ، ويكون الثمن دائماً دماء هذه الشعوب وأموالها وأعراضها وتفكيك دولتها وإطماع العدو بها .

أما تاريخ فردوسنا المفقود (الأندلس) فكله نكبات ، هذه الحزبية صبغت بطاح الأندلس وجبالها ، بالدماء البريئة من يمنية وقيسية ومشرقية ومغربية تراق لإرضاء مطامع المتزعمين ولشفاء أحقادهم من منافسيهم ، والذي كان خفياً بعض الخفاء في المشرق من الأيدي الأجنبية التي ترمي إلى (عملائها) بالعقائد الجديدة لتكون شعار الفترة وشعارها ، صار ظاهراً كل الظهور في الأندلس فلا يتطاحن أميران عربيان إلا كان أحدهما حليفاً لطامع إسباني يعينه على أخيه العربي ، فإن ظفرا اقتسما أرضه ،

وإلا نزل الحليف العربي للأمير الإسباني عن رقعة من المقاطعة التي أؤتمن عليها ، وكانت النتيجة بالطبع انتقاص لسكان العرب وانكماش الرقعة العربية مع الزمن وانفساح الرقعة الأجنبية حتى آل الأمر إلى أن أصبحت الأندلس كلها إسبانية ولولا الحزبية لبقيت إلى الآن بلاداً عربية الدين والحكم واللسان .

ولم لا أذكرُ ضحيَّةً مائلة لتناحر الزعامات التافهة هي فلسطين التي احتلها البريطانيون ، وفيها وكالة يهودية صغيرة لا تلفت النظر ، وفيها من العرب أنوف في السحاب من زعماء مختلفين ، كل له حزب وعصبية ، اليهود فيها قلة ضعيفة ، والعرب كثرة متماوجة يخشى منها ، فما زال الأجنبي ينفخ في المعاطس ، ويغري بين الزعماء العرب العداوة والبغضاء حتى مضت سنوات والوكالة اليهودية إلى قوة وأمر العرب بهؤلاء الزعماء إلىٰ ضعف وتشتت ، فجرت على الفريقين سنّة الله في رجحان الوعي وجمع الكلمة ونصح القيادة على الغفلة ، وتشتت الكلمة وغش القيادة ، ومن ينسى غداة إعلان الدول العربية الحرب على إسرائيل تناحر الرؤساء والملوك والسكين في رقبتنا من يكون القائد الأعلى للجيوش العربية .

ولقد سمعت بأذني أحد المتحزبين في فلسطين والأردن يقول : « لأن يأخذ فلسطين اليهود خير من أن يملَّك عليها فلان » . فردّ عليه من الحزب الآخر من قال : « لا بل يستولي عليها اليهود ولا يرأسها فلان » . فاتفق كل من الطرفين على أن تسليمها لليهود خير من أن يلي أمرها زعيم عربي من غير حزبه ، وكذلك كان ، ولا يظلم الله الناس ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

وهاتان مصر والشام في العصر الحديث ما تاريخهما بعد الحرب العالمية الأولى ؟

إنك إذا استثنيت فترات قصيرة انصرف فيها المسؤولون إلى البناء لا تجد فيما بقي إلا التناحر الحزبي الذي أضاع قضايانا برمّتها ، فكلما اشتد نضال الجماهير للتحرر وكادوا يظفرون رمى العدو إلى عشاق المنافع والمناصب بآراء متباينة تصاغ صوغ النظام ، فتؤسس لها أحزاب تتصارع على الحكم ، وتضع قضية البلاد على الرف ، جرى هذا في مصر فأخفقت به ثورة سنة ١٩١٩ ، وانشق على الوفد رجال ألفوا فيما

بعد حزباً ، انفرد من الطرفين فريق ثالث أسس حزباً ثالثاً وصار تاريخ النضال في مصر في أغلبه نضال هذه الأحزاب على الحكم ، كلما وليه واحد منها انصرف الحزبان الآخران لمعارضته فاضطر هذا إلى ان يستقوي بالأجنبي ، فقواه بمقدار حتى إذا أراد بعد طول وقت أن ينصرف لخدمة بلده سلط عليه حزباً آخر وقواه حتى يستلم الحكم فيعارض الأول ، فإذا خشي الأجنبي شيئاً من القائم على الحكم رجع إلى عميله الأول . . . وهكذا دواليك في ثلاثين سنة لا شاغل للسياسيين في مصر غير التناحر وشاعت المقولة التاريخية المنكرة : « الحماية على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلي » حتى رحم الله مصر فزال هذا النظام الملكي النيابي بالثورة ثورة ١٩٥٢ .

أما في الشام فما همّ الناس بزحزحة عهد الاحتلاف فثاروا سنة ١٩٢٥ الثورة المباركة التي شرّق ذكرها وغرب وكادت تؤتي ثمارها حتى اختلف الزعماء في حزبين فتنمّر القائد الفرنسي الذي كان يستجدي المفاوضة معهم قبل أيام ، فعلا وطغى ، ولفظت الثورة أنفاسها بعد أن جعل متزعموها صفها الواحد المتآلف حزبين متعاديين ، ولما رضي الفرنسيون بإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية عام ١٩٢٨ وانعقدت ووضعت الدستور وكاد يصدّق ، عجّل بعضهم ببحث من سيصبح رئيس الجمهورية فصار المجلس فريقين ولم يتفقا وتعطل الدستور وشلت مواده وبقينا ندفع ثمن هذه الأطماع حتى يوم الجلاء ١٩٤٥ .

وبعد فما أرب المسؤولين كل حين من إنشاء الأحزاب ؟

إن كل محترفي السياسة وكل مستغل للدعوات الخيرة ليصبح نائباً يقولون بالسيادة والوحدة والحكم الصالح ، ففيم تأليف الأحزاب إذن ؟ لقد قامت في الفترات الماضية أحزاب شتى ، كلٌّ له مزاعمه ونشراته وربما مترجماته يسميها مبادئ وعقائد ، ولا يهم الآن كونها مستوردات أو مأجورات أو مهدمات أو بانيات . كل هذا لا يهم ، المهم أن أحداً منهم لا يجاهر بأن حزبه هدام لا يخدم دولة كذا أو يقول بنظام دولة كذا أو تبعية كذا ، بل كلهم يدعي دعوى زملائه في الشرف وعدم الخيانة فلم ألفوا الأحزاب إذن ؟

الذي يجب أن يؤرخ هنا بصراحة لا غمغمة فيها ، أن هذا البلد شهد وحتى عهد الوحدة نوعين من الإدارة : نوعاً أسموه الحكم الفردي ، ونوعاً سموه الحكم النيابي ، أما الحكم الفردي فكان على مآخذه أقل شروراً وأكثر بناء ، وهذا أمر واضح فأخطاء الفرد وأطماعه أقل جداً من أخطاء عدد كبير من الأفراد يلون وزارات ونيابات ، وفقدان المعارضة والأحزاب يجعله ينصرف إلى إنجاز مشروعات ملموسة الفائدة ، يخفف بها على النفوس أثر التسلط ، ويسوغ بقاء .

أما ما أسموه بالحكم النيابي في الفترات الماضية ، فلا بناء فيه البتة ، لانصراف الكتل والأحزاب إلى جر المغانم لأنفسها وذويها ، ثم السعي في إفادة أكبر عدد ممكن ممن صوتوا لأفرادها في الانتخابات ، وما زاد من الجهد فمصروف إلى الدعاية سلبية على خصومها ، أو إيجابية لأنفسها لا تحصى لمصلحة هذه الجماعات وأحياناً تشريع لشخص واحد وأنا أعفي القارئ الكريم من الأمثلة لاستفاضتها ، وأرجو أن أقوم بواجب تأريخها على حدة عسى أن يرسل الله إلى البلد من يطّلع عليها فيجنبنا تكرار النكبات .

وبعد ، فإذا شئنا سرد ما تعرضت له البلاد من أضرار الحزبية في السنوات القريبة لهالنا التهديم الذي غزا مصالح الحكومة والإدارات والتعليم وحتى القضاء من مداخلات الأحزاب ومتزعميها الذين لم يستتبّ لهم الأمر في أحزابهم حتى أتوا بالدمى والألاعيب من أحداث أحزابهم تقفز عابثة على مقاعد النيابة والوزارة ومناصب المديرية والأمانات العامة والإدارات في الجامعات ، وحتى صرت ترى العبث في مصالح التعليم وأنظمته والجرأة على كفاياته ، وحتى امتحاناته . وكان مصيبة من أشد المصائب على النفس أن بعض من كنت أعده في الأساتذة ذوي الوجدان والكفاية لما باع نفسه تابعاً في بعض الأحزاب انقلبت تصرفاته رأساً على عقب ، واستبدل تعليمات المركز الحزبي وأهواء زعمائه بمعايير الحق والكفاية والنظام والعدالة حتى شاع في بيئة الطلاب يوماً أنه لا بد من الانخراط في الحزب لكفالة حقوقهم .

أنا لا أدلي برأي في قانون الأحزاب المعروض . فهذا يتعلق بالسياسة من جهة ،

ولأن إعطاء رأي فيه يتضمن الموافقة على الحزبية من جهة ثانية ، وإنما أعرض واقع التاريخ الحديث في الموضوع وما جرت الحزبية على البلاد من البلاء في الأخلاق والوطنية والظلم وسوء تربية الجماهير وتفتيت الصف .

وما لي أطيل فقصة جسر بغداد قبل ألف عام هي رأيي الدقيق في الحزبية والأحزاب ولا ضرر في التذكير بها :

كان المار على جسر بغداد قبل ألف عام أيام غلبة العصبية الشيعية على الحكام الأعاجم يرى في أول الجسر حلقة مزدحمة على رجل وقف ينشر الأشعار في مدح الإمام علي بن أبي طالب بصوت شجي والدراهم تنثال على ثوب بسطه أمامه حتى تجمع منها كومة عظيمة ، فإذا بلغ المار آخر الجسر وجد حلقة أعظم ومنشداً ينشد في فضائل معاوية بن أبي سفيان وعلى ثوبه المبسوط كومة من الدراهم أكبر ، هذا شأنهما كل يوم فخطر لبعضهم أن يتتبع أحدهما بعد انصرافه ليرى أين يودع هذه الدراهم فانتظر حتى انفض الناس من حوله بعد العشاء فصرّ كومة الدراهم وحملها ومضى بخطاً ثقيلة والرجل يتبعه في الظلام حتى رآه دخل غرفة في خان وأغلق خلفه الباب وأنزل المغلاق فأمهله هنيهة ، ثم اختلى النظر من شقوق الباب على ضوء خافت فإذا به يرى زميله الآخر الذي كان ينشد في فضائل معاوية قد سبقه ، وبسط الرجلان ثوباً رمى عليه كل منهما ما معه ثم اقتسما الدراهم بالتساوي ، وزحف كل إلى فراشه لينام .

فلسفة هذه القصة واضحة والرجلان ذكيان إذ كل من يمر على جسر بغداد إما سني وإما شيعي فالشيعي يلقي درهمه حماسة للمنشد في فضائل علي ، والسني يلقيه آخر الجسر عند مادح معاوية فلا الأول يعنيه شيء من أمر علي ، ولا الثاني مهتم بمعاوية ، هي مصيدة للمغفلين يرزق الله بها الأذكياء الذين لا عمل شريف لهم .

هذا رأي التاريخ الحق ، والبشر هم البشر ، والمصايد هي المصايد في كل عصر ومصر والويل كل الويل لضحايا الغفلة والتقليد والحماسة من الشعوب . وطوبى للواعين !

المرأة والسياسة

مقالة تكشف أبلغ عبرة ، وهي أن المرأة عندما تدسُّ أنفها في السياسة ، يمكن أن تجرَّ الويلات .

مستخلصة من كتاب (عائشة والسياسة) نشرتها مجلة الرسالة في العدد ٦٤٧/ عام ١٩٤٥م .

الحكم في هذه القضية لسنة الله في المرأة ، وما فطرها عليه من خصائص (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية : خصائص قاهرة لا يد للإنسان في تحويرها إلا حين يستطيع تحويراً في تركيب الدماغ وبنية خلاياه ، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء .

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية ، اقتضتها الحكمة العميقة الطبيعية التي تُعنىٰ بالتمييز الدقيق عناية تتطلبها عمارة هذا الكون القائمة على تقسيم الأعمال والوظائف ، وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وخلق له . وكل مجتمع يحاول بناته إلغاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين وتجاهل السمات البينة ، فمصيره إلى الاضطراب والفساد : لأن في ذلك ثورة على الطبيعة ، وما كان ثورة على طبائع الأشياء فمنه الضرر كل الضرر ، ولا يرجى له دوام ، وإن خيل لبعض الأفراد والجماعات (سطحية في تفكيرهم أو تعصباً لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه .

والطبيعة في هذا حكمها واحد لا يختلف باختلاف الأمم ، ولا باختلاف الأعصار والأمصار ، ولا بتفاوت (البينات) رقيّاً وانحطاطاً ، ولا بتغاير الأفراد تربية وثقافة .

المرأة ربة أسرة وسيدة بيت ، فمهما احتلْتَ لتخرجها عما خلقت له من رعاية أطفال وتسلية أزواج وتدبير منزل . . . فإنما تحاول خرقاً لقانون طبيعي ، إن أنت وفقت إلى إطالة هذا الشذوذ أزماناً فلن يخرجه العهد الطويل ولا العرف المنحرف عن أن يكون شذوذاً يقذي العين ويصدم الفؤاد .

فمن البداهة إذن أن تكون قيادة الجيوش وإدارة المصالح وتدبير الممالك وسياسة

الناس . . . فن الرجال الخاص ، كما أن الأمومة وتدبير المنزل فن نسوي محض .

ولئن يحفظ التاريخ شواهد كثيرة في قيام المرأة بشؤون السياسة والإدارة ، إني لا أجد في هذه الشواهد كلها ما يمس هذه القاعدة ؛ بل أقرر أنها كلها تؤيدها . ولأي مثقف كان أن يسرد ما في ذهنه من ملكات أو قائدات أو زعيمات أو مدبرات ممالك ، أو نائبات في المجالس . . . إلخ ثم يستقرئ أحوالهن واحدة ويمعن فيما حف بهن . . . فسيدرك أن أكثرهن كن مسيئات بتصرفهن ، عُدْنَ على بلادهن بأسوأ العواقب .

« وإذا زعم بعضهم أن حكومات النساء في بعض ممالك أوربة كانت أرقى من حكومات الرجال ، فذلك لأن حكومات النساء أدارها الرجال من وراء حجاب ، و(الأمر) على العكس في حكومات الرجال : كثرت فوضاها في بعض الأدوار لأن النساء كنَّ يدرْنها في غفلة عن الرجال . . . وكن إذا تدخلن في أمور الدولة تميل إلى الانحطاط ؛ ولذلك كان عقلاء الملوك يحظرون على نسائهم الاشتراك فيما لا شأن لهن فيه من أمور السياسة . . . » « وبعد فلماذا لم يقل لنا المنادون بإعطاء المرأة حقوقاً (سياسية) على مثال الرجال : كيف تمسي حال البيوت بعد انقلابهم الذي يتوقعونه ؟ لا جرم أن الشقاء سيخيم على كل أسرة يشتغل رباتها خارج بيوتهن ، اللهم إلا إذا كان في النية أن يعمدوا إلى دفع أولادهم إلى الحكومات تربيهم تربية مشتركة كأنهم بعض اللقطاء من أولاد النغول : لا يذوقون في هذه الملاجئ طعماً لهناءة البيوت ولا يرون أثراً للروابط الروحية بين الأولاد والأبوين »[1] .

الحق أن الإدارة والسياسة تقتضيان بعداً في التفكير ، وسداداً في المنطق ، وحساباً دقيقاً للعواقب ، وصبراً مضنياً وضبطاً للعواطف وكبحاً للأهواء . . . إلى صفات كثيرة كلها تعوز المرأة . فلا عجب أن كان اضطراب الأمور وتدخل المرأة في السياسة قرينتين في التاريخ لا يفترقان إلا حين يدبر الأمور للمرأة وزراء حصيفون من وراء ستار . ومع هذا فقلما خلت امرأة ـ مهما حف بها من فحول محنكين ـ من

(١) مجلة المجمع العلمي العربي م٢٠ ص٢٩٢ـ٢٩٤ .

طامع فيها مستغل لضعفها ، وما أكثر ما حفظ التاريخ من عروض كان الغرام هو الحاكم في ممالكها .

وهناك كلمة متداولة منذ القديم لا شك في أنها عصارة التجارب على الزمن ، وهي قولهم : « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » .

ويعجبني في ذلك حكم ظريف أصدرته الكونتس أنى أكسفورد :

« . . هل تستطيع أن ترى امرأة صائرة إلى منصب رئيس وزارة ؟ إني لن أستطيع أن أتصور نكبة أعظم من وضع هذه « الجزر البريطانية تحت قيادة إحدى النساء في شارع داوننج رقم ١٠ »[١] .

ولقد سارت أمم غربية راقية في أوربة وأمريكة خطوات فسيحة في إنالة النساء حقوقاً سياسية ، فما أظفرها ذلك بطائل بل كانت نتيجة التجربة أن ضج عقلاؤهم من تلك الأوضاع الشاذة ، الخارجة على الفطر السليمة .

وليس تاريخ العرب ببدع في تواريخ الأمم ، فالحكم واحد كما أسلفنا ، فحيث رأيت انحطاطاً في إدارتنا أو تقهقراً في سياستنا ففتش عن المرأة .

وكتابنا هذا (عائشة والسياسة) فيه أكبر عبرة في هذا الموضوع ، ولم ينجنا من العاقبة الوخيمة : عاقبة دس النساء في السياسة ، أن كانت الزعيمة هنا متحلية بمزايا عبقرية قلّ أن يحوي مثلها رجال عديدون ، ولم ينجنا كذلك رغبتها القوية في الإصلاح ولا انطواؤها على الخير للمسلمين .

والعرب يتداولون منذ فجر الإسلام حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة »[٢] .

* *

إذا أنت جاوزت السياسة إلى الجهاد في الإسلام ، رأيت المسألة تختلف بين

---

(١) انظر العدد « ٦ » من مجلة الرسالة (ص٣٦٩) .

(٢) مسند أبي داوود الطيالسي ص١١٨ الحديث ٨٧٨ (الجزء الثالث) وانظر مسند أحمد ٥ـ٤٣ ، ٤٧ .

يديك ، إذ تجد أنه ليس لأحد أن يحرم المرأة شرف الجهاد ، وأنها هي والرجل سواء في المطالبة به ، كل بحسب استعداده واختصاصه : فالرجل للقتال والمرأة لتمريض الجرحى والعناية بشؤون الجيش من نحو إسقاء وإطعام وغسل وخياطة . . . ثم هي مع ذلك كله تحمس المقاتلين وتبصرهم العواقب السيئة التي تنتظرهم في أنفسهم وحرمهم إذا هم تهاونوا في الدفاع .

وللمرأة العربية في هذا الميدان الموقف المحمود الذي لا يجارى ، كانت فيه مضرب الأمثال بشجاعتها وحسن بلائها وإخلاصها . وعلى هذا درجت في جاهليتها من قبل أيضاً فكان إليها في الحروب التمريض والعناية بالجرحى وسقي الماء وتحميس المحاربين[١] .

جاء الإسلام ففتحت عينيها ـ لما أظلتها رايته ـ على رجال غير الرجال ، ومجتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكأنها نشطت من عقال ، فشمرت عن ساعدها ، وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله على نعمته هذه شكراً عملياً :

قاست في أوله ما قاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت في صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاسمت الرجل شرف الجهاد وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية في الشكران[٢] .

صحب رسول الله ﷺ النساء في مغازيه ، وأبلين معه البلاء الحسن ، فكن نعم المعينات للمحاربين : يداوين جرحاهم[٣] ويحملن الماء في القرب يسقينهم ، ويتعهدن أطعمتهم وملابسهم وقربهم ، وكن حين الحاجة يمارسن القتال .

ثم تتابعت المواقف المأثورة للمرأة من بعد الرسول ، ولن ينسى أحد جهاد خولة

---

(١) انظر كتابنا الإسلام والمرأة ص٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص٦٨ .

(٣) أقام الرسول خيمة في مسجده لرفيدة إحدى ممرضات الجيش وحمل إلى خيمتها سعد بن معاذ وهو مرتث .

بنت الأزور أخت ضرار في فتوح الشام وحسن بلائها في الروم ، ولا موقف الخنساء في يوم القادسية وكانت واحدة من كثيرات :

ذكر الطبري أن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت : « شهدنا القادسية مع سعد (بن أبي وقاص القائد العام) مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فُرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى : فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم به »[1] .

وإذا كانت هذه الوقعة من الخطر بحيث إنها هي الفاصلة بين العرب والفرس ، وإنها لها ما بعدها ، استعدت لها القبائل بكل ما تطيق ، حتى إن التاريخ ليذكر لقبيلتين من القبائل فخراً خالداً إذ أخرجتا نساءهما معهما ، فكان في قبيلة النخع - على ما يذكر الطبري - سبع مئة امرأة لا زوج لها ، وفي قبيلة بجيلة ألف امرأة ، تزوجن جميعاً في هذه الحرب ، وكانت النخع تسمى : (أصهار المهاجرين)[2] .

لقد شرع الرسول لمن بعده الاستعانة بالنساء في الجهاد ، وأثابهن عليه من الغنائم ، ودرج خلفاؤه من بعده على سنته ، حتى إذا انقضى عهد الراشدين ، وخف علم الناس بالسنة ، شك بعضهم في هذه الاستعانة ، فكتب نجدة بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله :

« هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ، وهل كان يضرب لهن سهماً ؟ » .

فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إلي تسألني : هل كان رسول الله يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويَحْذَين (يعطين) من الغنيمة »[3] .

كل ما تقدم من استحباب خروج النساء ليشاركن الرجال شرف الجهاد وهو في حال الفتح والهجوم وحين يكون الجهاد فرض كفاية على الرجال أنفسهم ؛ فأما إذا

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص٨٢ (مطبة الاستقامة ١٣٥٨هـ) .

(٢) الصفحة نفسها من المصدر السابق .

(٣) تيسير الوصول ج٢ ص١٠٣ .

انعكس الأمر وهاجم العدو بلاد المسلمين أو احتلها ، فحينئذ يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ذكراً كان أم أنثى ، لا يستثنى من هذا الفرض صبي ولا امرأة ولا رجل .

ونصوص الفقهاء ـ إزاء هذه الحالة ـ متضافرة على أنه يجب على المرأة أن تخرج للقتال بلا إذن زوجها[١] .

وبذلك يصبح التكليف والوجوب بدرجة واحدة على الرجال والنساء والصبيان والأحرار والعبيد (يوم كان العبيد بعض الناس) لا يستأذن أحد أحداً في تأدية هذا الواجب .

* *

من شأن السياسة المزالق الخفية والأخطار الكامنة ، فهي على المرأة حرام صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب ، وأما الجهاد فطريق لاحبة عواقبها مأمونة وفوائدها مضمونة ، فللمرأة أن تنال من هذا الشرف نصيبها الأوفى .

ليتنا في غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضي ، ونسير غير متخبطين : نبصر مواطئ أقدامنا ونتقي المزالق ونجند كلاً في ميدانه الذي لا يصلح لغيره . لقد تداعت علينا الأمم وطمع فينا حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق ، وغزينا في أخلاقنا وبلادنا وأموالنا . . . وليس في جهودنا فضل ننفقه في رد العابثين عن عبثهم ، فليتق الله حملة الأقلام ، وليصونوا الشاردات عن القطيع وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن في أوله ، وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأنثى أولاً ، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع ، وموت كل كرامة إنسانية!

---

(١) انظر ذلك : باب السير أو الجهاد في كتب الفقه مثلاً : شرح الزيلعي على متن الكنز (٣ـ٢٤١) والحكم مشهور لأن الإسلام لا يقر احتلالاً لأجنبي بحال من الأحوال ، ولا يرضى لأهله حياة ذليلة .

الجاحظ والسياسة

مقالة يوضح أستاذنا فيها شيئاً من ملق الجاحظ ومجاملته عندما يتعلّق الأمر بالسياسة .
نشرتها مجلة الثقافة القاهرية ، السنة الأولى العدد ١٥ عام ١٩٣٩ .

لا تكون في الدنيا دولة جدية خلفتها القوة ، وأيّدها السيف إلاّ صانعَهَا الرأي العام ، وألَّهَها ، وطلب لها كل خير ، مبالغة في كسب مرضاتها ، وحفظاً لدمه ، وإبقاء على نفسه .

وأحْرِ بهذه المصانعة أن تكون أبعد مدىً ، حين يكون أمر الدولة إلى زعيم واحد تسلط بهيبته وبأسه .

هذه حال الناس في القرن الأول لمنشأ الدولة العباسية ، حكومة جديدة سندتها سواعد الفرس الأشداء ، عصبية على الدولة البائدة فيما أظهروا ، وعلى العرب عامة فيما هو الواقع . فمن المعقول ألا يرتفع في ذلك الجو الرهيب صوت يميل لا يرضاه أولو الأمر ، أو دعوة إلى نزعة غير نزعتهم .

أتت الدولة العباسية ، والمسلمون أهواؤهم السياسية شتّى ؛ فمن عرب خلّص ساءهم سطوة هذه الأعاجم ، وقبضها على أعنة الحكم ، فحنّوا إلى عزّتهم وعلوّ كلمتهم ، خالصة أيام الأمويين ، الذين عقد الإجماع على خلوص صبغتهم الدولية ، وأنها عربية محضة ، لم يجعلوا لجنس آخر سبيلاً إلى المداخلة والاستمتاع بشيء من الحكم ، حرّموا ذلك غير العرب حتى في الأحلام بشهادة الجاحظ نفسه ، ومن فرس وأتراك وموالٍ ، هواهم على العرب مؤتلف ، شدّوا أركان هذه الدولة لا حباً هياماً بالعباس وأولاده ، ولا بعليّ ، وسلالته ، بل وسيلة إلى أمرٍ أعدّوا له العدة ، وهو استرجاع ما فقدوا من مكانة وحكم ، وكلهم إما قائد أو دهقان أو رجل خطير .

وهناك طائفة ثالثة نستطيع أن نقول : إنها ابتعدت عن العصبية الجنسية العمياء ،

وأثّر في نفوسها الدين ، فعزفت عن مظالم الأمويين التي يقيمونها مواسم بين الحين والحين ، ضحاياها المتطلعون إلى الحكم من أهل بيت النبي ﷺ ، هذه الطائفة هي التي رأت شيئاً من الاستقرار في عيشها وأهوائها ، وإن لم يخل الأمر من وقائع في آل البيت ، وكل ما تريده أن يُحافظ لها على دينها ، وأن يحترم شعورها ثم هي تؤتي العباسيين ما شاؤوا من طاعة ومال ، وهؤلاء هم سواء الناس يومئذ . هذا إلى أحزاب غير هؤلاء وأولئك ، جمعت كل زمرة منهم نحلٌ وأهواء ، تعدّ بينهم شيعة العلويين المخلصين ، الذين شروا أنفسهم في سبيل دعوة آل البيت وجلّة هؤلاء من الخواصّ والأشراف .

من كل ما تقدم نستطيع أن نعرف الفرق التي كانت تخشاها دولة بني العباس أول أمرها ، ولا شك في أن أشد الناس إخافة لها الفرس الذين ما فتئوا يمنون على الدولة خلقهم لها ، وقيامها بهم ، فكان همُّ أولي الحزم والبصر من العباسيين القضاء على هذا النفوذ المخيف ، فبطشوا بهذه الأمة بطشتين بئيستين ، ما يزال دويُّهما في آذان الناس كلما قرؤوا التاريخ .

أما الأولى فقتل الداعية أبي مسلم الخراساني ، وكسر قناة الفرس به .

وأما الثانية فالوقيعة في آل برمك .

ولقد ارتاعت قلوب الشعوب لذلك ، فطرحت وساوسها وأحلامها ، منصاعة لبأس الدولة والفرقة الثانية التي حسبت لها دولة بني العباس أشد الحساب ، هي أولاد علي وشيعتهم ، ونفوذ هؤلاء مختلف عن نفوذ أولئك ؛ لأنهم ملكوا القلوب بحبهم وجاههم ومكانهم من النبي ، فكان يرى الشعب فيهم أنبياء صغاراً يلتف حولهم ، ويعلق بهم آماله في الدين والدنيا ، ولم يزل أكابر هذه الشيعة ـ وأكثرهم ذو بصر محنك وعلم ـ يزيدون لها هذه الرفعة في القلوب بمكارمهم ومعاليهم ، حتى كان من ذلك كله أن اشتد العباسيون على العلويين شدّة أنست الناس عهد بني مروان ومظالمهم في آل البيت .

وهذا عمل آل العباس فيمن خالف هواهم مستنداً إلى قوة مادية أو معنوية ؛ بطشٌ وقضاءٌ عليه مبرم ، أمام شيعته وعلى رؤوس الأشهاد .

فما هو خطر الجاحظ ـ وله وضعنا كل هذا التمهيد ـ إذا رأى غير ما يرى أولياؤه؟ وما هو بالغ من الأثر ، أتضرُّ عقيدته السياسية لو جهر بها ؟!

لا خطر ولا أثر البتة ، ولئن فعل ليذهبن طعمة السيوف ، ثم لا يجد من يبكيه .

فليسبح إذن بحمد دولتهم ، وليُشدْ بذكرهم ، وليلتمس وجوه الدفاع عنهم ، حتى فيما يعتقد فساده .

ليس الجاحظ بالواسع الغني حتى يجوز له أن نرى له التزام الحياد والسكوت على الأقل ، لا يشُدُّ أمر العباسيين ، ولا ينتقض عليهم ، وليس كذلك بالشريف ذي الحسب الرفيع ، يمتُّ إلى نبي أو خليفة ، كل ما في الأمر أنه مولىً ، فعليه أن يلزم شأن الموالي ، والحق أن الله آتى الجاحظ عقلاً حصيفاً ، ونظراً بعيداً ، ونفاذاً إلى أسرار الأمور ، فدان الله في سره بما اعتقده حقاً ، ثم شايع أصحابه أولياء الأمور ، فمدح منهم ما يذمه العربي أشد الذم ، إنهم أهملوا العرب ، واصطنعوا الموالي والفرس والترك والديلم قادة ورؤساء ووزراء ، فكان هذا سُمّاً بطيئاً مزدوج الأثر ، استطاعوا أن يشدّوا بهم الدولة زمناً يسيراً ما لبث أن صاروا بعده عبيداً لمن اصطنعوهم ، فقوضوا هذه الدولة التي كانت كما قال حافظ يرحمه الله :

والله مـا غـالهـا قـدمـاً وكـاد لهـا	واجتـثّ دوحتهـا إلاّ مـواليهـا
لو أنها في صميم العرب قد بقيت	لمـا نعـاهـا علـى الأيـام نـاعيهـا
يـا ليتهـم سمعـوا مـا قـالـه عمـرُ	والنفـس قـد بلغـت منـه تـراقيهـا
لا تكثـروا مـن مـواليكـم فـإن لهـم	مطـامعـاً بسمـات الضعـف تخفيهـا

عرف الجاحظ كل ذلك ، لكنه عوضاً عن أن ينبه إليه ، ويدل على الضعف فيه ، نافق فأثنى عليه كأنه الحزم عينه ، وراح يشيد بفضل هؤلاء الموالي ، ويؤلف الرسائل في فضائلهم ومناقبهم ، تزلّفاً إلى الرؤساء والوزراء الذين هم من صميمهم ومادتهم ، وهو بطبعه لا يستطيع عزلة عن السياسة والسياسيين ، لأن منهم معاشه ، صاحب ابن الزيات[١] وأهدى إليه كتابه (الحيوان)[٢] .

---

(١) قلت: هو محمد بن عبد الملك بن أبان، أبو جعفر، المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم والواثق العباسيّيْن عالم باللغة والأدب، وكان من الدهاة العقلاء. قتل سنة ٢٣٣هـ. انظر الأعلام ٦/ ٢٤٨.

(٢) انظر معجم الأدباء ٦/ ٧٥ .

كما أهدى إلى عدوه الوزير من بعده أحمد بن أبي دؤاد[1] كتابه (البيان والتبيين)[2] .

كما أهدى إلى الفتح بن خاقان[3] رسالة (مناقب الترك وعامة جند الخلافة) وإلى إبراهيم الصولي[4] كتاب (الزرع والنخل) .

فهو إذن كان يقوم بعمل الداعية لهؤلاء السادة وجندهم المختلط ، ولهذا يصعب علينا أن نأخذ آراءه السياسية على أنها آراء حرة شخصية ، بل يفيد أن نلاحظ طبيعة الحكم في عهده ، وأنه إلى الاستبداد أقرب . وإذن نستطيع أن نلمس الملق والدعاية في كلامه الذي ذهب فيه إلى رد الحكم إلى فرد . قال :

« وقضية واجبة : أن الناس لا يصلحهم إلاّ رئيس واحد ، يجمع شملهم ، ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل لهم نظام خير من كثير لا نظام لهم ، ولا رئيس عليهم » .

إلى أن قال :

« ولو لم يقم الله للناس من السلطان والحماة من الملوك وأهل الحياطة عليهم من الأئمة ، لعادوا نثراً لا نظام لهم ، ومستكلبين لا زاجر لهم ، ولكان من عزّ بزّ ، ومن قدر قهر ، حتى يكون التغابن والبوار ، أو حتى تنطمس منهم الآثار ، فلولا السائس ضاع المسوس ولولا قوة الراعي لهلكت الرعية » .

ولولا ما ألمعنا إليه من روح المصانعة في كلام الجاحظ لاستطعنا أن نجعل قوله هذا رأياً ومذهباً خاصاً ذهب إليه في تركيز السلطة في رئيس واحد ، ولكان قولنا بأن

---

(١) قلت : أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، قاضي القضاة ، ورأس المعتزلة ، وصارت له أمور الدولة كلها في أيام المعتصم ، مات مفلوجاً في خلافة المتوكل سنة ٢٤٠هـ . انظر الأعلام ١/ ١٢٤ .

(٢) انظر معجم الأدباء ١٦/ ١٠٦ .

(٣) قلت : هو أديب ، شاعر ، فصيح ، فارسي الأصل ، من أبناء الملوك ، كان وزيراً للمتوكل ، وقد آخاه . وقتل معه سنة ٢٤٧هـ . انظر الأعلام ٥/ ١٣٣ .

(٤) قلت : هو إبراهيم بن العباس الصولي ، كاتب العراق في عصره ، فارسي الأصل . قرّبه الخلفاء ، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل . ومات بسامراء ٢٤٣هـ . انظر الأعلام ١/ ٤٥ .

الجاحظ من أنصار الحكم الفردي (الديكتاتوري) قولاً لا غبار عليه ، ونحن مع كل ما قدّمنا نستطيع أن نتعرف عواطفه وميوله العربية الخالصة في أثناء كلامه ، انظرحنوه على أيام الأمويين لاصطباغ دولتهم بالصبغة العربية المحضة في قوله :

« وقد يجب أن تذكر بعض ما انتهى إلينا من كلام خلفائنا من ولد العباس ، ولو أن دولتهم أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية ، فبنيت لذلك لبني مروان شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتدبيراً لا يمحىٰ » .

وهذا كلام ـ كما ترى ـ مستقيم حق لا عوج فيه ، لكن الجاحظ لا يتركه هكذا دون أن ينتقض عليه داء الملق فيشيد بشأن حكامه ويتملقهم بقوله :

« ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام ، وتدبير ملوكهم ، وسياسة كبرائهم ، وما جرى في ذلك من فرائد الكلام ، كان فيما قال المنصور وفعل في أيامه ما بقي بجماعة ملوك بني مروان » .

يتبين التخير في هذا القول كل من وقف على تاريخ الدولتين الأموية والعباسية ، مع العلم أن ما ضاع من كلام بني مروان أكثر جداً مما ضاع من كلام بني العباس ، لأن عهد الآخرين عهد تدوين قد اهتم فيه المؤلفون بجمع كل ما يتعلق بهم ، والجاحظ ، وإن كان اعترف للأمويين بمزايا يمليها الحق والإنصاف ـ جعل هذا الحق في آخر كلامه متعتعاً يغشاه من جوانبه الباطل .

أما موقفه من بني هاشم ، المنافسين الخطرين للدولة العباسية ، فقد كان خيراً من موقفه من الأمويين فهو يحبهم ، ويميل إليهم ، لكن حباً حيادياً يشتقه من مكانتهم الدينية ، ومن سابقتهم في نصرة الإسلام أول نشأته ، انظر على سبيل المثال قوله المشهور فيهم ، وقد ذهب مثلاً في بلاغته :

« وقريش روح ، وبنو هاشم سرها ولبّها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح الأرض ، وزينة الدنيا ، وحلي العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسرّ كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، وشلان ذو الهضاب في الحلم ، والسيف الحسام في العزم ، مع الأناة والحزم ، والصفح بعد

المقدرة ، وهم الأنف المقدم والسنام الأكرم ، وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس لا تخفىٰ بكل مكان ، كالذهب لا يعرف بالنقصان ، وكالنجم للحيران ، والبارد للظمآن ، ومنهم الثقلان ، والأطيبان ، والسبطان ، وأسد الله وذو الجناحين ، وذو قرنيها ، وسيد الوادي ، وحليم البطحاء ، وساقي الحجيج ، والبحر ، والحبر ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحواري حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلاّ لهم و فيهم أو معهم أو يضاف إليهم ، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين ، الذي لم يتم لنبي نبوة إلاّ بعد التصديق به والبشارة بمجيئه ، الذي عم برسالته ما بين الخافقين ، وأظهره الله على الدين كله ، ولو كره المشركون ؟ »

هذا إطناب رائع ، يدخل فيه بنو علي وبنو العباس ، وإن كان نصيب الأولين منه أكثر ، وحظهم فيه أتم . وقد أطراهم الجاحظ ما شاء ، ورفع من أقدارهم ما وسعه ، وإذا ذكرنا أنه أتيح لبني العباس كثير من الأشياع الذين تفننوا في الإكثار من أخبار فضل العباس وأولاده . والوضع من شأن أولاد علي ، وهو ما يتاح لكل قوي ذي سلطان ، عرفنا إنصاف الجاحظ في عدم التفريق ، وأنه لا يبخس الناس أشياءهم تزلفاً إلى السلطان ، فليس هو من الممالئين الذين قال قائلهم :

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البناتِ وراثةُ الأَعْمام[1]

وأنت تستطيع أن تقرأ للجاحظ مدحاً للعلويين وثناء عليهم ، وعلى أوليهم ، لكن الذي لا تصل إليه أبداً هو رأيه فيهم ، وفي قضيتهم مع العباسيين ، فقد يجتنب القرب من هذا الموضوع كل التجنب ، وغاية ما فعل أنه ألّف رسائل تتعلق بالشيعة ألمّ فيها برأيهم ، وشرح مذهبهم في تفضيل عليٍّ وآله . وحام حول حقهم المشروع في الخلافة دون سواهم ، نذكر مثلاً رسائله : « بيان مذاهب الشيعة » و« معارضة

---

(١) قلت : البيت من قصيدة لمروان بن أبي حفصة . أنشدها بين يدي الرشيد . انظر تاريخ بغداد ١٣/١٤٣ .

الزيدية » و« تصويب علي في تحكيم الحكمين » إلخ .

وبعض هذه الرسائل مفقود ، وهي وإن يكن عليها الطابع المذهبي بالسياسة ألصق ، أما كفّه عن التعرض لمسألة العلويين مع العباسيين فينبغي أن نعترف إنصافاً للجاحظ أن الموقف دقيق .

وفي الختام لم يكن الجاحظ كغيره من حواشي الحكام وبطانات السوء ، يطعن على العلويين تقرباً إلى بني العباس وزلفىٰ . بل كان في هذا شريفاً كل الشرف ، فهو وإن أحبّهم في سره وجهره قد سلّط على هذا الحب عقله الكبير ، فملك ما يمكن أن يجمع من قياده ، ولم يرسل منه إلاّ بقصد وسياسة ورفق .

ملامح من الغزو الثقافي

(أ ـ في الدين ، ب ـ في الفكر ، ج ـ في اللغة ، د ـ عزل المسلمين ، هـ ـ الآثار المرصودة)

بحث يعرض فيه الأستاذ لبعض ملامح الغزو للأمة العربية ، وما يبذله أعداء الأمة من جهود ، ويحيكونه من مكائد ، ونحن في غفلة سادرون . ولم أقع عليه منشوراً ، فلعلّه لم ينشر .

ثقافة أمة ، ما طبع تفكيرها وفلسفتها وحكمها على الأشياء بطابع مستوحًى من دينها ولغتها وتاريخها وما ارتضته لنفسها من عادات وتقاليد وأعراف وأخلاق ، ثم وجّه هذا الطابع سلوك أفرادها بمقتضاه ؛ ومن هنا امتازت الثقافة من العلم ، فحقائق العلم واحدة عند كل الشعوب ، ليس هناك اليوم علم عربي ، وعلم فرنسي ، وعلم بريطاني ، ولكن هناك بالتأكيد ثقافة عربية ، وثقافة بريطانية ، وثقافة فرنسية ، وثقافة أمريكية . . إلخ لكل شعب ثقافته الخاصة .

وعلى هذا يكون الفرد مثقفاً أصيلاً بمقدار ما يوافق سلوكه في الحياة والسلوك المرضي في عرف أمته ، ويكون هجيناً بمقدار ما يشوب سلوكه من أفكار وعادات أجنبية حتى في طعامه وشرابه ولباسه وبرنامج يومه .

بهذا التحديد أعالج موضوعي ، وأعجل بالإقرار بأنا جميعاً ضحايا الغزو الثقافي ، نحمل منه ونروج ، من حيث نشعر حيناً ومن حيث لا نشعر أحياناً . . على اختلاف واسع بين شعب وشعب ، وبين فرد وفرد في الشعب الواحد . ويستطيع أحدنا أن يحرز نصيبه من الهجنة والأصالة حين يعرض على هذا المقياس سلوكه بتفاصيله ، ويعرض أحكامه على الأشياء ثم يفرز الهجين منه على حدة والأصيل على حدة .

شغل الغزو الثقافي الذي تعرضت له شعوب الأمة الإسلامية بالَ كثير من

المصلحين من مئات السنين ، واتخذ أساليب اختلفت باختلاف طبيعة الغزو ، فهو تارة يهدف إلى العقيدة لا يألوها إفساداً وإزاغة بإدخال عقائد أمم سالفة ، أو مشتقات من طقوسها وعاداتها بعد تطويرها بحيث يقبلها العامة باديً الأمر ، ويأتي تارة من طريق التهوين من شأن التكاليف الشرعية وصرف الاهتمام إلى شاغل آخر عنها ، كما نجد عند بعض الطوائف والطرق وحفلاتها ورقصها وأنغامها ومواجيدها وولائمها إلى آخر ما يغري الغوغاء وأشباههم من الجاهلين بدينهم على الإقبال عليه بأتم اعتقادها والدعاية لها ؛ وطوراً عن تسريب كتب أهل الأهواء والنحل الباطنية ، إلى أنصاف المتعلمين من المجروحين ، باسم الفلسفة ورياضة الروح ، توصلاً إلى استغلالهم بعد إطماعهم بنعيم مستعجل فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . . ، حتى إذا استلانوا للدعاة ، وأيقن هؤلاء أن الفريسة تم تخديرها ، سخروها فيما صبروا أنفسهم له من تهديم الدولة الإسلامية ، وبعثرة شعوبها لتقوم على أنقاضها دولهم العنصرية أو المذهبية .

لا يجهل أكثر الباحثين حركات القرامطة والديالمة والمغتالين المعروفين بالحشاشين وسائر النحل السياسية (العقائدية) ، التي صارت لها دويلات ، لها سيطرة في بقاع من المشرق والمغرب وما بينهما ، ظاهرت الصليبيين علناً حيناً وسراً أحياناً ، وكان أتباعها أدلاء لهم في حملاتهم ، ومهربين إليهم الأقوات ومواد التموين إلى آخر تلك الظواهر التي طفت على سطح السياسات والحروب حتى يومنا هذا . فيجعل بعض الباحثين الحروب الصليبية المستمرة حتى اليوم هي مبدأ الغزو الفكري الذي أصبح في عصرنا من المقدمات الأولى للغزو المادي واحتواء الشعوب .

والذي أحب لفت النظر إليه هو أن الغزو الفكري ضارب جذوره في البيئة الإسلامية قبل ذلك بعصور ، وتنبهوا له منذ عهد الراشدين ، بل حذر منه الرسول ﷺ نفسه حين نهى عن مضاهاة اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو الوثنية ، ويذكر أرباب السير أن الخليفة عمر حين زار بيت المقدس سأل كعب الأحبار اليهودي اليمني الذي أسلم على عهد عمر ، والذي زعم لعمر أن صفاته ويوم قتله مذكورة في التوراة ، وأخبره قبل موته بثلاثة أيام : « إنك يا أمير المؤمنين مقتول بعد

ثلاث . . . » عمر سأل كعباً هذا في القدس : « أين نجعل المصلى ؟ » فقال كعب : « إلى الصخرة » . فقال عمر : « ضاهيت والله اليهودية يا كعب! وقد رأيتك وخلعك نعليك . . . » إلى آخر الخبر الذي فصله الإمام الطبري في تاريخه فارجع إليه[1] .

وعلماء المسلمين في فجر تاريخنا حذروا مما أفرغ بعض المسلمة من أهل الكتاب ، على أسماع العامة وأشباههم من أساطير دياناتهم السابقة وقصصها وزيف عقائدها ، في التفسير والأحاديث الموضوعة والقصص الذي فصلوه لأحداث وردت مجملة في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة . . . حذروا من ذلك كله ووضعوه جملة تحت عنوان (الإسرائيليات) إشارة إلى أصله . وقد تسربت إلى عدد من كتب التفسير والتاريخ وقصص الأنبياء ، غفلة وحسن ظن من مؤلفيها ، أو لشهوة الإغراب والإكثار من الأخبار لإظهار زيادة في العلم ، أو لضعف في علوم الشريعة ولاسيما علم الحديث مصطلحاً ورواية ودراية .

ثم عم البلاء وعظم لما نجم يهودي يمني آخر ، طلع على الغوغاء في حروب الفتن آخر أيام الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان ، [طلع بنظرية يهودية صحيحة معروفة هي وراثة النبوة في أحد الأسباط من سلالة يعقوب ، فصاغ بذكائه على مثالها وراثة علي بن أبي طالب للرسول ، صوغاً قبله أكثر الضالين من ذوي المآرب في الفتنة على عثمان] ، عنيت ابن السوداء عبد الله بن سبأ أذكى من درس ميول العامة من المسلمين ، وأهل الهوى منهم ، فرأوا في هذه الفتنة فسرى فيهم من البدعة ما كان كالنار في الهشيم ، فثارت حروب داخلية أكلت عشرات الألوف من المسلمين[2] ، ثم ولّد في جسم الملة من النحل والأهواء ما ضعضع الأمة وأطمع فيها أعداءها ثم أصاب وحدتها في الصميم حتى اليوم .

هذه إشارة تصحح خطأً بعض الباحثين حين ظن أن هذا الغزو أصابتنا به أوروبا بعد الحملات الصليبية ، هو إذن قديم رمانا به ما أحاط بنا من دول أزالها الإسلام عن أقطار كثيرة ، ومن ديانات اجتذب الإسلام من أتباعها أمماً وشعوباً أخفقت دولها

---

(١) حوادث سنة ١٥هـ في تاريخ الطبري ٣/ ١٠٦ ـ مطبعة الاستقامة ١٩٣٩م .

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابي (عائشة والسياسة) ص٦٠ ـ ٦٦ دار الفكر في بيروت ـ طبعة ثانية سنة ١٩٧١م .

في الحروب الخارجية العلنية ، ونجح من بقي على حقده ونقمته من المغلوبين المتظاهرين بالإسلام ، حين خطط لتمزيق الوحدة . ولو راح باحث يحصي دماء المسلمين المراقة في الحروب والفتن الداخلية تعصباً لآراء وأفكار ، منذ أيام عثمان حتى اليوم لهالته ضخامة أرقامها . ولولا أن الإشارة إلى أحداث قائمة اليوم قد يعد خوضاً في سياسة لضربت مثلاً بحرب طائفية تتستر باسم يسار ويمين ، شحن الغزو الفكري أدمغة مثيريها منذ أزمان ، وتعرض الإذاعات أخبارها كل يوم بتفاسير متضاربة ، لكن الحيادي المدقق يراها عدوان طائفة تمدها جهات مختلفة سراً وعلانية على طائفة في جزء صغير من الوطن الإسلامي ، أبيد منها في هذا العدوان عدد ربما فاق كل ما فقدت الدول العربية في صدها العدوان الإسرائيلي في رمضان سنة ١٣٩٤هـ (أكتوبر ١٩٧٣) .

أدع هذا إلى حديث ما يعايشنا اليوم من طاعون الغزو الثقافي الخفي على كثير ممن يظنون أنهم يعلمون ، وعلى أكثر منهم ممن هم الأدوات الفعالة لهذا الغزو : بعضهم من حيث لا يشعرون يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وبعضهم على ذكاء ووعي بما يفعلون ، ولكنهم سخروا أنفسهم عملاء يتقاضون على تهديمهم ما وعدوا به من مكاسب ومناصب بلغوها واستحال عليهم التراجع والتصحيح ، لأن الذي سخرهم خبير بتقويضهم حين يريد كما كان خبيراً ببناء أسمائهم والدعاية لها حتى رفعهم من حضيضهم إلى المكان المرموق ؛ ثم جلا الأجنبي عن أقطار إسلامية وخلّف عملاءه هؤلاء في مراكز حساسة من اجتماعية وجامعية ودينية وسياسية . . فمضوا في عهود الاستقلال ينفذون الغزو بأسرع مما كانوا يفعلون في عهد الاحتلال ، والدعايات الأجنبية تحيطهم بهالات من الوطنية والإصلاح[1] ، وواحسرتا على الشعوب الغافلة التي حيل بينها وبين الوعي السليم حتى فقدت الرؤية الصحيحة : كم ستكلفها غفلتها من كوارث ومحن في أنفسها وبلادها وذراريها .

* *

---

(١) بعض هؤلاء سجنه المحتلون تظاهراً ، ثم أطلقوه زعيماً مناضلاً للاحتلال ، وأنالوه الاستقلال ، وكان منه من البلاء على بلاده ودينه ولغته ما لم يكن بعضه أيام الاحتلال ، قالوا : وفرنج بلاده وحملها على التحلل والموبقات بالنار والحديد .

أول ما يحاول المفترس من فريسته المشتهاة شل قواها المادية والنفسية ، حتى إذا انبهرت بقوته وفقدت إيمانها بنفسها ارتبكت فأجهز عليها فنال ما أراد . ومقومات القوى في كل أمة : عقيدتها الجامعة ، ولغتها الواحدة ، وفضائلها القومية . والفرد المثقف فيها من عرف دينه ولغته وبلاده وتاريخها وكان سلوكه طبقاً لهذه المعرفة .

علمنا التاريخ العام أن بلاد المسلمين وما أودع فيها الله من خيرات قد تحلبت لها أشداق الأوروبيين منذ أكثر من ثلاثة قرون ، فجعلتها هدفها ؛ فأرسلت الطلائع قبل الغزو في ثياب مبشرين وتجار وأطباء ومهندسين . . . تدرس وتفحص بعيون مفتوحة ، تغوص على كل ما لهذه الشعوب من لغات وأديان وعادات وأعراف ومعايش وخلافات . . . لتفيد من كل ذلك في رسم مخطط التمزيق والتهديم وشل القوى ، وصولاً إلى الاستيلاء على الخيرات وامتصاص الدماء وابتزاز الأموال ، ثم إبقاءً على تخلفها الحضاري أطول مدة ممكنة ، واستنزافاً لقواها بشغلها بقشور الحضارة والترف بتعويدها السكر والعهر وسائر الموبقات على أنها من علائم التحضر ، زيادةً في تفشي الأوباء الاجتماعية والصحية واستصفاء الأموال .

واتفقت نتائج الدراسة على أن ما يجب استهدافه قبل كل شيء هو المقومات الأساسية للأمة وهي دينها وثقافتها وفضائلها ووحدتها ؛ فعملت بخبث ودهاء على نصب الفخاخ لهذه المقومات ، ونال شرها ـ أكثر الناس فوقعوا في أحابيلها ، وتمكن الأعداء منا غاية التمكن ؛ وما شعوبنا ـ في بعض أقطارنا ـ بعد جلاء جيوش الاحتلال بأقرب إلى الحرية منها في عهود الاحتلال ، حتى ديننا ولغتنا وثقافتنا وفضائلنا القومية ما هي اليوم بأسلم منها حينئذ . وأنا عارض لشيء من هذا الغزو في حياتنا الفكرية سواء منه ما أدركته بنفسي وما اطلعت منه على تسجيل من وثقت برصده له من العصريين ، في ثلاثة ميادين : ميدان الدين ، وميدان الفكر ، وميدان اللغة .

* *

أ ـ في ميدان الدين

لعل غلبة المحافظة على الدين في المملكة العثمانية مطلع هذا القرن وسمت بطابعها جميع الأقطار العربية ، كما هو الشأن في بقية البلدان المسلمة . ونشأتي في نعومة أظفاري في هذا الجو الذي لا فروق في التدين فيه بين داخل البيوت وخارجها ، جعلتني كأمثالي في السن شديد الانتباه إلى كل انحراف عن الأديان ، والتطلع إلى معرفة السبب ، ومع انحدار السلوك في هذه السنين الستين ما يزال التدين في بلاد الشام[1] علامة المواطن الصالح أياً كان دينه ومذهبه . وما أعرضه عليكم خلاصة ما رسخ في ذهني من انطباع نشأ عن العيان والممارسة والمعايشة والدراسة .

تفشت المحافل الماسونية في أقطار المملكة العثمانية مع دعاية واسعة أن أعضاءها يعدون هم علية القوم والمثقفون منهم ، ومعلوم أن من دعائمها إلغاء الأديان من الاعتبار وادعاء أن الماسونيين إخوة يجند كلٌّ مهم نفسه لتلبية رغبات إخوانه في المحفل بصرف النظر عن دين أسرته أو عنصره ، بل حتى لو كانت هذه الرغبات تؤذي أباه وأمه ووطنه ودينه . وتضافرت هذه الطبقة حتى أصبحت الدولة في قبضتها ، وصارت الماسونية أداة الغنى والارتقاء في المناصب مدنيها وعسكريها . وجمعت هذه الرابطة بين أركان هذه الدولة ونظرائهم في الدولة الأجنبية ، وكان ارتفاع الدرجات في العضوية منوطاً بمقدار ما يبلغ العضو عملياً من التخلي عن الإسلام وإنفاذ ما خططوا له من تهديم في النفوس والمظاهر . . . فكان أن بدأ يظهر في المدارس والمعاهد تشكيك مستخف في العقيدة وشيء من الاستخفاف بالشعائر التي يقضي النظام العام القيام بها في المدارس ، ونفذ هذا التخطيط خالف عن سالف . بعد هذا انحدرت الدولة إلى هاوية ثانية ، فقد حمل هؤلاء المغرورون ـ وقد أصبحوا رجال الدولة عقب خلع السلطان عبد الحميد سنة

---

(١) تشمل الشام (ولاية سورية في العهد العثماني) الأجزاء المعروفة الآن بهذه الأسماء : الأردن ، وفلسطين ، ولواء إسكندرون وسورية ، وما اقتطعه الجنرال غورو الذي احتل بالقوة شمال الشام عقب الحرب العالمية الأولى باسم (لبنان الكبير) .

١٩٠٨م ـ حملوا الخرافة الكبرى للقرن التاسع عشر خرافة القوميات بالمعنى العنصري الضيق الذي أراده منهم الأجانب ، فنفخوا في نار العنصرية الضيقة وذهبوا بعيداً في تطبيقها فتحكم في شعوب المملكة العثمانية عنصر واحد هو العنصر الطوراني ، ونجح هذا التخطيط الذي سيقوا إليه في استثارة القوميات المختلفة التي كانت متآلفة داخل المملكة ، وكان له فعل الديناميت فتبعثرت أجزاء المملكة ، وطارت شظايا متناثرة لم تستقر بعد إلى يوم الناس هذا .

بذلك نجحوا في طعن الجامعة الإسلامية في الصميم ، وأبعد أثر الدين عن كثير من النفوس ، ثم عن الميدان الرسمي ، ولم يحلوا مكانه رابطة أخرى لها مثل أثره .

كان يمد هذا التيار من حيث لا يشعر الناس مدارس الإرساليات الأجنبية في كل أنحاء الدولة ، وأكثر ذلك كان في فلسطين[1] وساحل الشام (لبنان اليوم) . والمشرف على توجيه هذه الإرساليات مبشرون ومستشرقون من ورائهم دولهم تمدهم بالنفوذ والمال والحماية . وحين اكتشفت الدولة العثمانية أنهم هم مؤرثو الفتن الطائفية (في الأناضول وفي جبل لبنان) التي راح ضحاياها الألوف ، بادرت دولهم لحمايتهم من قوانين الدولة باسم الامتيازات الأجنبية ، حتى ساغ لأحد رؤساء الجامعة الأمريكية في بيروت المستر (بنزو penso) أن يقول :

« لقد برهن التعليم أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجؤوا إليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان »[2] ولذا تقرر أن يختار رئيس الكلية البروتستانتية الإنجيلية (الاسم القديم للجامعة الأميركية اليوم) من مبشري الإرسالية السورية .

ويقول مؤسسو هذه الجامعة : « نحن نصر على الطابع التبشيري للكلية ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً » ، وكان نظامها يقضي بـ « إجبار جميع الطلاب (وأكثرهم مسلمون ومن غير البروتستانت) على حضور الصلوات بالكنيسة

---

(١) في كتاب (التبشير والاستعمار) للدكتورين مصطفى الخالدي وعمر فروخ : « إن ٢٧ جمعية تبشيرية مختلفة الجنسيات كانت تعمل بلا ملل في فلسطين » ص١٨١ ـ الطبعة الثانية : بيروت . وقد عني هذا الكتاب بتسجيل وثائق كثيرة اعتمدناها .

(٢) المصدر السابق ص٤٦ و٦٧ .

كل يوم ، وإجبار الداخليين خاصة على حضور صلاة الأحد أيضاً »[1] .

يتسترون بأعمال البر ظاهراً من طبابة وتوزيع أقوات وحلوى للصغار وما إلى ذلك من أعمال اجتماعية ، جاعليها طريقهم إلى التبشير ، توصلاً إلى خرق السور الذي ضربه العرف الشرقي حول الأسرة المسلمة ، ثم جاوزوا التستر إلى التصريح فقال المبشر (رايد) : « أنا لا أحب المسلم لذاته ، ولا لأنه أخ لي في الإنسانية ؛ ولولا أنني أريد ربحه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده »[2] .

نشطت المؤامرة الأجنبية في زرع بذور الشقاق بين عناصر الدولة العثمانية ، وغذوا جذور العنصرية ، واستجاب لدعاياتهم السذج من الشبان ، وأفلحت المحافل الماسونية في إنشاء أحزاب سياسية ، كان أبعدها نفوذاً حزب (الاتحاد والترقي) الذي كان مسيروه الحقيقيون يهوداً في الأصل تظاهروا بالإسلام (الدونمة) ومنهم ضباط صاروا كباراً في الجيش ، ومنهم ذوو مناصب حساسة في الدولة ، فأثمر ذلك كله خلع السلطان عبد الحميد ، واستولوا على الحكم ، وشغلوا الناس بمهرجانات إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ .

خاف المستر (جسب) أحد كبار المبشرين في الجامعة الأميركية حينئذ أن تذهب جهودهم ـ بعد الدستور ـ سدى فتساءل في قلق : « ما نتيجة إعلان الدستور العثماني على دين الامبراطورية ؟ » ثم اطمأن إلى تحقيق أمله فأجاب نفسه : « سيساعد على طبع الكتب البروتستانتية ويصبح (العثماني) حراً في أن يغير دينه »[3] .

وقد عقد المبشر (ألمر دوغلاس) مقالاً بعنوان « كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر ؟ » وذلك قبل رحيل الاحتلال الفرنسي عن الجزائر ، شرح فيه طرقهم التي رسموها لتنصير أطفال الجزائر ثم قال : « إن هذه السبيل لا تجعل أطفال الجزائر نصارى ، لكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم »[4] . ولقد نجحوا في هذا نجاحاً

---

(١) التبشير والاستعمار ص٩٧ .
(٢) المصدر نفسه ص١٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ص١٩٣ .
(٤) المصدر نفسه ص١٩٤ .

كبيراً يحسه من ينتقل في الجزائر مخالطاً شبيبتها فيرثي لما فيه أكثرهم من تحلل ، وانغماس فيما بثه الاحتلال من أدنى البلاد إلى أقصاها من حانات ومقامر ومعاهر ونوادٍ ليلية يسمع عنها ما يندى له جبين الإنسانية الكريمة ، شبيبة متفرنسة تفرنساً احتلالياً ما فيه من (الجزائرية النبيلة) شيء .

ولما رأوا إخفاق التنصير في المحيط الإسلامي عمدوا إلى ما هو أخفى وأبعد نكاية ، وهو إبعاد أطفال المسلمين عن الإسلام قائلين : « يجب أن نؤكد جانب العمل بين الصغار في البلاد الإسلامية ، إن الأثر المفسد فيهم (يجب أن) يبدأ مبكراً جداً قبل أن تأخذ طبائع الصغار أشكالها الإسلامية . إن اختبار الإرساليات في الجزائر . . . اختبار مقنع . . . فوجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين »(١) ثم استقروا على أن « غاية المبشرين إفسادية لا دينية لتفكيك وحدة الإسلام حتى يحكموا شعوبه »(٢) .

ومع هذا لم يكونوا يتورعون حين تمكنهم الفرص عن كثلكة من ينفردون به من عوام المسلمين ، وتشتهر في هذا حادثة (جنينة رسلان) المشهورة في محافظة اللاذقية بسورية ، فإنه لما احتل الجيش الفرنسي سورية ، رأى المبشرون فرصتهم الذهبية فقال اليسوعيون : « يجب أن تكون الإدارة الفرنسية في منطقة العلويين [النصيرية] تتمة للاحتلال الصليبي »(٣) ، ثم تمكنوا بعد عشر سنين من الاحتلال بمساعدة الجيش الفرنسي الذي كان يحكم تلك المنطقة خاصة حكماً مباشراًمن نقل (٨٠) شخصاً يؤلفون (٢٢) أسرة من العلويين إلى الكثلكة في ١٥/ ٨/ ١٩٣٠م في جنينة رسلان بعد أن أتموا عزل منطقة العلويين عما حولها(٤) .

بل استعانوا بالسياسة في أوسع حدودها الدولية ، فكانت وصايا مؤتمراتهم مما تعمم على وزارات المستعمرات ووزارات الخارجية في أوروبة وأمريكة لتخطيط

---

(١) المصدر السابق ص٦٨ .

(٢) ص٨٨ .

(٣) ص٣٨ .

(٤) انظر ص٥٤ و١٢٢ .

التنفيذ ، واتفقت أهدافهم وأهداف الصهيونية العالمية في تمزيق البقاع الإسلامية ، ولم يصروا على إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين إلا لأن إنشاءه يفتح أبواب فلسطين على التبشير ، ويجعلها إحدى نقاط الهجوم على العالم الإسلامي »[1] وحسبك أن تعلم أن المبشر المستشرق (جون فان إس) بشر منذ سنة ١٩٤٣ بدولة إسرائيلية قبل قيامها بخمس سنوات وأعلن حدودها بقوله إنها « ستؤلف من معظم أراضي الجليل إلى خليج العقبة ، ودولة أردنية تؤلف من شرقي الأردن » ، « وهذا يدل دلالة واضحة على أن هذا التقسيم السياسي كان في متناول المبشرين ، وأنهم كانوا يحضون عليه في سبيل تسهيل مشاريعهم الدينية »[2] .

هذا ما أعده الأعداء لنا ، وأما ما صنعناه في أنفسنا بأيدينا بعد أن نشّؤوا في مدارسهم من أصبحوا قادتنا ونصبوهم بأدمغة مغسولة ، فحملة مستخفية ومستعلنة على كل ما يدعم التدين ، هذا المقوم الأساسي في مجتمعنا بدعوى التحضر ، بل إن عدداً من هؤلاء القادة الوطنيين ـ وأعرف كثيراً منهم[3] ـ مبهورون نفسياً وفكرياً ، حتى إنهم ليسرون في أنفسهم اعتقاد ما لقنوه من أن ديانات الأوروبيين هي ديانات التحضر ، وهم يجهلونها جهلهم ديانة المسلمين ، ولا يعرفون من التحضر إلا الانجرار على أذيال الفرنسيين والبريطانيين في المظاهر والآراء والتصرفات .

لا نستطيع أن نفهم سر هذا الهجوم الوحشي الكاسر على الإسلام إلا إذا ذكرنا جيداً أمرين يعلم الأوروبيون يقيناً أن عليهما كان مدار القوة في المملكة العثمانية ، وأنه ينبغي تجريدها منهما بكل الحيل : الأول سلطان الدين على حياة المسلمين ، والثاني اتحادهم وهو ظاهر .

أما الأول فأكثر ما استهدفوا منه عقيدة الجهاد ، فمنها كان كل بلاء الأجانب ، إذ كان هذا الركن ـ في الأزمات ـ فرضاً عينياً على كل مستطيع ، وذلك يستوجب

---

(١) ص١٧٩ .

(٢) ص١٨٤ .

(٣) هم ـ في الحقيقة ـ تلاميذ الرعيل التركي الذي قدمت وصفه من حزب (الاتحاد والترقي) ربيب اليهود في الماسونية وتفريق الصفوف . وهم بمقام الأساتذة لجيلنا نحن في السياسة والحزبية .

التمرس بالأسلحة المتجددة وإتقان فن الحرب المتطور . ومعرفة أحكام الجهاد وثوابه مما يجعل المعتقد يستميت حتى في أقسى الأحوال من جوع وعطش وعناء ليكون شهيداً في سبيل الله مدافعاً عن بلاده وأمته وعقيدته ؛ فما زالت أدوات الاستعمار من مبشرين ومستشرقين وكتاب دائبي السعي في تشويه هذه الفريضة لأنصاف المتعلمين من الموجهين في الدولة حتى نجحوا ، وتهاون المسؤولون في إنكار هذه الروح بعد أن تخرجت أجيال جهلت شريعتها ، إذ كان ما أبقوه من درس الدين في المناهج معلومات نظرية عامة وخطابيات قليلة الجدوى ما تلبث أن تنسى ، وهذا ما حصل . وتسلسل هذا ؟ ؟ إلى زماننا الحاضر ونحن لا نشعر من أين أُتينا ، حتى لتلقى الشاب الجامعي وهو يجهل من الثقافة الدينية ما كان يتقنه التلميذ في دراسته الابتدائية قبل خمسين سنة .وقد ضمنا مجلس ونحن أساتذة في جامعات عربية مختلفة فأجمعنا على أن كثيراً من طلابنا في أقسام اللغة العربية لا يحسنون قراءة نص من القرآن الكريم بله شرح معناه ، وعهدنا بكثير من الذين في صف الشهادة الابتدائية قبل خمسين سنة يحسنون تجويده ويحفظون كثيراً من سوره مع فهم معانيها ويلمون بالضروريات من أحكام الفقه . . . فلم يكن مستغرباً في أول لقاء بأعدادنا الهائلة وعُددنا الحديثة أن نسقط في المعركة أمام عدو قليل العدد جداً[(١)] .
إن الأعداد والعُدد لا تكسب نصراً ، ولكن ينتصر القلب المؤمن بربه وبقضيته ، ولقد صدق ذلك المذيع الإسرائيلي حين سئل عقب حرب ١٩٦٧م ـ على ما نقل لي من سمعه ـ : « كيف انتصر الإسرائيليون على أضعاف أعدادهم من المسلمين وقد وعد الله المسلمين بالنصر على أضعاف عددهم ؟ » فأجاب على البديهة : « إن إسرائيل لم تحارب مسلمين »!

* *

كما انتزعوا النشأة على الجهاد من تفكيرنا وسلوكنا ، عمدوا إلى أمر آخر هو انتزاع حرمة علماء الدين من القلوب ، بدأ هذا منذ غزو المحافل الماسونية مجتمعنا المسلم ، فصارت تهون من شأن رجال الشرع الذين لجأ إليهم الناس مستفتين في

---

(١) في حرب إسرائيل سنة ١٩٤٨ و١٩٦٧ .

صغير أمرهم وجليله ، وتسخر مما يحملون من علوم . وقد أدركت في نشأتي الأولى سلطان رجال الشرع على النفوس وبعيد أثرهم في إصلاح المجتمع ، ثم ورث هذا التهوين من شأنهم وشأن علومهم مسؤولون عرب ورثوا الحكم عن الأتراك (الاتحاديين) فساروا سيرتهم وزادوا ، وأدى ذلك إلى نتيجتين :

١ـ قلة العلماء من جهة لإعراض الناس عن الشريعة وعلومها ولسد الطريق ـ من جهة ثانية ـ في وجوه أصحابها .

٢ـ وضعف العناية الرسمية بالتعليم الشرعي وإغفال تصنيف علمائه في ملاكات الدولة على رغم ما يقتضيه إعدادهم من دراسات وإنفاق لا يذكر إلى جانبها ما لغيرهم منها .

ولما احتل الفرنسيون والبريطانيون البلاد العربية تعمدوا زيادة الإغفال والإهمال إذ كان العلماء أعداءهم التقليديين منذ حملوا راية الجهاد ، واستمر ذلك يزيد ويستفحل ، بمقدار ما اشتدت عناية المحتلين بسلك الكهنوت المسيحي حتى جعلوهم كالملوك والأمراء ، واستمرأ العامة مع الزمن هذا السلوك حتى تجرأ أصحاب المسرحيات الهزلية ـ في بلدة كالقاهرة ـ وأكثرهم غير مصريين فجعلوا الشخصية الهزلية في كل مسرحية ممثلاً يرتدي الزي الأزهري (العمامة والجبة) ويتصنع التشدق بالعبارات الفصحى بين ممثلين يتكلمون العامية واالسوقية (البلدية) ويجعلون مظهره العام رثاً زيادة في إضحاك الناس وتسليتهم . . إلا أن الذي لا يعرفه الناس أن المعتمدية البريطانية في القاهرة كانت تشتري مئة بطاقة من (صالة بديعة اليهودية) إذ كانت المسرحية بالعامية المنحطة وموضع الإضحاك شخصية أزهرية الزي .

هذه السياسة آتت ثمارها بسرعة في استخفاف الناس برجال الشرع على مدى السنين حتى فقد كثير من هؤلاء حتى احترامهم لأنفسهم ، واستتبع ذلك عدم احترام الناس لهم بطبيعة الحال .

ويذكر الناس قبل سنوات إحدى هذه الثمرات زعيماً في قطر عربي أعطاه الناس طاعتهم فلم يستحي منهم ولا من الله حين وقف وراء مكبرات الصوت وأجهزة

الإذاعة يخطب في غوغاء جمعهم زبانيته ، راداً على انتقاد أحد رجال الدين ، لبعض تصرفاته بقوله : « إن هؤلاء يصدرون الفتوى مقابل زوج من الفراخ » وكان صراخ وقهقهات وتصفيق وهرج ومرج من هذه الغوغاء ، وامتعض من خروجه على كل أدب وكياسة المستمعون من المحيط إلى الخليج ، وكان هذا من أشد ما نفر الناس منه في كل أقطار العروبة .

يقابل ذلك على طول الخط عناية أولئك المحتلين ومن خلفوهم برجال الديانات الأخرى ، وحملُ الناس على احترامهم ، وعناية المسؤولين بمطالبهم ، وقلّ أن رأيت نصرانياً يذكر رجل دينه بغير احترام مدى عمري الطويل ، حتى حملوا المسلمين أنفسهم على تبجيله (الخوري) وتلبية مطالبه مهما تكن جائرة ، ومهما يكن المسؤول كبيراً .

لقد بلغ المخطط مراده في تهوين شأن الإسلام في نفوس أتباعه ، في الوقت الذي يتمسك الأوروبيون بمذاهبهم التقليدية تمسكاً بعيداً ينصون عليها في دساتيرهم ، ويكون بعض ملوكهم رئيساً لكنيسة المذهب في كل الأقطار ، بل إن « البروتستانتية جزء لا ينفصل من القومية الهولندية ، وهي جزء أصيل من القومية الإنكليزية »[1] وجاهل بالبروتستانتية ليس بمثقف البتة عند الإنكليز ، وفرنسة حامية الكثلكة في الشرق ، وروسية القيصرية حامية الأرثوذكسية « الأرثوذكسية جزء لا يتجزأ من القوة اليونانية » وهكذا .

هذه المفارقة الصارخة ، يقابلها مفارقة أخرى : هجوم متواصل وقح من الصليبيين واليهود على مقومات الثقافة المسلمة ، وكف من المسلمين عن كل ما يتعلق بالثقافة الصليبية ، وأكاد أقول بدل الكف اعتناق كثير ممن آباؤهم مسلمون للثقافة الصليبية[2] ! وما سمعنا قط أن مسلمين مارسوا التبشير والاستغراب على

---

(١) التبشير والاستعمار ص١٧٣ .

(٢) أبشع ثمار الاستعمار الصليبي وأبعثه على الإضحاك ، ما سنه المحتلون بالقوة (ومعذرة إلى ضحايا هذه المكيدة) من إيفاد طلابنا إلى فرنسة وإنكلترة للاختصاص بتاريخ العرب ولغتهم وآدابهم ، ثم رحل المستعمرون وبقيت هذه المهزلة بحكم الاستمرار ولم يصحح الوضع ـ فيما أعلم ـ إلا جامعة =

الصليبية ودولها وأتباعها وتاريخها وعقائدها كما مارس الصليبيون (من مبشرين ومستشرقين) ذلك على الإسلام والمسلمين ، ولو فعلوا لم يلاموا لأنهم يقابلون العدوان .

حسبي هذا ، والعلاج واضح جداً ، وهو في هذه الكلمات : « أن نبني في إنسانيتنا من جديد ، ما هدمته هذه الحضارة الصليبية الوحشية الفاجرة » ، ولا أقول النصرانية لأن بين هاتين الكلمتين تضاداً لا يجهله العارفون .

ب ـ في ميدان الفكر

كان التعليم في البلاد العربية خاصة والمملكة العثمانية عامة ضعيفاً ضئيلاً آخر القرن التاسع عشر ، ولما فكرت الدولة في الشروع في تعميمه كانت الإرساليات الأجنبية قد سبقتها فبادرت إلى غزو المملكة وسائر البلاد الإسلامية بإنشائها مدارسها في معظم البلاد . وعرفت مما سبق أنها أكثف ما كانت في فلسطين وساحل الشام (لبنان) ، عجت بالمؤسسات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والروسية والأمريكية . . وحتى الدانيمركية ، يشرف عليها جميعاً مبشرون أجانب . واجتهدوا أن تستوعب أعداداً كبيرة ، وأكثر رغبتهم في أبناء الوجهاء وذوي النفوذ

= عربية واحدة اشترط قسم اللغة العربية فيها لمدرس اللغة أن يكون متخرجاً من جامعة لغتها العربية وأعماله فيها (من دبلوم أو ماجستير أو دكتوراه) باللغة العربية ، وهو شيء متبع في جميع بلاد العالم .

ثم نسينا هذا لما صارت بعض أقسام الشريعة الإسلامية توفد مبعوثيها للتخصص في فرنسة وإنكلترة في الشريعة الإسلامية!!

وما يحتاج القضاء على لغة أمة وآدابها وتاريخها وشريعتها إلى أسلوب أفتك من هذا الأسلوب حين ينصّب للطلاب يدرسهم اللغة والأدب والتاريخ والشريعة من لم يعرف عنها إلا ما لقنه الأعداء .

وإني لشديد الخجل في نفسي من انتحارنا هذا ونحسب أننا غير مغفلين أو خائنين . فتّشوا عن منفذي هذه الجريمة الأول تجدوا أنهم من صنائع الاستعمار والاستشراق ، رُبوا على أيديهما فساروا في مرضاتهما أكثر مما كانا يحلمان به أيام الاحتلال ، وأبلغوهما هدفهما بأسرع مما خططا . إن غسل الأدمغة يبلغ هذا من ضحاياه ، ولكن ما ذنب الأمة وأجيالها تنفق من كدها وعرق جبينها على من يوقعونها فريسة الأعداء .

لأنهم بعد تخرجهم سيلون وظائف ، وسيكونون أدوات طيعة لهم فيتحكمون في سياسة البلاد وخط سيرها في جميع المصالح كما يُرسم لهم .

يجمع مدارس الإرساليات الأجنبية على اختلاف طوائفها وجنسياتها الأهداف الأربعة الآتية :

١ـ حجب الثقافة الإسلامية الأصيلة عن الناشئين من رياض الأطفال حتى الجامعات ، وحشو أدمغتهم بكل قشور الثقافة الأجنبية وبفلسفات منها وبعض فنون نظرية ، وإبعادهم ما استطاعوا من العلوم وتطبيقاتها في الصناعة لما فيها من تقوية البلاد .

٢ـ إجبارهم على دراسة التاريخ الوطني في كتب وضعوها هم ، مملوءة بالطعن والتشويه والافتراء والدس على كل مقوماتنا من دين وحضارة وتاريخ وأمجاد ، ليخرج تلميذهم كافراً بما لأمته من ذلك ، كارهاً له ، متهافتاً على ما للدولة التي درس في إرساليتها من دين ولغة وحضارة وممارسة سلوك وعادات[١] .

٣ـ لغة التدريس والحوار في جميع هذه المدارس هي لغة الدولة الأجنبية التي تنتسب إليها الإرسالية . أما لغة البلاد فهي ـ وإن خصص لها ساعات ضئيلة (صورة) في بعض مدارسهم لا كلها[٢] ـ تعلم بطرق عقيمة لا تجدي إلاّ في اعتقاد الصغير تخلفها وانحطاطها عن لغة الأجانب ، وهم لم يعلموها حباً بها يومئذ ، ولكن كرهاً باللغة التركية لغة الدولة .

٤ـ لا يُدرس في شيء من هذه المدارس مسلم البتة ، حتى المدارس العلمانية التي لا تدعي كثلكة ولا بروتستانتية ، فإن وجد مدرس مسلم في الندرة فللضرورة القصوى . أما التلاميذ فينبغي أن يُحشر فيها أكبر عدد ممكن من الطوائف غير

---

(١) حتى شعائر الدين ومن يقوم بها فقد جعلواتلاميذهم المسلمين حين يشهدون طقساً مسيحياً يقابلونه ومن يقوم به باحترام ، ويمرون أمام المساجد والصلاة تقام فيشمئزون ويخفون سخريتهم من هذا التخلف .

(٢) ومن ثم فتحوا باباً ضيقاً في السنين الأخيرة حين أجبرتهم القوانين على تدريس اللغة العربية على المنهاج الرسمي .

المسيحية ، ونظراً للنفقات الباهظة لم يدخلها إلا أبناء الوجهاء والأغنياء والطبقة العليا الذين آلت إليهم السلطة . أما غير المسلمين فمدارسهم الطائفية احتوتهم ، ونادر أن يوجد في مدارس الحكومة قبل الاحتلال طلاب مسيحيون على رغم الإغراء بالوظائف الحكومية بعد التخرج .

وإليكم الآن بعض الأمثلة والوثائق عن كل من هذه الظواهر أو الأهداف :

١ـ حجب الثقافة الأصيلة : « وقف الإنكليز في التعليم بمصر عند التعليم الثانوي حتى مطلع هذا القرن ، ولم يكن في مصر إلا ثلاث مدارس ثانوية في طول البلاد وعرضها ، ورفضت الحكومة البريطانية إنشاء جامعة ، وقال دنلوب (وزير المعارف غير الموزر) : ما حاجة مصر إلى جامعة وهي لا تبغي من المدارس غير تخريج كتاب لمكاتبها ، أما العلماء وأما الفنيون ففي بريطانيا مورد لا يفنى »[1] .

وانتهى الاحتلال الفرنسي في سورية سنة (١٩٤٥) بعد ربع قرن ، وليس في البلاد معهد للهندسة ، ولا مدرسة للصناعة ولا الزراعة إلا ثنتين إعداديتين أنشأهما الأتراك ولم يقض عليهما الاحتلال! . أما المناهج الثانوية التي فرضها الاحتلال فقد ملئت بالقشور الكثيرة من تاريخ بلاد المحتلين وجغرافياتها وبالنواحي النظرية البحتة من الرياضيات والعلوم ، وخلت تماماً من تطبيقاتها وما أسس عليها من صناعات ثقيلة وخفيفة . وكانت النتيجة أن كل متخرج من مدرسة أجنبية يحرص على ترويج بضائع دولتها والرعاية لها إن كان عمله التجارة ، وعلى إرسال أبنائه ليتمموا تحصيلهم في بلادها وحمل غيره على أن يصنع صنيعه .

حتى تلك القشور من الفلسفات لم يكتفوا بحشو أدمغة الطلاب بسفاسفها ، بل ضموإلى ذلك الرد على الذين أشادوا بالفكر العربي والفلسفة العربية من فلاسفة الغرب أنفسهم ، فكان كل همهم مغسلَ أدمغة طلابهم من أن للعرب مجداً ما في علم أو فلسفة . وعم بلاؤهم هذا بدرجة تلفت الأنظار في لبنان خاصة حيث انحسرت مراقبة الدولة العثمانية عن مدارس الإرساليات ولاسيما اليسوعية بحكم الامتيازات

---

(١) مجلة العربي الكويتية ، ص١١ العدد ٢٠٤ .

الأجنبية ، فلما جاء الاحتلال الفرنسي صال اليسوعيون وجالوا ، وحشرت فرنسة خريجيهم في جميع المصالح الرسمية الوطنية منها والفرنسية حتى كادت تكون حكرة لهم ، وفرضتهم على الأكثرين في لبنان على رغم أنوفها ، وأوكلت إليهم مناصب القضاء والتعليم والمالية ، وجعلت أكثر الوزراء منهم .

وأكتفي بمثل واحد من تخطيط وزارة المعارف التي جرت التقاليد في لبنان على إسنادها إلى ماروني (ويحسن أن يكون من خريجي جامعة القديس يوسف اليسوعية) أنقله من كتاب (التبشير والاستعمار) الذي ألفه أستاذان لبنانيان استنكرا أن تتبنى وزارة المعارف في لبنان ـ بعد الاستقلال ـ الرأي الرسمي للاحتلال ، رأي المتحاملين على العرب وإنتاجهم ، وتغض الطرف عن المنصفين الموضوعيين الذين أشادوا بالإنتاج العربي في العلوم والفلسفة . يقول المؤلفان[1] :

« يجمع هذا التشويه كله قول أرنست رينان الفرنسي : « الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية » وكتب هذا المبشر مملوءة بمثل هذا الإنكار لكل عبقرية عربية أو إنتاج عربي . . . ولا نعلم ما الذي دفع وزارة المعارف اللبنانية إلى تبني هذا الرأي غير أصابع اليسوعية وترديده في صور مختلفة في امتحانات (البكالوريا) ؛ فلقد سئل هذا السؤال في دورات كثيرة (قبل الخروج من الانتداب الفرنسي وبعده في عهد الاستقلال) :

في تشرين الأول ١٩٣٤ : « وهل من فلسفة عربية ؟ » .

في تشرين الأول سنة ١٩٤١ : « وهل أضاف فلاسفة العرب جديداً إلى فلسفة الأقدمين حتى يمكن القول : إن للعرب فلسفتهم كما لليونان فلسفتهم ؟ »

في تشرين الأول سنة ١٩٤٤ قال أرنست رينان : « ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية » .

وبعد الاستقلال في حزيران سنة ١٩٤٦ : « قيل : لم تستقم للعرب فلسفة لأنهم لم يوحدوا بين العناصر التي نقلوها ، إنما اكتفوا بعرضها متجاورة لا متفاعلة » .

في تشرين الأول سنة ١٩٤٨ : قال رينان : « ليست الفلسفة العربية سوى . . . إلخ» .

---

(١) ص٢١٩ .

والويل للتلميذ الذي ينتصر للفلسفة العربية انتصاراً ظاهراً . أما كلمة (إسلامية) وحدها فقد تفسح المجال للطالب المجلي ليجرب حظه في دورة تالية إذا ظفر بها وصحح من ذوي الاتجاه (المعلوم) . ا . هـ غسل الدماغ هذا لا بد منه للتخلي عن مقومات الأمة ، ليتسنى حشوه بعد التخلي بدسائس المبشرين الهدامة للدين والوطنية والأخلاق ولكيان الأمة عامة . وقد ظفرت جهودهم وقضاياهم هنا بما يريدون في لبنان ، ثم أراد المبشر الكبير (لويس ماسينيون) أن يظفر بمثله من كل من يتعلم في فرنسة من الشرقيين الذين يخضعون لغيرها من الدول فقال :

« إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسة يجب أن يُلوَّنوا بالمدنية المسيحية »[1] .

هذا بعد أن انتهوا من تحقيق خطوة هامة ، هي عملهم المبكر في الصغار ، فمن دستورهم ما مر بك أنه « يجب أن نؤكد جانب العمل بين الصغار في البلاد الإسلامية ، إن الأثر المفسد في الإسلام [يجب أن] يبدأ مبكراً جداً وقبل أن تأخذ طبائع الصغار أشكالها الإسلامية » . وتطبيقاً لهذا انصب « حرصهم على الإكثار من رياض الأطفال والمدارس الابتدائية للاتصال بالأسر »[2] وإصرارهم على فائدة مدرسة البنات التبشيرية لمخططاتهم « لأنها تنتزعهن من نفوذ حياة غير مسيحية . . . ففي صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات ، وليس ثمة مكان يجتمع فيه مثل هذا العدد من المسلمات تحت النفوذ المسيحي ، وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة . . »[3] لذلك طلب المبشرون الأمريكيون سنة (١٩٧٠) ثلاثين ألف دولار لمدرسة للبنات في بيروت ، وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة في الحياة البيتية ، وأن تلك المدرسة ستساعد على تنصير سورية في المستقبل »[4] .

---

(١) المصدر السابق ص٨٩ ويريد ماسنيون بالمسيحية ـ كما هو معلوم ـ الكثلكة .
(٢) التبشير والاستعمار ص٧٨ .
(٣) ص٨٧ .
(٤) خطط الشام ٤/ ٨٠ و٨١ الطبعة الأولى .

لم ينفرد جيلنا في التنبيه لخطر تلك المدارس الطائفية ، بل سبقنا واعون من الجيل الذي تتلمذ عليه أساتذتنا وإن كانوا أفراداً قليلين ، فقد أرخ المرحوم الأستاذ محمد كرد علي الأثر الاجتماعي التهديمي لهذه المدارس كما عايشه في عمره الطويل بما رأينا من الحق اطلاع الجيل الحاضر عليه ، لأننا ما نزال نعيش في جحيمه مهما نتغاض سياسياً ، والأستاذ كرد علي صار وزيراً في عهد الاحتلال مرتين وهو رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق رحمه الله ورحم محبيه قال : من مدارس هذه الإرساليات « ما ينزع من المتعلم حب قوميته وبلاده . وكم رأينا رجالاً ونساءً درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لا هم عرب ولا إفرنج ، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ، بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم ، وتسودّ بلادهم في عيونهم ، ولذلك صح أن يقال : إن تلك المدارس لم تنفع البلاد . . بل نفعت الشركة [الدولة] التي قامت بتأسيسها بأن هيأت لها في هذه الديار أنصاراً . . . إن المدارس غير العربية في الشام أشبه بالسارق الذي يسرق الأعلاق ونفائس المتاع ، أستغفر الله ، بل إن من يسرق فلذات الأكباد ليخرجها على ما أراد أشق على النفس وطأة وأعظم في المغبة أثراً ، وهل يقاس سارق الأموال بسارق الأطفال والرجال ؟ أوليست الأرواح أثمن من كل بضاعة ، وهل أعز من الولد على قلب أبويه ؟ إن المدارس التي تعلم على غير الأسلوب الوطني هي التي تسلب من الشام اليوم بعد اليوم روحها . ولم يبلغ البشر درجة من التمدن حتى تتساوى في عيونهم اللغات والأجناس كلها ، وتتجزأ أمة فتفنى لإحياء غيرها ، وتقلل جنسيتها لتزيد سواد أخرى ، ولا تهمها دارها وتريد هدمها لتعمر بأنقاضها دار جارها »[(١)] .

« هذا كلام الأستاذ كرد علي قبل أكثر من خمسين سنة ، وبقي السرطان ينتشر والأخطبوط يمكن لزوائده من مرافق الأمة وغفلة المسؤولين أو تغافلهم يغطي على الشر الذي كانت الدول الأجنبية تنفق على توطيده ، فصار يغذى الآن من دم فلاحنا وعاملنا حتى جل الأمر ـ في نظرنا عن الكلام ـ »[(٢)] .

---

(١) خطط الشام ٤/ ٨٠ و٨١ الطبعة الأولى .

(٢) من حاضر اللغة العربية ص٢٦ .

٢ـ **تزوير العلم** : تزود هذه المدارس ضحاياها من الناشئة بمطبوعات تنزع الأصالة ، وتزرع اللهجة في قلوبها وأدمغتها ، وقد عرفت أن المبشر (جسب) لم ير للدستور العثماني سنة ١٩٥٨ فائدة غير « للمساعدة على طبع الكتب البروتستانتية ليصبح العثماني حراً في أن يغير دينه »[١] ثم يشيد بثمرات هذه المطبوعات بقوله : « من العناية الإلهية العظيمة أن المطبعة الأمريكية والمدارس الأمريكية في سورية كانت وسيلة لإعداد رجال ونساء كثار ليكونوا مواطنين أمريكيين » ، ويعدد اليسوعيون ما تجنيه فرنسة من كليتهم الفرنسية في بيروت فيقولون :

« إن دارس الطب بالفرنسية يحتاج إلى إتقان اللغة الفرنسية ، ثم هو يصف الأدوية الفرنسية ، ويقرأ الكتب والمجلات الفرنسية ، ثم يذهب إلى فرنسة للتخصص . [ومعلوم أن] كلية الطب والصيدلة الفرنسية في بيروت مؤسسة يسوعية ولكنها ليست مؤسسة حرة . . . بل رواتب رئيسها وأساتذتها من وزارة الخارجية الفرنسية »[٢] .

* *

أرجع بالذاكرة إلى عهد الصبا ، وكنت تلميذاً في ثانوية دمشق الرسمية (مكتب عنبر) أيام الاحتلال الفرنسي ، وقد ندد خطباء الجمعة في مساجد دمشق بكتب فرنسية رسمية تدرس في ثانوية كاثوليكية أجنبية فرنسية (هي العزرية) في مادة التاريخ ، فيها طعن وقدح بصاحب الشريعة وبالإسلام ، وكان أربعة أخماس التلاميذ فيها من أبناء الأغنياء والوجهاء المسلمين ، بحيث لو انتقلوا فيها إلى مدارس الحكومة لأقفلت تلك أبوابها ورحل أصحابها عن دمشق . ثار بعض الغُيُر لهذا الطعن ، واحتجوا لدى السلطة الفرنسية فوعدت بتغيير الكتاب ، وحاول الواعون إقناع بعض الآباء بنقل أولادهم منها فأبوا ، إذ كان خريجو المدارس الأجنبية ـ والفرنسية خاصة ـ يحظون بنصيب الأسد من وظائف الدولة طبقاً لسياسة الفرنسة آنذاك .

---

(١) التبشير والاستعمار ص٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ص١٧١ .

وحق ما لاحظ مؤلفا كتاب (التبشير والاستعمار) من أن المبشرين « أسفروا عن حقيقة غاياتهم في الكتابة عن الإسلام ورجاله والعرب وحياتهم ، وكانوا النواة الأولى لطلائع الاستعمار السياسي والاقتصادي، يساعدهم في عملهم هذا مع الأسف نفر من أهل البلاد العربية »[1] وأنهم أعلنوا « أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المستحبة أكثر مما استطاعوا في بلد آخر ، لقد ظهرت مقالات كثيرة في صحف مصرية[2] ، مأجورة في أكثر الأحيان وغير مأجورة نادراً ».

أما في لبنان فصحف ومجلات كثيرة جداً ، لا تعيش من بيع نسخها لضآلة ما يباع منها ، لكنها تعيش بمخصصات أجنبية يبذلها الاستعمار ، والاستعمار الفرنسي خاصة ، مادتها الطعن بالإسلام وبنيته ورجاله وتاريخه أكثر من التبشير بالكثلكة . ويحفظ أجيال من المصريين اسم لويس شيخو صاحب كتاب (شعراء النصرانية) الذي لم يترك شاعراً إلا تحايل على جعله نصرانياً ، أو شم رائحة النصرانية على الأقل حتى عبر عن هذه النزعة أحد الظرفاء [3] بقوله : « لو أن شاعراً شتم النصرانية ونبيها عيسى وأم عيسى بأقبح الشتائم لجعله نصرانياً بدليل معرفته اسم عيسى وأمه ، وعلل الشتم بأنه طبيعة مزاج » ، كما اشتهر بتزييف التاريخ الإسلامي على نطاق واسع يسوعي آخر أعلم وأذكى هو (لامنس) اليسوعي البلجيكي فقد كانت حواشي مقالاته التي ينشرها في مجلته الكاثوليكية (المشرق) غاصَّة بأسماء المراجع وأرقام الصحف والأجزاء ، حتى ليخيل إلى الساذج أنه لا يذكر جملة إلا عزاها لمصدر عربي قديم ، لكن الذي أخذ نفسه بالصبر والتحري يجده بصيراً بنفسية قرأة مجلته وكتبه ، فهو قد أيقن أنه لن يدقّق نقوله أحدٌ منهم ، ولقد حذرنا أستاذنا[4] ـ رحمه

---

(١) ص٢٢ و٢١٣ .

(٢) أشهر صحيفتين في مصر حينئذ (الأهرام) و(المقطم) ، وأشهر مجلتين (المقتطف) و(الهلال) وأصحاب هذه الأربع مسيحيون من لبنان ، ويعدها المصريون الواعون صحفاً احتلالية على رغم ما يشوب بعضها .

(٣) هو أستاذنا المرحوم محمد سليم الجندي .

(٤) وزاد أن « الدول الغربية فطنت إلى دسائس اليسوعيين ومضارهم ، فأخرجتهم حكومة البرتغال من بلادها ومن مستعمراتها عام ١٧٥٧م ، ثم إنهم طردوا من فرنسة عام ١٧٦٥ وعام ١٧٧٦م ومن=

الله ـ ألاّ نعتمد شيئاً مما ينقل ؛ لأنه كثيراً ما يقرر حكماً استنبطه من نص ، فإذا رجع القارئ إلى النصّ في مصدره وجد (لامنس) قد حذف حرف النفي في أوله ، أو لفق منه جملاً تسوق إلى ما يريد بعد تحريفها عن مواضعها ، عرف منه هذا التزييف قليل من الأساتذة العرب ، وكثير في أوروبة .

هو يحرف التاريخ ، ويقرر المطاعن ، ثم يملأ الحواشي بأرقام لو رجع متحرٍّ إلى مواطنها لألفى المعنى على عكس ما حرر . ولقد حدثني الأستاذ محمد كرد علي ـ رحمه الله ـ أنه في زيارته لملك بلجيكا بُعيد الحرب العالمية الأولى ، احتفى به الملك ، ودار حديث عن الشام (سوريا ولبنان) وعن المستشرقين ، فذكر الملك (لامنس) في بيروت ، فانقبضت أسارير الملك ، وقال بعد لحظة صمت : « إني لأخجل كلّما ذكرت أن لامنس بلجيكي » .

يقرر مؤلفا كتاب (التبشير والاستعمار) أن الدول الأجنبية استعانت باليسوعيين (الرهبان السود) ثم باليهود والصهيونية على إفساد الحياة في الشرق[1] ، وعلى خلق الحركات الشعوبية وأن المبشرين عهدوا لوقف تيار القومية الصحيحة في كل بلد إلى أقلية غير مسلمة على الأكثر ، وحاولوا أن يضمُّوا عدداً بارزاً من المسلمين كما اتفق لهم في مصر فقط ، ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية جديدة : الفينيقية في جزء من الساحل الشامي ، والأشورية في العراق . إن كل ما أراد المبشر (جسب) هو أن تولد النصرانية ، وتكون أوسع انتشاراً .

= إسبانية عام ١٧٦٧م وكان قد بقي في فرنسة نفر من اليسوعيين باسم : (برهمان القلب الأقدس) ولكن نابليون أخرجهم منها ، وكذلك عادت إسبانية أيضاً فطردتهم عام ١٨٢٠م ، ثم أخرجتهم نهائياً عام ١٨٣٥ ، وكذلك عادت البرتغال إلى طردهم عام ١٨٣٤ ، ولقد قضت روسية سبع سنين (١٨١٣ ـ ١٨٢٠) حتى استطاعت إخراجهم من جميع بلادها ، وكذلك فعلت هولندة وسويسرة وألمانية في الأعوام ١٨١٦ و١٨٤٨ و١٨٧٢ على التوالي .

ولم يستطع الغرب سلوك معارج الاستقلال والرقي إلا بعد أن وضع اليسوعية خارج حدوده .

(١) ص ١٧٤ . قلت أظهرت الأحداث القريبة والسياسات التي خضع لها لبنان في تسلط طائفة واحدة على مقدراته حتى سنة ١٩٧٥ أظهر كل هذا أنّ المؤلفين الفاضلين كانا متطرفين في التفاؤل حين قالا : « مات على عتبة الاستقلال » . ولكن الأكثرية هي التي ماتت .

وأكد (جسب) أن المدارس التبشيرية والصحافة شبه التبشيرية ستتضافر على تحقيق هذا الهدف الذي غُذّي في لبنان طوال عهد الانتداب وقبله ، ثم مات على عجل . هذا مع العلم بأن جماعة من اللبنانيين ما يزالون يتغنون بها »[1] .

زال الاحتلال عن الشام ومصر والعراق وأقطار المغرب العربي ، وتقاليد الجامعات فيها حتى يومنا تصرُّ على الدارسين الذين يعدّون رسائل (الماجستير والدكتوراه والدبلومات) في موضوعات عربية كالتاريخ أو اللغة وحتى الدين ـ إيْ والله حتى الدين ـ أن يذيلوا صحف رسائلهم بالمراجع الأجنبية ، وترتقي بمقدار ما فيها من أسماء : (رينان ، وماسينيون ، ونولدكة ، ومرغليوث ، وغولدزيهر ، ولامنس . . . إلخ) وما تشتمل عليه مما كتب بالحرف اللاتيني ، ولو كان البحث عن سوق الخضر القائمة في القاهرة أو بغداد . وكأن الاستعمار رحل وما زال يعشش في أدمغة بعض الإمّعات ، من كل ما تقدم شعرنا إلى أي حدّ نجح الغزو الفكري ، وإلى أي حد استغلوا فقدان المناعة في نفوسنا ، وما كانوا خططوا له نظرياً بقولهم :

« يجب أن نحوّل بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلب »[2] قد بلغوا في تطبيقه مدًى غير قليل .

ولا تظنن أن زوال الاستعمار سيزيل من المطبوعات الغربية في أوروبة وأمريكة هذه الصورة لدين الإسلام مرة واحدة ، إن حركة ذلك منوطة بمدى التحرر والانعتاق الفكري الذي سيأخذ البعض به ليصبحوا موضوعيين صادقين مع أنفسهم على الأقل ، بعد أن كانوا مستشرقين مبشرين بالزور .

لقد تغير الزمن ، وأدرك منهم جامعيون كثر حاجاتهم إلى أن يعيشوا في القرن العشرين ، عهد ميثاق الأمم لا عهد الغابة .

ماسينيون مستشار وزارتي الخارجية والمستعمرات الفرنسيين في الشؤون الشرقية والإسلامية ، يستغرب في كتابه (الإسلام والشرق) « اتجاه بلاد الشرق نحو توحيد

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .

(٢) انظر كتاب التبشير والاستعمار ص١٦١ .

برامج التعليم وخصوصاً في تعليم التاريخ الإسلامي الذي يربط هذه البلاد برباط واحد »[1] وأنا لا أستغرب استغرابه ، فقد عودنا هذا الصنف من البشر التنكر للمنطق وللطبيعة وللبدهيات المسلمة ، حين لا توافق مآربهم في ضحاياهم .

هذه المدارس من عهد الأتراك إلى عهود الاحتلال ترفض التقيد في التعليم بالمناهج الرسمية ، ولاسيما في فلسطين ولبنان وتصر على فرض شخصيتها الصليبية في كل شيء ، حتى الموضوعات العلمانية لا بد من شحنها بالدسائس الصليبية[2] الاستعمارية إجهازاً على الفريسة .

استمر هذا في فلسطين ، وفي لبنان بعد استقلاله! ، وكانت هناك اتفاقية بين فرنسة والولايات المتحدة في ٤/ ٤/ ١٩٢٤م تنص المادة العاشرة منها على إطلاق يد المبشرين في سورية ولبنان ، فلما جلا الفرنسيون من سورية ولبنان واستقلا سنة ١٩٤٥ « وضعت سورية للمعارف قوانين تحفظ كرامة البلد المستقل . . . ثم أشرفت على التعليم الخاص أيضاً ، وأغلقت المدارس الأجنبية ، موحدةً المناهج في التعليم الرسمي والتعليم الخاص ، فحالت بين مقاعد الدراسة ومكائد المبشرين ونفوذ دولهم السياسي ، فما كان من فرنسة إلا أن احتجت بشدة على إلغاء العمل بالمادة العاشرة من الاتفاقية المشؤومة ، وكان من جواب الجمهورية السورية آنذاك على احتجاج فرنسة :

« إن الجمهورية العربية السورية لا تقيد حرية أحد في الدعوة إلى مذهب ديني ، ولكنها ترى أن هذه الحرية يجب أن تتساوى بين الداعي والمدعو ، فلمبشر بروتستانتي مثلاً أن يناظر فقيهاً مسلماً ، ولرجل كاثوليكي أن يخاطب رجلاً مسلماً . . . أما أن يترك الأطفال الأبرياء في صفوف المدارس الابتدائية تحت رحمة المبشرين فهذا ينافي أبسط قواعد الحرية »[3] .

---

(١) المصدر السابق ص٦٩ و٦٦ .

(٢) تقارير ساطع الحصري عن أحوال المعارف في سورية ـ ص٦٩ (دمشق ـ ١٩٤٦م) ويلاحظ أن ما ألغي في سورية بقي نافذاً في لبنان حتى اليوم .

(٣) انظر (من حاضر اللغة العربية) ص١٥٦ فما بعد (الطبعة الثانية ـ بيروت دار الفكر ١٩٧١م) .

جـ ـ في ميدان اللغة

حربهم لغة البلاد :

تضافرت إمكانات الدول الأجنبية الطامعة في بلادنا على العمل في ميادين ثلاثة : التمزيق ، والتبشير الطائفي ، والتهديم اللغوي .

فأما الأول فأوجزه بكلمات : لقد استغلوا إدارات المختصين من علمائهم بأحوال الشرق في بذر الشقاق الدائم بين حكوماته وإماراته ، ثم بين فئات كل شعب « حتى صارت كل فئة أو طائفة أو حزب تكره أختها وتتربص بها الدوائر وتنتظر أن يحتل الأجنبي البلاد ليذيقها الهوان وتكون هي ساعده الأيمن في شفاء غلها من أختها ، فكان لروسية طائفة تعمل لمصالحها ، ولإنكلترا طائفة تمهد لها الاحتلال ، ولفرنسة طائفة معلومة ولإيطالية طائفة . . . إلخ وجندت هذه الدول ما استطاعت من علماء مختصين وأموال ولجان وصحافة ومطابع ومؤسسات لكسب المعركة ، وشرح هذا تكفل به التاريخ الحديث وخاصة في ساحل الشام وفلسطين »[1] .

وأما ميدان التبشير الديني فقد عرفت شروره آنفاً .

وأما التهديم اللغوي فهو ما سأذكر بعض التفصيل فيه ، ولعل هذا التقسيم إلى ميادين ثلاثة تقسيم شكلي ، إذ الغاية منها جميعاً واحدة هي تجريد الشعوب من قوتها النافخة فيها الحياة باستمرار .

* *

« العربية الفصحى لغة جامعة يقرؤها اليوم ويكتبها ويستمع إليها ملايين من خليج البصرة إلى المحيط الأطلسي ، يصغي الكويتي في أقصى الشرق العربي إلى إذاعة الرباط في أقصى المغرب كما يصغي إلى إذاعة الكويت ، ويفهم الرباطي المغربي إذاعة الكويت المشرقية فهمه لإذاعته المغربية ؛ بل إن المسلم الصيني المثقف أو البخاري ليدخل المغرب العربي فيفهم عن علمائه ويفهمون عنه بهذه العربية الفصحى الواحدة التي اتسع انتشارها ـ في الزمان والمكان ـ منذ ثلاثة عشر قرناً إلى اليوم

---

(١) ص١٥٩ من كتابي السابق بتصرف يسير .

فكانت أقرب إلى اللغة العالمية ، وهي اليوم إحدى اللغات فعلاً .

هذا الواقع الملموس هو الذي كان شجىً في حلق التبشير والاستعمار منذ مئة عام ، فحرصا على إضعافه ، وأعدا العدة لزلزلة عقائد أهله فيه بالدعوة إلى حركة رجعية انحطاطية ، هي إحياء العاميات المحلية في كل بلد وقرية ، والكتابة بها ، وإهمال الفصحى الجامعة مرة واحدة ، إذ كان في تعلمها جهد وليس في العامية جهد ؛ فإذا نجحت هذه الدسيسة حل محل اللغة الواحدة عشرات من العاميات المحلية ، وتبعثرت هذه الأمة الواحدة إلى عشرات الشعوب ، وحينئذ يسهل على دول الغرب ازدراد هذه اللقيمات فيما بينها ، وإذن يملكون البلاد بأهلها وخيراتها ؛ ومعاملهم ومصانعهم بمواد الشرق الخامية ، ومُحي من الوجود اسم الأمة العربية ليحل محلها عشرات الشعوب وعشرات اللغات (المالطية) . وشجع القوم على المضي في خططهم وتمويلها أن التجربة نجحت إلى حد بعيد في جزيرة (مالطة) حيث نصّرها الاستعمار الإيطالي من أربعة قرون ، ثم حمّل لهجتها العامية أحمالاً من اللغة الإيطالية ، وتسلمها الاحتلال الإنكليزي فأتم ما بدأ به زميله فقسر أهلها على الكتابة بالأحرف اللاتينية ، فصرت الآن تصغي إلى المالطيين في حوارهم فلا تعرف بادئ الأمر أنهم عرب ، وتظن أنهم صنف من اللاتين ، فإذا حققت ما يلفظون عرفت أنه عربي الأصل ، وأن عربيتهم بعدت بها الدار والأزمان ، فلم يبق منها غير الرائحة ، وبهذا خسر الآن ربع مليون عربي أواصرهم مع إخوتهم وأصبحوا شعباً صغيراً ضائعاً . ومع أن قياس البلاد العربية المتجاورة على جزيرة صغيرة ألقيت بين الأقطار اللاتينية قياس فاسد كفساد قياس ربع مليون فريسة للتبشير والاستعمار على مئة مليون فيهم أشد المناعة على التبشير والاستعمار، مع هذا لم ييأس الغرب ، ورضي من الغنيمة بالتهديم والتعويق ، فأفاد من الغفلة المستحكمة في الشعوب العربية، وممّا بُثّ من الشقاق الطائفي والعداوة والبغضاء، فيفجر بين الفينة والفينة ألغامه في الدعوة (العامية) وتلتين الحرف العربي، فلم يخل تفجيرها من أضرار»[1] .

* *

---

(١) ما زالت كل منهما إلى اليوم حية تسعى ، قلت : نعم كل واحدة منهما حيّةٌ وتسعىٰ وتنفث سمومها .

عقب المذابح الطائفية التي أثارتها الدول الأجنبية في لبنان سنة (١٨٦٠) كثرت على أثرها تدخلات الغرب وقسرت الدولة العثمانية على إعطاء (متصرفية جبل لبنان) و(متصرفية القدس) حيث تركزت أطماع الدول ، حكماً ذاتياً ، تسابقت إرساليات تلك الدول إلى القدس وبيروت وغيرهما ، وكان من أعمال الإرساليات فتح مدارس تبشيرية لا سلطة للدولة عليها ، فأسس الأمريكان المدرسة الإنجيلية سنة ١٨٦٦ في قرية (عبيه) عقب المذبحة بست سنوات ، ثم انتقلت إلى بيروت وصار اسمها (الكلية الأميركية) فيما بعد . وأسس الفرنسيون (الكلية اليسوعية) في بيروت باسم (القديس يوسف)[١] . وفتح المجال فأنشئت مدارس أهلية طائفية واقتضت الدعاية أن يكون التدريس فيها جميعاً بادئَ الأمر باللغة العربية ، جذباً للطلاب الذين ضاقوا باللغة التركية في مدارس الحكومة ، واستمر هذا بضع سنين من التأسيس ، فلما أقبل عليها الأعيان من أبناء البلاد كُشف النقاب عن النية المبيتة ، وفرضوا على هذه المدارس اللون الأجنبي في لغتها وعاداتها وتقاليدها ، إذ ليس من أغراضهم إحياء لغة الوطن ولا ثقافته[٢] وهم ينوون ازدراده .

« بعد شيء من الإقبال على الكلية الأمريكية حولت لغة التدريس من العربية إلى الإنكليزية سنة ١٨٨٣ لتبقى أمريكية أصلاً وفصلاً ، وضربت على أبناء الوطن حداً لا يتجاوزونه في رتب التدريس »[٣] وحذت حذوها كلية الآباء اليسوعيين (كلية

---

(١) انظر تفصيل هذه النكسة في (تاريخ الطب) للدكتور شوكة الشطي : كتاب لبنان والعراق والكويت ص٢٧ فما بعد .

(٢) التبشير والاستعمار .

(٣) انظر كتابي (من حاضر اللغة العربية) فصل (حال اللغة أيام الاحتلال الفرنسي ص٧٤ وانظر بصورة خاصة حصر الفرنسيين الاختصاص في اللغة العربية بجامعات فرنسة (!!) . إن تمام المهزلة أن يتعلم العرب لغتهم ممن لا يفهمها ولا ينطقها ؛ ورفعهم معلمي الفرنسية على بقية المعلمين درجة في الرتب تحطيماً للنفوس وليشعروها بحطة العربية وذلتها .

ومن المؤسف حقاً أن بعض الجامعات العربية ما تزال توفد معيديها للتخصص في العربية وآدابها أو التاريخ الإسلامي إلى فرنسة وإنكلترة وأمريكة وأخيراً روسية . وهذا ـ مع مخالفته ـ المنطق =

القديس يوسف) فجعلت التدريس بالفرنسية ، ولما حل الانتداب الفرنسي جعل لخريجيها حصة الأسد في المناصب وقضاء المصالح .

سلك الاستعمار طريقة واحدة على خطين : إضعاف اللغة العربية وتقوية اللغة الأجنبية ، بحيث سدت طرق التوظيف في وجوه المتخرجين من المدارس العربية ، وفتحت على مصاريعها للآخرين ، وكان من ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إقبال شديد على المدارس الأجنبية في كل البلاد العربية التي منيت بالاحتلالين البريطاني والفرنسي ، على أن وطأة الاحتلال الفرنسي أشد حيثما حل في سورية ولبنان وتونس والجزائر والمغرب . لقد سار الفرنسيون سيرة فرنسة كاملة في اللغة والثقافة والكثلكة والعادات : فرنسة خفية في سورية[1] ، سافرة في لبنان، قاسية في تونس والمغرب،

= لا مثيل له عند أحط شعوب الأرض عناية بلغتها واحتراماً لنفسها . وهو من أهم العوامل في انحطاط مستوى أقسام اللغة العربية في تلك الجامعات حتى شاع أن هذا الصنف من المدرسين أخذ من بعض طلابهم ومثاراً لإضحاكهم حتى لا يحسنون قراءة نص قراءة صحيحة ، ثم ينطلقون فيما زعموا تحليلاً حديثاً له ، بلغة سوقية ساقطة مع كوكتيل من مصطلحات فرنسية وإنكليزية . عجيبة هذه العبودية كأن الاحتلال ما يزال جاثماً على رؤوسهم يسوقهم إلى احتقار أنفسهم وبلادهم .

(١) التبشير والاستعمار ص٢٢٥ . ثم ذكر المؤلفان ثلاث محاولات على شكل كتب مؤلفة ، أصحابها لبنانيون من الطائفة المارونية الموالية لفرنسا المحتلة ، نشر اثنين منها اليسوعيون في مطبعتهم سنة ١٩٥٠ .

واليسوعيون لبقون في عملهم ، فهم طبعوا هذه النشرات وعملوا على توزيعها ، ولا يمكن ـ رسمياً ـ توجيه التهمة إليهم ، إذ النشرات على عهدتهم وأنا أشهد أنهم أمهر الغزاة في غزواتهم الخفية ، فإذا كشف الناس واحدة راغوا منها وأعادوا الكرة في ثوب جيد يغري الغافلين بأنها خدمة لا غزوة . تجلى ذلك في كتابهم (المنجد) وهو على شكل معجم أنيق في طباعته وصوره ، مملوء بالفساد اللغوي والكذب التاريخي والتزييف والتزوير ، راج جداً لغفلتنا في جميع الأقطار الإسلامية . ولم أعرف ذلك إلا حين عرض سمسارهم صفقة على جامعة دمشق فكلفتُ بتقرير عنه سنة ١٩٦٨ طبعه بعض الغُيُر فارجع إليه تجد أعاجيب من ذلك . ولست أعجب من مهارتهم الزائدة في تقديم السم طعاماً شهياً ، ولكن أعجب ـ بحسرةٍ زائدة من غفلة المسؤولين في الأقطار العربية . ولم يقم بما توجبه الغيرة على لغة الجيل ومعارفه إلا المسؤولون في (ليبية) حين منعوا دخوله البلاد عقب اطلاعهم على التقرير .

ألفه اليسوعيون ـ كما ذكروا في طبعاته الأولى ـ لأبناء طائفتهم ، لأن بقية المعاجم فيها آيات قرآنية =

وحشيةٍ في الجزائر ، إمعاناً في تغيير لون هذه الأقاليم ، ويعرف الجميع أن الأمر انتهى إلى إلحاق الجزائر بفرنسا وعدِّها مقاطعة فرنسية من غير أن يكون لأهلها حقوق الفرنسيين كاملة ، ولما انحسر الاحتلال الذي دام تسعين سنة كانت لغة الجزائريين الشائعة في المدن هي الفرنسية ، وكاد الأمر يكون كذلك في تونس والمغرب لولا عائقان كبيران : أولهما وجود (جامع الزيتونة) في تونس و(جامع القيروانيين) في المغرب ، فقد أقبل الوطنيون على هاتين الجامعتين العربيتين إقبالاً شديداً صانهم من طغيان الفرنسة (رداً للفعل) كما يعبرون ، وثانيهما قصر مدة الاحتلال الذي كان فيهما أخف وطأة من في الجزائر . وجلا الفرنسيون ـ بحمد الله ـ عن هذه الأقطار الثلاثة ، وخلفوا فيها من المتفرنسين الذين يعيثون فيها إفساداً وإعاقة للشخصية الوطنية عن النمو عدداً غير قليل ، وبعضهم الآن في أعلى المناصب ؛ لكن روح الأمة ـ في تقديري وقد زرتها جميعاً ودرست شيئاً من أحوالها ـ ستتغلب في النهاية وسيكثر قارئو العربية والكاتبون بها مع الزمن بإذن الله .

وأما (ليبية) فقد كان الاستقلال فيها رسمياً سنة ١٩٥٢ ، وأما الجلاء الحقيقي فقد تم في عهد الثورة بعد سنة ١٩٦٩ ، كان جلاءً حاسماً كاسحاً لم يبق من الاحتلال الإيطالي ولا من مخلفاته شيئاً ، جلت اللغة الإيطالية والتبشير والدعارة وجميع الآفات الوافدة مع الاحتلال الإيطالي مرة واحدة . وسلمت اللغة بطبيعة الحال ، لأن احتكاك الطليان بالأهلين وتحكمهم اقتصرا على الساحل تقريباً ، وبقي أكثر السكان بمنأى عن شرور الاحتلال لعيشهم عيشة القبائل ولإيغالهم في الصحراء ورب ضارة نافعة .

جلا الاستعمار بعد أن زعزع ما أمكنه زعزعتُه من مقومات الأمة ، وكان هو وأعوانه من طائفة خاصة ، قد صوبوا ـ بكل ما يملكون من وسائل كصحف ومجلات وإذاعات وبعض منابر في جامعات ـ قذائفهم إلى اللغة العربية وصولاً إلى تفتيت

= وأحاديث شريفة ، ومصطلحات إسلامية ، فجردوا كتابهم من هذا كله ، وشحنوه بالمصطلحات والعقائد الكاثوليكية ، ثم غزوا به كل العالم الإسلامي إلى يوم الناس هذا ، تستورد منه تركية وإيران والهند وحتى الصين ومصر وتونس والمغرب عشرات الألوف كل عام!! .

راجع ص ٤٦ : تقرير عن أضرار المنجد .

وحدتها ، قالوا : « لا يمكن تقطيع أوصال العرب والمسلمين ما دام هناك (لغة واحدة) يتكلمها العرب ، ويعبر بها المسلمون عن آرائهم ، وما دام هنالك (حرف عربي) يربط حاضر المسلمين إلى تراثهم الماضي ؛ فإذا استطاع المبشرون والمستعمرون حَمْلَ العرب على الكتابة باللغات العاميات (الدارجات في كل قطر بل في كل قرية) أصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به أو لغات . ثم إذا هم استطاعوا حمل المسلمين على التخلي عن الحرف العربي وإحلال الحرف اللاتيني محله ، انقطعت صلة العرب تماماً بأدبهم القديم وبالمؤلفات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والفكرية ، حينئذ يصبح العرب وحدات فكرية غير متعارفة ، ثم تتناكر هذه الوحدات مع الزمن فيسهل إخضاعها بجهد أيسر . . . وكان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة بالعامية وبالحرف اللاتيني الاستعماريون الفرنسيون وعلى رأسهم (ماسينيون) ؛ ولقد حاول بث دعوته في المغرب ومصر وفي سورية ولبنان خاصة »[1] وتولاها من بعدهم عملاء أذناب لهم من طائفة في لبنان وأفراد في مصر .

هذا السرد هو بعض الواقع ، وكان شيء أقل من هذا على عهد الاحتلال البريطاني في مصر ، روّج له أيضاً بعض المتفرنجين من غير المسلمين من أعوان المبشرين أو من عملائهم المنحدرين من آباء مسلمين .

تكالب على النفخ في هذه النار ، نار العداء للعربية والتهالك على تهديمها مبشرون ومستشرقون من جنسيات متعددة ، وحاولوا خلق مشكلات زعموها في اللغة وألقوها إلى عملائهم في البلاد العربية ممن ينشرون في بعض الصحف المغمورة غالباً ، وأسبغوا عليها شيئاً من شكليات الدراسة ، وفاتهم جميعاً الإشارة إلى شيء واحد هام ، هو أن ما زعموه مشكلة هو نفسه في الفرنسية والإنكليزية والألمانية ، بل هو فيها أوسع إشكالاً وأعمق صعوبة ، فإن كانوا يريدون إصلاحاً ؛ فهلا التفتوا إلى مشكلات لغاتهم فأصلحوها وأراحوا ملايين الغرباء منها ؟

وأيٌّ كان فقد حصروا مشكلات لغتنا في ثلاث خرافات :

---

(١) من حاضر اللغة العربية ص١٥٦ـ٢١٠ (الطبعة الثانية) .

١ـ الفصحى صعبة ، والعاميات الدارجات أسهل على أصحابها ، فلكل بلد أن يكتب بلهجته العامية الخاصة .

٢ـ الحرف العربي صعب ، واللاتيني أهون!!

٣ـ القواعد العربية صعبة!

وأعفي نفسي من تفنيد هذه الخرافات هنا ؛ لأني عرضت لها في مكان آخر ، وعرض للرد عليها كثيرون ، منهم مستشرقون مسيحيون ، ولمن أراد معرفة التفاصيل والمحاولات أن يرجع إليه(١) .

والذي أنبه له أن هذا التخطيط الذي بدأه الاستعمار عن طريق المبشرين والمستشرقين منذ مئة عام وأخفق ، لم يوضع بعد الإخفاق على الرف ، بل ما زال يورثه أسلاف لأخلاف ويتعاهده جيل بعد جيل ، والقوم لا يملون فإذا أخفقت خطة غيروها بعد درس أسباب الإخفاق ، وإذا صُدوا في قطر أعادوا الكرة في قطر آخر . ولا ننسى نجاحهم في (نيجيريا) فقد حملوهم أيام الاستعمار على الحرف اللاتيني ، وكانوا يكتبون بالحرف العربي ، وتلك أولى الخطوات في فصل هذا القطر عن العالم الإسلامي .

وقبل ذلك أغراهم نجاحهم في فصل الدين عن الدولة في تركية على يد مصطفى كمال الذي ألغى الخلافة ثم أتبع ذلك نقل الكتابة من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني بالقوة والإرهاب والإعدام ، وإمعاناً في (الفرنجة) غير اسمه من (مصطفى كمال) إلى (أتاتورك) تقطيعاً للعلائق بين الإخوة وتقرباً إلى التبشير ودوله الاستعمارية .

وعندي تاريخ كرة أخرى جريئة وقحة هيؤوها للانقضاض على إيران :

---

(١) اسمه (دافيد صموئيل! [تنبه] مرغليوث بن حزقيال [!] الإنكليزي البروتستانتي (١٨٥٨ـ١٩٤٠) ، من كبار المستشرقين . . . زار الشرق الأوسط مراراً . . . وله في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن فيها مخلصاً للعلم ، على الرغم من توسعه في معرفة المسلمين وأدبهم ـ الأعلام للزركلي .

كان ذلك قبيل الحرب العالمية بأيام ، وكنت في جلسة مع الأستاذ محمد كرد علي منفردين في حديقة داره ، فما راعني إلا نظرته باهتمام نحو باب الحديقة ، وقطعه الحديث ، ثم هب بعد لحظة يستقبل باحتفال مبرنطاً داخلاً عليه شيخاً طاعناً في السن بطيء الخطا ضعيف الحركة ؛ فلما قطع الأمتار السبعة إلى حيث نجلس ، قدمه إلي بقوله : « المستشرق العظيم مرغليوث »[1] ، وقدمني له فهز رأسه هز العارف ، وجلسنا ، وبعد بعض جمل تقتضيها المجاملة بينهما ، طرق الموضوع الذي أتى من إنكلترا بسببه موجهاً للأستاذ هذه الأسئلة بتتابع وكأنه يؤنبه : « ما الذي أخركم إلى الآن عن تغيير حرفكم بالحرف اللاتيني ليسهل انتشار لغتكم في أوروبة وأمريكة ؟ ألم تروا إصلاح (أتاتورك) البطل ؟ لم لم تقتدوا به وأنتم جيرانه . . إلخ ، إن لك زعامة فكرية والناس تبع لك فما الذي أقعدك ؟ .

شعرت وهو يتكلم كأنه يقلع أضراسه عند لفظة كل كلمة بصعوبة ورطانة ، فتلطف الأستاذ ـ رحمه الله ـ في جوابه ، وذكر له فروقاً بين التركية والعربية ، وأن ليس للأتراك تراث حضاريّ قديم يخافون عليه كما للعرب . . .إلخ » ثم حوّل الحديث يسأله عن صحته وعن وجهة سفره ، فأجاب : « إني أبيت الليلة في المستشفى الإنكليزي في القصاع ، وغداً أبيت في القدس ، ثم أطير إلى طهران لمقابلة الشاه رضا بهلوي شاه إيران لأحمله على مثل الخطوة التي سبق إليها أتاتورك ، فيحمل الشعب الإيراني على كتابة الفارسية بالحرف اللاتيني بدل الحرف العربي » وظهر من لهجته شكه في نجاحه ، لكنه سافر بعزم[2] .

كان شكه في محله ، فقد كان الشاه ـ رحمه الله ـ مسلماً صحيح الوطنية ، مخلصاً لأمته ، غيوراً على مقوماتها ، آخذاً بما يقويها ، شديد الارتباط بالعالم

---

(١) كان ذلك آخر صيف عام ١٩٣٩ ، لكنه كان يحمل هذه الدعوة من مطلع القرن ، وحاضر في جامعة لندن في صيف ١٩١١ في مقابلة اللغة العربية بالإنكليزية . انظر ص١٨٢ في كتاب (من حاضر اللغة العربية) .

(٢) ٤/٤٨٣ . وانظر فصل (الحرف العربي والحرف اللاتيني) في كتاب (من حاضر اللغة العربية) ص١٧٥ .

الإسلامي ، لم تنله أحابيل الاستعمار المزخرفة ، ولا عشق التفرنج .

ما أزال إلى اليوم معجباً بهمم هؤلاء اليهود الصليبيين ، ووددت ـ إذ أعرضنا عن الاقتداء بأرباب الهمم من رجالنا ـ وددت لو بذلنا من الجهد والصبر والتضحية في بناء أنفسنا بعض ما يبذل أعداؤنا في تهديمنا . وأية همة أبعد من همة شيخ فانٍ في الثامنة والسبعين ، ضعيف البنية مريض يتحمل مشاق السفر من إنكلترا إلى دمشق إلى القدس فطهران ، كل ذلك في ثلاثة أيام وفي ظروف مخوفة مختنقة برائحة الحرب ، لخدمة بلاده وما يظن أنه خدمة لدينه . إن إخراج أمة من إسلاميتها إلى الانجرار على أذيال الفرنجة مقدمة محتملة لإدخالها البروتستانتية مثلاً بعد قرن من الانسلاخ ، وهي تستحق كل مشقة وجهد ، إن همتهم جميعاً ـ كما سبق ـ هي في إخراج المسلمين تدريجياً من الأشكال الإسلامية بعد يأسهم من تنصيرهم مباشرة .

كانت الثمرات التي حصل عليها الاستعمار من إشاعة مشاكل مزعومة للغة العربية غير مرضية لهم ، إذ لم تتعد مقالات دعائية في بعض الصحف والمجلات ، وردوداً عليها ، وشغل الناس بها فترة من الزمن .

في سنة ١٩٢٢ تولت جريدة (لاسيري) الفرنسية في بيروت أول الاحتلال الفرنسي الدعوة إلى الحرف اللاتيني ، وبعد سنتين نشرت مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في الشهر الحادي عشر من سنة ١٩٢٤[1] مقالاً طيباً لمستشرق فنلندي (لا مبشر ولا مستعمر) هو الأستاذ (يوحنا أهتنين كرسكو) حوى مقابلة موضوعية بين اللغة العربية واللغات الأوروبية أدباً وصرفاً ونحواً ولغة ونطقاً وكتابة ، أوصي بقراءته كاملاً لما فيه من سمات الإحاطة وعمق الدرس وجمال الإنصاف عدا علميته ومنهجيته ، جاء فيه :

« وأما تعلُّم الحروف العربية وكتابتها فأسهل من تعلم الحروف الأوروبية وكتابتها » ثم مضى يشرح ذلك ويستدل عليه بما هو محسوس ويحسن الرجوع إليه ، لكني لا أعفي نفسي من إظهار إعجابي بصراحته المتناهية حين كشف عن السر

---

(١) من حاضر اللغة العربية ص١٨٦ .

الحقيقي في حملة المبشرين والمستشرقين وأذنابهم في الشرق من إحدى الطوائف على اللغة العربية ، وأن ما يذكرونه من أسباب أو مشاكل لا حقيقة لها ، وإنما هو إثارة الغبار في وجه الحق ، قال في فاتحة مقالته : « إذا رغبنا في أن تنتشر اللغة العربية الشريفة في أوروبة ، وجب علينا أن ننفي بعض أوهام الأوروبيين التي تحول بينهم وبين الإقبال على تعلمها ، فأهم هذه الأوهام هو : وهمهم في أن اللغة العربية مرتبطة كل الارتباط بالإسلام حتى إنه لا يليق بالمسيحي أن يتعلمها »[1] .

وهذا هو الحقد الدفين الناشئ عن تخلف ذهن أيضاً ، زرعه المبشرون والاستعماريون الفرنسيون في صدور بعض الموارنة في لبنان وغيرهم ، فروجوا للعامية وللحرف اللاتيني ، وحملوا على الفصحى والحرف العربي . إنهم يعيشون في حروب صليبية لا في حضارة إنسانية .

في صدد زعمهم صعوبة القواعد العربية أحيل ـ لضيق المجال ـ على معالجتي له قبل سنوات في كتابي (من حاضر اللغة العربية)[2] .

* *

قبل أن أنتقل إلى القسم الأخير أشير إلى غزوة قادمة ظفرت بطليعتها هذا الصيف ، وهي دليل جديد على أن الاستشراق التبشيري لا يمل ، بل ينسحب بأسلحته التي فلت ليذيبها ويصوغ منها أسلحة جديدة لعلها تصيب نجاحاً ما بعد إخفاق .

لما رأوا أن ترك الفصحى للعاميات وهجر الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني لم يظفرا بغير غبار ثار ثم ذهب هباء ، أثمرت لهم الفكرة أن يعودوا من جديد إلى تشتيت أمر اللغة ، فبعد محاولة التشتيت المكاني بإحياء العاميات الدارجة من المحيط إلى الخليج ، نسوا فكرة التشتيت الزماني محاولين إقناع أنفسهم أولاً بأن هناك فصحى قديمة وفصحى حديثة ، وأن لكلٍّ نحوها وصرفها وما بأيدي الناس

---

(١) الباب الرابع : مشكلات مزعومة ص١٥٦ـ٢١٠ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٠ ص٦٦٢ .

اليوم نحو اللغة القديمة ، فلنصنع لهم نحو اللغة الحديثة .

صدرت محاولات عدة في مؤلفات نشرها مستشرقون روسٌ وإنجليز وفرنسيون وغيرهم عن أدب حديث له مقومات غير مقومات الأدب القديم ، وله قواعده الخاصة ، وأعرف أنّهم اصطنعوا في بعض الجامعات الأمريكية بعض العرب ليؤلّفوا لهم شبه قواعد حديثة للغة اليوم كما زعموا ، أملاً أن تنسخ لغة الأمس بتراثها الحضاري الواسع ، كما اطلعت على مشروعات استفْتَوا فيها عدداً من الأساتذة ، ثم انساق في تيارهم بعض المؤسسات العربية الرسمية في جامعة الدول العربية ، فعممت هذا الاستفتاء المترجم وشغلت به نفسها وغيرها ـ عن حسن نيّة مغفلة فيما أُقدّر ـ بمشاكل لا وجود لها وبطرق لحلّها . وكل ذلك لا يعدو أن يكون نوعاً من حرب نفسية ، لعلّ الناس يعتقدون أن لغتهم مشكلة .

آخر ما اطلعت عليه مقالة لكاتب فاضل يصف[1] أحدث هذه الكتب ، أخرجه بالإنكليزية مستشرق أمريكي من أصل طلياني عنوانه (نحوُ النثر العربي الحديث) لقد انتهى الرجل وأقنع نفسه بلغة جديدة ، فجمع دليلاً على ذلك آثاراً مطبوعة لبعض أهل العصر ، فيهم الأديب وفيهم من يحتاج العودة إلى الكُتّاب ليتعلم الكتابة العربية . قرأ في بعض هذه الكتب جملة : (ليس هناك خيل ولا خيالة) مكتوبة بالأسلوب العامي الذي يكرر أداة النفي (لا) هكذا : (ليس هناك لا خيلٌ ولا خيالة) فعدّ هذا تطوراً في اللغة إذ دخلها نفيٌ مزدوج ؛ فوضع قاعدة النفي المزدوج ، وسجل هذا أثراً من آثار الإنجليزية في العربية الحديثة ، ولو عرف الواقع وأراد الصدق لقال : إن الكاتب مترجم ضعيف بالعربية والإنجليزية معاً كما بين صاحب المقال .

ووجد في كتاب (شهرزاد) لتوفيق الحكيم في طبعة ١٩٣٤ هذه الجملة :

« من أدراك أن ما تطلب موجوداً » .

فهلّل (كانتا رينو) ـ وهذا هو اسمه ـ مصفقاً على حد تعبير الكاتب ، لأنه وجد قاعدة لغوية جديدة في الأدب العربي الحديث وهي : نصب (إن) لخبرها . ولم

---

(١) المصدر السابق نفسه ص٦٧١ .

يفطن إلى أنّها غلطة مطبعية ليس غير ، وهي غير موجودة في طبعة أخرى .

فلنتوقع في هذه السنين حملة استشراقية تبشيرية في سلسلة حملات الغزو الثقافي ، حملة تطل من بؤر في جامعات أجنبية من أوربة وأمريكة تتصيّد الأغلاط المطبعية ، ولحنات بعض المذيعين الجاهلين ، ورطانات بعض محرري الصحف غير المؤهلين ، لتصوغ منها جميعاً قواعد جديدة لشي يسمونه هم (العربية الحديثة) وإن لم توجد في الواقع ، على رغم يقين القاصي والداني أن العربية الفصحى واحدة من العصر الجاهلي إلى اليوم ، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب[١] .

وبعد فخير ما يصور نكبة العربية بهذه الإرساليات وببعض أفراد بعوثنا العائدة من أوربة وأمريكة متشبعة بسموم الاستشراق والتبشير الاستعماري فقرة وردت في مذكرة[٢] رفعها رئيس جامعة الإسكندرية العام الماضي سنة ١٩٧٥م بنتائج دراسة العوامل في ضعف الإقبال على أقسام اللغة العربية ، جاء فيها : « العامل الثاني ، عامل قديم وافد مع الاستعمار ومحاولاته في الفصل بين العربي وتراثه القديم ، فلقد نجح الاستعمار على مدى فترة طويلة في إشاعة روح النفور من اللغة العربية ، مستعيناً في ذلك بعدد غير قليل ممن تأثّروا بالثقافة الأجنبية ، أو ممن استهوتهم الأرستقراطية الأوربية ، أو أثرت فيهم النعرة التركية (يريد الأتاتوركية) . أو ممن تعلموا في مدارس تبشيرية ، وأصبحوا يتكلمون بلغة إنجليزية أو فرنسية بحكم التعلم في مدارس أجنبية ، أو بحكم التأثر بالتقليد .

لقد تكونت من هؤلاء طائفة تستنكر اللغة العربية ، وتأنف من لفظ عرب أو عربي، وليس من شك أنّ إهمال لغتنا العربية واستبدال لغات أجنبية بها فترة طويلة من حكم الاستعمار الأجنبي قد كان له أعمق الأثر في خلق هذه الهوّة بين أبناء الوطن العربي ممن سلكوا هذا السبيل وتراثهم وتاريخهم وحضارتهم .

وها هي أجهزة الإعلام ما تزال حتى الآن تسلك سلوكاً معيباً حين تعرض علينا

---

(١) الظاهر أنه عممها أيضاً على جامعات الأقطار العربية ، وحولت إليَّ من الأخ رئيس جامعة بنغازي .

(٢) ص٧ و٨ من المذكرة ، وقد مرّ بك اهتمام المندوب البريطاني بكل مسرحية فيها هزء برجل الدين وبالفصحى وتشجيعه (صالة بديعة مصابني) بشراء مئة بطاقة كل ليلة، عندما تعرض مثل هذه الأعمال.

الصور المشوهة للمدرس بعامة ومدرس اللغة العربية بخاصة ، حين تظهره محمّلاً بكل أوزار الفقر والإهمال ؛ كأنه القطعة المتلكئة من الزمن الغابر .

ويكفينا النظر إلى تمثيليات (الأستاذ حمام) و(كان وأخواتها) و(ما انفك وما انخلع) و(السكرتير الغني) وغير ذلك من عبارات وشخصيات يعرضها علينا المسرح أحياناً والتلفاز أحياناً أخرى لشخصية مدرس اللغة العربية . ثم انظر إلى ما يمكن أن يستقر في أذهان الناشئة حين يرون القائم بتدريس اللغة العربية وهو موضع السخرية والفكاهة والاستخفاف على هذا النحو »[١] .

هذه فقرة ينبغي لنا ـ إذا أردنا الحياة ـ أن نمعن فيها الإمعان كلّه لنعلم ما يجب علينا في ميادين عدة من تطهير أجهزتنا وجامعاتنا من المدرسين مروجي سموم التبشير والاستعمار سواء كانوا ضحايا أم عملاء .

ومن مقترحات المذكرة : « إعادة النظر فيما يقدمه المسرح والسينما والصحافة والإذاعة والتلفاز من مواد ، وتوجيهها توجيهاً جاداً يفتح الأعين على آفاق جديدة (شريفة) ويكسب حياتهم عمقاً واكتمالاً ، ويعينهم على الدخول في حوار حضاري مع العالم »[٢] .

ومعنى هذا تغيير القائمين على هذه الأجهزة في كل العالم العربي ، واعتماد آخرين لهم من المؤهلات ما يحيط بأغراض الاقتراح السامية ، وأول ذلك الحصانة من الانحطاط السوقي في لغة الأداء ، والترفع عن الابتذال في الشكل والمضمون .

* *

د ـ في ميدان عزل المسلمين عن مراكز التوجيه

أما عزل المسلمين عن مراكز التوجيه في بلادهم ، فليس طابع الإرساليات الأجنبية فقط ، بل هو خطة مفضوحة في جميع البلاد العربية التي كانت محتلة ،

---

(١) ص١٦ من المذكرة .

(٢) عُهد ـ فيما بلغني ـ إلى مدرس مسيحي في أحد الأقطار العربية بمنصب وكيل جامعة ، ولم يمض عام واحد على تنصيبه حتى نشط في نقل موظفين وعزل آخرين ، وملأ الشواغر بموظفين جدد كان ٨٠٪ منهم من أبناء طائفته . فتخيل يا رعاك الله .

فموظفو المصارف والشركات الأجنبية ، وموظفو المصالح التابعة لسلطات الاحتلال مباشرة ، عُيِّنُوا من غير المسلمين ، وترك للمسلمين الخدمات الرخيصة ، والوظائف الصغيرة ، ونشؤوا على هذه الخطة غير المسلمين من أهل البلاد . ويذكر مثلاً ـ طلاب القصر العيني في القاهرة ـ كلية الطب والعاملون فيه منذ الاحتلال البريطاني حتى الثورة فإن الأستاذ غير المسلم لا يوفد طلابه بعثات إلى أوربة للتخصص إلاّ من أبناء طائفته ، ويأتون بمثل ذلك على قسم الصيدلة ، فقد أتىٰ حين كلٌّ موفديه ومدرسيه ومعيديه حتى فرّاشيه (خدمة) من غير المسلمين[1] .

ويقولون : إن معظم الصيادلة اليوم الذين تخرجوا في القصر العيني غير مسلمين وهي ظاهرة صارخة تبعث على التأمل .

وشيء من هذا كان في وزارة المالية ووزارة المواصلات .

وأكثر ما فشا هذا النوع من التعصب الحاقد المظلم في لبنان عامة أيام الاحتلال الفرنسي وبعده إلى اليوم .

وفي مصالح متفرقة في مصر أيام الاحتلال البريطاني إلى أن كانت الثورة وكان الجلاء .

قد يقال : « إن هذا من طبيعة الاحتلال ، لا يعيش ويدوم إلا بها » .

هذا حق ، ولكن لابد من التذكير بما نزل بنا من هذا العزل المجرم من عواقب وخيمة نالت حياتنا الفكرية عامة ، ومعاهدنا العلمية خاصة ، وبثت من روحها الخبيثة آثاراً ما نزال نعاني عملها التخريبي الدائب ، انحطاطاً في مستوى التعليم العالي ، وانحداراً في سلوكياتنا . ولقد كان عهدنا بالناس قبل الاحتلال أمة واحدة ، يتعايش أفرادها متساوين مع التزام كلّ دينه الخاص ، لا تحاول طائفة تجاوز مالها عدواناً على غيرها .

* *

---

(١) في كتاب (التبشير والاستعمار) : أن المعهد الفرنسي العلماني (!) في بيروت لم يكن فيه مدرس مسلم واحد ، أما مدارس اليسوعيين فلا يمكن أن يعلّم فيها مسلم أبداً ، وأما جامعة القديس يوسف فقد أصبحت جامعة بابوية . ص٧١ و٧٧ .

خاتمة ـ في الآثار المرصودة للغزو الثقافي

سيكون كلامي موجزاً عن آثار تلك الغزوات الفكرية في سلوك المغزوين وإذا صحّ أن ثقافتنا أثر معارفه ، فماذا نرصد من تغير في السلوك بين أول هذا القرن وأيامنا الحاضرة ؟

كان الطابع السائد في المجتمعات العربية هو طابع التديّن ، فالأسرة ـ مهما يكن دينها ـ قوية ، الأب هو الناظم لشؤونها ، الحافظ لمصالحها ، له الأمر ، لا يشذ على إرادته صغير ولا كبير ، يفتتح نهاره بالعمل من الذكور ، مظهرهم جميعاً محتشم ، فإذا رجعوا إلى الدار طعموا ثم توجّه كل منهم إلى مرتزقه ، والصغار متعاونون ، يوقر صغيرهم كبيرهم كأنهم أسرة واحدة ، إذا صادف أن بدر من مستهترٍ ما ينافي كان سُبّةً على أهله . لا تفرق في حجاب النساء وحشمتهن بين مسلمة ونصرانية ، ينتهي العمل يعود كل إلى داره ، إلاّ إذا خرجت الأسرة إلى المنازه والبساتين فيكونون في الدار مع غياب الشمس ، وإذا كان تزاور فبين المتجاورين .

وقلَّ أن تجد مارّةً بعد رجوع الناس من صلاة العشاء أو قدّاس المساء .

ثم كان ما أسمَوْه إعلان الحرية ١٩٠٨م في البلاد العثمانية ، فأنشئت في حدود ضيقة ـ مقاةٍ زادت ثم انتشرت مع إنشاء بيوت دعارة ، واستمر هذا التطور يتقدّم في خطا بطيئة .

وسمح للإرساليات بإنشاء مدارسها التي استوعبت عدداً غير قليل من الفتيان نشرت فيهم عادات بلادها وعرفها وأخلاقها .

وتصاعد تغيير القيم ، وغسل الأدمغة ، فما زال يزيد رواد المقاهي والحانات والمعاهر ودور القمار .

وبعد إنشاء المسارح عمّ الخطب ، إذ استأثرت بعدد غير قليل من الشبيبة . ولمّا عمّ الاحتلال الأجنبي وكثرت أذنابه ، اتسعت الخطا نحو الانسلاخ من العروبة وقيمها ، والانغماس في التفرنج . وتبع الإناث الذكور في ارتداء الأزياء الأوربية الحديثة للجنسين ، وبدأ ينحسر الزيّ الوطني ، فتقلص الحجاب ، وغابت الحشمة .

وغدا طبيعياً أن يكون الشاب (المثقف) في الليل في سينما أو حانة أو مقمر والشذوذ أن تجد بعضهم يقومون بعمل إيجابي .

وإليك شهادة عن عمل الاحتلال المشرف في هذا الميدان من مبشر أمريكي هو المستر (جسب)[1] :

« أرسلت فرنسة بعد فتنة ١٨٦٠م جيشاً لاحتلال لبنان دفاعاً ـ زعمت ـ عن الموارنة » .

يقول عن هذا الاحتلال : « كان لعنة في سورية ، فقد فتح الفرنسيون يومذاك في لبنان خمسين حانة ، وعدداً كبيراً من المشارب مما أدى إلى تفشي السُّكر إلى حدّ لم يكن من قبل معروفاً ، ثم زال الاحتلال الفرنسي ولكن سيئاته لم تزل تتنامىٰ وتفرّخ .

ولم يكن الإنجليز ـ وهم شركاء فرنسة في احتلال البلاد العربية وتهديم مقوماتها ـ بأقل ضرراً منها ، بل كانت إنجلترا أقدم عهداً في الإفساد الخلقي .

ففي عام ١٨٣٩م ثارت بين إنجلترا والصين (حرب الأفيون) المعروفة ، وذلك أن الشركات البريطانية بدأت تسرّب الأفيون ، وصارت ترسله سراً وجهراً إلى الصين ، ولما حاولت الصين منع دخوله حرصاً على صحة شعبها هبّت إنجلترا تحاربها ، وانتصرت واستولت على (هونغ كونغ) واستمر تسريب الأفيون إلى الصين حُكرة لإنجلترا وشركاتها منذ ذلك الوقت .

جلَت الجيوش الأجنبية ، واستقلت أقطارنا ، وخلّفت سلطات الاحتلال ـ في أكثر الأقطار ـ موالين لها ، يتابعون ولاءها ، واستصفاء مواردها وخيراتها ، وتسخير أهلها .

ثم قوي سلاح الإفساد وتنوعت ميادينه مع الأجهزة الحديثة في الإعلام ، من إذاعات مرئية ومسموعة[2] ، وبعد تعميم الملاهي وإغراء شبابنا بالخمر والعهر

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٩٩ .

(٢) كانت هذه الأجهزة مظنة أن تصلح كل ما أفسدت الإرساليات الأجنبية والاحتلال في ثقافتنا وأخلاقنا وحتى لغتنا . لكن بلاءها عمّ حتى ترحم الناس على عهود الاحتلال حين كانت مناعتنا قوية ، ونظرة=

والقمار ثم الحشيش . وتيسّر ذلك كله بكثرة بحيث لا يعجز عنها راغب .

قلت : إن هذه المقارنات :

١ ـ زيادة السكان في فلسطين المحتلة من كل أطراف الدنيا ، وبجميع الوسائل ، يقابله تسميم الأفكار عندنا بتحديد النسل .

٢ ـ أخذت الشعبية الصهيونية بالجد وإتقان فنون الحرب ، وكثرة التدريب ، يقابله إغراق العرب في الخمول والآفات الصحية والخلقية .

٣ ـ نشر العلمانية واللادينية في صفوف شبابنا ، يقابله بالمسيحية واليهودية في بلادنا وبلادهم .

تقوية اللغات الأجنبية لدى شبابنا ، يقابله إضعاف اللغة العربية دعائياً وعلمياً ، وإحياء لغة ميتة (العبرية) في داخل الأرض المحتلة حتى دُرّس بها الطب والعلوم في الجامعات العبرية ، يقابله إثقالهم لغتنا الحية بمشكلات مزعومة ، ومحاولة إغراقها بالعاميات الدارجة .

= واحدة إلى ما يزخر به الإعلام اليومي من تفاهات وابتذال باللهجات المحلية في كل قطر ، كاف ليوقن المرء أن الأصابع التي تنسق البرامج وتحقن الإذاعات بمذيعين من لون خاص يحركها جهاز تهديمي دوني ، وإلاّ فهل مصادفة أن يطغى نصيب اللهجات العامية سنة ١٩٧٦ عما كانت عليه سنة ١٩٠٠م على ما كان عليه الشعب من أمية .

إن كل ما تبذله وزارات التعليم والثقافة لترفع مستوى المواطن ثقافياً وعربياً ، وما يُشقى له المعلمون في المدارس من تهذيب وتعليم تهدمه الإذاعات المرئية والمسموعة هدماً ، وعهدي قبل ثلاثين سنة فقط بإذاعة دمشق أنها أرفع الإذاعات العربية مستوىً عربياً وثقافياً ، فإذا بها اليوم وكأنها إذاعة مالطية [هذا الكلام مضى عليه ربع قرن فماذا يقول لو نهض ليرى الفضائيات العربية عامة ـ والسورية خاصة وهي همنا ـ] .

وقل نحواً من هذا في الإذاعات ، ولعلّ إذاعة مصر ـ وقد ملأتها التفاهة والعامية ـ لا تقلّ انحداراً عن إذاعة دمشق .

إني أفهم أن تروّج الصّهيونية من إذاعاتها اللّهجات العامية السورية واللبنانية والعراقية والمصرية ، لأن في ذلك موتنا نحن وحياتها هي .

ولكنني لا أستسيغ أبداً هذه الرجعية التقهقرية ، وهذا الانتحار والتخريب نصنعه بأيدينا . أعود فأؤكد : أن يداً خفية تعمل ، فأين المنقذون ؟!

٥ ـ إلهاؤنا فكرياً ـ بالفولكلورات الشعبية التافهة التي تستنزف المال والوقت والجهد في غير طائل ، يقابله حصر اهتمامهم وإمكاناتهم المادية والفكرية فيما يعود عليهم بالنفع المحقق[(١)] .

هذه المفارقات الصارخة ـ بل والمخزية ـ بدأت تلفت النظر وتنبه الغافل ، وبدأنا نلمس وعياً في صحف ومجلات وكتب يصدرها مسؤولون واعون[(٢)] .

ويطيب لي عرض شكوى لباحث من الجيل الحديث (لا جيلي أنا) نشرها في مجلة سيّارة ، أقتطف نماذج منها :

● باعدت الصهيونية العالمية[(٣)] ـ بإغراء شبابنا ـ بينهم وبين أن يكونوا قادرين على الاهتداء إلى الحكمة ، وتمكنت أن تنشر بينهم نظريات الداروينية والماركسية والوجودية . . . من مذاهب يهود أو شبههم .

● استطاعت وسائل الإعلام الفضفاضة المترهّلة بتوجيه الصهيونية العالمية أن تخرج شباباً هشّاً فارغاً هائماً على وجهه ، دونما وعي أو أصالة أو انتماء .

● إن التلفاز العابث ، والمجلّة الهابطة ، والكتاب المسفّ ، والمذياع الماجن هي وسائل هدم وتخريب ، توجهها وتدعمها الصهيونية الهادفة إلى إشاعة الفساد والمجون والإباحية في أوساط الشباب ، لتظل اهتماماتهم هابطة ، وأهدافهم قميئة ، وأفكارهم متمرغة في أوحال النرجسية والوجودية والهيبية .

● أسباب أزمة الشباب الخلقية ، عوامل مباشرة هي الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام ، وغير مباشرة ، انعدام الوسائل التقنية ، وعدم توافر القدوة الصالحة ، والغزو الثقافي ، وحملات التشكيك الديني التي يمارسها بعض المفكرين .

---

(١) قلت : حتّى صار لكل مدينة مهرجانها الخاص الذي ترصد له الأموال الطائلة ، لإبراز الصبغة الشعبية (الفولكلورية) لكلّ منها ، وما زال البحث العلمي يتسكّع متسوّلاً النّزر اليسير ، كي يسهم في حركة التطوير والتحديث .

(٢) رحم الله أستاذنا ـ فقد كان من طبعه التفاؤل ـ فالمفارقات هي هي ، بل ما زالت تزيد عدداً وتتعمق أثراً . إلاّ أن يتداركنا الله ، ونعتصم بحبله .

(٣) أين دور أوربة وأمريكة ؟!

● حيث يمكن لهذا الشباب أن ينتمي إلى مجتمع كل ما عرفوه عنه أنه مجتمع متخلف بكل ما فيه من ماضٍ وقيم وتراث . إننا بحاجة إلى أن نبني تفكيرنا من جديد ، ونتخلى عن كثير من الأفكار التي ظننّاها من البدهيات ، واستسلمنا لها ، وروجنا لها في تعليمنا الابتدائي والثانوي والجامعي[١] .

وهذا نوع من الوعي والالتفات للنفس يبشر بخير ، ويدل على أن الضحية أخذت تتأبّىٰ على مفترسها ، والشعور بالألم أول طريق العافية .

تلك أنماط مما نتقلب فيه من الغزو الثقافي ، الذي شرُّ ما فيه أن كلاً منا ـ إذا دققنا النظر ـ يُعْمل في نفسه هذا السلاح الذي وصفوه على نحوٍ ما ، وهو لا يشعر .

أما الخلاص فلعل أولىٰ بوادره أن نعي ذواتنا ، ونعيد النظر فيما نحمل من سلوك وثقافة ومسلّمات ، ونلتفت إلى مقوماتنا التي زهّدونا فيها غشاً ومكراً ، فنعضّ عليها بالنواجذ ، ونطوع لها سلوكنا في الحياة نابذين ما فرض علينا من سلوك وقيم ، شاعرين أو غافلين ، مختارين أومسوقين .

إني أجد الدواء كاملاً فيما قاله الأديب الإنجليزي برناردشو لأحد المسلمين ـ وأرجو ألا يكون استشهادي مؤلماً ـ قال : « إننا اليوم أكثر إسلاماً من المسلمين أنفسهم ، ولا يعوزنا سوى الاسم ، لقد انتقلت محاسنكم إلينا ، وانتقلت مساوئنا إليكم[٢] وهذا الكلام حق ، ومن هنا يجب أن نبدأ التحرر مما أوقعونا فيه » .

---

(١) مجلة هدي الإسلام التي تصدرها وزارة الأوقاف الأردنية ص٨٩ العددان ٧ و٨ سنة ١٩٧٥م ، واسم الكتاب (الأزمة والعلاج) لمؤلفه الدكتور هاني عبد الرحمن .

(٢) مجلة العربي الكويتية ص١٣٨ ، العدد ٢٠٣ .
ولو قال : « لقد نقلنا » لكان الصواب .

كنوزنا في طريق الضياع

بحث تناول فيه أستاذنا كنوزنا المدفونة من المخطوطات العربية الثمينة ، في المكتبات عامة ، وفي مكتبات الحجاز خصوصاً . وحثّ على العناية بها والإفادة منها ، محذّراً من ضياعها .

نشر في مجلة الأزهر ، المجلد ١٣/ الجزء الثالث عام ١٩٥٩م .

بلغتُ دمشق بعد غياب أربعين يوماً في الحجاز ، وحططت عن كاهلي من مشاق الحياة هناك وتكاليف الإجراءات وعنتها في الإدارات والشركات ما كان أشد على النفس من حرّ الهواجر ولهيب الصخور المتوهجة ، وعانى غيري من الحجاج أكثر مما عانيت بكثير .

وواجب على كل عائد أن يلفت النظر إلىٰ بواعث الشكوى وما ينبغي بذله لإزالتها ، فإن الداء لا يذهب بالسكوت عليه ، بل برفع العقيرة وهز المسؤولين حتى يقوموا ببعض ما عليهم من الإصلاح ـ وهم عليه جد قادرين ـ فيعالجوا قضايا الحل والترحال وإقامة الحجاج بمكة ومنى وعرفات ، ببعض الرفق بالإنسان الذي تشتد حاجته هناك إلى ظل وماء غير مغلي وهواء غير ملوث ، كما يحسن أن نشعره أحياناً ـ ولو قليلة ـ بأنه شيء آخر غير كونه مستغلاً للمطوفين والموظفين والباعة والشركات .

وودت لو تفرغ بعض القادرين لعلاج هذه القضايا وأمثالها وبسط شكاوى مئات الألوف وعرض الحل . . . فإن للناس في المسؤولين هنالك آمالاً عراضاً في حسن الاستماع وسلوك الجادة متى وضحت لهم . ولقد بلغني أن مهرجانات دولية تقام في المدن الأوروبية فيبلغ زوارها في بعض الأحيان الملايين لا يضام منهم أحد في إقامة ولا تنقل ولا حصول على ما يجب له من غذاء ورعاية صحية ومسكن صالح وما إلى ذلك . . . ولولا أملي باستعداد العربية السعودية للخير لشايعت ظريفاً : مذهبه ألا

يحج حتى يدخل الألمان في الإسلام فينسقوا لنا شؤون الحج بما عرفوا به من عقلية منظمة لا يستعصي عليها شيء . وقد ـ والله ـ بالغ هذا الظريف في تشاؤمه ونسي أن النظام والنظافة والرفق بالناس معان إسلامية تحققت في المجتمع الإسلامي يوم كان الإسلام يحكم ، يعرف هذا كل منصف ألم بالتاريخ الإلمام الواعي .

وبعد : فليس حديثي اليوم متعلقاً بشيء من هذا ، لكنها كلمة على الهامش كما يقولون ، ولعل لي إليه رجعة ؛ فلآخذ الآن فيما أنا بسبيله ؟ .

* *

في الحجاز كنوز نادرة من تراثنا المجهول ، عليك لكي تتصوره أن تطرح عنك فكرة خاطئة تجعل الحجاز قطراً كهذه الأقطار التي تعرف : إقليماً محلياً يضطلع بالتبعة فيه مسؤولون محليون .

إنك اليوم تدرك أن عصبة الأمم لما كانت في (جنيف) جعلت من هذا البلد عاصمة للعالم كله ، وخرجت به عن بلد إقليمي من سويسرة إلى محط للأنظار من كل الأقطار ، إليه يتجه زعماء العالم لحل مشاكلهم وحوله تحوم أماني الشعوب قاطبة ، وذهبت عصبة الأمم ، وخلفتها هيئة الأمم المتحدة فنقلت هذا الاعتبار مضخماً مفخماً إلى نيويورك ، وأنت تذكر أفراداً ومؤسسات قدمت لهذه الهيئة ولتلك القديمة تبرعات سخية جداً .

تصور الآن أن الحجاز لبث أربعة عشر قرناً مهوى أفئدة العالم الإسلامي كله من الصين إلى المحيط الأطلسي ، وأن قدسيته في النفوس فوق ما لعصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة بكثير ، وأن هبات الأمراء والسلاطين والملوك والأثرياء تدفقت عليه من كل صوب لتنشئ فيه المدارس والمساجد والربط والزوايا والمكتبات العامة ، وتصلح الطرق وتسيل فيه المياه العذبة ، ثم حبَّست الأوقاف الدارة على هذه المؤسسات الخيرية والعلمية ، وأن أمنية المتمني أن يجاور في مكة أو المدينة فيختم حياته بالخير والصلاح في ديار مقدسة ، الحسنة فيها تفوق مثلها في غيرها أضعافاً مضاعفة فإن حظي بالدفن في البقيع فقد استوفى أمانيه كلها .

ثمة أمر آخر هام ، ذلك أن اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية الأولى

يكاد يكون ميدانها هذه البقاع التي كانت مجال الخطباء والشعراء والحكماء في الجاهلية ، ثم شهدت حياة الرسول وأصحابه ودولة الراشدين والأمويين والعباسيين منها صدر القواد والفاتحون والعلماء والقضاة والقراء والمحدثون والأمراء ، ثم حرص كل ذي سلطان فيما بعد أن يكون الحجاز في حوزته ليرضي طموحه ، ويستحق التبجيل في قلوب الناس ، والتاريخ يشهد أن سلاطين بني عثمان على سعة امبراطوريتهم لم يرض طموحهم أن ينعتوا : (ملك البرين والبحرين) حتى يضيفوا (وخادم الحرمين الشريفين)!! وليس في الحجاز بقعة إلا خلدها شاعر أو أديب أو خطيب أو إخباري ، أو شهدت حدثاً من أحداث التاريخ المشهورة ؛ فكان كل مسلم بل كل مثقف حريصاً على زيارتها ليستكمل استيعابه وفهمه لما قرأ .

هذه العالمية الموغلة في القدم المتفردة بالاستمرار تشرك دول العالم الإسلامي كله في التبعة ولا تجعل العربية السعودية وحدها المسؤولة عما حصل مما أقص عليك :

* *

حرص المحسنون في أقطار العالم الإسلامي على أن يهدوا أثمن ما يقدرون عليه من تحف إلى المدينة وحرمها ، وكان من ذلك نفائس الكتب : مخطوطها ومطبوعها . وقدسية المدينة وساكنها عليه الصلاة والسلام في نفوس الأمراء والعلماء والأثرياء حدتهم على أن يؤسسوا فيها دور العلم والعبادة ، وينشئوا المكتبات الفخمة ويزودوها بالنفائس من كتب العلم والمصاحف ، وبقيت المدينة عاصمة من عواصم العلم قروناً متطاولة ، يرحل إليها المتخصصون ليزيدوا علمهم ويتلقوا عن علمائها والعلماء المجاورين فيها وهم كثيرون من جميع الأقطار .

وحدثني خبير من أهل العلم بالمدينة أنه « كان فيها نحو (١٢٤) مكتبة موقوفة على القراء ، وأن الظاهر منها اليوم نحو (٨٠) فقط ، وفيها من النوادر ما لا يعرف خبره أحد لضنِّ أصحابها أو أمنائها بها على أنظار الناس ، بل لضنِّهم أحياناً بأخبارها على الأسماع .

فالمكتبة المحمودية كان فيها ـ على ما قال ـ نحو (٢٢) ألف مخطوط ؛ فلما

نقلت قبل هدم المدرسة المحمودية في مشروع توسيع الحرم وتفريغ ما حوله وكانت في الساحة الغربية منه ، لما نقلت إلى الحرم كانت دون (١٥) ألف كتاب .

ومكتبة الشيخ أحمد عارف حكمة ، فيها اليوم نحو (١١) ألف كتاب ، وكان فيها عشرون ألفاً ، ومكتبة عادل (العرفانية) فيها اليوم نحو (٨٠٠) كتاب وكان فيها (١٢٠٠) ، ومكتبة الحرم ليس فيها اليوم أكثر من (١٠) آلاف ، ومكتبة مظهر في رباط مظهر ، كان فيها أكثر من (٢٠) ألفاً أكثرها مخطوط وزعت على ثلاث غرف كبيرة والموجود منها اليوم لا يملأ الغرفة الواحدة وهلم جراً . . . هذا في مكتبات الوقف العام ، فأما مكتبات الوقف الخاص والمكتبات التي هي ملك خالص لأصحابها فلا تسل عما تسرب منها إلى خارج البلاد فذلك شيء يستعصي على الحصر » .

قد يكون في تقدير الشيخ المحدث شيء من المبالغة ومهما حذفت فإن ما يبقى كاف لأن يكون نذير الخطر على ثروة هي مفخرة تاريخنا وحضارتنا .

ولقد زرت بعض هذه المكتبات ولبثت فيها أياماً وأفدت منها :

فمكتبة شيخ الإسلام : أحمد عارف حكمة ، رحمه الله ، هي خيرها وأحفلها بالنفائس وأنظفها ، ولقيِّمها اليوم عناية مشكورة ، ولها فهارس منظمة على الفنون ، ولقد جلب لها واقفها ـ عليه رضوان الله ـ أجود ما قدر عليه من النسخ ، وأذكر أني طبعت العام الماضي (توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب)[1] عن نسخة ـ زعموا ـ فريدة في باريس معزواً للرماني ، ولم أعثر في فهارس المخطوطات المطبوعة على نسخة له ثانية ، ثم أخبرت بوجود نسخة في دار الكتب المصرية أجود من الباريسية دلت على أن اسم الكتاب (شرح الأبيات المشكلة الإعراب للحسن ابن أسد الفارقي) فبادرت بإلحاق بيان بنسخ الكتاب يصحح اسمه ونسبته ؛ فلما عرضت فهارس هذه المكتبة : مكتبة شيخ الإسلام وجدت له نسخة أصلية جيدة مشكولة كتبت سنة (٦٠٢هـ) ، فلو كان لها ذكر في فهرس من الفهارس المطبوعة لوفرت

---

(١) طبعته الجامعة السورية في مطبعتها سنة ١٩٠٨م .

عناء كثيراً وصانت من الخطأ ، وأغنت عن التصحيح . فهذا مثل واحد مما يضيع على الباحثين من إبقاء هذه المكتبات في عالم المجهول .

ومزية مخطوطات مكتبة (أحمد عارف حكمة) على أمثالها مما رأيت في مكتبات إنجلترة وفرنسة وإسبانية وتونس أن النسخة التي بها تفوق أمثالها في غيرها من المكتبات في الجودة والنفاسة والصحة غالباً . والظاهر أن صاحبها ـ وهو شيخ إسلام ـ تحرى أن يجعل فيها من كل كتاب أعلى نسخة ضبطاً وأناقة وأصالة ، وبذل في ذلك ما قدر عليه ، فجاءت مكتبة منتقاة تشبه في ندرة نسخها المتاحف . وقد رفق ـ رحمه الله ـ بالمطالعين فبنى المكتبة في رباط قبالة دار أبي أيوب الأنصاري ، ليس بينها وبين قبلة الحرم المدني غير الشارع ، جعلها في قاعة فسيحة تعلوها قبة جميلة على الطراز التركي البديع .

ورباط مظهر الذي قال محدثي «كان فيه أكثر من عشرين ألف كتاب أغلبها مخطوط» يقع في ناصية شارع حديث أوله شرقي الحرم وآخره قرب البقيع حيث بني الرباط واسعاً جميلاً يشرح الصدر ، ويقر العين ، تدخل إليه من دهليز يؤديك إلى صحن كبير تتوسطه حديقة فيها مجلس ، وقد حفت غرف المجاورين بالصحن من جهاته الأربع ، وفوقها طابقان يطل ممشى كل منهما على الصحن والحديقة ، والغرف تحف الممشى من خلفه . وفي الرباط نحو ستين غرفة ، أما المكتبة فحوتها غرفة كبيرة والكتب مكدسة في الخزائن يعلوها الغبار وتعيث فيها الإرضة لقلة من يطلب كتاباً في العام كله ، ولذا قل أن تفتح المكتبة . ولها فهرس على الفنون ، وفهرس للإعارة الخارجية التي أرادها الواقف ـ رحمه الله ـ نشراً للعلم وإعانة لطلابه .

أسس هذا الرباط أحمد مظهر المجددي من أسرة المجددي المعروفة في الأفغان[1] والهند ونسبها يتصل بعمر بن الخطاب (ويعرف أهل القاهرة منها الأستاذ محمد صادق المجددي سفير الأفغان في مصر سابقاً ، وهو اليوم مجاور في المدينة المنورة عاكف على العلم وعمل الخير) .

---

(١) عرفت بالعلم والصلاح منها العلامة المشهور شاه ولي الله الدهلوي صاحب التصانيف المشهورة والذي أحيا الله به وبأولاده السنة بالهند .

وقد رتب الواقف رحمه الله للرباط والمكتبة أوقافاً واسعة وحال الرباط اليوم صالحة في الجملة .

دخلت المكتبة أتصفح فهرسها المرقم وقد أعجبني أن الكتب مرتبة على هذه الأرقام بحيث كان استخراج المطلوب سهلاً على كل أحد ، وقد أحصيت ما في فهرسها فإذا هو لا يبلغ الألفين ، ولعلك لم تنس أن محدثي جاوز بمضمونها العشرين ألفاً ، وهاك بيان ما أحصيته :

٩٦ المصاحف .

٢٢٩ التفاسير .

٤٥٣ الحديث .

١٥ الفقه .

٤١٢ أصول الفقه .

٣٣٣ التصوف .

٢٢٥ السيرة .

١٧٢ النحو والصرف

١٩٣٥ المجموع

جلب انتباهي بقوة ودهشة في فهرسها هذه الجملة (تاريخ ابن شبة بخط مؤلفه ـ رقم ٤٥ سيرة) . فصحت أطلبه بلهفة عَجَّبَت مني رفيقي الشيخ الوقور صلاح الدين الزعيم ، إذ كانت وفاة ابن شبة في المائة الثالثة (٢٦٦هـ) .

فأي كنز هذا إذا كان جميعه بخط مؤلفه! ؟ .

فتش حفيد القيم وفتشت معه فوجدنا الأرقام التي قبله والتي بعده وأعجزنا هذا الرقم أن نجد له أثراً ، فلا تسل عن حسرتنا وأسفنا ، ثم رجوت الشاب النابه حفيد القيم أن يعيد التحري ؛ ويوسع دائرته ، ولو نبش المكتبة ورقة ورقة فوعد وكان لطيفاً أريحياً ولا عجب ، فهو حفيد من طابت نفسه للأمة بهذا الرباط المعجب ،

وتلك المكتبة الحافلة الثمينة .

وحدثت عشية اليوم نفسه صاحبي الخبير بما وقع لي فقال : « أرسلوا إلى القيم لا يتعب نفسه بالعبث فلن يجد الكتاب ، لقد أتلف عمداً » . فأنسانا والله بكلمته هذه ألم الحسرة وغصة الأسف وقلنا : « ما الخبر ؟ » فقال : « اطلع على هذه النسخة فلان قاضي القضاة (وسماه) وقد ذهب إلى ربه يحاسبه ، فرأى في أخبار الكتاب ما ظن أنه يخالف مذهبه الخاص في العقيدة ، فاستعار النسخة فأتلفها ولما أبطأت العارية على القيم ذهب يطالبه المرة تلو المرة وهو يتعلل ثم ادعى ضياعها ، وكان القيم رجلاً كل الرجل ـ وهو اليوم جليس فراشه في المئة والعشرين من سنه ـ عافاه الله ـ فشكاه إلى الملك الراحل عبد العزيز بن سعود رحمه الله فأرسل إلى القاضي فحضر فعاتبه على المطل وسأله عن الكتاب فأقر بإتلافه وأنه تقرب بذلك إلى الله!! » .

ثم قص صاحبي قصصاً عن مخطوطات نفيسة تسربت إلى الهند ولندن وغيرهما على يد سماسرة أو أجانب يدعون الإسلام ، وآخر ما عرف خبره (مسند عمر بن عبد العزيز) كان في إحدى مكتبات المدينة ، وكان يتردد عليها هندي عليه سيما الصالحين يطالع فيها ويستعير منها ويرد ما استعار حتى ألفوا ذلك منه ثم خفي عن الأنظار ، وبعد مدة عرف أن المسند مفقود . قال الشيخ : « وقبل أشهر كنت أستمع إلى برنامج إذاعة لندن فكان إحدى مواده : حديث لفلان : كيف وصلت مخطوطة مسند عمر بن عبد العزيز إلى المتحف البريطاني بطريقة عجيبة!! » .

هذا في المكتبات العامة الموقوفة وقفاً حراً ، فأما ما اشترط فيه أن يكون القيم من ذرية الواقف وما كان ملكاً خالصاً فخبره أعجب والأمر فيه أدهى وأمر . وقد زرت إحدى هذه المكتبات الخاصة وهي المكتبة العلمية البساطية لآل البساطي ، فذكر لي قيمها أن فيها ثمانية آلاف كتاب ٩٠٪ منها مخطوط . ولعله ظن بادي الرأي أننا من شراة النفائس فذكر لنا أن عنده نوادر ثمينة جداً منها تذكرة الصلاح الصفدي بخطه ، فلما دهشنا متسائلين : « بخطه ؟! » قال : « نعم » ثم أرانا بعض النفائس الشكلية وتبادلناحديثاً عرف منه أننا طلاب علم هواة لا شراة ، فلما طلبنا رؤية تذكرة

الصلاح الصفدي تعلل بصعوبة الوصول إليه الآن ولم نظفر برؤيته . والحال فيما لم نطلع عليه من المكتبات العامة والخاصة كحال ما اطلعنا عليه .

أعود الآن بعد هذا السرد إلى حيث بدأت ، فإذا كان في المدينة (١٢٤) مكتبة لا يظهر منها اليوم إلا نحو (٨٠) على ما قال محدّثي ، وكان ما تحتويه آخذاً في التسرب والضياع فما الواجب علينا نحو تراثنا وحضارتنا وثقافتنا ؟ ولا أقول نحو ديننا .

إن ما رأيته بعيني في المكتبات التي أتيح لي زيارتها في مكة والمدينة يعصر العين ويملأ القلب أسى وحسرة ، فالدود والأَرَضةُ من تحت التراب المتراكم تعيث في هذه الكنوز ، وما كان منها بمنجاة من ذلك كمكتبة أحمد عارف حكمة فإلى حد ، والكثرة الكاثرة من المخطوطات تتآكل وتبلى ولينظر من شاء على سبيل المثال في مستودعات المكتبة في الحرم المكي وفي رباط مظهر . أعتقد أن الداء الآن وضح للعيان ، فتراثنا في الحجاز عرضة لعدوين لدودين لا يألوان فيه فتكاً بالليل والنهار على مر السنين وهما الدود والتهريب .

أما العلاج فسهل يسير ينحصر في أمرين أيضاً :

أولهما : ضم هذه المكتبات كلها في دار واحدة ، والحكومة العربية السعودية التي لها بكل ريع آية ، لا تعجز عن إقامة مبنى مستقل لائق يتسع لضم هذه المكتبات الثمانين الباقية ، والتعويض على أصحاب المكتبات الخاصة منها ، ثم العهد بإدارة هذه المصلحة إلى عالم حازم خبير غيور ، وعندنا منهم عدد غير قليل بحمد الله وتستطيع أن تستعين ببعض ذوي الخبرة على تدريب شباب الحجاز المثقفين وإرسال نفر منهم إلى حيث يتلقون فن المكتبات في الغرب أو الشرق[١] . وقد دللت على

---

(١) لم أجد فيما دخلت من مكتبات عامة في أوربة وشمالي إفريقية مكتبة افتنّ مديرها بتنظيم فهارسها أفانين كدار الكتب العامة في تونس ، فإن اجتماعاً واحداً بمديرها الأستاذ الجليل العالم السيد عثمان الكعاك وحواراً معه في دار الكتب يشرح لك تنظيماتها تجعلك في هذا الفن ـ إن كان لديك استعداد ـ كأحسن ما يتخرج عليه متخرج من معاهد هذا الشأن من الناحية العلمية على الأقل . ونحن في دمشق أنفقنا أموالاً طائلة فأرسلنا موفدين لذلك إلى فرنسة فلم نحصل إلا على شهاداتهم ، وذهبت الأموال=

مبنى يقام الآن قبل الحرم المدني ، قالوا : إن النية أن يكون صحنه مكتبة وبعضه محكمة وبعضه دار! وهذا تضييع للمصالح الثلاث ، فالمبنى كله بطوابقه لا يكاد يتسع للمكتبة العامة كما أتصورها إذ تحتاج إلى بقعة أبسط[1] تدور بها الشوارع وتخصص فيها قاعات فساح للخزائن وقاعة الفهارس المختلفة ، ثم قاعات لمختلف طبقات المطالعين ، وقاعة للإدارة ، وأخرى لأجهزة التصوير ، وقاعة للنسخ ، وأخرى للعرض . . . إلخ .

وأمر هام لا يفطن إليه إلا الأقلون وهو أن محتويات هذه الدار ـ متى نشرت في فهرس وافٍ على دور العلم والجامعات والعلماء ـ ستكون فريدة في العالم ، وستتكاثر عليها طلبات النسخ والتصوير ، وزيارات البعثات من الدارسين والباحثين بحيث تصبح كعبة علمية للقصاد من كل ملة ونحلة ، وتكون مركزاً من مراكز الإشعاع العلمي في العالم كله .

أما ثانيهما فالحزم يقضي بالإسراع فيه منذ هذه اللحظة بأن تقوم الحكومة بإحصاء ما في المكتبات الخاصة والعامة دون استثناء مع وصف واف لكلٍّ نسخة ، ومتى استنفرت معلمي المدينة مثلاً فوزعتهم على المكتبات الخاصّة أولاً فأحصوا ما فيها من كل مخطوط ذاكرين اسم الكتاب وفنه ومؤلفه وعدد أوراقه وتاريخ نسخه ثم صفة المجلد عامة ، رجونا أن ينتهي الإحصاء في شهرين ثم يطبع الفهرس طبعة مؤقتة إلى أن ينتهي ضم المكتبات في دار عامة فيشرع حينئذ في تنظيم فهرس مفصل واف مصور لها .

والإسراع بالإحصاء والطبع المؤقت يضع حداً للتهريب على الأقل ، فإن فقدت نسخة من كتاب فيما بعد كان القيم أو المالك مسؤولاً عنها لأن إثباتها في فهرس مطبوع منشور على الناس داع إلى طلبها ومعرفة موطنها . ولو أن هذا أخذ به قبل مئة عام ما تسرب من الحجاز ما تسرب ولبقي هذا الذخر المبعثر اليوم في المتاحف

= بدداً ، ولو كانت الجامعة العربية تسن قانوناً بمصادرة النافعين لاقترحت عليها أن تصادر السيد عثمان الكعاك سنة في كل قطر عربي وعشر سنين في الحجاز .

(١) لا تقل عن مساحة قصر من القصور الملكية بحدائقه وتوابعه .

والمكاتب الأوربية والأمريكية والهندية مصوناً في موطنه مفخر الأجيال ومثلاً من تراث حضارة ما رأى الناس مثلها .

هذه كلمة عجلى أرسلها على صفحات مجلة (الأزهر) ذات الصبغة العالمية ليضع المسؤولون حداً لجرائم شنيعة مثلت على أقدس حرم سنين طوالاً ، وهي مستمرة حتى الآن في الخفاء . ومع أن التاريخ لا يعرف حضارة أمجد من حضارة الإسلام ولا سلفاً أنبل إنسانية من سلفنا ، فإنه أيضاً لا يعرف خلفاً فرط بمقدساته وعبث بها تفريطنا وعبثنا .

ومن التناقض البين والمفارقة الصارخة أن تكون قصور المسؤولين المبعثرة في كل بقعة ، في اتساعها وفخامة بنيانها ونضرة حدائقها الفسيحة وأناقة أثاثها ورياشها وما ينفق عليها ، أن يكون كل ذلك على ما تعجز عن النفقة على مثله حكومات أوروبة وأمريكا اليوم بل بعد عشرات السنين ، ثم يعيش تراثنا العلمي في خانات متخلفة من مئات السنين تحت الغبار يعيث فيها الدود وينهبها جياع النفوس . إنه ظلم ما بعده ظلم أن يحيا المسؤولون (في القرن الحادي والعشرين (العشرين) تكاد تنقلاتهم لأتفه الأسباب تكون بالصواريخ سرعة ببذخهم ، وتعاني المكتبات الموت الحثيث في عصور الظلمات ، فإن فُكِّر في بصيص من الإصلاح كان أبطأ من سير السلاحف في عصر لا ينعم بخيره متوان .

إن هذه الكنوز المشرفة على البوار أبقى لكم ـ إن عنيتم بها العناية الكافية ـ من ثروات البترول ومناجم الذهب التي لم تفد البلاد شيئاً مع سوء التصرف ، وربحها على كل حال إلى نفاد . أما ربح تلك فيزداد على كثرة الإنفاق باطراد فيا أيها المسؤولون هذه نفثة نذير ، وإني قد بلغت . اللهم اشهد .

أضرار التشجيع

مقالة يتحدث فيها الأستاذ عما يجرّه تشجيع المتأدبين والمتسلّقين على الأدب واللغة من ويلات ، عندما لا يكون التشجيع في موضعه .
نشرت في مجلة الرسالة ، العدد ٣٦٦/ عام ١٩٤٠م

إن من عادتي إذا حل الصيف ونفضت عني عناء التدريس وذيوله من امتحانات ومراقبات أن أفيء إلى قاعة المجمع العلمي العربي ، فأسرّح الطرف بما يرد إليها من الكتب والمجلات الغربية . وكان أن وقع في يدي عدد من مجلة (العصبة)(١) الصادرة في المهجر ، فطفقت أطالع فيها ، فوقفت عند هذا العنوان « ذلك الأمي اليتيم . بحث أدبي لا ديني » وإذا بالكاتب يسيء فهم النصوص ، ويغمز الأئمة الذين أجمعوا على أمية الرسول ﷺ منذ صدر الإسلام حتى يوم الناس هذا ، ويعجب من غفلتهم ، ثم يتلطّف بهم ويعتذر لهم بأن الخطأ أتاهم من حيث أن النبي كان أمياً ثم زالت أميته!

يتساءل حضرته : هل زالت عنه الأمية كما زال عنه اليتم بعد أن تقدمت به السن ؟ هل تعلّم القراءة ؟ (وهو يعني طبعاً القراءة في المصحف التي لا يعرفها إلا من تعلمها مع الكتابة تعلماً) . ثم قال : « نجيب بكل جرأة (هكذا والله بالحرف) إنه تعلمها وبز الأولين والآخرين! » انتهى وما شاء الله كان ويأبى بعد ذلك إلا أن يسرد ما يراه حججاً من مثل : « أنا أفصح من نطق بالضاد » ، « أنا مدينة العلم . . . » ، « اطلبوا العلم . . . » ، ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ٩٦/١] .

لست أريد الرد على هذا الكلام ولا أنا بصدد شرح أمية الرسول فمن العبث المخجل أن أشغلَ القراء بما هو معلوم من التاريخ بالضرورة ، وإن مما يفهمه

---

(١) العدد (٢٢١) السنة السادسة س٩٢ .

الصغير قبل الكبير أن القراءة معناها مطلق التلاوة ، و(اقرأ) الواردة في الآية معناها (اتْلُ) عن ظهر قلب لا أن يسرد ما في صحيفة أو كتاب . وإن حض الرسول على طلب العلم ، وكونه أعلم الناس لا ينافي أميته ، وكل ما في الأمر أن هذا الناشئ جهل الفرق المقرر بين (الأمية) و(العامية) فتوهم تناقضاً بين النصوص ، وأن هذا التناقض عمي عنه الأولون والآخرون حتى طلع حضرته ببصيرته النافذة ونظره الثاقب فأزال لبسه وحل تناقضه بقوله : كان أمياً ثم تعلم وزالت أميته . دع عنك ما يعرفه كل مطلع على سيرة النبي من اتخاذه كتاب الوحي ، ومن استعماله الرجال ليكتبوا عنه إلى الملوك ، ومن الحادث المشهور في الحديبية حين سأل علياً عن مكان كلمتي (رسول الله) من الصحيفة ليمحوها بيده الشريفة ، إذ أصر رسول المشركين على محوها وامتنع علي . . . إلى آخر القرائن التي لو لم يكن غيرها لما ساغ لأحد عنده شيء من الفهم أن يذهب إلى نفي أميته ، فكيف ونصوص القرآن نفسها مصرحة بأميته في آيات مكية ومدنية ، ولو لم يكن إلا هذا التواتر الصارخ لكان لعاقل أن يتهم عقله إذا تطرق إليه في هذا الأمر شك مهما ضؤل .

أم كان من الحتم إذا قرر كاتب أن بحثه غير ديني أن يركب رأسه فيه فينقض المبرم ويبرم المنقوض ، ضارباً بالعلم والتاريخ واللغة والمنطق والعقل عرض الحائط : يأخذ ما شاء ويدع ما شاء ويستنبط ما شاء ، كيف شاء بلا سناد من برهان ولا رابط من فهم ولا ضابط من منطق .

* *

أنا لا أشك في أن إفساح مجلة (العصبة) صدرها لمثل هذه الآراء الفطيرة ضرب من التشجيع ، وأننا باسم هذا التشجيع نُقذي عيون القراء بما يزهدهم في سمين الأدب تحامياً لغثه .

وقد آن للمفكرين أن يوازنوا بين مساوئ التشجيع وما يذكر من حسناته ، حتى إذا رأوا الشر فيه أربى على الخير نبذوه غير مأسوف عليه .

على أن أول الأضرار حائق بالذين نشجعهم : لأن أحدهم حين يرى سخفه مذيلاً باسمه في صحيفة سيارة ، يداخله من الصلف والغرور ما لا يقوّمه مهذب بتهذيبه ولا

ناصح بنصحه ، ثم يترفع بعد هذا عن كل درس ومطالعة ، ذاهباً إلى أنه شب عن الطوق وأن بوسعه أن يأتي بخير مما في الكتب ، فقد صار كاتباً نحريراً وأديباً كبيراً ؛ وهذا ما يعوق كثيراً من ناشئتنا عن التعلم والتأدب الصحيحين ، وهو هو ما يشكو تفشيه فيهم كثير من العقلاء .

لست أنكر أن التشجيع قد يكشف عن بعض المواهب ، ويسلك بها السبل المجدية التي تؤتي فيها أكلها ، لكنه إلى ذلك يدفع إلى الحياة بخلق كثير من أنصاف العوام الذين انتفخوا غروراً واعتداداً وكانت أنوفهم في السماء وهممهم في الحضيض وقلوبهم هواء .

ولأن نصد بتثبيطنا اثنين أو ثلاثة نأمل فيهم النجاح خير لنا وأبقى من أن نفتح الباب على مصراعيه فنشجع كل جاهل دعي وغبي ، ونملأ صحفنا ومجلاتنا جهلاً وسخفاً ونعيش في جو يشيع غثاثة وابتذالاً .

وبعد فماذا على المرء أستاذاً كان أم أديباً أم صاحب صحيفة ، إذا قال للشادي : يا بني تحتاج إلى أن تتعلم كثيراً وتتعب طويلاً قبل أن تحدثك نفسك بدفع ما تخط إلى المطابع ؟

وإذا كان في كل حكومة إدارة خاصة لمراقبة المطبوعات من الناحية السياسية ، فلم لا يكون في كل إدارة جريدة ومجلة وفي كل مطبعة مراقبة فنية دقيقة ترفض كل رخيص مبتذل من المقالات ؟

إن من الواجب على المطابع أن تكف عن طبع كل كتاب ليس فيه سد ثغرة في المكتبة العربية أو إضافة خير أو إحياء تراث قيم . . . وحينئذ يستريح الناس من هذا الهِتْر الذي تدفعه المطابع إلى الأسواق حتى سَئِمَتْ النفوس الكتب والمجلات لما في أكثرها من غثاء وهزال .

والحاجة إلى هذه المراقبة أمسّ لأن فيها وقاية للملكات من الابتذال والركاكة والفساد ، وذلك أجدى على الثقافة من كثرة المعاهد والكليات ، إذ إن الصحف والمجلات والكتب مدارس ميسرة لكل قارئ مهما ضؤل حظه من المعرفة . ومن

أول الواجبات على هذه المدارس العامة أن تكون رافعة لمستوى قارئها لا خافضة له .

* *

في الأقطار العربية ظاهرة ثانية للتشجيع المجرم لا تقل عن هذه فتكاً ونكاية ، وليس بناصح من عرف موطن الداء فلم يدل عليه مجاملة أو إشفاقاً . عنينا بهذه الظاهرة داء الشهادات التي يحصل عليها حاملها بأرخص ثمن وأيسر سبيل .

ومع أني أعرف أن الجامعات ليست سواء في التساهل (أو الغش إذا شئت الصراحة) أعرف كذلك أن بعضها قد تدنى ـ وخاصة مع الغرباء ـ إلى درجة لا يصح السكوت عليها ، بل يجب على كل حكومة تحررت من أن يفرض على مصالحها هؤلاء المزورون فرضاً ـ أن ترفض هذا الضرب من الشهادات صيانة لمصالحها من عبث الجاهلين وحفظاً للأمة أن تنحدر إلى الهاوية إذا تولى أمورها المدلسون .

يذهب الشاب العربي إلى إحدى ممالك أوربة ، فلا يكاد يهبط عاصمتها حتى تراه مهرولاً إلى مكتبة مشهورة أُعطي عنوانها قبل سفره ، فيقفها على أن مراده الحصول على شهادة (الدكتوراة) فتتفق معه على مئات من الفرنكات تتناسب هي وعدد الصفحات المطلوبة ، فتجمعه بأحد عملائها من الأساتذة الذين يرتزقون من التزوير ، فيكتب له الأطروحة ويعلمه إياها تعليماً ، ويقومان معاً بتجربة المناقشة ، ثم يتقدّم بها الطالب إلى الجامعة فيفوز بالشهادة ومعه درجة (مشرف جداً tres honorable) ويعود إلى بلاده فيعهد إليه بمنصب علمي أو إداري يشرف منه على كثير من المتعلمين ليس فيهم إلا من هو أعلم منه ومن أستاذه وأشرف .

وقد بلغت الوقاحة ببعض الجامعات أن تعطي الدكتوراه لمن قدم إليها أطروحته بلغة يجهلها هو كل الجهل . فإذا أنت عجبت لهذه الجامعة كيف تترخص هذا الترخص ، وهي في أرقى البلاد المتمدنة ، أجابك المنافحون عنها : إن هذا شأنها مع الغرباء فقط ، وهو من قبيل التشجيع لا غير ، وليس على الجامعة من ضير ، لأن هذا الجاهل لن يضر وطن الجامعة ، وإنما الضرر منه على وطن آخر قد تكون سياسة الدولة التي تنتسب إليها الجامعة تتعمد هذا الإضرار تعمداً . والأمر بعد هذا على

شاكلة كل البضائع المغشوشة التي تصدر هناك ، ويكتب عليها : « بضاعة للتصدير إلى الخارج » .

ولست أدري ، هل في هذا الذي ذكروا ما يبرر الغش والتزوير ؟ وهل يستبيح العلم تسمية الجاهلين علماء لوجه التشجيع فقط ؟

ولما رأى الكثيرون هذه السبيل المعبدة لنيل الشهادات تهافتوا عليها وهجروا الطرق المشروعة من التعلم الصحيح والدأب المتواصل والعمل الجاهد ؛ وصار الذي يطلب الشهادة من طريقها الحلال مثلاً شروداً بين أصحابه في الغفلة والغباء .

ألا أخبرك ، يا سيدي القارئ ، بأشد من ذلك كله وأنكى ؟ أتريد أن تعرف كيف آل الأمر بهذا التشجيع ؟ فاستمع إذن لما أقصه عليك :

لقيني منذ سنوات خمسٍ شابٌّ من حملة (الليسانس) هبط دمشق فجال جولة في أروقة الحكومة فيها ، وتكفل دهاؤه وشطارته ووسائطه أن يعهدوا إليه بتدريس اللغة العربية في إحدى مدارسها . فبعد أن عرفني بنفسه بلطف متناه واحترام قلبي ، حذَّرني بمجاملته الساحرة ، ثم قال :

إن أولى أمانيه في مجيئه إلى دمشق أن يجد السبيل لإنقاذ مخطوط عربي نفيس من الضياع ، وإنه لقي كثيراً من علماء العاصمة وأدبائها ، وارتاد أبهاءها الثقافية (صالوناتها) ، متعرفاً لرجالاتها ، ثم خاطبهم بمراده ، فكلهم أشار عليه بأن يلقاني . . . وإن الغيرة على العلم والأدب هي التي تحفزه لهذا الأمر الجُسام ، وهو مستعد أن ينفق على مشروعه النفقات الباهظة . . . وليس يعوزه إلا أستاذ ضليع محقق . . . عنده من الغيرة على لغة العرب وتراثها ما يستحلي من أجله كل صاب وعلقم . . . وإنه يحمد الله على أن هداه إليَّ ووفقه إلى إنجاح المسعى بي . . . إلخ .

كل ذلك يقوله بنبرة متحمسة ولهجة عصبية تعطف عليه الصخر الأصم . ولم يكن من هذا العاجز إلا أن وقع في الشراك قائلاً في نفسه : إن من الفرض على المرء أن يشجع من نصب نفسه لخدمة العلم مهما كلفه التشجيع من الجهد والوقت .

وعدته أن أهب له فراغي الوحيد كل أربعاء من الصباح حتى الظهر ، ولبثت على

ذلك حتى انتهى العام المدرسي : يقرأ عليّ في قاعة المكتبة الظاهرية نسخته التي نسخها بمصر من كتاب (سر الصناعة لابن جني) وبيدي النسخة الخطية التي تملكها دار الكتب الظاهرية من هذا الكتاب ، وأنا أصحح وأقابل وأضبط وأعلق وأرجع إلى مصادر كثيرة في القاعة وهو يكتب ما أملي عليه . فما سلخنا العام حتى أتممنا من العمل قسماً صالحاً لست أدري مقداره الآن بالضبط ، ولكن الخطة شرعت والعمل وضح ، والعقبات اجتيزت ، والحزون سهلت ، وبقي من العمل ما لا خطر له . كل ذلك على ملأ من الناس ، وعلى عين من موظفي المكتبة ومناوليها وروادها ، لأن قانون دار الكتب يحظر إخراج المخطوط منها تحظيراً باتاً .

ثم تعاقبت الأيام يلقاني فيهن هذا الشاب كلما هبط دمشق بظاهرة حافلة من البشاشة والشوق والتعظيم والاحترام . . . إلا أنه لا يذكر الكتاب بحرف طول هذه المدة ، فظننت أنه ناء بالمشروع وعجز عن نفقاته فأهمله لسوء حاله ، ولم أجد من المروءة أن أنكأ فيه جرحاً دامِلاً . . . وكرت الشهور وإذا بي أجد في دار الكتب قبل شهرين رسالة صغيرة بالفرنسية نال بها هذا الشاطر الدكتوراه ، بعد أن عرضها ـ فيما بلغني ـ بالعربية على الجامعة المصرية فلم تر شيئاً فرفضتها . قلبت الورقة الأولى من الرسالة فإذا خلفها : (سيصدر للمؤلف بالعربية : كتاب سر الصناعة لابن جني) فدار رأسي والله ، لا حسرة على الوقت الضائع والجهد المسروق ، ولا خشية أن يكون عبث بالعمل فأفسده ثم هيأه للطبع ، ولكن فوجئت بما لم أكن أتصور أن الحياة تنطوي عليه من وقاحة وصفاقة ، وعرفت أن ذلك التهافت من شبابنا على نيل الشهادات بأرخص الوسائل وأبعدها عن الشرف ، قد دخل في طور آخر أدنى وأحط ، هو ما قصصت عليك من أمر هذا الشاب .

وعلم موظفو المكتبة بالأمر فتعجبوا وشُدهوا وقال أحدهم : « هلا انتظر هذا المزور موت الشهود عليه وهم كثير » . ثم بلغني أنه يريد أن يتقدم بهذا الكتاب إلى الجامعة المصرية لنيل دكتوراه ثانية ؛ فهان الأمر عليّ لأن أقل مناقشة من أساتذة الجامعة المختصين في موضوع الكتاب وتعليقاته تطلعهم على التزوير فيه وعلى أن البضاعة المعروضة هي لغير عارضها .

أحسب والله أن هذا الشاب ـ ولعل أمثاله في المجتمع كثيرون ـ لا يرى أنه أتىٰ أمراً إدًّاً ، وأنه فعل فعله أكثر من سبقوه بنيل الدكتوراة من بعض الجامعات الأجنبية ، ففيم يفرد دونهم باللوم ؟

وإذا كان أولئك الدكاتير نقدوا من صنع لهم أطاريحهم المئات من الفرنكات فلأن هؤلاء الصانعين غربيون ماديون مرتزقون ؛ وأساتذة دمشق بحمد الله مثاليون يحتقرون المادة ، وحسب أحدهم من تعب السنين وسهر الليالي أن ينقذ تراثاً من الضياع وليس يهمه أن ينسب إلى سواه .

* *

وبعد فهذه أنماط مختلفة من أضرار التشجيع ، عرضتها ليعالجها وأمثالها المطلعون من الكتاب ، حتى يحذرها الناس .

وإن أختم بشيء فهو قولي للمسؤولين من علماء وأدباء وأصحاب صحف ومجلات ورجال جامعات :

احرصوا على تثبيط الدجّالين والمغرورين حرصكم على تشجيع الأكفياء الصالحين ، وما أنتظر لكم من ثواب الله وشكر العلم وامتنان الناس على تثبيط الأولين أضعاف مالكم على تشجيع الآخرين .

وإذا لقيتم هذا الضرب الوبيل من الناس وجاؤوكم بغشهم وتزويرهم وغرورهم وجهلهم ، فثبّطوا ثم ثبطوا ثم ثبطوا .

الكتاب السادس
بوح الوجدان

من مشاهد عكاظ المؤثرة

مقالة يعرض أستاذنا فيها بعض المشاهد من أسواق العرب ، نشرتها مجلة الرسالة في العدد ٢٠٣ لعام ١٩٣٧م وهي في كتاب (أسواق العرب) لأستاذنا الجليل .

استيقظت مكة ذات صباح ، بعد عام الفيل بأربعين ، على جرس حلو ساحر ، يرسله محمد الأمين داعياً قومه إلى الله وحده ، وأن ينبذوا ما هم فيه من عبادة أصنام ، ووأد بنات ، وقتل أولاد ، وأن يقبلوا على ما يشيع فيهم المحبة والسعادة ويوطد لهم المجد والعزة في العالمين .

استمع مشركو مكة إلى هذا الرجل الذي كان حبيباً إلى قلوبهم ، عظيم المنزلة في صدورهم ، مضرب المثل بينهم في علو الخلق وطهارة السيرة وصفاء السريرة ، فنظر بعض إلى بعض مكبرين ما أتى به ابن عبد المطلب سيد فتيان هاشم ورجل مكة المنتظر .

ونزت في تلك الرؤوس حمية جاهلية استعصى قيادها على البيان الساحر ، والعقل الوافر ، والحرص المخلص ، فعظم عليها أن تترك ما ألفت ، وتألبت قوى أهل مكة جيوشاً متضافرة تكيد لهذا الداعي إلى الخير ، ولأولئك القانتين المخبتين من الضعفاء والنساء والصبيان ، الذين ملكت عليهم الدعوة الجديدة شعورهم وتغلغل صوت لا إله إلا الله في أعماق نفوسهم فصفاها وأخلصها ، ليكون منها الهدف الأول الذي يصمد في سبيل العقيدة الحق للأذى والتشريد والتجويع والتعذيب بصبر عجيب ، وإيمان صليب ، واغتباط متزايد ، كأنما يجدون في هذه الآلام نعيماً ولذائذ . فكانت مصابرتهم وثباتهم خير ما ضمن نجاح الدعوة وتقاطر الناس عليها فيما بعد .

إلا أن الأذية عظمت ، وأبى المشركون إلا إصراراً واستكباراً وصداً عن سبيل الله من آمن به ، وكادت تتسرب شوائب من اليأس إلى بعض تلك النفوس العظيمة ،

لولا بارقة أمل لاحت لهم من قصد قبائل العرب بالمواسم في عكاظ ومجنة وذي المجاز .

* *

وقف رسول الله ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنين في عكاظ ، يدعو الناس إلى الخير والهدى والسعادة . وقد لزمه منذ قيامه بالدعوة حزن عميق على قومه الذين كفروا بنعمة الله ، وآلمه ألا يراهم مسارعين إلى ما به صلاحهم . فعزم ليقصدن المواسم وليأتينَّ فيها القبائل ، كل قبيلة بمنزلها ، وكل جماعة في حيهم ، يعرض عليهم هذا الدين الجديد . ولقد حرص الحرص كله على أن يهتدوا ، وكان أسفه يشتد كلما ألح قومه بالصد .

قام في عكاظ يقول :

« يا أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا » .

ويتبعه رجل له غديرتان كأن وجهه الذهب وهو يقول : « يا أيها الناس ، إن هذا ابن أخي ، وهو كذاب فاحذروه . . . . » .

فعرف الناس أن هذا (الصاد عن سبيل الله) هو عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، ويكذبه كلما قال كلمة الحق .

عاود الرسول الدعوة مراراً فلم يجب ولم ييأس ، ورجا أن يجد فيهم الحامي والمجير على الأقل إذ لم يجد المجيب ، فكان يقول للحي في موسم عكاظ :

« لا أكره منكم أحداً على شيء : من رضي الذي أدعوه إليه قبله ، ومن كرهه لم أكرهه ؛ إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي من القتل : فتحوزوني حتى أبلّغ رسالات ربي ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء »[١] .

كان الناس يعجبون من أمره وأمر عمه ، وهم بين راض وغاضب ، ومتعجب يرى بعينه ثم يمضي كأن الأمر لا يهمه . منهم من لا ينكر ما يسمع ؛ ومنهم من يرد أقبح الرد ، ومنهم من يقول : قومه أعلم به .

---

(١) دلائل النبوة ص١٠٢ .

كان هذا دأبه أبداً ، يوافي به القبائل سنة بعد سنة ، حتى إن منهم من قال له : « أيها الرجل ، أما آن لك أن تيأس ؟ » من طول ما يعرض نفسه عليهم .

* *

انتهى رسول الله في تطوافه على القبائل في عكاظ ، إلى بني محارب ابن خصفة ، فوجد فيهم شيخاً ابن عشرين ومئة سنة ، فكلمه ودعاه إلى الإسلام وأن يمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ؛ فقال الشيخ : « أيها الرجل قومك أعلم بنبئك . والله لا يؤوب بك رجل إلى أهله إلا آب بشر ما يؤوب به أهل الموسم ، فأغبن عنا نفسك » وإن أبا لهب لقائم يسمع كلام المحاربي .

ثم وقف أبو لهب على المحاربي فقال :

« ولو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه ، إنه صابئ كذاب » .

قال المحاربي : « أنت والله أعرف به . هو ابن أخيك ولحمك » .

ثم قال : « ولعل به يا أبا عتبة لمماً ، فإن معنا رجلاً من الحي يهتدي لعلاجه » . فلم يرجع أبو لهب بشيء[1] .

روى عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا :

أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال :

ـ ممن القوم ؟

قلنا : من بني عامر بن صعصعة .

ـ من أي بني عامر ؟

ـ بنو كعب بن ربيعة .

ـ كيف المنعة فيكم ؟

ـ لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا .

---

(١) المصدر نفسه ص١٠١ .

فقال : إني رسول الله ، فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء ؟

قالوا : ـ ومن أي قريش أنت ؟

ـ من بني عبد المطلب .

ـ فأين أنت من بني عبد مناف ؟

هم أول من كذبني وطردني

قالوا : ـ ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ، ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك » .

فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري فقال :

ـ من هذا الذي أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : ـ هذا محمد بن عبد الله القرشي .

ـ ما لكم وله ؟

ـ زعم لنا أنه رسول الله ، يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .

ـ فماذا رددتم عليه ؟

ـ قلنا في الرحب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع أنفسنا .

قال بجرة : ـ ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به . بدأتم لتنابذكم الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة . قومه أعلم به ، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به . تعهدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذّبوه فتؤوونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيتم .

ثم أقبل على رسول الله فقال : « قم الحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك » .

فقام رسول الله ﷺ إلى ناقته فركبها ، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها فقلصت[١] برسول الله فألقته . وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط ، كانت من

---

(١) قلصت : مضت على وجهها . اللسان .

النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة . جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت : « يا آل عامر ولا عامر لي! أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ؟ » .

فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة ، وثلاثة أعانوه ، فأخذ كل رجل منهم رجلاً فجذبه الأرض ثم جلس على صدره ، ثم علقوا وجوههم لطماً ، فقال رسول الله :

« اللهم بارك على هؤلاء ، والعن هؤلاء » .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك لموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم فقالوا :

« جاءنا فتى من قريش ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به معنا إلى بلادنا » .

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال :

« يا بني عامر : هل لها من تلافٍ ؟ هل لذناباها من تطلّب ؟ فوالذي نفس فلان بيده ، ما تقوّلها إسماعيلي قط . ألا إنها الحق ؛ فأين كان رأيكم ؟ »[1] .

* *

هذه الأسواق الثلاث : عكاظ ومجنة وذو المجاز ، التي كانت تقوم في أيام الحج ويؤمها العرب قاطبة من كل حدب وصوب ، شهدت إلى جانب مناظر البيع والشراء والمفاخرة والإنشاد ، مشهداً من أفظع مشاهد الجفاء والتنكر والأذى لصاحب الشريعة الإسلامية ﷺ . وابتلعت تلك الأصوات بضجيجها وما كانت تعج به من حوادث ، صوت الدعوة الإسلامية فيما ابتلعت من دعوات ، وغاب صوت صاحبها في ذلك الصخب والزحام ؛ فلقد مكث الرسول بمكة مستخفياً ثلاث سنين ، ثم أعلن في الرابعة ودعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي فيهن المواسم كل عام ، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز ويدعوهم أن يمنعوه

---

(١) دلائل النبوة ص١٠٠ .

حتى يبلغ رسالات ربه ، فلا يجد أحداً ينصره أو يجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة فيردون إليه أقبح الرد ، ويؤذونه ويقولون له : قومك أعلم بك »[1] .

كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج موزع السمع بين داع إلى ثأر وناشد ضالة ، ومنشد قصيدة ، وخطيب ، وعارض بضاعة ، وحامل مال لفك أسير ، وقاصد شريف لإجارة أو حمالة ، وداع إلى عصبية ، وآمر بمنكر . . . ، فيجد شيئا معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا . لكنه بعد عام الفيل بثلاث وأربعين سنة يجد أمراً لم يألفه قط ، ولا سمع بمثله : رجلاً كهلاً وضيئاً عليه سمات الوقار والرحمة والخير ، يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة : هذه بنو عامر بن صعصعة ، وهذه محارب ، وتلك فزارة ، والرابعة غسان ، وهناك مرة وحنيفة ، وسُليم ، وعبس ، وهنا بنو نصر وكندة ، وكعب ، وعذرة ، وهؤلاء بنو الحارث بن كعب وأولئك الحضارمة . . . إلخ .

يؤم منازل كل قبيلة ، ويقصد إلى شريفها يدعوه بالرفق إلى الله وفعل الخير فيتجهم له هذا ويعبس ذاك ، ويجبهه ذلك ، ويحقره آخر . . فيلقى من الصد ألواناً يضيق ببعضها صدر الحليم ، فلا يؤيسه ما لقي ، ولا يكفه ما أوذي ، فيمضي متئداً حزيناً إلى قبيلة أخرى وشريف آخر : يعرض عليهم نفسه ويقول :

« هل من رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » فلا يجد مجيباً ، حتى تدارك الله نبيه بوفد الأنصار .

* *

هذا ما حفظته لنا كتب السيرة من مشاهد مؤثرة ، فرأينا أن تلك الأسواق لم تخل من دعوة إلى خير ، فقد تردد في أجوائها الصوت الضعيف الخافت ، يطلب حماية وإجابة . ولئن صدف عنه الناس وازوروا في أسواق الجاهلية ، إنه ملأ فيما بعد ما بين المشرق والمغرب ، وطبق الخافقين بآثاره التي بثها في العالمين رحمة وعدلاً

---

(١) شرح المواهب ١ : ٢٠٩ .

وعلماً ، وإنسانية وسعادة ومثلاً عليا .

وما زال يستجيب لهذا الصوت كل يوم أفواج من أمم الحضارة والعرفان . في آسية وأوربة وأمريكة . صد عنه قديماً أجلاف البادين ، وهرع إليه اليوم زمر المتحضرين ، من كل عالم ومخترع ومصلح وأديب وسياسي ومفكر . . ممن يستضيء بعلمهم وفكرهم الملايين من الخلق .

فلنأخذ من هذه الأسواق العبرة ، ولنحفظ هذا الدرس ؛ فإن الحق مهما بدا ضعيفاً وبدا خصيمه الباطل قوياً صائلاً ، لا بد أنه ظافر في النهاية عليه . فليس في الدنيا شيء يصمد للحق ، لا الجيوش ولا الأساطيل ، ولا النار ولا الحديد ، لا شيء له العقبى إلا الحق . وأهون بعد ذلك بالمعاهدات والمراسيم وصكوك الانتدابات وسائر القصاصات من أوراق الزور . كل أولئك يضمحل ويذوب متى سلط عليه الإخلاص والثبات وصلابة العقيدة والإيمان . وما نرى في أيامنا هذه من استضعاف الباطل المعتز بالصولة ، لأناس وقفوا يدعون النضال في سبيل الحق ، واستخذاء هؤلاء له ، وطواعيتهم في يديه ، ناشئ من فقدان الإخلاص والعقيدة فيما يضمرون . ولعل كثيراً منهم يظهر دفاعاً عن حق ، ويبطن سعياً إلى منصب أو استدراراً لمال . وما أسرع ما ينزع الزمان الأثواب المزورة عن هذا الفريق فيظهر للناس ما يخفون .

ولنعلم بعدُ أن اليأس لا ينبغي أن يجد سبيلاً إلى قلب المؤمن ، وأنه : ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف ١٢/ ٨٧] .

الشيخ أحمد النويلاتي والخبازون!!
(رغيف ومصلح)

مقال نشر في جريدة العلم بدمشق في ١٩٦١/٧/٢١ ، وقد كان أذيع بعنوان (رغيف ومصلح) من إذاعة دمشق في ١٩٦١/٧/١٢م مقال نقدي يتناول ما وصل إليه رغيف الخبز من سوء ، ويعرج لينقل صورة عما كان عليه المسجد الأموي وحلقات الدرس والوعظ فيه .

حين تكلف إدارة الإذاعة امرأً بموضوع ، تكون قد أراحته ، فإما قبل وإما اعتذر ، لكنها إذا تركت له الاختيار فقد أوقعته في قلق وحيرة يطول أمدُها بمقدار ما على ذهنه من أعباء .

هذا حالي ساعة ورد عليّ تكليفها قبيل الغداء ، ثم نهضت إلى المائدة ، وعليها الخبز الذي يعرفه أهل دمشق الآن ، وهو لا يمتّ إلى ما كنا نعهد في طفولتنا من خبز ، إلا بالشكل المستدير . فلا هو في الرائحة ، ولا في الاختمار ، ولا في النضج يشبه الخبز الدمشقي قبل ثلاثين عاماً ، ذاك خبز دخل حرم التاريخ ، فلم يخرج منه إلاّ شهراً واحداً ، قبل اثني عشر عاماً يوم جلد حاكم مستبد بعض الخبازين الظالمين ، فكان حدثاً تاريخياً ، صار الرغيف من بعده متماسكاً ناضجاً ، يدرج على الرصيف كالعجلة ، وصار الناس يذكرون هذا الحاكم بالخير والرحمة كلما فسدت معدهم من الخبز الحالي .

فقلت لنفسي : ها قد وجدت الموضوع في رغيف الشعب ، لكن الكلام على خبز الشعب يمسّ مصالح السادة أصحاب الأفران ، وهم كتلة ديكتاتورية متماسكة ، ظلت تقهر الناس على ازدراد الخبز العجين الفطير المتهافت طوال العهود السابقة .

وكلما ضجّ الناس بالشكوى وردتها الصحافة ، وأصوات مرائية في مجلس النواب ، ووعود مقطوعة من المسؤولين ، وأيقنّا أن الأزمة إلى انفراج ، نفث

الخبازون من سحرهم ، فخنقت الأصوات ، وكفت الصحافة ، وتبخرت الوعود ، فما لي أنا وللخبازين أُزجي إليهم التقريع والملامة ، وقد جرب قبلي كثيرون فلم يرجعوا إلاّ بالندامة .

يا سادة! الإصلاح اليوم ممكن ، وما على المخلصين إلا إيصال شكوى المظلومين ـ وهم هنا كل الشعب ـ إلى أولياء الأمر ، وفيهم من عاش بين الفقراء والمساكين .

فلنترك للصحف مجالها ، ولأرجع إلى تاريخ غير بعيد ، فأتحدث عن مصلح اجتماعي نسيه أغلب الناس . وكان فترة من الزمن ملهج الألسنة وملجأً صديقاً لكل شاك متظلم ، وبُعبعاً مخيفاً للخبازين ومحتكري الحبوب وجميع الظلمة المثرين في مصائب الشعب من حاكمين ومحكومين ، ذلك هو العالم العامل والمخلص الواعي ابن الشعب ومحاميه : **الشيخ أحمد النويلاتي** ـ رحمه الله .

يذكر الذين جاوزوا سن الشباب أن جامع بني أمية أيام الاحتلال الفرنسي كان وجه دمشق ، وصوتها المدوي ، ومنارها المشع ، وجبهتها الحربية في نضال الاحتلال أيام الثورة الكبرى المسلحة عام ١٩٢٥م ، وكان مجمع طبقات الشعب ، ومنه انطلاق المظاهرات الحامية في الأزمات ، وفيه إلى جانب ذلك حلقات علم للخاصة ، ومجالس وعظ للعامة ، فإذا زار البلد فاضل غريب ، رأى في هذا الجامع صورة مصغرة مركزة مما يعنيه من المجتمع الكبير ، في كل حلقة طابع متميز في المظهر والمستوى والنزعة ، فها هنا حلقة صغيرة لطلبة العلم بأيديهم كتبهم يتسمعون إلى تقرير الشيخ ، وهناك حلقة كبرى واسعة الفضاء ، اصطفت فيها الفوانيس العالية ، واستدار حولها الناس بمظاهر صارخة من عمائم وجبت وعباءات ولحًى ومسابح وما إلى ذلك ، وكنت تميز الحلقة الخاصة العلمية من مجالس الوعظ بأزياء المستمعين . بين هذه الحلقات حلقة متوسطة ، لا تجلب الأنظار ، فما فيها فوانيس عالية ، ولا طلبة بأزياء ولا صوت عال مشوش ، ولا تكلف وتنغيم في الإلقاء ، لكنها تستوقف النظر بتنافر الأزياء فيها . فالشيخ مكتمل الرجولة ، حلو الصورة ، مهيب ، فصيح ، يجذب بحرارة إخلاصه ، ويقع كلامه في قلبك قبل

إذنك ، وأمامه من كل الطبقات من أجير اللحام إلى السائل الفقير إلى طالب العلم ، إلى العالم إلى الوجيه الكبير ، إلى المستوزرين ، وطالبي النيابات ثم من الصبيان الصغار ، إلى الشباب الأنيقين ، إلى الشيوخ العجزة ، وكل مستمع قد وجد ما يفيده في عقله ودينه وخلقه وحتى معاشه .

يبدأ الشيخ درسه بين المغرب والعشاء بتلاوة الآيات التي وصل إليها التفسير ، ثم يشرحها شرحاً قريباً إلى كل الطبقات ، ثم يقيس أوضاع المجتمع القائمة بما ورد فيها من أوامر ونواه ومواعظ . فيؤديه ذلك بطبيعة الحال إلى نقد الأوضاع نقداً صريحاً مكشوفاً لا غمغمة فيه ، ومن هنا سر نفعه .

وشهد الله ـ وكنت طفلاً مواظباً على دروس الشيخ ـ لقد أفدت منه ما لم أستفد من جامعة ولا كتاب في نواح متعددة علمية وعملية ، وأهم ما خرجت به من النواحي العملية حذر شديد من أرباب الصناعات وغشهم .

أشد ما يهتم به الشيخ تعريف الناس بالغش والتدليس في كل الأمور ونصبه نفسه لهذا جعل كل من وقع في حفرة يشكوها إلى الشيخ ، فإما مشىٰ معه إلى ظالمه أو غاشه ، وإما فضحها في دروسه فضحاً يحذر الناس أن يقعوا في مثلها .

وتنبيه الرأي العام خير ما يبور عمل الغاش ، وأحسب لو أراد مستمع لدروسه أن يفرد منها أساليب غش الصناعات في دمشق لتم له تأليف مجلد كامل .

وكلما جرت المناسبة الشيخ إلى موضوع الغش سرد على الشعب ما يدخل الغشاشون على الناس في أهم الحرف المحتاج إليها ، ففي درسه عرفت وأنا صغير ما يصنع اللحام حين يقطع للزبون ما يريد من الذبيحة المعلقة ، ثم يكمل ذلك بما دسّ حول الميزان من قطع اللحم الرديء ، وأن الذبيحة قد تكون عنزة ملصقاً بها إليه الخروف ، وكان يوصي الناس برؤية الميزان صحيحاً قبل الوزن ، لأن بعض الباعة عنده كفتان واحدة يضعها حين يمر مفتش البلدية وأخرى أثقل هي التي يزن عليها ، فيضيع على الزبون فرق ما بين الكفتين من وزن ، وكذلك لكيالي الحبوب كيلتان مختلفتان واحدة وافية يشترون بها ، وأخرى ناقصة بها يكيلون للزبون ، ويدور الشيخ في حديثه على أرباب الحرف ، حتى إذا جاء دور الخبازين أفاض الشيخ

وقصّ أثرهم منذ يخلطون الطحين الجيد بالرديء حيناً ، وبالتراب والرمل حيناً إلى العجن والوساخة فيه ، وكثيراً ما خوف العاجنين من الله والحساب ، وأن الواجب عليهم تقليم أظافرهم دوماً وغسل أيديهم بالصابون ، وحذرهم من تقريص العجين قبل الاختمار ، ثم أبان ما يربح الخبازون من عدم الإنضاج ومن تأخير الخبز حتى يجتمع الناس على باب الفرن ويشتد الزحام ، فحينئذ يدخلون الأقراص الفرن ، ويخرجونها سريعاً غير منضجة ويبيعونها ببخارها مستغلين ازدحام الناس واستغاثتهم بهم ليزنوا لهم قبل غيرهم ، وهكذا يربحون فضل وزن الخبز الساخن على البارد وما أكثر ما أعلن الشيخ بملء حنجرته أن هذا سحت حرام ، لا يهنأ كاسبه ، وإنه ربح ممزوج بعرق الكادحين ودمائهم وبدموع الأيتام والأرامل ، وحذر من دعوات هؤلاء المظلومين الضعفاء ، وأطرف ما في الأمر أنه تتبع حياة كثير من الذين أثرَوا من غش الأقوات واحتكارها في الحرب الأولى أيام المجاعات ، فعرف أن أكثرهم ختم حياته أسوأ خاتمة بالمرض والجوع والفقر ، وأن الذين صاروا إلى تكفف الناس مع العمى والعجز عدد غير قليل ؛ منهم محتكر كان قد قال لامرأته : إن دامت هذه الحرب مع المجاعة سنة أخرى فلأجلبن لك أحذية الذهب واللؤلؤ ، وأكد الشيخ أن المصير الأسود الذي لاقوه ما هو إلاّ استجابة الله العادل الغيور لدعوات الأيتام والأرامل والضعفاء .

وبعد فالكلام على دروس الشيخ ونشاطه الاجتماعي وأثره في دمشق لا تكفيه هذه الدقائق العشر ، فسياطه في ظهور الدجالين من المتنسبين إلى الدين أو إلى الوطنية أوجع وآلم . وأثره بعيد في تنوير أذهان العامة والخاصة ، ونضاله الذي لم تأخذه فيه لومة لائم حري بأكثر من هذه الكلمة . وإنما ذكرني به الآن هذا الرغيف الفطير (المعجن) على المائدة فرحمه الله رحمة واسعة ، وأكثر في الأمة أمثاله ، وألهم الحكومة تأميم الأقوات الضرورية لتنقذ الشعب من أذى المحتكرين وتحكمهم .

(الشيخ أحمد النويلاتي)

(١٢٨٥ـ١٣٥٧هـ)

مقالة يؤبن فيها أستاذنا الجليل شيخه الفاضل أحمد النويلاتي ـ رحمهما الله ـ
نشرتها مجلة التمدن الإسلامي ، السنة الرابعة ، الجزء السابع/ ١٩٣٨م .

إذا قصدت في عشية من عشايا الصيف مسجد بني أمية ، ودخلته من باب جيرون ، فاستقبلك صحنه الواسع الجميل بالأنسام الرقيقة الحلوة تتردد بين أروقته المتباعدة ، فاجعل مشهد الحسين عن يمينك ، واستقبل قبة الساعات ، فإنك حيال حلقة درس متواضعة ، عارية عن كل بهرج وزخرف ، يصغي أصحابها إلى شيخ جليل حسن السمت ، ذي لحية لطيفة غلب عليها الشيب فلم يدع إلا خطوطاً سوداً متحيرة في ذلك البياض الشامل ؛ وترود عينك في لباسه فلا يروعك منه شيء ، إذ ليس إلا العمة المطرزة الصفراء التي يلبسها أكثر التجار والزراع ، وإلا الجبة والسراويل الواسعة ، فإذا ارتد بصرك إلى من حوله ، راعتك رابطة روحية قوية ، بينهم وبينه ، كأنك إزاء صبيةٍ مغمورين بحدب أبيهم ورعايته ، ثم أخذك ما يأخذهم من خشوع ، وجذبك ما جذبهم من إخلاص ورحمة يفيضان على بيان الشيخ ووجهه ، حتى إذا طال وقوفك شعرت بأن هذا القلب النبيل الذي يذوب كمداً على ما حل بالبلاد والعباد قد استولى عليك وملك منك ما ملك من هؤلاء المستمعين الذين أكثرهم من العمال والفقراء ، وأقلهم من المتوسطين المستورين ، وإن سحرك مع بساطة الشيخ طلاوة الحديث ودقة النقد للأوضاع الاجتماعية والمساوئ الفاشية ، إلى غزارة علم وروعة إخلاص وتمكن من كتاب الله وحديث رسوله ، فنسيت ما كنت ماضياً إليه . . . فلا تأسفن ، فإنك في حلقة العلامة العامل ، المخلص الصالح الذي لا تأخذه في الله لومة لائم : **الشيخ أحمد النويلاتي** .

* *

أسرة النويلاتي بدمشق من طبقة متوسطة ، حرفة أكثرهم التجارة والصناعة . ولم ينقطع منهم إلى العلم إلا الفقيد ، فقد قرأ على أكابر شيوخ[١] الشام ، وتخرج في الفقه والأصول والحديث والتفسير والآلات والقراءات على أئمتها حتى صار فيها متمكناً ، واعترف له بالفضل والتفوق . ثم ذاع صيته حين باشر دروسه العامة في الجامع الأموي ، وكان فريق يعجب من تصدره في زمن كانت مناصب العلم فيه وقفاً على المحتكرين[٢] .

اختط ـ رحمه الله ـ لدروسه نهجاً جديداً خرج فيه على ما ألف الناس ، واستطاع أن يهبط إلى مستوى العامة في تقريره أدق المسائل ، فأصاب العامي من حضوره فوائد جمة ، وفهم كثيراً من أمور دينه ، وعرف حكم الله في كثير من الأمور الفاشية في زمانه . وأستطيع القول : إن من لازم دروسه من العامة قد تثقفوا وإن لم يكونوا يقرؤون ويكتبون ، على حين كان العهد بكثير من الدروس العامة أن يولع شيوخها بكل مظهر يجلب الزبائن من كرسي عال وفوانيس كثيرة ومنشدين وقرّاء و . . . ثم لا يكون الدرس إلا قراءة مرنّمة في كتابٍ كثيراً ما يكون إلى التخريف ، حتى إذا رفع المدرس رأسه ليشرح ، لم يكن هذا الشرح إلا إعادة ما قرأ بصوت أجهر ، ثم لا يحصل السامع من ذلك كله إلا ثواب الصلاة على النبي كلما ذكره المدرس وإلا البركة التي يؤمن بفوزه بها فهم أم لم يفهم .

أما نهج الفقيد في دروس التفسير التي يلقيها بين العشاءين فهذا هو :

يفتتح الدرس بقراءة الآيات التي وصل به التفسير إليها ، مبتدئاً بذكر أسباب النزول ، ثم يشرح معناها بلغةٍ سهلة جداً لا يفوت العامي منها حرف ، ثم يذكر ما فيها من وجوه القراءات ومعانيها ، ثم يسرد أحكامها مبيناً حلالها وحرامها ، ثم يشرح بتطبيق أحكامها على أحوال زمانه منبهاً إلى ما ترك الناس من أوامرها وما

---

(١) منهم محمد الخطابي ، وعمر العطار ، وبكري العطار ، وعبد الله الحموي ، وطاهر الجزائري .

(٢) هم : كل أسرة يكون أولها عالماً حقاً ثم يرث أبناؤه مناصبه العلمية دون كفايةٍ فيهم فيكونون ـ وهم أجهل من جهل ـ علماء بالزي والوراثة وقوة القانون التركي الذي حماه المحتل من بعد ، والذي جر على الدين البلاء المستطير .

ارتكبوا من نواهيها ، وهنا يفيض في الاستطراد ويستعرض ما يجري عليه الناس في معاشهم من غش وخيانة واحتيال ، مسهباً في التنديد ، مفصحاً غير معرّض ، فهو يذكر ضروب الغش الذي يأتيه الخبازون والطحانون والقصابون وسائر أرباب الصناعات غير ناسٍ المتظاهرين بالتقى والصلاح ، المغرّرين بالناس ، الناصبين لهم المصائد ، ليحتالوا على مالهم وعقارهم ؛ ثم يعرّج على عسف الحكام وخيانتهم وابتزازهم دم الفلاحين والعمال والفقراء ليرضوا نَهَم نفوسهم البهيمية ، وليرتعوا ويتمتعوا بالترف والنعيم ولو حرموا ـ في سبيل هذا ـ الأيتام والمساكين خبزهم الضروري .

وأكثر ما كان ينصب إنكاره وغضبه ، على أولئك الذين نصبوا أنفسهم منار الهدى وورثة الأنبياء وحماة الدين ووكلاء الشعب ثم يهرعون إلى أبواب الحكام يتملقونهم ويزينون لهم ظلمهم ويعينونهم على الرعية . ليرجعوا بفضل من مال أو براءة بمنصب أو إغضاء عن سرقة وقف . . . غير مبالين بما خانوا الله ورسوله وجماعة المسلمين .

وله في كل ما قدمت اطلاع واسع واستخبارات منظمة ورجال يتطوعون له فيأتونه بأخبار جميع الطبقات التي ذكرتها وفضائحهم واحتيالهم وتآمرهم على نهب الناس بشتى الأساليب ، ومتى بلغ به الاستطراد ذلك ، أسهب ما شاء له الإسهاب فأنكر على هؤلاء خيانتهم ونبّه إليها ، وحذّر الفقراء والعامة منها . ولا أكون إلى المبالغة إذا قلت : إن سامع درسه قلّ أن تناله حبائل الغشاشين لكثر ما عرف من أساليبهم وسمع من فضائحهم ، حتى لقد قام هذا الدرس مقام الصحف والبلديات والمحتسبين في وقت واحد ، فكان لسان الشعب اليقظ الحذر .

وما أكثر ما ندد الفقيد بالخطباء وبالمدرسين الذين يلتزمون تلك الدواوين والكتب التي أكل الدهر عليها وشرب : وما أكثر ما صرح بأن واجب العلماء الاختلاط بكل الطبقات ، والاطلاع على كل شيء ، وإصلاح الفساد المنتشر ، وأن هذا الوقار المصطنع ولزوم الدار وغض البصر تقصير شائن وخيانة للأمانة التي يحملونها ، وما أكثر ما ردّد في الدرس الواحد كلمة الغزالي الخالدة : « ومن لم

يعرف أحوال زمانه فهو جاهل » .

أما البدع والخرافات التي علقت بالدين في العصور المظلمة فقد أثار عليها الشيخ حرباً عواناً لم يعرف فيها هوادة ولا ليناً ، ولقي بسبب ذلك من النكاية والنبذ والشر أذًى كثيراً ، ومضى في سبيله غير حافلٍ بحسد حاسد ولا أذى شرير ، وتحمل كل ذلك متأسياً بالرسول الأعظم ﷺ فلم يمت حتى ضرب جمهور الدمشقيين بتلك الخزعبلات عرض الحائط ، وحتى صرت ترى العامي يجادل عن الدين ويدفع عنه الرقص في الأذكار وما يصعد منها شبه الخوار والتمسح بالقبور ونداء الأموات في الأزمات . . . وكل ما علق بجوهر الدين من خبث . وهذه هي قوة الإخلاص العجيبة لا تهزم صاحبها أبداً ، ثم تتغلب على كل ما يناوئها من قوى الباطل . وليست السنون العشرون التي قضاها الشيخ في جهاده إلا أمداً يسيراً إذا نظرنا إلى النتيجة الباهرة التي وصل إليها في غربلة العقائد وتنوير الأذهان وتنبيه الغافلين .

* *

كان من مزايا الشيخ مع غزارة علمه وإخلاصه ، صراحة متناهية لا تهاب أحداً مع ظرف وأدب جم ، وهو في الجملة منكمش[1] عن الزيارات بجميع أنواعها ؛ فكان من يريده ليلقي إليه خبراً ، ترقبه في طريقه من داره إلى مسجده أو في السوق فقد كان رحمه الله يقوم بمهنة أهله بنفسه : يحمل حاجاته ويملأ لأهله الماء ولم يستعمل خادماً قط ، فإذا علمنا كثرة من يستوقفه في الطريق من أرباب الحاجات والشكاوي والمخبرين ، أدركنا مقدار تحمل الشيخ الذي ناهز السبعين .

---

(١) أردتُ والأستاذ عز الدين التنوخي أمين سر المجمع العلمي العربي أن نقرأ عليه في المدة الأخيرة كتاباً في القراءات فلم يشرح صدره لذلك واعتذر باهتمامه بابنه المريض . ولعل للقصة الآتية ـ مع حذره وسوء ظنه ـ بعض السبب في انكماشه عن [الأفندية] :

ذكر في درسه مرة أن عيناً من أعيان البلد قرأ عليه العربية ولازمه ؛ ثم دار الزمان فإذا بهذا العين في دست الوزارة . فبينما الشيخ يوماً في سوق الحميدية إذ رأى هذا الوزير تشاغل بالنظر إلى ناحية لئلا يرى شيخه فيضطر إلى السلام عليه . . . ثم علق الشيخ على هذا ما يليق به من تعنيف ملؤه الجراءة والقساوة .

وللقارئ أن يتصور حزن الناس على صاحب هذه السيرة حين الصلاة عليه : فقد انهملت الدموع من جميع الطبقات ، وكان بكاء الذين نالهم بتقريعه في حياته شديداً ، أما الفقراء والأرامل والأيتام والعجزة فلا تسل عن كمدهم حين فقدوا بالأستاذ النويلاتي نصيراً قوياً لم تأخذه في الله لومة لائم . وإني لأطمع أن يسعني وقت فأتصل بذويه ومخالطيه وأترابه لأكتب سيرته إذ إن حقه عليَّ عظيم ، فقد كان أول من أقرأني العربية وعلوم الدين ، وكانت إفادتي منه لا تقدر . فيا أيها الراحل الكريم!

لقد كنتَ فيهم كوكباً في غياهب ... ومعرفة في أنفسٍ نكرات

وآذوك في ذات الإله وأنكروا ... مكانك حتى سوّدوا الصفحات

رأيت الأذى في جانب الله لذة ... ورحت ولم تهمم له بشكاة[1]

رعاك الله في غربتك وأحسن إليك بعدد ما لقيت في سبيله من صنوف الأذية والنكران ، وإن يترك غيرك ممن ناوأك لذريته أموالاً وعقاراً ومناصب ، فقد تركت لعيالك وأولادك بعد سبعين عاماً رباً هو خير لهم من كل مال وعقار ، ولن يضيعك في ذريتك الضعاف ؛ فقد كنت تتقي الله وتقول قولاً سديداً .

ويا أيها الفقراء والعمال والمظلومون عزاء لكم وللأمة جمعاء بالأب الرحيم والنصير الرؤوف .

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم .

جهاد شهيد
(أنس بن النضر)

مقالة يعرض فيها أستاذنا الجليل ، حقيقة الجهاد ، وأهمية الشهادة في كل زمان وعلى كل أرض تمتهن فيها الكرامة وتستباح .
نشرتها مجلة الرسالة في العدد ٢٤٧ لعام ١٩٣٨م .

كلما أظل الكون عام جديد التفت المسلمون إلى الماضي البعيد يستوحونه العبرة ويتلقون منه الدرس . وكم في صدر الإسلام من عظات ، وكم فيه من دروس ينقضي الزمان وهي لا تنفد ، وإنها لتجود على كل ناظر فيها بما يحفز الهمة ويوقظ الوجدان ويملأ النفس حمية والقلب خشوعاً . وما أحرى الأقطار العربية عامة أن تتأمل في تاريخها المجيد ، وخاصة ما حف بحادث الهجرة الكبرى من أذى واضطهاد ، ظفر من بعدهما المؤمنون الصابرون ، لتستشعر القوة والإقدام ، وهي تكافح من طغيان المحتلين وكيدهم ما ينفد معه الصبر ، وتعيا الحيلة ، وتكل القوى . ومتى رأوا ما فعلت العقيدة والإخلاص في نفوس أسلافهم ، الذين كانوا أضعف منهم اليوم وأفقر وأقل عدداً ، مضوا في جهادهم مستعينين بالله ، وليس بينهم وبين النصر إلا أن يفعلوا ما فعل الأولون .

سمع دعوة الإسلام فانشرح لها صدره ، وطرب قلبه ، ودخل في الدين الحق فأشرب حبه والإخلاص له والاستماتة من أجله ، وشمل أهل بيته ما شمله من رحمة الله ، فاغتبطوا ذكوراً وإناثاً بما ساق إليهم ربهم من خير .

وكان نعيمه من الدنيا أن يرى رسول الله أو يجلس معه أو يستمع إليه ، وهو يجد في ذلك لذة تغمر وجوده كله ، فيذهل عن الدنيا وما فيها من متاع ولهو ، ليغرق في غيبوبة روحية سامية ، يسمع الموعظة فيلتهمها التهاماً ، ثم لا يلبث أن يندفع عاملاً بها بحماسة جامحة تثير عاطفة الخير في كل قلب . وكان في سيرته مثلاً كاملاً

للمسلم الحق الذي آمن بالله فعبده مجتهداً حق العبادة ، وأحب الخلق جميعاً فمنحهم من نفسه الرحمة والخير والحب والإحسان .

ولقد رقق من نفسه ما كان بلغه من سيرة الرسول في مكة ، وما تحمل هو وأصحابه من أذى المشركين واضطهادهم في سبيل الله ، حين دعاهم إلى الخير فصدّوا عنه مستكبرين ، وعرض عليهم الإسلام فأسمعوه في دينه وإلـٰهه ما يكره ، ثم زادت وقاحتهم فرجموه وشتموه وأخرجوه وأجاعوه ؛ وهو مع أصحابه الأخيار صابر ساكت يدعو لهم وينتظر فرج ربه .

وكان أنس بن النضر على عقيدة في الله راسخة وإيمان صليب ، ملك عليه الإسلام لبّه ، وتمكن حب الله وحب رسوله من قلبه ، وهو مع كونه من خيار الأنصار قولاً وعملاً ، ومع فرط محبة النبي له ، شديد الحسرة على أنه لم يكن ممن أوذي في الله بمكة ، وأنه فاته بذلك شرف عظيم استأثر به المهاجرون الأولون ؛ ولم يكن يعزيه إلا أنه يتلبث حتى تكون فرصة سعيدة يخرج فيها عن حق الله في ماله وأهله ودمه .

وكانت النفرة الأولى إلى بدر ، حيث تصاول الخير والشر كفاحاً ، وحيث وقف المؤمنون صفاً واحداً سلاحهم التقوى وإيمان بالله لا يتزعزع ، واثقين بأنه لا بد ناصرهم مع قلتهم وضعفهم على الشرك وأهله الذين خرجوا بطرين مستطيلين ، عادين على الله وعلى رسوله والمسلمين . ولقد صدق المسلمون يومئذ الحملة وأخلصوا النية ، وأرخصوا في سبيل الله دماءهم وأموالهم فنصرهم الله النصر المؤزر ، ورجعوا إلى المدينة مغتبطين بما أذل الله من الباطل ورفع من الحق ، وما مكّن لهم من صناديد قريش حتى أوسعوهم قتلاً وأسراً .

وكان صاحبنا أنس قد عاقته العوائق عن شهود بدر ، فلما بلغه ما كان ثمة من جهاد واستماتة ، وما حل بالقوم من رحمة الله ورضوانه ، حزن حزناً ما حزنه أحد قط ، وكلما سمع من النبي ﷺ ما خص الله به أهل بدر من الفضل والخير ، تقطع قلبه حسرات على ما أخطأه من فرصة كان يترقبها بفارغ الصبر منذ عرف الإسلام ، لذلك أراد أن يأخذ على نفسه عهداً يُشهد عليه الله والنبي والمسلمين ، حتى لا يصيبه

في المستقبل ما أصابه في الماضي ؛ فهرع إلى رسول الله مُنصرفَه من بدر وإن سيماءه لتُفْصح عن ندم شديد وعزيمة صادقة وحماسة متأججة ، عرف ذلك في وجهه كل من رآه ، فلما وقف على النبي في أصحابه قال له :

« يا رسول الله! غبت عن أول قتال قاتلت به المشركين ، لئن اللهُ أشهدني قتال المشركين ليرينّ ما أصنع » .

* *

لبث أنس ينتظر مواتاة الفرص حتى بلغ أهل المدينة ما جمع لهم أبو سفيان من الخيل والرجْل ، وما طابت به نفوس المشركين من ربحهم في العير لينفق على حرب النبي وأصحابه ، وكان ذلك خمسين ألف دينار . وما كانت قريش ولا حلفاؤها لتسمح بهذا وهم التجار الحراص على المال[1] ، لولا ما ملأ صدورهم من الغيظ والحنق والكره للمسلمين على مافعلوا بهم يوم بدر .

شاور الرسول أصحابه فيما يصنع فكان الرأي أن يتحصنوا بالمدينة ، حتى إذا أتوهم قاتلوهم عنها . وكان من قول عبد الله بن أبي : « يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم . فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا » .

وأنى لهم أن يجمعوا على هذا الرأي وفيهم من يتلهف شوقاً إلى حرب المشركين « فقد كان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر لما سمعوا النبي يخبر بفضل من شهدها وعظيم ثوابه ، فودوا غزوة ينالون بها مثل ما ناله البدريون وإن استشهدوا » ؛ فلم يعجبهم ما قال المجربون من الرأي الهادئ الخمير ، وتغلبت عواطفهم الجياشة ، واشتد بهم الظمأ إلى الشهادة حتى قالت طائفة منهم :

« إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج جبناً عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا » .

---

(١) انظر شرح ذلك وافياً في كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) ص١١٦ وما بعدها .

وقال حمزة : « والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة » .

وقال النعمان بن مالك : « يا رسول الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها » إلخ .

ووافق هؤلاء مشيخة من المهاجرين والأنصار فكانت غزوة أحد ، وكان أول الناس إسراعاً إليها وأشدهم فرحاً بها أنس وأخته ، وخرج إليها كثير من الأحداث والنساء ، فأبلوا فيها البلاء المحمود ، دفاعاً عن دينهم وذياداً عن نبيهم وشوقاً إلى ما عند الله .

* *

شب القتال ؛ وكان المشركون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون ، ونصر الله المسلمين أول الأمر ، حتى إذا ترك الرماة مواقفهم التي أمرهم الرسول بلزومها كان ما هو معلوم للجميع ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً وكثر فيهم القتل وانهزم فريق وثبت فريق وأشيع أن رسول الله قد قتل وأسقط في أيديهم . هنالك كان الامتحان الأعظم للبطولة والإخلاص فمحص الله للشهادة الأخيار ، وذاد القرومُ البواسل عن الرسول ذياد المستميت ، وعمد النساء إلى السلاح يأخذنه من المنهزمين فقاتلن به حتى كانت ضروب الشجاعة والبسالة التي أتاها النساء فقط ، صفحة مجيدة تتقطع دون الظفر بها رقاب الفحول المذاويد الأبطال ؛ وكان من ثبت من الصحابة نفراً ضئيلاً وقع عليهم نعي الرسول وقوع الصاعقة ، فحاروا في أمرهم بعد أن ترك أكثرهم القتال ، ووهنت نفوسهم وألقوا بأيديهم ؛ إذ ذاك ، يدركهم الله بهذا البطل المجاهد المغوار ، أنس بن النضر يسألهم فيم جلوسهم والحرب قائمة ؟ فيقولون : قتل رسول الله! فيزداد حمية واستبسالاً ويهتز من فرعه إلى قدمه وتتجسد فيه معاني الجهاد السامية فتتألق عيناه ويلتمع وجهه ويكاد دمه ينفر من عروقه وترتسم عليه سمات الصلابة والعزيمة والاندفاع ويفتر ثغره عن هذه الكلمات الملهمات تذكرهم بالواجب الذي ذهلوا عنه ، وتحفزهم إلى الشهادة ، وتدفع أجبن الناس إلى اقتحام الغمرات .

« فما تصنعون بالحياة بعده ؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه ، أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء » ثم قال : « اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) » انقضت على سامعيه لحظة كانوا منها في مثل لجج النور من كلماته ، فألهبهم ودفعهم إلى الموت دفعاً ؛ ثم انطلق نحو جموع المشركين فلقي في طريقه سعد بن معاذ فقال له : « يا سعد ؛ الجنة! ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد » ورمى بنفسه وسط الجموع الحانقة الظافرة ، ضارباً وطاعناً ، فأشرعت إليه الرماح وأصلتت عليه السيوف وسالت منه الدماء على جوانبه ، وهو لا يحس لتلك وخزاً ولا يشعر لهذه بألم ، ولا ينفك منقضاً على الأعداء مقتحماً صفوفهم ، يوسعهم تقتيلاً وإثخاناً ، غير آبه للرماح تتناوشه ، ولا للسهام تنفذ فيه ، ولا للسيوف تقطّع منه ، وإنه مع هذا كله لا يرى أنه بذل في الله طائلاً ، وكلما ازداد الدم منه انصباباً زاد على أعدائه كراً وإقداماً حتى أكرم الله هذه الروح الزكية فسالت على قِصَد القنا وظُبى السيوف فاستأثر سبحانه بها ، وأنالها ما تمنت من الشهادة لتنعم بلقائه وجواره في عليين .

ولقد أحمى بكلماته تلك أنوف المهاجرين والأنصار ، فمشوا على أثره وكروا ثانية على العدو ، واجتهدوا في القتال ؛ إلا أن أحداً ما بلغ مبلغ أنس رحمه الله ورضي عنه ، حتى إن سعداً بن معاذ ـ على ما أبلى في العدو يومئذ ـ ليحدث عنه بعد الحرب فيقول : « ما استطعت يا رسول الله ما صنع » .

* *

انقضت المعركة حافلة بضروب البطولة ، وطفق المسلمون يتحرون قتلاهم لمواراتهم التراب ؛ وإنهم لفي شأنهم إذ وقفوا على جثة لم يعرفوا صاحبها لأن السيوف والرماح لم تبق على شيء من ملامحه قط . يا للهول ويا للبسالة! بضع وثمانون بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم ، يتلقاها رجل واحد فقط ، ثم هو بعد ذلك لم يشف صدور أعدائه الحنقين عليه لما ملأ قلوبهم حرداً وغيظاً من كثرة ما فعل فيهم ، لم يُبرّد أكبادهم كلُّ ما نالوا منه ولم يُذهب غيظ قلوبهم قتله ، بل

شوهوا الجثة ومثلوا بها ، لقد بلغ من المسلمين هذا المنظر أمداً بعيداً ونفضهم نفضاً من شدة التأثر ، وعظمت رغبتهم في معرفة صاحب الجثة ، ولبثوا مدة لا يهتدون إليه ، حتى تقدمت امرأة مجاهدة تحدَّرت منها العبرات الحرار ، وهي تحدق في أنامل الشهيد ثم قالت : « هو أخي أنس بن النضر ، عرفته ببنانه! » .

* *

رجع المجاهدون الأبرار ، الذين اصطفاهم الله رسلاً إلى الإنسانية المعذبة يفيضون فيها الرحمة ، ويشيعون العدل والإحسان ، رجعوا إلى المدينة يحفهم رضوان الله وتتنزل عليهم رحمته ؛ وقد خلفوا في أحد سبعين بطلاً استماتوا بإخلاص ليجعلوا كلمة الله هي العليا ، فنعمت أرواحهم بالشهادة . ولئن كان من بقي منهم على قيد الحياة قد أبلى البلاء الحسن وبذل طاقته ومجهوده ، فإن الحسرة لتذيب كبده على أنه لم يحظ بما حظي به إخوانه من شرف الشهادة ، ولم يخفف من حسرتهم إلا أملهم في أن يكرمهم الله بها فيما ينتظرهم من معارك .

لكن الله سبحانه رضي عن هؤلاء وأولئك ، وأنزل فيهم قرآناً ما يزال الناس يتلونه والعبرات تجري غزاراً من مآقيهم ، وما زال هذا الصوت الإلهي المقدس يهيب بالمسلمين والمستضعفين مدوياً في الآفاق : ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة ٩/ ١١١] .

ونحمد الله على أن هذا الفيض المقدس من شرف الدفاع ، ما زالت أمداده متصلة باستمرار ، وما زال الشهداء يتوافدون على ميادين الجهاد ؛ وما برحت هذه الطائفة المختارة من المسلمين تتكالب عليها الأعداء من كل جانب ، وما انفكت عرضة لتألبهم وهمجيتهم وضراوتهم والله يمتحن الخلف بما امتحن به السلف ، ويخص من شاء منهم بكرامته . ففي كل بلد إسلامي ميدان جهاد وشهداء دفاع ، وفي كل بقعة عربية عدو مستبيح وقافلة تستشهد ولن نزال إلى قيام الساعة نستشهد ، ولن نزال إلى قيام الساعة نتأسّى بتلك العصبة الطاهرة من شهداء أُحد ومجاهديها ، ولا تفتأ منا

طوائف تترى على آثار من سلف من أولينا كلما خلت مواضع في الصف احتلها فوج ؛ ولم ينس الناس بعد تلك الأرواح البريئة التي صعدت إلى بارئها في العراق وسورية وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وهي تكافح أحفاد الصليبيين من بريطان وفرنسيس وطليان وإن هذه القوافل لتستمر في تلبية نداء ربها بتهافتها على الشهادة ، كلما ردَّدت المحاريب ما أنزل الله في أبطال أُحد :

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب ٣٣/ ٢٣] .

فيا أيها الشهداء المخلصون الأبرار من لدن أُحد وبدر إلى معارك فلسطين وساحات المغرب الأقصى اليوم!

ويا أيتها الحلقة النورانية التي انتظم فيها أنس بن النضر وعبد الرحمن الغافقي . . . حتى عمر المختار وعز الدين القسام وفرحان السعدي ومن يخلف هؤلاء وأولئك في مشارق الأرض ومغاربها!

هنيئاً لكم الكرامة في دار الخلد ، فقد غضبتم لحق ، وحميتم الحرمة ، وحفظتم البيضة ، وجردتم سيوفكم تذودون لصون الأعراض والأموال والأديان من ذئاب البشر الجائعة الضارية ، وتدافعون عن الشرف والنبل والخير والمثل السامية ، حتى أسلمتم أرواحكم وقدمتم على ربكم تشكون وحشية الطامعين وفظائع المحتلين .

يا أيها الشهداء المجاهدون : لا حرم الله دنيانا من أمثالكم فأنتم منار الهدى ومصابيح الظلام . وعليكم رحمة الله ورضوانه .

معارج الأحداث

مقالة يعرض فيها أستاذنا الجليل آفة التسلّق والادّعاء، مفنّداً معايبها محذراً من مغبتها.
نشرتها مجلة الرسالة في العدد ٤٦٠ لعام ١٩٤٢.

ولست أعني بالأحداث من صغرت أسنانهم فقط، وإنما عنيت مع ذلك، أشباههم: ممن صغرت أقدارهم، وضؤلت معارفهم، ورقت عقولهم، وانحطت هممهم وتخلفت أعمالهم . . . ولو جللهم المشيب، وعلت رؤوسهم النسائج البيض.

ولعمر الله ما أدري لِمَ يُعْرض الكتاب عن طبقة هي إحدى عوائق النهضة الصحيحة لعصرنا، فلا يصفون منها ما يصف الطبيب من الجراثيم وأعراضها وفتكها، ثم ما يكون من سبل الوقاية، وطرق العلاج. وهي طبقة تراها منبثة في الشوارع والأندية والمجامع والمعاهد والدواوين . . . لم يرزقها الله من المواهب ما تستطيع أن تنفع به، وحز في نفسها شعورها بالضعة وسقوط المنزلة، فاندفعت في صفاقة وقحة تدّعي ما ليس فيها، ثم ترامت في الطعن على الناس ذوي الأقدار ليعتقد لهم الجاهل بذلك فضلاً.

فإن كنت تنسب أمر الأطفال الذين يبغون أن يكونوا زبيباً قبل (التحصرم) إلى غرة الحداثة، فماذا أنت ناسب إلى ما أعرض عليك:

هذا أديب حباه الله كل المواهب اللازمة للأدب، وأخذ نفسه بدرسٍ طويل وصبر أطول حتى أخرج للناس أدباً نافعاً وأصبح مشاراً إليه؛ فيطمح فريق من أحداثنا، هؤلاء إلى مثل مكانته، فلا يكلفه الأمر أكثر من محاولته جلب الأنظار إليه بالصراخ والغثاثة والدعوى العريضة، فإذا شكا إليك إعراض الناس، ونبهته إلى ما ينقص من وسائل أو مواهب، وأنه يحسن به أن يأخذ للأمر أهبته، رماك ـ في غيبتك ـ بالتثبيط، وحمل عنه هذه الفرية من كنت تظن بعقله البعد عن الانخداع.

وهذا يريد أن يكون كاتباً ولما يُحسن سبك جملة صحيحة بعد ، ولما يستوعب فهم صفحة يقرؤها فهماً صحيحاً ، يعرض عليك مقالة فتنصحه بالتعلم ، فيزورّ عنك محتجاً بتحقير شهاداته العالمية ويطوف إدارات الصحف أو المجلات هو ووسطاؤه ، فيروعك أن ترى سخفه منشوراً ، ويروعك أكثر أن تراه أحياناً قصد من لا تشك في اطلاعه وبصره ، فيغشه في فترة سأم وإعياء .

وذاك لم يدّع أدباً ولا كياسة ، ولكن حلا له أن ينتسب في الباحثين ، فسطا على بحث نشر في بلد بعيد ، وفقرات في الموضوع نفسه من كتابين قديمين ، فقطّع ذلك خمسين قطعة ، ثم عاد فوصل بين ما قطّع بجمل من عنده ، وقدم فيها وأخر ، ثم رقَّم هذه الجمل وجعل لكل رقم حاشية تدل على صفحة مصدره ـ تشبهاً بما فهم من الأسلوب الحديث ـ فاستوى له بإذن الله ما سماه بحثاً علمياً ، فإذا بك تجد كلاماً لا انسجام بين أجزائه ولا تساوق بين أفكاره يلعن بعضه بعضاً ، فإذا قلت له : إنه غير مفهوم ، أجابك : هذا هو الأسلوب العلمي .

وذلك ـ عافاك الله ـ لا أديب ولا كاتب ولا باحث ، لكنه لغوي يا سيدي ، يعني أنه يسود صفحات بالركاكة والابتذال والمط والتطويل والسخف ، حتى إذا واتاك صبرك وانتهيت منها قراءة ، وقذفت بالمجلة أرضاً ، وأغمضت عينيك تستعيد ما مرَّ بك . . . إذا كل ذلك : كلام في أن (وابور الزلط) من عامية مصر ، أو أن (الجسر) في عامية الشام هو (الكبري) في عامية مصر .

وإن كان محاضراً لبث أسبوعين (يبشر) بمحاضرته ويدعو لها ويلقاك في الطريق ، أو في حافلة الترام ، أو عند الوراق ، أو حاملاً حاجة ، أو منطلقاً عجلان ، أو منقلباً إلى دارك . . . فاستوقفك ساعة وحدثك بمحاضرته وما حوت من نكات ، وأكثر عليك من حركاته و(تهريجه) ، حتى يقتلك قتلاً ، فلا يتركك إلا وقد أخذ عليك عهداً : لتحضرنها أنت وأهلك وأصحابك وجميع معارفك ، فإذا وفيت بعهدك ، فويل لك من نفسك ، وويل لأصحابك : لقد شبعتم خجلاً من أنفسكم وتهكماً ، وأوسعكم المحاضر الكريم غثاثة وثقلاً .

وهذا نمط آخر خير مما تقدم : لا أديب ولا كاتب ولا باحث ولا لغوي ولا

محاضر ولا شيء من الأشياء مما يبرر أثره إلى الوجود ، ولعله يحسن أن يسلخ أهاجي الأموات يهجو بها الأحياء ، ولعله يتمدح إلى الموسيقي باطلاعه على التاريخ ، وإلى الكيميائي بباعه في الدين ، وإلى الرياضي بحذقه النحو ، وإلى التاجر بأنه شاعر . . . تطمح نفسه إلى أن يسند دعاواه بالانتساب إلى أي جماعة ذات شأن ـ ولو رسمياً ـ في العلم أو الأدب أو الصحافة ، فلا ترى الجماعات فيه شيئاً يسيغ أن يسلكه في زمرها ، فيشتد على أفرادها بالشتم والهجاء حتى تتحقق رغبته ، وما كانت لتتحقق لولا خراب الضمير الأدبي في بعض الأفراد .

وآخرون من غير هذه الأنماط : منهم في الشام ، ومنهم في العراق ، ومنهم في مصر ، أهمل الكتابة في شأنهم الأدباء غفلةً أو تهاوناً ، على أن أمرهم سيئ العواقب على المستقبل : تراهم مبثوثين في كل طبقة كما انبثت الطفيليات في المواد الحيوية ، إنها الجراثيم ، وعلى ضحاياها تحمل النتائج :

هنا نادٍ ذو غاية نبيلة يعمل بعيداً عن الدسائس ، فيندس فيه من لا يظهرون إلا على خراب غيرهم ، فلا يزالون به حتى تسودّ بين الناس صحيفته . وهناك صحيفة كانت راقية أخذت تشجع هذه الطفيليات بدل أن تنصحها أو تبعدها ، حتى انحط مستواها وكسدت سوقها بين العارفين .

فإن رحت تبحث عن بواعث الداء وجدته في فقدان الكرامة وضعف الضمير المسلكي عند القيمين على بعض دور الصحف والمجلات وأندية العلم ، ولو أنهم أقاموا لموازين الحق بعض الاعتبار ، لحفظوا أقدارهم من السقوط .

أفليس من واجب الأدباء أن نرى هذه الألوان في أدبهم ، وأن نجد فيه صفة هذه الطبقة والتحذير منها ومن ضررها على الناشئين وعلى سمعة البلاد الأدبية . ومعالجة هذا الداء واجبة ، إذ لا يخلو من مرضاه مصر من الأمصار . فهل لي أن أقرأ في هذه المجلة الكريمة لكتابنا الاجتماعيين كلمات شافيات ؟

وبعد ، فلست متشائماً ، ولا أمنع أن يكون فيمن ينتسبون إلى العلم والأدب أناس علماء حقاً أدباء حقاً ، لهم كرامة وبهم شجاعة ؛ لكنني موقن أنهم مشتتون ، جهودهم ضائعة غير متضافرة ، مع إيثار منهم للراحة والسلامة ، فلهؤلاء أقول :

إنكم حقاً في سبيل صون ميادين العلم والأدب عن الأدعياء الأدنياء ستلقون أذىً كثيراً ولكن العاقبة لكم ، والغثاء أبداً إلى الاضمحلال . وما بلينا به من كان قبلنا ، ولم يخل عصر من مثل هذه الطبقة التي لا تحسن شيئاً ، وتستطيل على المحسنين ، وما جمع الله لذي كرامة : الصدع بالحق ، والسلامة من الناس .

رسالة الطالب

[مهداة إلى طلاب العرب في جميع الأقطار]

مقالة نشرتها مجلة الرسالة في العدد ٤٦٥ لعام ١٩٤٢م

سلمني طالب في طريقي كتاباً باسمي ففضضته فإذا هم يطلبون مني أن أجيب على هذا السؤال : ما السبل التي ترونها ناجعة فيتجه إليها الطلاب ليكونوا الجيل الجديد : عماد البلاد الحقيقي ؟

وقد آثرت نشره هنا في مجلة العرب تعميماً للفائدة ، وسلكت في الإجابة طريق التبسيط والمثل ، متجافياً عن القواعد والنظريات ، وكل ما يحول دون فهم الطلاب لها الفهم الجيد .

أراد أحد كبار المحدثين أن يختصر الطريق على طالب يتخرَّج عليه في الحديث ، فحفَّظه مدة عشر سنين أربع مئة ألف حديث بأسانيدها . فلما أتقن الطالب الحفظ وودع أستاذه قبل سفره إلى أهله ، لم ينس هذا الأستاذ أن يخبره : أن هذه الأحاديث أربع مئة الألف كلها موضوعة لا تصحّ . فأسقط في يد الطالب وقال : « أضعتَ يا سيدي عمري في حفظ ما لا يصح . أساغ في ذمتك إهدار عشر سنين هنَّ أنضر العمر ؟ » . فابتسم الأستاذ ، وهدَّأ من حزن تلميذه قائلاً : « لم يضع شيء ، الآن يا بني أبصرت الطريق ، وصرت آمناً عليك كل تدليس ، مطمئناً إلى دخولك غمار هذا المجتمع الزاخر بالوضع والكذب والتلفيق ، ولن تعجزك بعد هذا معرفة الصحيح » .

أعجبتني طريقة هذا المحدث ، ووضحت لي حكمة الأصوليين القائلين : « درء المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة » . والخير في أن نحكم الوسائل السلبية لكل أمر قبل العناية بوسائله الإيجابية ، وأن نعنى بدفع الضار أضعاف ما نعنى بجلب النافع . فهل من حرج عليّ إذن ، إن أنا عدلت عن بيان ما يجب لبناء الجيل الجديد إلى بيان أسباب إخفاقنا نحن أبناء الجيل الحاضر ، فلعل أول النجاح لأبناء المستقبل أن

يتوقَّوا ما ارتطم فيه مَن قبلهم .

تسألون ـ أيها الطلاب ـ عن السبل الناجعة في تكوين الجيل الجديد ؛ ألا فاعلموا أنها سبيل واحدة فقط ، خطوتها الأولى أن تتجنبوا ما تورطنا فيه نحن أبناء الجيل الحاضر ، من عبودية لكل تقليد ضار في أخلاقنا وعاداتنا ونظمنا وتعليمنا . ولقد كان من أعظم الأسباب في إخفاقنا أمور ثلاثة : خلق منحل ، تستره دعاوٍ عريضة من الكمال والفضيلة والوطنية ؛ وعلم مزيف كاذب خير منه الجهل الصريح ؛ وفقر في وسائل كسب العيش من طرقه الشريفة ، هو أحد المظاهر في فقدان الرجولة . لم يثبت لنا ـ ولا حكم للنادر ـ أثر نافع في باب من أبواب الجد ، ولم نستطع أن نتحرر مما غرسوا في أفكارنا فأكثرنا مقلدون ببغاوات .

فإن رأيتمونا بعد هذا ـ والعالم من حولنا يجدّ ـ أحلاس الملاهي والمقامر والحانات ، مبددين فيها دم الشعب وثروته ، نصف نهارنا ومعظم ليلنا ، حاملين لأنظاركم أخنث الهيئات و(أميع الموضات) من تلميع وجوهنا وأحذيتنا وتصفيف شعورنا حتى إطالة أظافرنا . . . إن رأيتمونا كذلك فاغفروا لنا هذه الإضاعة وهذا الانتحار ، فلعنا ضحايا خطط خفية محكمة .

لا تمقتونا على إهانة الخلق وتبديد الثروة وقتل الوقت ووأد الكرامة والرجولة ، فما ينتظرنا من مقت الله والوطن أكبر من مقتكم .

لا تقلدونا ، فإنكم مخلوقون لزمان غير زماننا ، لزمان صعب كله جد ، لا مكان فيه لغير المجدين العاملين . . . وما كان زماننا لعباً ، ولكنا طبعنا على غرار واحد : أن نكون أطفالاً كباراً عالة في كل شيء ، لا نهتف إلا بما يوحى إلينا ، معطلين عقولنا وضمائرنا ، أبواق دعايات نموهها بالعلم أحياناً ، وبالنهوض بالوطن والدين أحياناً ، ثم نروغ إلى حيث نؤدي الحساب ، ونأخذ الأجر ، ونتلقى التعليمات لنعيد تمثيل الدور كرة أخرى .

منا الذين ورثوا الثروات الطائلة ، ولم يكن آباؤهم قد أخذوهم بتثقيف ولا تهذيب اعتماداً على غناهم ، فلما آلت إليهم الثروة كانوا على جهل تام بطرق تنميتها وحفظها فوكلوا أمر تدبيرها إلى مرتزقين خانوهم ، وانصرفوا إلى حاناتهم ومقامرهم

ومحال رذائلهم فما زالوا بها حتى خرجوا عن آخر قرش منها ؛ وألحت الرذيلة ، ولم يكن بدٌّ من كسبٍ ما بعد أن ركبتهم الديون ، وكان هناك من يحتاج إلى أسماء أُسرهم الفخمة فباعوا ضمائرهم ومصالح وطنهم ، وكانوا شر قدوة لمن دونهم .

ومنا الذين آلت إليهم الضياع الواسعة ، والقرى الغنية ، والمكوث فيها ، ومباشرة الأعمال الزراعية والزارعة لا تدر خيرها إلاّ على من يمنحها جهوده كلها ، وهؤلاء استكبروا أن يكونوا (فلاحين) كآبائهم ، وأرادوا أن يكونوا (بكوات) فما زالت زراعتهم تخسر حتى رهنوا القرى والضياع في مصارف أجنبية ، تخلق بيدها الرهن ، ثم صاروا إلى مآل أرباب الثروات .

ومنا الذين أرسلتهم أممهم ليأتوها بعلم الغرب وثقافة الغرب ومحاسن الغرب ؛ وأنفقت عليهم من أموال فقرائها ومساكينها ، ولم يمنعها فقرها من السخاء بالإنفاق ، رجاء أن يعوضوا عليها بعلمهم وخبرتهم أضعاف ما خسرت . . . ثم رجعوا . . . فإذا بعضهم عمي عن ذلك كله ، وأتانا بمفاسد الغرب وانحلال الغرب وأزياء الغرب وخموره ورقصه . . . وأنا أقسم غير متحرج ، أنك لو طفت الغرب كله لما رأيت من يعكف على الملاهي والقمار والخمور عشر الوقت الذي يعكفونه . . . وهؤلاء ـ كما تعلم ـ أرباب أعمال لو قاموا بواجباتها لما فرغ أحدهم لغير طعامه يلتهمه التهاماً ، ونومه يقطعه تقطيعاً .

ومنا الذين أخفقوا في أن يعرف لهم أثرٌ ما في علم أو أدب ، وأصر عليهم من منحهم الوظائف والشهادات أن يذكروا بشيء من الأشياء ، فراموا شهرة من أخصر طريق . وهل أخصر من أن ينكر امرؤ الوحي حتى يسمى بيننا مفكراً ، ولو جهل أين ولد الرسول ، وأين تقع مكة من الشام ؛ أو أن ينتقص النبي والخلفاء فيكون مؤرخاً ، ولو اعتقد أن فاتح بغداد هو عمر بن الخطاب ؛ أو يشتم الدين فيكون حر الأفكار . . . فيشتغل بعض الطلبة بالرد عليه في الصحف ، فيشغل الناس بأمره ولو ساعة من نهار .

ومنا الذين إذا كانوا في وظيفة لم يفهموا ما يفهمه كل موظف في العالم المتمدن من أن الموظف أجير لأرباب المعاملات ، إذا قصر في الواجب عليه كان خائناً كالأجير الذي يسرق الوقت المأجور عليه . . . فهم لا يفهمون الوظيفة إلا كرسياً

ينتفخون عليه مصعرين خدودهم ، بأيديهم لفائفهم يدخنون ويتماجنون ، وأرباب المصالح وقوف يتألمون!

ومنا المُطَبِّلون المأجورون لكل دعاية أجنبية : يروجون لها ويؤلفون لها الجمعيات والأحزاب . . . فمنا بحمد الله دعاة الفاشية والشيوعية والديمقراطية والدكتاتورية والإباحية ، وما شئت من مذاهب ونحل ودول . . . كل ذلك يجد من يخدمه ويتعصب له وينافح عنه ؛ فإذا رحت تبحث عمن يخدم قضية بلاده خالصة ، رجعت خجلاً من ضآلة عددهم في هذا الخضم الزاخر!

ومنا الذين إذا خرجوا من حيث يدرسون ، تحلّقوا حلقاً في حانات موبوءة ، وخيمة الهواء ، إلى جانب مدارسهم ، على مرأى من طلبتهم ، يلقنونهم بذلك أسوأ المثل وأحط الأخلاق ، وأبذأ الوقاحات ، حتى إذا كان للمعارف يوماً من الأيام وزيرٌ قويُّ الخلق ، غيورٌ ، ذو نخوة ، وأذاع على موظفيه بلاغاً يحظر فيه على رجال التعليم ارتياد مباءات السقوط أمضى هؤلاء البلاغ ، وهرعوا من فورهم سراعاً إلى حاناتهم تلك ، فشربوا ، نخب البلاغ معربدين معطعطين ، وأصابت فيهم الوقاحة المتسفلة أحط دركاتها .

أجل . . . أيها الأعزاء . . . منا كل ذلك ، ومنا شرٌّ من ذلك مما لا أستطيع التصريح به . . . فإن كنتم لا تتوقعون من هذه الجراثيم الطفيلية خيراً ، لا لأنفسهم ولا لبلادهم ولا لأمتهم ، فهذا هو الذي وقع ، وإن قدّرتم أنهم يأتون على أمتن القواعد من أساسها ، فهذا ما أريد منهم ، وهذا ما عصف ببنائنا من قواعده . وإن عزوتم ما في البلاد من كرامة وفضيلة إلى غمار الشعب طلبته المعصومين وبعض خاصته المهذبين فأنتم على صواب .

وإياكم أن تظنوا أن هذه السموم التي حملناها ـ شاعرين أو غافلين ـ هي محصول وطنكم ، أو أن بلدكم مما ينبت هذه الرذائل ، وفي فطنتكم غنى عن التصريح ، وصدق الله العظيم[1] .

* *

(١) الآية : ٢٧ من سورة النمل يعني قوله تعالى : ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ .

وبعد ، فأحسبني عدّدت ـ بأوجز لفظ ـ بعض الأسباب في إخفاق جيلنا ، ممّا تسمح به الظروف ، وعسى أن ينفّس الله الخناق فأعود ببعض التفصيل لما أجملت ؛ فإن وقاكم الله ـ أيها الطلاب ـ هذه الشرور ، وحمى جيلكم من هذه الآفات وتوابعها ، كونتم بأيسر سبيل عماد البلاد الحقيقي قوياً سليماً .

وإن كان لا بد من نصيحة إيجابية بعد ما تقدم ، فهي في أن تأخذوا من مدنية الغرب أسباب القوة المادية كلها : في العلم والتنظيم والصناعات . . . أما غذاء أرواحكم وقانون أخلاقكم ، فانشدوهما في تراثكم المجيد . . . وحذار حذار أن تخدعوا مهما مدّت لصرفكم عنه الأحابيل ، وتنوعت المكائد ، ولطفت الحيل ، ودقت الأساليب ، وخفيت الخطوات . . . ألا وهو : دينكم وثقافتكم ؛ عُضُّوا عليهما بالنواجذ ، ففيهما ـ أيها الناشئون ـ كل قوتكم وعماد سلامتكم ، أفراداً وجماعات . . .

لا تحيدوا عن سماحة القرآن وسموّ الإسلام وتعاليمه قيد شعرة ، وكونوا في ذلك رجالاً كل الرجال .

من نكبات الحزبية في تاريخنا

مقالة يعرض فيها مثالب الحزبية وما جرّت على أمتنا عبر التاريخ .
نشرتها مجلة الرسالة في العدد ٧٠٣ لعام ١٩٤٦م
وهي الفصل الأخير من كتاب أستاذنا (عائشة والسياسة) تحت عنوان (عبرة الحوادث) .

ليس هذا خوضاً في السياسة ، فأنا امرؤ ساء ظنه في محترفيها جميعاً ؛ وعلى أني منذ خمسة وعشرين عاماً مولع بتتبع أحداثها في الأقطار العربية وخاصة في الشام ومصر ، شغف بعشرة الخبيرين بخفاياها . . لم أخضها يوماً من الأيام كفاحاً وجهاً لوجه لا أنفةً منها ، ولكن أنفةً من حال الخائضين فيها . وإذا سألتني عن السر في تضييع الفرص على الشعوب العربية وحرمانها من خير لم تقصر في السهر عليه والجهاد له ، أجبتك : « إنه في داء واحد في الأقطار جميعاً هو : أخلاق القادة! » .

ارجع بصرك في أحداث الثلاثين سنة الأخيرة ، فستجد أن قطراً من الأقطار لم ين عن جهاد صادق سنة من هذه السنين ، ولم يبخل عن قضيته بنفس ولا نفيس . لقد بذل في سبيل ربه ووطنه دماءه وأمواله بسخاء كان مضرب الأمثال ، ولكن المتصدّين للقيادة بهم داء الكلب والتناحر وصغار النفس والتعلق بالسفاسف ، لا يخافون الله في أمة طوحوا بها في المهالك من أجل تمتع بمنصب أو جاه أو مال ، أو تلذذ بقهر منافس أوبمعارض . . . غير خجلين من أن يمدوا أيديهم ضارعين إلى أجنبي وصلوا إلى زعاماتهم بمجاهرة أمتهم بعدائه ، وهو يتربص بهم يوماً كهذا اليوم تقودهم فيه ضعة نفوسهم إليه صاغرين ، فيضرب بهم مستقبل أمتهم ، ويضيع عليها ثمرات نضالها الطويل ، ثم ينبذهم من بعد ذلك إليها نبذ النواة ، فإما أن يكون الله كشف عن بصيرة الأمة فجعلتهم نكالاً ، وإما أن يستغلوا (طيبتها) ثانية فيستأنفوا زعامة من جديد .

ولست أطمع في صلاح نفوس الساسة اليوم ، فالله وحده هو الذي يحيي الأرض

بعد موتها ، ولكني قوي الأمل في الأجيال الناشئة التي لم تشهد أيام الإذعان لسيطرة الاحتلال ، ولا عاينت لعب صبيانه بلحى كبارنا وساستنا ، وإنما شهدت كفاح هذه القوى الشريرة فنشأت على الإباء والنضال .

إني لأغتنم فرصة احتفال (الرسالة) بالعام الهجري الجديد ، فأضع تحت أبصارهم عبرة ماثلة لا تنسى أبداً عسى أن يذكروها كلما حاول من سبقوهم أن يجعلوا منهم وقوداً لفتنة تضرمها الأهواء والنزوات ، أو كلما نزغ بهم في المستقبل نزغٌ يحيد بهم عن خير أمتهم إلى إرضاء أهوائهم ، فيذكروا هول الخلاف الذي صلينا جحيمه في صدر دولتنا وما تزال مرارته الأليمة في كل نفس خيرة تدبرت عِبَر التاريخ .

إني لا أخوض سياسة ، وإنما أُطْلع هذه النفوس المعصومة على عواقب أول خلاف سياسي في الإسلام وما جرَّ من ويلات متتابعات ، ناقلاً إياه من كتاب انتهيت قريباً من عمله . وأنا أحب أن يجعل الناس بالهم أبداً ـ كلما قرؤوا التاريخ ـ إلى عبرِهِ وتجاربه فيأخذوا من كل شيء أحسنه ، ويربؤوا بأنفسهم وأمتهم أن يغامروا في تجربة ثبت ضررها وفسادها وخاصة إذا كان الثمن الذي قدّمناه فيها دماء عشرات الألوف من أبطالنا :

لقد كان أمر المسلمين الأولين عجباً من العجب : امتلأت نفوسهم بكل ما حباهم ربهم من خير في الإسلام ، فأحسنوا فهمه وأحسنوا الاستجابة لرسوله نساء ورجالاً . فوطدوا أركانه في الجزيرة ، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه ، واندفع هؤلاء المسلمون الأخيار في أقطار الأرض يريدون إعلاء كلمة الحق وإنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان : من شرور الظلم والجهل وامتهان الإنسان ؛ فحرر الله على أيديهم بلداناً وشعوباً كثيرة ، فأشركوا الناس كافة في سعادتهم وعدلهم وأمنهم . ومن عرف أنهم كانوا قبل عشرين عاماً فقط يأكل بعضهم بعضاً ، ويعدو قويهم على ضعيفهم ، قبائل متعدية ، وطوائف يغزو بعضها بعضاً . . . عرف نعمة الله عليهم وعلى الإنسانية بهذا التوحيد الذي ألف بين قلوب ما كانت لتتألف ؛ وأدرك المعجزة التي أتىٰ بها الإسلام في توحيدهم وخلقهم خلقاً جديداً جعل من سفكة

الدماء أنبياء رحمة ورسل هداية وإسعادٍ للبشر .

لقد أتوا ـ وكلمتهم واحدة ـ بالعجائب في حروب التحرير والفتح ثم البناء والتنظيم ، وكان منهم كل الخير لأنفسهم ولغيرهم فلما صبّت الدنيا خيراتها وكنوزها بين أيديهم ، وتقادم ما كان جديداً من روعة الدين وعهد الرسول وصاحبيه ، وكان أمر الشورى المعلوم ، وكثرت في هذه الإمبراطورية الواسعة المناصب والولايات . . . بدأت نوازع الطموح تتحرك في نفوس هؤلاء الأبرار فيكبتونها رهبة من الله . لكن عناصر الشر والغش والفساد من أهل النحل البائدة والأمم المغلوبة كانت أيقظ من أن تغفل عنهم وهي الخبيرة بمداخل الشر ومخارجه ، فما زالوا يفتلون لأولئك الطيبين في الذروة والغارب حتى استجاب بعضهم لأهواء نفوسهم من حيث لا يشعرون ، ودب دبيب الخلاف بينهم واشتغل بعض ببعض ، ووقفت الفتوح أيام علي رضي الله عنه حتى خيف على المسلمين من فلول الروم .

أرأيت ما يفعل الخلاف في الدولة القوية الفتية المتماسكة المتينة الأساس ؟

إنه يطمع فيها حتى المغلوب المشرف على الدمار ، دع ما أريق في سبيله من دماء غالية بدأت بالخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رحمه الله ، ثم أرفدت بدماء عشرات الألوف . وهذا (يوم الجمل) وهو يوم واحد أسفر عن خمسة عشر ألف قتيل على أقل تقدير في بضع ساعات ، فلا تسل عما بعده من (يوم النهروان) و(يوم صفيرة) وغيرهما من تلك الأيام التي أعملنا فيها سلاحنا في أنفسنا فأوقعنا الوهىٰ في دولتنا ، والتفرقة في صفوفنا ، والعداوة في قلوبنا . . . وكان الله قد غسل هذه القلوب وجمع تلك الصفوف .

ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل ويوم صفين . . . اجتمعت على الخير فسارت إلى قوى الشر شرقاً وغرباً لأكلت الدنيا بقوتها ، ولأحالت العالم حينئذ جنة يتحدث بنعيمها وسعادة أهلها الركبان . لكن الله الذي أيد هذه الأمة أول أمرها قضى أن يكون بأسها بينها ، فامتلأ تاريخنا بالحروب الداخلية ، وتحول عن مجراه السعيد الذي كان جرى فيه لخير الإنسانية عامة ؛ قضاء من قضاء الله لا حيلة فيه . ولست أدري ما يكون حال دنيانا الآن لو أن العرب لم يفسدها الخلاف والتطاحن ، ولم

تنزل بأسها بينها ؟ ولو ذهب باحث يحصي هذه الدماء المهراقة في سبيل الخلاف منذ قتل عثمان حتى اليوم ، في المشرق والمغرب والأندلس إذن لأفزعته هذه الملايين منها ، ملايين لو بذلت في سبيل الحق لكان تاريخ العالم كله على غير ما نعرف ، ولكنا أهل الحضارة فسأل ربه ـ فيما سأل ـ أن يجنّبهم إضراره ، إذ علم أن هذه القوى الهائلة المتراصة التي عمرها إيمان لم تعرف الأرض له مثيلاً كفيلة بفتح الأرض كلّها لدعوة الخير والحق ، لا تقف لها قوة إلا أن تنشق هي على نفسها فرووا عنه أنّه قال : « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة :

سألت ربّي ألا يهلك أمتي بالسَّنة (القحط) فأعطانيها .

وسألت ربّي ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها .

وسألت ربّي ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها »[1] .

ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

* *

انقضت الخلافة والخلاف بخيرهما وشرهما ، ولم يبق منها إلا هذا التاريخ بين أيدينا مملوءاً بالعبر : فلنتعظ به ، ولنحذر أي تفرقة بيننا بكل ما نستطيع ، ولتكن تلك الدماء الذاهبة ضياعاً حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة ، فلا نعيدن فاجعتها جذعة ، ولنهرب من كل خلاف وتفرقة هرب السليم من الأجرب ، فإنهما يبدأان صغيرين لا يؤبه لهما ثم يعظمان حتى يلتهما الأخضر واليابس .

وإن أعجب لشيء فلأولئك الذين مازالوا يجتمعون ويتفرقون متجادلين في هؤلاء الصحابة الأخيار : أيهم المؤمن وأيهم الكافر ؟ أيهم على الحق فيحمد ، وأيهم على الباطل فيذم ؟ ويتقربون إلى الله في لعن رجال : ما منهم أحد إلا وله السوابق الحسان في نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله والدفاع عن رسوله ، وما فيهم إلا من بذل ماله ودمه ودم أهله للخير العام ، فخلفوا لنا بفضل إخلاصهم هذه البلاد الواحدة على ترامي أطرافها . إنها وحدة جامعة عجزت ضربات الدهر وسطوات الدول ثلاثة

(١) صحيح مسلم ٧ـ١٧١ (الأستانة سنة ١٣٣٣هـ) وانظر مسند أحمد ١ـ١٧٥ .

عشر قرناً عن أن تنال منها ما يقضي عليها ويمحوها ؛ فما زال العراقي إذا هبط أقصى المغرب في مراكش لا يحس بغربة عن أهل ولا وطن أستغفر الله ، بل ما زال المسلم الصيني من أقصى الشرق إذا هبط ساحل بحر الظلمات تلقته القلوب بالبشر والترحاب ، لقد جمعهم الله بمحمد وصحبه على كلمة حق واحدة فلن يفرق أحد ما جمع الله بمحمد وصحبه .

لست بسبيل تعداد المآثر المشهورة لأولئك الأخيار الذين هم موضوع الخلاف كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة ، فأصغر أعمالهم عند الله يمحو كل ما يذكر خصومهم من أخطاء ، وقد ذهبوا إلى خالقهم الذي أرضوه بأعمالهم ورضي عنهم ، وسجل رضاه هذا في قرآنه الكريم يتلى ما بقي على الأرض إنسان .

فلنمحضهم جميعاً محبة واحدة ، ولنستغفر لهم ولأنفسنا ، لنذكرهم بكل خير جزاء ما خلفوا لنا من وحدة قوية ، ودولة مثالية بنوها بجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، جهاداً رخصوا فيه مهجهم وضحوا بأعز ما يملكون ؛ ولنطرح عن عواتقنا مخلفات عصور الانحطاط والشعوبيات ، ولنقتد بهؤلاء الأخيار أنفسهم حين يعرض بعض لذكر بعض ، فقد نزع الله ما في صدورهم من غل ، وعادوا إخواناً متحابين كما أمرهم الله أن يكونوا .

وإن الله عز وجل لم يتعبد أحداً بشتم صحابي ولا لعنه ، بل عظم من شأنهم ، وغفر لهم ما أخطؤوا قبل أن يخطئوا ، ولولاهم لكان العرب اليوم في وثنية أو جاهلية ؛ فما هذا جزاء من أنقذنا به من الضلال والفرقة ، وخلف لنا ملكاً سعيداً وماضياً مجيداً وتاريخاً حافلاً بكل ما يرفع الرأس ويخلد أحسن الذكر وأطيب الثناء .

* *

فرقت السياسات قديماً أمر المسلمين وشتت شملهم ، ثم عززها أهل الكيد والدس بغشهم حتى جعلوها تتغلغل في الأديان والعقائد ، وصار الدين الواحد أدياناً ، والأمة الواحدة طوائف شتى وما الأمر كله بالذي يستدعي بعض ذلك ، فلنأخذه بالتوسعة والتسامح ، ولكل رأيه في السياسة وفهمه للتاريخ فلا يضيقن أحد

بفهم أخيه ، ولا نجعلن خلاف الرأي في السياسات الماضية (والحاضرة) والحزبيات البائدة (والحاضرة) مفرقاً وحدتنا وصادعاً شملنا ومخمداً نارنا ، ولا نجعلن هذه الأحقاد والعداوات تتوارث إلى يوم الدين .

إن الأمم من حولنا كالجياع على القصاع ، فلن يجدينا في موقفنا اليوم ذلك الجدل ولا تلك الفرقة ، بخويصة أنفسنا ما يشغلنا عن هذا الباطل ، وفي مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق . . . فلنقابلها صفاً واحداً وأمة واحدة كما بدأنا الله ، ولننبذ عصور الظلام وآثار الجهل وضيق الأفق بمخلفاتها جميعاً .

إن ربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ورسولنا واحد ، فلنعد دائماً كما أراد الله لنا ، ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وفرقة . فالظروف عصيبة ونحن على مفترق الطرق ، وإننا لمحاطون بالأعداء داخلاً وخارجاً ، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا ؛ فلا نعيننَّهم على أنفسنا ، ولا نضعنَّ في أيديهم السلاح الذي يقتلنا ويجعلنا لهم طعمة سائغة .

* *

ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا لم يجعل للفرقة إلينا سبيلاً ، ولا جعل بأسنا بيننا ، وليت هذه السابقة التي هونت على الأمة الواحدة أن يقاتل بعضها بعضاً لم تكن قط .

فليت الظعينة في بيتها ... وليتك (عسكر) لم ترتحل[1]

ثم ليتنا بعد هذا كله نعتبر بما في الخلاف من ضرر بالغ في كبير أمرنا وصغيره .

---

(١) عسكر اسم الجمل الذي ركبته السيدة عائشة على رأس جموعها في أول فتنة قسمت العرب في الإسلام صفّين متعاديين .

حذار يا سيدتي

مقالة تمثل عبرة من كتاب (عائشة والسياسة) يتوجه بها أستاذنا بصدق إلى النساء في كل زمان ومكان .

نشرتها مجلة الرسالة العدد ٧٣١ لعام ١٩٤٧ .

الآن ، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومغامراتها السياسية ، وآثارها القريبة والبعيدة في حياة المسلمين أودعك موصياً أن تجعل بالك أبداً ـ كلما قرأت التاريخ ـ إلى عبره وتجاربه ، فتأخذ من كل شيء أحسنه ، وتربأ بنفسك وبأمتك أن تغامر في تجربة ثبت ضررها وفسادها ، وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمناه فيها دماء عشرات الألوف . وأنا أريد أن أختم كلامي بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التي تعرض لقارئ هذا الكتاب ، تنقذاننا مما نحن فيه اليوم من تخبط ، وتنيران لنا طريقاً طال تعسفنا في المتاهات دون أن نهتدي إليه .

أما **الأولى** : فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدسّ أنفها في المنازعات السياسية . إن لها أن تنصح وتبصر القريبين منها بعواقب الأمور ، وليس لها أن تشارك في القلاقل والاضطرابات والفتن . إن بيدها مفاتيح خطرة في التأثير في نفوس الجماهير وفي استغلال حميتهم ونخوتهم ومشاعرهم ، وهذا السلاح غير حميد في العواقب ولا يصح استعماله بحال . وقد أبنت لك أنه لولا موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التغير كله ، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرقي مباركاً ، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية . . .

وكأن الله الذي جعل النساء لتنشئة الرجال وتربية الأجيال وإدارة البيوت ، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لا تنسى ، كلفتهم كل تلك الدماء المهراقة ، وفجعتهم بالألوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ، ومن الفحول المذاويد من أبطال الفتح وأعاظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس . . . ليعلموا : أنْ لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم بامرأة ، لقلت بعائشة أم المؤمنين ، تلك

السيدة الحصيفة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة والصلاح . . . ما لم يؤته رجال كثيرون مجتمعين ، والتي جمع الله فيها من المآثر العظام ما تفرق في العدد العديد من الفحول .

لقد خلدت حرب الجمل مناراً في تاريخ المسلمين : كلما نزغَ بهم نزغ من تقليد أعمى لغيرهم من الأمم ؛ أو مس من رجعية ذميمة ، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال ، أو هموا أن يخرجوا بها عما خلق لها وخلقت له . . . قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في صدر تاريخنا ؛ فما بنا من حاجة إلى أن نعيدها عبثاً ، أو أن نهرق في سبيلها ثانية دماء جديدة ، ونخرب بيوتاً عامرة . . . ومن لنا مع هذا بمثل عائشة .

وليذكروا أبداً أقوال عائشة بعد ما عاينت هول ما جرته مغامرتها السياسية على الأمة من ويلات ، إنها قضت عمرها حسرة وندامة ، حتى أذابت الحسرة قلبها وكبدها وحتى قتلها الحزن قتلاً . وفي هذه الكلمات البليغات منها عبرة لنا أي عبرة :

« ليتني لم أخلق » ، « ليتني كنت شجرة » ، « ليتني متّ قبل يوم الجمل بعشرين سنة » وقد كانت آخر كلماتها التي ودّعت بها الحياة قولها : « إن يوم الجمل معترض في حلقي ، ليتني لم أخلق » .

* *

إن هناك مجالاً واسعاً لنشاط المرأة حين تجد وقتاً فاضلاً عن شؤون التربية وإدارة المنزل ، تستطيع به أن تملأ الأجواء خيراً ورحمة وإحساناً . هذه وجوه الخير مفتحة الأبواب في وسع المرأة أن تلجها ، فتمارس أموراً عظاماً ، وتبذل مجهوداً مشكوراً يعود على أمتها بما لا يقل عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر .

أمامها من ميادين الخير : التمريض وإسعاف الفقيرات من بنات جنسها بالعلاج والدواء والطعام والكساء . وفي مجتمعنا من المحتاجات ما يشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفي بحاجتهن عشرات المستشفيات .

وأمامها أيضاً كفاح الجهل في بنات جنسها ، فلتنشئ لهن المعاهد ذوات

المناهج الصالحة لتنشئة الأمهات على ألا تستعير لها برامج الذكور (ببعض التعديل) فقد ثبت مع الزمن أنا حتى الآن لم نقم التعليم الصالح للبنات[1] .

وهناك أمام المرأة العناية بتربية اليتيمات وإنشاء (المياتم) وتعهد أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ، ثم إشاعة الثقافة الصحية بين النساء عامة . . .

ويجب أن ينشأ فيهن المتخصّصات في جميع الفروع التي يحتاج إليها النساء والأطفال ، وأن يكون منهن العدد الوافي بالحاجة بحيث يسددن عوز النساء في علاج أمراض العين والأسنان والأمراض الداخلية والجلدية وفي حاجات التوليد .

فإن كان ولا بد من زيادة فإلى المساهمة في كفاح ما يتفشى في المجتمع من امتهان المرأة وإشقائها عن طريق البغاء والقمار والخمور وغيرها من المفاسد التي ضاق بشرورها المفكرون في الغرب والشرق . . .

لدى المرأة إذن كثير من أعمال الإحسان تنتظر من يقوم بها ، وفي ذلك الخدمة المخلصة للأمة وإعمارُ البيوت وإفاضة الخير والسعادة في المجتمع . . .

ونحمد الله على أن في فضليات نسائنا من تحاول سد هذه الثلمة ، إلا أن نسبتهن قليلة جداً بالقياس إلى اللائي تنكبن الجادة متخبطات على غير بصيرة ، فهجرن بيوتهن واكلات أمورهن إلى الخوادم ، وطفقن يمارسن ما لا يعود عليهن وعلى أُسرهن وأمتهن إلا بالضرر الخالص والإفساد الكبير : من إقامة حفلات ساهرة مخجلة ، وغشيان مجتمعات وأندية ، واقتحام أسفار ، وعقد مؤتمرات لا يبلغن فيها أمراً نافعاً ، بل كثيراً ما يرجعن وقد سبقتهن أشأم الحوادث وأسوأ الأخبار . . . مما يدع السامع ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق :

---

(١) ينبغي أن تكون أكثر مواد هذا التعليم بحوثاً واسعة تجريبية في كل ما تحتاج إليه الأم في الصحة والدين وشؤون المنزل وتربية البنين وحسن العشرة . . . لا خليطاً غير منسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات الكيمياء وقوانين الطبيعة . ولنجعل التاريخ الذي يدرسنه مملوءاً بسير الذين ضربوا المثل العليا للبشر في سمو النفس وابتغاء الخير وخدمة الناس ، وفي الفضائل الحية ممن أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير ، وكانوا للإنسانية رعاتها الأبطال المخلصين من رجالنا ونسائنا على السواء .

وكنـــت إذا حللـــت بـــدار قـــوم رحلـتَ بخـــزيـــةٍ وتـــركـــت عـــارا

يقلدن بذلك نساء ضج عقلاء أممهن من أحوالهن[1] وسقط مقامهن فيها من كثرة هذا التبذل والعبث ، وعدن على بنات جنسهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوثن من سمعة المرأة عامة . ليتنا إذا جئنا بالتقليد اخترنا من نقلد ، ففي كل أمة من فضليات النساء النافعات من يحسن الاقتداء به ، ولكننا ننتقي أحط المبتذلات ثم نسبقهن في الابتذال أشواطاً يخجلن هن أنفسهن من السعي إليها .

وأبعد من هذا ، أننا إذا أمعنا في البيت وما يحتاج إليه تدبيره على خير نسق من علم واسع غزير في الصحة والأخلاق والتربية وعلم النفس ، وسياسة الزوج والأطفال ، وسياسة المورد والمصرف ورعاية ذلك كله . . وجدنا أن علم ذلك وإتقانه وحسن إمضائه لا يكاد يبقى للمرأة القديرة ذات المواهب الجمة من فراغ أو جهد فكيف المتوسطات بله الضعيفات . إن ما يلزم لتصبح الأنثى امرأة (مثقفة)

---

(١) وددت لو تفرغ طائفة من علماء النفس إلى دراسة نفسية عميقة للنسوة اللآتي يطالبن بالحقوق السياسية في أوربة وأمريكة واللاتي استغرق (نشاطهن) الاجتماعي كل وقتهن ، فلعل في أعماق نفوسهن هوى سحيقة ومرارات أليمة وعللاً وشذوذاً . . . وشعوراً صارخاً بنقص ماثل لأعينهن كيفما توجهن ، فآثرن تناسيه والهرب منه بذلك (النشاط الاجتماعي) . والطريف أن هؤلاء لم يكثر عددهن إلا في هذه السنين الثلاثين الأواخر ، حين فقدت أوربة الشعور بدفء الأسرة ونعيمها وروحها ، وخلت البيوت من جوها الجميل الجذاب ، جو التآلف والاجتماع والتحاب والتعاطف ، وأصبحت مائدة البيت قلما يجتمع عليها اثنان بعد أن تشرد أفراد الأسرة وتبعثروا في المطاعم والسهرات . فلو كان بناء الأسرة متماسكاً متيناً حبيباً كعهده الأول ، ما كان المطالبات بحقوق الانتخاب والنيابة والوزارة والتمثيل السياسي وما إلى ذلك . وإذا أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ في روسية السوفييتية، حيث يراد إقامة مجتمع لا بناء للأسرة فيه ، فإنه لا يتخيل بحال امرأةً عضواً عاملاً في أسرة ثم تكون مندفعة في تيارات السياسة وما إليها في وقت معاً .
وددت أيضاً لو شرع الفنيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا نسبة ربات الأسر اللائي أنعم الله عليهن بالزواج والولد بين الطالبات بحق الانتخاب مثلاً ، ثم أحصوا نسبة الجميلات منهن ، ثم . . ثم . . إني لأخشى أن تكون الكثرة الكاثرة منهن ممن حرمهن الله الجمال والزوج والولد ، فتنفس على المجتمع نظامه ، وعلى الأخلاق قوانينها ، وعلى السعادة وجودها على الأرض وآلين على أنفسهنّ ألاّ يضعن الحرب حتى يعمّ العدل وجه الأرض ، وما العدل عندهن إلاّ هدم الأسرة ، وأنظمة الزواج ، وسلطان الضمير ، ومحو السعادة جملة .

ليتضاءل أمامه ـ في اعتقادي ـ كل ثقافة ثانية مهما كانت رفيعة مفيدة .

وعلى المرأة الجادّة بعد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن تشارك في شرف الخدمة فيها ، على شرط واحد : هو أن تتم كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرتها أولاً ، وإنما يكون التطوع والصدقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد .

* *

هذا ، ولست أقول : إن المرأة لا نفع منها في باب السياسة ، أستغفر الله ، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط : هو أن تتحلى بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشئ عليها أولادها ، فما في امرأة فرطت بفضائل دينها من خير قط . والناس على حق حين يهملون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جامحة على الآداب النسوية التي شرعها الله . والدين للمرأة هو كل شيء في نظر زوجها وولدها وأسرتها والناس أجمعين ، فإذا جاهرت بشيء من الخروج عليه فقدت كل احترام في النفوس ، وانتقلت نظرة الناس لها دفعة واحدة من التقديس إلى الزراية .

إن من لم تكن أمينة على دينها لن ينتظر منها إلا الشر والخيانة لأسرتها ووطنها ، مثلها في ذلك مثل الرجال : رق دينهم فلما مارسوا الشؤون العامة مالئين الدنيا صخباً بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم ، كان بلاء الأوطان منهم وحدهم ، إذ كانوا لا يخافون الله ، ولا يرعون لدين عهداً ولا لضمير حرمة ، فانطلقوا يشحنون الأرض خسفاً وكسفاً ونهباً وسلباً واحتكاراً وغلاء وإهداراً للكرامات والقيم وتضييعاً للأمانات والحقوق . وبذلك ضربوا أسوأ الأمثال وأظهروا وطنهم بشر المظاهر . . . ومن مات وازعه الديني ونسي يوم الحساب فلن يرده عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب . . .

وأنا على يقين من أن أمهاتهم مسؤولات ـ إلى حد بعيد ـ عن هذا الخزي الذي ارتطموا فيه ، إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشعارهم خوف الله والحساب . لقد حرمتهم النشأة الدينية الفاضلة فلم يعرفوا لذتها ، ولم يتعهدن ذمتهم وأخلاقهم ففقدوا في أنفسهم الكرامة الإنسانية ، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب ، فعمّ البلاء البلاد والعباد .

إلى هذا الحد تبلغ جريمة المرأة الناشئة على غير دين ، و تعظم المصيبة بها ، وتستفحل آثار شرورها في مستقبل الأمة وسلامة المجتمع .

فلها إذن آثار بعيدة في السياسة ، وهي تسدي لوطنها أعظم الفضل أو تبلغ منه أعظم النكاية ، لا بنفسها مباشرة فقط ، ولكن بنفسها وبما تنشئ عليه أبناءها سياسيي الغد من فضائل أو رذائل ، وبما تنال ضمير الناشئ ووازعه الديني من عناية أو إهمال .

* *

ذلك وقد أعان على تردي المرأة في الخروج على أنوثتها وفطرتها فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاماً ولم يحملوا إخلاصاً ولا أمانة ولا نصحاً . دفعهم الرياء المغشوش على أن يغرقوا في مجاملة المرأة المشتطة الطائشة ابتغاء العبث بها وبكرامتها ، فحمّلوها فوق ما تستطيع من السخط على الطبيعة التي فيها لكل كائن عمل خاص . وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى ما يسعدها من علم وخلق ، وإلى ما يعزها في المجتمع سيدة بيت ومربية أجيال . وكان من حقها أيضاً على من يزعم نصرتها أن يمسكها عن أن يهوي بها الطيش في مكان سحيق فتفقد ما لها من حرمة هي ملاك أمرها كله في المجتمع . ليتنا في غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضي ونسير غير متخبطين : نبصر مواطئ أقدامنا ونتقي المزالق ، ونجند كلاً في ميدانه الذي يصلح له . لقد تداعت علينا الأمم ، وطمع فيها حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق ، وغزينا في أخلاقنا وبلادنا وأموالنا . . . وليس في جهودنا فضل ننفقه في رد العابثين عن عبثهم ؛ فليتق الله حملة الأقلام وليصونوا الشاردات عن القطيع ، وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن في أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأنثى أولاً ، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا .

وما الانهيار السريع الذي قضى على بعض دول الغرب العظمى في مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة ، ببعيد فينسى . ولنا فيه درس وموعظة وبلاغ[1] .

---

(١) انظر البحث المتقدّم : من نكبات الحزبية .

خاطرة من سيرة علي بن أبي طالب

حديث إذاعي أعدّه أستاذنا لإلقائه في رمضان فيه من الإعجاب بشخصية الإمام ، والبوح بمحبته ما فيه ، غير أنّي لم أقع على ما يشير إلى تاريخه ، أو إن كان قد نشر في مكان ما .

ما أقصر عمر الإنسان ، سنوات معدودة ، عليه أن يقطعها إلى نهايته في مراحل ، كالعربي القديم يخرج من مكة على راحلته إلى الشام مكابداً حر الشمس في صحاري الجزيرة ، تسلمه مفازة إلى مفازة ، يسير الليل ويقبع النهار ، لا جديد بين يدي سفره غير وهج الصخور وسعير الهواجر ، وبحارٍ من الرمال عن يمين وشمال ، ثم كِسر يابسة يتبلغ بها ، وصبابة من ماء يحرص على ألا تنفد فيهلك هو وراحلته عطشاً ؛ فإذا لمح في طريقه الشاق الطويل مورد ماء أو قليلاً من ظل أو نزراً من خضرة ، مال إليه كأنه ظفر بجنة الخلد والنعيم المقيم ، يريح راحلته وبدنه من سفر مضنٍ ، وعرق متصبب .

هذا حال الروح مع صاحبها الغارق في حياته المادية الكادحة المتلاحقة بهمومها وأفراحها وأحزانها ، هي مسافر في صحراء جائعة عطشى مكدودة على شفا المهالك ، أما اللحظات التي نصلها فيها بعلم المُثل والفضائل فهي الواحات النضرة في سفرها ، تروي فيها ظمأها وتبعث نشاطها وتبل شوقها ، وترد حياتها ، وتشعر بالسعادة فتحلّق منتشية في عالمها العلوي .

ورمضان ـ أيها المستمعون الكرام ـ واحة الروح ، تبلغها بعد أحد عشر شهراً من سير حثيث جاهد ، فتجد عليها عالماً آخر في انتظارها تأنس به وتحن إلى مباهجه ، فيه تخفيف من أعباء المادة ، ورياضة النفس على شيء من الصبر . والبدن على قليل من الشظف ، ثم إقبال على الاتصال بالله ليلاً ونهاراً . فالصائم إن باع أو شرى ، أو أخذ أو أعطى ، راقب الله وابتغى رضوانه في بيعه وشرائه وأخذه وعطائه ، وإن صلى أو قرأ القرآن شعر في قرارة نفسه بإشراق لا يألفه في غير رمضان ، ووجد لكل صدقة

أو قربة يتقرب بها حلاوة غير التي يعهدها ، وإن أراد متعة فاستمع إلى الإذاعة وجدها قد أعدت لتلائم الجو العلوي الذي يعيشه .

إن رمضان محطة تتزود فيها الروح زادها من العام إلى العام ، ومن هذا الزاد سير العظماء الصالحين الذين عاشوا على الأرض ، وكأنهم الملائكة طهراً ونزاهة وسمواً وإيثاراً لخير الناس على النفس وهواها ، والرضاء لله على رضا غيره ، وللآخرة على الأولى .

* *

موضوع حديث الليلة واحدٌ من هؤلاء العظماء الصالحين ، هو الصحابي الجليل ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وخاتمة الخلفاء الراشدين ، أول الناس إسلاماً بعد خديجة ، وربيب النبي صغيراً في بيته ، وأخوه كبيراً في حياته ، البطل الشجاع ، والفارس المغوار ، أبلغ الخطباء بعد النبي . ومَفْزَعُ الخلفاء في الشورى والعلم والقضاء ، **أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** .

ومن ظن أنه يستطيع المرور ببعض مآثره في حديث أو أحاديث فقد ظن جهلاً ، إن المجلدات لتضيق عن ذلك . والذي سنذكره في هذه الدقائق خطرات عن الرجل الذي امتحنته الدنيا بكل مغرياتها فذلت مغرياتها تحت قدميه ، ثم حطت عليه بكل بلاياها ومضايقاتها لتزيحه شعرة عن صلابته في الحق فخسئت البلايا والمضايقات ولم يتزحزح ، وبقي علي بن أبي طالب مَعْلماً من أشمخ المعالم في تاريخ الإنسانية . مثلاً أعلى للحاكمين الذين لا يعيشون لأنفسهم ، وإنما يعيشون للخير العام والفضيلة الخالصة والمثل الرفيعة النبيلة ، هازئاً بكل المرغبات والمرهبات التي تقوم أعذاراً لكبار الرجال حين يميل في يدهم الميزان .

ومن قرأ التاريخ وكتب الطبقات وجد علياً في الصف الأول من كل طبقة : في مقدمة الفرسان الشجعان ، وفي طليعة المجاهدين القواد ، وعلى رأس العلماء والزهاد ، وأول القضاة ، وفي المحدثين ، وفي المفسرين ، وفي البلغاء الخطباء ، وفي المتصدقين . . . إنه أمة في رجل ، وليس هذا بكثير على ربيب النبوة في منزل الوحي .

وخاطرة اليوم تحوم حول منقبته راعياً للأمة وأميراً للمؤمنين ، وكلنا راعٍ ذو سلطان قلّ أو كثر ، ولكننا لا نملك في أنفسنا ما ملك في نفسه فإذا استطعنا أن نتمثل مواقفه كلما جمحت بنا الأهواء فاقتدينا به ما وسعنا الاقتداء كان هذا حسبنا نفعاً وخيراً .

لم يكن لهوى النفس ولا لسكرة السلطان سبيل على هذا الراعي العظيم ، حتى في المواقف العصيبة الدقيقة الي لا ينجو فيها العظماء من ضعفهم البشري . انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فطاشت العقول ، وأخذت الناس غشية المصيبة ، كِبارُهم وصغارهم في ذلك سواء ؛ حلماؤهم وضعفاؤهم . ثم رجعوا إلى أنفسهم قليلاً قليلاً ، وعرفوا أن لا بد من خليفة للرسول يقوم بهذا الأمر ، والتفتت أذهان كثير من أجلاء الصحابة إلى علي ، فلما بويع أبو بكر كان له علي نعم المشيرُ ونعم المعين ، ولم يأنف أن يكون جندياً في خلافة أبي بكر ، ولو كان لنفسه عليه سلطان كما نعهد في المرشحين ودعا إلى نفسه لوجد المؤيدين ، لكن علياً وعمر وعثمان وأبا بكر طبقة من البشر كبار النفوس قل أن يجود الزمان بمثلها . ثم يبايع عمر ثم عثمان ويخلص علي النصح لهما ، ويبقى كعهده أيام أبي بكر حسن طاعة ، وسماحة ، وخلوص نصح ، وعرفوا له جميعاً عظمة نفسه ، وأنه ركن من أركان الإسلام ، حتى حين تغلب على عثمان آخر حياته بطانة في إخلاصها شك ، فجعلته يطرح رأي علي ويأخذ برأيهم ، حتى في ذلك الحين لم تأخذ علياً موجدة على عثمان ، واستمر على تقديم كل خير يطيقه . ثم آلت الأمور ـ كما يعرف قراء التاريخ ـ من سيئ إلى أسوأ . وحوصر عثمان وتألبت عليه زُمر الشر فجرفت معها الصالح وغير الصالح ، ولم تخامر نفس علي في هذا الموقف نزوة ولا انتصار لرأيه ، بل عذر عثمان ، وهبّ ينافح عنه ويخفف من غلواء أهل الأمصار . ولما بلغ السّيل الزُّبى ، وغلب رأي بطانة السوء ترك علي ابنيه الحسن والحسين بسيوفهما على باب الدار دار عثمان يحمونها مع نفر من خيار الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار ، وحذرهما أن يخلُصَ أحد من الغوغاء إلى عثمان وفيهما عين تطرف . لكن الأشرار تجنبوا الباب أولاً وتسوَّروا جداراً لا حرّاسَ عليه ، ووقع القضاء بالخليفة الصابر

الشهيد ، وهو يقرأ القرآن . فلما بلغ علياً مقتله لم تسعه الأرض ، وأسرع إلى الدار ، فلم يكن منه إلا أن لطم ابنيه الحسن والحسين ظاناً فيهما التقصير ، وهذا موقف يحسن أن يقف عنده طويلاً زعماء الأمس واليوم يتفهمونه حق التفهم ، حتى لا ينصروا نزواتهم وأهواءهم حين يختلفون وينسوا شعوبهم ومصائرها ، لقد كان أحوج الناس إلى هذا الدرس زعماؤنا يوم نكبة فلسطين .

ثم بويع علي ، ولكن أيَّ بيعة ؟ إنها لم تكن كبيعة عمر ولا عثمان ، فقد آلت إليهما أحوال موثّقة ، وسياسة رشيدة حازمة ، وأمر جميع ، وكلمة موحدة وأمة تناهض عدوّها صفاً واحداً ، وتسعى إلى نشر رسالة واحدة ؛ وآلت إلى علي أحوال منتشرة ، وسياسة أفسدها بطانة السوء . وأمر شتيت ، وكلمة متفرقة ، وأمة يناهض بعضها بعضاً والعدو بها متربصٌ . . فحمل الأعباء بعزم البطل المنقذ المؤمن بتأييد الله ، وشمر للإصلاح ، فغيّر الولاة الذين انتشر اضطراب الأمر على عهدهم . وبدأ بأقواهم شكيمة وأكثرهم حزباً وناصراً : معاوية بن أبي سفيان والي الشام على عهد عمر وعثمان . ونصح علياً الناصحون أن يبقيه سياسة ورفقاً فأبىٰ عليه يقينه وقوته في الإصلاح ، ومتى حسب أولو المبادئ والرسالات للسياسات حساباتها ؟ خلع معاوية فشذ معاوية بالشام عن البيعة والجماعة ، فانشطر الصف الواحد ، ولم يكد علي ينظر في هذا الأمر حتى فوجئ بخرق أوسع بأم المؤمنين عائشة وبطلحة والزبير وأهل البصرة وبعض أهل مصر ينسلون من البيعة له ، ويعلنون أن لا بيعة إلا بعد الأخذ بثأر عثمان . وكان هذا ما طُلب أقرب إلى التعجيز في تلك الظروف ، فبذل علي من نفسه أغلى ما يبذل مصلح مسؤول ، وأوشك الفريقان على الاتفاق ، بل قد اتفقا ، لكن الزمان آلى أن يجند على علي كل المحن ، فبعث رؤوس الشر في العسكرين ينشبون القتلى في الظلام قبل أن يفرغ الفريقان لتنفيذ ما اتفقا عليه . وظن كل من الفريقين بصاحبه وصاحبه بريء . ووقعت الكارثة وانفرجت عن عشرة آلاف قتيل ، وانهزم أصحاب جمل عائشة . وفي الليل طاف علي على الجرحى والقتلى من الفريقين أنصاره وخصومه فعاملهم جميعاً المعاملة اللائقة بنبله وكرم نفسه وأبوته وجعل يقول : « اللهم اغفر لنا ولهم » وأمر بحمل جميع الجرحى والعناية بهم ،

وحمل من الحزن على هؤلاء وهؤلاء ما الله به عليم ، حتى كأنهم أبناؤه وإنه ليشعر أنهم كذلك بحكم ولايته .

عاد علي إلى البصرة يتفقد الدور الملأى بالجرحى من ألداء خصومه ومحاربيه وتسمعه نسوتهم في دخوله وخروجه من الطعن والدعاء عليه ما يضيق به صدر الحليم ، فيتجاوز تجاوز النبلاء ، ويأمر بالإحسان والإكرام ، ويجهز السيدة عائشة زعيمة المعارضة أكرم جهاز إلى المدينة ، ويعطيها ويصحبها في سفرها الموكب الضخم تعظيماً لها ويخاطب الناس في وداعها فيقول :

« أيها الناس ، صدقت والله وبرت وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » .

ثم يشيعها أميالاً ويسرّح بنيه معها في موكبها إلى المدينة .

أما الزعيمان الآخران طلحة والزبير فقد تقطع قلبه حسرة عليهما ، ولما رأى طلحة في القتلى متعفراً ، جعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول : « أعززْ عليّ أبا محمد أن أراك متعفراً تحت نجوم السماء وبطون الأودية ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر ١٥/ ٤٧] .

* *

انصرف علي بكل عزمه إلى ما يصلح أمر الأمة ، لم يلن في حق ، ولا جامل قريباً ولا أخاً ولم يحتمل الناس ذلك ، فجفاه أخلص الأقارب والأصدقاء واحداً بعد واحد أدركهم ضعف البشر ونصرة الهوى ، فارقه ابن عمه وأخلص نصحائه وأقواهم عبد الله بن عباس ، وانحاز أخوه عقيل بن أبي طالب إلى عدوه معاوية ، ثم انشق عليه الخوارج فحاربوه ، وهو ثابت كالجبال الرواسخ لا يغير من سيرته وصلابته وإقدامه قيد شعرة .

وأخذ الناس ينفضون من حول الأمير الأجير الحارس الأمين الذي حرم نفسه راحتها ، ولم يمتعها من الدنيا بمتاع إلى الملك الذي يكسب لنفسه ويعطي غيره . ومضى عليٌّ قدماً صادقاً ما عاهد الله عليه أثيراً أجيراً حتى لقي الله على سنّة النبي الكريم وخليفتيه الراشدين لم يغير ولم يبدل فكان الراعي القوي الأمين .

يقول السطحيون من المؤرخين إن علياً ضعيف السياسة ، وفاتهم أنه اختار السيرة التي سارها على قصد وروية وتصميم حين جعل هدف الحياة إرضاء الله وإسعاد البشر ، وإلا فأهون الأمور أن يبقى معاوية على عمله ، ويزيده فيه ، ويعطي فلاناً وفلاناً وبذلك يكون عند هؤلاء من الدهاة السياسيين . إنه أراد الله في كل ما فعل فلم يُقم لغيره وزناً ، وصدر عن ذلك في كل مآتيه ، وليس عليه أن تواتيه الأمور أو لا تواتيه ، لقد قال الحق وعمل بالحق ، وابتغى الحق ، وهذا كل ما على أصحاب الإيمان والرسالات .

اختلف عليه الناس في حياته ، لكنهم اتفقوا جميعاً منذ وفاته إلى يوم الناس هذا على الشهادة بأنه كان الحاكم المثالي في كل الفضائل المطلوبة من الحاكم . وليس عليك إلا أن تقرأ في كتب الأدب والتاريخ تلك المجالس التي كانت شيعته تبكيه فيها أمام خصمه القوي العنيد الخليفة معاوية ، وترثيه بمناقب تلحقه بالأنبياء والمرسلين ، ويجهرون بهذا صدعاً بالحق معرّضين أنفسهم لانتقام الحاكم وسطوته ، ثم تنجلي هذه المجالس عن عكس ما أراد منها معاوية ، تنجلي عن تقديس علي وانتصار الذين كان علي إماماً لهم ثم صار عقيدة في قلوبهم ، وإقرار معاوية حزيناً متحسراً بكل ما قالوا . لقد خضعت القوة القوية أخيراً للحق وصاحبه من أصحاب القبور ، وهذا غاية ما يخلد به ناصر للحق مخلص له .

قال معاوية لضرار الصدائي : « يا ضرار صف لي علياً » فقال : « أعفني يا أمير المؤمنين » . قال : « لتصفنّه » قال : « أما إذا أذنت فلا بد من صفته :

كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته . كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلّب كفه ويحاسب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشُن ، وكان فينا كأحدنا : يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه . ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته . يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السّليم[1] ويبكي بكاء الحزين ويقول : يا دنيا إليك عني ، غرّي غيري ، إليّ تعرضت أم إليّ تشوفت ، هيهات ، قد باينتك ثلاثاً لا رجعة لي عليك ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير ، وخطبك يسير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق » .

فبكى معاوية حتى أخضلت دموعه لحيته وقال : « رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ؛ فكيف حزنك عليك يا ضرار ؟ » قال : « حزن من ذبح واحدها في حجرها » .

* *

إن وقفة عند سيرة هذا الراعي العظيم ـ أيها المستمعون الكرام ـ تملأ النفس إيماناً وطمأنينة وحفزاً إلى التسامي . وتنعش الروح وتشحنها بالقوة فتقتحم ميادين الخير قوية مؤمنة . وهكذا يكون المثال الذي تقدمه سير العظماء أجدى بكثير من عشرات الصحف حكماً ومواعظ .

رحم الله علياً أمير المؤمنين ، ورضي عنه في العلماء الزاهدين ، والحكام العادلين والمجاهدين الصابرين ، والمؤمنين الصادقين ، والسلام عليكم ورحمة الله .

---

(١) السّليم : من لدغته حية .

الشيخ محمد عبده ، خواطر عنه

حديث إذاعي ، يستعرض فيه أستاذنا الجليل حياة
الشيخ ، وأثره في النهضة العصرية في مصر .
بُث من إذاعة دمشق مساء يوم ٥/ ٣/ ١٩٦٢م

موضوعي اليوم ، خواطر عن الشيخ محمد عبده ، الرجل الذي ما افترقت آراء الناس في أحد من أعلام الشرق العربي في العصر الحديث ، كما افترقت فيه رحمه الله .

أما في الدين فقد رفعه قوم إلى مصاف المصلحين المهتدين ، الذين يمنُّ الله بالواحد منهم على الأمة في كل مئة سنة ، ليكون مجدد القرن ، وهبط به آخرون إلى أن جعلوه من أئمة الضلال الذين ضلُّوا وأضلوا أجيالاً من الناس ، ما زالت تتساقط في مهاوي الضلال .

وأما في الوطنية فهو عند كثيرين علم من أعلامها ، لا ترقى إليه تهمة ، وعند آخرين وطني في ثورة عرابي ثم منسلخ من وطنيته يتملق الإنكليز ويمالئهم على الخديوي .

ومهما يختلف هؤلاء وأولئك فإنهم مجمعون ، على أنه ملأ الدنيا وشغل الناس حياته وبعد مماته ، وأنه أحد العلماء الأبْيناء النيري الذهن ، ثم هو من أبعد الزعماء أثراً في النهضة الحديثة .

* *

صبي من آل التركماني في قرية من قرى مديرية الغربية بمصر ، أُهمل فلم يُعلَّم حتى جاوز العاشرة ، ثم أقبل على العلم فحفظ القرآن الكريم ، وانتظم في طلبة العلم بالجامع الأحمدي ، ثم انتقل إلى الأزهر يعب من موارده حتى ظهر نبوغه ، ويستمر على ذلك ، شأنه شأن زملائه من نابغي طلبة الأزهر إلى أن حل في مصر ما غيّر مجرىٰ حياتها الفكرية فوجد الشيخ محمد عبده نفسه ، وعرف طريقه الذي هيأه الله له .

هبط مصر قبل خمسة وتسعين عاماً باعث الحياة في الشرق ، ومضرم نيران الثورة في أقطاره على الجهل وعلى الغفلة وعلى الاستبداد على الفرقة ، وحمل على عاتقه إيقاظ شعور الجامعة الإسلامية ، فطوف في الأفغان والهند والعجم وتركية وروسية ومصر يوقظ الغافلين وينبه المستنيمين إلى تخدير الاستعمار قارعاً أسماعهم بما يبعث الموتى من القبور ، فلمّا حلّ مصر أضرم فيها الثورة على ميدانين واسعين : واحدةً على الجهل والغفلة وثانية على الاستبداد ، فتسارع إليه الناس ، مأخوذين بمظهره وبيانه وفلسفته وثورته ومزاجه العصبي فسمعوا كلاماً لا عهد لهم به ، كأنما أنزله الله من السماء على فترة من الرسل ، فترة الجهالة العمياء ، فاستجابوا له ، وهوت إليه الأفئدة المتفتحة ، ونشر في مصر العلوم العقلية ، وتتلمذ عليه فيها النابهون وكان في طليعتهم الشيخ محمد عبده ، الذي استهواه جمال الدين ، وسحره بدعوته وبيانه ، فلزمه حتى كان أنبغ تلاميذه ، ولما أخرجت السلطات جمال الدين من مصر ، وخرج لوداعه ذوو الألباب آسفين متحسرين قال لهم : « لقد تركت فيكم الشيخ محمد عبده » .

أسهم الفقيد في النهضة التعليمية بمصر : اختير مدرساً للأدب والتاريخ في مدرسة الألسن ودار العلوم ، ثم عهد إليه رياض باشا بإصلاح لغة الوقائع المصرية) ثم برياسة تحريرها ، فعاد ذلك على لغة الجرائد بأطيب الثمرات . ثم كانت الثورة العرابية ، فكان من الطبيعي أن يشترك فيها ، وقد تلقى روح الثورة على جمال الدين الذي قضى عمره يبثها في أقطار الشرق ثم يُقضي على الثورة العرابية ، وينفى محمد عبده من مصر لتعرفه الشام مواصلاً بثَّ العلم مدرساً في بيروت ، معلماً وناشراً وشارحاً لنهج البلاغة ولمقامات البديع الهمذاني . . حتى إذا أمكنته الفرص لحق بشيخه جمال الدين في باريس ، حيث أصدرا المجلة التي هزت عروش الظلم والاستبداد في الشرق ، (مجلة العروة الوثقى) التي أقضت مضاجع الحاكمين دون استثناء ، فصادروها ومنعوها ، وكانت الأعداد التي تسلم فتصل إلى السعداء بها تقع من أرواحهم موقع الغيث من الأرض الجدبة .

ويعفو الخديوي توفيق عن الشيخ ، ويعود إلى مصر ليتولى القضاء في محاكمها

الأهلية ، وتحمد فيها سيرته ، ثم يسند إليه سنة ١٣١٧هـ إفتاء الديار المصرية مع التدريس في الأزهر ؛ وهنا صال الشيخ وجال في ميدان الإصلاح ، وأدخل إلى الأزهر الروح السمحة والفكر النير ، وأطلق التعليم التقليدي من أساليبه العقيمة وقيوده المضنية ، فذاق الطلبة نعيم التعليم المثمر ، وتحررت الأفكار من قيودها ، فرمى الناس حواشي السعد التفتازاني في البلاغة ، وكانت عذاباً أليماً للملكات ، ليقبلوا على كتابات عبد القاهر الجرجاني سيد من تكلّم في البلاغة القديمة في (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) ، مقررة بلسان الشيخ محمد عبده ذي البيان المشرق ، فعرفوا لأول مرة طعم البلاغة في كتب بليغة وتقرير ناصع جذاب يحبب بالفن وينمي الملكات .

كانت دروس الشيخ الخاصة في الفلسفة والبلاغة مدرسة تخرج بها زعماء الأدب والقضاء والإدارة والسياسة والتعليم ، أمثال سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوي ، أخطب محامي عصره والمنفلوطي والرافعي والزيات وغيرهم . وعلى أن تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، كان أكثر منه إحاطة بالحديث والتفسير والفروع والفقه على ما قالوا ، وعلى أنه لم يقر له بسعة العلم كغيره ، على ذلك كله كان عقله أكبر من علمه ، وآتاه الله ما فات كثيراً من أساطين العلماء ، آتاه سياسة العلم ، فقد كان حكيماً كل الحكيم ، وماهراً كل الماهر في حسن عرضه ودقة لباقته ، حتى أخذ الأسماع بفصاحته وحلاوة تقريره ، وكان إلى هذا معتدل المزاج على نقيض إمامه جمال الدين الأفغاني الذي كان حاد المزاج سريع الغضب ، حتى صدق فيه قول تلميذه « كثيراً ما هدمت الحدة في الزمن القصير وما بنته الفطنة والروية في الدهر الأطول » .

لقد رزق الشيخ محمد عبده سياسة العلم التي عزت على كثير من الأئمة المتبحرين ، السياسة التي كنا نتمناها لابن حزم العصبي الصدّاع الجبّاه في المتقدمين ، وتمناها المتمنون لجمال الدين الأفغاني في المتأخرين .

وبسعة صدر الشيخ محمد عبده وحسن تأنيه للأمور ، التف حوله عِلْيَةُ القوم من الشاميين والمصريين ، بحيث لم ينبغ نابغ ممن أدركه ، إلا كان له فيه أثر كبير أو

صغير ، وصار تلاميذه هم أقطابَ مصر والشام بعد سنين ، فأثره في الإصلاح إذن معروف غير منكور .

كان انقضى على وفاة الشيخ أكثر من أربعين عاماً نسيت فيهن لوعة الملتاعين عليه وحزن المحزونين ، وتعرّت أحكام المفكرين فيه من المبالغات والعاطفيات ، ومع هذا تكاد تجمع الآراء على أنه أحد المصلحين في الشرق بلا مراء . حتى الأستاذ أحمد أمين ـ رحمه الله ـ الذي أخذ على نفسه أن تتحرر من رواسب أحكامها السابقة على الأشياء والأشخاص ، وأن تزن الأمور مجدداً بميزان العقل والمنطق والروية ، حتى هذا الباحث لم ينف عنه صفة الزعامة الإصلاحية ، فقد دعاني مرة إلى سمرٍ مساء خميس ، في لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مألف العلماء ومجمع رجال الفكر ، وشرّق الحديث بالسامرين وغرب ، وعرضوا لذكر الشيخ محمد عبده ، واختلفت آراؤهم فيه والأستاذ صامت مصغ لما يقولون ، فلما سئل عن رأيه أجاب : « هو مصلح على غيرنا! » وهو حكم كما ترى مقبول لا اعتراض عليه .

* *

مناصب القضاء والإدارة والتدريس ، صرفت الشيخ عن التأليف بعض الصرف لا كله ، ولقد ترك لنا آثاراً قليلة في العدد كبيرة في الجدوى والفائدة والأثر ، كان أسلوبه وأماليه في تفسير القرآن فذة طريفة ، غاص فيها على مقاصد الإسلام ، فجلاّها متلألئة جذابة لا صدأ ولا قشور ، وتصدى في ميدان ثان لهجمات المبشرين والمستشرقين على الإسلام ، فدوّى له في أجواز الشرق ثلاث رسائل مهمات :

أولاها (الرد على هانونو) .

والثانية (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) .

والثالثة (الإسلام والرد على منتقديه) .

أما رسالته في (التوحيد) وتفسيره الذي لم يتم فأشهر من أن يذكرا . وله تمكن في العلوم العقلية وفي التصوف حتى وصف بالمتفلسف المتصوف ، وتجد فيما كتب آثاراً واضحة من الفلسفة والتصوف .

أما بعد فرجل كالشيخ محمد عبده ، اضطلع برسالة جسيمة في بيئة متخلفة لا يخليه دهره من مشاكسات لقي في حياته عنتاً من شيوخ متشدّدين وغير متشدّدين ، فكان له حساد ، وكان له مناوئون ، وذاق من الحكام البأس والنكاية ، لكن شيئاً ما لم يُغظه ما أغاظه عداوة العلماء من زملائه ومنافسيه ، لقد أخذوا عليه فتاوى قد يكون الباعث عليها حبُّ التساهل والعجلة والإعجاب بالرأي ، فجرّت عليه أعنف الحملات ، نسبوا إليه إباحة الربا غير المضاعف تزلفاً ـ زعموا ـ إلى أصحاب المصارف والبيوت المالية الأجنبية ، كما اتهموه بالتهاون في أداء الصلوات ، ولم ينسوا التشنيع عليه لإفتائه بلبس القبعة في الديار الأجنبية . . . وأشياء من ذلك إن ننكر منها بشدة تحليل بعض الربا ، لا نحرمْ بعضها من سعة الصدر والاعتذار له بحسن القصد .

* *

رائدان من رواد الإصلاح في نهضتنا الحديثة أشارا ببعض التيسير في الدين بإخلاص ، فولج منه الناس موالج بعد موتهما ، لو عرفا أن الأمر سيؤول إليها لتمنينا أن كانا أصمين أبكمين . ولا أشارا بما أشارا به :

أما أحدهما فقاسم أمين ـ رحمه الله ـ حين دعا إلى تعليم المرأة ، ورخّص في نوع من الحجاب الشرعي يعينها على التعلم ، فانتهزت الفرصة جماعات التبشير والاستعمار واليهودية العالمية ، وما يتغذى من هذه الموارد الوبيلة فنفخت في هذه النار ، تزين للناس بأساليبها الشيطانية كل قبيح ، فلم يقتصر الناس على ما رسم قاسم أمين ، وتجاوزوا حداً بعد حدٍّ حتى كان السفور ثم الحسور ، ثم الاختلاط ، ثم حمل المسؤولون بمصر في بعض العهود الفتيات على أن يظهرن بما يأنف منه حتى الصهيونيات المحترفات ، فتغيرت نظرة الأجيال الغافلة إلى القيم الخلقية حتى صار الأوروبي إذا هبط مصر عجب لما عليه بعض النساء من تبذل فقدن معه كل هيبة وكرامة .

وأما ثانيهما فالشيخ محمد عبده ، الذي لم يكن يقدر حين تساهل في بعض الفتيا ، أن الأمور ستؤول إلى أشباه فقهاء وأنصاف متعلمين ، ألموا بظاهر من

العلم ، واندسوا بين رجال الدين ، يقيسون لأهواء المتسلط أو المتنفذ أو المتمول ، باعاً كلّما قاس إصبعاً ، لا دين ولا خلق ولا أمانة ، دأبهم خطف المال أنّى لاح ، لا تميزهم عن صيارفة اليهود المخادعين الناس عن قرشهم بكل وسيلة ، هذا يفتي الناس في الترخص بالصوم ، وآخر يراوغ لتعطيل الزكاة وثالث يحلل التأميم ، ورابع يفتي بالإقبال على شركات التأمين ، وخامس على الربا ، وسادس يلبسون لكل حالة لبوسها ، ويديرون في ألسنتهم الآيات والأحاديث لغير ما أنزلت فيه ، يتخذون كلام الله مصايد للمناصب وضحكاً على الناس ، يوماً متفرنسين ويوماً متبرنطين ، ويوماً متأمركين ، حيناً بلحى وعمائم وحيناً خالعين هذه وتلك ، أي الحالين يرجْ يتخذوه ، لا يختلفون شيئاً عن تجار الوطنية والحزبية ، جوهر واحد والأعراض مختلفات . . فلا نملك إلا أن نسال الله الرحمة .

وللشيخ محمد عبده حين تنبأ بما ستفضي إليه الأمور ، في أبيات قالوا : إنه نظمها في مرضته الأخيرة قبيل احتضاره ، وهي قوله :

ولستُ أُبالي أن يقال محمد ... أبلّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردتُ صلاحه ... أحاذرُ أن تقضي عليه العمائم
فيا ربّ إن قدرت رجعى قريبةً ... إلى عالم الأرواح وانفضّ خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً ... رشيداً يضيء النهج والليلُ قاتم

في قرطبة العظيمة

محاضرة ألقاها الأستاذ ـ ممثلاً لجامعة دمشق ـ
في حفل افتتاح الذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابن
حزم في قاعة الزليج في قصر قرطبة ، وذلك في
١٢/ ٥/ ٦٣
ونشرتها مجلة حضارة الإسلام المجلد ٢٩/ عام
١٩٦٣

أيها السادة :

ساعات سعيدة لا تنسى ، نعيشها في هذا القطر الخير ، العزيز على كل عربي ، بل على كل مثقف يقدّر المثل العليا ، مثل الحق والخير والجمال . فعلى هذه الأرض سمت قبل مئات الأعوام ؛ حضارة حملت إلى الناس الرقي والإسعاد ، ونعم بخيرها الملايين من مختلف الأجناس .

ولئن كانت ذكرى الأندلس ، تبعث في نفوس المسلمين كافة شيئاً من الزهوّ تشوبه حسرة على حضارة شادها الإسلام في هذه الديار ، فإن مما يشيع الرضا فينا أن نجد الشعب الإسباني الصديق بحكومته وجماهيره وبيئاته العلمية ، حانياً على تراثنا الإنساني ، غير مقصّر في تقديره ورعايته والكشف عنه ، ونشر آثاره . بل نرى اليوم بين الأمة العربية والشعب الإسباني أواصر من المودة متّنها هذا التراث الذي يخدمه الفريقان معاً ، كما متنها وعيٌ جديد قام في نفوسهما أخيراً ، لروابط قوية استمرت ثمانية قرون .

وهل أدلّ على ذلك من هذا المهرجان تقيمه بلدة قرطبة لابنها العظيم ابن حزم ، وتحتضن معه شعرنا العربي ترجمان أرواحنا ؟ ومن رعىٰ مقدساتك فقد بذل أقصى مودته القلبية ، وقديماً عبر عن مثل صنيعكم هذا النبيل شاعرٌ عربي قديم حين قال :

صانَ لي ذمّتي وأكرمَ وجهي ‌ ‌ ‌ إنّما يُكرِمُ الكريمَ الكريمُ

زرت هذه الديار الحبيبة قبل سبع سنين (سبتمبر ١٩٥٦م) بعد غربة في الأقطار

الأوربية امتدت أربعة أشهر ، فحين غادرت المطار وتجولت في مدريد ، تنفست في جو بلادي (الشام) ، وطالعتني وجوه وسحن جعلتني في بعض لحظات الذهول أظنها وجوه الشاميين في أسواق دمشق . وصدقوا ـ يا سادة ـ أني في تجوالي في حارات قرطبة وإشبيلية وغرناطة كنت أدخل بعض الدور المفتوحة الأبواب على أنها دور أصدقائي وأحبابي الباقية على طرازها العربي الأصيل في حي القيمرية ، أو حي القنوات بدمشق . بأبوابها الخشبية المزدانة بالمسامير الصفر المدورة ، ودهاليزها المشرقة المزينة ، وصحونها السماوية الفسيحة المتأرّجَةِ بالرياحين والورود العبقة وأشجار النارنج ، الشادية بخرير المياه في بركها ونوافيرها كأنها جنان الخلد . ووجدت نفسي مفتحة لكل إسباني ألقاه مرجحاً أن بيني وبينه رابطة دم أو رابطة روح .

فاسمحوا لي إذن أن أنقل إلى قرطبة عاصمة الأمويين في الغرب تحية حارة كريمة من دمشق عاصمة الأمويين في الشرق .

ومن مسجد بني أمية في دمشق إلى مسجدهم الجامع في قرطبة .

ومن سلائل الأمويين في الشام إلى أقربائهم وأصدقائهم في الأندلس .

ومن نهر بردى كوثر دمشق إلى نهر الوادي الكبير كوثر قرطبة .

ومن حمص الشام إلى إشبيلية حمص الأندلس .

ومن رصافة المشرق إلى رصافة المغرب .

ومن بغداد حاضرة العلم الكبرى في المشرق إلى قرطبة حاضرة العلم الكبرى في الأندلس .

ومن جامعة دمشق إلى جامعات الأندلس .

ومن كل نخلة وزيتونة وشجرة نارنج أو برتقال في دمشق إلى بناتها من نخيل الأندلس وزيتونه ونارنجه وبرتقاله .

وأخيراً من كل ما هو عربي إلى كل ما هو إسباني .

* *

وبعد ، فما أعجب ما شهدت السنوات الأخيرة من انقلاب في الأفكار والنفوس والقيم في أمم الحضارة! لقد حل التآلف والتعاون والتّقارب محل التجافي والتناكر والتباعد ، ولن تمضي سنوات حتى يصبح العالم كسكان البلد الواحد يهتم من في أقصى مشرقه بما يصيب أخاه الإنسان في أقصى المغرب فيسعى لخيره وإنقاذه ، أما العلماء فقد سبقوا السياسيين في هذا المضمار ، ووصلوا قبلهم : بالأمس حضرت مهرجان الفيلسوف العربي الكندي في مدينة بغداد ، وشهدت علماء وأدباء تداعوا من كل الأمم وجميع الأقطار لتحية بلد الحضارة في العصور المزدهرة وتمجيده والكشف عن معالمه ، وتعاونوا جميعاً في الإبانة عن فضل ابن بغداد الفيلسوف الكندي وما قدم للتراث الفلسفي من خدمات ، وشهد الله لقد كانوا كأعضاء الأسرة الواحدة صينيهم وأمريكيهم ، هنديهم وباكستانيهم ، فرنسيهم وعربيهم .

واليوم أعاين مثل هذا المشهد المسعد للنفس ، في أفاضل من أجناس شتى عرفوا ابن حزم وقدروا علمه وجهاده ونبوغه ، وتوافدوا إلى هذه الدارة يحيونه في بلده ومنزله ، ويمجدون عبقريته ونفسه النبيلة الثائرة . فالشكر كل الشكر للحكومة الإسبانية ، ولمنظمي هذا المهرجان في قرطبة منافسة بغداد أمس في عصرها الذهبي ، كما تنافسها اليوم بتمجيد عبقريها ابن حزم ، وإن من المصادفات السعيدة أن تنصرم ستة أشهر ، وهي زمن قصير بين مهرجان الكندي في بغداد ومهرجان ابن حزم في قرطبة .

في الختام اسمحوا لي أن أحييكم يا أصدقاء ابن حزم ، بتحية طالما عطرت ، وهي ترتفع إلى السماء أجواء هذه الديار مئات السنين ، التحية التي نرجو جميعاً أن يحقق العالم معانيها بعد قليل ، تحية الإسلام : السلام .

خاطرة من إسبانية

بوحٌ وغصة ، يقدمهما أستاذنا الجليل ،
وما زالت أطياف الأندلس في فكره وخياله ، وقد
عاد لتوّه من إسبانية ، بعد حضوره مؤتمراً عن ابن
حزم .
قدّمها عبر حديث إذاعي بثته إذاعة دمشق مساء
٣٠ أيار عام ١٩٦٣م .
ثم نشرته مجلة الجندي العدد ٦٠٧ من العام
نفسه .

هذه عودتي من الأندلس أو إسبانية المسلمة على حدّ تعبير المستشرق الإسباني . حضرت فيها مهرجان العلامة الإمام ابن حزم والشعر العربي ، الذي أقيم في قرطبة عاصمة الخلافة الأموية ، وإحدى حواضر العلم الكبرى في عصرها الذهبي قبل أحد عشر قرناً ، حين كانت تنافس بغداد عاصمة الحضارة حينئذ .

امتد المهرجان سبعة أيام من الثاني عشر إلى الثامن عشر من هذا الشهر (أيار) شهر الورد والزهر والريحان تكريماً للإمام ابن حزم ابن قرطبة وفخرها ، بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاته .

وليس حديثي عن هذا المهرجان ، ولا عن صداقة الشعب الإسباني للعرب ، وهي الظاهرة التي لا يستطيع مطلع إغفالها في هذه السنوات العشرين الأخيرة .

ليس حديثي عن هذا وذاك ، وإن كان كل من الموضوعين حديثاً هاماً تجب إذاعته بين المثقفين إحقاقاً للحق ، ونشراً للنظرة الصحيحة إلى حاضرنا القائم اليوم .

إنما أقصر حديثي اليوم عن مساكن الشاميين ، ومساكن القرطبيين ، ما فلسفتنا في طراز دورنا ، وما فلسفتهم ، وأي النظرين أقوم وآصل ، وأيهما المنحرف الزائف ؟ أتيح لي في هذه الأيام السبعة تجوالٌ كاف في أحياء قرطبة الجديد منها والقديم ، بعض هذا التجوال من المنهاج الرسمي للاحتفالات ، فقد أحسنوا إلينا

كل الإحسان حين أزارونا بعض الأحياء القديمة ، وأدخلونا بعض الدور ذات الطراز العربي المشرقي صغيرة لطيفة وكبيرة فخمة جليلة رائعة ، وبعض كنت أقوم به وحيداً ، فقد أولعت كل الولوع بالتطواف في هذه الأحياء والنظر إلى داخل دورها المفتحة الأبواب ، وكنت ـ شهد الله ـ لا أكاد أردّ العين عن تجلّي محاسنها ، ولا أشبع من ترديد النظر فيها ، فما سرّ هذا الولوع ؟

قضى جيلنا سنّ الصبا في بلاد الشام ، وأقصد ما يسمى الآن سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، في دور عربية مشرقية ، لا تجتاز دهاليزها حتى تضمَّك روضة من الرياحين .

صحن سماوي مكشوف ، تتوسطه بركة يتدفق فيها الماء ، رصّت على جدارها الدائر بمائها أصص الزرائع (شقف الزريعة) من ورد وريحان ، كما دارت في الصحن أحواض من الأشجار المثمرة كالمشمش والدراق والخوخ والبرتقال والمشمش الهندي والليمون والنارنج والأترج ، وغير مثمرة كالورد والسرو والمرجان ، ثم ما شئت من أصناف الزرائع الجميلة المنظر .

فإذا فتحت باباً من أبواب القاعات المحيطة بالصحن أمضيت إلى مجلس مشرق عالي السقف ، واسع النوافذ ، وراقتك الأطر الخشبية المحيطة بالباب والنوافذ ، كما تعجبك القمريات (نوافذ عالية تحت السقف ، تملأ المجلس ضياء ونوراً) .

فإذا كانت الدار من الدور الكبيرة رأيت هذه القاعة ذات مجلسين عاليين (طبرزين) بينهما فسحة تتوسطها بركة صغيرة مرخمة لخرير مياهها جَرْسٌ مؤنس ، ورأيت المكتبات الجدارية وزخارفها (الكُتْبيَّات) ، كما زينت بالكتب ، فإذا دلفت إلى مطبخها ، فثم أيضاً بركة صغيرة ورأيت مطبخاً فسيحاً مضيئاً منيراً ، متجدّد الهواء ، لا يملّ العامل فيه .

وإذا صعدت إلى الدور العلوي رأيت أصص الريحان والورد وأصناف الزهور دائرة بالممشى ، ويتدلى الياسمين معرشاً على الحواجز .

فإذا دخلت غرفة عاينت اتساعاً في المساحة ، وسمّواً في السقوف ، وإشراقاً ونشاطاً ، وجواً معطراً بما حوله من زرائع ، فإذا كان الشهر نيسان ، أحسست

بالرائحة العبقة وأنت تمشي في الحارة قبل أن تدخل الدور ، فتنتعش خياشيمك بزهر النارنج الفائح من كل دار .

ثم اصعد إلى السطح لترى أصص الزرائع ملأت جوانبه ، ومجالس المساء والسهرة ، قد هيئت لها الفرش والحشايا ، وعمرها أهل البيت صغاراً وكباراً ، نساءً ورجالاً آنسين بأنفسهم ناعمين بعيشهم ، مغتبطين باجتماعهم ، متمتعين بوقت جميل ، ومنظر جميل ، ومطعم طيب ، وشراب هنيّ ، وحديث يدخل السرور على كل القلوب .

هذه منازلنا ، روضة في داخلها وروضة في علوها ، فإذا دخلت قاعاتها وغرفها فهي متاحف صغيرة بما حوت من نفائس الصناعة الشامية المشهورة ، في نقش الجدر وخشب الأبواب والنوافذ والسقوف وأطر الرفوف ، وفي الأواني والبسط والأرائك ، وسائر الأثاث .

ويقل عن هذا الوصف دور الفقراء ، ويزيد عليه دور الكبراء ، لكن الصحن السماوي وبرك الماء والزرائع ، ومتعة السطوح قسط شائع بين الجميع .

ثم دارت بنا الأيام وإذا بالوباء الجارف ينتشر في دمشق وغيرها من مدن الشام ، وأفسد الطمع وسوء ذوق المسؤولين قديماً عن تنظيم المدن وفساد ضمائرهم طابع دمشق الجميل ، وشاع في الناس ما سموّه بالطراز الأوربي ، شقق معلقة ضيقة ، من الإسمنت والبلور يتراكم بعضها فوق بعض في بناء واحد ، تسكنه ثماني أسر ، يصعدون ويهبطون من سلم واحد مشترك ، لا يمشي ماش ، ولا يحرك محرّك قطعة أثاث إلاّ شعر بحركته سكان الشقّة الدنيا ، فتأذّوا من المشي والحركة ، وإذا بكى طفل من ألم أرق له سكان الشقة المجاورة ، والشقة الدنيا والعليا ، لا تتنفس الأسرة إلاّ من نافذة واحدة ضيقة إذا فتحت تكشف لمن في الطريق ولمن في الأبنية المقابلة للنافذة أثاث البيت ومن فيه بثيابهم التي يتبذلون بها ، فإذا لبث الإنسان ساعتين في هذه الشقة المغلقة ضاق صدره ، وأحسّ بالسجن يطبق عليه ،فيهرع إلى الطريق يتنفس الهواء ، ويشعر نفسه بالطلاقة والحرية ، وإذا كسر أنبوب ماء أو مصرف حمام أو تسرب إلى المداخن شيء من مياه الأمطار على السطح أو تسرّب الماء

تضررت الشقق جميعاً من المداخن صدءاً مؤذياً فإن كان أثاث في النصفيات أو بيوت الماء حيث تمرر المداخن فحدّث عن الضرر ولا حرج . فقدنا الطمأنينة والهدوء ، وراحة الأذن ، والستر والحرية ، وأصبحنا نعيش والطريق والجيران عيشة مشتركة الأذىٰ والتوتر ، لقد انتقلنا حقاً من النعيم إلى الجحيم .

فدورنا العربية المشرقة الصحية ، تقتلع واحدة إثر الأخرى ليحلّ مكانها أكوام من الإسمنت والآجر الذي لا يقي الحر ولا البرد ، ويتكاثف فيها السكان ، وتنتشر بينهم أمراض الأعصاب وتسوء صحتهم مجتمعين ، لقد أبدلهم المخططون الببغاويون من الفنيين سجناً ببستان ، فماذا فعل زملاؤهم في قرطبة ؟

اتجهت إدارة التخطيط المدني في قرطبة الاتجاه الأصيل السليم ، حرمت على الأحياء القديمة أن يزال شيء من معالم دورها ذات الطرز المشرقي ، وسنت لذلك النظم لمطالبة أصحابها بصيانتها ، وتحسينها ، ثم أباحت البناء على الطراز الحديث في المساحات غير العامرة .

أما الدور العربية النمط على ما وصفت في دور الشام قديماً فغدت فسحة للسائحين المتفرجين من أقطار الأرض ، ولأهلها ذوق سليم ، وغرام بتزيينها بالأصص في صحون الدور وعلى الأفاريز والشرفات ، ومن هنا كنت أختلس فراغاً من وقت فأدور بين هذه الدور ، وهي في أحياء أحاطت بالمسجد الجامع ، فيخيل إليّ أن القوم زيّنوا حيهم احتفالاً بقدوم عزيز ، حتى في الأبنية ذات الطراز الحديث ، تجدها لوحة فنية من كثرة ماأولع الإسبان بالزرائع ، وتصفيفها وستر الجدران بها .

تنظر يمنة ويسرة في هذه الأحياء القريبة من المسجد الجامع فترى الباب المزخرف بالنقوش فالدهليز المشرق الواسع ذا الجدران المزينة بالزليج الإسباني ، وهو يشبه القيشاني فالصحن الواسع يتوسطه شجيرات وأصص منسقة بشكل أخاذ ، وتراها مالئة جوانب الدار ومماش الدور العلوي على الطريقة الشامية تماماً . وتزيد على هذه بأقواسها وأعمدتها المطيفة بالرواق أسفلها وعلوها ، ومن هنا كانت بيوت الإسبانيين متفرجاً ومستمتعاً للأمريكان والأوربيين من كل الأقطار .

وليس هذا النظام قاصراً على الأندلس فيما علمت ، بل هو همّ إسبانية كلها ، ففي مدريد نفسهاأحياء قديمة لا يسمح فيها تغيير الطراز القديم الجميل ، فإذا نقضت دار بني مثلها على طرازها أو على خير منه ، وبهذا الوعي الصحيح ، والذوق السليم ، حافظت مدن الأندلس على رونقها وطابعها الأنيق .

وأنت تعلم أن الأندلس كالشام من حيث الطبيعة والمناخ ، ودرجات العرض ، فهي بلاد مشمسة ، وجو مطير في الشتاء ، صحو في الفصول الثلاثة ، ومن هنا كان الطراز الملائم في البناء لجوها ومناخها الطراز العربي ، فتمسك القوم به ، ولم يقلّدوا تقليداً أعمى كما فعلنا ، إذ فرقوا بين مناخهم ومناخ البلاد التي لا ترى الشمس طوال العام إلا دقائق معدودة أيضاً . ضاعت دمشق ذات الصيت البعيد بدورها الجليلة المشرقة . التي أشبهت الجنان ، وفتنت الغربيين ممن زارها .

وبذلك تعرف أي جريمة ارتكبت في حقها بالقضاء على هذا الطابع الأصيل ، إنها جريمة لا تقل عن جريمة قطع أشجار غوطتها ونيربيها لتقوم مكانها تلال الإسمنت الكئيب تدر على كبار الملاكين وكبار الجشعين الربح الوفير .

فمتى تحاكم جرائم إفساد الذوق والصحة والطمأنينة التي حرمت المواطنين نعيمهم المقيم ، وأسكنتهم المطبق من الجحيم ؟

ومتى نثور على التقليد الأعمى لنسترد سعادتنا البيئية ، وعيشنا الهني .

درس من الأندلس

حديث إذاعي لخّص فيه أستاذنا الجليل العبر المستفادة من قيام دولة الأندلس ثمّ زوالها .
أذيع يوم الأحد ٢٣/ ٦/ ١٩٦٣م .

تكاد الرحلات العلمية تكون أمتع ما يغتبط به الإنسان المثقف ، فإذا سبق له أن درس تاريخ بلد وجغرافيته كانت الرحلة إليه أمتع ، فإذا انضاف إلى ذلك أواصر روحية وجدانية تشدّه إلى هذا البلد فحدث عن غبطته ولا حرج ، ذلك ما يخامر العربي المتعلم حين يواتيه حظ فيزور الأندلس . ولقد اقترن اسم الأندلس عنده بتاريخ طويل فاجع حتى ليرادف المأساة . والممعن في الأدب يستطيع أن يجمع دواوين ضخمة مما قيل في هذه المأساة من شعر ونثر يستدرّان الدمع ، ويدميان القلب بما زخرا به من عواطف حادة جياشة ، ولست إلى هذا أدير الحديث اليوم ، وإنما أصرفه إلى أحد أسباب النكبة ، وما زال التاريخ يمدّنا بما لو انتفعنا به لتجنبنا النكبات وسددنا الخطوات .

فتح العرب الأندلس في مدة قصيرة ، والأندلس لا تزيد رقعتها على أرض الشام إن لم تقل عنها ، ثم اكتفوا بهذا الظفر ، وتركوا لعدوهم الأرض الوعرة ، فلم يوغلوا بها ، فتمكن فيها يتقوى ويتربّص بهم الدوائر ، وكان هذا أوّلَ الأخطاء . ورزق الله العرب رعيلَهم الأول ثلةً من الرجال العظام بناة الدول ، فأقاموا على الأرض الإسبانية حضارة وارفة الظلال ما تزال آثارها إلى اليوم تدرُّ على إسبانية الخير العميم ، بحيث كان موردها من الموسم السياحي العام الفائت نحوَ أربع مئة مليون دولار ، وليس في إسبانية ما يجذب إليها السياح غير آثارنا فيها : المسجد الجامع في قرطبة ، وقصر الحمراء في غرناطة ، وقصر إشبيلية ومنارتها ، ثم أحياءٌ عربية الطراز تجمعت حول هذه الآثار يغمر ذلك كله مناخ شامي وجو مشرق الشمس .

لم تمض تلك الثلة من بناة الدولة إلى ربها ، وتتبعها أخرى مشت على آثارها ، حتى غرق القوم في النعيم يلهون ويتمتعون ، وانصرفوا عن جد الأمور وعزائمها ،

وأولعوا بالفخفخة الفارغة ، وانصاعوا لأهوائهم ، فنفخ الشيطان في معاطسهم ، وصار كل ذي نفزة يحدّث نفسه بالسلطان ، وقهر المنافسين ، وهو يرى مكان العدو المتربص به وبمنافسيه ، فانصرفوا عن إعداد العدة لعدو ، وبدل أن يتفق الأمير العربي الذي هو ومنافسوه عليه ، صار يستعديه على ابن عمه وأخيه ، فيلبي ذاك الدعوة ويقتطعان معاً من الأرض العربية ما يقوى به الإسباني على حصّة حليفة بعد أيام .

شُغل أمراء الطوائف عن الجد ، وعنوا بأبهة المظهر ، وترف الزينة ، وبناء القصور والجنان ، والجلوس للندماء والشعراء والمغنين والمطربين ، وتغالوا في ذلك وتلقبوا بألقاب الخلفاء حتى قامت في كل بلدة دولة ، وحتى عددنا في هذه الرقعة الصغيرة في الربع الأول بين القرن الخامس للهجرة ثماني دول : الدولة الزيرية في غرناطة ، والدولة الحمودية في مالقة ، والدولة الهودية في سرقسطة ، والدولة العامرية في بلنسية ، والدولة العبادية في إشبيلية ، ودولة بني الأفطس في بطليوس ، والدولة الجهورية في قرطبة ، ودولة ذي النون في طليطلة ، ثماني دول على عدد الدول العربية يوم ضياع فلسطين . وكل هذه الدول تحترب فيما بينها ، وترى وجود أشقائها أشد ضرراً عليها من وجود أعدائها . وهي لا تُغفل الألقاب الفخمة كألقاب بني العباس الذين يحكمون رقعة تزيد على مئة ضعف من رقعة الأندلس ، بل لا يقبلون من شعرائهم إلا أن يرفعوهم إلى مصاف عظام الملوك والأباطرة ، وإن لم تزد مملكتهم على عدة قرى .

هذا إدريس بن يحيى أحد هؤلاء الملوك الصغار لا يظهر لرعيته ، وإنما ينشد المدائح ويسمع الغناء من وراء حجاب ، اقتفاءً لطريقة بعض خلفاء بني العباس ، يدخل عليه الشاعر ابن مقانا الإشبيلي بقصيدته الرائعة التي يقول فيها :

وكــأَنَّ الشَّمْــسَ لمــا أشــرقــت	فــانثنــت عنهــا عيــون النــاظــريــن
وجــهُ إدريــسَ بــن يحيــى بــن علــي	بــن حمــود أميــر المــؤمنيــن
خلقــوا مــن مــاء عــدلٍ وتقــىً	وجميــع النــاس مــن مــاءٍ وطيــن

فحين يختمها بقوله :

انظـرونـا نقتبـس مــن نــوركــم   إنّــه مــن نــور ربِّ العــالميــن

يتفضل الخليفة فيأمر حاجبه برفع الحجاب ، ويتكرم على الشاعر برؤية وجهه المعبّر في أسلوب مسرحي صبياني ، ولم تعدم الأندلس عقلاء تنبؤوا بالعاقبة الوخيمة لهذه المظاهر الفارغة فيقول شاعرهم أبو بكر بن عمار :

فمـا يـزهـدنـي فـي أرض أنـدلـس   ألقــابُ معتمــد فيهــا ومعتضــد
ألقــابُ مملكــةٍ فــي غيـر مـوضعهـا   كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وتعم الفتن أرض الأندلس ، وتُصبغ بالدماء انصياعاً لأهواء الحكام الصبيان الذين اختطفوا الحكم ، وجعلوه لهواً وعبثاً وفساداً ، ويصور الهول الإمام ابن حزم الذي رجعنا من تكريمه في مهرجانه بقرطبة قبل أيام بكلمته المشهورة : « أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها ، فإنه ظهر رجل يقال له (المؤيد الحصري) بعد اثنين وعشرين عاماً من موت هشام بن الحكم الأموي ، فادَّعى أنه هشام ، وشهد له أنه هو : قومٌ خساس من خصيانٍ ونساء ، فبويع ، وخطب له على أكثر منابر الأندلس ، وسفكت الدماء به ، وتصادمت الجيوش في أمره ، وكان محمد بن القاسم الحسني خليفة في بلدة الجزيرة ، ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة ، وإدريس بن يحيى خليفة في سبتة » .

« واجتمع عندنا في صقع الأندلس أربعة خلفاء ، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه ، أربعة خلفاء في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يُدعى بأمير المؤمنين وذلك فضيحة لم ير مثلها ، دلت على الإدبار المؤبد » ولقد صدق ابن حزم ، ووقع الإدبار ، وتلك سنة الله أدركها الناس حتى قبل نزول الوحي ، وصاغها شاعرنا القديم بأوجز لفظ وأبلغه يوم قال :

لمـا اعتقـدتُـم أُنـاسـاً لا حُلـومَ لهـم   ضِعْتـم وضيَّعتـم مــن كــان يُعتقــد

وصغارنا اليوم في المدارس يرددون ما كان يردد أطفال العرب منذ أربعة عشر قرناً :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم   ولا ســراة إذا جهــالهــم ســادوا

والحقُّ أنه كان يقع في أحوال نادرة أن يرجع الملك الأندلس من ملوك الطوائف إلى السداد ولكن هذا لا يدوم إلا ريثما ينتكس ، لما اشتد ضغط الإسبان على المعتمد بن عباد استغاث بأمير مغربي لم يفسده الترف ، ولم يفسد جنده كما فسد أهل الأندلس وأمراؤهم هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فحذرت المعتمد بطانته أن هذا السلطان إذا رأى إشبيلية وريفها وخيراتها طمع فيها ، فملكها ونفاه إلى الصحراء ، فقال المعتمد قولة الراعي الصالح الواعي « رعي الجمال أحب إلي من رعي الخنازير » يعني أن الأسر عند ابن تاشفين أحب إليه من الأسر عند الإسبان ، لكن لم يطل به هذا التصرف الحكيم ، فسرعان ما استعان بالإسبان لما عرف أن ابن تاشفين يريد أن يرجع إلى الأندلس ثانية وربما احتل إشبيلية ؛ وكذلك كان ، فأسر السلطان المعتمد ابن عباد حليف الإسبان ، ونفاه إلى أغمات قرية على بعد ثلاثين كيلو متراً من مراكش ، وبها دفن في متربة معروفة لا أثر لقبرٍ فيها غير بضعة أحجار متناثرة ، زرته فرثيت له أولاً ، ثم رضيت له بهذا المصير .

إن الذي يستعين بعدوه على قومه ليس أهلاً لرثاء ولا مرحمة ، فلقد أضاع بنزواته وأهوائه دماء عشرات الألوف من المسلمين فحق على الله أن يضيعه في الدنيا ، وهو في الآخرة أشد ضياعاً .

البحتري بين طنجة وأدنبرة

حديث إذاعي بمناسبة أسبوع البحتري ، ترك الأستاذ نفسه فيه على سجيتها .
بُث من إذاعة دمشق مساء يوم ٢٣/ ٩/ ١٩٦١م .

لما أطلقت الصواريخ في الفضاء أول ما أطلقت ، كانت حديث الناس أمداً طويلاً ، فلما دارت حول الأرض مرات في اليوم عجبوا لهذه السرعة يولدها الإنسان بعلمه وعمله ؛ فلما انطلق رجل الفضاء الأول ثم الثاني ، زاد عجبهم حتى لم يعد أحد يذكر الصواريخ الأولى .

ولو التفت الناس إلى ما يجري في نفوسهم ، لنسخ عجبهم منه كل عجيب ؛ فما الصواريخ ، وما سفن الفضاء وما سرعة الصوت إزاء رحلة الذهن ووثبات الخواطر ؟

إنك في لمحة تطوي بذهنك آلاف الأميال ، وعشرات القرون ، فيثب بك تداعي الأفكار وثبات ، لو كلف المعدن سرعتها لانصهر قبل أن يخطو من خطوات الذهن خطوتين .

موضوع حديثي (البحتري بين طنجة وأدنبرة) ، وهو ليس بحثاً له منهاجه المخطط على نحو ما نكلّف طلابنا في كلية الآداب وفي المدارس الثانوية ، ولا على نحو ما يتكلفه المتكلّفون في الصحف والمهرجانات تسمعه أو تقرأه فتقسم بالله العظيم : أن أكثره في واد والشعر والأدب والفهم في واد .

كلِّفتُ بهذا الحديث على أن يكون موعده في أسبوع البحتري ، فتركت لنفسي العنان تسترد عن هذا الشاعر ما يخطر لها ، وأسطّر ذكرياتها واستطراداتها كما ترد ، دون تنسيق ولا تكلف .

وسيرى السامع أن أكثره استطراد ، وأن إطلاق العنوان عليه كان لأدنى ملابسة .

رجعتني الذاكرة إلى عهد كنت فيه ورفاقي في طراوة الإهاب ، نحفظ قصائده

المتبقيات الرقاق الروائع ، وفي مقدمتها (سينيته في إيوان كسرى) بعد مقتل المتوكل وحزنه عليه ، فخرج إلىا لمدائن يروّح عن نفسه وينسى همومه :

حضَــرَتْ رحلــيَ الهمــومُ فــوجَّهْـ ـــتُ إلــى أَبْيــضِ المــدائــنِ عَنْســي
أَتسلَّـــى عـــن الحظـــوظِ وآســـىٰ لمحـــلٍّ مـــن آلِ ســـاســـان درسِ

ثم ذكرت أول عهدي بالتعليم في قرية منين وبحثي عن مقطوعات تصف طبيعة الشام في شعر حديث يستسيغه الصغار فلم أرتض ما عثرت عليه حينها ، فاقتصرت على أبيات اخترتها من دالية البحتري وهي الأبيات التي تبدأ :

العيــشُ فــي ليــل داريــا إذا بــردا والـرّاح نمـزجهـا بـالمـاء مـن بـردىٰ
أمـا دمشــقُ فقـد أبـدت محـاسنهـا وقـد وفـىٰ لـكَ مُطـريهـا بمـا وعـدا
إذا أردْتَ مــلأْتَ العيــن مــن بلــدٍ مستحســنٍ وزمــانٍ يشبــه البلـــدا

إلى آخر الأبيات ، وصرنا نعجب بالشاعر الشامي الذي نلمس أثر بيئته في شعره ، وامتد العمر وجمعنا مرة مجلس فيه الأديب الراوية العجيب الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي ـ رحمه الله ـ فطال كلامنا في مزايا المتنبي وأبي تمام وتحليق الأول وغوص الثاني على المعاني الدقاق ، يولدها ويتعب في توليدها ، أدلينا بالحجج وعرضنا النماذج ، وشرّق بنا الحديث وغرب ، أراد النشاشيبي الانتقال بحيث يلخص حواره بقوله : « المتنبي طيارة وأبو تمام غواصة » .

فتمنيت فيما بعد لو ذكرنا البحتري ، لنظفر له من النشاشيبي بآلة حربية كما ظفر الآخران ، ولكن ما حاجة البحتري إلى هذا وهو النّاي المطرب المشجي ، أليس الذي قالوا فيه : « أراد أن يشعر فغنّى » ؟!

وعلى ذكر النشاشيبي قفز إلى الخاطر طه حسين ، وكنت حدثته عن رحلتي إلى الأندلس ، وأنني رقيت منارة إشبيلية ذات المصعد المائل ، غير المدرج ، وقرأت على الجدران : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله بخطوط أكثرها مغربي تلفت النظر ، كلما توغل الإنسان صعداً ، فعرفت أن إخواننا المغاربة كثيرو الزيارة للأندلس ، لقرب المكان ، وإلحاح الذكريات ، ونداء المجهول ، وحنين الدم .

وأبــرحُ مــا يكــون الشــوق يــومــاً إذا دنــت الــديــارُ مــنَ الــديــارِ

فما بلغت شرفاتها المطلة على المدينة ونهرها المتعطف وبساتينها المذكرة بحمص (وكانت إشبيلية تسمى حمص المغرب) حتى رأيتني دون قصد أجهر بالأذان ؛ أصل ما انقطع على هذه المنارة أكثر من خمسة قرون ، فقال الأستاذ طه حسين وهو يصغي إلى ما أقول : لقد حصل لي ما حصل لك ، كنت أطوف في جامع قرطبة بصحبة زوجي حتى إذا اقتربت من محرابه الفخم العظيم لم أشعر إلا وزوجي تضغط على يدي قائلة ماذا تفعل ؟ فإذا بي أقرأ القرآن مترنماً بصوت مسموع دون إرادة ولا قصد ولا انتباه إلى من حولي فقلت : هذه أعجب .

وحملتني هذه الذكرى لرحلتي سنة ١٩٥٦ إلى إدنبرة عاصمة سكوتلاندة في إنجلترة ، وكنت سمعت في لندن أطاريف عن بخل الاسكتلنديين وجفائهم ، فلما صعدت من المحطة إلى الطريق العام أردت أن أسأل عن كلية الآداب فيها قبل أن أسأل عن طيّتي[١] ، وكل إنسان في إنجلترة سمح رقيق في دلالة الغرباء على ما ينشدون ، أدب شائع فيهم يعجب الغريب وينسيه غربته بعض الشيء ، فرأيت صفاً في انتظار السيارة العامة ، ورأيت أمامي شاباً وشابة يقصدان الصف ، فسألت الشاب عن الكلية فأدرك غربتي من لهجتي وضعف لغتي فقال : إن موقف السيارة التي توصلك إلى طيّتك في الصف المقابل ، وأشار إليه ، ثم نظر إلى رفيقته ونظرت إليه ، فاستدرك قائلاً : « ونحن وجهتنا هناك وسارا معي فوقفنا في ذاك الصف ، وجاءت السيارة فركبت قبلهما ، وسارت بنا فصرت أنظر العمائر والناس على طرفي الطريق شأن كل غريب ، ثم حرك جاري يده وكان طفلاً فانتبهت فإذا الموظف يتقاضى الأجر من الركاب فمددت إليه يدي بالأجرة فسلمني التذكرة واعتذر عن قبض الثمن بقوله : دفع الثمن ذاك السيد ، فالتفت فإذا صاحباي فهززت رأسي شاكراً ، وبعد موقفين أشارا بالنزول فنزلنا وصحباني إلى الكلية ، ودّعاني على بابها فشكرتهما من كل قلبي وانصرفا ، فخامرني من أمرهما شيء ، فوقفت أرقبهما ، فإذا هما يرجعان إلى الموقف المقابل لموقف النزول ، ويكرّانِ راجعين من حيث

---

(١) الطيّة : الجهة والقصد .

أتينا ، فأيقنت أنهما غيّرا طريقهما وأنفقا وقتهما ومالهما خوفاً على غريب أن يضل ويتعب ، فتبخر من ذهني كل ما قال اللندنيون عن الاسكتلنديين ، وعرفت ضلال الذي يعتمد على أقوال الجماهير ، وأيقنت أن النبل والمروءة فيض من الله مشاع لم تحتكرهما أمة ولا طبقة ، ووجدتني أحتفظ لأدنبرة بهذه الذكرى الطيبة دون جميع المدن التي زرتها في إيطالية وسويسرة وإنكلترة وفرنسة وإسبانية ، وهنا تمثلت بيتي البحتري بعد أن سكب صوب قلبه على إيوان كسرى :

ذاك عنـــدي وليســـت الـــدارُ داري بـاقتـراب منهـا ، ولا الجنس جنسـي
غيــرَ نُعْمــى لأهلهــا عنــدَ أهلــي غـرسـوا مـن زكـائهـا خيـر غـرس

ويشاء الله أن يتكرر الحادث في الرحلة نفسها ، والنبيل هذه المرة ليس بريطانياً أنيقاً أبيض أشقر ناعماً ، إنه أسمر خشن المنظر والملبس واللهجة .

هبطت طنجة خريف عام ١٩٥٦ ووضعت حقيبتي في المثوى ، واتصلت هاتفياً بالأستاذ عبد الله كنّون الأديب العالم ، وكان حينئذ حاكم المدينة ، فسمى لي موعداً للقاء في بناء الإدارة حيث عمله ، فخرجت إلى السوق فرأيت شاباً قدرت أنه من طلاب العلم ، أسمر شديد السمرة ، ملتحٍ بلحية سوداء خفيفة وعينين حادتين ثيابه إلى أنصاف ساقيه يمشي على نعلين غليظتين ، وعلى رأسه عمامة صغيرة أدارها كيفما اتفق ، يرتدي عباءة قصيرة خشنة من صنع بلاده ، فسلمت وسألت عن مكان الإدارة ، فلقيني أحس لقاء وأبشّه ، وسأل عن بلدي فقلت : (دمشق) فانفرجت أساريره وزادت بشاشته ، وأحسست أن قلبه وصدره ونفسه كل ذلك تفتح فرحاً ، فلا والله ما أستطيع وصف ما غمرني أنا من غبطة غير منتظرة ، ثم أشار إلى سيارة أجرة ، فركبت وركب جانب السائق ، ولم يزد على أن قال له : « أخونا من الشام » وقفت السيارة أمام الإدارة وقدمت للسائق الأجرة الرسمية (٣٠٠) فرنك وهنا فاجأني من المراس المغربي ، ما لا قبل لي به على شدّة مراسي وعنادي ، أما الشاب فقد رجاني بكل قوته أن أكف عن الدفع ورجا السائق ألا يأخذ مني ، فجهدت به وبالسائق ، فكنت أحاول مستحيلاً ، ثم خضعت شاكراً آسفاً ، لأن كل الدلائل تشير إلى أن رفيقي الكريم النبيل فقير ، وأسرعت إلى موعدي لكن حواراً دار بينهما وصل

فحيحه إلى مسمعي فقدرت أن السائق يرفض الأجر ليفوز وحده بالمروءة وأن الشاب الفقير أصرّ . وما أدري كيف تم الأمر .

لا أريد الموازنة بين عمل النبيل السكوتلاندي والنبيل المغربي ، فهما متقاربان شكلاً ما ، وزيادة أجر السيارة الصغيرة في طنجة على أجر السيارة الكبيرة في أدنبرة أكثر من عشرة أضعاف ، لا تقدّم في الموازنة ولا تؤخر ، فالفرق بين البيئتين عامل لا ينكر .

أستطيع القول : إن الأدنبري يمكن وصف مروءته بأنها عمل مدني رقيق ، لكني لا أجد في اللغة ما يفي بالتعبير عن عمل الأخ المغربي ، إنه لم يكن بالجوارح ، ولكن بكل ما أودع الله في قلب الإنسان من سمو وأريحية وكرم ومحبة .

مع هذا لم أنس قط ذلك الاسكتلندي الذي جعلني أذكر البحتري في أدنبرة ولا موقفي لما وازنت بينه وبين أخي المغربي في طنجة ، فرأيتني أترنّم من حيث لا أشعر بختام هذه القصيدة نفسها وهو قوله :

وأراني من بعدُ أكْلَفُ بالأشـ ـرافِ طُرّاً من كلِّ سِنْخٍ وأُسِّ

والشعر القوي الخالد هو الذي يملي نفسه في مواقف القلب الكبيرة حتى ليقطع لمحات في حياة الإنسان يشعر فيها قوياً بوحدة البشرية ، ويؤمن بأن الألوان والألسن والأجناس ليست أكثر من تصنيف شكلي ، وأن العبرة هي بما وراء هذه المظاهر من سمو ونبل وخير ومحبة ، فحيث وجدت فثمة الحضارة الأصيلة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات ٤٩/ ١٣] .

وإلى الأخوين في الإنسانية في أدنبرة وطنجة شكري وتحيتي على اختلاف الحوار ، وبعد المزار ، وعلى البحتري الإنسان رحمة الله وبركاته .

الخط الحديدي الحجازي بين يأس وأمل

مقالة يعرض فيها أستاذنا قصة الخط الحديدي الحجازي عرضاً موثقاً من مصادره الرسمية ، فاضحاً دور المستعمرين قديماً وحديثاً في تعويقه ، وتراخي العرب في تنفيذه .
نشرتها مجلة العربي في العدد ٢٨٠ لعام ١٩٨٢ .

نشرت مجلة العربي في العدد ٢٧٦ (نوفمبر ١٩٨٢) انتقائية لكتاب باللغة الإنجليزية ألفه د . وليم أوكسنوايد Ochsenwaid قدمها الأستاذ سليمان موسى بعنوان (سكة حديد الحجاز : القصة والمغامرة . . والنهاية) ، أشار في ختامها إلى استئناف الخط سيره بعد الحرب العالمية في أعوام ١٩١٩ ـ ١٩٢٤ ، وإلى أن الأحداث السياسية في بلاد العرب أدت إلى توقف العمل على الخط بين معان والمدينة المنورة وهو يشير ـ فيما قدرت ـ إلى حرب السعوديين لملك الحجاز الشريف الحسين بن علي واستيلائهم على ملكه الذي كان الخط الحجازي فيه ، وإلى وقوع شمالي الشام قبل ذلك في قبضة الاحتلال الفرنسي ، ووقوع جنوبيه في قبضة الإنجليز .

وما أعرض له هنا قاصر على ما حدث بعد ذلك من مساع بذلت لإعادة الخط ، وخطوات تحققت ثم تعثرت . . حتى آذار (مارس) سنة ١٩٨١ .

لا شك في أن (خط سكة حديد الحجاز) كان أهم منشآت الدولة العثمانية وأضخمها على الإطلاق أو « إن تكاليف إنشائه أقل بكثير من تكاليف خطوط السكة التي أنشأتها الشركات الأجنبية في الدولة العثمانية » . وهذا يشير إلى ما كانت وما زالت ـ تبتزه الشركات الأجنبية من أموال الشعوب الضعيفة بشهادة هذا المؤلف الأجنبي ، كما يفسر تسرب ثروات الشعوب بالجملة إلى الحكومات الاستعمارية وشركاتها وأفرادها . وويل لمن يقع في أشراكها من الإفلاس المادي والمعنوي .

لم تكن العراقيل التي بثتها إنجلترة وفرنسة في طريق هذا الخط بالأمر الهين ، أما

فرنسة التي كانت تملك امتياز خط (دمشق ـ بيروت) وخط (دمشق ـ المزيريب) فـ(كانت تتقاضى على نقل القضبان الحديدية وغيرها من حاجات الخط) أجوراً عالية وهذا وحده هو الذي اضطر الدولة العثمانية إلى إنشاء خط فرعي بين (حيفا ودرعا) لتتفادى الأجور الفاحشة التي فرضتها الشركة الفرنسية ولما اضطرت الدولة إلى الاستدانة من (بورصة باريس) تشدد الفرنسيون في شروطهم التي كانت من جملتها « أن يتولى أحد الفرنسيين إدارة خط سكة حديد الحجاز لمدة عشر سنوات . . وإذا أرادت الدولة العثماينة أن تؤجر خط السكة من دمشق إلى معان فينبغي أن يكون التأجير لخطوط السكة التي تملكها الشركات الفرنسية » . ولو تم هذا لكان كفيلاً بالإجهاز على المشروع ، لكن الله سلم ، فقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وتوقفت الاتفاقية بطبيعة الحال .

هذا ما كان من فرنسة وشركاتها ، أما إنجلترة فكانت تراقب . . حتى إذا وجد مهندسو الدولة العثمانية في دراساتهم أن موقع (طابة) على البحر الأحمر أفضل من موقع العقبة لضيق رقعة البحر على رأس الخليج . . ووصلت قوة عسكرية إلى (طابة) لاحت الفرصة لمترقبيها فتحرك الإنجليز « وأعلنوا أن طابة جزء من سيناء ، وأن سيناء تابعة لمصر الواقعة تحت حكمهم الفعلي » ثم وجهوا إنذاراً إلى السلطان ، فاضطرت الدولة إلى الإذعان ، وسحبت جنودها من طابة .

المعجزة ودور إنجلترة

أراد الله أن يتم هذا المشروع بمعجزة ، فتم سنة ١٩٠٨ ، واتصلت دمشق بالمدينة المنورة ، وأراح الله الحجاج من الأقطار الإسلامية : الهند والأفغان وإيران والأناضول ومسلمي روسية والبلقان والمغرب عناء اجتياز الصحراء بين دمشق والمدينة . وأثبت الزمن أن مناوشة إنجلترة وفرنسة لهذا المشروع كان عن وعي وحساب دقيق للفوائد التي تعود منه على الدولة وعلى الأقطار العربية . إذ كانت كل منهما تتحفز للانقضاض على ما تقدر عليه من بلاد العرب : فرنسة تطمع في شمال الشام (سورية ولبنان وإسكندرون اليوم) . وإنجلترة تريد ابتلاع جنوبي الشام (فلسطين والأردن اليوم) والعراق . ومهد لذلك الانقلاب في إستانبول ، الذي كان

في حقيقته نجاحاً لدسائس الدول الأجنبية . فخلع صاحب المشروع السلطان عبد الحميد . واستولى على الحكم في المملكة العثمانية حزب الاتحاد والترقي ربيب المحافل الماسونية والسفارات الأجنبية بزعامة (الدونمة) يهود سلانيك المتظاهرين بالإسلام . فكانت تصرفات هذا الحزب (متفجرة) بعثرت المملكة العثمانية ، فلم تر بلادها خيراً بعد ذلك حتى اليوم .

كان حساب إنجلترة وفرنسة بالغ الدقة في (تعجيز) الدولة العثمانية دون إنجاز خط الحجاز ، وظهر ذلك عياناً ملموساً بعد سنين ، حين نشبت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ وتراجعت الجيوش التركية أمام الحملات البريطانية . وكان الخط صاحب الفضل الأول في (ثبات) القوات العثمانية في جنوبي فلسطين نحو عامين في وجه قوات بريطانية متفوقة . وهكذا أيضاً « استطاعت حامية المدينة المنورة أن تستمر في المقاومة نحو ثلاث سنوات ، ولم تستسلم إلا بعد انتهاء الحرب بشهرين ، آخر سنة ١٩١٨ ، وكان ذلك بفضل سكة الحديد » .

أما الذي لا يصرح به المؤلفون الأجانب ، فهو أن إنجلترة كانت وراء تخريب الخط وأمامه ، وكان مسؤولوهم ولاسيما (لورانس) لا يألون جهداً في تحريض البدو ، وإغرائهم بالذهب الإنجليزي المتوهج على تدمير الجسور ونزع القضبان الحديدية ونسف القطارات بكل ما أوتوا من قوة حتى بعد تراجع الأتراك وانقطاع الأمل البتة من استفادتهم منه وبعد حلول الاحتلال البريطاني في بلاد العرب . وليس صحيحاً قول المؤلف : « اعتبر العرب خط السكة هدفاً عسكرياً في الدرجة الأولى من الأهمية ، فأخذوا يشنون الغارة عليه ، ويعملون على نزع قضبانه وتدمير جسوره ومحطاته وتخريبه ونسف القطارات التي تسير عليه » . كل هذا يصح إذا استبدل المؤلف كلمة (بريطانية) الفاعلة الحقيقية بكلمة (العرب) التي وضعت خطأ وزوراً ، فالذي اعتبر الخط هدفاً عسكرياً في الدرجة الأولى (الإنجليز) لا العرب ، إذ لم يكن للعرب يومئذ أثر ما ، لا في قياداتهم ولا في أي من أهدافهم واسرارهم الحربية . إن الضباط البريطانيين هم المتصرفون وحدهم فيما حصل حينئذ في هذه البقعة من الأرض العربية (دمشق ـ المدينة) كتصرفهم المطلق في مصر وعدن .

انقشعت الحرب العامة عن قيام حكم عربي مستقل في سورية ، ومثل الأقطار الشامية مندوبون من كل بلد فيه ، تألف منهم المؤتمر السوري الفلسطيني الذي أعلن مبايعة فيصل بين الحسين ملكاً على سورية ، وقامت أمارة في شرقي الأردن عليها الأمير عبد الله بن الحسين . وانصرف أولو الأمر في كل ناحية إلى تأسيس الدولة وإقامة المؤسسات الضرورية للحكم من جيش ومجالس ووزارات وإدارات وسائر ما يقتضيه الحكم المستقل من أجهزة وأعباء ، على حين مضت إنجلترة وفرنسة في مفاوضات سرية كيف تقتسمان بلاد حلفائها العرب وكأنها غنائم حرب ؟ ولم يمض على فرحة العرب شمالي الشام (سورية ولبنان وإسكندرون) باستقلالهم سنة واحدة حتى انجلت المفاوضات السرية عن التهام الإنجليز فلسطين والأردن والعراق . وانقضاض فرنسة على شمالي الشام . وكان الخط الحجازي قد أصلحت أجزاؤه في عهد الاستقلال هذا ، واتصلت الشام بالمدينة كسابق عهدها قبل الحرب ، فلما تم تنفيذ المخطط البريطاني في هذه البقاع سنة ١٩٢٤ تعطل الخط وتوقف كل شيء .

كان لا بد من هذا التعقيب على (التعتيم) الذي يلف به المؤلفون الأجانب الجرائم الهدامة ، التي عمت بها حضارتهم الاستعمارية حلفاءهم العرب السذج في الحرب العالمية الأولى ، قبل الشروع في تبيين المساعي التي بذلت حتى اليوم لإعادة تسيير الخط الحجازي .

الشعب يتبنى المشروع

وقع تعطيل الخط نكبة على اقتصاد سورية وفلسطين والأردن ، فقد كان نشاطه طوال العام يعود بالخير والنماء على التجارة والصناعة ، إضافة إلى ما يخلفه موسم الحج من ثراء على هذه المناطق التي يؤمها حجاج الشرق الإسلامي وشماليه وغربيه أحياناً ، يقضّون فيها شهراً في المعدل يبيعون فيه ما حملوا من بلادهم من بسط ومنسوجات وتحف ، ويتزودون منها ما يحتاجون إليه في سفرهم إلى الحجاز ، وعند عودتهم منه إلى بلادهم ، فتنشط في الموسم صناعات محلية كثيرة أهمها المنسوجات الشامية والتحف الصوفية من القدس .

هذا التدهور الاقتصادي وتعطل الأعمال نالا جميع أفراد الشعب بالضيق ، حتى

الحج نفسه قل الإقبال عليه ، لأنه لم يبق من وسيلة إليه إلا طريق البحر على البواخر الأجنبية حينئذ ، وأنا أعفي القارئ من سرد ما قاساه الحجاج من الإهمال فيها والاحتقار وسوء المعاملة بعد الأجور الفاحشة التي تقاضتها البواخر منهم ، مما يبقى حديث الحجاج في الأسمار من العام إلى العام ، والشرع لأقل من هذا قد أسقط الفرض على المسلم رفعاً للحرج . لكن أهل العلم يكتمون عن العامة بيان ذلك والله سائلهم عما كتموه من العلم ولهذا حديث آخر .

من أجل ذلك تألفت جمعيات ولجان ووفود تطالب الحكومات بالسعي لإعادة تسيير الخط رحمة بالبشر ، وإنقاذاً للركود الاقتصادي الذي تأثر به كل مواطن ، مسلماً أو غير مسلم ، لكن السلطتين الاستعماريتين قابلتا الإلحاح الصارخ بالصمم المطبق ، وكيف تسمعان وهما اللتان ـ في إخراب المشروع ـ تعدان ذلك من ثمرات انتصارهما ، كأن خرابه من غنائم الحرب .

يشير المهندس الباحث الأستاذ عبد الوهاب المالكي في بحثه عن الطرق والمرافئ في بلاد الشام إلى أن مشروع الخط لم يقتصر في الأصل على وصل دمشق بالمدينة المنورة ، بل كان في الحسبان مد فروع منه إلى مكة وجدة وغيرهما مما تقتضيه المصلحة . وقال : « ومنع من إتمام الخط الانقلاب العثماني وخلع السلطان عبد الحميد ـ موجد هذه الفكرة ومؤسس هذا العمل الكبير ـ وتوقف ورود الإعانات من الأقطار الإسلامية » . وبعد أن قرر « أن ميزانيته مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار أنه وقف إسلامي » وصف وضعه أول عهد الاحتلال بقوله :

أما حالته بعد انسحاب الدولة العثمانية من الشام ودخول جيوش الحلفاء فإنه كان تام الأجزاء من حيث وضعه الأساسي ، ولم يطرأ عليه الخراب إلا في الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران . . أما الخطوط الحديدية فظلت سليمة في الجملة سوى بعض نقاط قليلة يسهل إصلاحها وتشييدها . . وأما حالته من حيث الآلات والأدوات ومعامله وقاطراته ومركباته وشاحناته وغير ذلك من لوازم التعمير ووسائط سيره فقد بلغت من الجودة درجة يندر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات في البلاد التي خاضت غمار الحرب العالمية طول هذه المدة ويستمر المهندس المالكي في

وصف حالة الخط بعد الاحتلال واقتسام الغاصبين له فيقول : « قسم في بدء الاحتلال ثلاثة أقسام :

استولت بريطانية العظمى على قسم فلسطين ، وتسلمت الحكومة العربية الفيصلية قسم سورية ، أما القسم الثالث فقسم الحجاز ، وهو أطول مسافات الخط ، وهو قسم غير مثمر لوقوعه في البادية ، ولخراب جسوره وأكثر محطاته ، ويعرج على اغتصاب فرنسة لمؤسسة الخط بقوله : « ولما دخل الفرنسيون دمشق في شهر تموز ١٩٢٠ تركوا إدارة (خط) الحجاز تسير على ما كانت عليه في عهد الحكومة الفيصلية ، حتى آذار سنة ١٩٢٤ ، وألغيت بعد ذلك ، وأحيلت إدارة الخط إلى شركة (دمشق ـ حماة وتمديداتها) الفرنسية » .

بعد انتظار ٢٥ عاماً

لم يكن أمل في أن يحظى إجماع الأمة على وجوب تسيير الخط بشيء من اهتمام المحتلين الغاصبين ، فكان علينا أن ننتظر خمسة وعشرين عاماً ، وحرباً عالمية ثانية يتقرر بانقضائها سنة ١٩٤٥ استقلال سورية والأردن . واستئناف جهود الشعوب بجمعياتها ومجالسها وأفرادها الإلحاح على الحكم الوطني المستقل سنين حتى تتحرك الحكومات فتؤلف لجاناً رسمية في سورية والمملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية ، وأبرم بعد المداولة (اتفاق ١٨ نيسان ١٩٤٧) الذي جاء فيه :

أولاً ـ يعتبر الفرقاء الذين يمر الخط في أراضيهم بأن هذا الخط وقف إسلامي تجري المحافظة عليه كما تجري المحافظة على الأوقاف الإسلامية .

ثانياً ـ إن الخط بفروعه وتمديداته هو وحدة كاملة غير قابلة للتجزئة .

ثالثاً ـ على الفرقاء الذين يمر الخط بأراضيهم أن يعيدوا للخط جميع ما يعود له من حقوق وممتلكات ، وجعلوا كلاً من الحكومات الثلاث تقوم بإصلاح ما في أرضها من هذا الخط ، وقف الأمر عند هذا لكن الواقع أن الأمر بقي على ما كان عليه ، قاصراً على انتظام سيره من دمشق إلى عمان .

عاد نشاط الجماهير في ملاحقة حكوماتها ، وهذه استجابت بعد لأي فألفت

لجاناً تدرس . ثم يحدد موعد لاجتماع اللجان الثلاث ، ويتكرر ذلك إلى أن اتفق على اجتماعها في الرياض ، فصدر عنها (بروتوكول رقم ١) في ٢٤/ ١/ ١٩٥٤ يعرض على الحكومات الثلاث وقد جاء في ملحق مادته الرابعة :

١ـ إن شركة الخطوط الحديدية الحجازية المعروفة باسم (الخط الحديدي الحجازي . . . بسائر فروعه وتمديداته وحقوقه ومنشآته سواء أكانت تحت إشراف حكومات الدول الثلاث الموقعة على هذا النظام أم خارجة عن هذا الإشراف في الوقت الحاضر (يريد ما في فلسطين المحتلة) وقف إسلامي ، وقد اتفقت الحكومات الموقعة على هذا النظام على اعتبار هذا الخط مؤسسة دولية ذات شخصية حقوقية واستقلال مالي ، وعلى إسناد إدارته إلى (مجلس إدارة دولي) يؤلف على الوجه المبين في المادة الثانية من هذا النظام .

٢ـ يتألف المجلس من عضوين من كل حكومة من الحكومات الثلاث الموقعة على هذا النظام ومن المدير العام . وكان الملك سعود ـ رحمه الله ـ قد حسم نقاشاً حول نفقات الدراسة بتبرعه بمليوني ليرة سورية للدراسة » .

٢ مليون ليرة للدراسة

ثم عقد اجتماع في الرياض بين وزراء المواصلات الثلاثة أسفر عن اتفاق ٢٠/ ١/ ١٩٥٥ نصت مادته الثانية على (رصد المليونين من الليرات السورية اللذين تبرع بهما صاحب الجلالة الملك سعود المعظم لنفقات الدراسة الفنية اللازمة لتنفيذ المشروع) .

وكان قد اتفق على (بروتوكول رقم ٣) في ١١/ ١٠/ ١٩٥٤ ينص ملحقه الرابع على الحقوق والامتيازات التي للخط بموجب الفرمانات السلطانية التي حددت أوقاف الخط في مختلف البلدان جاء فيه :

أما الامتيازات وحقوق الخط فهي مبينة فيما يلي مع الإشارة إلى وثائقها :

١ـ امتياز إنشاء واستثمار مرفأ وأرصفة مدينة (حيفا) (هي اليوم تحت احتلال اليهود) بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ١٧ رمضان سنة ١٣٣١هـ .

٢ـ امتياز تملك واستثمار ثلاثة حمامات في محطة (الحمة) ، بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٢هـ .

٣ـ امتياز استثمار كافة الشلالات الواقعة على مسير الخط الحجازي وعلى مسافة (٦٠) كيلو متراً بموجب الإدارة السلطانية على مسير الخط الحجازي ، وفي حوالي (عمان) بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ٢ رمضان سنة ١٣٢٢هـ وكتاب الصدارة العظمى تاريخ ٥ منه ، ومنع التحري على المعادن قرب حدود الخط الحديدي الحجازي .

٥ـ منع بيع الأرضين المجاورة للخط الحديدي الحجازي وعلى مسافة (١٠) كيلومترات من كل جهة من الخط بموجب كتاب الصدارة العظمى رقم ٥٧ وتاريخ ١٦ أيار سنة ١٣٢٦ .

٦ـ منح أملاك شركة (الداليجانس) وطريق شوسه (دمشق ـ بيروت) إلى الخط الحجازي بموجب الإدارة السلطانية في ٢٣ رجب ١٣١٩ .

٧ـ امتياز استثمار الأشجار المدعوة (تشير ميشا) في ألبانيا بموجب الفرمان السلطاني تاريخ ١٣٢٢ .

٨ـ امتياز استثمار معادن الفحم الحجري والحديد في ولاية (أدنة) في تركية بموجب الفرمان السلطاني المؤرخ في ٢٧ شوال سنة ١٣٢١ » . ولا يخفى أن حمامات الحمة هي اليوم في مغصوبات الاحتلال الصهيوني يستثمرها الصهيونيون كما يستثمرون غيرها من الأوقاف الإسلامية التي استولوا عليها غصباً وعدواناً .

وننتظر أشهراً أخرى حتى تجمع هذه البروتوكولات مع ملاحقها والاتفاقات ليصدر فيها جميعاً قوانين .

ففي سورية مثلاً صدر القانون (رقم ٦٧) وتاريخ ١٩/ ٤/ ١٩٥٥ أوله :

أقر مجلس النواب وأصدر رئيس الجمهورية القانون الآتي :

مادة ـ يصدق اتفاق وزراء المواصلات لكل من الحكومات الثلاث : المملكة العربية السعودية ، والمملكة الأردنية الهاشمية ، والجمهورية السورية المعقود في

الرياض بتاريخ ٢٥ جمادى الأول سنة ١٣٧٤هـ الموافق ٢٠/ ١٠/ ١٩٥٥م والملحق القانون والاتفاقات والبروتوكولات السابقة له المنصوص عنها في المادة الأولى منه والمرفقة بهذا القانون وهي :

١ـ الاتفاق المعقود في دمشق . . . في ١٨/ ٤/ ١٩٤٧م .

٢ـ البروتوكول رقم (١) المعقود في الرياض . . . في ٢٤/ ١/ ١٩٥٤ مع ملاحقه المرفقة .

٣ـ البروتوكول رقم (٣) المعقود في الرياض .

٤ـ البروتوكول المعقود في الرياض . . في ١٤/ ١٠/ ١٩٥٤ مع ملاحقه المرافقة له . . إلخ « ٣ » .

كلام على الورق

ثم لجان جديدة واجتماعات ، واتفاقات و . . مما لا يسرك سرده . . وبعد إحدى عشرة سنة اقترح عقد اتفاق موحد يحل محل القانون (٦٧) . فووفق على ذلك ، وتوج اجتماع اللجان باجتماع وزراء المواصلات في الحكومات الثلاث ، وصدر ما سموه بالاتفاقية الموحدة ، وقد صدرت في سورية بمرسوم تشريعي برقم (٨٨) وتاريخ ٧/ ٨/ ١٩٦٦م وجاء في فصله الثاني (أحكام عامة) :

المادة ٢ـ الخط الحديدي الحجازي بسائر فروعه وتمديداته وحقوقه وأملاكه وامتيازاته وقف إسلامي عام ذو شخصية حقوقية وذمة مالية مستقلة . وهو يشكل بهذه الصفة وحدة كاملة غير قابل للتجزئة .

المادة٣ـ تحافظ الحكومات الثلاث على الأقسام الواقعة في أراضيها من هذا الخط . وعلى حقوقه وأملاكه وامتيازاته محافظتها على الأوقاف الإسلامية .

المادة ٤ـ تلتزم الحكومات الثلاث بالعمل مجتمعة ومنفردة بجميع الوسائل الدبلوماسية ، وعن طريق جامعة الدول العربية على المطالبة بأملاك الخط وبحقوقه وامتيازاته في الأراضي الواقعة خارج حدودها ، وتمكينه من استردادها واستغلاله لمصلحته .

المادة٥ـ تؤكد حكومات الدول الثلاث تعهدها بتمويل مشروع إنشاء الخط من (معان) إلى المدينة ، وتغطية نفقاته التي قدرت بموجب البروتوكول رقم (٦) المؤرخ ٧/١١/١٩٦٣ بـ (٩٨) مليون ليرة سورية ، كما تتعهد بتغطية جميع النفقات اللازمة لإصلاح الخطوط لإعادة تسييره بين دمشق والمدينة المنورة ، وذلك كله بالتساوي فيما بينها » .

والفصل الرابع يتعلق بتأليف هيئة عليا للخط الحديدي الحجازي ، وفيه :

المادة٩ـ أـ تشكل الهيئة العليا للخط الحديدي الحجازي من وزراء المواصلات المختصين لدى حكومات الدول الثلاث .

ب ـ تمثل الهيئة العليا حكومات الدول الثلاث في كل ما يتعلق بتنفيذ المشروع وفي الإشراف على الإدارة المشتركة لاستثمار الخط وإدارة أوقافه ، وذلك وفقاً لأحكام هذا الاتفاق .

المادة١٠ـ تتخذ الهيئة العليا مدينة دمشق مقراً رسمياً لها ، وتعقد اجتماعاتها في المقر المذكور ، أو في أي مدينة أخرى باتفاق أعضائها » .

هذا كل ما على الورق مما يعنينا ، لكن شيئاً ما على الطبيعة لم يظهر ، غير (٦٦) متراً من أول الحدود السعودية (!) ثم توقف العمل سنة ١٩٦٨ كما توقف بحث الموضوع ، ولكن الرواية لم تتم فصولاً :

صادف ذلك استئناف كلام في الموضوع في الأقطار الثلاثة ، وبين المسؤولين ، فبدأت اللجان تجتمع ، وهبط عليها رأي ظاهره فيه الرحمة ، وخلاصته أن الخط الحجازي خط ضيق أكل عليه الدهر وشرب ، عرضه لا يتجاوز (١٠٥سم) وإصلاح ما خرب منه ترقيع لا يساير ما بلغه تقدم هذه المصلحة دولياً في هذه السنين السبعين التي مرت على إنشائه ، وأن الخير في إنشاء خط جديد عريض كسائر الخطوط الدولية بعرض (١٤٠سم) . . فتلقف هذا الرأي البراق ، ووُوفق عليه . . . وأعلن عن مناقصة دولية للشركات العالمية للقيام بدراسة لهذا المشروع سنة ١٩٧٧ . وفي سنة ١٩٧٨ وقع الاختيار على شركة (دوش كنسول) التي شرعت في تحضير الدراسة ، وبعد عامين قدمت دراستها مطبوعة في عشرين مجلداً كاملة

الخرائط والتخطيطات والمصورات ، واستقرت منها نسخة في مكتبة (الهيئة العليا للخط الحديدي الحجازي) ، وكانت نتائج الدراسة كلها إيجابية ، فماذا كانت النتيجة ؟

اجتمعت اللجان بعد اطلاعها على الدراسة في آذار سنة ١٩٨١ ، واتخذت قراراً باعتمادها ، وبأن ينفذها كل في أرضه وعلى نفقته (!!) فرجعنا إلى ما كنا عليه في سنة ١٩٤٧م . وقد مر بك . ولم نربح إلا دليلاً جديداً على كروية الأرض فقد أتممنا الدورة في (٣٤) عاماً رجعنا بعدها إلى نقطة الانطلاق .

أما بعد فلا تعليق!

كلمة الأعضاء الخمسة الجدد ألقاها الأستاذ سعيد الأفغاني

ألقيت في حفل استقباله عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٩١م ونشرت في مجلة المجمع نفسه في عدد أيار (مايو) عام ١٩٩٣م .

السيد الرئيس

سادتي رجال المجمع

أيها الحفل الكريم

أحسن الله إليكم فقد أحسنتم بنا الظن حين ضممتمونا إلى صفكم ، مجاهدين لرفعة العربية ، عاملين لردّ عافيتها ، وسد حاجاتها وما أكثرها ؛ وسنحاول ذلك جاهدين بكل ما أنعم الله علينا من قوة ما استطعنا . فإن كنا عند حسن ظنكم فبتوفيق من الله وله الحمد ، وإنْ قصَّرنا فالعجز من طبع البشر ، ولا جناح على من بذل الوسع وصدق الجهد . ونحن نعلم أن الطريق ممهّد لكنه طويل . والذي علينا أن نريد ، ونعزم ثم نستعين بالله .

سادتي :

لست أعرف من نفسي ما سمعتم ، من نعوت تفضل بها الأخ المستقبِل الدكتور شوقي ضيف ، فهو معروف بدماثته وأدب نفسه ، لكني أعدّ هذا منه أمراً من المجمع الكريم أتىٰ في صيغة الخبر ، وكذلك يعدّه رفاقي المستقبَلون ، فاقبلوا منا شكرنا ، ونحن إن نعجز عن إيفائكم حقَّ الشكر ، لا نعجز عن الضراعة إلى الله العلي القدير أن يحفظ هذه المؤسسة ماضية على الطريق الأقوم الذي يرضيه ويجنبها بنيّات الطرق ، وأن يجعل يومها خيراً من أمسها ، وغدها خيراً من يومها ، وأن يكشف عن أمة هذا اللسان العربي المبين ، ما ألمّ بها من تصدّع ، ويحررها من كيد الذين رحلوا بأشباحهم وما زالت شرورهم مستقرة تتصرف بنا ، وأن يرزقنا الوعي الكافي لما يحيط بنا من خطط السوء في لبوس من دعوى الخير .

سادتي

وفقنا الله لتحقيق ظنكم ، ونكرر شكرنا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



الكتاب السابع
تعقيبات وتقاريظ



حول كتاب الإجابة

هو استدراك ورجاء . نشرته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٦/ لعام ١٩٤١ .

ذكرني ما نشر عن كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة)[١] بدينٍ عليَّ ، أرى من حق العلم أن أنوّه بصاحبيه في هذه المجلة اعترافاً بفضلهما وغيرتهما على الحديث الشريف :

أما الأول فهو الشيخ سليمان الديراني الذي قرأ الكتاب بإمعان وتحرٍّ وقابل النقول بالأصول التي عزا إليها الزركشي ثم نبّهني إلى :

١ ـ ص١١١ س٨ قوله : « لم ينزل البلاء بالرسل حتى خافوا . . . إلخ » صوابه « لم يزل . . . إلخ » .

٢ ـ ص١٢٨ قوله : « هم الذين يكنزون . . » صوابه « هم الذين يكتوون » .

وأما الثاني فهو العلامة الأستاذ كرنكو الذي انتدب إلى خدمة النسخة فور وصولها إليه ، ثم كتب إليَّ كتاباً عنها ، أقتطف منه فقرة النقد فقط لما فيها من فوائد في أماكن بعض كتب الحديث الأمهات قد تعني المشتغلين بهذا العلم ، قال : . . . « إنكم مع جودة التهذيب وإتقان النشر ، وهممتم في عزو كتاب المسند للبزاز ، إذ هو بلا شك أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ـ بالزاي ثم بعد الألف الراء ـ المتوفى سنة ٢٩٢ (انظر أنساب السمعاني) وقد حمل إلي وقت إقامتي في الهند ، العالم عبد اللطيف الحرازي نزيل مدينة (لكنو) مجلداً فيه الجزء الثالث من هذا المسند ، وأعتقد أن أجزاء أخر موجودة في خزائن إستانبول .

وص٣٨ سطر٣ اللغوي المذكور هو أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانيني المتوفى سنة ٤٤٢هـ .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد السادس عشر ص١٢٩ .

وص٦٢ سطر ١٣ كتاب (إيضاح ما لا يسع المحدث جهله) فهو موجود في عدة نسخ في لندن وإستانبول وبانكي بور ورامبور من بلاد الهند (انظر بروكلمن وتكملته ١/ ٦٣٣) والمؤلف هو الميانشي بالياء المثناة ، نسبة إلى قرية في إفريقية .

أما كتاب (المعجم الأوسط) للطبراني فهو مفقود سوى المجلد الثالث ، وهو الأخير ، فمنه نسخة قديمة في خزانة كوبر يلي زادة بإستانبول ، ولكن لا أعرف ما يتضمّن هذا المجلد .

وفي ص١٣٣ سطر ١٧ وص١٣٤ إلخ الراوي عن ابن مسعود هو جابان ، بالجيم كما هو مضبوط في كتب الرجال . . » .

ومع أن أكثر هذه التصويبات مطبعية لا تعدو النقطة فإن القارئ لا ينتبه إلى صوابها، وليس يسع المرء إلا إكبار خدمة العلم المخلصين وشكرهم من أي ملة كانوا .

هذا وفي الكتاب مواضع تركت بيضاء لأن خط المؤلف فيها كان كهذا الذي يكتبه الأطباء باللاتينية إلى صيادلتهم ، وقد أعوزتني المصادر التي نقل عنها الإمام الزركشي ، وخاصة كتاب (شعب الإيمان) للبيهقي لم أر أحداً يعرف له وجوداً .

فالرجاء ممن استطاع تصحيح شيء عجزنا عنه أن ينبهنا إليه ، وله على ذلك شكر العلم وثواب الله[1] .

---

(١) فيما نشر الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار عن (الإجابة) ص١٢٩ (المجلد السادس عشر) أشياء تحتاج إلى استدراك :

تقول ص٥ س٧ « وعروة وابن الزبير » مقصود لا سهو فيه ، فابن الزبير إذا أطلق انصرف إلى عبد الله ، وكل من عبد الله وعروة أخذ وروى عن عائشة .

وقول عائشة : « أدخل البيت الذي دفن معهما عمر ص٧٢ سطر ١٣ » لا خطأ به وحذف « فيه » منه جائز لغة كما هو معلوم من كتب النحو (انظر بحث الموصول في حاشية الخضري) .

وقد صورت في النسخة الصفحة الوارد فيها هذا القول . والحديث لا يصحح اعتباطاً ولا عفو الخاطر ، وإنما يرجع فيه إلى دواوينه وتتبع أصوله ، ولو رجع الأستاذ البيطار إلى مستدرك الحاكم المطبوع بالهند (ج٤ ص٧) لوجد الحديث كما هو مثبت في النسخة تماماً .

وكذلك قول الأستاذ : والصواب : « أعلى الدلاء من أسلفها » غير صحيح ، وهذا الحديث ذكر في السبط الثمين ص٤٤ محرفاً أيضاً ، وإنما الصواب فيه : « إن الغيرىٰ لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه » انظر شرح المواهب للزرقاني : ٢٧١ .

تهافت حول (الإجابة) أيضاً

فيه ردّ على بعض الملاحظات المتسرّعة

نشرته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق
المجلد ١٧/ لعام ١٩٤٢

كنت شكرت في هذه المجلة (م١٦ ص٣٣٥) العلامة كرنكو على ملاحظات بعث إلي بها من (كمبردج) على كتاب الإجابة لأنها دلت على اطلاع وإخلاص معاً ، وأخذت على فاضلٍ كتب عن (الإجابة) عجلته في أشياء ومنعه الجائز ، والأولى في أخرى ، وليس ذنبي أن كان المصيب فرنجياً والمخطئ من مدرسي الدين ، فإن الحديث الشريف يتطلب ألا تأخذ المشتغل فيه لومة لائم ، وأن يكون من الصادقين يعطي كلاً بحقه . فساء هذا أناساً كتب أحدهم كلمة في بعضها التهافت وفي بعضها الصواب ، وقد دل في الحالين على أنه يتعاطى ما لا يحسن ، وقد وجب بيان ذلك لأنه لا يخلو من فائدة للمبتدئين ، ولئلا يفسد أحد نسخته من كتاب (الإجابة) :

أ ـ فأما التهافت فإليك بيان بعضه :

١ ـ ذكرت في ص١٥ س٥ من كتاب (الإجابة) في مؤلفات الزركشي ما يلي : المختصر (في الحديث) . . . قال الزركشي في مختصره . . إلخ فجاء يلاحظ قائلاً : (هو في مصطلح الحديث) اهـ والأمانة والاحتياط الدقيق يمنعان ذلك : لأنه ليس في اليد إلا النص المتقدم الذي ذكرته في كتابي ، وليس فيه نص على أن الكتاب في مصطلح الحديث ، ولذلك جعلت كلمة (الحديث) بين قوسين ولم أجعلها (مصطلح الحديث) لاحتمال أن يكون الكتاب في الحديث وشرحه فقط والشراح يتعرضون لما يعرض للحديث من شذوذ وقلب . و(مصطلح الحديث) داخل في مفهوم (الحديث) ولا عكس **وأشكل المشكلات توضيح الواضحات** . وقد أسقط الملاحظ القوسين من كلامنا (مجلة المجمع م١٦ ص٥٢٦ س٥) وهو

عمل لا يتفق والأمانة في شيء مع الأسف .

٢ـ قال : ص١٨ س٨ : « أما » هي « نا » اهـ وهذا من سقم القراءة : فما قرأه (أما) إنما هو (أنا) بحرف واضح جداً ، وقد تعبت حتى استطاع عامل المطبعة أن يضع نوناً لا نقطة لها مراعاة للأصل . وأما التحريف المتعمد ففي زعمه أنها في الأصل (نا) وليس ذلك صحيحاً وإنما هي (أنا) بيّنة ما بها خفاء وهي مختزلة من أخبرنا .

٣ـ في كتابنا ص٧١ س١٥ : « إنها حبيبة رسول الله » وقد نقلها الزركشي من (المستدرك) ولم نكن من شيء أسرّ منا في أن المستدرك بيدنا ، وأن الأصل المخطوط وما في المستدرك تطابقا ، وهذا أشد ما يغبط الناشر ، كما يعرف ذلك كل محقق عانى ما عانيناه . فجاء هذا يزعم أنها في الأصل المخطوط (حبة) لا (حبيبة) ولو سأل أي مناول في دار الكتب لقرأها له على صحتها . وأقل ممارسة لخط الزركشي تدل صاحبها على أن الأسنان في هذه الكلمة ثلاث لا واحدة والصفحة مصورة في كتابنا يرجع إليها من شاء . ولعل عذر الكاتب سوء النظر . وأحر بمن يطمح إلى إبداء رأي في عمل كنشر (الإجابة) للزركشي أن يحسن القراءة ، ويتلقى الكتاب على من يحسن تلقينه ، قبل الإقدام على عرض الآراء على ما خيلت .

٤ـ قوله : « وهم العلامة الأستاذ كرنكو . . . » غير صحيح البتة ، فلم يخطئ كرنكو في وفاة البزار ، وهذا كتابه محفوظ عندي وفيه سنة الوفاة (٢٩٢هـ) ، وإنما تحرفت في الطبع ، ثم سارعت المجلة إلى تصحيحها في (١٦٠ ص٤٨٠ قبل صدور كلمة الكاتب بأكثر من شهرين ، وأشارت إلى ذلك أيضاً في (م١٦ ص٥٨٨) في جدول الخطأ والصواب . وليس من المروءة التسرع في اتهام المحسنين . وقليل من الإنصاف وإبصار الحق يزين صاحبه .

ب ـ وأما الصواب : ففي سقوط ألف (أبو الفضل ابن حجر) ، وفي أن (أبو حجاج) في الأصل (أبو الحجاج) ، وفي أن ص١٦٥ في الفهرس صوابها ١٦٦ ، وفي انتباهه إلى الخطأ في (حفصة بن عمر أم المؤمنين) و(شرح جامع الجوامع)

و(الصباح المنير) الواردات في فهارس الكتاب ، فقد استطاع أن يعرف أن الصواب في الأولى (حفصة بنت . .) وفي الثانية (شرح جمع الجوامع) وفي الثالثة (المصباح المنير) لكنه لم يعرف أنها وردت على الصواب في عدة مواضع من الكتاب .

ولست أدري هل هذا مما يلاحظ على إخراج كتاب كان السطر الواحد أحياناً يقذي عين ناشره نهاراً وطرفاً من الليل حتى يعثر على صوابه في مظان موثوقة ؟

ولست أدري ، وإنما علي أن أشكره مهما كانت نيته والدافعون له ، فقد أتعب نفسه جداً ، وحسبك أنه اختبر نحواً من (٢٤٠٠) رقماً في الفهرس حتى وجد أن ص١٦٥ صوابها ١٦٦ . وللقراء بعد أن يحكموا بما وجدوا .

أما عدم فهمه لترجيحي رسم (داوود) بواوين على رغم وضوح العلة ، ولصواب قولي (وعروة وابن الزبير) وما إلى ذلك فأرى من الغثاثة شرحه في مثل هذه المجلة المحترمة لشدة وضوحه .

حول تاريخ داريا

كلمة موجزة يذكر فيها الأستاذ موافقته على تصحيح خطأ وقع في نشرته لكتاب (تاريخ داريا) نبهه عليه المستشرق كرنكو . فما أروع تواضع العلماء!

نشرتها مجلة المجمع بدمشق ، المجلد ٢٦ لعام ١٩٥١ ص١٥٦

أرسل إليّ المستشرق العلامة السيد سالم الكرنكوي من (كمبردج - إنجلترة) كتاباً بمناسبة عنايتي بـ (تاريخ داريا للقاضي عبد الجبار الخولاني) الذي أصدره المجمع العلمي العربي في مطبوعاته الصيف الماضي ، قال فيه يصوّب كلمتين كنت وقفت عندهما وشفعتهما بعلامة الاستفهام (؟) .

« ص٨٧ سطر ٧ الصواب : وهو جمال السائم أحد بني الرايش .

يعني من نسل الحارث الرايش أحد ملوك اليمن القدماء .

ص١٢٦ سطر٣ الصواب : العنسي عن أخيه عبد الله بن أحمد » .

وقد وجدت الحق معه فيما ذهبت إليه ، فرأيت من الواجب المبادرة إلى نشر هذا التصويب في مجلة المجمع العلمي ، لينتفع به كل من عنده نسخة من (تاريخ داريا) ويشاركني شكري وتقديري لهذا المفضال الذي يخدم العلم بإخلاص ، أمتعه الله بالعافية .

حول تصحيح سبعة أسطر في كتاب (تاريخ داريا)

تعقيب ردّ فيه الأستاذ على من صحح له بعض المواضع في الكتاب المذكور .
نشر في مجلة المجمع بدمشق ، المجلد ٢٩/ الجزء الأول ، لعام ١٩٥٤ .

جاءنا من الأستاذ محقق تاريخ داريا ـ رداً على ما نشر في العدد الثاني من المجلد الثامن والعشرين (ص٣٣٣) بعنوان تصحيح سبعة أسطر من تاريخ داريا ـ بيان نقتطف منه ما يلي بعد تغيير وحذف يسيرين .

١ـ بدأ المعترض الكلام بقوله : « حينما طالعت تاريخ داريا لابن المهنا . . . وبخاصة ص١٢٦ . . . إلخ » .

وابن المهنا وتاريخه لا علاقة لهما بهذه الصفحة ، إذ ينتهي تاريخ ابن المهنا في ص١٢٣ نصاً وصراحة ، وبعد هذا الإشعار الصارخ من حمد الله والصلاة على نبيه على عادة المؤلفين جميعاً . وتبدأ صفحة (١٢٤) بعنوان طبع بحرف كبير جداً : (الزيادة . . . إلخ) وهي زيادات لمتأخر نقلها الناسخ .

٢ـ ثم يقول المعترض : « فظهر لي أن الترجمة المذكورة بسبعة أسطر في الصفحة المذكورة ليست لشخص واحد وهو « خلف بن محمد » وإنما هي ثلاث تراجم . . . مزج الأستاذ . . . بعضها ببعض وجعلها ترجمة واحدة لشخص واحد » اهـ .

فلا الذي ذكره من الثلاثية صحيح ، ولا ما عزاه للناشر من المزج صدق . فأما الأول فليس في النص مما زعمه ترجمة ثانية غير (أبيه) ويحتاج المرء إلى خيال جريء حتى يجعل من هذه الكلمة نواة ترجمة . وأما الثاني فلم يمزج الناشر ولم يغيّر ، وإنما نشر زيادة الناسخ كما هي ، وهي في الأصل جملة واحدة ليس لها غير عنوان واحد (خلف بن محمد) ، وليرجع إليها من شاء في النسخة المصورة بخزانة المجمع العلمي العربي .

وقد كنت لاحظت في هذه الترجمة خللاً حين اختلفت سنة الوفاة لصاحب الترجمة عن السنة المذكورة في آخرها فأشرت إلى ذلك في التعليق ؛ وسقوط كلام قبل كلمة (أبيه) فوضعت بعدها كلمة (كذا ؟) مشفوعة بإشارة استفهام ، ولا تسمح الأمانة بأكثر من ذلك ، فإن زاد شيئاً صار اختلافاً . والمؤسف أن هذا التعليق المفيد للقارئ المتأني أضرَّ بالمعترض ، وجعله يزعم أن هناك ثلاث تراجم ، وجعله يدّعي ويطلب أن يزاد على النص أن أحمد بن عمرو العنسي روى عن أبيه وروى عنه ابنه ، ومن عرف أن العلم عند المحدثين أمانة يدرك لماذا يسقطون الراوي لاختلاف أقل من هذا بكثير .

أما تعليقي فيجعل كون الترجمة ترجمتين (لا ثلاثاً) أحد الأمور المحتملة ، ولم أحتم ذلك تحتيماً خشية أن يكون هناك كلام سقط (لا ندري ما هو) يربط آخر النص بأوله . والصفحة كما أسلفت ليست من كتاب ابن المهنا ، وإنما هي زيادة قارئ متأخر ، ومن طالت ممارسته تراثنا المحفوظ تأنى وتحفظ واحتاط . وليستقيم للمعترض ادعاء ترجمات ثلاث قام بما يأتي :

٣ـ أولاً ـ ادعى وجود بياض في المطبوعة في السطر الثاني من ترجمة خلف (ص١٢٦) ، وذكر في تصويبه ما يدل على أن الكلمة الساقطة هي (العنسي) وأقول : ليس في المطبوعة بياض بل (العنسي) في مكانها والنسخ بأيدي القراء .

ثانياً ـ في تصويبه ما يوهم حذف الناشر لعنوانين من الثلاثة . وذلك تزوير على الأصل ، فليس فيه إلا عنوان واحد هو الذي طبعناه بأمانة دون اختلاق .

ثالثاً ـ في تصويبه الذي نشره ما يقطع بأن (عبد الله بن أحمد) ذكر مرتين ، ليستطيع زعم أن الأولى تتبع الترجمة الثانية التي زعمها ، والثانية عنوان ترجمة جديدة . وهذا زعم ثانٍ إذ ليس في الأصل (عبد الله بن أحمد) إلا مرة واحدة[1] .

---

(١) وورد على المجمع سؤال من السيد محمد طاهر النخعي عن وفاة قيس بن عباية المذكورة في ص٣٥ من تاريخ داريا ، ويسأل عن كلمة (بن الأوس) هل هي في المخطوط (بن) أو (من) .
والجواب أن الرقم المدرج تحت الاسم (ـ١١٠ـ١٢٠) سهو محض لأنه يتعلق برجل آخر اسمه قيس بن عباية أيضاً .
=

= وأما (بن) فهي في المخطوط (من) .
وبهذه المناسبة نرجو من عنده نسخة من تاريخ داريا أن يضيف إلى تصويباتها ما يأتي :
ص٣٣ رحبي من ولد رحب بن حلوان .
مغوية
ص٤٩ حابس
صواب عبد العزيز بن أحمد الكناني : عبد العزيز بن أحمد الكتاني .

الذخيرة

(لابن بسام)

تعقيب على الكتاب ، وتصحيح لبعض ما وقع فيه من الخطأ .
نشرته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٦ الجزء ١ ، ٢ لعام ١٩٤١ ص٢٣٥-٢٣٧ .

في مثل هذه الأيام من العام الماضي علق البصر بهذا السِّفر النفيس لابن بسام ، فسرّحت الطرف في فهرسه ألتهم موضوعاته ، وأنا لا أكاد أصدق من فرط السرور أن الزمان سيسمح بنشر هذا الكتاب . وقفت عند رقم يتعلق بالإمام ابن حزم الذي كنت انتهيت من إصدار كتابي عنه قبيل ذلك ، فقرأت مثبتاً ما ذكر عنه ابن بسام ، فوقفت عند بعض التصحيف ، ولما طالعت ما كتب في التعريف بالكتاب في مجلة المجمع العلمي العربي أحببت أن أرفع ما عنَّ لي من ملاحظة إلى الأساتيذ الأجلاء الذين فرغوا أنفسهم لخدمة هذا الأثر الجليل ولحضرتهم الفضل :

١- في ص١٤٤ هذا البيت :

كأنك بالزوّار لي قد تنادروا وقيل لهم : أودى علي بن أحمد

ولا معنى فيه لـ [تنادروا] والصواب : [تبادروا] بالباء كما في إرشاد الأريب ، ونفح الطيب [ترجمة ابن حزم]

٢- في ص١٤٥ :

هنالك تدري أن للعبد غصّة وأن كساد العلم آفته الغرب

والصواب كما يقتضيه السياق وكما في المصدر السابق :

هنالك تدري أن للعبد قصّةً وأنَّ كساد العلم آفتُه القربُ

٣- أرجح أن [تشوقوا] في قوله ص١٤٥ :

فواعجباً من غاب عنهم تشوّقُوا   له ، ودنو المرء من دارهم ذنب

محرفة عن (تشوّفُوا] بالفاء بمعنى اشرأبوا ، وهو أجود .

٤ـ لم أجد معنىً مناسباً لكلمة [سغب] الواردة في قوله ص١٤٦ :

وإنّ رجالاً ضيّعوني لضيّعٌ   وإن زماناً لم أنل خصبه سغب

والصحيح ما في إرشاد الأريب : وإن زماناً لم أنل خصبه جَدْب

٥ـ وكذلك كلمة (ميقعة) في قوله ص١٤٦ :

ذو الفضل كالتّبر طوراً تحت ميقعة   وتارةً في ذرى تاج على ملك

والميقعة ـ كما في القاموس ـ خشبة القصار يدق عليها ؛ والمطرقة ؛ والموضع الذي يألفه البازي والمسن الطويل . وليس لأحد هذه المعاني مناسبة في البيت . وإنما الصّواب : « تحت متربة » كما في نفح الطيب .

٦ـ في ص١٤٦ : « جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه » والذي أحفظه : « أعوص من إتقانه » .

٧ـ في ص١٤٦ : « أبوه الوزير المعَقَّل في زمانه » ولم أر مسوغاً للتشديد لأن [المِعْقِل] بالتخفيف أسوغ .

٨ـ في ص١٤٦ : « فما من شرف إلا مسبوق عن خارجية » ولعل صوابها : فما من شرف إلا مسوق عن خارجيته : كما في إرشاد الأريب [ترجمة ابن حزم] .

٩ـ لعل الأولى في كلمة [رحم معقومة] المذكورة في ص١٤٢ أن يقال : « رحم معقوقة » بالقاف لا بالميم .

١٠ـ ضبطوا في ص١٤٤ [تَحْرقوا] بفتح فسكون ؛ وإنما الفعل بالمعنى المذكور رباعي لا ثلاثي ؛ فالصواب : [تُحرقوا] بالضم فالسكون .

١١ـ في ص١٤٣ : « الفصل بين أهل الآراء والنحل » والمعروف من المصادر : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » والكتاب مطبوع متداول . وكذلك كتاب « كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس » صواب [ما] أن تكون [لما] .

هذا ما لفت نظري في الصفحات الخمس المتعلقة بابن حزم . وقد أعجبتني الإعجاب كله كلمة الدكتور طه حسين في ختام مقدمته :

« هناك نصوص لم تستقم لنا ولم نوفق إلى إقامتها ، ومن الجائز بل من الراجح أن تكون هناك أغلاط قد مرت بنا أو مررنا بها فلم ترد أن تكشف لنا عن نفسها ، ولم نستطع نحن أن نكشف لأنفسنا عنا . ولكن الإنتاج العلمي مشاركة كله ، بل أخص صفاته أنه تعاون بين المنتجين والمستهلكين ، كما يقول أصحاب الاقتصاد . فليصلح القراء ما فات الناشرين ، ومن يدري لعلهم أن يضطروا في كثير من الأحيان إلى أن يصلحوا ما فات المؤلف نفسه . والمهم أن نعمل ، وأن نسعى جهدنا إلى الخير وعلى الله قصد السبيل » .

إن هذا الكلام لا يقوله إلا الأثبات الثقات من العلماء الذين كثرت معاناتهم لآثارنا وتصحيحيها ، والذين استطال تبحرهم وتدقيقهم . وإني بعد لشاكر لكل من ساهم في هذا العمل المجيد أخلص الشكر ؛ مكبر لهم غاية الإكبار .

الإمتاع والمؤانسة

(للتوحيدي)[1]

تعقيب على الكتاب نشرته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ١٧ الجزء ١ ، ٢/ لعام ١٩٤٢ . ص٢٨٥-٢٨٧ .

١- في ص١٩٥ من كتاب الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) هذا النص :

« وإذا ألقوا شبكة ليصطادوا فوقع فيها الزامور خلوه حياً ، وأخذوه ، وأعتقوا لكرامته أصناف السمك الواقع في الشبكة أحياء » وعلق الناشران على هذه الجملة قولهما :

« وعبارة الأصل : « وأخذوا أصناف السمك » وقوله : « وأخذوا » واقعة في غير موقعها ، وقد أثبتناها في الموضع اللائق بها لاستقامة الكلام بذلك » . اهـ .

والصواب أن يقال : « خلوه حياً وأعتقوه لكرامته ، وأخذوا أصناف السمك . . » ويتضح ذلك بكلام منقول عن التوحيدي نفسه في الموضوع عينه بدعم ما ذهبنا إليه ويشرحه ويثبت أنه الوجه لا وجه غيره :

جاء في (حياة الحيوان للدميري ٢ : ٤ طبعة البابي الحلبي سنة ١٣١٩هـ) ما نصه :

(الزامور) قال التوحيدي : إنه هو حوت صغير الجسم ألوف لأصوات الناس ، مستأنس باستماعها ، ولذلك يصحب السفن متلذذاً بأصوات أهلها . وإذا رأى الحوت الأعظم يريد الاحتكاك بها وكسرها ، وثب الزامور ودخل أذنه ، ولا يزال يزمر فيه حتى يفر الحوت إلى الساحل يطلب جرفاً أو صخرة ، فإذا أصاب ذلك فلا يزال يضرب به رأسه حتى يموت ، وركاب السفن يحبونه ويطعمونه ويتفقدونه ليدوم

---

(١) الذي نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

إلفه لهم وصحبته لهم ، ليسلموا من ضرر السمك العادي . . وإذا ألقوا شباك الصيد فوقع الزامور فيها أطلقوه لكرامته » اهـ وهذا نص قاطع صريح .

٢ـ زاد ناشرا الكتاب كلمة (لما) في موضعين ظنا سقوطها منهما ، وهما :

١ـ ص٢٠٠ (ليس يخفى أن جسدنا ليس مدفوعاً دفعاً ولا مجروراً جراً و[لما] كان كل مدفوع أو مجرور متحركاً لا محالة من داخل ، فالجسد إذن متحرك من داخل اضطراراً » وعلق الناشران بقولهما : هذه الكلمة [لما] ساقطة من الأصل .

٢ـ ص٢٠١ « وقد استبان أن النفس هي المحيية المحركة للجسد الذي هو الجوهر ، و[لما] كان كل محي محرك للجوهر جوهراً فالنفس إذن جوهر » اهـ والذي أرى أن الأصل في الموضعين أجود ، والكلام بحذف [لما] منهما يستقيم ويخلو من الركاكة . و[لما] هذه لا تصلح للتعليل على رغم شيوعها في عبارات الصحف والمحامين ، وإنما تقع ظرفاً أو حرفاً لغير التعليل . واستعمالها للتعليل خطأ حادث مهما تقدم به الزمان لا يتطاول إلى القرن الرابع عصر التوحيدي مؤلف كتاب (الإمتاع والمؤانسة) .

ولعل من المفيد أن يطرفنا باحث في أول شيوع هذا الخطأ في عصرنا أو العصر الذي قبله ، وفي أول النصوص التي حملت هذه الركاكة ونحوها مما يتطرق إلى عبارات بعض العلماء وأهل الأدب .

استدراك

أشير هنا مستدركاً سهواً وقع في سطر ٧ ص٣٧٥ من مجلة المجمع (السنة ١٦) : إلى أن كلمة (شعوذة) صحيحة فصيحة مثل شعبذة .

نسخة سادسة
من قصيدة الواعظ الأندلسي
(في مناقب السيدة عائشة)

تعقيب على القصيدة ، وأسبقية نشرها .
نشرته مجلة المجمع بدمشق المجلد ٤٩ الجزء الأول لعام ١٩٧٤ ص٦٥٨ـ٦٦١ .

في المجلد ٤٨ ص٧٤٧ من مجلة المجمع ، بحث مفيد عن هذه القصيدة للصديق البار العلامة عبد الله كنون في سلسلته (من أروع الشعر) ، وقد نشر القصيدة عن أربع نسخ وصفها[١] ، واستهل بحثه ، بقوله :

« هذه قصيدة أخرى من أروع الشعر وأبدعه ، الذي بقي منسياً **ولم يعرف طريقاً إلى النشر مطلقاً** ، وحتى كتب التراجم ودواوين الأدب المخطوطة بله المطبوعة لم تتضمنه ، ولا أشارت إليه فيما نعلم . . » .

والواقع أني نشرت هذه القصيدة في كتابي (عائشة والسياسة) الذي طبعتْهُ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٧ في ص٢٦٢[٢] ؛ وبين نشرتي لها ونشرة الأستاذ كنون خلاف يسير سأبيّنه بعد قليل .

أصل هذه النسخة مخطوط قديم هو ورقة واحدة عاثت فيها الأَرَضة وخطُّها سقيم لا يحل بسهولة ، من مخطوطات المكتبة العربية بدمشق ، أطلعني عليها الأستاذ أحمد عبيد[٣] أحد أصحاب المكتبة ، وزمن نسخها ـ في تقديره المئة الثامنة كما أشرت إليه في كتابي المذكور .

---

(١) وذكر نسخة خامسة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة لم يتيسر إطلاعه عليها .
(٢) تقابل ص٣١٥ في الطبعة الثالثة (بيروت ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م) .
(٣) شاعر محقق كتبي ، عالم بالمخطوطات ، مؤسس المكتبة العربية بدمشق . مات سنة ١٩٨٩م . إتمام الأعلام ص٥١ .

والقصيدة ـ كما قرر الأستاذ كنّون ـ من النوادر حقاً ، لم أكن رأيتها كاملة في مصدر ما على كثرة تنقيبي في السنين التي اشتغلت فيها بدراسة السيدة عائشة ؛ إلا أني أطلعت على بعض أبياتها في كتاب (المحاسن المجتمعة في الخلفاء الأربعة) لعبد الرحمن الصفوري (ـ٨٩٤هـ) ومنه مخطوطتان بدار الكتب الظاهرية بدمشق أرقامهما حينئذاك (سنة ١٩٤٣م) : (تاريخ ٨٢٨ ص٢٩) و(تاريخ ٤٤١ ص٦٠)[١] .

تبدأ نسختنا بسند القصيدة وفي أوله طمس جعل بعض كلماته غير مقروءة لقدم النسخة وبلاها ، وضعنا مكانها نقطاً[٢] وهذا هو :

« . . . . جماعة . . . . منهم ناصر الدين الكردي . . . . الحافظ شرف الدين الدمياطي قال : . . . . الحافظ شرف الدين الدمياطي قال : . . . . الإمام الحافظ رشيد الدين أبو الحسن يحيى بن أبي الحسن علي بن عبد الله القرشي قال :

أنشدني والدي أبو الحسن عليّ قراءة عليه وأنا أُسمع الناس قال : أنبأني الشيخ أبو الطاهر عبد المنعم بن موهوب المصري الواعظ قال : أنشدني أبو عمران موسى ابن محمد بن عبد الله الأندلسي الواعظ لنفسه في مدح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وأجازه الأفضل أمير الجيوش عليها بمئة دينار مصرية لما بلغته ، وهي هذه القصيدة : . . . إلخ » .

والنص الذي نشره الأستاذ كنون من النسخ الأربع سليم ، وإليك الفروق القليلة بين النشرتين :

١ـ هناك خلاف في ترتيب بعض الأبيات بين رقم ٣٣ ورقم ٤٤ في نشرة الأستاذ وترقيمه ، وترتيبها في نشرتنا : ٣٣ ، ٣٧ ، بيت ناقص في نشرته ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ .

---

(١) اقتنت دار الكتب الظاهرية بعد ذلك أربع نسخ أخرى منه . انظر (فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية : التاريخ وملحقاته ج٢ ص٤١٧عمل الأستاذ خالد الريان ـ دمشق ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م) .

(٢) فقدت الأصل الذي طبعت عنه ، وندمت على أني لم أطبع السند ، لكن الأصل المخطوط لا يزال في حوزة الأستاذ أحمد عبيد ومن ورقته نقلت ما أثبت الآن .

٢ـ البيت ١١ (والله خفرني) .

هو في نشرتي : (والله فضلني) .

٣ـ البيت ٢٥ (وجنى العنى) حتى تخلل بالعبا .

هو عندي : (وجفا الغنى) ولعله أرجح هنا .

٤ـ البيت ٢٦ (وتخللت معه ملائكة السما) .

هو عندي : (وتهللت بفم . . .) وما في نشرة الأستاذ أقرب إلى النسخ الخمس معاً .

٥ـ البيت ٢٩ (سبق الصحابة والقرابة للهدى) .

هو عندي (سبق الصحابة والقرابة للفدى) .

٦ـ البيت ٣٦ (حصرت قلوب الكافرين . . . .) .

هو عندي : (حصرت صدور الكافرين . . .) وهو المطابق للتعبير القرآني وكلام العرب .

٧ـ البيت ٤٢ (جمع الإله المسلمين على أبي) .

هو عندي : (جمع الإله المؤمنين على أبي) .

٨ـ البيت ٥٣ (إي والذي ذلت له الثقلان) .

هو عندي (إي والذي دانت له الثقلان) .

٩ـ أما البيت الذي سقط من نشرة الأستاذ أو من أصوله فموضعه قبل البيت ٣٤ وهذا هو :

أكــرم بــأربعــة أئمــة شــرعنــا   فهــمُ لبــاب البيــت كــالأركــان

بين الصحابة والقرابة . . . .

وللأستاذ كنون ـ أدام الله به النفع ـ أطيب التحية[1] .

---

(١) أعاد نشر هذه القصيدة الأستاذ علي حيدر النجاري في ص٤٥٣ من المجلد ٤٩ من مجلة المجمع ، نقلاً عن خط والده ؛ ولحداثة هذا النقل وعدم ذكر مصدره لم أستجز الموازنة بينه وبين ما اعتمد عليه الأستاذ كنون ، ولا نسخة الأستاذ أحمد عبيد القديمة المسندة . أما ما رآه الكاتب من احتمال نسبتها إلى ابن العديم فلم أستطع قبوله بحال . وتواتر الأصول الخطية مغربية ومشرقية على عزوها إلى أبي عمران موسى الواعظ الأندلسي ، وعدم ورود اعتراض ذي قيمة ، داعيان إلى الوثوق بالعزو المذكور .

قلت : ولتمام الفائدة أثبت (القصيدة الصدّيقية) كاملة عن المصدر المذكور لتكون بين يدي القارئ الكريم ، واستكمالاً للبركة والفضل :

١ ـ ما شأنُ أمّ المؤمنين وشاني ... هُدِي المحبُّ بها وضلَّ الشاني

٢ ـ إنّي أقولُ مبيّناً عن فضلها ... ومترجماً عن قولها بلساني

٣ ـ يا مُبغضي لا تأتِ قبر محمد ... البيتُ بيتي والمكان مكاني

٤ ـ إنّي خُصصْت على نساء محمد ... بصفات برٍّ تحتهن معاني

٥ ـ وسبقتُهن إلى الفضائل كلِّها ... فالسبقُ سبقي والعنان عناني

٦ ـ قُبِضَ النبيُّ ومات بين ترائبي ... فاليومُ يومي والزمان زماني

٧ ـ زوجي رسول الله لم أر غيره ... الله زوّجني به وحباني

٨ ـ أنا بكره العذرا وعندَ يساره ... وضجيعه في منزلي العمران

٩ ـ وأتاه جبريلُ الأمينُ بصورتي ... فأحبَّني المختارُ حين رآني

١٠ ـ وتكلَّم الله العظيم بحجتي ... وبراءتي في محكم القرآن

١١ ـ والله عظَّمني وعظَّم حرمتي ... وعلى لسان نبيّه برَّاني

١٢ ـ واللهُ في القرآن قد لعنَ الذي ... بعدَ البراءة بالقبيح رماني

١٣ ـ والله وبَّخ من أراد نقيصتي ... إفكاً وسبَّح نفسه في شاني

١٤ ـ إنّي لمحصَنةُ الإزارِ بريَّةٌ ... ودليلُ حسن براءتي إحصاني

١٥ ـ الله خصَّصني بخاتَمِ رُسْله ... وأذلَّ أهل الكفر والطغيان

١٦ ـ وسمعت وحي الله عند محمدٍ ... جبريلَ ذاك ونوره يغشاني

١٧ ـ أوحى إليه وكنتُ تحت ثيابه ... فحنا عليَّ بثوبه وحباني

١٨ ـ من ذا يفاخرني وينكرُ صُحبتي ... ومحمد في حجره ربَّاني ؟

١٩ ـ وأنا ابنةُ الصدّيق صاحبِ أحمدٍ ... وحبيبه في السرّ والإعلان

٢٠ ـ وأخذتُ عن أبويَّ دينَ محمدٍ ... وهما على الإسلام مصطحبان

٢١ ـ فالفخرُ فخري والخلافة في أبي ... حسبي بهذا مفخرٌ وكفاني=

=

٢٢ ـ وأبي أقامَ الدين بعد محمدٍ ... فالفضل فضلي والسنان سناني

٢٣ ـ نصرَ النَّبيَّ بماله وبنفسه ... وخروجه معه من الأوطان

٢٤ ـ ثانيه في الغار الذي سدَّ الكُوى ... بردائه أكرِمْ به من ثاني

٢٥ ـ وجفا الغنىٰ حتى تخلَّل بالعبا ... زهداً وأظعن أيَّما إظعان

٢٦ ـ وتحلَّلت معه ملائكة السما ... وأتته بُشرى اللهِ والرضوان

٢٧ ـ وهو الذي لم يخشَ لومةَ لائمٍ ... في قتل أهلِ الرجس والبهتان

٢٨ ـ قتل الذي منعوا الزَّكاةَ بجهلهم ... وأذلَّ أهلَ البَغْي والعدوان[1]

٢٩ ـ سبق الصحابة والقرابة بالهدى ... هو شيخهم في الفضل والإحسان

٣٠ ـ واللهِ ما سبقوا لمثل فضيلةٍ ... مثل استباق الخيل يوم رهان

٣١ ـ إلا وسارَ أبي إلى عليائها ... فمكانُه منها أجلُّ مكان

٣٢ ـ ويلٌ لعبدٍ خان آل محمد ... بعداوة الأرواح والأختان

٣٣ ـ طوبى لمن والىٰ جماعةَ صحبهم ... ويكون من أحبابه العُمَران

٣٤ ـ حبُّ البتول وبعلها لم يختلف ... عن ملَّة الإسلام فيه اثنان

٣٥ ـ أكرم بأربعةٍ أئمة شرعنا ... فهمُ لبيت الدين كالأركان

٣٦ ـ نُسجَتْ مودَّتُهم سدىً في لحمة ... فبناؤها من أثبت البنيان

٣٧ ـ رحماءُ بينهم صفَتْ أخلاقُهم ... وخلت قلوبهم من الشنآن

٣٨ ـ هم كالأصابع في اليدين تواصلت ... هل يستوي كفٌّ بغير بنان

٣٩ ـ الله ألَّف بين ودّ قلوبهم ... في بُغْض كل منافقٍ طعّان

٤٠ ـ ودخوله بين الأحبة كُلفةٌ ... وسبابهم سببٌ إلى الحرمان

٤١ ـ وإذا أراد الله نصرة عبده ... من ذا يطيق له على خذلان

٤٢ ـ جمع الإله المؤمنين على أبي ... واستُبدلوا من خوفهم بأمان

٤٣ ـ من حبّني فليجتنت من سبّني ... إن كان صانَ محبتي ورعاني

٤٤ ـ وإذا محبِّي قد ألمّ بمبغضي ... فكلاهما في بغضتي سيّان

٤٥ ـ إنّي لطيّبة خلقت لطيب ... ونساءُ أحمدَ أطيبُ النسوان

٤٦ ـ إنّي لأمُّ المؤمنين فمن أبى ... حبي فسوف يبوء بالخسران

٤٧ ـ والله حبّبني لقلب نبيّه ... وعلى الصراط المستقيم هداني

(١) كذا في النسخة . جاء في القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي أنّ اسم الموصول الذي يجمع على الذين والذي كالواحد .

=

=

٤٨ ـ والله يكـــرم مـــن أراد كـــرامتـــي ... ويُهيـــن ربّـــي مـــن أراد هـــوانـــي

٤٩ ـ والله أســـألـــه زيـــادةَ فضلـــه ... وحمـــدتـــه شكـــراً لمـــا أولانـــي

٥٠ ـ يـا مـن يلـوذ بـأهـل بيـتِ محمـدٍ ... يـــرجـــو بـــذلـــك رحمـــة الـــرحمـــن

٥١ ـ صـلْ أمّهـاتِ المـؤمنيـن ولا تَحِـدْ ... عنـــي فتسلـــبَ حلَّـــة الإيمـــان

٥٢ ـ خـذهـا إليـك فـإنمـا هـي روضـة ... محفـــوفـــة بـــالـــروح والـــريحـــان

٥٣ ـ صلَّـى الإلـه علـى النبـي وآلـه ... فبهـــم تنـــمُّ أزاهـــر البستـــان

رجاء

تعقيب على معنى (بيع السرار) الوارد في كتاب المرزوقي (الأزمنة والأمكنة)
مع التوجّه بالرجاء إلى علماء العربية والاستشراق لبيان الرأي في معنى (بيع السرار)
نشرته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ١٦ ، الجزء ٣ ، ٤ لعام ١٩٣٧م ص٣١٣ـ٣١٤

رجعت في معنى (السِّرار) الذي عدّه المرزوقي في كتابه (الأزمنة والأمكنة) من جملة بيوع العرب في الجاهلية إلى المعاجم الآتية :

١ـ تاج العروس (شرح القاموس) .

٢ـ لسان العرب لابن منظور .

٣ـ الصحاح للجوهري .

٤ـ المجمل لابن فارس (نسخة مخطوطة كاملة في المكتبة الظاهرية) .

٥ـ الجمهرة لابن دريد .

٦ـ الفائق للزمخشري .

٧ـ أساس البلاغة له أيضاً .

٨ـ النهاية لابن الأثير .

٩ـ المصباح المنير للفيومي .

١٠ـ المخصص لابن سيده .

١١ـ التهذيب للأزهري (نسخة مخطوطة في المكتبة الأحمدية بحلب) .

ثم تحرّيت في شروح الحديث وكتب الفقه ، مظنّة أن أجد فيها تعرضاً له في صدد كلام البيوع الفاسدة أو النهي عنها ، فلم أجد أحداً من أصحاب المراجع

المذكورة قد ذكر هذا الضّرب من البيع ، ولم يتعرض له غير صاحب محيط المحيط[1] (وقد روينا عبارته) ولم أهتد بعدُ إلى المصدر الذي استقى منه هذا التفسير .

فالمرجو من علماء العربية ممن عندهم معاجم مخطوطة أو مطبوعة إذا عثروا على النص الموثوق في ذكر (بيع السرار) أن يتكرّموا فيوافوني بالبيان الشافي عن طريق المجمع العلمي العربي بدمشق . ولهم الشكر الجزيل .

---

(١) بطرس البستاني ، ويقع في ٩٩٤ صفحة ، نشر في مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٧م .

أوليّة سوق عكاظ

تعقيب ردّ فيه أستاذنا على من وهم في تاريخ افتتاح سوق عكاظ .
نشرته مجلة الرسالة في العدد ٤٥٤ لعام ١٩٤٢ ص٣٣٧ .
وهو مبسوط في كتاب (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) .

ذكر الأستاذ « علي محمد حسن » في الرسالة الغراء (العدد ٤٥١) تصحيحاً لما في (دائرة معارف وجدي) إذْ جَعَلَت افتتاح عكاظ سنة ٥٤٠م ، قال في خاتمته : « وبعد ، فجمهرة الكتب على أنّ عكاظ قامت بعد الفيل بخمس عشرة سنة فتكون ثمة أقيمت سنة ٥٨٥ » .

والواقع أن جمهرة الكتب ذهبت إلى هذا ، إلاّ أنه لا يثبت على التحقيق ، بل إنّ سوق عكاظ ليرتفع تاريخها إلى ما قبل سنة ٥٠٠ ميلادية لهذه الأسباب :

١ـ أجمعت كتب السِّير على أن رسول الله حضر حرب الفجار بنفسه ، ويحدّد بعضها سنة إذْ ذاك مستنداً إلى الحديث : « كنتُ أُنبِّلُ على أعمامي يوم الفِجَار وأنا ابن أربع عشرة سنة »[1] . وحربُ الفجار كانت في عكاظ إبّان الموسم ، وذلك بعد عام الفيل بأربع عشرة سنة ، فكيف يقولون : إنّ عكاظ أقيمت بعد الفيل بخمس عشرة (انظر أسواق العرب ص١٤٦ فما بعد) .

٢ـ تزوج عبد شمس بن عبد مناف امرأة بعد أن طلقها زوجها لبيعها السّمن وراحلتين بخمر شربتها في عكاظ ، وهذا الحادث قبل عام الفيل بعقود السنين (أسواق العرب ص٢٩٠) .

٣ـ قالوا : إن عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة عاش حول سنة (٥٠٠م) ، وعمرو أنشد معلقته في عكاظ بالموسم ، فلا شكّ إذن في أن السوق كانت قبل هذا

---

(١) انظر السيرة لابن هشام ١/ ١٨٦ .

التاريخ بسنوات .

مما تقدم ولأسباب أخرى ظهرت لنا أن السوق أقيمت قبل التواريخ التي يذكرونها بأزمان ، وهي على أقل تقدير كانت قبل القرن السادس الميلادي . ومن أراد زيادة في التحقيق فليرجع إلى كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام)[1] ص٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ١٤٦ فما بعد .

---

(١) دمشق : المطبعة الهاشمية سنة ١٩٣٧م .

تبرئة القضاء العربي من وصمة

تعقيب على مقالة نشرت في الرسالة تصم القضاء العربي بأنه رجع إلى المنطق القبلي .
نشره الأستاذ في مجلة الرسالة ٤٥٠ لعام ١٩٤٢ ، ص٢٢٧ .

أورد صاحب مقال (التبعة والعقوبة في المجتمع البشري)[١] بقصة للحزين الدّيلي[٢] بَنَى عليها أحكاماً منها أَنَّ العرب « أقروا شهادة الحيوان أمام القضاء » ، وأَنَّ ذلك « بمثابة رجوع العربي إلى المنظور القبلي الذي كان يأخذ الحيوان بالتَّبعة » .

ومن الواجب ـ وللرسالة مكانتها وتحرّيها ـ أنْ أُنبِّه إلى أنّ الخبر الذي ذكره الفاضل نقلاً عن الأغاني مُحرَّف مُلفّق ، فلا صاحبُ الأغاني ذكره ولا غيرُه . وكلّ ما في الأغاني خبر صغير عن الحزين الدّيلي خلاصته : أنّ طائفاً[٣] وجدهُ سكرانَ فحبسه مع حماره إلى الصّباح ، ثمّ ضربه الحدّ وأطلقه والحمار . وأما بقية القصّة التي أوردها فممسوخ عن قصة أخرى تذكرها كتب النوادر لأحد المتماجنين لا علاقة لها البتة بالحزين الدّيلي[٤] . وفي القصتين لا ورود لذكر قاضٍ ولا لمجلس قضاء . وإذن يَنْهارُ كلّ ما بناه عليهما الكاتب من أحكام . وأرجو أن أفرغ لتفصيل هذا الإجمال .

---

(١) العدد ٤٤٥ من الرسالة الغراء ص٤٨ .

(٢) هو : عمرو بن عبيد بن وهيب بن مالك، ويكنى أبا الشعثاء ، شاعر أموي من الهجائين . انظر الأغاني ١٥/ ٣٢٣ .

(٣) هو : صفوان مولى آل مخرمة بن نوفل . المصدر نفسه ١٥/ ٣٣٠ .

(٤) قلت : ورد في الأصل : (الدّيلمي) . وأثبت ما في الأغاني ، فهو عربي : من الدّيل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . وليس ديلمياً من الفرس .

الشيخ محمد عياد الطنطاوي

(١٨١٠ـ١٨٦١م)

تعقيب على سؤال عن ترجمة لهذا الرائد المجهول .
نشره في مجلة الرسالة . العدد ٥٥٤ لعام ١٩٤٤ ، ص١٥٦ .

رجا فاضل في هذه المجلة (في العدد ٥٤٩) ممن يعثر على تاريخ هذا الرائد المجهول أن يدلي على صفحات الرسالة بالمصادر التي يمكن الرجوع إليها عنه .

وتلبية له أشير إلى أن المرحوم العلامة أحمد تيمور باشا قد عني بجمع أخباره وتسقطها زمناً ، وبذل في ذلك جهداً مشكوراً ، ثم نشر ما وصل إليه في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٤م (المجلد الرابع ص٣٨٨ـ٣٩١) .

ثم جاء المستشرق الروسي المعروف (أغناطيوس كراتشكوفسكي) من أكاديمية العلوم الروسية ، فاستدرك على تيمور باشا بعض استدراكات قصيرة جداً نشرها في المجلة المذكورة (ص٥٦٢ـ٥٦٤) من المجلد الرابع ، ذاكراً أن للفقيد ترجمة بقلمه ، وآثاراً علمية من تآليفه ، تحتفظ بها مكتبة الكلية في ليننغراد (بطرسبرغ) ، ولكنها بخط مؤلفها ، وأشار إلى مصادر عن حياته لا تخلو من فائدة ، كما صحح خطأ المستشرق هيار (Huart) في تأريخ وفاة الشيخ محمد عياد الطنطاوي رحمه الله[١] .

---

(١) قلت : له ترجمة في أعلام من الشرق والغرب ٣٠ـ٣٩ ، ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٤/ ٥٦٢ـ٥٦٤ أيضاً ، والأعلام للزركلي ٦/ ٣٢٠ .

تحقيق في نسبة حديث

تعقيب على نسبة حديث إلى النبي ﷺ وتصحيح لهذه النسبة .

نشرته مجلة الرسالة في العدد ٤٣١ ، لعام ١٩٤١ ، ص١٣٤٦ـ١٣٤٧ .

جاء في مقال غزوة حنين (العدد ٤١٧) من الرسالة : أن النبي ﷺ سئل عن الخوارج : « أكفارٌ هم أم منافقون » ؟ فأجاب : « من الكفر فرّوا . لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً » . فكتبت في العدد (٤٢٢) أستبعد نسبة هذا الكلام إليه ، وقطعت بأنه من كلام عليّ بن أبي طالب . فجاء الكاتب الفاضل صاحب المقال يسأل في العدد (٤٢٣) عن المصدر الذي نسب هذا القول إلى علي ، ويذكر أن مصدره هو : (السيرة الحلبية ج٣ ص١٤٠) . ويقول في ختام كلمته : « ليس هناك ما يمنع صحة هذه النسبة إلى النبي على سبيل القطع » .

فمن الخير أن نبين ما يمنع صحة هذه النسبة :

١ـ كانت نشأة الخوارج بعد وفاة النبي ﷺ بأكثر من ربع قرن ، وعرفوا بهذا الاسم لخروجهم على عليّ في حرب صفين .

٢ـ إذا جعلنا صدور هذا الكلام عن النبي من باب الإخبار بالمغيبات اعترضنا أمران : الأول أن الأحاديث المأثورة في هذا الباب تذكر صفات عامة ولا تسمي أشخاصاً ولا فرقاً بأسمائها .

والثاني : أن الصحابة الكرام لا علم لهم بالمغيبات ، فكيف وقع إليهم اسم (الخوارج) حتى يسألوا عنه . ونحن نعرف أحاديث كثيرة يجعلها المحدثون في باب الكلام على الخوارج ، إلا أنها جميعاً ليس فيها هذا الاسم ؛ حتى أن ابن عمر وغيره كانوا إذا سئلوا عن الخوارج (بعد سنة ٣٦هـ طبعاً) حدثوا بهذه الأحاديث التي فيها صفات قد تنطبق عليهم باجتهاد الراوي . وانظر في ذلك ما جاء في كتب

الحديث بدلالة (مفتاح كنوز السنة : الخوارج) في أكثر من عشرين موضعاً .

٣ـ هذا الكلام المنسوب إلى رسول الله ، المنقول من السيرة الحلبية يناقض ما قبله وما بعده فيها من الأحاديث الصحيحة كل المناقضة : فبينا يورد صاحب هذه السيرة (٧/ ١٤٠) أحاديث في كفرهم ووجوب قتالهم نرى هذا الكلام ينفي عنهم الكفر والنفاق صراحة .

٤ـ لو صح عن النبي شيء فيهم بصراحة ، ما وسع علياً أن يقول موصياً فيهم : « لا تقاتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأ كمن طلب الباطل فأدركه » ، ولو صح ذلك لما جاز لابن عباس أن يقول فيهم لعلي : « والله ما سيماهم بسيما المنافقين ، وإن بين أعينهم لأثر السجود وهم يتأولون » ، إنّما المعقول أن يستشهدا بما قال النبي ﷺ . ولو صح ذلك أيضاً لما جعلهم المحدثون (البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه) ممن تنطبق عليهم أحاديث المروق اجتهاداً منهم . أما سندي في عزو هذا الكلام إلى صاحبه علي بن أبي طالب فهو (العقد الفريد) وقد سهوت فذكرت الخوارج في العدد (٤٢٢) وإنما هو أصحاب الجمل ، ورأي علي في الخوارج هو هو نفسه في أصحاب الجمل على ما ذكرت لك آنفاً في وصيته فيهم . جاء في العقد الفريد :

« سئل علي عن أصحاب الجمل : « أمشركون هم ؟ » فقال : « من الشرك فروا » قال : « فمنافقون ؟ » قال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً » قال : « فما هم ؟ » قال : « إخواننا بغَوْا علينا »[1] .

ولعل أطرف الأشياء وأعجبها السند الجديد الذي أظفرني به السائل . إن سندي في نفي هذا الكلام عن النبي ﷺ هو السند نفسه الذي أحتج به في نسبته إليه ، وسأنقل الفقرة نفسها مع ما قبلها ليتبين الحق على وجهه . جاء في السيرة الحلبية (ج٣ ص١٢٠) ما نصه : « وقد قاتلهم (يعني الخوارج) عليٌّ كرم الله وجهه ، وقد سئل ﷺ عن الخوارج « أهم كفار » فقال : « من الكفر فروا » فقيل : « أمنافقون ؟ » قال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً » فقيل : « ما

---

(١) انظر العقد الفريد تح أحمد أمين ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ج٤/ ٣٣٠ .

هم ؟ » فقال : أصابتهم فتنة فسموا وصموا ، فلم يجعلهم ﷺ كفاراً لأنهم تعلقوا بضربٍ من التأويل .

ألا يرى معي الكاتب الفاضل والقراء الكرام أن (ﷺ) الواردة بعد (سئل) وبعد يجعلهم يجوز أن تكون خطأ من ناسخ أو طابع ، وأن الكلام يستقيم بدونها ويتجه إلى الصواب ، فيكون من كلام علي ، ويطابق ما جاء في المصادر الصحيحة كلها . وذلك من أغرب ما يوقع به سهو أو خطأ .

وسيبقى هذا خطأ حتى يثبت بطريق صحيح نسبته إلى النبي ﷺ .

خطأ في رواية حديث

تعقيب وتبكيت ، إذ أخطأ الأب الكرملي في رواية حديث .
نشرته مجلة الرسالة العدد ٤٩٣ ، لعام ١٩٤٢ ص١١٥١ .

زعم الأب أنستاس ماري الكرملي في دفاعه أنه يتأثر أحسن من نطق باللغة المضرية . . . إلخ ثم قال :

فقد قال : « ارجعن مأجورات غير مأزورات » مع ما في مأجورات من الغلط في نظر بعض حمقى اللغويين

فيا أيها الأب أنستاس ماري الكرملي عضو مجمع . . . إلخ :

١ـ الحديث الذي نقلته خطأ ، فقد قلبت المعنى واللفظ رأساً على عقب . ولفظه كما لا يخفى على أحد هو هذا : « فارجعْنَ مأزوراتٍ غير مأجورات »[1] .

٢ـ ثم قلت : « مع ما في مأجورات من الغلط في نظر بعض حمقى اللغويين ! ! » .

والعدول عن القياس ـ وحضرتك تسميه بالغلط ـ ليس في (مأجورات) كما زعمت إذ هي اسم مفعول من الأجر ؛ ولكنه في (مأزورات) لأنها من الوزر ، فالقياس : (موزورات) فاقتضى الذوق والجرس الحسن العدول عن المقيس لإتباعها (مأجورات) .

٣ـ « لو كسرت يراعتك المرضوضة ، وألقيت بها في التنور ، وبقيت ساكتاً إلى أن يفيض التنور ، لكان ذلك أحسن لك ! وأنصحك نصيحة لله : ألا تكتب كلمة قبل أن تتدبرها كل التدبر ، ثم تعرضها على أصدقائك ، ثم تتأملها ثانية ، وتعرضها على أعدائك ، وحينئذ ابعث بها إلى أصحاب الجرائد والمجلات . وإلا فمثل هذه

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ٣/ ٢١٧ . وهو قطعة من حديث أنس رضي الله عنه .

الخربشة والخربقة لا ترفع قدرك ، ولا تبقي لك أثراً طيباً! » .

قلنا ولم يصدق الأب إلا في هذه الكلمة بشرط أن يوجهها إلى من يتخبط في سطر واحد هذه التخبطات الشائنة الشوهاء وله فائق احتراماتي .

تعقيبان

الأول : عن تحديد موقع سوق عكاظ .
والثاني : عن حقيقة موقف د . طه حسين الأخير من الشعر الجاهلي .
نشرتهما مجلة العربي في العدد ٢٣٩ ، لعام ١٩٧٨ .

١ـ قرأت في العدد ٢٣٤ (مايو ١٩٧٨) استطلاعاً عنوانه (البحث عن مواقع التاريخ تحت رمال الجزيرة العربية) وفيه كلام عن سوق عكاظ جاء فيه ص٧٤ :

« ومن أول المحدثين الذين سعوا إلى تحقيق موقعها وتاريخها الدكتور عبد الوهاب عزام في مؤلفه عكاظ ، ثم ما ذكره محمد حسين هيكل في كتابه (في منزل الوحي) ، وتتابعت المحاولات فأصدر النادي الأدبي بالطائف مؤلفاً عن السوق وتبعهم سعيد الأفغاني في كتابه (أسواق العرب) . . » .

والذي وقع عكس هذا الترتيب ، فقد كان كتابي (أسواق العرب) أول ما صدر ، فطبعته الأولى صدرت في سنة ١٩٣٧م ، وأهديت نسخة منها إلى كل من محمد حسين هيكل وعبد الوهاب عزام رحمهما الله ، وبعد سنة صدر كتاب محمد حسين هيكل (في منزل الوحي) وكان واجباً أن يشير إلى كتابي المذكور الذي حاولت فيه تحديد موقع السوق وذكرت آراء المحدثين والقدماء » . كان كتابي إذن هو الرائد قبل كتاب الدكتور هيكل .

وقبل (عكاظ) الدكتور عزام بسنوات اجتهد ابن بليهد ـ رحمه الله ـ في تحديد موقع السوق ، وكذلك المرحوم خير الدين الزركلي في كتابه (ما رأيت وما سمعت) ، ثم البحاثة حمد الجاسر .

وصدور كتاب الدكتور هيكل كان بين الطبعة الأولى والطبعة الثانية من كتابي (أسواق العرب) ، وكان ما ذهب إليه في تحديد السوق خطأ أشرت إليه في الطبعة الثانية ص(٢٨٦) ببعض تفصيل ، ونصصت على ما انتهى إليه باحثون قبلي هم ابن

بليهد ورشدي ملحس والأمير فيصل بن عبد العزيز (الملك فيصل الأول فيما بعد رحم الله الجميع) .

أما كتاب شباب النادي الأدبي بالطائف الذي أشار إليه الكاتب فقد سمعت به أخيراً ، ولم أطلع عليه مع الأسف ، وهو على كل حال متأخر عن كل ما تقدم وأتوقع أن يكون شافياً في الموضوع . وأشير هنا إلى أن آخر ما وصل إليَّ عن عكاظ كتاب الدكتور ناصر بن سعد الرشيد (سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام : تاريخه ونشاطاته وموقعه) ـ ١٩٧٧ عن دار الأنصار بالقاهرة .

٢ـ في العدد نفسه من (العربي) مقال عنوانه (عندما تحدث طه حسين عن كتبه) نسب إليَّ صاحبه رواية عن الدكتور الحوفي (أن العميد (طه حسين) لم يرجع عن رأيه في هذا الموضوع (الانتحال في الشعر الجاهلي) وهو عكس ما قررته ، فقد جاء في العدد الذي أشار إليه (يناير ١٩٧٧) ص٨٧ أن الدكتور الحوفي « أدى شهادة بأن طه حسين رجع عن نظريته في انتحال الشعر الجاهلي » .

ومن حق القراء ـ وقد فهم بعضهم من الجملة عكس ما تفيد ـ أن أنقل إليهم كلمات الدكتور الحوفي من محضر الجلسة الرابعة لمؤتمر الدورة الحادية والأربعين المعقودة بتاريخ ٢٧/ ٢/ ١٩٧٥ ، فقد عقب الدكتور الحوفي على محاضرة الدكتور محمد خلف الله أحمد (رحلة طه حسين في الشعر العربي) بما يلي :

« هذا البحث القيم أوحى إلي الآن ، ولعله أوحى إلى كثير منكم بهذاالسؤال : (ماذا كان موقف المرحوم الدكتور طه حسين أخيراً من الشعر الجاهلي ؟ لماذا عدل كتابه الأول (في الشعر الجاهلي) إلى كتاب آخر هو (في الأدب الجاهلي) ؟ ثم لماذا لم يعدل عن رأيه في إنكار الشعر الجاهلي وجعل يدرسه بعد ذلك فيما سماه مدرسة أوس بن حجر ؟ أشهد أمام حضراتكم أنني سمعت من المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى سنة ١٩٥٠ بعد أن قدم له (طه حسين) مؤلفات تتصل بالحياة العربية من الشعر الجاهلي مصورة للحياة الدينية والاقتصادية وغيرها ، التي يتطلبها الدكتور طه حسين من الشعر الجاهلي ، قال الدكتور طه حسين للأستاذ إبراهيم مصطفى : « ما كنت أعلم هذا كله » فقال له الأستاذ إبراهيم مصطفى : « لماذا لا

تعلن رجوعك عن آرائك ؟ » فابتسم وقال له : « لا ، لا ، لا » محاضر مؤتمر الدورة الحادية والأربعين ١٩٧٦ ص٢٦١ .

لقد رجع طه حسين عن رأيه ذلك ، لكنه رفض الإعلان عن رجوعه حينئذ ، ولعله كان يأمل الإعلان عنه بعد تراخي الزمن ونفاد الطبعة رحمة بالناشر ، فحال الأجل دون الأمل .

هذا ما رأيت واجباً بيانه تصحيحاً للخطأ وإقراراً للحقيقة ووفاء للتاريخ[١] .

---

(١) تقدّم البحث في هذا الخلاف في كتاب أدب وأدباء تحت عنوان (إنصافاً لطه حسين) .

الخاتمة

عزيزي القارئ !

هذا غاية ما وصلت إليه ، وقصارى ما جمعته من بحوثٍ ومقالات وتقاريظ وأحاديث مذاعة لشيخنا وأستاذنا العلاّمة محمد سعيد الأفغاني ـ رحمه الله ـ .

اشترتُها من مواضعها ، ثم جلست أصفّي ، وأنسّق ، وأضم ما تشابه منها بعضه إلى بعض ، مع مراعاة الإشارة إلى موضوع كل منها ، ومناسبته ، وتاريخ نشره أو بثه .

ولا أزعم أني استغرقت كل ما أبدع وألف ، أو خطب أو أذاع ، ومن أين لي ادّعاء ذلك ، وأستاذنا ينبوع يتدفق ، دائم الجريان ، له قلم يسيل بكل نافع ومفيد ، وكان إلى ذلك رحالة لا يستقرّ به مكان إلاّ ريثما يزمع على سفر جديد . فمن المنابر إلى المحابر ، ومن الصحف إلى المجلات ، ومن التلفاز إلى الأثير . أما ما أجزم به أنني ما وقعت على قصاصةٍ تنسب إليه إلاّ واحتفلت بها وضننت بها ضنّ الشحيح بماله ، فأوليتها من العناية والرعاية ما يليق بها ، ثم ضممتها إلى أخواتها . فكانت أخيراً هذه الإضمامة البديعة . التي أسأل الله أن ينفع بجمالها وعبقها أجيال اليوم والمستقبل ، عسىٰ أن يكون في ذلك حافزٌ من أجل النهوض من الكبوة ، والسير على الصراط حتى يتحقق الهدف . إنه خير مسؤول .

وإن شكري وعرفاني موصولان لكل من أهدىٰ إليَّ عيباً ، أو أسدى إلي بنصيحة . والكمال لله وحده .

والحمد لله أولاً وآخراً .

فهرس الأعلام

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

* *

فهرس الموضوعات

مقالات أستاذنا سعيد الأفغاني لم تأتِ كالمقالاتِ التي تشعرُ وأَنتَ تقرؤها أنها كُتِبتْ شهوةٍ في الكتابة ، بل جاءت معبِّرةً عن آرائه في كثيرٍ من الموضوعات ، وفيها الكثيرُ من النافعِ المفيدِ .

فلقد كان رحمه الله صاحبَ نظراتٍ في النحو ومسائلِهِ ، وفي كثيرٍ من الرجالِ والشخصيات التاريخية ، التي عاصرها وعرفها ، وفي الحياة الاجتماعية .

ولقد قرأتُ فيها ما لم أقرأْهُ في كتبه ، وقرأتُ فيها بعضَ ما كان يُشيرُ إليه في دروسِه إشاراتٍ عابرةٍ ، كأنّه لا يرى أنّ الدرسَ يتّسعُ وقتُه وجوُّه لذلك .

وقد كان من نعمةِ اللهِ على أستاذِنا الأفغاني أنْ رُزقَ ابنةً واعيةً بارةً ، قامت بعد وفاته بواجب الوفاء نحو آثارِه ـ وقد رأت جزاها الله خيراً ـ أن تجمع مقالاتِ أبيها وبحوثه ومحاضراته ، وتُوْكِلُ إلى الأستاذ حسن إسماعيل مَرْوَة أمرَ تصنيفها والإشراف على طباعتها وإخراجها .

وحسبُ هذا الكتاب أنّه سيذيعُ مجدّداً كثيراً من آراءِ الأستاذ الأفغاني في النحو وأصوله ، وفي الرجال ، والتاريخ ، والاجتماع .

وحسبُ هذا الكتاب أنّه إذا لم يحطْ بجميع آثارِ الأستاذ الأفغاني فقد أحاطَ بمعظمها .

وحسبُ ابنةُ أستاذنا أنّها واصلت رسالةَ أبيها ـ رحمه الله ـ فجزاها الله عن أبيها وعن العلم خيراً .

وإذا كان الأستاذ حسن مَرْوَة قد فاته شيءٌ من آثار أستاذنا ، فما ذلك إلاّ لبعد المدى الذي انتشرت فيه تلك الآثار زماناً ومكاناً ، ولكن حسبه أنه بذل جهده .

د . مازن المبارك



دمشق ـ ص.ب ٤٩٢٦ ـ هاتف ٢٣١٦٦٦٨ - ٢٣١٦٦٦٩ ـ فاكس ٢٣١٦١٩٦
www.daralbashaer.net

